مقدمة

العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى درر المعاني ... وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني ... فإن البحر كل الدر فيه

روجعت هذه الطبعة بمعرفة لجنة من الجامعيين

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

مقدمة

العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى درر المعاني ... وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني ... فإن البحر كل الدر فيه

روجعت هذه الطبعة بمعرفة لجنة من الجامعيين

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

الجزء الأول

من

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في

أيام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن بن خلدون

المغربي

بسم الله الرحمن الرحيم

يَقُولُ ٱلْعَبْدُ ٱلْفَقِيرُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْغَنِيُّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ خَلْدُونَ ٱلْحَضْرَمِيُّ وَفَّقَهُ ٱللهُ ٠

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْعِزَّةُ وَٱلْجَبَرُوتُ * وَبِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَٱلْمَلَكُوتُ * وَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى وَٱلنُّعُوتُ * أَلْعَالِمِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ ٱلنَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ ٱلسُّكُوتُ * أَلْقَادِرِ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ نَسَماً ، وَٱسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأُمَماً وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقِسَماً ، تُكِنُّنَا ٱلْأَرْحَامُ وَٱلْبُيُوتُ * وَيَكْفُلُنَا ٱلرِّزْقُ وَٱلْقُوتُ * وَتُبْلِينَا ٱلْأَيَّامُ وَٱلْوُقُوتُ ، وَتَعْتَوِرُنَا ٱلْآجَالُ ٱلَّتِي خَطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا ٱلْمَوْقُوتُ وَلَهُ ٱلْبَقَاءُ وَٱلثُّبُوتُ * وَهُوَ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ * وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْمَكْتُوبِ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ ٱلْمَنْعُوتِ * ٱلَّذِي تَمَخَّضَ لِفِصَالِهِ ٱلْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ ٱلْآحَادُ وَٱلسُّبُوتُ * وَيَتَبَايَنَ زُحَلُ وَٱلْيَهْمُوتُ[1] * وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ٱلَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ٱلْأَثَرُ ٱلْبَعِيدُ وَٱلصِّيتُ ، وَٱلشَّمْلُ ٱلْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدُوِّهِمِ ٱلشَّمْلُ ٱلشَّتِيتُ * صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا ٱتَّصَلَ بِٱلْإِسْلَامِ جَدُّهُ ٱلْمَبْخُوتُ * وَٱنْقَطَعَ بِٱلْكُفْرِ حَبْلُهُ ٱلْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمَ كَثِيراً .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَدَاوَلُهُ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ * وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارٍ

(١) قوله اليهموت هو النون اي الحوت التي على ظهره الارض السابعة ويسمى ايضاً لوتيا كما في الزهر وروح البيان واللهجة ومعلوم ان بينه وبين زحل التي هو في الفلك السابع بوناً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي اه في اول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء وما اشتهر من انه بالباء الموحــدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشى ومثله في روح البيان قاله نصر الهوريني اقره المصحح الثاني .

عن الأيام والدول * والسوابق من القرون الأُوَل * تنمو فيها الأقوال * وتُضرب فيها الأمثال * وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال * وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال * واتسع للدول فيها النطاق والمجال * وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال * وحان منهم الزوال * وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومباديها دقيق * وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق * وجدير بأن يعد في علومها وخليق * وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها * وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها * وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها * وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها * وأدوها إلينا كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها * ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح في الغالب كليل * والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل * والتقليد عريق في الآدميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض طويل * ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه * والناقل إنما هو يملي وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل * والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل

هذا وقد دوّن الناس في الأخبار وأكثروا * وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة المعتبرة * واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن إسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير * المتميزين عن الجماهير * وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم * واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم * والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار * وتحمل عليها الروايات

والآثار * ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك * وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم * والأمر العمم * كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد * فقيد شوارد عصره * واستوعب أخبار أفقه وقطره * واقتصر على تاريخ دولته ومصره * كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرفيق مؤرخ أفريقية والدولة التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد * وبليد الطبع والعقل أو متبلد * ينسج على ذلك المنوال * ويحتذي منه بالمثال * ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال * واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال * فيجلبون الأخبار عن الدول * وحكايات الوقائع في العصور الأول * صورا قد تجردت عن موادها * وصفاحا انتضيت من أغمادها * ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها * إنما هي حوادث لم تعلم أصولها * وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها * يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها * اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها * ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها * بما أعوز عليهم من ترجمانها * فتستعجم صحفهم عن بيانها * ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا * محافظين على نقلها وهما أو صدقا * لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها * وأظهر من آيتها * ولا علة الوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها * مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها * باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها * حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار * وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والأنصار * مقطوعة عن الأنساب والأخبار * موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار * كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل * ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل * وليس يعتبر لهؤلاء مقال * ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد

ولما طالعت كتب القوم * وسبرت غور الأمس واليوم * نبهت عين القريحة من

سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلنَّوْمِ * وَسِمْتُ ٱلتَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا ٱلْمُفْلِسُ أَحْسِنُ ٱلسَّوْمَ * فَأَنْشَأْتُ فِي ٱلتَّارِيخِ كِتَابًا * رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلنَّاشِئَةِ مِنَ ٱلْأَجْيَالِ حِجَابًا * وَفَصَّلْتُهُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَٱلِٱعْتِبَارِ بَابًا بَابًا * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْعُمْرَانِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا * وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّذِينَ عَمَرُوا ٱلْمَغْرِبَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ ٱلضَّوَاحِي مِنْهُ وَٱلْأَمْصَارِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلطِّوَالِ أَوِ ٱلْقِصَارِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَنْصَارِ * وَهُمَا ٱلْعَرَبُ وَٱلْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا ٱلْجِيلَانِ ٱللَّذَانِ عُرِفَ بِٱلْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا * حَتَّى لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا * فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيبًا * وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا * وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ مَسْلَكًا غَرِيبًا * وَٱخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوبًا * وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مَا يُمَتِّعُكَ بِعِلَلِ ٱلْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا * وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ ٱلدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ ٱلتَّقْلِيدِ يَدَكَ * وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ

أَلْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ ٱلتَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَٱلْإِلْمَاعِ بِمَغَالِطِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ

أَلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلْعُلُومِ وَمَا لِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلَلِ وَٱلْأَسْبَابِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّانِي فِي أَخْبَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَإِ ٱلْخَلِيقَةِ إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ ٱلْإِلْمَاعِ بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَشَاهِيرِ وَدُوَلِهِمْ مِثْلِ ٱلنَّبَطِ وَٱلسُّرْيَانِيِّينَ وَٱلْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَٱلْقِبْطِ وَٱلْيُونَانِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ فِي أَخْبَارِ ٱلْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتَةَ وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَمَا كَانَ بِدِيَارِ ٱلْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتِ ٱلرِّحْلَةُ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ لِٱجْتِنَاءِ أَنْوَارِهِ * وَقَضَاءِ ٱلْفَرْضِ وَٱلسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ * وَٱلْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَاوِينِهِ وَأَسْفَارِهِ * فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِتِلْكَ ٱلدِّيَارِ * وَدُوَلِ ٱلتُّرْكِ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ * وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ ٱلْأَسْطَارِ * وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ ٱلْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ ٱلنَّوَاحِي * وَمُلُوكِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلضَّوَاحِي * سَالِكًا سَبِيلَ

ٱلْاخْتِصَارِ وَٱلتَّلْخِيصِ * مُقْتَدِياً بِٱلْمَرَامِ ٱلسَّهْلِ مِنَ ٱلْعَوِيصِ * دَاخِلاً مِنْ بَابِ ٱلْأَسْبَابِ عَلَى ٱلْعُمُومِ إِلَى ٱلْإِخْبَارِ عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ ٱلْخَلِيقَةِ ٱسْتِيعَاباً * وَذَلَّلَ مِنَ ٱلْحِكَمِ ٱلنَّافِرَةِ صِعَاباً * وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ ٱلدُّوَلِ عِلَلاً وَأَسْبَاباً * فَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِوَاناً * وَلِلتَّارِيخِ جِرَاباً

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى أَخْبَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ * مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ وَٱلْوَبَرِ * وَٱلْإِلْمَاعِ بِمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلْكُبَرِ * وَأَفْصَحَ بِٱلذِّكْرَى وَٱلْعِبَرِ * فِي مُبْتَدَإِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْخَبَرِ * سَمَّيْتُهُ كِتَابَ ٱلْعِبَرِ * وَدِيوَانَ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ * فِي أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ وَٱلْبَرْبَرِ * وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي ٱلسُّلْطَانِ ٱلْأَكْبَرِ * وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئاً فِي أَوَّلِيَّةِ ٱلْأَجْيَالِ وَٱلدُّوَلِ * وَتَعَاصُرِ ٱلْأُمَمِ ٱلْأُوَلِ * وَأَسْبَابِ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلْحِوَلِ * فِي ٱلْقُرُونِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْمِلَلِ * وَمَا يَعْرِضُ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ * وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ * وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ * وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ * وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ * وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ * وَأَحْوَالٍ مُتَقَلِّبَةٍ مُشَاعَةٍ * وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ * وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ * إِلَّا وَٱسْتَوْعَبْتُ جُمَلَهُ * وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ * فَجَاءَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ فَذّاً بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْغَرِيبَةِ * وَٱلْحِكَمِ ٱلْمَحْجُوبَةِ ٱلْقَرِيبَةِ * وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِٱلْقُصُورِ * بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُصُورِ * مُعْتَرِفٌ بِٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْمَضَاءِ * فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْقَضَاءِ * رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْيَدِ ٱلْبَيْضَاءِ * وَٱلْمَعَارِفِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْفَضَاءِ * فِي ٱلنَّظَرِ بِعَيْنِ ٱلْٱنْتِقَادِ لَا بِعَيْنِ ٱلْٱرْتِضَاءِ * وَٱلتَّغَمُّدِ لِمَا يَعْثُرُونَ عَلَيْهِ بِٱلْإِصْلَاحِ وَٱلْإِغْضَاءِ * فَٱلْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ مُزْجَاةٌ * وَٱلْٱعْتِرَافُ مِنَ ٱللَّوْمِ مَنْجَاةٌ * وَٱلْحُسْنَى مِنَ ٱلْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ * وَٱللّٰهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِوَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

وَبَعْدَ أَنِ ٱسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ * وَأَنَرْتُ مِشْكَاتَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ سِرَاجَهُ * وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ ٱلْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ * وَأَوْسَعْتُ فِي فَضَاءِ ٱلْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدَرْتُ سِيَاجَهُ * أَتْحَفْتُ بِهٰذِهِ ٱلنُّسْخَةِ مِنْهُ [1] خِزَانَةَ مَوْلَانَا ٱلسُّلْطَانِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمُجَاهِدِ * ٱلْفَاتِحِ

(١) قوله اتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله اتحفت وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمست له الكف الذي يلح بعين الاستبصار فنونه . ويلحظ بمداركه المريفة معياره الصحيح وقانونه. وعيز رتبته في المعارف عما دونه. فسرحت فكري في فضا الوجود. واجلت نظري ليل التمام والهجود . بين التهائم والنجود . في العلماء الركع والسجود . والخلفاء اهل الكرم والجود حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الامال . وظفرت ايدي المساعي والاعمال

ٱلمَاهِدِ * ٱلمتحلي مُنذُ خلع ٱلتَّمَائِمِ * وَلَوثُ ٱلعَمَائِمِ * بِحِلَى ٱلقَانِتِ ٱلزَّاهِدِ * ٱلـمُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ ٱلمَنَاقِبِ وَٱلمَحَامِدِ * وَكَرَمِ ٱلشَّمَائِلِ وَٱلشَّوَاهِدِ * بِأَجمَلَ مِنَ ٱلقَلَائِدِ * فِي نُحُورِ ٱلوَلَائِدِ * ٱلمُتَنَاوِلِ بِٱلعَزمِ ٱلقَوِيِّ ٱلسَّاعِدِ * وَٱلجِدِّ ٱلمُوَاتِي ٱلمُسَاعِدِ * وَٱلمَجدِ ٱلطَّارِفِ وَٱلتَّالِدِ * ذَوَائِبَ مُلكِهِمِ ٱلرَّاسِي ٱلقَوَاعِدِ * ٱلكَرِيمِ ٱلمَعَالِي وَٱلمَصَاعِدِ * جَامِعِ أَشتَاتِ ٱلعُلُومِ وَٱلأَوَابِدِ * وَنَاظِمِ شَملِ ٱلمَعَارِفِ وَٱلشَّوَارِدِ * وَمُظهِرِ ٱلآيَاتِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ * فِي فَضلِ ٱلمَدَارِكِ ٱلإِنسَانِيَّةِ * بِفِكرِهِ ٱلثَّاقِبِ ٱلنَّاقِدِ * وَرَأيِهِ ٱلصَّحِيحِ ٱلمَعَاقِدِ * ٱلنَّيِّرِ ٱلمَذَاهِبِ وَٱلعَقَائِدِ * نُورِ ٱللهِ ٱلوَاضِحِ ٱلمَرَاشِدِ * وَنِعمَتِهِ ٱلعَذبَةِ ٱلمَوَارِدِ * وَلُطفِهِ ٱلكَامِنِ بِٱلمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ * وَرَحمَتِهِ ٱلكَرِيمَةِ ٱلمَقَالِدِ * ٱلَّتِي وَسِعَت صَلَاحَ ٱلزَّمَانِ ٱلفَاسِدِ * وَٱستِقَامَةَ ٱلمَائِدِ مِنَ ٱلأَحوَالِ وَٱلعَوَائِدِ * وَذَهَبَت بِٱلخُطُوبِ ٱلأَوَابِدِ * وَخَلَعَت عَلَى ٱلزَّمَانِ رَونَقَ ٱلشَّبَابِ ٱلعَائِدِ * وَحُجَّتِهِ ٱلَّتِي لَا يُبطِلُهَا إِنكَارُ ٱلجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ ٱلمُعَانِدِ * (أَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ) أَبِي فَارِسٍ عَبدِ ٱلعَزِيزِ ٱبنِ مَولَانَا ٱلسُّلطَانِ ٱلمُعَظَّمِ ٱلشَّهِيرِ ٱلشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبرٰهِيمَ ٱبنِ مَولَانَا ٱلسُّلطَانِ ٱلمُقَدَّسِ أَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ * أَبِي ٱلحَسَنِ ٱبنِ ٱلسَّادَةِ ٱلأَعلَامِ مِن مُلُوكِ بَنِي مَرِينَ * ٱلَّذِينَ جَدَّدُوا ٱلدِّينَ * وَنَهَجُوا ٱلسَّبِيلَ لِلمُهتَدِينَ * وَمَحَوا آثَارَ ٱلبُغَاةِ ٱلمُفسِدِينَ * أَفَاءَ ٱللهُ عَلَى ٱلأُمَّةِ ظِلَالَهُ * وَبَلَّغَهُ فِي نَصرِ دَعوَةِ ٱلإِسلَامِ آمَالَهُ * وَبَعَثتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمِ ٱلمُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ ٱلعِلمِ بِجَامِعِ ٱلقَرَوِيِّينَ مِن مَدِينَةِ فَاسَ حَاضِرَةِ مُلكِهِم وَكُرسِيِّ سُلطَانِهِم * حَيثُ مَقَرُّ ٱلهُدَى * وَرِيَاضُ ٱلمَعَارِفِ خَضِلَةُ ٱلنَّدَى * وَفَضَاءُ ٱلأَسرَارِ

عنتدي المعارف مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانحت مطي الافكار في عرصاتها* وجلوت محاسن الانظار على منصاتها. واتحفت بديوانها مقاصير ابوابها. واطلعته كوكباً وقاداً في افق خزائنها وصوانهـــا . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره : ويعرفون فضل المدارك لانسانية في اثاره . وهي خزانة مولانا السلطان المجاهد . الفاتح الماهد الى آخر النعوت المذكورة هنـا. ثم قال الخليفة امير المؤمنين المتوكل على رب العــالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس ابي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين . ابي يحيي ابي بكر ابن الخلفـــاء الراشدين . من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين . ونهجوا السبل للمهتدين . ومحوا أثار البغـــاة المفسدين من المجسمة والمعتدين . سلالة ابي الحفص والفـــاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتلالي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته مودعها الى العلي بحيث مقر الهـــدى . ورياض المعارف خضلة الندى. الى آخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ .

ٱلرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ ٱلْمَدَى * وَٱلْإِمَامَةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ[1] ٱلْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ بِنَظَرِهَا ٱلشَّرِيفِ* وَفَضْلِهَا ٱلْغَنِيِّ عَنِ ٱلتَّعْرِيفِ* تَبْسُطُ لَهُ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ مِهَادًا* وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ ٱلْقَبُولِ آمَادًا* فَتُوضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا* فَفِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ ٱلْكُتَّابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تَعْكُفُ رَكَائِبُ ٱلْعُلُومِ وَٱلْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا ٱلْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ ٱلْقَرَائِحِ وَٱلْأَلْبَابِ* وَٱللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ ٱلْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا* وَيَجْعَلُنَا مِنَ ٱلسَّابِقِينَ فِي مَيْدَانِهَا ٱلْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا * وَمَا أَوَى مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا * لَبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا * وَهُوَ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وِجْهَتِهَا * بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ ٱلْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها

إِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَوَائِدِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ . وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلِٱقْتِدَاءِ فِي ذَٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ مِنَ ٱلْمَغَالِطِ فِي ٱلْحِكَايَاتِ وَٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس المتقدم ذكره اه

وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ وَلَا سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ وَهٰذَا كَمَا نَقَلَ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي ٱلتِّيهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ خَاصَّةً مِنِ ٱبْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذٰلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ مِنَ ٱلْجُيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ ٱلْحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوَظَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا تَشْهَدُ بِذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلْمَعْرُوفَةُ وَٱلْأَحْوَالُ ٱلْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْجُيُوشِ ٱلْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِضِيقِ سَاحَةِ ٱلْأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدِهَا إِذَا ٱصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى ٱلْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزْيَدَ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هٰذَانِ ٱلْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ ٱلصَّفَّيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَٱلْحَاضِرُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ فَٱلْمَاضِي أَشْبَهُ بِٱلْآتِي مِنَ ٱلْمَاءِ بِٱلْمَاءِ . وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ ٱلْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتُنَصَّرَ لَهُمْ وَٱلْتِهَامِهِ بِلَادَهُمْ وَٱسْتِيلَائِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قَاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ تُخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِٱلْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَٱلْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ ٱلْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِٱلْقَادِسِيَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَٱلزُّهْرِيِّ فَإِنَّ جُمُوعَ رُسْتُمَ ٱلَّذِينَ زَحَفَ بِهِمْ سَعْدٌ بِٱلْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَٱنْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ ٱلْعِمَالَاتِ وَٱلْمَمَالِكَ فِي ٱلدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَامِيَةِ وَٱلْقَبِيلِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسْبَمَا نُبَيِّنُ فِي فَصْلِ ٱلْمَمَالِكِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ ٱلْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ مِنَ ٱلشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ ٱلْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَأَيْضًا فَٱلَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهُرَ

بن قاهت بفتح الهاء وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن يشا بن عوفيذ. ويقال ابن عوفذ ابن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناذب ويقال حميناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن بارص ويقال بيرص بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم وفي أيام سليمان (عليه السلام) وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث ليضل عن

سبيل لله وحسبك بها صفقة خاسرة ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأثخن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلي إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل أفريقش وكان على عهد سليمان (عليه السلام) غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الروم فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فأثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة . وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس والمسلك هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هٰذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي ٱلْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْعَمَالِقَةُ وَكَنْعَانُ بِٱلشَّامِ وَٱلْقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ ٱلْعَمَالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ٱلشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَداً مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَمِ وَلَا مَلَكُوا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَأَيْضاً فَٱلشُّقَّةُ مِنَ ٱلْبَحْرِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَٱلْأَزْوِدَةُ وَٱلْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ ٱحْتَاجُوا إِلَى ٱنْتِهَابِ ٱلزَّرْعِ وَٱلنَّعَمِ وَٱنْتِهَابِ ٱلْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذٰلِكَ لِلْأَزْوِدَةِ وَٱلْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَفِي لَهُمُ ٱلرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ ٱلْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ ٱلْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ ٱلْمِيرَةُ بِٱلْمُسَالَمَةِ فَذٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ ٱمْتِنَاعاً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي ٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي يُعْجِزُ ٱلسَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي ٱلْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ ٱلرُّكَّابِ وَٱلْقُرَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ ٱلْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ ٱلشَّرْقِ وَأَرْضَ ٱلتُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ ٱلسُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ ٱلشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأُمَمَ فَارِسَ وَٱلرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ ٱلتُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ مَلَكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ ٱلرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ وَٱلْحِيرَةِ وَٱلْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَٱلْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي ٱلْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بَيْنَ ذِي ٱلْإِذْعَارِ مِنْهُمْ وَكَيْكَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْكَيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تُبَّعٍ ٱلْأَصْغَرِ أَبِي كَرِبَ وَيَسْتَاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَمَعَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بَعْدَ ٱلْكَيَانِيَّةِ وَٱلسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ بِٱلْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْأَزْوِدَةِ وَٱلْعُلُوفَاتِ مَعَ بُعْدِ ٱلشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَٱلْأَخْبَارُ بِذٰلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةَ ٱلنَّقْلِ لَكَانَ ذٰلِكَ قَادِحاً فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَٱلْأَوْسِ وَٱلْخَزْرَجِ أَنَّ تُبَّعاً ٱلْآخِرَ سَارَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ مَحْمُولاً عَلَى ٱلْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهٍ لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَثِقَنَّ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ وَتَأَمَّلِ ٱلْأَخْبَارَ وَٱعْرِضْهَا عَلَى ٱلْقَوَانِينِ

ٱلصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِيصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعْرَقُ فِي ٱلْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ٱلْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ ٱسْماً لِمَدِينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ٱبْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَّادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ ٱلْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصْفَ ٱلْجَنَّةِ فَقَالَ لَأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمْرُهُ تِسْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ ٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ ٱلشَّجَرِ وَٱلْأَنْهَارُ ٱلْمُطَّرِدَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلثَّعَالِبِيُّ وَٱلزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ قِلَابَةَ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبَرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ ٱلْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ٱبْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ هٰذَا وَٱللهِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ. وَهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ وَصَحَارَى عَدَنَ ٱلَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسَطِ ٱلْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ مُتَعَاقِباً وَٱلْأَدِلَّاءُ تَقُصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ ٱلْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرِسَتْ فِيمَا دُرِسَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا إِنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي ٱلْهَذَيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْثُرُ عَلَيْهَا أَهْلُ ٱلرِّيَاضَةِ وَٱلسِّحْرِ مَزَاعِمُ كُلُّهَا أَشْبَهُ بِٱلْخُرَافَاتِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذٰلِكَ مَا ٱقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ ٱلْإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ وَحَمَلُوا ٱلْعِمَادَ عَلَى ٱلْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً وَرَشَّحَ لَهُمْ ذٰلِكَ قِرَاءَةُ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ عَادُ إِرَمَ عَلَى ٱلْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِٱلْأَقَاصِيصِ ٱلْمَوْضُوعَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْكَذِبِ ٱلْمَنْقُولَةِ

فِي عِدَادِ ٱلْمُضْحِكَاتِ وَإِلَّا فَٱلْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ ٱلْأَخْبِيَةِ بَلِ ٱلْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا ٱلْأَسَاطِينُ فَلَا بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينَ عَلَى ٱلْعُمُومِ بِمَا ٱشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ ٱلْفَصِيلَةِ إِلَى ٱلْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَإِلْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هٰذَا ٱلْمَحْمِلِ ٱلْبَعِيدِ ٱلَّذِي تُمُحِّلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْوَاهِيَةِ ٱلَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ ٱللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ ٱلصِّحَّةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ ٱلْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا ٱلْخَمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ ٱلنِّكَاحِ دُونَ ٱلْخَلْوَةِ حِرْصاً عَلَى ٱجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ ٱلْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي ٱلْتِمَاسِ ٱلْخَلْوَةِ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زعموا في حالة السكر) فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بِذٰلِكَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَغْضَبَ وَهَيْهَاتَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ٱلْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلَالِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ ٱلدِّينِ وَعُظَمَاءُ ٱلْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَٱلْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيِّ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلسَّجَّادِ ٱبْنِ عَلِيٍّ أَبِي ٱلْخُلَفَاءِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ تَرْجُمَانِ ٱلْقُرْآنِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ عَمِّ ٱلنَّبِيِّ (صلعم) ٱبْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَحْفُوفَةٌ بِٱلْمُلْكِ ٱلْعَزِيزِ وَٱلْخِلَافَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ ٱلرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةِ ٱلْمِلَّةِ وَنُورِ ٱلْوَحْيِ وَمَهْبِطِ ٱلْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبَدَاوَةِ ٱلْعُرُوبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَمَرَاتِعِ ٱلْفَوَاحِشِ فَأَيْنَ يُطْلَبُ ٱلصَّوْنُ وَٱلْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلطَّهَارَةُ وَٱلذَّكَاءُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْحُمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا ٱلْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ بِمَلَكَةِ جَدِّهِ مِنَ ٱلْفُرْسِ أَوْ بِوَلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ ٱلرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيهِ وَٱسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ ٱلْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوغُ مِنَ ٱلرَّشِيدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي ٱلْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ ٱلْمُتَأَمِّلُ فِي ذٰلِكَ نَظَرَ ٱلْمُنْصِفِ وَقَاسَ ٱلْعَبَّاسَةَ بِٱبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَٱسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَٱسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيْنَ قَدْرُ ٱلْعَبَّاسَةِ وَٱلرَّشِيدِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبَ ٱلْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنِ ٱسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱحْتِجَانِهِمْ

أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكان الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه. وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه

ٱلاستحسان وأسرّها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثُلّ عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مناوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال إي والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال * وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها * حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن ابي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي ٱلْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَاباً يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبْ فِيهِ رُخَصَ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ٱبْنِ عُمَرَ وَوَطِّئْهُ لِلنَّاسِ تَوْطِئَةً قَالَ مَالِكٌ فَوَٱللهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي ٱلتَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ أَبُو ٱلرَّشِيدِ هٰذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسْوَةِ ٱلْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ ٱلْخَيَّاطِينَ فِي إِرْقَاعِ ٱلْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَٱسْتَنْكَفَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسْوَةُ هٰذِهِ ٱلْعِيَالِ عَامَنَا هٰذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِٱلْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِٱلرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ ٱلْعَهْدِ مِنْ هٰذَا ٱلْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلسِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ ٱلْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ ٱلْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَٱلرَّشِيدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى ثَبَجٍ مِنِ ٱجْتِنَابِ ٱلْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ ٱلْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ ٱلْعَرَبِ * وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَخْتَيشُوعَ ٱلطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ ٱلسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ ٱلْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ ٱلرَّشِيدُ وَٱرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَدَّ ٱبْنُ بَخْتَيشُوعَ لِلِاعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ ٱلسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهَا بِٱللَّحْمِ ٱلْمُعَالَجِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْبَوَارِدِ وَٱلْحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى ٱلثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجاً وَعَلَى ٱلثَّالِثَةِ خَمْراً صِرْفاً وَقَالَ فِي ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي هٰذَا طَعَامُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ ٱلسَّمَكَ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ وَقَالَ فِي ٱلثَّالِثِ هٰذَا طَعَامُ ٱبْنِ بَخْتَيشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَبَهَ ٱلرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ ٱلْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ ٱلْخَمْرِ قَدِ ٱخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتَ وَوَجَدَ ٱلْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ حَالَ ٱلرَّشِيدِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنْ ٱنْهِمَاكِهِ فِي ٱلْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ ٱلتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا ٱلْخَمْرُ ٱلصِّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّماً مِنْ أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلة إلى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء الله والله الهادي إلى الصواب . ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني
إني غفلت عن الساقي فصيرني كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظوراً عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ونقل في فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى ابن أكثم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعاً فأين هذا من المعاقرة وأيضاً فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما ينبزه المجان بالميل إلى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزهاً عن مثل ذلك وقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراً شديداً وأثنى

عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ ٱلْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ
بِتَكْذِيبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضاً يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلَى ٱللهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ
مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ ٱلْغِلْمَانِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ ٱلْخَوْفِ
مِنَ ٱللهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ ٱبْنُ حَبَّانَ فِي ٱلثِّقَاتِ
وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ
مَا نَقَلَهُ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ ٱلْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ ٱلزَّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِصْهَارِ ٱلْمَأْمُونِ إِلَى
ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بِنْتِهِ بُورَانَ وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ ٱللَّيَالِي فِي تَطْوَافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي
زَنْبِيلٍ مُدَلًّى مِنْ بَعْضِ ٱلسُّطُوحِ بِمَعَالِقَ وَجُدُلٍ مُغَارَةِ ٱلْفَتْلِ مِنَ ٱلْحَرِيرِ فَٱعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ
ٱلْمَعَالِقَ فَٱهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعُداً إِلَى مَجْلِسٍ شَأْنُهُ كَذَا وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرُشِهِ وَتَنْضِيدِ
أَبْنِيَتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ ٱلطَّرْفَ وَيَمْلِكُ ٱلنَّفْسَ وَأَنَّ ٱمْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ
ٱلسُّتُورِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ رَائِقَةَ ٱلْجَمَالِ فَتَّانَةَ ٱلْمَحَاسِنِ فَحَيَّتْهُ وَدَعَتْهُ إِلَى ٱلْمُنَادَمَةِ فَلَمْ
يَزَلْ يُعَاقِرُهَا ٱلْخَمْرَ حَتَّى ٱلصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنِ ٱنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ
حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى ٱلْإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيْنَ هٰذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ ٱلْمَأْمُونِ ٱلْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ
وَعِلْمِهِ وَٱقْتِفَائِهِ سُنَنَ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخْذِهِ بِسِيَرِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ
ٱلْمِلَّةِ وَمُنَاظَرَتِهِ ٱلْعُلَمَاءَ وَحِفْظِهِ لِحُدُودِ ٱللهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ
عَنْهُ أَحْوَالُ ٱلْفُسَّاقِ ٱلْمُسْتَهْتِرِينَ (١) فِي ٱلتَّطْوَافِ بِٱللَّيْلِ وَطُرُوقِ ٱلْمَنَازِلِ وَغِشْيَانِ ٱلسَّمَرِ
سَبِيلَ عُشَّاقِ ٱلْأَعْرَابِ وَأَيْنَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ٱبْنَةِ ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ
بِدَارِ أَبِيهَا مِنَ ٱلصَّوْنِ وَٱلْعَفَافِ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ
مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَٱلْحَدِيثِ بِهَا ٱلِٱنْهِمَاكُ فِي ٱللَّذَّاتِ ٱلْمُحَرَّمَةِ وَهَتْكِ قِنَاعِ
ٱلْمُخَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِٱلتَّأَسِّي بِٱلْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَّاتِهِمْ فَلِذٰلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيراً مَا
يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ وَيُنَقِّرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ ٱلدَّوَاوِينِ وَلَوِ ٱئْتَسَوْا بِهِمْ
فِي غَيْرِ هٰذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ ٱلْكَمَالِ ٱللَّائِقَةِ بِهِمِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْراً
لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْماً بَعْضَ ٱلْأُمَرَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ فِي كَلَفِهِ بِتَعَلُّمِ
ٱلْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِٱلْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هٰذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشُتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء. ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنناً في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدإ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا إلى المغرب وأن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء أفريقيا بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الأبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولاً كاملاً وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر واعتبر حال القرمطي إذ كان دعياً في

انتساباً به كيفَ تلاشتْ دعوتُه وتفرَّقتْ أتباعُهُ وظهرَ سريعاً على خُبثهم ومَكرِهم فساءت عاقبتُهم وذاقوا وبالَ أمرِهم ولو كانَ أمرُ العُبَيديينَ بذلكَ لعُرِفَ ولو بعدَ مُهلةٍ

وَمَهمَا يَكُنْ عندَ امرِىءٍ مِنْ خَليقَةٍ   وإنْ خالَها تَخفَى علَى النَّاسِ تُعلَمِ

فَقَدِ اتَّصلَتْ دولَتُهُمْ نَحواً مِنْ مائتَيْنِ وسَبْعِينَ سنةً ومَلَكُوا مقامَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ومُصلَّاهُ وموطِنَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ومَدفَنَهُ وموقِفَ الحَجيجِ ومَهبِطَ الملائكةِ ثُمَّ انقرضَ أمرُهم وشيعتُهم في ذلكَ كُلِّهِ على أتمِّ ما كانُوا عليهِ مِنَ الطَّاعةِ لهم والحُبِّ فيهم واعتقادِهم بِنَسَبِ الإمامِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ الصَّادقِ ولقدْ خرَجُوا مراراً بعدَ ذهابِ الدَّولةِ ودُرُوسِ أثرِها داعِينَ إلى بدعَتِهِم هاتِفِينَ بأسماءِ صِبيانٍ مِنْ أعقابِهِم يزعُمونَ استِحقاقَهُم للخلافةِ ويذهبُونَ إلى تعيينِهِم بالوصيَّةِ ممَّنْ سلَفَ قبلَهُم مِنَ الأئِمَّةِ ولو ارتابُوا في نَسَبِهِم لمَا ركِبُوا أعناقَ الأخطارِ في الانتصارِ لهم فصاحِبُ البدعةِ لا يُلَبِّسُ في أمرِهِ ولا يُشَبِّهُ في بدعتِهِ ولا يُكَذِّبُ نفسَهُ فيما ينتحِلُهُ والعَجَبُ مِنَ القاضي أبي بكرٍ الباقلانيِّ شيخِ النُّظَّارِ مِنَ المتكلِّمِينَ كيفَ يجنَحُ إلى هذهِ المقالةِ المرجوحةِ ويرَى هذا الرَّأيَ الضَّعيفَ فإنْ كانَ ذلكَ لِمَا كانُوا عليهِ مِنَ الإلحادِ في الدِّينِ والتَّعمُّقِ في الرَّافضيَّةِ فليسَ ذلكَ بدافعٍ في صدرِ دعوتِهِم وليسَ إثباتُ مُنتسَبِهِم بالَّذي يُغنِي عنهُم مِنَ اللهِ شيئاً في كُفرِهِم فقدْ قالَ تعالَى لنُوحٍ عليهِ السَّلامُ في شأنِ ابنِهِ إنَّهُ ليسَ مِنْ أهلِكَ إنَّهُ عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألنِ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لفاطمةَ يعظُها يا فاطمةُ اعملِي فلنْ أُغنِيَ عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً ومتَى عرَفَ امرُؤٌ قضيَّةً أو استيقنَ أمراً وجَبَ عليهِ أنْ يَصدَعَ بهِ واللهُ يقولُ الحقَّ وهُوَ يهدِي السَّبيلَ والقومُ كانُوا في مَجالٍ لظنُونِ الدُّوَلِ بهم وتحتَ رِقبةٍ مِنَ الطُّغاةِ لتوفُّرِ شيعتِهِم وانتشارِهِم في القاصيةِ بدعوتِهِم وتكرُّرِ خُروجِهِم مرَّةً بعدَ أُخرَى فلاذَتْ رجالاتُهُم بالاختفاءِ ولمْ يكادُوا يُعرَفُونَ كمَا قِيلَ

فلَوْ تسألِ الأيَّامَ ما اسمِي ما درَتْ   وأينَ مكانِي ما عرَفْنَ مكانِيَا

حتَّى لقدْ سُمِّيَ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ الإمامُ جدُّ عُبيدِ اللهِ المهديِّ بالمكتومِ سمَّتْهُ بذلكَ شيعتُهُم لِمَا اتَّفقُوا عليهِ مِنْ إخفائِهِ حذراً مِنَ المتغلِّبِينَ عليهِم فتوصَّلَ شيعةُ بني العبَّاسِ بذلكَ عندَ ظُهورِهِم إلى الطَّعنِ في نَسَبِهِم وازدَلَفُوا بهذا الرَّأيِ القائلِ للمُستضعَفِينَ

مِنْ خُلَفَائِهِم وَأُعْجِبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأُمَرَاءُ دَوْلَتِهِمِ ٱلْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ ٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى ٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْكَتَامِيِّينَ شِيعَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ ٱلْقُضَاةُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هٰذَا ٱلنَّسَبِ وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ ٱلنَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ وَأَخُوهُ ٱلْمُرْتَضَى وَٱبْنُ ٱلْبَطْحَاوِيِّ وَمِنَ ٱلْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ ٱلْإِسْفِرَايِينِيُّ وَٱلْقَدُورِيُّ وَٱلصَّيْمَرِيُّ وَٱبْنُ ٱلْأَكْفَانِيِّ وَٱلْأَبِيوَرْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ فَقِيهُ ٱلشِّيعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ ٱلْقَادِرِ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى ٱلسَّمَاعِ لِمَا ٱشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلطَّاعِنُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّسَبِ فَنَقَلَهُ ٱلْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوْهُ وَٱلْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي كِتَابِ ٱلْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ إِلَى ٱبْنِ ٱلْأَغْلَبِ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَٱبْنِ مِدْرَارٍ بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ فَٱلْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَٱلدَّوْلَةُ وَٱلسُّلْطَانُ سُوقٌ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بَضَائِعُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَتُلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُّ ٱلْحِكَمِ وَتُحْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ ٱلرِّوَايَاتِ وَٱلْأَخْبَارِ وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ ٱلْكَافَّةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَنِ ٱلتَّعَسُّفِ وَٱلْمَيْلِ وَٱلْأَفْنِ وَٱلسَّفْسَفَةِ وَسَلَكَتِ ٱلنَّهْجَ ٱلْأَمَمَ وَلَمْ تَجُرْ[1] عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ نَفَقَ فِي سُوقِهَا ٱلْإِبْرِيزُ ٱلْخَالِصُ وَٱللُّجَيْنُ ٱلْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ ٱلْعَرَبِ ٱلْبَغْيِ وَٱلْبَاطِلِ نَفَقَ ٱلْبَهْرَجُ وَٱلزَّائِفُ وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسُ بَحْثِهِ وَمِيزَانُ مُلْتَمَسِهِ وَمِثْلُ هٰذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ ٱلطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رضوان ٱلله عليهم) ٱلْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَيُعَرِّضُونَ تَعْرِيضَ ٱلْحَدِّ بِٱلتَّظَنُّنِ فِي ٱلْحَمْلِ ٱلْمُخَلَّفِ عَنْ إِدْرِيسَ ٱلْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَّحَهُمُ ٱللهُ وَأَبْعَدَهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ ٱلْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي ٱلْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ ٱلْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَنَّ حَالَ ٱلْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِنَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيهَا ٱلرِّيَبُ وَأَحْوَالُ حُرَمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَرْأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِنَّ لِتَلَاصُقِ ٱلْجُدْرَانِ وَتَطَامُنِ ٱلْبُنْيَانِ وَعَدَمِ ٱلْفَوَاصِلِ بَيْنَ ٱلْمَسَاكِنِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اي لم تمل اه

خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة أدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضى وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته. ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم كانوا بأفريقية وولاتهم وذلك أنه لما فر أدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة فخ أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة أدريس إلى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل أدريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه أدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلف لأدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا وإذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بأدريس بن أدريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على أدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بأفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ ... بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ ... كَمَا تَقُولُ الْبَبَغَا

فَخَشِيَ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءُ الْأَغَالِبَةُ بَوَادِرَ السِّعَايَاتِ وَتَلَوْا بِالْمَعَاذِيرِ فَطَوْراً بِاحْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ وَطَوْراً بِالْإِرْهَابِ بِشَأْنِ أَدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ التُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي تُحَفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفَعِ جِبَايَاتِهِمْ تَعْرِيضاً بِاسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلاً بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيماً لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ وَتَهْدِيداً بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ وَطَوْراً يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ الْكَاذِبِ تَخْفِيضاً لِشَأْنِهِ لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَأَفَنِ عُقُولِ مَنْ خَلَفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمَمَالِيكِهِمُ الْعَجَمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبُهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبَةِ فَقَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ الْغَوْغَاءِ وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أُذُنَهُ وَاعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلَفِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ قَبَّحَهُمُ اللهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ الْمَقْطُوعِ وَالْمَظْنُونِ وَأَدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً فَفِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ الرِّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ وَمَنِ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا الرَّدِّ سَدّاً لِأَبْوَابِ الرِّيَبِ وَدَفْعاً فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمِ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنِ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَارْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَإِلَّا فَالْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفْيُ الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ لَكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلْتَعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْآفَاقِ فَتَعْرِضُ التُّهْمَةُ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَاسٍ وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغاً لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

حَرَكِهِ إِذْ هُوَ نَقْلُ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلْخَلَفِ عَنِ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلسَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ مُخْتَطِّ فَاسَ وَمُؤَسِّسِهَا مِنْ بُيُوتِهِمْ وَمَسْجِدُهُ لِصْقَ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ مُنْتَضًى بِرَأْسِ ٱلْمَأْذَنَةِ ٱلْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ آثَارِهِ ٱلَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا حُدُودَ ٱلتَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِٱلْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلنَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفَهُمُ ٱلنَّبَوِيَّ مِنْ جَلَالِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَٰلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ مُصَدَّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلظَّنِّ وَٱلْيَقِينِ وَٱلتَّسْلِيمِ فَإِذَا عَلِمَ بِذَٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَٰلِكَ سُوقَةً وَوُضَعَاءَ (١) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى ٱلْعِنَادِ وَٱرْتِكَابِ ٱللَّجَاجِ وَٱلْبُهْتِ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلطَّعْنِ ٱلْفَائِلِ وَٱلْقَوْلِ ٱلْمَكْذُوبِ تَعَلُّلًا بِٱلْمُسَاوَاةِ فِي ٱلظِّنَّةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ ٱلِٱحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ فِي ٱلْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صَرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هٰذَا مِنْ آلِ ٱلْحَسَنِ وَكُبَرَاؤُهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى ٱلْجُوطِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى ٱلْعَوَّامِ بْنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ نُقَبَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ هُنَاكَ وَٱلسَّاكِنُونَ بِبَيْتِ جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمُ ٱلسِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ كَافَّةً حَسْبَمَا نَذْكُرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَيَلْحَقُ بِهٰذِهِ ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفَائِلَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ ضَعَفَةُ ٱلرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَنِسْبَتِهِ إِلَى ٱلشَّعْوَذَةِ وَٱلتَّلْبِيسِ فِيمَا أَتَاهُ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْحَقِّ وَٱلنَّعْيِ عَلَى أَهْلِ ٱلْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدَّعَيَاتِهِ فِي ذَٰلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ ٱلْمُوَحِّدُونَ أَتْبَاعُهُ مِنِ ٱنْتِسَابِهِ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ ٱلْفُقَهَاءَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كَمَنَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُنَاهَضَتَهُ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْفُتْيَا وَفِي ٱلدِّينِ بِزَعْمِهِمْ ثُمَّ ٱمْتَازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتْبُوعُ ٱلرَّأْيِ مَسْمُوعُ ٱلْقَوْلِ مَوْطُوءُ ٱلْعَقِبِ نَفِسُوا ذَٰلِكَ عَلَيْهِ وَغَضُّوا مِنْهُ بِٱلْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَٱلتَّكْذِيبِ لِمُدَّعَيَاتِهِ وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤْنِسُونَ مِنَ

(١) قوله ووضعاء بضم الواو جمع وضيع اه

مُلوكِ ٱلْمُتُونَةِ أَعدائهِ تَجِلّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غيْرِهِمْ لِمَا كانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّذاجةِ وَٱنْتِحالِ ٱلدِّيَانَةِ فَكَانَ لِحَمَلَةِ ٱلْعِلْمِ بِدوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ ٱلْوَجَاهَةِ وَٱلِٱنْتِصابِ لِلشُّوْرَى كُلٌّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدْرِهِ فِي قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذٰلِكَ شِيعَةً لَهُمْ وَحرباً لِعدُوِّهِمْ وَنَقَمُوا عَلَى ٱلْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَٱلتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ وَٱلْمُنَاصَبَةِ لَهُمْ تَشَيُّعاً لِلْمُتُونَةِ وَتَعَصُّباً لِدَوْلَتِهِمْ وَمَكَانُ ٱلرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَخَالَفَ ٱجْتِهَادَهُ فُقَهَاؤُهُمْ فَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَٱقْتَلَعَ ٱلدَّوْلَةَ مِنْ أُصُولِهَا وَجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصاراً وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نُفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى ٱلْمَوْتِ وَوَقَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى بِإِتْلَافِ مُهَجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ ٱلدَّعْوَةِ وَٱلتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ ٱلْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى ٱلْكَلِمِ . وَدَالَتْ بِٱلْعَدْوَتَيْنِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ ٱلتَّقَشُّفِ وَٱلْحَصْرِ وَٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلتَّقَلُّلِ مِنَ ٱلدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ ٱللّٰهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلْحَظِّ وَٱلْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى ٱلْوَلَدُ ٱلَّذِي رُبَّمَا تَجْنَحُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ وَتَخَادَعَ عَنْ تَمَنِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا ٱلَّذِي قَصَدَ بِذٰلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ ٱللّٰهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ وَمَعَ هٰذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَٱنْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةُ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ٱدَّعَاهُ وَٱنْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ مُصَدَّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ ٱلصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَٱلرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ ٱلْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِٱتِّبَاعِهِ وَٱلِٱنْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَابَتِهِ مِنْ هَرْغَةَ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ ٱللّٰهِ فِي دَعْوَتِهِ فَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلنَّسَبَ ٱلْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ ٱلْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا ٱتَّبَعَهُ ٱلنَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ٱتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةِ ٱلْهَرْغِيَّةِ وَٱلْمَصْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوخِ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبُ ٱلْفَاطِمِيُّ خَفِيّاً قَدْ دُرِسَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ ٱلنَّسَبُ ٱلْأَوَّلُ كَأَنَّهُ ٱنْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبِسَ جِلْدَةَ هٰؤُلَاءِ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ ٱلِٱنْتِسَابُ ٱلْأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعِصَابَةِ وَمِثْلُ هٰذَا وَاقِعٌ كَثِيراً إِذَا كَانَ ٱلنَّسَبُ ٱلْأَوَّلُ خَفِيّاً وَٱنْظُرْ

قصّة عرفجة وجرير في رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد وألبس جلدة بجيلة
حتّى تنازع مع جرير رئاستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذكور تتفهّم منه
وجه الحقّ والله الهادي للصّواب وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب
في هذه المغالط فقد زلّت أقدام كثير من الأثبات والمؤرّخين الحفّاظ في مثل هذه
الأحاديث والآراء وعلقت أفكارهم ونقلها عنهم الكافّة من ضعفة النّظر والغفلة
عن القياس وتلقّوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا رويّة واندرجت في محفوظاتهم
حتّى صار فنّ التّاريخ واهياً مختلطاً وناظره مرتبكاً وعدّ من مناحي العامّة فإذاً يحتاج
صاحب هذا الفنّ إلى العلم بقواعد السّياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم
والبقاع والأعصار في السّير والأخلاق والعوائد والنّحل والمذاهب وسائر الأحوال
والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما
من الخلاف وتعليل المتّفق منها والمختلف والقيام على أصول الدّول والملل ومبادئ
ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتّى يكون
مستوعباً لأسباب كلّ خبره وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد
والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلّا زيّفه واستغنى عنه وما
استكبر القدماء علم التّاريخ إلّا لذلك حتّى انتحله الطّبريّ والبخاريّ وابن إسحاق
من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمّة وقد ذهل الكثير عن هذا السّرّ فيه حتّى صار
انتحاله مجهلة واستخفّ العوامّ ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض
فيه والتّطفّل عليه فاختلط المرعيّ بالهمل واللّباب بالقشر والصّادق بالكاذب وإلى
الله عاقبة الأمور ومن الغلط الخفيّ في التّاريخ الذّهول عن تبدّل الأحوال في الأمم
والأجيال بتبدّل الأعصار ومرور الأيّام وهو داء دويّ شديد الخفاء إذ لا يقع إلّا
بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطّن له إلّا الآحاد من أهل الخليقة وذلك أنّ
أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ
إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك
في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدّول
سنّة الله الّتي قد خلت في عباده وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسّريانيّون

وَٱلنبطُ وَٱلتَّبابِعَةُ وَبنُو إِسرائِيلَ وَٱلقِبطُ وَكَانُوا عَلى أَحوالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَٱصطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْناءِ جِنْسِهِمْ وَأَحوالُ ٱعتِمَارِهِمْ لِلعالَمِ تَشهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جاءَ مِنْ بَعْدِهِم ٱلفُرْسُ ٱلأُولَى وَٱلرُّومُ وَٱلعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ ٱلأَحْوالُ وَٱنْقَلَبَتْ بِهَا ٱلعَوائِدُ إِلَى مَا يُجانِسُهَا أَوْ يُشابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبايِنُهَا أَوْ يُباعِدُهَا ثُمَّ جاءَ ٱلإِسلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ فَٱنْقَلَبَتْ تِلْكَ ٱلأَحوالُ أَجمَعُ ٱنْقِلَابَةً أُخرَى وَصارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعارَفٌ لِهَذَا ٱلعَهْدِ يَأْخُذُهُ ٱلخَلَفُ عَنِ ٱلسَّلَفِ ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ ٱلعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتِ ٱلأَسْلَافُ ٱلذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصارَ ٱلأَمْرُ فِي أَيْدِي سِواهُمْ مِنَ ٱلعَجَمِ مِثْلِ ٱلتُّرْكِ بِٱلمَشرِقِ وَٱلبَرْبَرِ بِٱلمَغْرِبِ وَٱلفِرَنْجَةِ بِٱلشَّمالِ فَذَهَبَتْ بِذَهابِهِمْ أُمَمٌ وَٱنْقَلَبَتْ أَحوالٌ وَعَوائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا وَٱلسَّبَبُ ٱلشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ ٱلأَحوالِ وَٱلعَوائِدِ أَنَّ عَوائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوائِدِ سُلطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي ٱلأَمثالِ ٱلحِكَمِيَّةِ ٱلنَّاسُ عَلَى دِينِ ٱلمَلِكِ وَأَهْلُ ٱلمُلْكِ وَٱلسُّلطَانِ إِذَا ٱستَوْلَوا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ ٱلكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوائِدِ ٱلدَّوْلَةِ بَعْضُ ٱلمُخالَفَةِ لِعَوائِدِ ٱلجِيلِ ٱلأَوَّلِ فَإِذَا جاءَتْ دَوْلَةٌ أُخرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوائِدِهِمْ وَعَوائِدِهَا خَالَفَتْ أَيضاً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأُولَى أَشَدَّ مُخالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّدرِيجُ فِي ٱلمُخالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلمُبايَنَةِ بِٱلجُمْلَةِ فَمَا دامَتِ ٱلأُمَمُ وَٱلأَجيالُ تَتَعاقَبُ فِي ٱلمُلْكِ وَٱلسُّلطَانِ لَا تَزَالُ ٱلمُخالَفَةُ فِي ٱلعَوائِدِ وَٱلأَحوالِ وَاقِعَةً وَٱلقِياسُ وَٱلمُحاكَاةُ لِلإِنْسانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ ٱلغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ ٱلذُّهُولِ وَٱلغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوَجُّ بِهِ عَنْ مَرامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ ٱلسَّامِعُ كَثِيراً مِنْ أَخْبارِ ٱلمَاضِينَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ ٱلأَحوالِ وَٱنقِلَابِهَا فَيُجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ ٱلفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيراً فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ ٱلغَلَطِ فَمِنْ هَذَا ٱلبَابِ مَا يَنْقُلُهُ ٱلمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحوالِ ٱلحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ ٱلمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ لِهَذَا ٱلعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنائِعِ ٱلمَعاشِيَّةِ ٱلبَعِيدَةِ مِنِ ٱعْتِزازِ أَهْلِ ٱلعَصَبِيَّةِ وَٱلمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِينٌ مُنْقَطِعُ ٱلجِذْمِ (١) فَيَتَشَوَّفُ ٱلكَثِيرُ مِنَ ٱلمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ ٱلحِرَفِ وَٱلصَّنائِعِ

(١) الجذم الاصل اه قاموس

ٱلمَعَاشِيَّةِ إلى نَيْلِ ٱلرُّتَبِ ٱلَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَهَا مِنَ ٱلْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْمَطَامِعِ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ ٱلْهَلَكَةِ وَٱلتَّلَفِ وَلَا يَعْلَمُونَ ٱسْتِحَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعَ لِلْمَعَاشِ وَأَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلدَّوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَٰلِكَ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِٱلْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ نَقْلًا لِمَا سُمِعَ مِنَ ٱلشَّارِعِ وَتَعْلِيمًا لِمَا جُهِلَ مِنَ ٱلدِّينِ عَلَى جِهَةِ ٱلْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّذِينَ قَامُوا بِٱلْمِلَّةِ هُمُ ٱلَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى ٱلتَّبْلِيغِ ٱلْخَبَرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلصِّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ ٱلْمُنَزَّلُ عَلَى ٱلرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هِدَايَتُهُمْ وَٱلْإِسْلَامُ دِينُهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ وَقُتِلُوا وَٱخْتَصُّوا بِهِ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُمَمِ وَشُرِّفُوا فَيَحْرِصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَٰلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلْأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَائِمَةُ ٱلْكِبْرِ وَلَا يَزَعُهُمْ عَاذِلُ ٱلْأَنَفَةِ وَيَشْهَدُ لِذَٰلِكَ بَعْثُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ أَصْحَابِهِ مَعَ وُفُودِ ٱلْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ ٱلدِّينِ بَعَثَ فِي ذَٰلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ ٱلْعَشَرَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلْإِسْلَامُ وَوَشَجَتْ عُرُوقُ ٱلْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا ٱلْأُمَمُ ٱلْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَٱسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا وَكَثُرَ ٱسْتِنْبَاطُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ ٱلْوَقَائِعِ وَتَلَاحُقِهَا فَٱحْتَاجَ ذَٰلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَصَارَ ٱلْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّعَلُّمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ وَٱشْتَغَلَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِٱلْقِيَامِ بِٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ فَدُفِعَ لِلْعِلْمِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ أُنُوفُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَأَهْلِ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلتَّصَدِّي لِلتَّعْلِيمِ وَٱخْتَصَّ ٱنْتِحَالُهُ بِٱلْمُسْتَضْعَفِينَ وَصَارَ مُنْتَحِلُهُ مُحْتَقَرًا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْمُلْكِ وَٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ ٱلْعَرَبِ وَمُنَاهَضَةِ قُرَيْشٍ فِي ٱلشَّرَفِ مَا عَلِمْتَ وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ ٱلْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلْأَمْرِ ٱلْأَوَّلِ فِي ٱلْإِسْلَامِ وَمِنْ هَٰذَا ٱلْبَابِ أَيْضًا مَا يَتَوَهَّمُهُ ٱلْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ ٱلتَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ ٱلْقُضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْهِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ ٱلرُّتَبِ يَحْسَبُونَ أَنَّ ٱلشَّأْنَ خُطَّةُ ٱلْقَضَاءِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هِشَامٍ ٱلْمُسْتَبِدِّ عَلَيْهِ وَٱبْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِإِشْبِيلِيَةَ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قُضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ ٱلْقُضَاةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَتَفَطَّنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ ٱلْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلْعَوَائِدِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فَصْلِ ٱلْقَضَاءِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ وَٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ وَٱبْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَكَانَ مَكَانُهُمْ فِيهَا مَعْلُوماً وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ بِخِطَّةِ ٱلْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ ٱلْقَضَاءُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْقَدِيمِ لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ ٱلْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِٱلْعَسَاكِرِ فِي ٱلطَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَهُمْ عَظَائِمَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا تُقَلَّدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ ٱلْغِنَى فِيهَا بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلَطُ ٱلسَّامِعُ فِي ذٰلِكَ وَيَحْمِلُ ٱلْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ ضُعَفَاءُ ٱلْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيدَةٍ بِفَنَاءِ ٱلْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ (١) مِنَ ٱلْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ ٱلْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَٱلذَّرِيعَةُ إِلَى ٱلْعِزِّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلتَّنَاصُرِ مَفْقُودَةً بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ ٱلرَّعَايَا ٱلْمُتَخَاذِلِينَ ٱلَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ ٱلْقَهْرُ وَرَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ ٱلدَّوْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلتَّحَكُّمُ فَتَجِدُ أَهْلَ ٱلْحِرَفِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّينَ لِذٰلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَدُوَلَهُمْ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ ٱلتَّغَلُّبُ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فِي ذٰلِكَ وَيُخْطِئُونَ فِي ٱعْتِبَارِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلدُّوَلِ وَنَسَقِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ ٱسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذٰلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ وَٱلْمُؤَرِّخُونَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ

---

(١) العصبية بفتحتين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبة محركة وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم. وهي بهذا المعنى ممدوحة واما العصبية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال القبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقاربه ظالماً كان او مظلوماً وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعا الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه. قاله الاستاذ ابو الوفاء . ا هـ

تواريخهم لأهل الدولة وأبناؤها متشوفون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضاً كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم إنما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت عن الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الإلماع بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك. ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال لأن الأمم والأجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا إلى ما نزل بالعمران

شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه وأن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه والمسعودي إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم ومرد العلم كله إلى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا

إعلم أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع

وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر
وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما
ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت
ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك
الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم إن أهل الكتاب من العرب
اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها
كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم
الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان
وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده
وليس بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله . ولما كان كتابنا مشتملاً على
أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف
ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم
الحرف الذي يليه كما قلناه لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا
على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط
القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من
رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف فإن النطق بصاده
فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي
ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين
حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا
والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل
أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف
والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى
هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارئ
أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد
عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا

لَمَّةَ ٱلْقَوْمِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلتَّأْرِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلَّذِي هُوَ عُمْرَانُ ٱلْعَالَمِ وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ ٱلتَّوَحُّشِ وَٱلتَّأَنُّسِ وَٱلْعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافُ ٱلتَّغَلُّبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ ٱلْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ ٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَمَّا كَانَ ٱلْكَذِبُ مُتَطَرِّقاً لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا ٱلتَّشَيُّعَاتُ لِلْآرَاءِ وَٱلْمَذَاهِبِ فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ ٱلِاعْتِدَالِ فِي قَبُولِ ٱلْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ ٱلتَّمْحِيصِ وَٱلنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَيُّعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نِحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ ٱلْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَيْلُ وَٱلتَّشَيُّعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ ٱلِانْتِقَادِ وَٱلتَّمْحِيصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ ٱلْكَذِبِ وَنَقْلِهِ . وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي ٱلْأَخْبَارِ أَيْضاً ٱلثِّقَةُ بِٱلنَّاقِلِينَ وَتَمْحِيصُ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّعْدِيلِ وَٱلتَّجْرِيحِ . وَمِنْهَا ٱلذُّهُولُ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ ٱلْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ ٱلْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي ٱلْكَذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُّمُ ٱلصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ ٱلثِّقَةِ بِٱلنَّاقِلِينَ وَمِنْهَا ٱلْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ ٱلْأَحْوَالِ عَلَى ٱلْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلتَّلْبِيسِ وَٱلتَّصَنُّعِ فَيَنْقُلُهَا ٱلْمُخْبِرُ كَمَا رَآهَا وَهِيَ بِٱلتَّصَنُّعِ عَلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . وَمِنْهَا تَقَرُّبُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ ٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْمَرَاتِبِ بِٱلثَّنَاءِ وَٱلْمَدْحِ وَتَحْسِينِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ ٱلذِّكْرِ بِذٰلِكَ فَيَسْتَفِيضُ ٱلْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَٱلنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ ٱلثَّنَاءِ وَٱلنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي ٱلْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضاً وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ ٱلْجَهْلُ بِطَبَائِعِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ

ذَاتًا كَانَ أَوْ فِعْلاً لاَ بُدَّ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخُصُّهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلسَّامِعُ عَارِفاً بِطَبَائِعِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْوُجُودِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي تَمْحِيصِ ٱلْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ ٱلصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ وَهٰذَا أَبْلَغُ فِي ٱلتَّمْحِيصِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَعْرِضُ وَكَثِيراً مَا يَعْرِضُ لِلسَّامِعِينَ قَبُولُ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتُؤْثَرُ عَنْهُمْ كَمَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ عَنِ ٱلْإِسْكَنْدَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ ٱلْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَيْفَ ٱتَّخَذَ صُنْدُوقَ ٱلزُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ ٱلْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ ٱلدَّوَابَّ ٱلشَّيْطَانِيَّةَ ٱلَّتِي رَآهَا وَعَمِلَ تَمَاثِيلَهَا مِنْ أَجْسَادٍ مَعْدَنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ ٱلْبُنْيَانِ فَفَرَّتْ تِلْكَ ٱلدَّوَابُّ حِينَ خَرَجَتْ وَعَايَنَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قِبَلِ ٱتِّخَاذِهِ ٱلتَّابُوتَ ٱلزُّجَاجِيَّ وَمُصَادَمَةِ ٱلْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجُرْمِهِ وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ لاَ تَحْمِلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْغُرُورِ وَمَنِ ٱعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَٱنْتِقَاضِ ٱلْعُقْدَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلنَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ إِتْلاَفُهُ وَلاَ يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْجِنَّ لاَ يُعْرَفُ لَهَا صُوَرٌ وَلاَ تَمَاثِيلُ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى ٱلتَّشَكُّلِ وَمَا يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْبَشَاعَةُ وَٱلتَّهْوِيلُ لاَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ ٱلْحِكَايَةِ وَٱلْقَادِحُ ٱلْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ ٱلْوُجُودِ أَبْيَنُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ وَهُوَ أَنَّ ٱلْمُنْغَمِسَ فِي ٱلْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقِلَّتِهِ فَيَفْقِدُ صَاحِبُهُ ٱلْهَوَاءَ ٱلْبَارِدَ ٱلْمُعَدِّلَ لِمِزَاجِ ٱلرِّئَةِ وَٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهٰذَا هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي هَلاَكِ أَهْلِ ٱلْحَمَّامَاتِ إِذَا أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ عَنِ ٱلْهَوَاءِ ٱلْبَارِدِ وَٱلْمُتَدَلِّينَ فِي ٱلْآبَارِ وَٱلْمَطَامِيرِ ٱلْعَمِيقَةِ ٱلْمَهْوَى إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا بِالْعُفُونَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا ٱلرِّيَاحُ فَتُخَلْخِلَهَا فَإِنَّ ٱلْمُتَدَلِّيَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحِينِهِ وَبِهٰذَا ٱلسَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ ٱلْحُوتِ إِذَا فَارَقَ ٱلْبَحْرَ فَإِنَّ ٱلْهَوَاءَ لاَ يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رِئَتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَٱلْمَاءُ ٱلَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ وَٱلْهَوَاءُ ٱلَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ فَيَسْتَوْلِي ٱلْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلاَكُ ٱلْمَصْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي تِمْثَالِ ٱلزَّرْزُورِ ٱلَّذِي بِرُومَةَ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ ٱلزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ ٱلسَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ وَٱنْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ ٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلزَّيْتِ وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ ٱلْبَكْرِيُّ

في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي[1] وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط. وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق

(١) الخرثي بالضم أثاث البيت اهـ قاموس

مِنَ الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا. واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص وليس من علم الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الإنساني متعددون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها ولم نقف على شيء من علوم غيرهم وإذا كانت كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم وما أوتيتم من العلم إلا قليلا. وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض

لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات اللغات أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع وأن القتل أيضاً مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام في حكاية البوم التي نقلها المسعودي . أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك . ومن كلام أنو شروان في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه . وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان وأنو شروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله . العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع إلى أول الكلام . فهذه ثمان

كَلِمَاتٍ حِكَمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَارْتَدَّتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا فَخَرَ بِعُثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَّمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَصْلِ الدُّوَلِ وَالْمُلْكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصَفُّحِ وَالتَّفَهُّمِ عَثَرْتَ فِي أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفًى بَيِّنًا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ أَطْلَعَنَا اللّٰهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةِ مُوبَذَانٍ وَكَذٰلِكَ تَجِدُ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يَسْتَطْرِدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرَ مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هٰذَا غَيْرَ مُبَرْهَنَةٍ كَمَا بَرْهَنَّاهُ إِنَّمَا يُجَلِّيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى الْخَطَابَةِ فِي أُسْلُوبِ التَّرَسُّلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذٰلِكَ حَوَّمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطُّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابٍ تَقْرُبُ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هٰذَا وَمَسَائِلِهِ لٰكِنَّهُ لَمْ يُصَادِفْ فِيهِ الرَّمِيَّةَ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا يُبَوِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْأَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِلْحُكَمَاءِ الْفُرْسِ مِثْلَ بُزُرْجُمْهَرَ وَالْمُوبَذَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ دَانْيَالَ وَهُرْمُسَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا وَلَا يَرْفَعُ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعِيَّةِ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوَاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوَّمَ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ يُصَادِفْهُ وَلَا تَحَقَّقَ قَصْدَهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلْهَمَنَا اللّٰهُ إِلَى ذٰلِكَ إِلْهَامًا وَأَعْثَرَنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلَنَا بَيْنَ نَكِرَةٍ وَجُهَيْنَةَ خَبَرِهِ فَإِنْ كُنْتُ قَدِ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْحَاءَهُ فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللّٰهِ وَهِدَايَةٌ وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ وَاشْتَبَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِلنَّاظِرِ الْمُحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ وَلِيَ الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللّٰهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ مَا يَعْرِضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهٍ بُرْهَانِيَّةٍ يَتَّضِحُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتُرْفَعُ الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصَّ اخْتُصَّ بِهَا فَمِنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشُرِّفَ بِوَصْفِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ دُونَ ذٰلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّحْلِ وَالْجَرَادِ وَهٰذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا

مِثْلُ ذَلِكَ فَبِطَرِيقٍ إِلْهَامِيٍّ لَا بِفِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا ٱلسَّعْيُ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلِاعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَٱكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مِنَ ٱلِافْتِقَارِ إِلَى ٱلْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى ٱلْتِمَاسِهِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ ٱلتَّسَاكُنُ وَٱلتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةٍ لِلْأُنْسِ بِٱلْعَشِيرِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَى ٱلْمَعَاشِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَمِنْ هَذَا ٱلْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلضَّوَاحِي وَفِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْحِلَلِ ٱلْمُنْتَجِعَةِ فِي ٱلْقِفَارِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي بِٱلْأَمْصَارِ وَٱلْقُرَى وَٱلْمُدُنِ وَٱلْمَدَرِ لِلِاعْتِصَامِ بِهَا وَٱلتَّحَصُّنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ ٱلْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ ٱلِاجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ ٱنْحَصَرَ ٱلْكَلَامُ فِي كُلِّ هَذَا ٱلْكِتَابِ فِي سِتَّةِ أَبْوَابٍ. ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَشَرِيِّ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ. وَٱلثَّانِي فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ. وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخِلَافَةِ وَٱلْمُلْكِ وَذِكْرِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ. وَٱلْخَامِسُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ. وَٱلسَّادِسُ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا. وَقَدْ قَدَّمْتُ ٱلْعُمْرَانَ ٱلْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ ٱلْمُلْكِ عَلَى ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ ٱلْمَعَاشِ فَلِأَنَّ ٱلْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ ٱلْعِلْمِ كَمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَٱلطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْكَمَالِيِّ وَجَعَلْتُ ٱلصَّنَائِعَ مَعَ ٱلْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَٱلْمُعِينُ عَلَيْهِ

الباب الاول

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

ٱلْأُولَى فِي أَنَّ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعَبِّرُ ٱلْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمُ ٱلْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِٱلطَّبْعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَدِينَةُ فِي ٱصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ

حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى الْتِمَاسِهِ بِفِطْرَتِهِ وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ غَيْرُ مُوَفِّيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمْكِنُ فَرْضُهُ وَهُوَ قُوتُ يَوْمٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّحْنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبْخِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينَ وَآلَاتٍ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاخُورِيٍّ وَهَبْ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَهُوَ أَيْضًا يَحْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزِّرَاعَةِ وَالْحَصَادِ وَالدِّرَاسِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّنْبُلِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ آلَاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَصَنَائِعَ كَثِيرَةً أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَفِيَ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ بِبَعْضِهِ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ فَلَا بُدَّ مِنِ اجْتِمَاعِ الْقُدَرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقُوتُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ قَدْرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرَ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطِّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقُدَرَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعُدْوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةِ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عِوَضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مُهَيِّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تُحَصِّلُ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تَنُوبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنُوبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ وَالتِّرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تُقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ سِيَّمَا الْمُفْتَرِسَةِ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحْدَهُ بِالْجُمْلَةِ وَلَا تَفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوتٌ وَلَا غِذَاءٌ وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا

دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضاً من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفضله .

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقررون هذا البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من

دُونَ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ ٱلْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ فَأَهْلُ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَجُوسِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْآثَارُ فَضْلًا عَنِ ٱلْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ فِي ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ ٱلْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ ٱلْبَتَّةَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ ٱلنُّبُوَّاتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مُدْرَكُهُ ٱلشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلْأُمَّةِ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلْهِدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلنَّاظِرِينَ فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ ٱلْأَرْضِ كُرَوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ ٱلْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَٱنْحَسَرَ ٱلْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ ٱللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِٱلنَّوْعِ ٱلْبَشَرِيِّ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَاءَ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا ٱلتَّحْتُ ٱلطَّبِيعِيُّ قَلْبُ ٱلْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَتِهَا ٱلَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَٱلْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلثِّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا ٱلْمَاءُ ٱلْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ ٱلْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ فَبِٱلْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَ عَنْهُ ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَهُوَ ٱلنِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ ٱلْعُنْصُرُ ٱلْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْراً يُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضاً لَبْلَايَه بِتَفْخِيمِ ٱللَّامِ ٱلثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أُوقْيَانُوسَ أَسْمَاءٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُقَالُ لَهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْأَخْضَرُ وَٱلْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا ٱلْمُنْكَشِفَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ فِيهِ ٱلْقِفَارُ وَٱلْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ وَٱلْخَالِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَإِنَّمَا ٱلْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلٍ مُسَطَّحٍ كُرَوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ إِلَى خَطٍّ كُرَوِيٍّ وَوَرَاءَهُ ٱلْجِبَالُ ٱلْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَاءِ ٱلْعُنْصُرِيِّ ٱلَّذِي

بينهما سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ وهذه الجبالُ مائلةٌ إلى جهةِ المشرقِ وينتهي من المشرقِ والمغربِ إلى عنصرِ الماءِ أيضاً بقطعتينِ من الدائرةِ المحيطةِ وهذا المنكشفُ من الأرضِ قالوا هو مقدارُ النصفِ من الكرةِ أو أقلُّ والمعمورُ منهُ مقدارُ ربعِهِ وهو المنقسمُ بالأقاليمِ السبعةِ وخطُّ الاستواءِ يقسمُ الأرضَ بنصفينِ من المغربِ إلى المشرقِ وهو طولُ الأرضِ وأكبرُ خطٍّ في كرتِها كما أنَّ منطقةَ فلكِ البروجِ ودائرةَ معدّلِ النهارِ أكبرُ خطٍّ في الفلكِ ومنطقةُ البروجِ منقسمةٌ بثلاثمائةٍ وستينَ درجةً والدرجةُ من مسافةِ الأرضِ خمسةٌ وعشرونَ فرسخاً والفرسخُ اثنا عشرَ ألفَ ذراعٍ والذراعُ أربعةٌ وعشرونَ إصبعاً والإصبعُ ستُّ حبّاتِ شعيرٍ مصفوفةٌ ملصقٌ بعضُها إلى بعضٍ ظهراً لبطنٍ وبينَ دائرةِ معدّلِ النهارِ التي تقسمُ الفلكَ بنصفينِ وتسامتُ خطَّ الاستواءِ من الأرضِ وبينَ كلِّ واحدٍ من القطبينِ تسعونَ درجةً لكنِ العمارةُ في الجهةِ الشماليةِ من خطِّ الاستواءِ أربعٌ وستونَ درجةً والباقي منها خلاءٌ لا عمارةَ فيهِ لشدّةِ البردِ والجمودِ كما كانتِ الجهةُ الجنوبيةُ خلاءً كلُّها لشدّةِ الحرِّ كما نبيّنُ ذلكَ كلَّهُ إن شاءَ اللهُ تعالى . ثمَّ إنَّ المخبرينَ عن هذا المعمورِ وحدودِهِ وعمّا فيهِ من الأمصارِ والمدنِ والجبالِ والبحارِ والأنهارِ والقفارِ والرمالِ مثلَ بطليموسَ في كتابِ الجغرافيا وصاحبِ كتابِ زخّارٍ من بعدِهِ قسّموا هذا المعمورَ بسبعةِ أقسامٍ يسمّونَها الأقاليمَ السبعةَ بحدودٍ وهميّةٍ بينَ المشرقِ والمغربِ متساويةٍ في العرضِ مختلفةٍ في الطولِ فالإقليمُ الأوّلُ أطولُ ممّا بعدَهُ وهكذا الثاني إلى آخرِها فيكونُ السابعُ أقصرَ لما اقتضاهُ وضعُ الدائرةِ الناشئةِ عن انحسارِ الماءِ عن كرةِ الأرضِ وكلُّ واحدٍ من هذهِ الأقاليمِ عندَهم منقسمٌ بعشرةِ أجزاءٍ من المغربِ إلى المشرقِ على التوالي وفي كلِّ جزءٍ الخبرُ عن أحوالِهِ وأحوالِ عمرانِهِ . وذكروا أنَّ هذا البحرَ المحيطَ يخرجُ منهُ من جهةِ المغربِ في الإقليمِ الرابعِ البحرُ الروميُّ المعروفُ يبدأُ في خليجٍ متضايقٍ في عرضِ اثني عشرَ ميلاً أو نحوِها ما بينَ طنجةَ وطريفَ ويسمّى الزقاقَ ثمَّ يذهبُ مشرّقاً وينفسحُ إلى عرضِ ستّمائةِ ميلٍ ونهايتُهُ في آخرِ الجزءِ الرابعِ من الإقليمِ الرابعِ على ألفِ فرسخٍ ومائةٍ وستّينَ فرسخاً من مبدإِهِ وعليهِ هنالكَ سواحلُ الشامِ وعليهِ من جهةِ الجنوبِ سواحلُ المغربِ أوّلُها طنجةُ عندَ الخليجِ ثمَّ

إفريقيَةَ ثُمَّ بَرْقَةَ إلى الإسكندريّةِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمالِ سَواحِلُ القسطنطينيّةِ عِنْدَ الخليجِ ثُمَّ البنادِقَةُ ثُمَّ رُومَةُ ثُمَّ الإفرنجةُ ثُمَّ الأندلسُ إلى طَريفَ عِنْدَ الزُّقاقِ قُبالَةَ طَنْجَةَ وَيُسَمَّى هذا البَحْرُ الرُّوميَّ وَالشّاميَّ وَفيهِ جُزُرٌ كَثيرَةٌ عامِرَةٌ كِبارٌ مِثْلَ أقريطِشَ وَقُبْرُص وَصِقِلِّيَةَ وَمُيورقَةَ وَسردانيةَ قالُوا وَيَخْرُجُ مِنْهُ في جِهَةِ الشَّمالِ بَحْرانِ آخَرانِ مِن خَليجَيْنِ. أحَدُهُما مُسامِتٌ لِلقسطنطينيّةِ يَبْدَأُ مِنْ هذا البَحْرِ مُتَضايِقاً في عَرْضِ رَمْيَةِ السَّهْمِ وَيَمُرُّ ثَلاثَةَ بِحارٍ فَيَتَّصِلُ بِالقسطنطينيّةِ ثُمَّ يَنْفَسِحُ في عَرْضِ أرْبَعَةِ أمْيالٍ وَيَمُرُّ في جَرْيِهِ سِتّينَ مِيلاً وَيُسَمَّى خَليجَ القسطنطينيّةِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُها سِتَّةُ أمْيالٍ فَيُمِدُّ بَحْرَ نيطِشَ وَهُوَ بَحْرٌ يَنْحَرِفُ مِنْ هُنالِكَ في مَذاهِبِهِ إلى ناحِيَةِ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِأرْضِ هِرَقْلَةَ وَيَنْتَهي إلى بِلادِ الخَزَرِيَّةِ عَلى ألْفٍ وَثَلاثِمائَةِ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ وَعَلَيْهِ مِنَ الجانِبَيْنِ أُمَمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ وَبُرْجانَ وَالرُّوسِ. وَالبَحْرُ الثّاني مِنْ خَليجَيْ هذا البَحْرِ الرُّوميِّ وَهُوَ بَحْرُ البَنادِقَةِ يَخْرُجُ مِنْ بِلادِ الرُّومِ عَلى سَمْتِ الشَّمالِ فَإذا انْتَهى إلى سَمْتِ الجَبَلِ انْحَرَفَ في سَمْتِ المَغْرِبِ إلى بِلادِ البَنادِقَةِ وَيَنْتَهي إلى بِلادِ إنْكِلايَةَ على ألْفٍ وَمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَإهِ وَعَلى حافَتَيْهِ مِنَ البَنادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَمٌ وَيُسَمَّى خَليجَ البَنادِقَةِ. قالُوا وَيَنْساحُ مِنْ هذا البَحْرِ المُحيطِ أيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَلى ثَلاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً في الشَّمالِ مِنْ خَطِّ الاسْتِواءِ بَحْرٌ عَظيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ في الجَنُوبِ قَليلاً حَتّى يَنْتَهي إلى الإقْليمِ الأوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فيهِ مَغْرِباً إلى أنْ يَنْتَهيَ في الجُزْءِ الخامِسِ مِنْهُ إلى بِلادِ الحَبَشَةِ وَالزِّنْجِ وَإلى بِلادِ بابِ المَنْدَبِ مِنْهُ عَلى أرْبَعَةِ آلافِ فَرْسَخٍ مِنْ مَبْدَإهِ وَيُسَمَّى البَحْرَ الصّينيَّ وَالهِنْديَّ وَالحَبَشيَّ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ بِلادُ الزِّنْجِ وَبِلادُ بَرْبَرَ الَّتي ذَكَرَها امْرُؤُ القَيْسِ في شِعْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ البَرْبَرِ الَّذينَ هُمْ قَبائِلُ المَغْرِبِ ثُمَّ بَلَدُ مَقْدَشُو ثُمَّ بَلَدُ سُفالَةَ وَأرْضُ الوَقْواقِ وَأُمَمٌ أُخَرُ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إلّا القِفارُ وَالخَلاءُ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمالِ الصّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدَإهِ ثُمَّ الهِنْدُ ثُمَّ السِّنْدُ ثُمَّ سَواحِلُ اليَمَنِ مِنَ الأحْقافِ وَزَبيدَ وَغَيْرِها ثُمَّ بِلادُ الزِّنْجِ عِنْدَ نِهايَتِهِ وَبَعْدَهُمُ الحَبَشَةُ. قالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هذا البَحْرِ الحَبَشيِّ بَحْرانِ آخَرانِ أحَدُهُما يَخْرُجُ مِنْ نِهايَتِهِ عِنْدَ بابِ المَنْدَبِ فَيَبْدَأُ مُتَضايِقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْحِراً إلى ناحِيَةِ الشَّمالِ وَمُغَرِّباً قَليلاً إلى أنْ يَنْتَهيَ إلى القُلْزُمِ في الجُزْءِ الخامِسِ مِنَ الإقْليمِ الثّاني عَلى ألْفٍ وَأرْبَعِمائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَإهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ

ٱلقُلزم وبَحرَ ٱلسُّوَيس وَبينَهُ وَبَين فِسطَاطِ مِصرَ مِنْ هُناكَ ثَلاثُ مَراحِلَ وَعَلَيهِ مِن جِهَةِ ٱلشَّرقِ سَوَاحِلُ ٱليَمَنِ ثُمَّ ٱلحِجازُ وَجدَّةُ ثُمَّ مدينُ وَأَيلَةُ وَفارانُ عِندَ نِهَايَتِهِ وَمن جِهَةِ ٱلغَربِ سَواحِلُ ٱلصَّعِيدِ وَعيذَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيلَعُ ثُمَّ بِلاد ٱلحَبَشَةِ عِندَ مَبدَإِهِ وَآخِرُهُ عِندَ ٱلقُلزُمِ يُسامِتُ ٱلبَحرَ ٱلرُّومِيَّ عِندَ ٱلعَرِيشِ وَبَينَهُمَا نَحوَ سِتِّ مَراحِلَ وَمَا زَالَ ٱلمُلُوكُ فِي ٱلإِسلامِ وَقَبلَهُ يَرُومُونَ خَرقَ مَا بَينَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ وَٱلبَحرُ ٱلثَّانِي مِن هٰذَا ٱلبَحرِ ٱلحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى ٱلخَلِيجَ ٱلأَخضَرَ يَخرُجُ مَا بَينَ بِلادِ ٱلسِّندِ وَٱلأَحقَافِ مِن ٱليَمَنِ وَيَمُرُّ إِلى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُغَرِّباً قَلِيلاً إِلى أَنْ يَنتَهِيَ إِلى ٱلأُبُلَّةِ مِنْ سَوَاحِلِ ٱلبَصرَةِ فِي ٱلجُزءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلثَّانِي عَلى أَربَعمِائَةِ فَرسَخٍ وَأَربَعِينَ فَرسَخاً مِن مَبدَإِهِ وَيُسَمَّى بَحرَ فَارِسَ وَعَلَيهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرقِ سَوَاحِلُ ٱلسِّندِ وَمَكرَانَ وَكَرمَانَ وَفَارِس وَٱلأُبُلَّةُ وَعِندَ نِهَايَتِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلغَربِ سَواحِلُ ٱلبَحرَينِ وَٱليَمَامَةِ وَعُمَانَ وَٱلشِّحرِ وَٱلأَحقَافِ عِندَ مَبدَإِهِ وَفِيمَا بَينَ بَحرِ فَارِسَ وَٱلقُلزُمِ وَجَزِيرَةِ ٱلعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ ٱلبَرِّ فِي ٱلبَحرِ يُحِيطُ بِهَا ٱلبَحرُ ٱلحَبَشِيُّ مِنَ ٱلجَنُوبِ وَبَحرُ ٱلقُلزُمِ مِنَ ٱلغَربِ وَبَحرُ فَارِسَ مِنَ ٱلشَّرقِ وَتُفضِي إِلى ٱلعِرَاقِ بَينَ ٱلشَّامِ وَٱلبَصرَةِ عَلى أَلفٍ وَخَمسِمِائَةِ مِيلٍ بَينَهُمَا وَهُنَالِكَ ٱلكُوفَةُ وَٱلقَادِسِيَّةُ وَبَغدَادُ وَإِيوَانُ كِسرَى وَٱلحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمَمُ ٱلأَعَاجِمِ مِنَ ٱلتُّركِ وَٱلخَزَرِ وَغَيرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ ٱلعَرَبِ بِلادُ ٱلحِجَازِ فِي جِهَةِ ٱلغَربِ مِنهَا وَبِلادُ ٱليَمَامَةِ وَٱلبَحرَينِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرقِ مِنهَا وبِلادُ ٱليَمَنِ فِي جِهَةِ ٱلجَنُوبِ مِنهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلى ٱلبَحرِ ٱلحَبَشِيِّ. قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلمَعمُورِ بَحرٌ آخَرُ مُنقَطِعٌ مِن سَائِرِ ٱلبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ بِأَرضِ ٱلدَّيلَمِ يُسَمَّى بَحرَ جُرجَانَ وَطَبَرِستَانَ طُولُهُ أَلفُ مِيلٍ فِي عَرضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَربِيِّهِ أَذرَبِيجَانُ وَٱلدَّيلَمُ وَفِي شَرقِيِّهِ أَرضُ ٱلتُّركِ وَخُوَارَزمَ وَفِي جَنُوبِيِّهِ طَبَرِستَانُ وَفِي شَمَالِيِّهِ أَرضُ ٱلخَزَرِ وَٱللاَّنِ. هٰذِهِ جُملَةُ ٱلبِحَارِ ٱلمَشهُورَةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَهلُ ٱلجُغرَافِيَا. قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلجُزءِ ٱلمَعمُورِ أَنهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعظَمُهَا أَربَعَةُ أَنهَارٍ وَهِيَ ٱلنِّيلُ وَٱلفُرَاتُ وَدِجلَةُ وَنَهرُ بَلْخَ ٱلمُسَمَّى جَيحُونَ. فَأَمَّا ٱلنِّيلُ فَمَبدَأُهُ مِن جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ ٱلاِستِوَاءِ بِسِتَّ عَشرَةَ دَرَجَةً عَلى سَمتِ ٱلجُزءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلَ ٱلقَمَرِ وَلاَ يُعلَمُ فِي ٱلأَرضِ جَبَلٌ أَعلَى مِنهُ. تَخرُجُ مِنهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعضُهَا فِي بُحَيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعضُهَا فِي أُخرَى ثُمَّ تَخرُجُ أَنهَارٌ مِنَ ٱلبُحَيرَتَينِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بُحَيرَةٍ

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ ٱلنُّوبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجاً وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نِيلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ ٱلصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَٱلْوَاحَاتُ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيَذْهَبُ ٱلْآخَرُ مُنْعَطِفاً إِلَى ٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ ٱلسُّودَانِ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ . وَأَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوباً فِي أَرْضِ ٱلرُّومِ وَمَلَطْيَةَ إِلَى مَنْبِجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفِّينَ ثُمَّ بِٱلرَّقَّةِ ثُمَّ بِٱلْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْبَطْحَاءِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْبَصْرَةِ وَوَاسِطٍ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدَأُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةَ أَيْضاً وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْجَنُوبِ بِٱلْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ فِي ٱلشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ ٱلْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا بَيْنَ ٱلْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ ٱلْمَوْصِلِ قُبَالَةَ ٱلشَّامِ مِنْ عُدْوَتَيِ ٱلْفُرَاتِ وَقُبَالَةَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ عُدْوَةِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جَيْحُونَ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بَلْخَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ عُيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارِزْمَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْجُرْجَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ ٱلْآتِي مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخُوَارِزْمَ وَعَلَى شَرْقِيِّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتِرْمِذَ وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَالِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ وَٱلْخَزْلَجِيَّةِ وَأُمَمُ ٱلْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرَ ذٰلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَٱلشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زُخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي ٱلْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي ٱلْمَعْمُورِ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَوْدِيَةِ وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي ٱلْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي هُوَ وَطَنُ ٱلْبَرْبَرِ وَبِٱلْأَوْطَانِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَاناً مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وُجِدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرِّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأُمَمُ هٰذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُّهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذٰلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذٰلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَداً وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذٰلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلْنُوضِحْ ذٰلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ. فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبَيِ الْفَلَكِ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفُقِ فَهُنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْراً وَهٰذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ وَكَذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهٰذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَّاتُ هٰذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكِ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجاً وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدإ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهنالك ينقطع العمران وهو آخر الإقليم السابع وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية وستة تحت الأفق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين فإذا الشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة إلى رأس السرطان ورأس الجدي ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعا وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتا فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعا وستين ويكون انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر. ثم إن الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الأشعة قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون

ٱلْحَرُّ عِنْدَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ لِأَنَّ ٱلضَّوْءَ سَبَبُ ٱلْحَرِّ وَٱلتَّسْخِينِ

ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي ٱلسَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَيِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ ٱلْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱلْجَدْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى ٱلْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى ٱلْأَشِعَّةُ ٱلْقَائِمَةُ ٱلزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى ذَلِكَ ٱلْأُفُقِ وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَشْتَعِلُ ٱلْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا دَامَتِ ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ ٱلْأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى ٱلْأُفُقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فِي خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ ٱلْحَرِّ يَفْعَلُ فِي ٱلْهَوَاءِ تَجْفِيفاً وَيُبْساً يَمْنَعُ مِنَ ٱلتَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ ٱلْحَرُّ جَفَّتِ ٱلْمِيَاهُ وَٱلرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ ٱلتَّكْوِينُ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ إِذِ ٱلتَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ ٱلْحَرُّ إِلَى ٱلْإِعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلاً قَلِيلاً فَيَكُونُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَتَزَايَدُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ ٱلْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ ٱلضَّوْءِ وَكَوْنِ ٱلْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةَ ٱلزَّوَايَا فَيَنْقُصُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيْدَ أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْبَرْدِ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيراً فِي ٱلتَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْبَرْدِ فِي ٱلْجَمَدِ فَلِذَلِكَ كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي قَلِيلاً وَفِي ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ مُتَوَسِّطاً لِاعْتِدَالِ ٱلْحَرِّ بِنُقْصَانِ ٱلضَّوْءِ وَفِي ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ كَثِيراً لِنُقْصَانِ ٱلْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ٱلْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ ٱلتَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْحَرُّ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ ٱلْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْيُبْسِ كَمَا بَعْدَ ٱلسَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلرُّبْعِ ٱلشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ. وَمِنْ هُنَا أَخَذَ ٱلْحُكَمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ ٱلْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا ٱمْتِنَاعَ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ ٱلْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ وَٱلْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقَلِّيٌّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ ٱلْإِسْتِوَاءِ وَٱلَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدّاً. وَقَدْ زَعَمَ ٱبْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ ٱلْإِسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلْجَنُوبِ بِمَثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم . ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليما فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضاً ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف وإلى آخر السابع إلى ست عشرة ساعة وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطوال من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد. وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم وهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.

والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلاً عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتباً جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

الإقليم الأول * وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن

ٱلْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ ٱلشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ ٱلْمَعْزُ وَقِتَالُهُمْ بِٱلْحِجَارَةِ يَرْمُونَهَا إِلَى خَلْفُ وَعِبَادَتُهُمُ ٱلسُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِيناً وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ هٰذِهِ ٱلْجَزَائِرِ إِلَّا بِٱلْعُثُورِ لَا بِٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَيْرَ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلرِّيَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِّهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوصِلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي مَمَرِّ ذٰلِكَ ٱلْمَهَبِّ وَإِذَا ٱخْتَلَفَ ٱلْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصِلُ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ حُوذِيَ بِهِ ٱلْقِلْعُ مُحَاذَاةً يَحْمِلُ ٱلسَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِينَ فِي ذٰلِكَ مُحَصَّلَةٍ عِنْدَ ٱلنَّوَاتِيَةِ وَٱلْمَلَّاحِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي حَافَاتِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَفِي عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ ٱلْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابُّ ٱلرِّيَاحِ وَمَمَرَّاتُهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهٰذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَلِذٰلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ ٱلسُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرْأَى ٱلسَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوِّ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ ٱلْأَبْخِرَةِ ٱلْمُمَانِعَةِ لِلسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ فَتُحَلِّلُهَا فَلِذٰلِكَ عَسُرَ ٱلِٱهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعُبَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا. وَأَمَّا ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ ٱلنِّيلِ ٱلْآتِي مِنْ مَبْدَإِهِ عِنْدَ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نِيلَ ٱلسُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أَوْلِيلَ وَعَلَى هٰذَا ٱلنِّيلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَّارُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَبِٱلْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِيِّهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِيِّ هٰذَا ٱلنِّيلِ قَوْمٌ مِنَ ٱلسُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ لِمْلِمُ وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَٱلتَّكْرُورِ يُغِيرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةُ رَقِيقِهِمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي ٱلْجَنُوبِ عُمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَاسِيُّ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ يَسْكُنُونَ ٱلْفَيَافِيَ وَٱلْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَٱلْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ ٱلْبَشَرِ. وَفَوَاكِهُ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِثْلِ تُوَاتَ وَتِكْدَرَارِينَ وَوَرْكَلَانَ. فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ ٱلْعَلَوِيِّينَ

يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زخار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدإه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صباً هائلاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد

أَسوَانَ نَاعِدَةِ ٱلصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ ٱلجَنَادِلِ وَبَيْنَ ٱلجَنَادِلِ وَأُسْوَانَ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً وَٱلْوَاحَاتُ فِي غَرْبِيِّهِ عَدْوَةَ ٱلنِّيلِ وَهِيَ ٱلْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ ٱلْعِمَارَةِ ٱلْقَدِيمَةِ. وَفِي وَسَطِ هذا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ ٱلْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ ذَاهِباً إِلَى أَرْضِ ٱلنُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي ٱلنِّيلِ ٱلْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِيلِ ٱلْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلنِّيلِ. وَإِلَى وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ ٱلْهِنْدِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي ٱلْجَزَائِرِ ٱلَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ ٱلصِّينِ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ ٱلْيَمَنِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْهَابِطَيْنِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُمَ وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ ٱلْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ ٱلْيَمَنِ وَبِلَادُ ٱلشِّحْرِ فِي شَرْقِيِّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذْكُرُهُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا ٱلَّذِي عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ فَبَلَدُ زَالِعَ مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ ٱلْبَجَةِ [1] فِي شَمَالِيِّ ٱلْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَلَاقِيِّ فِي أَعَالِي ٱلصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ يَضِيقُ ٱلْبَحْرُ ٱلْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحَمَةِ جَبَلِ ٱلْمَنْدَبِ ٱلْمَاثِلِ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ مُمْتَدّاً مَعَ سَاحِلِ ٱلْيَمَنِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي طُولِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً فَيَضِيقُ ٱلْبَحْرُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ ٱلْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ ٱلْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ ٱلسُّوَيْسِ قَرِيباً مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَجَالَاتُ ٱلْبَجَةِ مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيِّهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ تَهَائِمُ ٱلْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدُ عَلِيِّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ قُرَى بَرْبَرٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيِّهِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ

(١) ويقال ايضاً البجاة واما زالع فهي زيلع .ا.

جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة . من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل . وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة . ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والأفاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله

الإقليم الثاني * وهو متصل بالأول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان ثم مجالات أزكار من قبائل

ٱلْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْوَاحَاتِ ٱلدَّاخِلَةَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ أَعْلاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْبَاحُوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلادُ ٱلصَّعِيدِ حَافَاتُ ٱلنِّيلِ ٱلذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِي ٱلْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ ٱلْحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ ٱلْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَبَلُ ٱلْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلاهُ بَلَدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذٰلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصٍ ثُمَّ إِلَى صُولٍ وَيَفْتَرِقُ ٱلنِّيلُ هُنَالِكَ عَلَى شُعْبَتَيْنِ يَنْتَهِي ٱلْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱللَّاهُونِ وَٱلْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ ٱلْمُقَطَّمِ صَحَارَى عِيذَابَ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ ٱلسُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَفِي عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ ٱلْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلَمْلَمَ إِلَى بِلادِ يَثْرِبَ فِي وَسَطِ ٱلْحِجَازِ مَكَّةُ شَرَّفَهَا ٱللّٰهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عِيذَابَ فِي ٱلْعُدْوَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلادُ نَجْدٍ أَعْلاهَا فِي ٱلْجَنُوبِ وَتَبَالَةُ وَجُرَشُ إِلَى عُكَاظَ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ بِلادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ ٱلْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي ٱلشَّرْقِ أَرْضُ سَبَإٍ وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ ٱلشِّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلثَّانِي ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱلشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيِّهِ وَجَوْفِيِّهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيْهَا مِنْ أَعْلاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ ٱلشِّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلادُ عُمَانَ. ثُمَّ بِلادُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فِي ٱلْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِٱلْقِطْعَةِ ٱلْأُخْرَى فِي ٱلسَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ ٱلْهِنْدِ جَانِبَهُ ٱلْأَعْلَى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلادُ ٱلسِّنْدِ إِلَى بِلادِ مُكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلادُ ٱلطُّوبَرَانِ وَهِيَ مِنَ ٱلسِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ ٱلسِّنْدُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَتَحُولُ ٱلْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ ٱلْآتِي مِنْ نَاحِيَةِ بِلادِ ٱلْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلادِ ٱلْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلادُ بَلْهَرَا وَتَحْتَهَا فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِلادُ ٱلْقَنُّوجِ مَا بَيْنَ

قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم

الإقليم الثالث * وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاجة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم . ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرقاً فينتهي إلى بلاد الشام فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالاً فدخل في الإقليم الثالث والخامس

فَلِهذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الكَثِيرُ مِنْ بِلاَدِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلاَدِ الجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيِّهَا بِلاَدُ بِجَايَةَ فِي سَاحِلِ البَحْرِ ثُمَّ قُسَنْطِينِيَّةُ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ الجُزْءِ الأَوَّلِ وَعَلَى مَرْحَلَةٍ مِنْ هذَا البَحْرِ فِي جَنُوبِي هذِهِ البِلاَدِ وَمُرْتَفِعاً إِلَى جَنُوبِ المَغْرِبِ الأَوْسَطِ بَلَدُ أَشِيرَ ثُمَّ بَلَدُ المَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسْكَرَةُ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاس المُتَّصِلِ بِدَرَنَ كَمَا مَرَّ وَذلِكَ عِنْدَ آخِرِ هذَا الجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالجُزْءُ الثَّانِي مِن هذَا الإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الجُزْءِ الأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنَ عَلَى نَحْوِ الثُّلُثِ مِنْ جُنُوبِهِ ذَاهِباً فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَغْمُرُ البَحْرُ الرُّومِيُّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ فَالقِطْعَةُ الجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ غَرْبِيُّهَا كُلُّهُ مَفَاوِزُ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدُ غُدَامِسَ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً أَرْضُ وَدَّانَ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ وَالقِطْعَةُ الجَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ البَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسَ وَتِبِسَّةُ وَالأُرْبُسُ وَعَلَى سَاحِلِ البَحْرِ بَلَدُ بُونَةَ ثُمَّ فِي سَمْتِ هذِهِ البِلاَدِ شَرْقاً بِلاَدُ أَفْرِيقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ البَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ ثُمَّ السُّوسَةُ ثُمَّ المَهْدِيَّةُ وَفِي جَنُوبِ هذِهِ البِلاَدِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنَ بِلاَدُ الجَرِيدِ تُوزَرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْزَاوَةُ وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاحِلِ مَدِينَةُ القَيْرَوَانِ وَجَبَلُ وَسْلاَتٍ وَسُبَيْطِلَةُ وَعَلَى سَمْتِ هذِهِ البِلاَدِ كُلِّهَا شَرْقاً بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى البَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِإِزَائِهَا فِي الجَنُوبِ جَبَلُ دُمَّرَ وَنَقْرَةُ مِنْ قَبَائِلِ هَوَّارَةَ مُتَّصِلَةً بِجَبَلِ دَرَنَ وَفِي مُقَابَلَةِ غُدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ القِطْعَةِ الجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هذَا الجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سُوَيْقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى البَحْرِ وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالاَتُ العَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانَ وَفِي الجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضاً فِيهِ جَبَلُ دَرَنَ إِلاَّ أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي البَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ طَرَفَ أَوْثَانَ وَالبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَايِقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنَ فَالَّذِي وَرَاءَ الجَبَلِ فِي الجَنُوبِ وَفِي الغَرْبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَمَجَالاَتُ العَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنِ خَطَّابٍ ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إِلَى آخِرِ الجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الجَبَلِ وَالبَحْرِ فِي الغَرْبِ مِنْهُ بَلَدُ سُرْتَ عَلَى البَحْرِ ثُمَّ خَلاَءٌ وَقِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا العَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَةُ ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطَفِ الجَبَلِ ثُمَّ طَلْمَسَةُ عَلَى البَحْرِ هُنَالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ المُنْعَطَفِ مِنَ الجَبَلِ مَجَالاَتُ هَيْبٍ وَرَوَاحَةَ إِلَى آخِرِ الجُزْءِ وَفِي الجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ وَفِي الأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ صَحَارَى بَرْقِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا

بلادُ هَيبٍ وَرُوَاحَةُ ثُمَّ يَدخُلُ البحرُ الرُّومِيُّ في هذا الجزءِ فَيَغمُرُ طائفةً منهُ إلى الجنوبِ حتّى يُزاحِمَ طَرَفَهُ الأعلى وَيَبقَى بَينَهُ وَبَينَ آخِرِ الجُزءِ قِفَارٌ تَجُولُ فيها العَرَبُ وَعلى سَمْتِها شرقاً بِلادُ الفَيُّومِ وَهِيَ عَلى مَصَبِّ أَحدِ الشِّعبَينِ مِنَ النِّيلِ الَّذي يَمُرُّ على اللَّاهُونِ مِن بلادِ الصَّعيدِ في الجزءِ الرّابعِ مِنَ الأقليمِ الثّاني وَيَصُبُّ في بُحَيرَةِ فَيُّومَ وَعلى سَمْتِهِ شَرقاً أَرضُ مِصرَ وَمَدينَتُها الشَّهِيرَةُ على الشِّعبِ الثّاني الَّذي يَمُرُّ بِدَلَاصٍ مِن بلادِ الصَّعيدِ عِندَ آخِرِ الجُزءِ الثّاني وَيَفتَرِقُ هذا الشِّعبُ افتِرَاقَةً ثانِيَةً مِن تَحتِ مِصرَ على شِعبَينِ آخَرَينِ مِن شُطَنُوفٍ وَزِفتِي وَيَنقَسِمُ الأَيمَنُ مِنهُما مِن قُرمُطٍ بِشِعبَينِ آخَرَينِ وَيَصُبُّ جَميعُها في البحرِ الرُّومِيِّ فَعلى مَصَبِّ الغَربِيِّ مِن هذا الشِّعبِ بَلَدُ الإِسكَندَرِيَّةِ وَعلى مَصَبِّ الوَسَطِ بَلَدُ رَشِيدَ وَعلى مَصَبِّ الشَّرقِيِّ بَلَدُ دِمياطَ وَبَينَ مِصرَ وَالقاهِرَةِ وَبَينَ هذهِ السَّواحِلِ البَحرِيَّةِ أَسافِلُ الدِّيارِ المِصرِيَّةِ كُلُّها مَحشُوَّةٌ عُمرَاناً وَفَلْحاً وَفي الجُزءِ الخامِسِ مِن هذا الإِقليمِ بِلادُ الشّامِ وَأَكثَرُها على ما أَصِفُ وَذلِكَ لِأَنَّ بَحرَ القُلزُمِ يَنتَهِي مِنَ الجَنوبِ وَفي الغَربِ مِنهُ عِندَ السُّوَيسِ لِأَنَّهُ في مَمَرِّهِ مُبتَدِئاً مِنَ البَحرِ الهِندِيِّ إلى الشَّمالِ يَنعَطِفُ آخِذاً إلى جِهَةِ الغَربِ فَتَكُونُ قِطعَةٌ مِن انعِطافِهِ في هذا الجُزءِ طَويلَةً فَيَنتَهي في الطَّرَفِ الغَربِيِّ مِنهُ إلى السُّوَيسِ وَعلى هذهِ القِطعَةِ بَعدَ السُّوَيسِ فارانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيلَةُ مِديَنَ ثُمَّ الحَوراءُ في آخِرِها وَمِن هُنالِكَ يَنعَطِفُ بِساحِلِهِ إلى الجَنوبِ في أَرضِ الحِجازِ كَما مَرَّ في الإِقليمِ الثّاني في الجُزءِ الخامِسِ مِنهُ وَفي النّاحِيَةِ الشَّمالِيَّةِ مِن هذا الجُزءِ قِطعَةٌ مِنَ البَحرِ الرُّومِيِّ غَمَرَت كَثيراً مِن غَربِيِّهِ عَلَيها الفَرَما وَالعَرِيشُ وَقارَبَ طَرَفُها بَلَدَ القُلزُمِ فَيُضايِقُ ما بَينَهُما مِن هُنالِكَ وَيَبقَى شِبهُ البابِ مُفضِياً إلى أَرضِ الشّامِ وَفي غَربِيِّ هذا البابِ فَحصُ التِّيهِ أَرضٌ جَرداءُ لا تُنبِتُ كانَت مَجالاً لِبَنِي إِسرائيلَ بَعدَ خُرُوجِهِم مِن مِصرَ وَقَبلَ دُخُولِهِم إلى الشّامِ أَربَعينَ سَنَةً كَما قَصَّهُ القُرآنُ وَفي هذهِ القِطعَةِ مِنَ البَحرِ الرُّومِيِّ في هذا الجُزءِ طائِفَةٌ مِن جَزيرَةِ قُبرُصَ وَبَقِيَّتُها في الإِقليمِ الرّابِعِ كَما نَذكُرُهُ وَعلى ساحِلِ هذهِ القِطعَةِ عِندَ الطَّرَفِ المُتَضايِقِ لِبَحرِ السُّوَيسِ بَلَدُ العَرِيشِ وَهُوَ آخِرُ الدِّيارِ المِصرِيَّةِ وَعَسقَلانُ وَبَينَهُما طَرَفُ هذا البَحرِ ثُمَّ تَنحَطُّ هذهِ القِطعَةُ في انعِطافِها مِن هُنالِكَ إلى الإِقليمِ الرّابِعِ عِندَ طَرابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنالِكَ يَنتَهِي البَحرُ الرُّومِيُّ في جِهَةِ الشَّرقِ وَعلى هذهِ

ٱلقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ ٱلشَّامِ فَفِي شَرْقِهِ غَزَّةُ ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبِٱنْحِرَافٍ يَسِيرٍ عَنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ بَلَدُ قِيسَارِيَّةَ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدُ عَكَّاءَ ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَاءُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ٱلْبَحْرُ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيُقَابِلُ هَذِهِ ٱلْبِلَادَ ٱلسَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ ٱلْقِطْعَةِ فِي هَذَا ٱلْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ وَيَذْهَبُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى ٱلشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا ٱلْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلَ ٱللُّكَامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةُ ٱلَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا ٱلْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مَدْفَنُ ٱلْخَلِيلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ ٱلشَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ ٱلْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ ٱلْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ ٱلشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ ٱلْحِجْرِ وَدِيَارُ ثَمُودَ وَتَيْمَاءُ وَدُومَةُ ٱلْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ ٱلْحِجَازِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رَضْوَى وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلشَّرَاةِ وَبَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ صَحْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ ٱلشَّرَاةِ مَدِينَةُ ٱلْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ ٱللُّكَامِ ثُمَّ ٱلْأُرْدُنُّ ثُمَّ طَبَرِيَّةُ وَفِي شَرْقِيِّهَا بِلَادُ ٱلْغَوْرِ إِلَى أَذْرُعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دُومَةُ ٱلْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا ٱلْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ ٱلْحِجَازِ . وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ إِلَى ٱلشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا ٱلْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَبَيْرُوتَ مِنَ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ ٱللُّكَامِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي ٱلشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكَّ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمْصَ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ آخِرَ ٱلْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ ٱللُّكَامِ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكَّ وَحِمْصٍ بَلَدُ تَدْمُرَ وَمَجَالَاتُ ٱلْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ ٱلْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ وَٱلْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَرْجِ وَٱلصَّمَّانِ إِلَى ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسَافِلِ هَذَا ٱلْجُزْءِ تَحْتَ ٱلْمَجَالَاتِ بَلَدُ ٱلْحِيرَةِ وَٱلْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ ٱلْفُرَاتِ . وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ ٱلْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا ٱلْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَٱلْأُبُلَّةِ مِنْ أَسَافِلِ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَّادَانَ نَهْرُ دِجْلَةَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطَ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ ٱلْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَّادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ ٱلْقِطْعَةُ مِنَ ٱلْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَايِقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيِّهِ وَضَيِّقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ مُضَايِقَةٌ لِلْحَدِّ ٱلشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدْوَتِهَا ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَسَافِلُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ وَٱلْأَحْسَاءُ وَفِي غَرْبِهَا أَخْطُبُ وَٱلصَّمَّانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ

أَعلَاهَا وَهُو مِنْ عِندِ آخِرِ ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلشَّرقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ ٱمْتَدَّ مِنْ هٰذَا ٱلبَحْرِ مُشَرِّقًا وَوَرَاءَهُ إِلَى ٱلجَنُوبِ فِي هٰذَا ٱلجُزْءِ جِبَالُ ٱلقَفْصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحْتَ هُرمُزٍ بِلَادُ فَارِس. مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَ أَبْجِرْدَ وَنَسَا وَإِصْطَخْرَ وَٱلشَّاهِجَانِ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى ٱلشَّمَالِ عِندَ طَرَفِ ٱلبَحْرِ بِلَادُ خُوزِسْتَانَ وَمِنْهَا ٱلأَهْوَازُ وَتُسْتَرُ وَصَدَى وَسَابُورُ وَٱلسُّوسُ وَرَامَ هُرمُزُ وَغَيْرُهَا وَأَرَّجَانُ وَهِيَ حَدٌّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِسْتَانَ جِبَالُ ٱلأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَمَّى ٱلرُّسُومَ وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فِي ٱلأَعْلَى مِنْهُ مِنَ ٱلمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ ٱلقَفْصِ وَيَلِيهَا مِنَ ٱلجَنُوبِ وَٱلشَّمَالِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمُكْرَانَ وَمِنْ مُدُنِهَا ٱلرُّودَنُ وَٱلشِّيرَجَانُ وَجِيرَفْتُ وَيَزْدَشِيرُ وَٱلبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى ٱلشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هٰذَا ٱلجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي ٱلمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ فِي ٱلجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهَسْتَانَ فِي ٱلشَّمَالِ غَرْبًا وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلجُزْءِ ٱلمَفَاوِزُ ٱلعُظْمَى ٱلقَلِيلَةُ ٱلمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بُسْتُ وَٱلطَّاقُ وَأَمَّا كُوهَسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَقُوهَسْتَانُ آخِرَ ٱلجُزْءِ وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ ٱلخَلْجِ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ ٱلهِندِ مِنْ جَنُوبِهَا. وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ هٰذِهِ ٱلمَجَالَاتِ جِبَالُ ٱلغَوْرِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزْنَةُ فُرْضَةُ ٱلهِندِ وَفِي آخِرِ ٱلغَوْرِ مِنَ ٱلشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَاذَ ثُمَّ فِي ٱلشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ ٱلجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَايِنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرْوُ ٱلرُّوذِ وَٱلطَّالَقَانُ وَٱلجُوزَجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هٰذَا ٱلنَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ تِرْمِذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ ٱلتُّرْكِ وَهٰذَا ٱلنَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَخَّانَ فِي حُدُودِ بَذَخْشَانَ مِمَّا يَلِي ٱلهِندَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هٰذَا ٱلجُزْءِ وَعِندَ آخِرِهِ مِنَ ٱلشَّرقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغَرِّبًا إِلَى وَسَطِ ٱلجُزْءِ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُوَارَزْمَ فِي ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَيُمِدُّهُ عِندَ ٱنْعِطَافِهِ فِي وَسَطِ ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ ٱلخُتَّلِ وَٱلوَخْشِ.

مِنْ شَرْقِيِّهِ وأَنهارٌ أُخرى مِن جبالِ البُتَّمِ مِن شرقِيِّهِ أيضاً وجوفيِّ الجبلِ حتَّى يَتَّسِعَ ويَعظُمَ بما لا كِفاءَ لَهُ مِن هٰذهِ الأنهارِ الخمسةِ المُمِدَّةِ لَهُ نَهرُ وَخشابَ يَخرُجُ مِن بلادِ التُّبَّتِ وهيَ بينَ الجنوبِ والشرقِ مِن هٰذا الجزءِ فيَمُرُّ مُغرِّباً بانحرافٍ إلى الشمالِ إلى أن يَخرُجَ إلى الجزءِ التاسعِ قريباً مِن شمالِ هٰذا الجزءِ يَعترِضُهُ في طريقهِ جبلٌ عظيمٌ يَمُرُّ مِن وسطِ الجنوبِ في هٰذا الجزءِ مُشرِّقاً بانحرافٍ إلى الشمالِ إلى أن يَخرُجَ إلى الجزءِ التاسعِ قريباً مِن شمالِ هٰذا الجزءِ فيَجُوزُ بلادَ التُّبَّتِ إلى القطعةِ الشرقيَّةِ الجنوبيَّةِ مِن هٰذا الجزءِ ويَحُولُ بينَ التُّركِ وبينَ بلادِ الخُتَّلِ وليسَ فيهِ إلَّا مَسلَكٌ واحِدٌ في وسطِ الشرقِ مِن هٰذا الجزءِ جعلَ فيهِ الفضلُ بنُ يحيى سَدّاً وبنى فيهِ باباً كسَدِّ يأجوجَ ومأجوجَ فإذا خرجَ نهرُ وخشابَ مِن بلادِ التُّبَّتِ واعترضَهُ هٰذا الجبلُ فيَمُرُّ تحتَهُ في مدىً بعيدٍ إلى أن يَمُرَّ في بلادِ الوَخشِ ويَصُبَّ في نهرِ جيحونَ عندَ حدودِ بلخَ ثمَّ يَمُرُّ هابطاً إلى التِّرمِذِ في الشمالِ إلى بلادِ الجوزَجانِ وفي الشرقِ عن بلادِ الغورِ فيما بينَها وبينَ نهرِ جيحونَ بلادُ النَّاسانِ مِن خراسانَ وفي العُدوةِ الشرقيَّةِ هنالكَ مِنَ النهرِ بلادُ الخُتَّلِ وأكثرُها جبالٌ وبلادُ الوَخشِ ويَحُدُّها مِن جهةِ الشمالِ جبالُ البُتَّمِ تخرُجُ مِن طرفِ خراسانَ غربيَّ نهرِ جيحونَ وتذهبُ مُشرِّقةً إلى أن يتَّصِلَ طرفُها بالجبلِ العظيمِ الَّذي خلفَهُ بلادُ التُّبَّتِ ويَمُرُّ تحتَهُ نهرُ وخشابَ كما قُلناهُ فيتَّصِلُ عندَ بابِ الفضلِ بنِ يحيى ويَمُرُّ نهرُ جيحونَ بينَ هٰذهِ الجبالِ وأنهارٍ أُخرى تَصُبُّ فيهِ مِنها نهرُ بلادِ الوَخشِ يَصُبُّ فيهِ مِنَ الشرقِ تحتَ التِّرمِذِ إلى جهةِ الشمالِ ونهرُ بلخَ يَخرُجُ مِن جبالِ البُتَّمِ مَبدَإِهِ عندَ الجوزجانِ ويَصُبُّ فيهِ مِن غربيِّهِ وعلى هٰذا النهرِ مِن غربيِّهِ بلادُ آمِدَ مِن خراسانَ وفي شرقيِّ النهرِ مِن هنالكَ أرضُ الصُّغدِ وأُسرُوشَنَةُ مِن بلادِ التُّركِ وفي شرقيِّها أرضُ فرغانةَ أيضاً إلى آخرِ الجزءِ شرقاً وكلُّ بلادِ التُّركِ تحوزُها جبالُ البُتَّمِ إلى شمالِها وفي الجزءِ التاسعِ مِن غربِهِ أرضُ التُّبَّتِ إلى وسطِ الجزءِ وفي جنوبيِّها بلادُ الهندِ وفي شرقيِّها بلادُ الصينِ إلى آخرِ الجزءِ وفي أسفلِ هٰذا الجزءِ شمالاً عن بلادِ التُّبَّتِ بلادُ الخزلجيَّةِ مِن بلادِ التُّركِ إلى آخرِ الجزءِ شرقاً وشمالاً ويتَّصِلُ بها مِن غربيِّها أرضُ فرغانةَ أيضاً إلى آخرِ الجزءِ شرقاً ومِن شرقيِّها أرضُ التغرغرِ مِنَ التُّركِ إلى الجزءِ شرقاً وشمالاً . وفي الجزءِ العاشرِ في الجنوبِ منهُ جميعاً بقيَّةُ الصينِ وأسافلُهُ وفي الشمالِ بقيَّةُ

بلادُ ٱلتَّغَزْغُزِ ثُمَّ شَرقاً عَنهُم بِلادُ خِرْخِيزَ مِنَ ٱلتُّرْكِ أَيضاً إِلى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي ٱلشَّمالِ مِنْ أَرْضِ خِرْخِيزَ بِلادُ كِتْمانَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَقُبالَتَها فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ جَزِيرَةُ ٱلياقُوتِ فِي وَسَطِ جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لا مَنفَذَ مِنْهُ إِلَيْها وَلا مَسْلَكَ وَٱلصُّعُودُ إِلى أَعْلاهُ مِن خارِجِهِ صَعْبٌ فِي ٱلْغايَةِ وَفِي ٱلْجَزِيرَةِ حَيّاتٌ قَتّالَةٌ وَحَصىً مِنَ ٱليَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتالُ أَهلُ تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ بِمَا يُلْهِمُهُمُ ٱللهُ إِلَيْهِ وَأَهلُ هٰذِهِ ٱلْبِلادِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ وَٱلْعاشِرِ فِيما وَراءَ خُراسانَ وَٱلْجِبالُ كُلُّها مَجالاتٌ لِلتُّرْكِ أُمَمٌ لا تُحصَى وَهُمْ ظَواعِنُ رَحّالَةٌ أَهلُ إِبِلٍ وَشاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنِّتاجِ وَٱلرُّكُوبِ وَٱلأَكْلِ وَطَوائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لا يُحْصِيهِمْ إِلّا خالِقُهُمْ وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمّا يَلِي بِلادَ ٱلنَّهْرِ نَهْرِ جَيْحُونَ وَيَغْزُونَ ٱلْكُفّارَ مِنهُمُ ٱلدّائِنِينَ بِٱلْمَجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقِيقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلى بِلادِ خُراسانَ وَٱلْهِنْدِ وَٱلْعِراقِ

أَلإِقْلِيمُ ٱلرّابِعُ * يَتَّصِلُ بِٱلثّالِثِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمالِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوباً إِلى آخِرِهِ شَمالاً وَعَلَيْها فِي ٱلْجَنُوبِ مَدِينَةُ طَنْجَةَ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي خَلِيجٍ مُتَضايِقٍ بِمِقْدارِ ٱثْنَي عَشَرَ مِيلاً ما بَيْنَ طَرِيفٍ وَٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْراءِ شَمالاً. وَقَصْرِ ٱلْمَجازِ وَسَبْتَةَ جَنُوباً وَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً إِلى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ ٱلْخامِسِ مِنْ هٰذا ٱلإِقْلِيمِ وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهابِهِ بِتَدْرِيجٍ إِلى أَنْ يَغْمُرَ ٱلأَرْبَعَةَ ٱلأَجْزاءَ وَأَكْثَرَ ٱلْخامِسِ مِنْ هٰذا ٱلإِقْلِيمِ ٱلثّالِثِ وَٱلْخامِسِ كَما سَنَذْكُرُهُ وَيُسَمَّى هٰذا ٱلْبَحْرَ ٱلْبَحْرُ ٱلشّامِيُّ أَيضاً وَفِيهِ جَزائِرُ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُها فِي جِهَةِ ٱلْغَرْبِ يابِسَةُ ثُمَّ مايُرْقَةُ ثُمَّ مِنُرْقَةُ ثُمَّ سَرْدانِيَةُ ثُمَّ صِقِلِّيَةُ وَهِيَ أَعْظَمُها ثُمَّ بَلُونِسُ ثُمَّ أَقْرِيطِشُ ثُمَّ قُبْرُصُ كَما نَذْكُرُها كُلَّها فِي أَجْزائِها ٱلَّتِي وَقَعَتْ فِيها وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذا ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلثّالِثِ مِنْهُ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثّالِثِ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخامِسِ خَلِيجُ ٱلْبَنادِقَةِ يَذْهَبُ إِلى ناحِيَةِ ٱلشَّمالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمُرُّ مُغَرِّباً إِلى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثّانِي مِنَ ٱلْخامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيضاً فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرّابِعِ شَرْقاً مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخامِسِ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي ٱلشَّمالِ مُتَضايِقاً فِي عَرْضِ رَمْيَةِ ٱلسَّهْمِ إِلى آخِرِ ٱلإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلى ٱلْجُزْءِ ٱلرّابِعِ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلسّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلى بَحْرِ نِيطِشَ ذاهِباً إِلى ٱلشَّرْقِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ ٱلسّادِسِ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلسّادِسِ كَما نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِي أَماكِنِهِ وَعِنْدَما يَخْرُجُ هٰذا ٱلْبَحْرِ

ٱلرُّومِيُّ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنجَةَ وَيَنفَسِحُ إِلَى ٱلإِقلِيمِ ٱلثَّالِثِ يَبقَى فِي ٱلجَنُوبِ عَنِ ٱلخَلِيجِ قِطعَةٌ صَغِيرَةٌ مِن هٰذَا ٱلجُزءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنجَةَ عَلَى مَجمَعِ ٱلبَحرَينِ وَبَعدَهَا مَدِينَةُ سَبتَةَ عَلَى ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغمُرُ هٰذَا ٱلبَحرُ بَقِيَّةَ هٰذَا ٱلجُزءِ شَرقًا وَيَخرُجُ إِلَى ٱلثَّالِثِ وَأَكثَرُ ٱلعِمَارَةِ فِي هٰذَا ٱلجُزءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ ٱلخَلِيجِ مِنهُ وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ ٱلأَندَلُسِ ٱلغَربِيَّةُ مِنهَا مَا بَينَ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ وَٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ أَوَّلُهَا طَرِيفُ عِندَ مَجمَعِ ٱلبَحرَينِ وَفِي ٱلشَّرقِ مِنهَا عَلَى سَاحِلِ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلجَزِيرَةُ ٱلخَضرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةُ ثُمَّ ٱلمُنَكَّبُ ثُمَّ ٱلمَرِيَّةُ وَتَحتَ هٰذِهِ مِن لَدُنِ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ غَربًا وَعَلَى مَقرُبَةٍ مِنهُ شَرِيشُ ثُمَّ لَبلَةُ وَقُبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسَ وَفِي ٱلشَّرقِ عَن شَرِيشَ وَلَبلَةَ إِشبِيلِيَّةُ ثُمَّ أَستَجَةُ وَقُرطُبَةُ وَمَدِيلَةُ ثُمَّ غِرنَاطَةُ وَجَيَّانُ وَأُبَدَةُ ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسطَةُ وَتَحتَ هٰذِهِ شَنتَمَرِيَّةُ وَشِلبُ عَلَى ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ غَربًا وَفِي ٱلشَّرقِ عَنهُمَا بَطَليُوسُ وَمَارِدَةُ وَيَابِرَةُ ثُمَّ غَافِقُ وَبَزجَالَةُ ثُمَّ قَلعَةُ رِيَاحَ وَتَحتَ هٰذِهِ أَشبُونَةُ عَلَى ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ غَربًا وَعَلَى نَهرِ بَاجَةَ وَفِي ٱلشَّرقِ عَنهَا شَنتَرِينُ وَمَوزِيَّةُ عَلَى ٱلنَّهرِ ٱلمَذكُورِ ثُمَّ قَنطَرَةُ ٱلسَّيفِ وَيُسَامِتُ أَشبُونَةَ مِن جِهَةِ ٱلشَّرقِ جَبَلُ ٱلشَّارَاتِ يَبدَأُ مِنَ ٱلمَغرِبِ هُنَالِكَ وَيَذهَبُ مُشَرِّقًا مَعَ آخِرِ ٱلجُزءِ مِن شَمَالِيِّهِ فَيَنتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعدَ ٱلنِّصفِ مِنهُ وَتَحتَ هٰذَا ٱلجَبَلِ طَلَبِيرَةُ فِي ٱلشَّرقِ مِن فُورَنَةَ ثُمَّ طُلَيطُلَةُ ثُمَّ وَادِي ٱلحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِندَ أَوَّلِ هٰذَا ٱلجَبَلِ فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ أَشبُونَةَ بَلَدُ قَلَمرِيَّةَ وَهٰذِهِ غَربِيُّ ٱلأَندَلُسِ. وَأَمَّا شَرقِيُّ ٱلأَندَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ مِنهَا بَعدَ ٱلمَرِيَّةِ قَرطَاجَنَّةُ ثُمَّ لَقَنتُ ثُمَّ دَانِيَةُ ثُمَّ بَلَنسِيَةُ إِلَى طَرطُوشَةَ آخِرِ ٱلجُزءِ فِي ٱلشَّرقِ وَتَحتَهَا شَمَالًا لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ تُتَاخِمَانِ بَسطَةَ وَقَلعَةَ رِيَاحِ مِن غَربِ ٱلأَندَلُسِ ثُمَّ مُرسِيَةُ شَرقًا ثُمَّ شَاطِبَةُ تَحتَ بَلَنسِيَةَ شَمَالًا ثُمَّ شُقرُ ثُمَّ طَرطُوشَةُ ثُمَّ طَركُونَةُ آخِرَ ٱلجُزءِ ثُمَّ تَحتَ هٰذِهِ شَمَالًا أَرضُ مِنجَالَةَ وَرِيدَةُ مُتَاخِمَانِ لِشَقُورَةَ وَطُلَيطُلَةَ مِنَ ٱلغَربِ ثُمَّ أَفرَاغَةُ شَرقًا تَحتَ طَرطُوشَةَ وَشَمَالًا عَنهَا ثُمَّ فِي ٱلشَّرقِ عَن مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلعَةُ أَيُّوبَ ثُمَّ سَرَقُسطَةُ ثُمَّ لَارِدَةُ آخِرُ ٱلجُزءِ شَرقًا وَشَمَالًا وَٱلجُزءُ ٱلثَّانِي مِن هٰذَا ٱلإِقلِيمِ غَمَرَ ٱلمَاءُ جَمِيعَهُ إِلَّا قِطعَةً مِن غَربِيِّهِ فِي ٱلشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ ٱلبُرتَاتِ وَمَعنَاهُ جَبَلُ ٱلثَّنَايَا وَٱلسَّالِكُ يَخرُجُ إِلَيهِ مِن آخِرِ ٱلجُزءِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلخَامِسِ يَبدَأُ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلمُنتَهِي مِنَ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ عِندَ آخِرِ ذٰلِكَ ٱلجُزءِ جَنُوبًا وَشَرقًا وَيَمُرُّ فِي ٱلجَنُوبِ

بآنحرافٍ إِلَى ٱلشَّرقِ فَيَخْرُجُ فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُنْحَرِفاً عَنِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هذا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تُفْضِي ثَنَايَاهَا إِلَى ٱلْبَرِّ ٱلْمُتَّصِلِ وَتُسَمَّى أَرْض غشكُونِيَةَ وَفِيهِ مَدِينَةُ خَرِيدَةَ وَقَرْقَشُونَةَ وَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مدِينَةُ بَرْسَلُونَةَ ثُمَّ أَرْبُونَةُ وَفِي هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي غَمَرَ ٱلْجُزْءَ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَٱلْكَثِيرِ مِنْهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا فَفِي غَرْبِيِّهِ جَزِيرَةُ سِرْدَانِيَةَ وَفِي شَرْقِيِّهِ جَزِيرَةُ صِقِلِّيَةَ مُتَّسِعَة ٱلْأَقْطَارِ يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةِ مِيلٍ وَبِهَا مُدُنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا سَرَقُوسَة وَبَلَرْمُ وَطَرَابِغَةُ وَمَازَرُ وَمَسِينِي وَهٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيقِيَةَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَة أَعْدُوشَ وَمَالِطَةُ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِٱلْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ قِطَع مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قَلُورِيَةَ وَٱلْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَنْكِبَرْدَةَ وَٱلشَّرْقِيَّة مِنْ بِلَادِ ٱلْبَنَادِقَةِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِٱلْبَحْرِ كَمَا مَرَّ وَجَزَائِرُه كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي ٱلثَّالِثِ وَٱلْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُونُس فِي ٱلنَّاحِيَة ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ وَجَزِيرَةُ أَقْرِيطِشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسَطِ ٱلْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ ٱلْجُنُوبِ وَٱلشَّرق مِنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ غَمَرَ ٱلْبَحْرُ مِنْهُ مُثَلَّثَةً كَبِيرَةً بَيْنَ ٱلْجُنُوبِ وَٱلْغَرْب يَنْتَهِي ٱلضِّلْعُ ٱلْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّمَالِ وَيَنْتَهِي ٱلضِّلْعُ ٱلْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ ٱلثَّلَاثِينَ مِنَ ٱلْجُزْءِ وَيَبْقَى فِي ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوَ ٱلثُّلُثِ يَمُرُّ ٱلشَّمَالِي مِنْهَا إِلَى ٱلْغَرْبِ مُنْعَطِفاً مَعَ ٱلْبَحْرِ كَمَا قُلْنَاهُ وَفِي ٱلنِّصْفِ ٱلْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ ٱلشَّام وَيَمُرُّ فِي وَسَطِهَا جَبَلُ ٱللُّكَامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ ٱلشَّامِ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَنْعَطِف مِنْ هُنَالِكَ ذَاهِباً إِلَى ٱلْقُطْرِ ٱلشَّرْقِيِّ ٱلشَّمَالِيِّ وَيُسَمَّى بَعْدَ ٱنْعِطَافِهِ جَبَلَ ٱلسِّلْسِلَةِ وَمِن هُنَالِكَ يَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ ٱلْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّمَال وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ ثَنَايَا تُسَمَّى ٱلدُّرُوبَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُفْضِي إِلَى بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ وَفِي هٰذَا ٱلْجُزْء قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَأَمَّا ٱلْجِهَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ ٱلشَّامِ وَأَنَّ جَبَلَ ٱللُّكَامِ مُعْتَرِضٌ فِيهَا بَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ مِن ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَرْطُوسَ فِي أَوَّلِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ مُتَاخِمَة

لِغَزَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَفِي شَمَالِ أَنْطَرْطُوسَ جَبْلَةُ ثُمَّ ٱللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَنْدَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلَادُ ٱلرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ ٱللُّكَامِ ٱلْمُعْتَرِضُ بَيْنَ ٱلْبَحْرِ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيُصَاقِبُهُ مِنْ بِلَادِ ٱلشَّامِ مِنْ أَعْلَى ٱلْجُزْءِ جَنُوباً مِنْ غَرْبِيِّهِ حِصْنُ ٱلْخَوَابِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيُعْرَفُونَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْفَدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مِصْيَاتَ وَهُوَ قُبَالَةَ أَنْطَرْطُوسَ وَقُبَالَةَ هَذَا ٱلْحِصْنِ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ سَلَمِيَّةَ فِي ٱلشَّمَالِ عَنْ حِمْصٍ وَفِي ٱلشَّمَالِ وَفِي مِصْيَاتِ بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَيُقَابِلُهَا فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ ٱلْمَعَرَّةُ وَفِي شَرْقِهَا ٱلْمَرَاغَةُ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةَ ٱلْمَصِيصَةُ ثُمَّ أَذَنَةُ ثُمَّ طَرَسُوسُ آخِرَ ٱلشَّامِ وَيُحَاذِيهَا مِنْ غَرْبِ ٱلْجَبَلِ قِنَّسْرِينُ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ وَقُبَالَةَ قِنَّسْرِينَ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ حَلَبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنْبِجُ آخِرَ ٱلشَّامِ . وَأَمَّا ٱلدُّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ بِلَادُ ٱلرُّومِ ٱلَّتِي هِيَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ لِلتُّرْكُمَانِ وَسُلْطَانُهَا ٱبْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَٱلْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْأَرْمَنِ ٱلَّتِي بَيْنَ جَبَلِ ٱلدُّرُوبِ وَجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدُ مَرْعَشَ وَمَلَطْيَةُ وَٱلْمَعَرَّةُ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلشَّمَالِي وَيَخْرُجُ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ نَهْرُ جِيحَانَ وَنَهْرُ سِيحَانَ فِي شَرْقِيِّهِ فَيَمُرُّ بِهَا جِيحَانُ جَنُوباً حَتَّى يَتَجَاوَزَ ٱلدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِٱلْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَابِطاً إِلَى ٱلشَّمَالِ وَمُغَرِّباً حَتَّى يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ وَيَمُرُّ نَهْرُ سِيحَانَ مُوَازِياً لِنَهْرِ جِيحَانَ فَيُحَاذِي ٱلْمَعَرَّةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ ٱلدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جِيحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ مُغَرِّباً فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جِيحَانَ عِنْدَ ٱلْمَصِيصَةِ وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطَفُ جَبَلِ ٱللُّكَامِ إِلَى جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ ٱلرَّافِضَةِ وَٱلرَّقَّةُ ثُمَّ حَرَّانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَٱلرُّهَا ثُمَّ نَصِيبِينُ ثُمَّ سُمَيْسَاطُ وَآمِدُ تَحْتَ جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ وَآخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضاً آخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَيَمُرُّ فِي وَسَطِ هَذِهِ ٱلْقِطْعَةِ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ جَنُوباً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلَ ٱلسِّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِيِّ سُمَيْسَاطَ وَسَرُوجَ وَيَنْحَرِفُ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلرَّافِضَةِ وَٱلرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ آمِدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيباً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هَذَا ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَفِي

ٱلشَّرْقِ مِنْهَا بِلادُ ٱلْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي ٱلشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ ٱلْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَابِطاً مِنْ جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إِلَى ٱلْغَرْبِ فَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي ٱلشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغَرِّباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هٰذَا ٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فَفِي ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِيِّهَا مَخْرَجُ ٱلْفُرَاتِ مِنَ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَمَالِيِّهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَأَوَّلَ مَا يَخْرُجُ إِلَى ٱلسَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدْوَلٌ إِلَى ٱلشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ ٱلرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ جَنُوباً وَيَبْقَى صِفِّينَ فِي غَرْبِيِّهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِٱلْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ٱبْنِ هُبَيْرَةَ وَبِٱلْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعاً فِي جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ ٱلْحِيرَةِ وَٱلْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ ٱلْفُرَاتُ مِنَ ٱلرَّحْبَةِ مُشَرِّقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هِيتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى ٱلزَّابِ وَٱلْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهِمَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ٱبْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِٱلْمَوْصِلِ كَذٰلِكَ وَتَكْرِيتَ وَيَنْتَهِي إِلَى ٱلْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى ٱلْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَٱلزَّابُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلصَّغِيرُ كَذٰلِكَ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوباً وَفِي غَرْبِ ٱلْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطَ بِٱلْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوباً عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ ٱلدِّجْلَةِ وَٱلْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ هِيَ بِلادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلادِ ٱلنَّهْرَوَانِ قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقاً ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوباً وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هٰذَا ٱلنَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْأَعَاجِمِ بَلَدُ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ حُلْوَانَ وَصَيْمَرَةُ. وَأَمَّا ٱلْقِطْعَةُ ٱلْغَرْبِيَّةُ مِنَ ٱلْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ ٱلْأَعَاجِمِ مُشَرِّقاً إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلَ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلصُّغْرَى بَلَدُ خُونَجَانَ مِنَ ٱلْغَرْبِ وَٱلشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةُ بَلَدَ ٱلْبَهْلُوس

وَفي وَسَطِهَا بَلَدُ نَهَاوَنْد وَفي شَمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُور غرباً عِندَ مُلتَقى ٱلجَبَلَيْنِ وَٱلدِّينُور شَرْقاً عِندَ آخِرِ ٱلجُزْءِ وَفي ٱلقِطْعَةِ ٱلصُّغرَى ٱلثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلادِ أَرْمِينِيَّةَ قَاعِدَتُهَا ٱلمَرَاغَة وَٱلَّذي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ ٱلعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِنُ لِلأَكْرَادِ وَٱلزَّابُ ٱلكَبِيرِ وَٱلصَّغِيرُ ٱلَّذي عَلى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ وَفي آخِرِ هٰذِهِ ٱلقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ بِلادُ أَذْرَبِيجَان وَمِنهَا تَبْرِيزُ وَٱلبَيْدَقَانُ وَفي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَش وَهُوَ بَحْرُ ٱلخَزَرِ وَفي ٱلجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلادِ ٱلهُلُوس وَفِيهَا هَمَذَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا في ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ وَيُحِيطُ بِهَا مِن ٱلجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ ثُمَّ يَنعَطِفُ مِنَ ٱلجُزْءِ ٱلسَّادِسِ إِلى ٱلإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱلعِرَاقِ في شَرْقِيِّهِ ٱلَّذي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيط بِبِلادِ ٱلهُلُوسِ في ٱلقِطْعَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هٰذَا ٱلجَبَلُ ٱلمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ إِلى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلى هٰذَا ٱلجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلادِ ٱلهُلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُم وَيَنعَطِفُ في قُرْبِ ٱلنِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغَرِّباً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ثم يَرجِعُ مُسْتَدِيراً فَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً وَمُنحَرِفاً إِلى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلى ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِس وَيَشْتَمِلُ عَلى مُنعَطَفِهِ وَٱسْتِدَارَتِهِ عَلى بَلَدِ ٱلرَّيِّ في شَرْقِيِّهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنعَطَفِهِ جَبَل آخَرُ يَمُرُّ غرباً إِلى آخِرِ هٰذَا ٱلجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينُ وَمِنْ جَانِبِهِ ٱلشَّمَالِي وَجَانِبِ جَبَلِ ٱلرَّيِّ ٱلمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِباً إِلى ٱلشَّرْقِ وَٱلشَّمَالِ إِلى وَسَطِ ٱلجُزْءِ ثُمَّ إِلى ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ بِلادُ طَبَرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَان وَيَدْخُلُ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ في هٰذَا ٱلجُزْءِ في نَحْوِ ٱلنِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِض عِندَ جَبَلِ ٱلرَّيِّ وَعِندَ ٱنعِطَافِهِ إِلى ٱلغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلى سَمْتِهِ مُشَرِّقاً وَبِٱنحِرَاف قَلِيلٍ إِلى ٱلجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ في ٱلجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ ٱلرَّيِّ وَهٰذَا ٱلجَبَلِ مِنْ عِندِ مَبْدَإِهِمَا بِلادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ ٱلجَبَلَيْنِ وَمِنهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هٰذَا ٱلجَبَل قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ ٱلمَفَازَةِ ٱلَّتي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ في شَرْقِيِّ قَاشَان وَفي آخِرِهَا عِندَ هٰذَا ٱلجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَاذَ وَحَافَاتُ هٰذَا ٱلجَبَلِ مِنْ شَرْقِيِّهِ إِلى آخِرِ ٱلجُزْءِ بِلادُ نِيسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنُوبِ ٱلجَبَلِ وَشَرْقِ ٱلمَفَازَةِ بَلَدُ نِيسَابُورَ ثُمَّ مَرْوُ ٱلشَّاهِجَان آخِرَ ٱلجُزْءِ وَفي شَمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسُ آخِرَ ٱلجُزْءِ شَرْقاً

وَكُلُّ هٰذَا تَحْتَ ٱلْجَبَلِ وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ ٱلْجُزْئَيْنِ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيِّهِ نَهْرُ جَيْحُونَ ذَاهِبًا مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَفِي عُدْوَتِهِ ٱلْغَرْبِيَّةِ رَمٌّ وَآمُلُ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَٱلطَّاهِرِيَّةُ وَٱلْجُرْجَانِيَّةُ مِنْ بِلَادِ خَوَارَزْمَ وَيُحِيطُ بِالزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلُ أَسْتَرَابَاذَ ٱلْمُعْتَرِضُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيُحِيطُ بِهٰذِهِ ٱلزَّاوِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ وَٱلْجُوزَجَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ ٱلْبُتَّمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ وَفِي شَرْقِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ ٱلصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأُشْنُهُ وَمِنْهَا خُجَنْدَةُ آخِرَ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَسَرْدَارَ وَأُشْنُهُ أَرْضُ إِيلَاقَ[1] ثُمَّ فِي ٱلشَّمَالِ عَنْ إِيلَاقَ أَرْضُ ٱلشَّاشِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ نَهْرُ ٱلشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيلَاقَ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ تُخُومِ بِلَادِ ٱلتُّبَّتِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ ٱلشَّاشِ جَبَلُ جَبْرَاغُونَ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرِفًا إِلَى ٱلْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ ٱلشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِٱلشَّاشِ وَفَرْغَانَةُ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَبَيْنَ نَهْرِ ٱلشَّاشِ وَطَرَفِ هٰذَا ٱلْجَبَلِ فِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ فَارَابَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخَوَارَزْمَ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ وَفِي زَاوِيَةِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ أَرْضُ خُجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِسْبِيجَابَ وَطِرَازُ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيِّهِ بَعْدَ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ أَرْضُ ٱلْخَزْلَجِيَّةِ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَرْضُ ٱلْخَلِيجَةِ فِي ٱلشَّمَالِ وَفِي شَرْقِ ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا آخِرَ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ هُنَالِكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهٰذِهِ ٱلْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ ٱلتُّرْكِ. انتهى

أَلْإِقْلِيمُ ٱلْخَامِسُ * ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِٱلْمَاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ وَشَرْقِهِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ بِهٰذِهِ ٱلْجِهَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ

---

(١) في المشترك اقليم ايلاق متصل باقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون اليا بعدها. اه

وَٱلسَّابِعِ عَنِ ٱلدَّائِرَةِ ٱلْمُحِيطَةِ بِٱلْإِقْلِيمِ فَأَمَّا ٱلْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَالِكَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا ٱلْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ ٱلْمُثَلَّثِ فَفِيهَا مِنْ بَيْنِهِ غَرْبِ ٱلْأَنْدَلُسِ سَعِيُورُ عَلَى ٱلْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقاً عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُّورَةُ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ أَبِلَةُ آخِرَ ٱلْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَسْتَالِيَةَ شَرْقاً عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُوبِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونَ وَبَرْغَشْتُ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي ٱلشَّمَالِ أَرْضُ جِلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ ٱلْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي آخِرِ ٱلضِّلْعِ ٱلْغَرْبِيِّ بَلَدُ شَنْتَيَاقُو وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شَطْلِيَةَ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلْجَنُوبِ وَشَرْقاً عَنْ قَسْتَالِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشْقَةُ وَبَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقاً وَشَمَالاً وَفِي غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْطَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتَ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضِّلْعِ ٱلشَّمَالِيِّ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبِطَرَفِ ٱلْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي ٱلْجَنُوبِ بِٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَصِيرَ حَجْراً عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَةَ مِنْ أُمَمِ ٱلْفِرَنْجِ فَمِنْهَا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي ٱلشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالاً عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا ٱلْمُنْكَشِفُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ ٱلْحَادَّةُ وَرَاءَ ٱلْبُرْنَاتِ شَرْقاً وَفِيهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ ٱلْبُرْنَاتِ بَلَدُ نَيُونَةَ وَفِي آخِرِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنَ ٱلْفِرَنْجِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبَرْغَشْتَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادَ غَشْكُونِيَةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ كَٱلضِّرْسِ مَائِلَةً إِلَى ٱلشَّرْقِ قَلِيلاً وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُونٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ شَمَالاً بِلَادُ جَنْوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّمَالِ جَبَلُ نِيتَ جُونَ وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةَ ٱلْخَارِجِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ ٱلْبَرِّ فِي ٱلْبَحْرِ فِي غَرْبِيِّهِ نِيشُ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ رُومَةَ

ٱلعُظمى كُرسيّ مَلِكِ ٱلإِفرَنجةِ وَمَسكِنِ ٱلبَابَا بَطرَكِهِم ٱلأَعظَمِ وفِيهَا مِنَ ٱلمَبَانِي ٱلضَّخمَةِ وَٱلهَيَاكِلِ ٱلهَائِلةِ وَٱلكَنَائِسِ ٱلعَادِيَّةِ مَا هُوَ مَعرُوفُ ٱلأَخبَارِ وَمِن عَجَائِبِهَا ٱلنَّهرُ ٱلجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ ٱلمَشرِقِ إِلَى ٱلمَغرِبِ مَفرُوشٌ قَاعُهُ بِبِلَاطِ ٱلنُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةُ بُطرُسَ وَبُولُسَ مِنَ ٱلحَوَارِيِّينَ وَهُمَا مَدفُونَانِ بِهَا وَفِي ٱلشَّمَالِ عَن بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَقرَنصِيصَةَ إِلَى آخِرِ ٱلجُزءِ. وَعَلَى هٰذَا ٱلطَّرَفِ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِلَ فِي ٱلجَانِبِ ٱلشَّرقِيِّ مِنهُ مُتَّصِلَةً بِبِلَادِ قَلُورِيَّةَ مِن بِلَادِ ٱلفَرَنجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِن خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلجُزءِ مِنَ ٱلجُزءِ ٱلثَّالِثِ مُغَرِّبًا وَمُحَاذِيًا لِلشَّمَالِ مِن هٰذَا ٱلجُزءِ وَٱنتَهَى إِلَى نَحوِ ٱلثُّلُثِ مِنهُ وَعَلَيهِ كَثِيرٌ مِن بِلَادِ ٱلبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلجُزءِ مِن جَنُوبِهِ فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ وَمِن شَمَالِهِ بِلَادُ إِنكِلَايَةَ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ. وَفِي ٱلجُزءِ ٱلثَّالِثِ مِن هٰذَا ٱلإِقلِيمِ فِي غَربِيِّهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةَ بَينَ خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ وَٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِن شَرقِيِّهِ يَصِلُ مِن بَرِّهَا فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ فِي ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ فِي جَونٍ بَينَ طَرَفَينِ خَرَجَا مِنَ ٱلبَحرِ عَلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى هٰذَا ٱلجُزءِ فِي شَرقِيِّ بِلَادِ قَلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنكِيرَدَةَ فِي جَونٍ بَينَ خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ وَٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ وَيَدخُلُ طَرَفٌ مِن هٰذَا ٱلجُزءِ فِي ٱلجَونِ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَفِي ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِن شَرقِيِّهِ خَلِيجُ ٱلبَنَادِقَةِ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يَنعَطِفُ إِلَى ٱلغَربِ مُحَاذِيًا لِآخِرِ ٱلجُزءِ ٱلشَّمَالِيِّ وَيَخرُجُ عَلَى سَمتِهِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَازِيهِ وَيَذهَبُ مَعَهُ إِلَى ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يُغَرِّبُ مَعَهُ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ إِلَى أَن يَنتَهِيَ قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيِّهِ فِي بِلَادِ إِنكِلَايَةَ مِن أُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ كَمَا نَذكُرُ وَعَلَى هٰذَا ٱلخَلِيجِ وَبَينَهُ وَبَينَ هٰذَا ٱلجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبَينِ إِلَى ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى ٱلمَغرِبِ فَبَينَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ ٱلأَلمَانِيِّينَ عِندَ طَرَفِ ٱلخَلِيجِ. وَفِي ٱلجُزءِ ٱلرَّابِعِ مِن هٰذَا ٱلإِقلِيمِ قِطعَةٌ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ خَرَجَت إِلَيهِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُضَرَّسَةٌ كُلُّهَا بِقِطَعٍ مِنَ ٱلبَحرِ وَيَخرُجُ مِنهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَبَينَ كُلِّ ضِرسَينِ مِنهَا طَرَفٌ مِنَ ٱلبَحرِ فِي ٱلجَونِ بَينَهُمَا وَفِي آخِرِ ٱلجُزءِ شَرقًا قِطَعٌ مِنَ ٱلبَحرِ وَيَخرُجُ مِنهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ خَلِيجُ ٱلقُسطَنطِينِيَّةِ يَخرُجُ مِن هٰذَا ٱلطَّرَفِ ٱلجَنُوبِيِّ وَيَذهَبُ عَلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى أَن يَدخُلَ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنعَطِفَ مِن هُنَالِكَ عَن قُربٍ مُشَرِّقًا إِلَى بَحرِ نِيطَشَ فِي ٱلجُزءِ ٱلخَامِسِ وَبَعضِ ٱلرَّابِعِ

قَبْلَهُ وَٱلسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ وَبَلَدُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هٰذَا ٱلْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ ٱلْقَيَاصِرَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ ٱلْبِنَاءِ وَٱلضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ ٱلْأَحَادِيثُ وَٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي مَا بَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَخَلِيجِ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةَ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا ٱبْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِيِّ هٰذَا ٱلْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوس وَأَظُنُّهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلتُّرْكُمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ٱبْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بُرْصَةُ وَكَانَت مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا ٱلْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكُمَانِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَنُوبِيِّهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ بِلَادُ عَمُّورِيَّةَ وَفِي شَرْقِيِّ عَمُّورِيَّةَ نَهْرُ قَبَاقِبَ ٱلَّذِي يُمِدُّ ٱلْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي ٱلْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ ٱلْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ إِلَى مَمَرِّهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِيِّهِ آخِرَ ٱلْجُزْءِ فِي مَبْدَإِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرِ جِيحَانَ غَرْبِيَّهُ ٱلذَّاهِبَيْنِ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دِجْلَةَ ٱلذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي مُوَازَرَتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلشَّرْقِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَرَاءَ ٱلْجَبَلِ ٱلَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجْلَةَ بَلَدُ مَيَّافَارِقِينَ وَنَهْرُ قَبَاقِبَ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِم هٰذَا ٱلْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَاهُ وَأَسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالاً وَوَرَاءَ ٱلْجَبَلِ ٱلَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَاقِبَ أَرْضُ عَمُّورِيَّةَ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلْقِطْعَةُ ٱلثَّانِيَةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى ٱلثُّلُثِ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دِجْلَةَ وَٱلْفُرَاتِ وَفِي ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُّورِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبَ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَإِ ٱلْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ ٱلَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ ٱلْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ ٱلشَّرْقِ وَفِيهَا بِلْدَانُ أُرْدُنَّ فِي ٱلْجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَفْلِيسُ وَدُبَيْلُ وَفِي شَرْقِ أُرْدُنَّ مَدِينَةُ خِلَاطَ ثُمَّ بَرْدَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ وَمِنْ هُنَالِكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَالِكَ بَلَدُ ٱلْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِيِّ جَبَلِ ٱلْأَكْرَادِ ٱلْمُسَمَّى بِأَرْمِي وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْهُ وَيُتَاخِمُ بِلَادَ أَرْمِينِيَّةَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْإِقْلِيمِ

ٱلرَّابِع قِبَلَهُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ فِيهَا بِلادُ أَذْرَبِيجَانَ وَآخِرُهَا فِي هٰذا ٱلْجُزْءِ شَرْقاً بِلادُ اردَبِيل أَعلى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ دَخَلَتْ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْر طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلادِ ٱلْخَزَرِ وَهُمُ ٱلتُّرْكُمَانُ وَيَبْدَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْبَحْرِيَّةِ فِي ٱلشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ ٱلْغَرْب إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبَلَدِ مَيَّافَارِقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ عِنْدَ آمدَ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فِي أَسَافِلِ ٱلشَّامِ وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱللُّكَام كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ ٱلشَّمَالِيَّةِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ثَنَايَا كَالْأَبْوَابِ تُفْضِي مِنَ ٱلْجَانِبَيْن فَفِي جَنُوبِيِّهَا بِلادُ ٱلْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي ٱلشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبِلاد مَدِينَةُ بَابِ ٱلْأَبْوابِ وَتَتَّصِلُ بِلادُ ٱلْأَبْوَابِ فِي ٱلْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيِّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَة وَبَيْنَهُمَا فِي ٱلشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلادِ أَذْرَبِيجَانَ ٱلْجَنُوبِيَّةِ بِلادُ ٱلزَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَان وَفِي شَمَالِ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ ٱلسَّرِيرِ فِي ٱلزَّاوِيَة ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضاً مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ ٱلَّذِي يُمِدُّه خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحُفُّ بِهٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مِنْ نِيطِشَ بِلادُ ٱلسَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَزِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلادُ ٱلسَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ ٱلْأَبْوَابِ وَٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْء إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقاً إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُول وَوَرَاءَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ ٱلْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّة مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالاً . وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّابِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيم غَرْبِيُّهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلادَ طَبَرِسْتَانَ وَجِبَالَ ٱلدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ وَفِي غَرْبِيِّ تِلْكَ ٱلْقِطْعَة مُتَّصِلَةٌ بِهَا ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضاً وَيَنْكَشِفُ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِه ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَثَلِ فِي هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي نَاحِيَة ٱلشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ هِيَ مَجَالاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَة ٱلْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي ٱلْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلاقِيَ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِباً مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِس

ثمّ ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمّى هنالك جبل سياه ويذهب مغرباً إلى الجزء السّادس من الإقليم السّادس ثمّ يرجع جنوباً إلى الجزء السّادس من الإقليم الخامس وهذا الطّرف منه وهو الّذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السّرير وأرض الخزر واتّصلت بأرض الخزر في الجزء السّادس والسّابع حافات هذا الجبل المسمّى جبل سياه كما سيأتي. والجزء الثّامن من هذا الإقليم الخامس كلّه مجالات للغزّ من أمم التّرك وفي الجهة الجنوبيّة الغربيّة منه بحيرة خوارزم الّتي يصبّ فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصبّ فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشّماليّة الشّرقيّة منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو وفي النّاحية الشّماليّة من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثّلج لأنّه لا يذوب فيه وهو متّصل بآخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصّلد لا ينبت شيئاً يسمّى عرعون وبه سمّيت البحيرة وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدّتها فتنصبّ فيها من الجانبين. وفي الجزء التّاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم التّرك في غرب بلاد الغزّ وشرق بلاد الكيماكيّة ويحفّ به من جهة الشّرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب إلى الشّمال حتّى ينعطف أوّل دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرّابع قبله واحتفّ هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشّمال ثمّ انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الإقليم الرّابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوّله إلى هنا ببلاد الكيماكيّة ثمّ خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغرباً إلى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكيّة ثمّ خرج إلى الجزء التّاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً إلى الشّمال وذهب على سمته إلى الجزء التّاسع من الإقليم السّادس وفيه السّدّ هنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة الّتي أحاط بها جبل قوقيا عند الزّاوية الشّرقيّة من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض يأجوج متّصلة فيه كلّه إلّا قطعة من البحر غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه إلى شماله إلّا القطعة الّتي يفصلها إلى الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مرّ فيه وما

سوى ذلكَ فأرضُ يأجوجَ ومأجوجَ واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ

الإقليمُ السادسُ . فالجزءُ الأولُ منهُ غمرَ البحرُ أكثرَ منْ نصفهِ واستدارَ شرقاً معَ الناحيةِ الشماليةِ ثمَّ ذهبَ معَ الناحيةِ الشرقيةِ إلى الجنوبِ وانتهى قريباً منَ الناحيةِ الجنوبيةِ فانكشفَ قطعةٌ منْ هذهِ الأرضِ في هذا الجزءِ داخلةٌ بينَ الطرفينِ وفي الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ منَ البحرِ المحيطِ كالجونِ فيهِ وينفسحُ طولاً وعرضاً وهيَ كلُّها أرضُ بريطانيةَ وفي بابِها بينَ الطرفينِ وفي الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ منْ هذا الجزءِ بلادُ صاقسَ متصلةٌ ببلادِ بنطو التي مرَّ ذكرُها في الجزءِ الأولِ والثاني منَ الإقليمِ الخامسِ . والجزءُ الثاني منْ هذا الإقليمِ دخلَ البحرُ المحيطُ منْ غربهِ وشمالهِ فمنْ غربهِ قطعةٌ مستطيلةٌ أكبرُ منْ نصفهِ الشماليِّ منْ شرقِ أرضِ بريطانيةَ في الجزءِ الأولِ واتصلتْ بها القطعةُ الأخرى في الشمالِ منْ غربهِ إلى شرقهِ وانفسحتْ في النصفِ الغربيِّ منهُ بعضَ الشيءِ وفيهِ هنالكَ قطعةٌ منْ جزيرةِ أنكلترّا وهيَ جزيرةٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على مدنٍ وبها ملكٌ ضخمٌ وبقيتُها في الإقليمِ السابعِ وفي جنوبِ هذهِ القطعةِ وجزيرتِها في النصفِ الغربيِّ منْ هذا الجزءِ بلادُ أرمنديةَ وبلادُ أفلادشَ متصلينِ بها ثمَّ بلادُ إفرنسيةَ جنوباً وغرباً منْ هذا الجزءِ بلادُ برغونيةَ شرقاً عنها وكلُّها لأممِ الإفرنجةِ وبلادُ اللمانيينَ في النصفِ الشرقيِّ منَ الجزءِ فجنوبهُ بلادُ أنكلايةَ ثمَّ بلادُ برغونيةَ شمالاً ثمَّ أرضُ لهويكةَ وشطونيةَ وعلى قطعةِ البحرِ المحيطِ في الزاويةِ الشماليةِ الشرقيةِ أرضُ أفريزةَ وكلُّها لأممِ اللمانيينَ . وفي الجزءِ الثالثِ منْ هذا الإقليمِ في الناحيةِ الغربيةِ بلادُ مراتيةَ في الجنوبِ وبلادُ شطونيةَ في الشمالِ وفي الناحيةِ الشرقيةِ بلادُ أنكويةَ في الجنوبِ وبلادُ بلونيةَ في الشمالِ يعترضُ بينهما جبلُ بلواط داخلاً منَ الجزءِ الرابعِ ويمرُّ مغرباً بانحرافٍ إلى الشمالِ إلى أنْ يقفَ في بلادِ شطونيةَ آخرِ النصفِ الغربيِّ . وفي الجزءِ الرابعِ في ناحيةِ الجنوبِ أرضُ جثوليةَ وتحتها في الشمالِ بلادُ الروسيةِ ويفصلُ بينهما جبلُ بلواطَ منْ أولِ الجزءِ غرباً إلى أنْ يقفَ في النصفِ الشرقيِّ وفي شرقِ أرضِ جثوليةَ بلادُ جرمانيةَ وفي الزاويةِ الجنوبيةِ الشرقيةِ أرضُ القسطنطينيةِ ومدينتُها عندَ آخرِ الخليجِ الخارجِ منَ البحرِ الروميِّ وعندَ مدفعهِ في بحرِ نيطشَ فيقعُ قطيعةٌ منْ بحرِ نيطشَ في أعالي الناحيةِ الشرقيةِ منْ هذا

ٱلْجُزْءِ وَيُمِدُّهَا ٱلْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي ٱلزَّاوِيَةِ بَلَدُ مَسِينَاهَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطِشَ يَتَّصِلُ مِنَ ٱلْخَلِيجِ فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشَرِّقاً فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ ٱلسَّادِسِ عَلَى طُولِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هٰذَا ٱلْبَحْرِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرَقْلِيَةُ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطِشَ مُتَّصِلَةً بِأَرْضِ ٱلْبَيْلَقَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ ٱللَّانِيَةِ وَقَاعِدَتُهَا سُوتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطِشَ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطِشَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ غَرْباً أَرْضُ تُرْخَانَ وَشَرْقاً بِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَبِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تُرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَمِنْ شَمَالِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ فِي غَرْبِيِّهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطِشَ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلاً إِلَى ٱلشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَبَيْنَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالاً بِلَادُ قَمَانِيَةَ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحاً إِلَى ٱلشَّمَالِ بِمَا ٱنْحَرَفَ هُوَ كَذٰلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ ٱللَّانِيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بُرْطَاسَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُلْغَارَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلَنْجَرَ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاكُوهَ ٱلْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ ٱلْخَزَرِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغَرِّباً فَيَجُوزُ فِي هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ ٱلْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ ٱلْخَزَرِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مَا جَازَهُ جَبَلُ سِيَاهَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ غَرْباً وَفِي شَرْقِهَا ٱلْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ ٱلَّتِي يَجُوزُهَا هٰذَا ٱلْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهَ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُرْطَاسَ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ أَرْضُ شَحَرْبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَمُ ٱلتُّرْكِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ وَٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا أَرْضُ ٱلْخَوْلَخِ مِنَ ٱلتُّرْكِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ غَرْباً وَٱلْأَرْضُ ٱلْمُنْتِنَةُ وَشَرْقُ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَّبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ ٱلسَّدِّ وَفِي هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مَبْدَأُ نَهْرِ ٱلْأَثَلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ ٱلْعَالَمِ وَمَمَرُّهُ فِي بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَمَصَبُّهُ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ

ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ ٱلِانْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَوْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْغَرْبِ إِلَى آخِرِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلسَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُغَرِّباً غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدْوَلٌ يَذْهَبُ مُغَرِّباً وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فِي ذٰلِكَ ٱلْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهَ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ ٱلْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي ٱنْكَشَفَتْ مِنَ ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلتَّاسِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ وَبِلَادُ ٱلتُّرْكُسِ مِنْهُمْ أَيْضاً وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي شَرْقِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مُغَرِّباً وَبِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ ٱلْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَفِي وَسَطِهِ هٰهُنَا ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغَرِّباً إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي غَرْبِيِّهِ وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ هُوَ ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ خُرْدَاذْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْجُغْرَافِيَا أَنَّ ٱلْوَاثِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ ٱلسَّدَّ ٱنْفَتَحَ فَٱنْتَبَهَ فَزِعاً وَبَعَثَ سَلَاماً إِلَى ٱلتُّرْجُمَانِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصْفِهِ فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هٰذَا وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةً فِي ٱلشَّمَالِ وَعَرِيضَةً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلشَّرْقِ

اَلْإِقْلِيمُ اَلسَّابِعُ * وَالْبَحْرُ اَلْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ اَلشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ قُوقِيَا اَلْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ . فَالْجُزْءُ اَلْأَوَّلُ وَالثَّانِي مَغْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلْتَرَا اَلَّتِي مُعْظَمُهَا فِي الثَّانِي وَفِي اَلْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ اَلْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٍ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى اَلْبَرِّ فِي هٰذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةَ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا وَوَرَاءَ هٰذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةُ رَسْلَانْدَةَ مُسْتَطِيلَةً مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصِلُ أَرْضِ فَلُونِيَةَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهِ وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هٰذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةُ بَرْغَاقِيَةَ (وفي نسخة برقاعة) مُسْتَطِيلَةً مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبُهُ مُنْكَشِفٌ وَفِي غَرْبِهِ أَرْضُ قِبَازَكَ مِنَ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ طَبَسْتَ ثُمَّ أَرْضُ رَسْلَانَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَهِيَ دَائِمَةُ الثُّلُوجِ وَعُمْرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْقَمَانِيَةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةِ بَحْرِ نِيطِشَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمَى مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ (وفي نسخة التركمان) إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلُ بِلَادِ الْقَمَانِيَةِ وَفِي وَسَطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةُ غُثُورَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي النَّوَاحِي الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي شَرْقِ بِلَادِ الْقَمَانِيَةِ بِلَادِ

ٱلرُّوسِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَـرَ ٱلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَـرَ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَتَلَ ٱلْقِطْعَةُ ٱلْأُولَى إِلَى ٱلْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَجْنَاكَ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَكَانَ مَبْدَأُهَا مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُخْرَبَ ثُمَّ بَقِيَّةُ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ مُتَّصِلاً مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصَلُ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ وَفِي شَرْقِهَا ٱلْأَرْضُ ٱلْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي ٱلْأَرْضِ بَعِيدُ ٱلْمَهْوَى فَسِيحُ ٱلْأَقْطَارِ مُمْتَنِعُ ٱلْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِٱلدُّخَانِ فِي ٱلنَّهَارِ وَٱلنِّيرَانِ فِي ٱللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْبِلَادُ ٱلْخَرَابُ ٱلْمُتَاخِمَةُ لِلسَّدِّ وَفِي آخِرِ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلاً مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفْجَق يَحُوزُهَا جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسَطِهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ وَفِي وَسَطِهِ هُنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى ٱلْبَحْرِ قَلِيلَةَ ٱلْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلْعَاشِرُ غَمَرَ ٱلْبَحْرُ جَمِيعَهُ . هٰذَا آخِرُ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا ٱلسَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

المقدمة الثانية

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْمَعْمُورَ مِنْ هٰذَا ٱلْمُنْكَشِفِ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ وَٱلْبَرْدِ فِي ٱلشَّمَالِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْجَانِبَانِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ ٱلْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى ٱلْوَسَطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلاً فَٱلْإِقْلِيمُ ٱلرَّابِعُ أَعْدَلُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ ٱلثَّالِثِ وَٱلْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلِاعْتِدَالِ وَٱلَّذِي يَلِيهِمَا وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ وَٱلْأَوَّلُ وَٱلسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَٱلْمَبَانِي وَٱلْمَلَابِسُ وَٱلْأَقْوَاتُ وَٱلْفَوَاكِهُ بَلْ وَٱلْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِٱلِاعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ ٱلْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَاماً وَأَلْوَاناً وَأَخْلَاقاً وَأَدْيَاناً حَتَّى ٱلنُّبُوَّاتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةٍ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ وَلَا ٱلشَّمَالِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ وَٱلرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ ٱلنَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذٰلِكَ لِيَتِمَّ ٱلْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لِوُجُودِ ٱلِاعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ ٱلْمُنَجَّدَةَ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْمُنَمَّقَةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَتَنَاغَوْنَ فِي ٱسْتِجَادَةِ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَدَيْهِمُ ٱلْمَعَادِنُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلنُّحَاسِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَصْدِيرِ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِٱلنَّقْدَيْنِ ٱلْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلِانْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهٰؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَنِ وَٱلْعِرَاقَيْنِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَٱلصِّينِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ ٱلْفِرَنْجَةِ وَٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلرُّومِ وَٱلْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هٰؤُلَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُعْتَدِلَةِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْعِرَاقُ وَٱلشَّامُ أَعْدَلَ هٰذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَالِيمُ ٱلْبَعِيدَةُ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِٱلطِّينِ

وَٱلْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ ٱلذُّرَةِ وَٱلْعُشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ ٱلشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوِ ٱلْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُمْ عَرَايَا مِنَ ٱللِّبَاسِ وَفَوَاكِهُ بِلَادِهِمْ وَأَدْمُهَا غَرِيبَةُ ٱلتَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى ٱلِٱنْحِرَافِ وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يُقَدِّرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذٰلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خُلُقِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ حَتَّى لَيُنْقَلُ عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ ٱلْكُهُوفَ وَٱلْغِيَاضَ وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا ٱلصَّقَالِبَةُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْزِجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرَضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي ٱلدِّيَانَةِ أَيْضاً فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةً وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ ٱلِٱعْتِدَالِ وَهُوَ فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِثْلَ ٱلْحَبَشَةِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَمِثْلَ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَٱلتَّكْرُورِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلْإِسْلَامِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَمِثْلَ مَنْ دَانَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ ٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلتُّرْكِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَمَنْ سِوَى هٰؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَٱلدِّينُ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَٱلْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْأَنَاسِيِّ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هٰذَا ٱلْقَوْلِ بِوُجُودِ ٱلْيَمَنِ وَحَضْرَمَوْتَ وَٱلْأَحْقَافِ وَبِلَادِ ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ ٱلْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا ٱلْبِحَارُ مِنَ ٱلْجِهَاتِ ٱلثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْيُبْسِ وَٱلِٱنْحِرَافِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ ٱلْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ ٱلِٱعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ ٱلْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ ٱلنَّسَّابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ أَنَّ ٱلسُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ ٱخْتُصُّوا بِلَوْنِ ٱلسَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلرِّقِّ فِي عَقِبِهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذٰلِكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ ٱلْقُصَّاصِ وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ٱبْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلسَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيداً لِوُلْدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُ وَفِي ٱلْقَوْلِ بِنِسْبَةِ ٱلسَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي ٱلْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

منَ ٱلحَيَوَانَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا ٱللَّوْنَ شَمَلَ أَهلَ ٱلاقليمِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِم لِلحَرَارَةِ ٱلمُتَضَاعِفَةِ بِٱلجَنُوبِ فَإِنَّ ٱلشَّمسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُم مَرَّتَينِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَة إِحداهُمَا مِنَ ٱلأُخرَى فَتَطُولُ ٱلمُسَامَتَةُ عَامَّةَ ٱلفُصُولِ فَيَكثُرُ ٱلضَّوءُ لِأَجلِهَا وَيُلِحُّ ٱلقَيظُ ٱلشَّدِيدُ عَلَيهِم وَتَسوَدُّ جُلُودُهُم لِإِفرَاطِ ٱلحَرِّ وَنَظِيرُ هٰذَينِ ٱلإِقلِيمَينِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ ٱلشَّمَالِ ٱلإِقلِيمُ ٱلسَّابِعُ وَٱلسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيضاً ٱلبَيَاضُ مِن مِزَاجِ هَوَائِهِم لِلبَردِ ٱلمُفرِطِ بِٱلشَّمَالِ إِذِ ٱلشَّمسُ لَا تَزَالُ بِأُفُقِهِم فِي دَائِرَةِ مَرأَى ٱلعَينِ أَو مَا قَرُبَ مِنهَا وَلَا تَرتَفِعُ إِلَى ٱلمُسَامَتَةِ وَلَا مَا قَرُبَ مِنهَا فَيَضعُفُ ٱلحَرُّ فِيهَا وَيَشتَدُّ ٱلبَردُ عَامَّةَ ٱلفُصُولِ فَتَبيَضُّ أَلوَانُ أَهلِهَا وَتَنتَهِي إِلَى ٱلزُّعُورَةِ وَيَتبَعُ ذٰلِكَ مَا يَقتَضِيهِ مِزَاجُ ٱلبَردِ ٱلمُفرِطِ مِن زُرقَةِ ٱلعُيُونِ وَبَرَشِ ٱلجُلُودِ وَصُهُوبَةِ ٱلشُّعُورِ وَتَوَسَّطَت بَينَهُمَا ٱلأَقَالِيمُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلخَامِسُ وَٱلرَّابِعُ وَٱلثَّالِثُ فَكَانَ لَهَا فِي ٱلِاعتِدَالِ ٱلَّذِي هُوَ مِزَاجُ ٱلمُتَوَسِّط حَظٌّ وَافِرٌ وَٱلرَّابِعُ أَبلَغُهَا فِي ٱلِاعتِدَالِ غَايَةً لِنِهَايَتِهِ فِي ٱلتَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمنَاهُ فَكَانَ لِأَهلِهِ مِنَ ٱلِاعتِدَالِ فِي خَلقِهِم وَخُلُقِهِم مَا ٱقتَضَاهُ مِزَاجُ أَهوِيَتِهِم وَتَبِعَهُ مِن جَانِبَيهِ ٱلثَّالِث وَٱلخَامِسُ وَإِن لَم يَبلُغَا غَايَةَ ٱلتَّوَسُّطِ لِمَيلِ هٰذَا قَلِيلاً إِلَى ٱلجَنُوبِ ٱلحَارِّ وَهٰذَا قَلِيلاً إِلَى ٱلشَّمَالِ ٱلبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَم يَنتَهِيَا إِلَى ٱلِانحِرَافِ وَكَانَتِ ٱلأَقَالِيمُ ٱلأَربَعَةُ مُنحَرِفَةً وَأَهلُهَا كَذٰلِكَ فِي خَلقِهِم وَخُلُقِهِم فَٱلأَوَّلُ وَٱلثَّانِي لِلحَرِّ وَٱلسَّوَادِ وَٱلسَّابِعُ لِلبَردِ وَٱلبَيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ ٱلجَنُوبِ مِنَ ٱلإِقلِيمَينِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي بِٱسمِ ٱلحَبَشَةِ وَٱلزَّنجِ وَٱلسُّودَانِ أَسمَاءٌ مُتَرَادِفَةٌ عَلَى ٱلأُمَمِ ٱلمُتَغَيِّرَةِ بِٱلسَّوَادِ وَإِن كَانَ ٱسمُ ٱلحَبَشَةِ مُختَصّاً مِنهُم بِمَن تِجَاهَ مَكَّةَ وَٱليَمَنِ وَٱلزَّنجِ بِمَن تِجَاهَ بَحرِ ٱلهِندِ وَلَيسَت هٰذِهِ ٱلأَسمَاءُ لَهُم مِن أَجلِ ٱنتِسَابِهِم إِلَى آدَمِيٍّ أَسوَدَ لَا حَامٍ وَلَا غَيرِهِ وَقَد نَجِدُ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهلِ ٱلجَنُوبِ مَن يَسكُنُ ٱلرُّبعَ ٱلمُعتَدِلَ أَوِ ٱلسَّابِعَ ٱلمُنحَرِفَ إِلَى ٱلبَيَاضِ فَتَبيَضُّ أَلوَانُ أَعقَابِهِم عَلَى ٱلتَّدرِيجِ مَعَ ٱلأَيَّامِ وَبِٱلعَكسِ فِيمَن يَسكُنُ مِن أَهلِ ٱلشَّمَالِ أَوِ ٱلرَّابِعِ بِٱلجَنُوبِ فَتَسوَدُّ أَلوَانُ أَعقَابِهِم وَفِي ذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ٱللَّونَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ ٱلهَوَاءِ قَالَ ٱبنُ سِينَا فِي أُرجُوزَتِهِ فِي ٱلطِّبِّ:

بِٱلزَّنجِ حَرٌّ غَيَّرَ ٱلأَجسَادَا ... حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا
وَٱلصِّقلِبُ ٱكتَسَبَتِ ٱلبَيَاضَا ... حَتَّى غَدَت جُلُودُهَا بِضَاضَا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الإفرنجة ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين . ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود . وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب . ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويجيء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب

الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الإقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلاً عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره

وَالسَّبَبُ في ذلكَ وَاللهُ أعلَمُ أنَّ كَثْرَةَ الأَغذِيَةِ وَكَثْرَةَ الأَخلاطِ الفَاسِدَةِ العَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُوَلِّدُ في الجِسْمِ فَضَلاتٍ رَدِيئَةً تَنْشَأُ عنهَا بَعْدَ إقطَارِهَا في غَيرِ نِسْبَةٍ وَيَتبَعُ ذلِكَ انْكِسَافُ الأَلْوَانِ وَقُبحُ الأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحمِ كَمَا قُلنَاهُ وَتُغَطِّي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الأَذْهَانِ وَالأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إلى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا الرَّدِيئَةِ فَتَجِيءُ البَلادَةُ وَالغَفْلَةُ وَالانْحِرَافُ عَنِ الاعْتِدَالِ بِالجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذلكَ في حَيَوَانِ القَفرِ وَمَوَاطِنِ الجَدبِ مِنَ الغَزَالِ وَالنَّعَامِ وَالمَهَا وَالزَّرَافَةِ وَالحُمُرِ الوَحشِيَّةِ وَالبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حيَوَانِ التُّلُولِ وَالأَرْيَافِ وَالمَرَاعِي الخَصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْناً بَعِيداً في صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أعضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَالغَزَالُ أَخُو المَعَزِ وَالزَّرَافَةُ أَخُو البَعِيرِ وَالحِمَارُ وَالبَقَرُ أَخُو الحِمَارِ وَالبَقَرِ وَالبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيتَ وَمَا ذَاكَ إلَّا لِأَجلِ أَنَّ الخِصبَ في التُّلُولِ فَعَلَ في أَبدَانِ هذِهِ مِنَ الفَضَلاتِ الرَّدِيئَةِ وَالأَخلاطِ الفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيهَا أَثَرُهُ وَالجُوعُ لِحَيَوَانِ القَفرِ حَسَّنَ في خَلقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ في الآدَمِيِّينَ أَيضاً فَإنَّا نَجِدُ أَهلَ الأَقَالِيمِ المُخصِبَةِ العَيشِ الكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَالأُدْمِ وَالفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهلُهَا غَالِباً بِالبَلادَةِ في أَذهَانِهِمْ وَالخُشُونَةِ في أَجسَامِهِمْ وَهذَا شَأْنُ البَرْبَرِ المُنْغَمِسِينَ في الأُدْمِ وَالحِنْطَةِ مَعَ المُتَقَشِّفِينَ في عَيشِهِم المُقتَصِرِينَ عَلَى الشَّعِيرِ أَوِ الذُّرَةِ مِثْلَ المَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهلِ غُمَارَةَ وَالسُّوسِ فَتَجِدُ هؤلاءِ أَحسَنَ حَالاً في عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهلُ بِلادِ المَغرِبِ عَلَى الجُملَةِ المُنْغَمِسِينَ في الأُدْمِ وَالبُرِّ مَعَ أَهلِ الأَندَلُسِ المَفقُودِ بِأَرْضِهِمِ السَّمْنُ جُملَةً وَغَالِبُ عَيشِهِمِ الذُّرَةُ فَتَجِدُ لِأَهلِ الأَندَلُسِ مِنْ ذَكَاءِ العُقُولِ وَخِفَّةِ الأَجسَامِ وَقَبُولِ التَّعلِيمِ مَا لا يُوجَدُ لِغَيرِهِمِ وَكَذَا أَهلُ الضَّوَاحِي مِنَ المَغرِبِ بِالجُملَةِ مَعَ أَهلِ الحَضَرِ وَالأَمْصَارِ فَإنَّ الأَمصَارَ وَإنْ كَانُوا مُكثِرِينَ مِثلَهُمْ مِنَ الأُدْمِ وَمُخصِبِينَ في العَيشِ إلَّا أَنَّ استِعمَالَهُمْ إيَّاهَا بَعدَ العِلاجِ بِالطَّبخِ وَالتَّلطِيفِ بِمَا يَخلِطُونَ مَعَهَا فَيَذهَبُ لِذلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا وَعَامَّةُ مَآكِلِهِمْ لُحُومُ الضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ وَلا يَغبِطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الأُدْمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتُ لِذلِكَ في أَغذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إلى أَجسَامِهِمْ مِنَ الفَضَلاتِ الرَّدِيئَةِ فَلِذلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهلِ الأَمصَارِ أَلطَفَ مِنْ جُسُومِ البَادِيَةِ المُخشَّنِينَ في العَيشِ وَكَذلِكَ تَجِدُ المُعَوَّدِينَ بِالجُوعِ مِنْ أَهلِ البَادِيَةِ لا فَضَلاتِ في جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلا لَطِيفَةً. وَاعْلَمْ

أَنَّ أَثَرَ هـذا ٱلخِصْبِ في ٱلبَدَنِ وَأَحْوالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى في حَالِ ٱلدِّينِ وَٱلعِبادَةِ فَنَجِدُ ٱلمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلبَادِيَةِ أَوِ ٱلحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِٱلجُوعِ وَٱلتَّجافِي عَنِ ٱلمَلاذِ أَحْسَنَ دِيناً وَإِقْبالاً عَلَى ٱلعِبادَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّرَفِ وَٱلخِصْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ ٱلدِّينِ قَلِيلِينَ فِي ٱلمُدُنِ وَٱلأَمْصارِ لِمَا يَعُمُّها مِنَ ٱلقَساوَةِ وَٱلغَفْلَةِ ٱلمُتَّصِلَةِ بِٱلإِكْثارِ مِنَ ٱللُّحْمانِ وَٱلأُدْمِ وَلُبابِ ٱلبُرِّ وَيَخْتَصُّ وُجُودُ ٱلعُبّادِ وَٱلزُّهّادِ لِذٰلِكَ بِٱلمُتَقَشِّفِينَ فِي غِذائِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلبَوادِي وَكَذٰلِكَ نَجِدُ هٰؤُلاءِ ٱلمُخْصِبِينَ فِي ٱلعَيْشِ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي طَيِّباتِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلبادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلحَواضِرِ وَٱلأَمْصارِ إِذا نَزَلَتْ بِهِمِ ٱلسِّنُونَ وَأَخَذَتْهُمُ ٱلمَجاعاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمِ ٱلهَلاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرابِرَةِ ٱلمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فاسَ وَمِصْرَ فِيما يَبْلُغُنا لا مِثْلَ ٱلعَرَبِ أَهْلِ ٱلقَفْرِ وَٱلصَّحْراءِ وَلا مِثْلَ أَهْلِ بِلادِ ٱلنَّخْلِ ٱلَّذِينَ غالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلتَّمْرُ وَلا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ لِهٰذا ٱلعَهْدِ ٱلَّذِينَ غالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلشَّعِيرُ وَٱلزَّيْتُ وَأَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ ٱلَّذِينَ غالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلذُّرَةُ وَٱلزَّيْتُ فَإِنَّ هٰؤُلاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمُ ٱلسِّنُونَ وَٱلمَجاعاتُ فَلا تَنالُ مِنْهُمْ ما تَنالُ مِنْ أُولٰئِكَ وَلا يَكْثُرُ فِيهِمِ ٱلهَلاكُ بِٱلجُوعِ بَلْ وَلا يَنْدُرُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ وَٱللهُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلخِصْبِ ٱلمُتَعَوِّدِينَ لِلأُدْمِ وَٱلسَّمْنِ خُصُوصاً تَكْتَسِبُ مِنْ ذٰلِكَ أَمْعاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِها ٱلأَصْلِيَّةِ ٱلمِزاجِيَّةِ حَتَّى تُجاوِزَ حَدَّها فَإِذا خُولِفَ بِها ٱلعادَةُ بِقِلَّةِ ٱلأَقْواتِ وَفِقْدانِ ٱلأُدْمِ وَٱسْتِعْمالِ ٱلخَشِنِ غَيْرِ ٱلمَأْلُوفِ مِنَ ٱلغِذاءِ أَسْرَعَ إِلَى ٱلمِعَا ٱليُبْسُ وَٱلِانْكِماشُ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي ٱلغايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ ٱلمَرَضُ وَيَهْلِكُ صاحِبُهُ دُفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ ٱلمَقاتِلِ فَٱلهالِكُونَ فِي ٱلمَجاعاتِ إِنَّما قَتَلَهُمُ ٱلشِّبَعُ ٱلمُعْتادُ ٱلسّابِقُ لا ٱلجُوعُ ٱلحادِثُ ٱللّاحِقُ. وَأَمّا ٱلمُتَعَوِّدُونَ لِقِلَّةِ ٱلأُدْمِ وَٱلسَّمْنِ فَلا تَزالُ رُطُوبَتُهُمُ ٱلأَصْلِيَّةُ واقِفَةً عِنْدَ حَدِّها مِنْ غَيْرِ زِيادَةٍ وَهِيَ قابِلَةٌ لِجَمِيعِ ٱلأَغْذِيَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَلا يَقَعُ فِي مِعاهُمْ بِتَبَدُّلِ ٱلأَغْذِيَةِ يُبْسٌ وَلا ٱنْحِرافٌ فَيَسْلَمُونَ فِي ٱلغالِبِ مِنَ ٱلهَلاكِ ٱلَّذِي يَعْرِضُ لِغَيْرِهِمْ بِٱلخِصْبِ وَكَثْرَةِ ٱلأُدْمِ فِي ٱلمَآكِلِ وَأَصْلُ هٰذا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلأَغْذِيَةَ وَٱئْتِلافَها أَوْ تَرْكَها إِنَّما هُوَ بِٱلعادَةِ فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذاءً وَلاءَمَهُ تَناوُلُهُ كانَ لَهُ مَأْلُوفاً وَصارَ ٱلخُرُوجُ عَنْهُ وَٱلتَّبَدُّلُ بِهِ داءً ما لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ ٱلغِذاءِ بِٱلجُمْلَةِ كَٱلسُّمُومِ وَٱليَتُّوعِ[1] وَما أَفْرَطَ فِي ٱلِانْحِرافِ

---

(١) قال في القاموس اليتوع كصبورا او تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة.

فأمّا ما وُجِدَ فيه التّغذّي والمُلاءمةُ فيَصيرُ غِذاءً مألوفاً بالعادةِ فإذا أخذَ الإنسانُ نفسَهُ باستعمالِ اللّبَنِ والبَقلِ عِوَضاً عنِ الحِنطَةِ حتّى صارَ لهُ دَيدَناً فقدْ حصلَ لهُ ذلكَ غذاءً واستغنَى بهِ عنِ الحِنطَةِ والحُبوبِ مِن غيرِ شكٍّ وكذا مَن عوّدَ نفسَهُ الصّبرَ على الجوعِ والاستغناءَ عنِ الطّعامِ كما يُنقلُ عنْ أهلِ الرّياضيّاتِ فإنّا نسمعُ عنهُم في ذلكَ أخباراً غريبةً يكادُ يُنكرُها مَن لا يعرفُها والسّببُ في ذلكَ العادةُ فإنّ النّفسَ إذا ألِفَتْ شيئاً صارَ مِن جِبلّتِها وطبيعتِها لأنّها كثيرةُ التّلوّنِ فإذا حصلَ لها اعتيادُ الجوعِ بالتّدريجِ والرّياضةِ فقدْ حصلَ ذلكَ عادةً طبيعيّةً لها وما يتوهّمُهُ الأطبّاءُ مِن أنّ الجوعَ مُهلِكٌ فليسَ على ما يتوهّمونَهُ إلّا إذا حُمِلَتِ النّفسُ عليهِ دفعةً وقُطِعَ عنها الغذاءُ بالكُلّيّةِ فإنّهُ حينئذٍ ينحسِمُ المِعاءُ ويَنالُهُ المرضُ الّذي يُخشَى معهُ الهلاكُ وأمّا إذا كانَ ذلكَ القدرُ تدريجاً ورياضةً بإقلالِ الغذاءِ شيئاً فشيئاً كما يفعلُهُ المتصوّفةُ فهوَ بمعزِلٍ عنِ الهلاكِ وهذا التّدريجُ ضروريٌّ حتّى في الرّجوعِ عنْ هذهِ الرّياضةِ فإنّهُ إذا رجعَ بهِ إلى الغذاءِ الأوّلِ دفعةً خِيفَ عليهِ الهلاكُ وإنّما يرجعُ بهِ كما بدأَ في الرّياضةِ بالتّدريجِ ولقدْ شاهدْنا مَنْ يصبرُ على الجوعِ أربعينَ يوماً وِصالاً وأكثرَ وحضرَ أشياخُنا بمجلسِ السّلطانِ أبي الحسنِ وقدْ رُفِعَ إليهِ امرأتانِ مِنْ أهلِ الجزيرةِ الخضراءِ ورُندةَ حبستا أنفسَهُما عنِ الأكلِ جُملةً منذُ سنينَ وشاعَ أمرُهُما ووقعَ اختبارُهُما فصحَّ شأنُهُما واتّصلَ على ذلكَ حالُهُما إلى أنْ ماتَتا ورأينا كثيراً مِن أصحابِنا أيضاً مَنْ يقتصرُ على حليبِ شاةٍ مِنَ المعزِ يلتقِمُ ثديَها في بعضِ النّهارِ أو عندَ الإفطارِ ويكونُ ذلكَ غذاءَهُ واستدامَ على ذلكَ خمسَ عشرةَ سنةً وغيرُهُم كثيرٌ ولا يُستنكَرُ ذلكَ. واعلمْ أنّ الجوعَ أصلحُ للبدنِ مِنْ إكثارِ الأغذيةِ بكلِّ وجهٍ لِمَن قدرَ عليهِ أو على الإقلالِ منها وإنّ لهُ أثراً في الأجسامِ والعقولِ في صفائِها وصلاحِها كما قلناهُ واعتبرْ ذلكَ بآثارِ الأغذيةِ الّتي تحصلُ عنها في الجسومِ فقدْ رأينا المتغذّينَ بلحومِ الحيواناتِ الفاخرةِ العظيمةِ الجثمانِ تنشأُ أجيالُهم كذلكَ وهذا مشاهَدٌ في أهلِ الباديةِ معَ أهلِ الحاضرةِ وكذا المتغذّونَ بألبانِ الإبلِ ولحومِها أيضاً معَ ما يؤثّرُ في

الشبرم واللاعبة والعرطنثيا واللاهودانة واللازريون والفلجلثت والشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها هلكت . اهـ

أَخلَاقِهِمْ مِنَ ٱلصَّبْرِ وَٱلِاحْتِمَالِ وَٱلْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ ٱلْأَثْقَالِ ٱلمَوْجُودِ ذٰلِكَ لِلْإِبِلِ وَتَنْشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضاً عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ ٱلْإِبِلِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْغِلَظِ فَلَا يَطْرُقُهَا ٱلْوَهْنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ ٱلْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ ٱلْيَتُوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بُطُونِهِمْ غَيْرِ مَحْجُوبَةٍ كَٱلْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَٱلدِّرْيَاسِ وَٱلْقَرْبِيُونِ وَلَا أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ ٱلْحَضَرِ ٱلرَّقِيقَةُ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ ٱلْأَغْذِيَةِ لَكَانَ ٱلْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ ٱلْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّمِّيَّةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ ٱلْأَغْذِيَةِ فِي ٱلْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱلْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ ٱلتَّجْرِبَةِ أَنَّ ٱلدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِٱلْحُبُوبِ ٱلْمَطْبُوخَةِ فِي بَعَرِ ٱلْإِبِلِ وَٱتُّخِذَ بَيْضُهَا ثُمَّ حُضِنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ ٱلدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبْخِ ٱلْحُبُوبِ بِطَرْحِ ذٰلِكَ ٱلْبَعَرِ مَعَ ٱلْبَيْضِ ٱلْمُحَضَّنِ فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ ٱلْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هٰذِهِ ٱلْآثَارَ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ فِي ٱلْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً آثَاراً فِي ٱلْأَبْدَانِ لِأَنَّ ٱلضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ٱلتَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ ٱلْجُوعِ فِي نَقَاءِ ٱلْأَبْدَانِ مِنَ ٱلزِّيَادَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُخْتَلِطَةِ ٱلْمُخِلَّةِ بِٱلْجِسْمِ وَٱلْعَقْلِ كَمَا كَانَ ٱلْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلْجِسْمِ وَٱللهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ ٱصْطَفَى مِنَ ٱلْبَشَرِ أَشْخَاصاً فَضَّلَهُمْ بِخِطَابِهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِحُجُزَاتِهِمْ عَنِ ٱلنَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلنَّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْمُغَيَّبَةِ عَنِ ٱلْبَشَرِ ٱلَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ ٱللهِ بِوَاسِطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ ٱللهِ إِيَّاهُمْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي ٱللهُ وَٱعْلَمْ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنْ خَاصِّيَّتِهِ وَضَرُورَتِهِ ٱلصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ ٱلنُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ

مِنَ ٱلْبَشَرِ أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ ٱلْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ ٱلْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَأَنَّهَا غَشْيٌ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ ٱلْمَلَكِ ٱلرُّوحَانِيِّ بِإِدْرَاكِهِمِ ٱلْمُنَاسِبِ لَهُمُ ٱلْخَارِجِ عَنْ مَدَارِكِ ٱلْبَشَرِ بِٱلْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَتَنَزَّلُ إِلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةُ شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ ٱلْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ ٱلْوَحْيِ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ ٱلْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ وَيُدْرِكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْغَطِّ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فَفِي ٱلْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالِجُ مِنَ ٱلتَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْبَرْدِ فَيُفْصَمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا وَلِأَجْلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ فِي تَنَزُّلِ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِٱلْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَئِيٌّ أَوْ تَابِعٌ مِنَ ٱلْجِنِّ وَإِنَّمَا لُبِّسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ ٱلْوَحْيِ خُلُقُ ٱلْخَيْرِ وَٱلزَّكَاءِ وَمُجَانَبَةُ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلرِّجْسِ أَجْمَعَ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى ٱلتَّنَزُّهِ عَنِ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجِبِلَّتِهِ وَفِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ ٱلْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ ٱلْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَٱنْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى ٱسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعِ وَلِيمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ ٱلنَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ ٱللهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجِبِلَّتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ ٱلْمَطْعُومَاتِ ٱلْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرَبُ ٱلْبَصَلَ وَٱلثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَٱنْظُرْ لَمَّا أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا بِحَالِ ٱلْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتِ ٱخْتِبَارَهُ فَقَالَتِ ٱجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرَبُ ٱلنِّسَاءَ. وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ ٱلثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ ٱلْبَيَاضُ وَٱلْخُضْرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ ٱلْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ ٱلْبَيَاضَ وَٱلْخُضْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلسَّوَادُ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

وَمِنْ عَلامَاتِهِمْ أَيضاً دُعَاؤُهُمْ إلى الدِّينِ وَالعِبادَةِ مِنَ الصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالعَفَافِ وَقَد اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلى صِدْقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذلِكَ وَكَذلِكَ أَبو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا في أَمْرِهِ إِلى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلى الإِسْلامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ بِبَلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِم أَبُو سُفْيَانَ لِيَسْأَلَهُم عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالعَفَافِ إِلى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقّاً فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَالعَفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِليهِ هِرَقْلُ (١) هُوَ العِصْمَةُ فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ العِصْمَةِ وَالدُّعَاءِ إِلى الدِّينِ وَالعِبَادَةِ دَلِيلاً عَلى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إِلى مُعْجِزَةٍ فَدَلَّ عَلى أَنَّ ذلِكَ مِنْ عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلامَاتِهِمْ أَيضاً أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِم وَفي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الحَاكِمُ عَلى الصَّحِيحَيْنِ وَفي مَسْأَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سُفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرَقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى الكُفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُتِمَّ مُرَادَ اللهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِن عَلامَاتِهِمْ أَيضاً وُقُوعُ الخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجَزُ البَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذلِكَ مُعْجِزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ العِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِم وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا وَدِلالَتِهَا عَلى تَصْدِيقِ الأَنْبِيَاءِ خِلافٌ فَالمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلى القَوْلِ بِالفَاعِلِ المُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ لا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ العِبَادِ عِنْدَ المُعْتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ المُعْجِزَةَ لا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ المُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحَدِّي بِهَا بِإِذْنِ اللهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وُقُوعِهَا عَلى صِدْقِهِ فِي مُدَّعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ القَوْلِ الصَّرِيحِ مِنَ اللهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دِلالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالمُعْجِزَةُ الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الخَارِقِ وَالتَّحَدِّي وَلِذلِكَ كَانَ التَّحَدِّي جُزْءاً مِنْهَا وَعِبَارَةُ المُتَكَلِّمِينَ صِفَةُ نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ وَالتَّحَدِّي هُوَ الفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الكَرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

وَٱلسِّحْرِ إِذْ لاَ حَاجَةَ فِيهِمَا إِلى ٱلتَّصْدِيقِ فَلَا وُجُودَ لِلتَّحَدِّي إِلَّا إِنْ وُجِدَ ٱتِّفَاقاً وَإِن وَقَعَ ٱلتَّحَدِّي فِي ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُهَا وَ كَانَتْ لَهَا دِلالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلى ٱلْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنا مَنَعَ ٱلْأُسْتَاذُ أَبو إِسْحَقَ وَغَيْرُهُ وُقُوعَ ٱلْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَاراً مِن ٱلِٱلْتِبَاسِ بِٱلنُّبُوَّةِ عِنْدَ ٱلتَّحَدِّي بِٱلْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ ٱلْمُغَايَرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ ٱلنَّبِيُّ فَلَا لَبْسَ عَلى أَنَّ ٱلنَّقْلَ عَنِ ٱلْأُسْتَاذِ فِي ذٰلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلى إِنْكَارِ لِأَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلى ٱخْتِصَاصِ كُلٍّ مِن ٱلْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ. وَأَمَّا ٱلْمُعْتَزِلَةُ فَٱلْمَانِعُ مِنْ وُقُوعِ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ ٱلْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلاَ فَرْقَ وَأَمَّا وُقُوعُهَا عَلى يَدِ ٱلْكَاذِبِ تَلْبِيساً فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلْهِدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذٰلِكَ ٱنْقَلَبَ ٱلدَّلِيلُ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةُ ضَلَالَةً وَٱلتَّصْدِيقُ كَذِباً وَٱسْتَحَالَتِ ٱلْحَقَائِقُ وَٱنْقَلَبَتْ صِفَاتُ ٱلنَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وُقُوعِهِ ٱلْمُحَالُ لاَ يَكُونُ مُمْكِناً وَأَمَّا عِنْدَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ فَلِأَنَّ وُقُوعَ ٱلدَّلِيلِ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةِ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ فَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ ٱلنَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ ٱلْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلى مَذْهَبِهِمْ فِي ٱلْإِيجَابِ ٱلذَّاتِيِّ وَوُقُوعُ ٱلْحَوَادِثِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلى ٱلْأَسْبَابِ وَٱلشُّرُوطِ ٱلْحَادِثَةِ مُسْتَنِدَةً أَخِيراً إِلى ٱلْوَاجِبِ ٱلْفَاعِلِ بِٱلذَّاتِ لاَ بِٱلِٱخْتِيَارِ وَإِنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصٌّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ ٱلْعَنَاصِرِ لَهُ فِي ٱلتَّكْوِينِ وَٱلنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلى ٱلتَّصْرِيفِ فِي ٱلْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَٱسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ ٱللهُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سَوَاءٌ كَانَ لِلتَّحَدِّي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دِلَالَتُهُ عَلى تَصَرُّفِ ٱلنَّبِيِّ فِي ٱلْأَكْوَانِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيحِ بِٱلتَّصْدِيقِ فَلِذٰلِكَ لاَ تَكُونُ دِلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ ٱلتَّحَدِّي جُزْءاً مِنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ فَارِقاً لَهَا عَنِ ٱلسِّحْرِ وَٱلْكَرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ ٱلسِّحْرِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلى أَفْعَالِ ٱلْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فَلَا يُلِمُّ ٱلشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ وَٱلسَّاحِرُ عَلى ٱلضِّدِّ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ ٱلْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ ٱلنَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَٱلصُّعُودِ إِلى ٱلسَّمَاءِ وَٱلنُّفُوذِ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلطَّيَرَانِ

فِي ٱلْهَوَاءِ وَخَوَارِقُ ٱلْوَلِيِّ دُونَ ذَٰلِكَ كَتَكْثِيرِ ٱلْقَلِيلِ وَٱلْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُسْتَقْبِلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي ٱلنَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَٰلِكَ ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَّنُوهُ عَمَّنْ أَخَذُوهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ ٱلْمُعْجِزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دِلَالَةً ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيمُ ٱلْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ ٱلْخَوَارِقَ فِي ٱلْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ ٱلَّذِي يَتَلَقَّاهُ ٱلنَّبِيُّ وَيَأْتِي بِٱلْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَٱلْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ ٱلْوَحْيُ ٱلْمُدَّعَى وَهُوَ ٱلْخَارِقُ ٱلْمُعْجِزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ ٱلْمُعْجِزَاتِ مَعَ ٱلْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةً لِٱتِّحَادِ ٱلدَّلِيلِ وَٱلْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ ٱلْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ ٱلْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْياً أُوحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فِي ٱلْوُضُوحِ وَقُوَّةِ ٱلدِّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لِوُضُوحِهَا فَكَثُرَ ٱلْمُصَدِّقُ ٱلْمُؤْمِنُ وَهُوَ ٱلتَّابِعُ وَٱلْأُمَّةُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوّة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين وغير ذلك من من مدارك الغيب فنقول

إِعْلَمْ . أَرْشَدَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكَ أَنَّا نُشَاهِدُ هَذَا ٱلْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلْإِحْكَامِ وَرَبْطِ ٱلْأَسْبَابِ بِٱلْمُسَبَّبَاتِ وَٱتِّصَالِ ٱلْأَكْوَانِ بِٱلْأَكْوَانِ وَٱسْتِحَالَةِ بَعْضِ ٱلْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَٰلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأُ مِنْ ذَٰلِكَ بِٱلْعَالَمِ ٱلْمَحْسُوسِ ٱلْجُثْمَانِيِّ وَأَوَّلاً عَالَمُ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ تَدَرَّجَ صَاعِداً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَى ٱلْمَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلنَّارِ مُتَّصِلاً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِداً وَهَابِطاً وَيَسْتَحِيلُ بَعْضَ ٱلْأَوْقَاتِ وَٱلصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْطَفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ ٱلْأَفْلَاكِ وَهُوَ أَلْطَفُ مِنَ ٱلْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ ٱتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ ٱلْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا ٱلْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا

يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من أسفل منها وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية

بالبدن متدافعاً وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقية إلى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقي إلى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤديه الحس المشترك إلى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ مقدمه للأولى ومؤخره للثانية ثم يرتقي الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لإدراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الأب وافتراس الذئب والحافظة لإيداع المدركات كلها متخيلة وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ أوله للأولى ومؤخره للأخرى ثم ترتقي جميعها إلى قوة الفكر وآلته البطن الأوسط من الدماغ وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملإ الأعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدإه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها وإن فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد

لذلك فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها نطاق لها من مبدإها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملإ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملإ الأعلى ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع أحدهم دوياً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقي إليه فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلاً فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقي من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقي عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لأنه ليس في زمان بل كلها تقع جميعاً فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحي في اللغة الإسراع واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول. وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل

فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي فمثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد. واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا وقالت عائشة كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك أن الوحي كما قررنا مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدإ الوحي في قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد إلى الصواب. هذا محصل أمر النبوءة وأما الكهانة فهي أيضا

منْ خَواصِ ٱلنَّفسِ ٱلإِنسَانِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفسِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱستِعْدَاداً لِلانْسِلاَخِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلرُّوحَانِيَّةِ ٱلَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِن ذٰلِكَ لَمْحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنفِ ٱلأَنبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِن غَيْرِ ٱكْتِسَابٍ وَلاَ ٱستِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلمَدَارِكِ وَلاَ مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ وَلاَ مِنَ ٱلأَفعَالِ ٱلبَدَنِيَّةِ كَلاَماً أَوْ حَرَكَةً وَلاَ بِأَمْرٍ مِنَ ٱلأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ ٱنسِلاَخٌ مِنَ ٱلبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلمَلَكِيَّةِ بِالفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمْحِ ٱلبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلاِستِعْدَاد مَوْجُوداً فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلبَشَرِيَّةِ فَيُعْطِى ٱلتَّقسِيمُ ٱلعَقْلِيُّ وَإِنَّ هُنَا صِنفاً آخَرَ مِنَ ٱلبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتْبَةِ ٱلصِّنفِ ٱلأَوَّلِ نُقصَانَ ٱلضِّدِّ عَنْ ضِدِّهِ ٱلكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ ٱلاِستِعَانَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلإِدْرَاكِ ضِدُّ ٱلاِستِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقسِيمُ ٱلوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنفاً آخَرَ مِنَ ٱلبَشَرِ مَفطُوراً عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ ٱلعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا ٱلفِكْرِيَّةَ بِالإِرَادَةِ عِندَمَا يَبْعَثُهَا ٱلنُّزُوعُ لِذٰلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالجِبِلَّةِ عِندَمَا يَعُوقُهَا ٱلعَجْزُ عَنْ ذٰلِكَ تَشَبَّثَ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ كَالأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ وَعِظَامِ ٱلحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ ٱلكَلاَمِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذٰلِكَ ٱلإِحسَاسُ أَوِ ٱلتَّخَيُّلُ مُسْتَعِيناً بِهِ فِي ذٰلِكَ ٱلاِنسِلاَخِ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَالمُشَيِّعِ لَهُ وَهٰذِهِ ٱلقُوَّةُ ٱلَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأٌ لِذٰلِكَ ٱلإِدْرَاكِ هِيَ ٱلكَهَانَةُ وَلِكَوْنِ هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ مَفطُورَةً عَلَى ٱلنَّقْصِ وَٱلقُصُورِ عَنِ ٱلكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي ٱلجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ تَكُونُ ٱلمُخَيِّلَةُ فِيهِم فِي غَايَةِ ٱلقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ ٱلجُزْئِيَّاتِ فَتَنفُذُ فِيهَا نُفُوذاً تَامّاً فِي نَوْمٍ أَوْ يَقَظَةٍ وَتَكُونُ عِندَهَا حَاضِرَةً عَتِيدَةً تُحْضِرُهَا ٱلمُخَيِّلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالمِرْآةِ تَنظُرُ فِيهَا دَائِماً وَلاَ يَقْوَى ٱلكَاهِنُ عَلَى ٱلكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ ٱلمَعْقُولاَتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ ٱلشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هٰذَا ٱلصِّنفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالكَلاَمِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلسَّجْعُ وَٱلمُوَازَنَةُ لِيَشْتَغِلَ بِهِ عَنِ ٱلحَوَاسِّ وَيَقْوَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلاِتِّصَالِ ٱلنَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ ٱلحَرَكَةِ وَٱلَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذٰلِكَ ٱلأَجْنَبِيِّ مَا يَقْذِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ ٱلحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ ٱلمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلاَئِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ ٱلصِّدْقُ وَٱلكَذِبُ جَمِيعاً وَلاَ يَكُونُ مَوْثُوقاً بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى ٱلظُّنُونِ وَٱلتَّخْمِينَاتِ حِرصاً عَلَى ٱلظَّفَرِ بِالإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهاً عَلَى ٱلسَّائِلِينَ وَأَصْحَابُ هٰذَا ٱلسَّجْعِ هُم

المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم
في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة وقد قال لابن
صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالأخبار كيف يأتيك هذا الأمر قال يأتيني صادقاً
وكاذباً فقال خلط عليك الأمر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب
بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالملإ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي
والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت
داخلة في إدراكه والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه
الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة
حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات
وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض
الشيء وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع
من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر
السماء كما وقع في القرآن والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت
الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين
تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه وأيضاً فالآية إنما دلت على منع الشياطين من
نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضاً
فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت
عليه وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد
الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه
كل نور ويذهب. وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع
وهكذا كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام
ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي
وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه
فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما
واحداً أو متعدداً فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع

ٱلدَّالَّةُ على مِثْلِ تِلْكَ ٱلطَّبِيعةِ فلا يُوجَدُ مِنها شَيْءٌ بَعْدُ وَهذا بِناءٌ على أَنَّ بَعْضَ ٱلوَضْعِ ٱلفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ. فَلَعَلَّ ٱلوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذٰلِكَ ٱلأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ ٱلخَالِصَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجزائها فلا يَقْتَضِي شَيْئاً لا إِنَّهُ يَقْتَضِي ذٰلِكَ ٱلأَثَرَ نَاقِصاً كَمَا قَالُوهُ ثُمَّ إِنَّ هٰؤُلاءِ ٱلكُهَّانَ إِذا عَاصَرُوا زَمَنَ ٱلنُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ ٱلنَّبِيِّ وَدِلالَةِ مُعْجِزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ ٱلوِجْدانِ مِنْ أَمْرِ ٱلنُّبُوَّةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ ٱليَوْمِ وَمَعْقُولِيَّةُ تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدَّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذٰلِكَ وَيُوقِعُهُمْ فِي ٱلتَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ ٱلمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ فَيَقَعُونَ فِي ٱلعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمَيَّةَ ٱبْنِ أَبِي ٱلصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَكَذا وَقَعَ لِٱبْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا غَلَبَ ٱلإِيمَانُ وَٱنْقَطَعَتْ تِلْكَ ٱلأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيمَانٍ كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ ٱلأَسَدِيِّ وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي ٱلفُتُوحَاتِ ٱلإِسْلامِيَّةِ مِنَ ٱلآثَارِ ٱلشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ ٱلإِيمَانِ. وَأَمَّا ٱلرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا ٱلرُّوحَانِيَّةِ لَمْحَةً مِنْ صُوَرِ ٱلوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُوَرُ ٱلوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِٱلفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ ٱلمَوَادِّ ٱلجِسْمَانِيَّةِ وَٱلمَدَارِكِ ٱلبَدَنِيَّةِ وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذٰلِكَ لَمْحَةً بِسَبَبِ ٱلنَّوْمِ كَمَا نَذْكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلاقْتِبَاسُ ضَعِيفاً وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِٱلمُحَاكَاةِ وَٱلمِثَالِ فِي ٱلخَيَالِ لِتَخَلُّصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هٰذِهِ ٱلمُحَاكَاةِ إِلَى ٱلتَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ ٱلاقْتِبَاسُ قَوِيّاً يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ ٱلمُحَاكَاةِ فَلا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ ٱلمِثَالِ وَٱلخَيَالِ وَٱلسَّبَبُ فِي وُقُوعِ هٰذِهِ ٱللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِٱلقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِٱلبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَعَقُّلاً مَحْضاً وَيَكْمُلَ وُجُودُهَا بِٱلفِعْلِ فَتَكُونَ حِينَئِذٍ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ ٱلآلاتِ ٱلبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي ٱلرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ ٱلمَلائِكَةِ أَهْلِ ٱلأُفُقِ ٱلأَعْلَى عَلَى ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ ٱلبَدَنِ وَلا غَيْرِهِ فَهٰذَا ٱلاسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلبَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَٱلَّذِي لِلأَوْلِيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱلعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ ٱلرُّؤْيَا وَأَمَّا ٱلَّذِي لِلأَنْبِيَاءِ فَهُوَ ٱسْتِعْدَادٌ بِٱلانْسِلاخِ مِنَ ٱلبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلمَلَكِيَّةِ ٱلمَحْضَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْلَى ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هٰذَا ٱلاسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّراً فِي حَالاتِ ٱلوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبهاً بيّناً وإن كان حال النوم أدون منه بكثير فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبدإه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطي حقيقتها من حقيقة النبوة وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية

صار محلاً لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس وإدراك بالباطن وهو القوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنساني رأى في نومه ما صدر

لَهُ في يَقظَتِهِ مِراراً غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلى ٱلقَطعِ أنّ ٱلنّفسَ مُدرِكَةٌ لِلغَيبِ في ٱلنّومِ وَلاَ بُدَّ وَإِذَا جَازَ ذٰلِكَ فِي عَالَمِ ٱلنَّومِ فَلا يَمتَنِعُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلأَحوالِ لِأنَّ ٱلذاتَ ٱلمُدرِكَةَ وَاحِدَةٌ وَخَوَاصُّهَا عَامَّةٌ في كُلِّ حَالٍ وَٱللهُ ٱلهَادِي إلى ٱلحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضلِهِ

فَصلٌ * وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلبَشَرِ مِنْ ذٰلِكَ غَالِباً إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيرِ قَصدٍ وَلاَ قُدرَةٍ عَلَيهِ وَإِنَّمَا تَكُونُ ٱلنَّفسُ مُتَشَوِّفَةً لِذٰلِكَ ٱلشَّيءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلكَ ٱللَّمحَةِ فِي ٱلنَّومِ لِأَنَّهَا تَقصِدُ إِلى ذٰلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلغَايَةِ وَغَيرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهلِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ ذِكرُ أَسمَاءٍ تُذكَرُ عِندَ ٱلنَّومِ فَتَكُونُ عَنهَا ٱلرُّؤيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيهِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلحَالُومِيَّة وَذَكَرَ مِنهَا مَسلَمَةُ فِي كِتَابِ ٱلغَايَةِ حَالُومَةً سَمَّاهَا حَالُومَةَ ٱلطِّبَاعِ ٱلتَّامِّ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِندَ ٱلنَّومِ بَعدَ فَرَاغِ ٱلسِّرِّ وَصِحَّةِ ٱلتَّوَجُّهِ هٰذِهِ ٱلكَلِمَاتُ ٱلأَعجَمِيَّةُ وَهِيَ تماغس بعد ان يسواد وغداس نوفنا غادس وَيَذكُرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى ٱلكَشفَ عَمَّا يَسأَلُ عَنهُ فِي ٱلنَّومِ * وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلاً فَعَلَ ذٰلِكَ بَعدَ رِيَاضَةِ لَيَالٍ فِي مَأكَلِهِ وَذِكرِهِ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طِبَاعُكَ ٱلتَّامُّ فَسَأَلَهُ وَأَخبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيهِ وَقَد وَقَعَ لِي أَنَا بِهٰذِهِ ٱلأَسمَاءِ مَرَاءٍ عَجِيبَةٌ وَٱطَّلَعتُ بِهَا عَلى أُمُورٍ كُنتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيهَا مِن أَحوَالِي وَلَيسَ ذٰلِكَ بِدَلِيلٍ عَلى أَنَّ ٱلقَصدَ لِلرُّؤيَا يُحدِثُهَا وَإِنَّمَا هٰذِهِ ٱلحَالُومَاتُ تُحدِثُ ٱستِعدَاداً فِي ٱلنَّفسِ لِوُقُوعِ ٱلرُّؤيَا فَإِذَا قَوِيَ ٱلِٱستِعدَادُ كَانَ أَقرَبَ إِلى حُصُولِ مَا يُستَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخصِ أَنْ يَفعَلَ مِنَ ٱلِٱستِعدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلاً عَلى إِيقَاعِ ٱلمُستَعَدِّ لَهُ فَٱلقُدرَةُ عَلى ٱلِٱستِعدَادِ غَيرُ ٱلقُدرَةِ عَلى ٱلشَّيءِ فَٱعلَمْ ذٰلِكَ وَتَدَبَّرهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمثَالِهِ وَٱللهُ ٱلحَكِيمُ ٱلخَبِيرُ

فَصلٌ * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي ٱلنَّوعِ ٱلإِنسَانِيِّ أَشخَاصاً يُخبِرُونَ بِٱلكَائِنَاتِ قَبلَ وُقُوعِهَا بِطَبِيعَةٍ فِيهِم يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنفُهُم عَنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ وَلَا يَرجِعُونَ فِي ذٰلِكَ إِلى صِنَاعَةٍ وَلا يَستَدِلُّونَ عَلَيهِ بِأَثَرٍ مِنَ ٱلنُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُم فِي ذٰلِكَ بِمُقتَضى فِطرَتِهِمُ ٱلَّتِي فُطِرُوا عَلَيهَا وَذٰلِكَ مِثلُ ٱلعَرَّافِينَ وَٱلنَّاظِرِينَ فِي ٱلأَجسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ كَٱلمَرَايَا وَطِسَاسِ ٱلمَاءِ وَٱلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ ٱلحَيَوَانَاتِ وَأَكبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهلِ ٱلزَّجرِ فِي ٱلطَّيرِ وَٱلسِّبَاعِ وَأَهلِ ٱلطَّرقِ بِٱلحَصَى وَٱلحُبُوبِ مِنَ ٱلحِنطَةِ وَٱلنَّوَى وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَوجُودَةٌ فِي عَالَمِ ٱلإِنسَانِ لَا يَسَعُ أَحَداً جَحدُهَا وَلَا إِنكَارُهَا وَكَذٰلِكَ ٱلمَجَانِينُ يُلقَى عَلى أَلسِنَتِهِم

كليات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة. ونحن الآن نتكلم عن هذه الإدراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة. وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك أن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم تتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملا لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قررنا قبل وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في

قوالبه فتخبر به . هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي . ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه . فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب . وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا . وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على

ٱلتَّعَلُّقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخرى شَيْطَانِيَّةٌ تَتَشَبَّثُ بِهِ وَتَضْعُفُ هٰذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا فَيَكُونُ عَنْهُ ٱلتَّخَبُّطُ فَإِذَا أَصَابَهُ ذٰلِكَ ٱلتَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مِزَاجِهِ مِنْ فَسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمُزَاحَمَةٍ مِنَ ٱلنُّفُوسِ ٱلشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حِسِّهِ جُمْلَةً فَأَدْرَكَ لَمْحَةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَٱنْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ ٱلصُّوَرِ وَصَرَفَهَا ٱلْخَيَالُ وَرُبَّمَا نَطَقَ عَنْ لِسَانِهِ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ ٱلنُّطْقِ وَإِدْرَاكُ هٰؤُلَاءِ كُلِّهِمْ مَشُوبٌ فِيهِ ٱلْحَقُّ بِٱلْبَاطِلِ لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ ٱلْإِتِّصَالُ وَإِنْ فَقَدُوا ٱلْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ ٱلْإِسْتِعَانَةِ بِٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ ذٰلِكَ يَجِيءُ ٱلْكَذِبُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكِ وَأَمَّا ٱلْعَرَّافُونَ فَهُمُ ٱلْمُتَعَلِّقُونَ بِهٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ وَلَيْسَ لَهُمْ ذٰلِكَ ٱلْإِتِّصَالُ فَيُسَلِّطُونَ ٱلْفِكْرَ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ فِيهِ بِٱلظَّنِّ وَٱلتَّخْمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِئِ ذٰلِكَ ٱلْإِتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ وَيَدَّعُونَ بِذٰلِكَ مَعْرِفَةَ ٱلْغَيْبِ وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ هٰذَا تَحْصِيلُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا ٱلْمَسْعُودِي فِي مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً وَيَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ٱلرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنِ ٱلرُّسُوخِ فِي ٱلْمَعَارِفِ فَيَنْقُلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ وَهٰذِهِ ٱلْإِدْرَاكَاتُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ ٱلْبَشَرِ فَقَدْ كَانَ ٱلْعَرَبُ يَفْزَعُونَ إِلَى ٱلْكُهَّانِ فِي تَعَرُّفِ ٱلْحَوَادِثِ وَيَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي ٱلْخُصُومَاتِ لِيُعَرِّفُوهُمْ بِٱلْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِدْرَاكِ غَيْبِهِمْ وَفِي كُتُبِ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ وَٱشْتَهَرَ مِنْهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ شِقُّ بْنُ أَنْمَارِ ٱبْنِ نِزَارٍ وَسَطِيحُ بْنُ مَازِنِ بْنِ غَسَّانَ وَكَانَ يُدْرَجُ كَمَا يُدْرَجُ ٱلثَّوْبُ وَلَا عَظْمَ فِيهِ إِلَّا ٱلْجُمْجُمَةَ وَمِنْ مَشْهُورِ ٱلْحِكَايَاتِ عَنْهُمَا تَأْوِيلُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ وَمَا أَخْبَرَاهُ بِهِ مِلْكُ ٱلْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ وَمُلْكُ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَظُهُورِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلْمُحَمَّدِيَّةِ فِي قُرَيْشٍ وَرُؤْيَا ٱلْمُوبَذَانِ ٱلَّتِي أَوَّلَهَا سَطِيحٌ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِهَا كِسْرَى عَبْدَ ٱلْمَسِيحِ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ ٱلنُّبُوَّةِ وَخَرَابِ مُلْكِ فَارِسَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْعَرَّافُونَ كَانَ فِي ٱلْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ ٱلْيَمَامَةِ دَاوِنِي ... فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطَبِيبُ

وقال الآخر

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ ٱلْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي

فَقَالَا شَفَاكَ ٱللّٰهُ وَٱللّٰهِ مَا لَنَا ... بِمَا حَمَلَتْ مِنْكَ ٱلضُّلُوعُ يَدَانِ

وَعَرَّافُ ٱلْيَمَامَةِ هُوَ رَبَاحُ بْنُ عِجْلَةَ وَعَرَّافُ نَجْدَ ٱلْأَبْلَقُ ٱلْأَسَدِيُّ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْيَقْظَةِ وَٱلْتِبَاسِهِ بِٱلنَّوْمِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذٰلِكَ ٱلْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِىءِ ٱلنَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْيَقْظَةِ وَذَهَابِ ٱلْاِخْتِيَارِ فِي ٱلْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى ٱلنُّطْقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذٰلِكَ يَصْدُرُ عَنِ ٱلْمَقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذٰلِكَ . وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ ٱلْجَبَابِرَةِ ٱلظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصاً لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ ٱلْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ . وَذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ ٱلْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَنَّ آدَمِيّاً إِذَا جُعِلَ فِي دَنٍّ مَمْلُوءٍ بِدُهْنِ ٱلسِّمْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُغَذَّى بِٱلتِّينِ وَٱلْجَوْزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا ٱلْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ فَيُخْرَجُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدُّهْنِ فَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ وَهٰذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِيرِ أَفْعَالِ ٱلسَّحَرَةِ لٰكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ ٱلْعَالَمِ ٱلْإِنْسَانِي وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هٰذَا ٱلْمُدْرَكِ ٱلْغَيْبِيِّ بِٱلرِّيَاضَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلْمُجَاهَدَةِ مَوْتاً صِنَاعِيّاً بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ ٱلْقُوَى ٱلْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ مَحْوِ آثَارِهَا ٱلَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا ٱلنَّفْسُ ثُمَّ تَغْذِيَتِهَا بِٱلذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ ذٰلِكَ بِجَمْعِ ٱلْفِكْرِ وَكَثْرَةِ ٱلْجُوعِ وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ عَلَى ٱلْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ ٱلْمَوْتُ بِٱلْبَدَنِ ذَهَبَ ٱلْحِسُّ وَحِجَابُهُ وَٱطَّلَعَتِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلْمُغَيَّبَاتِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلرِّيَاضَةِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذٰلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ ٱلْاِطِّلَاعُ عَلَى ٱلْمُغَيَّبَاتِ وَٱلتَّصَرُّفَاتِ فِي ٱلْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هٰؤُلَاءِ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً خُصُوصاً بِلَادِ ٱلْهِنْدِ وَيُسَمَّوْنَ هُنَالِكَ ٱلْحُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هٰذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَٱلْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ جَمْعَ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْإِقْبَالَ عَلَى ٱللّٰهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ ٱلْعِرْفَانِ وَٱلتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى ٱلْجَمْعِ وَٱلْجُوعِ ٱلتَّغْذِيَةَ بِٱلذِّكْرِ فِيهَا تَتِمُّ وِجْهَتُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْعِرْفَانِ بِٱللّٰهِ وَإِذَا عَرِيَتْ عَنِ ٱلذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْغَيْبِ وَٱلتَّصَرُّفِ لِهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُوداً مِنْ أَوَّلِ

ٱلْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَٰلِكَ كَانَتِ ٱلْوِجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَأَخْسِرْ بِهَا صَفْقَةً وَإِنَّهَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ شِرْكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ آثَرَ ٱلْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِٱلثَّانِي فَهُمْ يَقْصِدُونَ بِوِجْهَتِهِمِ ٱلْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَٰلِكَ مَا يَحْصُلُ فَبِٱلْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفِلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهَ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَٰلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلْغَيْبِ وَٱلْحَدِيثِ عَلَى ٱلْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفاً وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَٰلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ ٱلْإِسْفِرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱلْمَالِكِيُّ فِي آخَرِينَ فِرَاراً مِنَ ٱلْتِبَاسِ ٱلْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَٱلْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلتَّحَدِّي فَهُوَ كَافٍ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُمَرَ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَٰلِكَ وَقَائِعُ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَٰلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زُنَيْمٍ كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْعِرَاقِ أَيَّامَ ٱلْفُتُوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ ٱلْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَكٍ وَهَمَّ بِٱلِٱنْهِزَامِ وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحَيَّزُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعُمَرَ ذَٰلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ بِٱلْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ وَٱلْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ ٱبْنَتَهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا نَحَلَهَا مِنْ أَوْسُقِ ٱلتَّمْرِ مِنْ حَدِيقَتِهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جِذَاذِهِ لِتَحُوزَهُ عَنِ ٱلْوَرَثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنِ ٱلْأُخْرَى فَقَالَ إِنَّ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ أُرَاهَا جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي ٱلْمُوَطَّإِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ ٱلنَّحْلِ وَمِثْلُ هَٰذِهِ ٱلْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَأَهْلِ ٱلْإِقْتِدَاءِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ ٱلتَّصَوُّفِ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقِلُّ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحَضْرَةِ ٱلنَّبِيِّ حَتَّى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ ٱلْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ يَسْلُبُ حَالُهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يُفَارِقَهَا وَٱللَّهُ يَرْزُقُنَا ٱلْهِدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى ٱلْحَقِّ.

وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُرِيدِينَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بَهَالِيلُ مَعْتُوهُونَ أَشْبَهُ بِٱلْمَجَانِينِ مِنَ ٱلْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ ٱلْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ ٱلصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَٰلِكَ مِنْ

أَحوالِهِمْ مَنْ يَفهَمُ عنهُم مِنْ أَهلِ الذَّوقِ مَعَ أَنَّهُمْ غَيرُ مُكَلَّفِينَ وَيقَعُ لَهُمْ مِنَ الأَخبارِ عنِ المُغَيَّباتِ عَجائِبُ لِأَنَّهُم لا يَتقَيَّدُونَ بِشَيءٍ فَيُطلِقُونَ كَلامَهُمْ في ذلِكَ وَيأْتونَ مِنهُ بالعَجائِبِ وَرُبَّمَا يُنكِرُ الفُقَهاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيءٍ مِنَ المَقاماتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ التَّكليفِ عَنهُمْ وَالوِلايَةُ لا تَحصُلُ إِلّا بِالعِبادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضلَ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ وَلا يَتَوَقَّفُ حُصولُ الوِلايَةِ عَلى العِبادَةِ وَلا غَيرِها وَإِذَا كانَتِ النَّفسُ الإِنسانِيَّةُ ثابِتَةَ الوُجودِ فَاللهُ تَعالَى يَخُصُّها بِمَا شاءَ مِنْ مَواهِبِهِ وَهؤُلاءِ القَومُ لَمْ تَعدَمْ نُفُوسُهُمُ النّاطِقَةُ وَلا فَسَدَتْ كَحالِ المَجانِينِ وَإِنَّمَا فُقِدَ لَهُمُ العَقلُ الَّذِي يُناطُ بِهِ التَّكليفُ وَهِيَ صِفَةٌ خاصَّةٌ لِلنَّفسِ وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلإِنسانِ يَشتَدُّ بِها نَظَرُهُ وَيَعرِفُ أَحوالَ مَعاشِهِ وَاستِقامَةَ مَنزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحوالَ مَعاشِهِ وَاستِقامَةَ مَنزِلِهِ لَمْ يَبقَ لَهُ عُذرٌ في قَبُولِ التَّكالِيفِ لِإِصلاحِ مَعادِهِ وَلَيسَ مَنْ فَقَدَ هذِهِ الصِّفَةَ بِفاقِدٍ لِنَفسِهِ وَلا ذاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونَ مَوجُودَ الحَقِيقَةِ مَعدُومَ العَقلِ التَّكلِيفِيِّ الَّذِي هُوَ مَعرِفَةُ المَعاشِ وَلا استِحالَةَ فِي ذلِكَ وَلا يَتَوَقَّفُ اصطِفاءُ اللهِ عِبادَهُ لِلمَعرِفَةِ عَلى شَيءٍ مِنَ التَّكالِيفِ وَإِذَا صَحَّ ذلِكَ فَاعلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلتَبِسُ حالُ هؤُلاءِ بِالمَجانِينِ الَّذِينَ تَفسُدُ نُفُوسُهُمُ النّاطِقَةُ وَيَلتَحِقُونَ بِالبَهائِمِ وَلَكَ في تَميِيزِهِمْ عَلاماتٌ مِنها أَنَّ هؤُلاءِ البَهالِيلَ لا تَجِدُ لَهُم وِجهَةً أَصلًا وَمِنها أَنَّهُمْ يُخلَقُونَ عَلى البَلَهِ مِنْ أَوَّلِ نَشأَتِهِمْ وَالمَجانِينُ يَعرِضُ لَهُمُ الجُنونُ بَعدَ مُدَّةٍ مِنَ العُمرِ لِعَوارِضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذلِكَ وَفَسَدَتْ نُفُوسُهُمُ النّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالخَيبَةِ وَمِنها كَثرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النّاسِ بِالخَيرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لا يَتَوَقَّفُونَ عَلى إِذنٍ لِعَدَمِ التَّكلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالمَجانِينُ لا تَصَرُّفَ لَهُمْ وَهذا فَصلٌ انتَهَى بِنا الكَلامُ إِلَيهِ وَاللهُ المُرشِدُ لِلصَّوابِ

وَقَدْ يَزعُمُ بَعضُ النّاسِ أَنَّ هُنا مَدارِكَ لِلغَيبِ مِنْ دُونِ غَيبَةٍ عَنِ الحِسِّ فَمِنهُمُ المُنَجِّمُونَ القائِلُونَ بِالدَّلالاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقتَضَى أَوضاعِها فِي الفَلَكِ وَآثارِها فِي العَناصِرِ وَمَا يَحصُلُ مِنَ الامتِزاجِ بَينَ طِباعِها بِالتَّناظُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذلِكَ المِزاجِ إِلى الهَواءِ وَهؤُلاءِ المُنَجِّمُونَ لَيسُوا مِنَ الغَيبِ فِي شَيءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حَدسِيَّةٌ وَتَخمِيناتٌ مَبنِيَّةٌ عَلى التَّأثِيرِ النُّجُومِيِّ وَحُصُولُ المِزاجِ مِنهُ لِلهَواءِ مَعَ مَزِيدِ حَدسٍ يَقِفُ بِهِ النّاظِرُ عَلى تَفصِيلِهِ فِي الشَّخصِيّاتِ فِي العالَمِ كَمَا قالَهُ بَطلِيمُوسُ وَنَحنُ نُبَيِّنُ بُطلانَ ذلِكَ فِي مَحَلِّهِ

إن شاء الله وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس بما ذكرناه في شيء. ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلاً لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلان وإن كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال وإن جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فناً حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس وهذه إنما مستندها أوضاع تحكيمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى أدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لأن معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط وأما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط بما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم. فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطراً ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ ٱلْعَرْضِ بِٱعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابَلَهَا مِنَ ٱلشَّكْلِ ٱلَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلاً تَحْتَهُمَا بِٱعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلشَّكْلَيْنِ أَيْضاً مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنَ ٱلْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذٰلِكَ تَحْتَهَا مِنَ ٱلشَّكْلَيْنِ شَكْلاً كَذٰلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هٰذَا ٱلشَّكْلِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ شَكْلاً يَكُونُ آخِرَ ٱلسِّتَّةَ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى ٱلْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا ٱقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ ٱلسُّعُودَةِ وَٱلنُّحُوسَةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلنَّظَرِ وَٱلْحُلُولِ وَٱلِٱمْتِزَاجِ وَٱلدِّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذٰلِكَ تَحَكُّماً غَرِيباً وَكَثُرَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا ٱلتَّآلِيفُ وَٱشْتَهَرَ فِيهَا ٱلْأَعْلَامُ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحَكُّمٌ وَهَوًى وَٱلتَّحْقِيقُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْبَ فِكْرِكَ أَنَّ ٱلْغُيُوبَ لَا تُدْرَكُ بِصِنَاعَةٍ ٱلْبَتَّةَ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعَرُّفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ ٱلْبَشَرِ ٱلْمَفْطُورِينَ عَلَى ٱلرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ ٱلْحِسِّ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحِ وَلِذٰلِكَ يُسَمِّي ٱلْمُنَجِّمُونَ هٰذَا ٱلصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِٱلزُّهَرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دِلَالَةُ ٱلزُّهَرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فَٱلْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هٰذِهِ إِنْ كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةِ وَقَصَدَ بِهٰذِهِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ ٱلنُّقَطِ أَوِ ٱلْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ ٱلْحِسِّ لِتَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ لَحْظَةً مَا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلنَّظَرِ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْمَرَايَا ٱلشَّفَّافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ ٱلْغَيْبِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذٰلِكَ فَهَذَرٌ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْعَمَلِ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَٱلْعَلَامَةُ لِهٰذِهِ ٱلْفِطْرَةِ ٱلَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعَرُّفِ ٱلْكَائِنَاتِ يَعْتَرِيهِمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ كَٱلتَّثَاؤُبِ وَٱلتَّمَطُّطِ وَمَبَادِئِ ٱلْغَيْبَةِ عَنِ ٱلْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيقِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ ٱلطَّوْرِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ مَدَارِكِ ٱلنَّفْسِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ ٱلْحَدْسِ ٱلْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ ٱلنُّجُومِ كَمَا

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ ٱلظَّنِّ وَٱلتَّخْمِينِ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ ٱلْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطُ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ ٱلْعُقُولِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُصَنِّفُونَ وَوَلِعَ بِهِ ٱلْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْحِسَابُ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ ٱلنِّيمِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ ٱلْغَالِبُ مِنَ ٱلْمَغْلُوبِ فِي ٱلْمُتَحَارِبَيْنِ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تَحْسَبَ ٱلْحُرُوفَ ٱلَّتِي فِي ٱسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَلِ ٱلْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَبْجَدَ مِنَ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْأَلْفِ آحَاداً وَعَشَرَاتٍ وَمِئِينَ وَأُلُوفاً فَإِذَا حَسِبْتَ ٱلِاسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَٱحْسِبِ ٱسْمَ ٱلْآخَرِ كَذَٰلِكَ ثُمَّ ٱطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَٱحْفَظْ بَقِيَّةَ هٰذَا وَبَقِيَّةَ هٰذَا ثُمَّ ٱنْظُرْ بَيْنَ ٱلْعَدَدَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ ٱلِاسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ ٱلْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعاً زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعاً فَصَاحِبُ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجاً وَٱلْآخَرُ فَرْداً فَصَاحِبُ ٱلْأَكْثَرِ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعاً زَوْجَانِ فَٱلْمَطْلُوبُ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مَعاً فَرْدَيْنِ فَٱلطَّالِبُ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيْتَانِ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ ٱشْتَهَرَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَهُمَا

أَرَى ٱلزَّوْجَ وَٱلْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقَلُّهَا ... وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ ٱلتَّخَالُفِ غَالِبُ

وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا ٱلزَّوْجُ يَسْتَوِي ... وَعِنْدَ ٱسْتِوَاءِ ٱلْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُوناً مَعْرُوفاً عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ تِسْعَةٍ وَذَٰلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا ٱلْحُرُوفَ ٱلدَّالَّةَ عَلَى ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْوَاحِدِ و (ي) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْعَشَرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْعَشَرَاتِ و (ق) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمِئِينَ و (ش) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِٱلْحُرُوفِ لِأَنَّ ٱلشِّينَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَدَ ثُمَّ رَتَّبُوا هٰذِهِ ٱلْأَحْرُفَ ٱلْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ ٱلْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ايقش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَٰلِكَ بِٱلْحُرُوفِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ ٱلْآلَافِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدَ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ ٱلِاثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْآحَادِ و (ك) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْعَشَرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ و (ر) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمِئِينَ.

وَهِيَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثُلاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ ٱلْمَرَاتِبِ وَهِيَ بكر ثُمَّ فَعَلُوا ذَٰلِكَ بِالْحُرُوفِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ثَلاثَةٍ فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ جلس وَكَذَٰلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أبجد وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ بِزِيَادَةِ عَدَدِ ٱلْآحَادِ وَهِيَ ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعد حفظ طضغ مُرَتَّبَةً عَلَى تَوَالِي ٱلْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا ٱلَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ فَٱلْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ ايقش وَٱلِاثْنَانِ لِكَلِمَةِ بكر وَٱلثَّلاثَةُ لِكَلِمَةِ جلس وَكَذَٰلِكَ إِلَى ٱلتَّاسِعَةِ ٱلَّتِي هِيَ طضغ فَتَكُونُ لَهَا ٱلتِّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ ٱلِاسْمِ بِتِسْعَةٍ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا ٱلْأَعْدَادَ ٱلَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلاً مِنْ حُرُوفِ ٱلِاسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى ٱلتِّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَٰلِكَ بِالِاسْمِ ٱلْآخَرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ ٱلْخَارِجَيْنِ بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱلسِّرُّ فِي هذا بَيِّنٌ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْبَاقِيَ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عُقُودِ ٱلْأَعْدَادِ بِطَرْحِ تِسْعَةٍ إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ ٱلْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ ٱلْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ فَلا فَرْقَ بَيْنَ ٱلِاثْنَيْنِ وَٱلْعِشْرِينَ وَٱلْمِائَتَيْنِ وَٱلْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اثْنَانِ وَكَذَٰلِكَ ٱلثَّلاثَةُ وَٱلثَّلاثُونَ وَٱلثَّلاثُمِائَةُ وَٱلثَّلاثَةُ ٱلْآلافِ كُلُّهَا ثَلاثَةٌ ثَلاثَةٌ فَوُضِعَتِ ٱلْأَعْدَادُ عَلَى ٱلتَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ ٱلْعُقُودِ لا غَيْرُ وَجُعِلَتِ ٱلْحُرُوفُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ ٱلْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلْآحَادِ وَٱلْعَشَرَاتِ وَٱلْمِئِينَ وَٱلْأُلُوفِ (1) وَصَارَ عَدَدُ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا نَائِباً عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سَوَاءٌ دَلَّ عَلَى ٱلْآحَادِ أَوِ ٱلْعَشَرَاتِ أَوِ ٱلْمِئِينَ فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عِوَضاً مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَاهُ هذا هُوَ ٱلْعَمَلُ ٱلْمُتَدَاوَلُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُنْذُ ٱلْأَمْرِ ٱلْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا يَرَى أَنَّ ٱلصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هٰذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي ٱلطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سَوَاءٌ وَهِيَ هٰذِهِ ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خع ثضظ تِسْعُ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي ٱلْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا ٱلَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا ٱلثُّلاثِيُّ وَٱلرُّبَاعِيُّ وَٱلثُّنَائِيُّ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلٍ مُطَّرِدٍ كَمَا تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شُيُوخُنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ ٱلْمَغْرِبِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَعَارِفِ مِنَ ٱلسِّيمِيَاءِ وَأَسْرَارِ ٱلْحُرُوفِ وَٱلنِّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْبَنَّاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ ٱلْعَمَلَ بِهٰذِهِ

---

(1) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه

الْكَلِمَاتِ فِي طَرْحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصَحُّ مِنَ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ايقش وَاللّٰهُ يَعْلَمُ كَيْفَ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ لِلْغَيْبِ غَيْرُ مَعْزُوٍّ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانُ يَشْهَدُ لَكَ بِذٰلِكَ تَصَفَّحْهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ اهـ . وَمِنْ هٰذِهِ الْقَوَانِينِ الصِّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ الزَّايِرْجَةُ الْمُسَمَّاةُ بِزَايِرْجَةِ الْعَالَمِ الْمَعْزُوَّةُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكُشَ وَلِعَهْدِ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةُ الْعَمَلِ صِنَاعَةً وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ يُولَعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمُلْغِزِ فَيُحَرِّضُونَ بِذٰلِكَ عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ وَصُورَتُهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ وَالْمُكَوَّنَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامِ فَلَكِهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعَنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فِيهَا بِرُشُومِ [1] الزِّمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحُسَّابِ بِالْمَغْرِبِ لِهٰذَا الْعَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّايِرْجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جَدْوَلٌ مُتَكَثِّرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طُولًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطُّولِ جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتِ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ الزَّايِرْجَةِ أَبْيَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرْجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْأَلْغَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرْجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ الْحَدَثَانِ بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وُهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَةَ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيْتِ

سُؤَالٌ عَظِيمُ الْخَلْقِ حُزْتَ فَصُنْ إِذَنْ ... غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبْطُهُ الْجِدُّ مَثَّلَا

وَهُوَ الْبَيْتُ الْمُتَدَاوَلُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هٰذِهِ الزَّايِرْجَةِ

(١) قوله برشوم اي موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة اهـ

وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا ٱسْتِخْرَاجَ ٱلْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذٰلِكَ ٱلسُّؤَال وَقَطَّعُوهُ حُرُوفاً ثُمَّ أَخَذُوا ٱلطَّالِعَ لِذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ ٱلْفَلَكِ وَدَرَجِهَا وَعَمَدُوا إِلَى ٱلزَّايِرْجَةِ ثُمَّ إِلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِٱلْبُرْجِ ٱلطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَاراً إِلَى ٱلْمَرْكَز ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ ٱلدَّائِرَةِ قُبَالَةَ ٱلطَّالِعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَٱلْأَعْدَادَ ٱلْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفاً بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ وَقَدْ يَنْقُلُون آحَادَهَا إِلَى ٱلْعَشَرَاتِ وَعَشَرَاتِهَا إِلَى ٱلْمِئِينَ وَبِٱلْعَكْسِ فِيهِمَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ ٱلْعَمَل عِنْدَهُمْ وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى ذٰلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنَف بِٱلْبُرْجِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلطَّالِعِ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَٱلْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى ٱلْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى ٱلْمُحِيطِ وَيَفْعَلُونَ بِٱلْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِٱلْأَوَّلِ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى ٱلْحُرُوف ٱلْأُخْرَى ثُمَّ يُقَطِّعُونَ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهِيبٍ ٱلْمُتَقَدِّمُ وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ ٱلطَّالِعِ فِي أُسِّ ٱلْبُرْجِ وَأُسُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بُعْدُ ٱلْبُرْجِ عَنْ آخِرِ ٱلْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ ٱلْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ ٱلْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ ٱلْمَرَاتِبِ ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ ٱلْأُسَّ ٱلْأَكْبَرَ وَٱلدَّوْرَ ٱلْأَصْلِيَّ وَيُدْخِلُونَ مَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ فِي بُيُوتِ ٱلْجَدْوَلِ عَلَى قَوَانِين مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفاً وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى وَيُقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ ٱلْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا ٱلْأَدْوَارَ وَيُخْرِجُونَ فِي كُلِّ دَوْر ٱلْحَرْفَ ٱلَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ ٱلدَّوْرُ وَيُعَاوِدُونَ ذٰلِكَ بِعَدَدِ ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لِذٰلِكَ فَيَخْرُجُ آخِرَهَا حُرُوفٌ مُتَقَطِّعَةٌ وَتُؤَلَّفُ عَلَى ٱلتَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةً فِي بَيْتٍ وَاحِد عَلَى وَزْنِ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يُقَابَلُ بِهِ ٱلْعَمَلُ وَرَوِيِّهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهِيبٍ ٱلْمُتَقَدِّمِ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي فَصْلِ ٱلْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلزَّايِرْجَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيراً مِنَ ٱلْخَوَاصِّ يَتَهَافَتُونَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ فِي تَوَافُقِ ٱلْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ ٱلْوَاقِعِ وَلَيْس ذٰلِكَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ ٱلْغَيْبَ لَا يُدْرَكُ بِأَمْرٍ صِنَاعِيٍّ ٱلْبَتَّةَ وَإِنَّمَا ٱلْمُطَابَقَة ٱلَّتِي فِيهَا بَيْنَ ٱلْجَوَابِ وَٱلسُّؤَالِ مِنْ حَيْثُ ٱلْإِفْهَامُ وَٱلتَّوَافُقُ فِي ٱلْخِطَابِ حَتَّى يَكُون

ٱلْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنَ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَٱلدُّخُولُ فِي ٱلْجَدْوَلِ بِٱلْأَعْدَادِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ ٱلْأَعْدَادِ ٱلْمَفْرُوضَةِ وَٱسْتِخْرَاجُ ٱلْحُرُوفِ مِنَ ٱلْجَدْوَلِ بِذَٰلِكَ وَطَرْحُ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةُ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذَٰلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلتَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَقَدْ يَقَعُ ٱلِٱطِّلَاعُ مِنْ بَعْضِ ٱلْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ ٱلْمَجْهُولِ فَٱلتَّنَاسُبُ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْمَجْهُولِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقٌ لِحُصُولِهِ سِيَّمَا مِنْ أَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى ٱلْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي ٱلْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَٰلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى يَنْسِبُونَ هٰذِهِ ٱلزَّايِرَجَةَ فِي ٱلْغَالِبِ لِأَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلسَّبْتِيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْغَرِيبَةِ وَٱلْمُعَانَاةِ ٱلْعَجِيبَةِ وَٱلْجَوَابُ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَٱلسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ ٱلْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَٰلِكَ ٱلْبَيْتِ وَلِهٰذَا يَكُونُ ٱلنَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيِّهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذَٰلِكَ أَسْقَطُوا فِيهَا ٱلْمُقَابَلَةَ بِٱلْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ ٱلْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذَٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَنُفُوذِهِ إِلَى ٱلْمَطْلُوبِ فَيُنْكِرُ صِحَّتَهَا وَيَحْسِبُ أَنَّهَا مِنَ ٱلتَّخَيُّلَاتِ وَٱلْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْعَمَلِ بِهَا يُثْبِتُ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يَجِيءُ بِٱلْبَيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ ٱلْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهٰذَا ٱلْحُسْبَانُ تَوَهُّمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ ٱلْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ ٱلتَّنَاسُبِ بَيْنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱلْمَعْدُومَاتِ وَٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ ٱلْمَدَارِكِ وَٱلْعُقُولِ وَلَٰكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مُدْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَٰلِكَ مُشَاهَدَةُ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْحَدْسُ ٱلْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَّرِدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذَٰلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذَكَاءٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ فِي ٱلْعَدَدِ ٱلَّذِي هُوَ أَوْضَحُ ٱلْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى ٱلْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هٰذَا مَعَ خَفَاءِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا فَلْنَذْكُرْ مَسْأَلَةً مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِثَالُهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنْ

ٱلْفُلُوسِ ثُمَّ ٱجْمَعِ ٱلْفُلُوسَ ٱلَّتِي أَخِذَتْ وَٱشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ ٱشْتَرِ بِٱلدَّرَاهِمِ كُلِّهَا طُيُورًا بِسِعْرِ ذَٰلِكَ ٱلطَّائِرِ فَكَمِ ٱلطُّيُورُ ٱلْمُشْتَرَاةُ بِٱلدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ ٱلدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ ٱلثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ ثَمَانِيَةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ ٱلثَّمَنَ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ إِلَى ٱلثَّمَنِ ٱلْآخَرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فَهِيَ ثَمَانِيَةُ طُيُورٍ عِدَّةَ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى ٱلثَّمَانِيَةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُشْتَرَى بِٱلْفُلُوسِ ٱلْمَأْخُوذَةِ أَوَّلًا وَعَلَى سِعْرِهِ ٱشْتَرَيْتَ بِٱلدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةً فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ ٱلْجَوَابُ ٱلْمُضْمَرُ بِسِرِّ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلْوَهْمُ أَوَّلَ مَا يُلْقِي إِلَيْكَ هَٰذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَظَهَرَ أَنَّ ٱلتَّنَاسُبَ بَيْنَ ٱلْأُمُورِ هُوَ ٱلَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهَٰذَا إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلْوُجُودِ أَوِ ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْكَائِنَاتُ ٱلْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وُقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتُ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَٰلِكَ فَٱلْأَعْمَالُ ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلزَّايِرْجَةِ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْجَوَابِ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلسُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ ٱسْتِنْبَاطُ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبٍ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَٰلِكَ ٱلتَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ ٱسْتِخْرَاجُ ذَٰلِكَ ٱلْجَوَابِ بِتِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ وَٱلْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعِ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ عَلَى وُقُوعِ أَحَدِ طَرَفَيِ ٱلسُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هَٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَٰلِكَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ بَلِ ٱلْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدِ ٱسْتَأْثَرَ ٱللَّهُ بِعِلْمِهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

الباب الثاني

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

إعْلَمْ أَنَّ ٱخْتِلافَ ٱلأَجْيالِ فِي أَحوالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِٱخْتِلافِ نِحْلَتِهِمْ مِنَ ٱلمَعاشِ فَإِنَّ ٱجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَٱلإِبْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَنَشِيطٌ قَبْلَ ٱلحَاجِيِّ وَٱلكَمَالِيِّ فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ ٱلفَلْحَ مِنَ ٱلغِرَاسَةِ وَٱلزِّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ ٱلقِيَامَ عَلَى ٱلحَيَوَانِ مِنَ ٱلغَنَمِ وَٱلبَقَرِ وَٱلمَعَزِ وَٱلنَّحْلِ وَٱلدُّودِ لِنِتَاجِهَا وَٱسْتِخْرَاجِ فَضَلاتِهَا وَهٰؤُلاءِ ٱلقَائِمُونَ عَلَى ٱلفَلْحِ وَٱلحَيَوَانِ تَدْعُوهُمُ ٱلضَّرُورَةُ وَلا بُدَّ إِلَى ٱلبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لا يَتَّسِعُ لَهُ ٱلحَوَاضِرُ مِنَ ٱلمَزَارِعِ وَٱلفُدُنِ وَٱلمَسَارِحِ لِلحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَكَانَ ٱخْتِصَاصُ هٰؤُلاءِ بِٱلبَدْوِ أَمْراً ضَرُورِيّاً لَهُمْ وَكَانَ حِينَئِذٍ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ مِنَ ٱلقُوتِ وَٱلكِنِّ وَٱلدِّفْءِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلمِقْدَارِ ٱلَّذِي يَحْفَظُ ٱلحَيَاةَ وَيُحَصِّلُ بُلْغَةَ ٱلعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ ثُمَّ إِذَا ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هٰؤُلاءِ ٱلمُنْتَحِلِينَ لِلمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ ٱلحَاجَةِ مِنَ ٱلغِنَى وَٱلرَّفَهِ دَعَاهُمْ ذٰلِكَ إِلَى ٱلسُّكُونِ وَٱلدَّعَةِ وَتَعَاوَنُوا فِي ٱلزَّائِدِ عَلَى ٱلضَّرُورَةِ وَٱسْتَكْثَرُوا مِنَ ٱلأَقْوَاتِ وَٱلمَلابِسِ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهَا وَتَوْسِعَةِ ٱلبُيُوتِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلمُدُنِ وَٱلأَمْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ ٱلرَّفَهِ وَٱلدَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ ٱلبَالِغَةُ مَبَالِغَهَا فِي ٱلتَّأَنُّقِ فِي عِلاجِ ٱلقُوتِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلمَطَابِخِ وَٱنْتِقَاءِ ٱلمَلابِسِ ٱلفَاخِرَةِ فِي أَنْوَاعِهَا مِنَ ٱلحَرِيرِ وَٱلدِّيبَاجِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَمُعَالاةِ ٱلبُيُوتِ وَٱلصُّرُوحِ وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا فِي تَنْجِيدِهَا وَٱلإِنْتِهَاءِ فِي ٱلصَّنَائِعِ فِي ٱلخُرُوجِ مِنَ ٱلقُوَّةِ إِلَى ٱلفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا فَيَتَّخِذُونَ ٱلقُصُورَ وَٱلمَنَازِلَ وَيُجْرُونَ فِيهَا ٱلمِيَاهَ وَيُعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فِي تَنْجِيدِهَا وَيَخْتَلِفُونَ فِي ٱسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آنِيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ وَهٰؤُلاءِ هُمُ ٱلحَضَرُ وَمَعْنَاهُ ٱلحَاضِرُونَ أَهْلُ ٱلأَمْصَارِ وَٱلبُلْدَانِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يَنْتَحِلُ فِي مَعَاشِهِ ٱلصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ ٱلتِّجَارَةَ

وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى وَأَرْفَهَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعيٌّ

قَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ هُمُ ٱلْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ ٱلطَّبِيعِيِّ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ مِنَ ٱلشَّعْرِ وَٱلْوَبَرِ أَوِ ٱلشَّجَرِ أَوْ مِنَ ٱلطِّينِ وَٱلْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنَجَّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ ٱلْاِسْتِظْلَالِ وَٱلْكِنِّ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى ٱلْغِيرَانِ وَٱلْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيراً بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ ٱلْبَتَّةَ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ ٱلنَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي ٱلزِّرَاعَةِ وَٱلْقِيَامِ بِٱلْفَلْحِ كَانَ ٱلْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ ٱلظَّعْنِ وَهٰؤُلَاءِ سُكَّانُ ٱلْمَدَرِ وَٱلْقُرَى وَٱلْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي ٱلسَّائِمَةِ مِثْلِ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ فَهُمْ ظُعُنٌ فِي ٱلْأَغْلَبِ لِٱرْتِيَادِ ٱلْمَسَارِحِ وَٱلْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَٱلتَّقَلُّبُ فِي ٱلْأَرْضِ أَصْلَحُ بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ ٱلْقَائِمُونَ عَلَى ٱلشَّاءِ وَٱلْبَقَرِ وَلَا يُبْعِدُونَ فِي ٱلْقَفْرِ لِفِقْدَانِ ٱلْمَسَارِحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ ٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي ٱلْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْناً وَأَبْعَدُ فِي ٱلْقَفْرِ مَجَالاً لِأَنَّ مَسَارِحَ ٱلتُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِي بِهَا ٱلْإِبِلُ فِي قِوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي ٱلشَّجَرِ بِٱلْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ ٱلْمِلْحَةِ وَٱلتَّقَلُّبِ فَصْلَ ٱلشِّتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَاراً مِنْ أَذَى ٱلْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَباً لِمَاخِضِ ٱلنِّتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذِ ٱلْإِبِلُ أَصْعَبُ ٱلْحَيَوَانِ فِصَالاً وَمَخَاضاً وَأَحْوَجُهَا فِي ذَلِكَ إِلَى ٱلدِّفْءِ فَٱضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ ٱلنُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمُ ٱلْحَامِيَةُ عَنِ ٱلتُّلُولِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي ٱلْقِفَارِ نَفْرَةً عَنِ ٱلضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ ٱلْوَحْشِ غَيْرِ ٱلْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونُ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بَدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِٱلْقِيَامِ عَلَى

ٱلإبل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى ٱلشياه وٱلبقر معها فقد تبين لك أن جيل ٱلعرب طبيعي لا بد منه في ٱلعمران وٱلله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قد ذكرنا أن ٱلبدو هم ٱلمقتصرون على ٱلضروري في أحوالهم ٱلعاجزون عما فوقه وأن ٱلحضر ٱلمعتنون بحاجات ٱلترف وٱلكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن ٱلضروري أقدم من ٱلحاجي وٱلكمالي وسابق عليه ولأن ٱلضروري أصل وٱلكمالي فرع ناشئ عنه فٱلبدو أصل للمدن وٱلحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب ٱلإنسان ٱلضروري ولا ينتهي إلى ٱلكمال وٱلترف إلا إذا كان ٱلضروري حاصلاً فخشونة ٱلبداوة قبل رقة ٱلحضارة ولهذا نجد ٱلتمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على ٱلرياش ٱلذي يحصل له به أحوال ٱلترف وعوائده عاج إلى ٱلدعة وأمكن نفسه إلى قياد ٱلمدينة وهكذا شأن ٱلقبائل ٱلمتبدية كلهم وٱلحضري لا يتشوف إلى أحوال ٱلبادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته ومما يشهد لنا أن ٱلبدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من ٱلأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل ٱلبدو ٱلذين بناحية ذلك ٱلمصر وعدلوا إلى ٱلدعة وٱلترف ٱلذي في ٱلحضر وذلك يدل على أن أحوال ٱلحضارة ناشئة عن أحوال ٱلبداوة وأنها أصل لها فتفهمه . ثم إن كل واحد من ٱلبدو وٱلحضر متفاوت ٱلأحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمراناً من مدينة فقد تبين أن وجود ٱلبدو متقدم على وجود ٱلمدن وٱلأمصار وأصل لها بما أن وجود ٱلمدن وٱلأمصار من عوائد ٱلترف وٱلدعة ٱلتي هي متأخرة عن عوائد ٱلضرورة ٱلمعاشية وٱلله أعلم

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وَسَبَبُهُ أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ ٱلْخُلُقَيْنِ تَبْعُدُ عَنِ ٱلْآخَرِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا ٱكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ ٱلْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ ٱلْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعُدَ عَنِ ٱلشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ ٱلشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضاً عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ ٱلْمَلَاذِّ وَعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَٱلْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ وَٱلشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ ٱلْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْذَعُونَ فِي أَقْوَالِ ٱلْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كُبَرَائِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ ٱلْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ ٱلسُّوءِ فِي ٱلتَّظَاهُرِ بِٱلْفَوَاحِشِ قَوْلاً وَعَمَلاً وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلْمِقْدَارِ ٱلضَّرُورِيِّ لَا فِي ٱلتَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلسُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ ٱلْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَخُرُوجُهُ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَنِهَايَةُ ٱلشَّرِّ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ ٱلْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ ٱلْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى ٱلْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ٱرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي ٱلْبَدْوِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهِجْرَةَ ٱفْتُرِضَتْ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ ٱلْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى ٱلْأَعْرَابِ

أهل البادية لأنّ أهل مكّة يمسّهم من عصبيّة النّبي صلّى الله عليه وسلّم في المظاهرة والحراسة ما لا يمسّ غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التّعرّب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلّى الله عليه وسلّم في حديث سعد بن أبي وقّاص عند مرضه بمكّة اللّهمّ أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردّهم على أعقابهم ومعناه أن يوفّقهم لملازمة المدينة وعدم التّحوّل عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم الّتي ابتدأوا بها وهو من باب الرّجوع على العقب في السّعي إلى وجه من الوجوه وقيل إنّ ذلك كان خاصّاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلّة المسلمين وأمّا بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزّوا وتكفّل الله لنبيّه بالعصمة من النّاس فإنّ الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلّى الله عليه وسلّم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط إنشاؤها عمّن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمّن أسلم وهاجر قبل الفتح والكلّ مجمعون على أنّها بعد الوفاة ساقطة لأنّ الصّحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق إلّا فضل السّكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجّاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعرّبت نعى عليه في ترك السّكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدّعاء المأثور الّذي قدّمناه وهو قوله لا تردّهم على أعقابهم وقوله تعرّبت إشارة إلى أنّه صار من الأعراب الّذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين وإنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصّاً به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة أو يكون الحجّاج إنّما نعى عليه ترك السّكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بأنّ اغتنامه لإذن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أولى وأفضل فما آثره به واختصّه إلّا لمعنى علمه فيه وعلى كلّ تقدير فليس دليلاً على مذمّة البدو الّذي عبّر عنه بالتّعرّب لأنّ مشروعيّة الهجرة إنّما كانت كما علمت لمظاهرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم وحراسته لا لمذمّة البدو فليس في النّعي على ترك هذا الواجب دليل على مذمّة التّعرّب والله سبحانه أعلم وبه التّوفيق

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهلَ ٱلْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ ٱلرَّاحَةِ وَٱلدَّعَةِ وَٱنْغَمَسُوا فِي ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَٱلْحَاكِمِ ٱلَّذِي يَسُوسُهُمْ وَٱلْحَامِيَةِ ٱلَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَٱسْتَنَامُوا إِلَى ٱلْأَسْوَارِ ٱلَّتِي تَحُوطُهُم وَٱلْحِرْزِ ٱلَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلا تَهِيجُهُمْ هَيْعَةٌ وَلا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُّونَ آمِنُون قَدْ أَلْقُوا ٱلسِّلاحَ وَتَوَالَتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمُ ٱلْأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِين هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُم حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقاً يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ لِتَفَرُّدِهِم عَنِ ٱلْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي ٱلضَّوَاحِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلْحَامِيَةِ وَٱنْتِبَاذِهِمْ عَنِ ٱلْأَسْوَار وَٱلْأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لا يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلا يَثِقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِم فَهُمْ دَائِماً يَحْمِلُونَ ٱلسِّلاحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي ٱلطُّرُقِ وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ ٱلْهُجُوع إِلَّا غِرَاراً فِي ٱلْمَجَالِسِ وَعَلَى ٱلرِّحَالِ وَفَوْقَ ٱلْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَآتِ وَٱلْهَيْعَات وَيَتَفَرَّدُونَ فِي ٱلْقَفْرِ وَٱلْبَيْدَاءِ مُدِلِّينَ بِبَأْسِهِمْ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ ٱلْبَأْسُ خُلُقاً وَٱلشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوِ ٱسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي ٱلْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي ٱلسَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئاً مِنْ أَمْر أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهَدٌ بِٱلْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ ٱلنَّوَاحِي وَٱلْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ ٱلْمِيَاهِ وَمَشَارِع ٱلسُّبُلِ وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱبْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لا ٱبْنُ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ فَٱلَّذِي أَلِفَهُ فِي ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقاً وَمَلَكَةً وَعَادَةً تَنَزَّلَ مَنْزِلَةَ ٱلطَّبِيعَة وَٱلْجِبِلَّةِ وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ تَجِدْهُ كَثِيراً صَحِيحاً وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكَ أَمْرِ نَفْسِهِ إِذِ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْأُمَرَاءُ ٱلْمَالِكُونَ لِأَمْر ٱلنَّاسِ قَلِيلٌ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنَ ٱلْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ فِي مَلَكَةِ غَيْرِهِ وَلا بُد فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لا يُعَانَى مِنْهَا حُكْمٌ وَلا مَنْعٌ وَصَدٌّ كَانَ ٱلنَّاسُ مِنْ تَحْت

يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإدلال جبلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تعمد إلى مثل زهرة وقد صلي بما صلي به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلاً ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد

وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِينُ في النَّاسِ وَأَخَذُوا بِالأَحْكَامِ الوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْماً وَصِنَاعَةً يؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلى الحَضَارَةِ وَخُلُقِ الانْقِيَادِ إِلى الأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سَورَةُ البَأْسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلبَأْسِ لِأَنَّ الوَازِعَ فِيهَا ذَاتِي وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا تؤَثِّرُ في أَهْلِ الحَوَاضِرِ في ضَعْفِ نُفُوسِهِمْ وَخَضْدِ الشَّوْكَةِ مِنْهُمْ بِمُعَانَاتِهِمْ في وَلِيدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ وَالبَدْوُ بِمَعْزِلٍ مِنْ هَذِهِ المَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ المُعَلِّمِينَ وَالمُتَعَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَداً مِنَ الصِّبْيَانِ في التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقَلَهُ عَنْ شُرَيْحٍ القَاضِي وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ في حَدِيثِ بَدْءِ الوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الغَطِّ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ المُتَعَارَفِ وَاللهُ الحَكِيمُ الخَبِيرُ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ في طَبَائِعِ البَشَرِ الخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أُهْمِلَ في مَرْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يُهَذِّبْهُ الاقْتِدَاءُ بِالدِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الجَمُّ الغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ البَشَرِ فِيهِمِ الظُّلْمُ وَالعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنِ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلى أَخْذِهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا المُدُنُ وَالأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الحُكَّامُ وَالدَّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُوَ عَلَيْهِ فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحَكَمَةِ القَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا العُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ المَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ الأَسْوَارِ عِنْدَ الغَفْلَةِ أَوِ الغِرَّةِ لَيْلاً أَوِ العَجْزِ عَنِ المُقَاوَمَةِ نَهَاراً أَوْ يَدْفَعُهُ ازْدِيَادُ الحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الاسْتِعْدَادِ وَالمُقَاوَمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ البَدْوِ فَيَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَايِخُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ في

نُفُوسِ الكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجِلَّةِ وَأَمَّا حِلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةُ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمِ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلاَّ إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نَعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهَمُّ وَمَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالنُّعَرَةِ[1] عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاضُدُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ الْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَداً مِنْهُمْ نُعَرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِيحَاشاً مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الِاسْتِعْصَاءِ وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً فَاتَّخِذْهُ إِمَاماً تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدُ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ وَمِنْ صِلَتِهَا النُّعَرَةُ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوِ الْعِدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي الْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيباً جِدّاً بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الِاتِّحَادُ وَالِالْتِحَامُ كَانَتِ الْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ النَّسَبُ بَعْضَ الشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنُوسِيَ بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والنعير الصراخ والصياح في حرب او شر كما في القاموس

فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجاناً ومن أعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفاً وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقاً وجبلة فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع

وَلاَ ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ ٱلأَدَمِ وَٱلْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا ٱخْتِلاَطٌ وَلاَ عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِٱلتُّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ ٱلْخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَٱلْعَيْشِ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلاَنَ مِثْلَ لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَغَسَّانَ وَطَيٍّ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادَ فَٱخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَفِي كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنَ ٱلْخِلاَفِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَهُمْ لاَ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُحَافَظَةَ عَلَى ٱلنَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هٰذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا ٱلنَّسَبَ وَلاَ تَكُونُوا كَنَبَطِ ٱلسَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا هٰذَا أَيْ مَا لَحِقَ هٰؤُلاَءِ ٱلْعَرَبَ أَهْلَ ٱلأَرْيَافِ مِنَ ٱلاِزْدِحَامِ مَعَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْبَلَدِ ٱلطَّيِّبِ وَٱلْمَرَاعِي ٱلْخَصِيبَةِ فَكَثُرَ ٱلاِخْتِلاَطُ وَتَدَاخَلَتِ ٱلأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ ٱلإِسْلاَمِ ٱلاِنْتِمَاءُ إِلَى ٱلْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدُ قِنَّسْرِينَ جُنْدُ دِمَشْقَ جُنْدُ ٱلْعَوَاصِمِ وَٱنْتَقَلَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لاِطِّرَاحِ ٱلْعَرَبِ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ لاِخْتِصَاصِهِمْ بِٱلْمَوَاطِنِ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلاَمَةً زَائِدَةً عَلَى ٱلنَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ ٱلاِخْتِلاَطُ فِي ٱلْحَوَاضِرِ مَعَ ٱلْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتِ ٱلأَنْسَابُ بِٱلْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱطُّرِحَتْ ثُمَّ تَلاَشَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَدُثِرَتْ فَدُثِرَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِدُثُورِهَا وَبَقِيَ ذٰلِكَ فِي ٱلْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَٱللهُ وَارِثُ ٱلأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضاً مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وَلاَءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةٍ أَصَابَهَا فَيَدَّعِي بِنَسَبِ هٰؤُلاَءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلْقَوَدِ وَحَمْلِ ٱلدِّيَاتِ وَسَائِرِ ٱلأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجِدَ لأَنَّهُ لاَ مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هٰؤُلاَءِ وَمِنْ هٰؤُلاَءِ إِلاَّ جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى ٱلنَّسَبَ ٱلأَوَّلَ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى ٱلأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ ٱلأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلإِسْلاَمِ وَٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ وَٱنْظُرْ خِلاَفَ ٱلنَّاسِ فِي نَسَبِ

آلِ ٱلْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنْ لكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ ٱلْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيراً فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ عَرْفَجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْأَزْدِ أَصَبْتُ دَماً فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ وَٱنْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ ٱخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِجِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذٰلِكَ وَٱمْتَدَّ ٱلزَّمَنُ لَتُنُوسِيَ بِٱلْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَذْهَبٍ فَٱفْهَمْهُ وَٱعْتَبِرْ سِرَّ ٱللّٰهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْعُهُودِ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي عشر (١)

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ ٱلْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضاً عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ ٱلْتِحَاماً مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ مِثْلُ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لا مِثْلَ بَنِي ٱلْعَمِّ ٱلْأَقْرَبِينَ أَوِ ٱلْأَبْعَدِينَ فَهٰؤُلاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَصَائِبِ فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ وَٱلنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَا فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ ٱللُّحْمَةِ وَٱلرِّئَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلا تَكُونُ فِي ٱلْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْغَلَبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ ٱلْعَصَائِبِ لِيَقَعَ ٱلْغَلَبُ بِهَا وَتَتِمَّ ٱلرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ ذٰلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى ٱلنَّازِلَةِ عَنْ عِصَابَتِهِمْ فِي ٱلْغَلَبِ لَمَا تَمَّتْ لَهُمُ ٱلرِّئَاسَةُ فَلا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى ٱلْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَاهُ مِنْ سِرِّ ٱلْغَلَبِ لِأَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ وَٱلْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ ٱلْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَٱلْمِزَاجُ فِي ٱلْمُتَكَوِّنِ لا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية واثباته اولى ليطابق كلامه اول الفصل ١٢ اهـ قاله نصر الهوريني

ٱلْعَنَاصِرُ فَلا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلتَّكْوِينُ فَهَذَا هُوَ سِرُّ ٱشْتِرَاطِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْغَلَبِ وَٱلْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلا بُدَّ فِي ٱلرِّئَاسَةِ عَلَى ٱلْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصَبِيَّةِ ٱلرَّئِيسِ لَهُمْ أَقَرُّوا بِٱلْإِذْعَانِ وَٱلِاتِّبَاعِ وَٱلسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ لا تَكُونُ لَهُ عَصَبِيَّةٌ فِيهِمْ بِٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لَزِيقٌ وَغَايَةُ ٱلتَّعَصُّبِ لَهُ بِٱلْوَلاءِ وَٱلْحِلْفِ وَذَلِكَ لا يُوجِبُ لَهُ غَلَباً عَلَيْهِمِ ٱلْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ قَدِ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ وَٱخْتَلَطَ وَتُنُوسِيَ عَهْدُهُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلِالْتِصَاقِ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ قَبْلَ هَذَا ٱلِالْتِحَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَٱلرِّئَاسَةُ عَلَى ٱلْقَوْمِ إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقِلَةً فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ لَهُ ٱلْغَلَبُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱلْأَوَّلِيَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ لِهَذَا ٱلْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا ٱلْتِصَاقُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنَعَهُ ذَلِكَ ٱلِالْتِصَاقُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ حِينَئِذٍ فَكَيْفَ تُنُوقِلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ ٱلْإِلْصَاقِ وَٱلرِّئَاسَةُ لا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْرُوثَةً عَنْ مُسْتَحِقِّهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ عَلَى ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ ٱلنَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ ٱتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذَلِكَ ٱلنَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِٱلدَّعْوَى فِي شُعُوبِهِ وَلا يَعْلَمُونَ مَا يَتَوَقَّعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي ٱلنَّاسِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَاتَةُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ ٱدِّعَاءُ أَوْلادِ رَبَّابَ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلْحِجَازِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مِنَ ٱلشَّرِيدِ مِنْهُمْ لَحِقَ جَدُّهُمْ بِبَنِي عَامِرٍ نَجَّاراً يَصْنَعُ ٱلْحَرَجَانَ (١) وَٱخْتَلَطَ بِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ ٱدِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا ٱلنَّسَبِ ٱلشَّرِيفِ وَغَلَطاً بِٱسْمِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

---

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى . اه

منَ ٱلعبَّاسيّينَ إلى ٱلمَغرب لأنَّهُ كانَ مُنذُ أوّلِ دولَتِهم على دَعوةِ ٱلعَلويّينَ أعدائِهم منَ ٱلأدارسَة وَٱلعُبَيديّينَ فكيفَ يكونُ من سِبْط ٱلعبّاس أحدٌ من شيعةِ ٱلعلويّينَ. وكذلكَ ما يدّعيهِ أبناءُ زيّانَ مُلوكُ تلمْسانَ مِنْ بَني عبدِ ٱلواحدِ أنّهمْ مِنْ وُلدِ ٱلقاسِمِ بنِ أدريسَ ذهاباً إلى ما ٱشتهرَ في نَسبِهِمْ أنّهمْ مِنْ وُلْد ٱلقاسِمِ فيقُولونَ بلسانِهِم ٱلزّناتي أنتَ ٱلقاسمُ أيْ بَنُو ٱلقاسِمِ ثمَّ يدّعونَ أنَّ ٱلقاسِمَ هذا هُوَ ٱلقاسِمُ بنُ أدريسَ أوِ ٱلقاسِمِ بنُ مُحمّدِ بنِ أدريسَ ولَوْ كانَ ذلكَ صحيحاً فغايةُ ٱلقاسِمِ هذا أنّهُ فرَّ مِنْ مكانِ سلطانِهِ مُستجيراً بهِمْ فكيفَ تتمُّ لهُ ٱلرّئاسَةُ عليهِمْ في باديتِهِمْ وإنّما هُوَ غلَطٌ مِنْ قِبَلِ ٱسمِ ٱلقاسِمِ فإنّهُ كثيرُ ٱلوُجودِ في ٱلأدارسَةِ فتوهّموا أنَّ قاسِمَهُمْ مِنْ ذلكَ ٱلنَّسبِ وهُمْ غيرُ مُحتاجينَ لذلكَ فإنَّ منالَهُمْ لِلمُلكِ وٱلعِزّةِ إنّما كانَ بعصبيَّتِهِمْ ولَمْ يكُنْ بادّعاءِ علويّةٍ ولا عبّاسيّةٍ ولا شيءٍ مِنَ ٱلأنسابِ وإنّما يحمِلُ على هذا ٱلمتقرّبونَ إلى ٱلمُلوكِ بمنازعِهِمْ ومذاهِبِهِمْ ويشتهِرُ حتّى يبعُدَ عنِ ٱلرّدِّ ولقدْ بلغَني عنْ يغمُراسنَ بنِ زيّانَ مؤثّلِ سُلطانِهِمْ أنّهُ لمّا قيلَ لهُ ذلكَ أنكرَهُ وقالَ بلُغتِهِ ٱلزّناتيّةِ ما معناهُ أمّا ٱلدُّنيا وٱلمُلكُ فنلناهُما بسيوفِنا لا بهذا ٱلنَّسبِ وأمّا نفعُهُما في ٱلآخِرةِ فمرْدودٌ إلى ٱللهِ وأعرضَ عنِ ٱلتّقرُّبِ إليهِ بذلكَ. ومِنْ هذا ٱلبابِ ما يدّعيهِ بنو سعدٍ شيوخُ بني يزيدَ مِنْ زُغبةَ أنّهمْ مِنْ وُلدِ أبي بكرٍ ٱلصّدّيقِ رضيَ ٱللهُ عنهُ وبنو سلامةَ شيوخُ بني يدلّلتَنَ مِنْ توجينَ أنّهمْ مِنْ سُليمٍ وٱلزّواودةُ شيوخُ رياحٍ أنّهمْ مِنْ أعقابِ ٱلبرامكةِ وكذا بنو مُهنّا أمراءُ طيّءٍ بٱلمشرقِ يدّعونَ فيما بلغَنا أنّهمْ مِنْ أعقابِهِمْ وأمثالُ ذلكَ كثيرٌ ورئاستُهُمْ في قومِهِمْ مانعةٌ مِنِ ٱدّعاءِ هذهِ ٱلأنسابِ كما ذكرْناهُ بلْ تعيّنَ أنْ يكونوا مِنْ صريحِ ذلكَ ٱلنّسبِ وأقوى عصبيّاتِهِ فٱعتبِرْهُ وٱجتنِبِ ٱلمغالِطَ فيهِ ولا تجعلْ مِنْ هذا ٱلبابِ إلحاقَ مهديّ ٱلموحّدينَ بنَسبِ ٱلعلويّةِ فإنَّ ٱلمهديَّ لمْ يكُنْ مِنْ منبتِ ٱلرّئاسةِ في هرْثمةَ قومِهِ وإنّما رأسَ عليهِمْ بعدَ ٱشتهارِهِ بٱلعلمِ وٱلدّينِ ودُخولِ قبائلِ ٱلمصامدةِ في دعوتِهِ وكانَ معَ ذلكَ مِنْ أهلِ ٱلمنابتِ ٱلمتوسّطةِ فيهِمْ وٱللهُ عالِمُ ٱلغيبِ وٱلشّهادةِ

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَفَ وَٱلْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْخِلَالِ وَمَعْنَى ٱلْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ ٱلرَّجُلُ فِي آبَائِهِ أَشْرَافاً مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَٱلِانْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجِلَّةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَجِلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَٱلنَّاسُ فِي نَشْأَتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلنَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا فَمَعْنَى ٱلْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ ٱلْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَٱلتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ ٱلْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَٱلْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ ٱلنَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ ٱلْحَسَبُ وَٱلشَّرَفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ ٱلنَّسَبِ وَتَفَاوُتِ ٱلْبُيُوتِ فِي هٰذَا ٱلشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِٱلْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرُفٌ مِنَ ٱلدَّعَاوَى وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلْحَسَبَ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلَفاً فِي خِلَالِ ٱلْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ ٱلرُّكُونِ إِلَى ٱلْعَافِيَةِ مَا ٱسْتَطَاعَ وَهٰذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ ٱلنَّسَبِ وَتَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ لٰكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِٱلْمَجَازِ لِعَلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَباً بِٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ ٱلْمُشَكِّكِ ٱلَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِٱلْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَخْتَلِطُونَ بِٱلْغِمَارِ وَيَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ وَسْوَاسُ ذٰلِكَ ٱلْحَسَبِ يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْبُيُوتَاتِ أَهْلِ ٱلْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ جُمْلَةً وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلنَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ ٱلْعَرَبِ أَوِ ٱلْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوَسْوِسُونَ بِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ذٰلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ ٱلْعَالَمِ بِٱلْمَنْبِتِ أَوَّلاً لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرٰهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ثَانِياً وَمَا

أَتاهُمُ ٱللهُ بِهَا مِنَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ ٱنْسَلَخُوا مِنْ ذٰلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمِ ٱلْجَلاءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱنْفَرَدُوا بِٱلِٱسْتِعْبَادِ لِلْكُفْرِ آلافاً مِنَ ٱلسِّنِينَ وَمَا زَالَ هٰذَا ٱلْوَسْوَاسُ مُصَاحِباً لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هٰذَا هَارُونِيٌّ هٰذَا مِنْ نَسْلِ يُوشَعَ هٰذَا مِنْ عَقِبِ كَالِبَ هٰذَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا مَعَ ذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَرُسُوخِ ٱلذُّلِّ فِيهِمْ مُنْذُ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمِ ٱلْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِم عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَذْهَبُ إِلى هٰذَا ٱلْهَذَيَانِ. وَقَدْ غَلِطَ أَبُو ٱلْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هٰذَا لَمَّا ذَكَرَ ٱلْحَسَبَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِن قَوْمٍ قَدِيمٍ نُزُلُهُمْ بِٱلْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا ٱلَّذِي يَنْفَعُهُ قِدَمُ نُزُلِهِمْ بِٱلْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يُرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى ٱلْقَبُولِ مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ ٱلْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ ٱلآبَاءِ فَقَطْ مَعَ أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱسْتِمَالَةُ مَن تُؤَثِّرُ ٱسْتِمَالَتُهُ وَهُمْ أَهْلُ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لا قُدْرَةَ لَهُ ٱلْبَتَّةَ فَلا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَلا يَقْدِرُ عَلَى ٱسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ مِنَ ٱلْحَضَرِ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ رُشْدٍ رَبَا فِي جِيلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يُمَارِسُوا ٱلْعَصَبِيَّةَ وَلا أَنِسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي أَمْرِ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَسَبِ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلآبَاءِ عَلَى ٱلْإِطْلاقِ وَلَمْ يُرَاجِعْ فِيهِ حَقِيقَةَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَسِرَّهَا فِي ٱلْخَلِيقَةِ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وَذٰلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلشَّرَفَ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا ٱصْطَنَعَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ قَوْماً مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوِ ٱسْتَرَقُّوا ٱلْعِبْدَانَ وَٱلْمَوَالِيَ وَٱلْتَحَمُوا بِهِ كَمَا قُلْنَاهُ ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولٰئِكَ ٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَلَبِسُوا جِلْدَتَهَا كَأَنَّهَا عَصَبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلِٱنْتِظَامِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى ٱلْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ مَوْلَى ٱصْطِنَاعٍ وَحِلْفٍ وَلَيْسَ نَسَبُ وِلادَتِهِ بِنَافِعٍ لَهُ فِي تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذْ هِيَ مُبَايِنَةٌ لِذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَعَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ ٱلْتِحَامِهِ بِهٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلآخَرِ وَفُقْدَانِهِ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا فَيَصِيرُ مِنْ هٰؤُلاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ ٱلآبَاءُ فِي هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَانَ لَهُ بَيْتُهُم

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وِلَائِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ لا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُون أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمَوَالِي فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخَدَمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرُفُونَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّدِ ٱلْآبَاءِ فِي وِلَايَتِهَا أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي ٱلْأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتَ كَيْفَ أَدْرَكُوا ٱلْبَيْتَ وَٱلشَّرَفَ وَبَنَوُا ٱلْمَجْدَ وَٱلْأَصَالَةَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ ٱلدَّوْلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنَّاسِ بَيْتاً وَشَرَفاً بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى وَلَاءِ ٱلرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لا بِٱلِٱنْتِسَابِ فِي ٱلْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ ٱلْبَيْتُ وَٱلْحَسَبُ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلَائِهَا وَٱلْأَصَالَةِ فِي ٱصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ ٱلْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْغًى لا عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا ٱلْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وَلَائِهِ وَٱصْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْبَيْتُ وَٱلشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقّاً مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَسَبُ وِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ ٱلْوَلَاءِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ ٱلِٱصْطِنَاعِ فِيهَا وَٱلتَّرْبِيَةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ ٱلْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ وَٱصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعْهُ ٱلْأُولَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَٱنْتَفَعَ بِٱلثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا وَهٰذَا حَالُ بَنِي بَرْمَكَ إِذِ ٱلْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي ٱلْفُرْسِ مِنْ سَدَنَةِ بُيُوتِ ٱلنَّارِ عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلَاءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِٱلْأَوَّلِ ٱعْتِبَارٌ وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وِلَايَتُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَٱصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هٰذَا فَوَهْمٌ تُوَسْوِسُ بِهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْجَامِحَةُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَٱلْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقَاكُمْ وَٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَالَمَ ٱلْعُنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ فَٱلْمُكَوَّنَاتُ مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَجَمِيعِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ بِٱلْمُعَايَنَةِ وَكَذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَخُصُوصاً ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فَٱلْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَذَا ٱلصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَٱلْحَسَبُ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلْآدَمِيِّينَ فَهُوَ كَائِنٌ فَاسِدٌ لا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاطَةً عَلَى ٱلسِّرِّ فِيهِ

وأول كل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرئاسة والشرف إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم إن نهايته في أربعة آباء وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني له ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتداء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الأول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه إن الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث والروابع وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية

فِي ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ ٱلْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءَ ثُمَّ ٱتَّصَلَ ذٰلِكَ بِكَمَالِ ٱلرَّابِعِ فَٱلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ ٱلْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي ٱلْجَدَّيْنِ بَيْتِ شَيْبَانَ وَآلِ ٱلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلرَّهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمْ ٱلْحُكَّامَ وَٱلْعُدُولَ فَقَامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ ٱلْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ ٱلنُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْبُيُوتَاتُ هِيَ ٱلْمَذْكُورَةَ فِي ٱلْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي ٱلذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي ٱلْحَرْثِ بْنِ كَعْبٍ ٱلْيَمَنِيِّ وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْآبَاءَ نِهَايَةٌ فِي ٱلْحَسَبِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي ٱلشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلثَّالِثَةِ لَا جَرَمَ كَانَ هٰذَا ٱلْجِيلُ ٱلْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ ٱلْجِيلِ ٱلْآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱنْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ بَلِ ٱلْجِيلُ ٱلْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا ٱلْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا ٱلنَّعِيمَ وَأَلِفُوا عَوَائِدَ ٱلْخِصْبِ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوَحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي ٱلْإِنْتِهَاضِ وَٱلشِّدَّةِ حَتَّى فِي مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْآدَمِيُّ ٱلْمُتَوَحِّشُ إِذَا أَنِسَ وَأَلِفَ وَسَبَبُهُ أَنَّ تَكُونَ ٱلسَّجَايَا وَٱلطَّبَائِعِ إِنَّمَا هُوَ عَنِ ٱلْمَأْلُوفَاتِ وَٱلْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ ٱلْغَلَبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْإِقْدَامِ وَٱلْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْيَالِ أَعْرَقَ فِي ٱلْبَدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوَحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي ٱلْعَدَدِ وَتَكَافَآ فِي ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ شَأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ ٱلسَّابِقِينَ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبِيعَةَ ٱلْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافَ ٱلْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرُ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ ٱلْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ ٱلْعَيْشِ وَغَضَارَةِ ٱلنَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتِ ٱلْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهٰذَا حَالُ بَنِي طَيِّءٍ وَبَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمِ ٱبْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَٱلْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ ٱلْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُقْهَا مَذَاهِبُ ٱلتَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خِصْبًا دُونَ ٱلْحَيِّ ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلْحَيَّ ٱلْمُتَبَدِّيَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَآ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلْعَدَدِ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذٰلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْتَمَعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْآدَمِيِّينَ بِٱلطَّبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ ٱجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ هُوَ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ٱلرِّئَاسَةِ لِأَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُؤْدَدٌ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا ٱلْمُلْكُ فَهُوَ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْحُكْمُ بِٱلْقَهْرِ وَصَاحِبُ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةٍ طَلَبَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ ٱلسُّؤْدَدِ وَٱلِٱتِّبَاعِ وَوَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ ٱقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتْبُوعًا فَٱلتَّغَلُّبُ ٱلْمُلْكِيُّ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ إِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بُيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعُ ٱلْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ ٱلِٱفْتِرَاقُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱخْتِلَافِ وَٱلتَّنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللّٰهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلتَّغَلُّبُ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا ٱلتَّغَلُّبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى حَوْزَتِهَا

وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع الترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية

فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها

عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ ٱلْحَكِيمِ ٱلْعَلِيمِ وَفِي هَٰذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُقَاوَمَةُ وَٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَيَلْحَقُ بِهَٰذَا ٱلْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ ٱلْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ فَإِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوُا ٱلْيَدَ مِنْ ذَٰلِكَ حَتَّى رَضُوا بِٱلْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا ٱسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ ٱلْقَتْلِ وَٱلتَّلَفِ وَأَنَّ عَصَبِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصَبِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ ٱلضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ ٱلِٱنْقِيَادُ لِلذُّلِّ وَٱلْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَ ٱلْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ ٱلْمِحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ ٱلْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هَٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ ٱلذُّلُّ فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ ٱلْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هَٰذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ ٱلْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ ٱلْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْقَبِيلَ بِٱلْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ ٱلذُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ ٱلْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَٰلِكَ لَمَا ٱسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَٱنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبَرَازُ مَلِكُ ٱلْبَابِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَّ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرَبَرَازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا ٱلْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعَرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ ٱللهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزْيَتُنَا إِلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ لَكُمْ وَٱلْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُذِلُّونَا بِٱلْجِزْيَةِ فَتُوهُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَٱعْتَبِرْ هَٰذَا فِيمَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ ٱلْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ ٱلْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلْعَاقِلَةِ لِأَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَٱلْمُلْكُ وَٱلسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلإِنسَانِ خَاصَّةً لَا لِلحَيَوَانِ فَإِذاً خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذِ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرْعٌ يُتَمِّمُ وُجُودَهُ وَيُكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مُتَمِّمَاتِهِ كَوُجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَاناً بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصاً فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنِهَايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ وَأَيْضاً فَالسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كَفَالَةٌ لِلْخَلْقِ وَخِلَافَةٌ لِلَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعاً وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأُونِسَتْ مِنْهُ خِلَالُ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةُ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكَفَالَةِ الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ وَهَذَا الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبْنًى فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لِمَنْ وُجِدَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأُمَمِ فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالِاحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ وَالْقِرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكَلِّ وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَمَا يُحَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْمَشَايِخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَالِانْقِيَادِ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَذُّلِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَالِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَالتَّوَاضُعِ لِلْمِسْكِينِ وَاسْتِمَاعِ شَكْوَى الْمُسْتَغِيثِينَ وَالتَّدَيُّنِ بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَافِي عَنِ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ

مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثاً منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار

واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجائي إليهم في إقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱسْتِعْبَادِ ٱلطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ ٱلْأَهْلِينَ مَنْزِلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ وَزَنَاتَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ ٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَأَهْلِ ٱللِّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَأَيْضاً فَهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَافُونَ مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلسَّوَاءِ فَلِهٰذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أُفُقِهِمْ بَلْ يَطْفِرُونَ إِلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلنَّائِيَةِ وَٱنْظُرْ مَا يُحْكَى فِي ذٰلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ لَمَّا بُويِعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ ٱلنَّاسَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ فَقَالَ إِنَّ ٱلْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى ٱلنُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذٰلِكَ أَيْنَ ٱلْقُرَّاءُ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ ٱللّٰهِ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي وَعَدَكُمُ ٱللّٰهُ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا فَقَالَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضاً بِحَالِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّالِفَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلِ ٱلتَّبَابِعَةِ وَحِمْيَرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى ٱلْعِرَاقِ وَٱلْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِغَيْرِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَكَذَا حَالُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إِلَى ٱلْمُلْكِ طَفِرُوا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَمَجَالَاتُهُمْ مِنْهُ فِي جِوَارِ ٱلسُّودَانِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهٰذَا شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ فَلِذٰلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقاً وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَاكِزِهَا نِهَايَةً وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ ٱلْغَلَبِ وَٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمُ ٱلْمُبَاشِرُونَ لِلْأَمْرِ ٱلْحَامِلُونَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَلَا يَكُونُ

ذلكَ لجميعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكَثْرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ المُزَاحَمَةِ وَالغَيْرَةِ الَّتِي تَجْدَعُ أُنوفَ كَثِيرٍ مِنَ المُتَطَاوِلِينَ لِلرُّتْبَةِ فَإِذَا تعيَّنَ أُولئكَ القَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ انْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالخِصْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الجِيلِ وَأَنْفَقُوهُم فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ الأَمْرِ وَكُبِحُوا عَنِ المُشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الأَوَّلِينَ الأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضْرَاءَهُمُ الهَرَمُ فَطَبَخَتْهُمُ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ النَّعِيمُ مِنْ حَدِّهِمْ وَاسْتَقَتْ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الإِنْسَانِيِّ وَالتَّغَلُّبِ السِّيَاسِيِّ (شعر)

كَدُودِ القَزِّ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى ... بِمَرْكَزِ نَسْجِهِ فِي الانْعِكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصَبِيَّةُ الآخَرِينَ مَوْفُورَةً وَسَوْرَةُ غَلَبِهِمْ مِنَ الكَاسِرِ مَحْفُوظَةً وَشَارَتُهُم فِي الغَلَبِ مَعْلُومَةً فَتَسْمُو آمَالُهُمْ إِلَى المُلْكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالقُوَّةِ الغَالِبَةِ مِنْ جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ المُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلَبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضاً مُنْتَبِذاً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلا يَزَالُ المُلْكُ مُلْجَأً فِي الأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سَوْرَةُ العَصَبِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سُنَّةَ اللهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي العَرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ العَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ التَّبَابِعَةُ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِم الأَذْوَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الكَيْنِيَّةِ مَلَكَ مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِالإِسْلامِ وَكَذَا اليُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَكَذَا البَرْبَرُ بِالمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكُتَامَةَ المُلُوكِ الأُوَلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ المُلَثَّمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَاتَةَ وَهَكَذَا سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالعَصَبِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الأَجْيَالِ وَالمُلْكُ يُخْلِقُهُ التَّرَفُ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدُ فَإِذَا انْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِم الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالانْقِيَادُ وَأُونِسَ مِنْهَا الغَلَبُ لِجَمِيعِ العَصَبِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَد

فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ ٱلَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعُدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ إِلَى ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي يَأْذَنُ ٱللّٰهُ بِقِيَامِهِ بِذٰلِكَ ٱلتَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَأَخَذُوا ٱلْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَاباً

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ أَبَداً تَعْتَقِدُ ٱلْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِٱلْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ ٱنْقِيَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ ٱلْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذٰلِكَ وَٱتَّصَلَ لَهَا ٱعْتِقَاداً فَٱنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ ٱلْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِاقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ ٱلْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةِ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا ٱنْتَحَلَتْهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضاً بِذٰلِكَ عَنِ ٱلْغَلَبِ وَهٰذَا رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ وَلِذٰلِكَ تَرَى ٱلْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَداً بِٱلْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي ٱتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَٱنْظُرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِماً وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْكَمَالَ فِيهِمْ وَٱنْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ ٱلْحَامِيَةِ وَجُنْدِ ٱلسُّلْطَانِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ ٱلْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا ٱلْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هٰذَا ٱلتَّشَبُّهِ وَٱلِاقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَعَ أُمَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَٱلْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ ٱلتَّمَاثِيلِ فِي ٱلْجُدْرَانِ وَٱلْمَصَانِعِ وَٱلْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ بِعَيْنِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلِاسْتِيلَاءِ وَٱلْأَمْرُ لِلّٰهِ. وَتَأَمَّلْ فِي هٰذَا سِرَّ قَوْلِهِمِ ٱلْعَامَّةُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ ٱلْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَٱلرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِٱعْتِقَادِ ٱلْكَمَالِ فِيهِ ٱعْتِقَادَ ٱلْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَٱللّٰهُ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مُلِكَ أَمْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِالْاسْتِعْبَادِ آلَةً لِسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضْعُفُ التَّنَاسُلُ وَالْاعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقَصَ عُمْرَانُهُمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغَلَّبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ وَطُعْمَةً لِكُلِّ آكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ رَئِيسٌ بِطَبْعِهِ بِمُقْتَضَى الْاسْتِخْلَافِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ وَالرَّئِيسُ إِذَا غُلِبَ عَلَى رِئَاسَتِهِ وَكُبِحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شِبَعِ بَطْنِهِ وَرِيِّ كَبِدِهِ وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ الْأَنَاسِيِّ . وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لَا تُسَافِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْآدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هٰذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَاضْمِحْلَالٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي أُمَّةِ الْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ مَلَأَتِ الْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْداً أَحْصَى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفاً مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفاً رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلاً وَدَثَرُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذٰلِكَ لِظُلْمٍ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمِلَهُمْ فَمَلَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لِغَيْرِهِ وَلِهٰذَا إِنَّمَا تُذْعِنُ لِلرِّقِّ فِي الْغَالِبِ أُمَمُ السُّودَانِ لِنَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِانْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرِّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةَ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْعُلُوجِ مِنَ الْجَلَالِقَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْنَفُونَ مِنَ الرِّقِّ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ ٱنْتِهَابٍ وَعَيْثٍ يَنْتَهِبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلاَ رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِٱلْقَفْرِ وَلاَ يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْمُزَاحَفَةِ وَٱلْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دُفِعُوا بِذٰلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلاَ يَعْرِضُونَ لَهُ وَٱلْقَبَائِلُ ٱلْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ ٱلْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لاَ يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمِ ٱلْهِضَابَ وَلاَ يَرْكَبُونَ ٱلصِّعَابَ وَلاَ يُحَاوِلُونَ ٱلْخَطَرَ وَأَمَّا ٱلْبَسَائِطُ فَمَتَى ٱقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ ٱلْحَامِيَةِ وَضُعْفِ ٱلدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهْبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لِآكِلِهِمْ يُرَدِّدُونَ عَلَيْهَا ٱلْغَارَةَ وَٱلنَّهْبَ وَٱلزَّحْفَ لِسُهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغَلَّبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِٱخْتِلاَفِ ٱلْأَيْدِي وَٱنْحِرَافِ ٱلسِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَٱللهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِٱسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ ٱلتَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقاً وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْذُوذاً لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ وَعَدَمِ ٱلْاِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَغَايَةُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ ٱلرِّحْلَةُ وَٱلتَّغَلُّبُ وَذٰلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ ٱلَّذِي بِهِ ٱلْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَٱلْحَجَرُ مَثَلاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِيَ ٱلْقِدْرِ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذٰلِكَ وَٱلْخَشَبُ أَيْضاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْمُرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا ٱلْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ ٱلسَّقْفَ عَلَيْهِ لِذٰلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعُمْرَانِ هٰذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَأَيْضاً فَطَبِيعَتُهُمُ ٱنْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلاَلِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا ٱمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ ٱنْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ ٱقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْمُلْكِ بَطَلَتِ ٱلسِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَخَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضاً فَلِأَنَّهُمْ

يَكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطاً مِنَ ٱلْأَجْرِ وَٱلثَّمَنِ وَٱلْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ ٱلْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّانًا ضَعُفَتِ ٱلْآمَالُ فِي ٱلْمَكَاسِبِ وَٱنْقَبَضَتِ ٱلْأَيْدِي عَنِ ٱلْعَمَلِ وَٱبْذَعَرَّ ٱلسَّاكِنُ وَفَسَدَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضاً فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِٱلْأَحْكَامِ وَزَجْرِ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ نَهْباً أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذٰلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ ٱلْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا ٱلْعُقُوبَاتِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْفَائِدَةِ وَٱلْجِبَايَةِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذٰلِكَ لَيْسَ بِمُغْنٍ فِي دَفْعِ ٱلْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ ٱلْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذٰلِكَ زَائِداً فِيهَا لِٱسْتِسْهَالِ ٱلْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ ٱلْغَرَضِ فَتَبْقَى ٱلرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى (1) دُونَ حُكْمٍ وَٱلْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ ٱلْمُلْكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْفَصْلِ وَأَيْضاً فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمُ ٱلْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ ٱلْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَٱلْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ ٱلْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ ٱلْأَعْرَابِيُّ ٱلْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ ٱلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْعُمْرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ وَٱنْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ وَبُدِّلَتِ ٱلْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ فَٱلْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ ٱلْعَرَبِ كَذٰلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ ٱلَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَٱلشَّامُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَذٰلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَائِطُهُ خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ ٱلسُّودَانِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمْرَانًا تَشْهَدُ بِذٰلِكَ آثَارُ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَالِمِ وَتَمَاثِيلِ ٱلْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَٱللّٰهُ

---

(1) ومما يعزى الى سيدنا علي   لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة اذا جهالهم سادوا

يرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ لِخُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ ٱلْأُمَمِ ٱنْقِيَاداً بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ وَبُعْدِ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْمُنَافَسَةِ فِي ٱلرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ ٱلدِّينُ بِٱلنُّبُوَّةِ أَوِ ٱلْوِلَايَةِ كَانَ ٱلْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهُلَ ٱنْقِيَادُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ وَذَٰلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ ٱلْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ ٱلْوَازِعِ عَنِ ٱلتَّحَاسُدِ وَٱلتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمِ ٱلنَّبِيُّ أَوِ ٱلْوَلِيُّ ٱلَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى ٱلْقِيَامِ بِأَمْرِ ٱللهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ ٱلْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ ٱلْحَقِّ تَمَّ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ أَسْرَعُ ٱلنَّاسِ قَبُولاً لِلْحَقِّ وَٱلْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ ٱلْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ ٱلْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلْقَرِيبِ ٱلْمُعَانَاةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ ٱلْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ ٱلْعَوَائِدِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي ٱلْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ ٱلتُّلُولِ وَحُبُوبِهَا لِٱعْتِيَادِهِمِ ٱلشَّظَفَ وَخُشُونَةَ ٱلْعَيْشِ فَٱسْتَغْنَوا عَن غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ ٱنْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيلَافِهِمْ ذَٰلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ وَرَئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِباً لِلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرّاً إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونَ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ٱلسَّائِسُ وَازِعاً بِٱلْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضاً فَإِنَّ مِن طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخْذَ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ خَاصَّةً وَٱلتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَٰلِكَ مِن

ٱلْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكُوا أُمَّةً مِنَ ٱلْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مُلْكِهِمِ ٱلِٱنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرَكُوا مَا سِوَى ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَرُبَّمَا جَعَلُوا ٱلْعُقُوبَاتِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَكْثِيرِ ٱلْجِبَايَاتِ وَتَحْصِيلِ ٱلْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَٰلِكَ وَازِعاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلْبَاعِثَةِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ وَٱسْتِهَانَةِ مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنْمُو ٱلْمَفَاسِدُ بِذَٰلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيبُ ٱلْعُمْرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ ٱلْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمْرَانٌ وَتَخْرَبُ سَرِيعاً شَأْنَ ٱلْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعُدَتْ طِبَاعُ ٱلْعَرَبِ لِذَٰلِكَ كُلِّهِ عَنْ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ ٱنْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذَٰلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ ٱلْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي ٱلْمِلَّةِ لَمَّا شَيَّدَ لَهُمُ ٱلدِّينُ أَمْرَ ٱلسِّيَاسَةِ بِٱلشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا ٱلْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ ٱلْعُمْرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَتَابَعَ فِيهَا ٱلْخُلَفَاءُ عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ كَانَ رُسْتُمُ إِذَا رَأَى ٱلْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي يُعَلِّمُ ٱلْكِلَابَ ٱلْآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ ٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ ٱلدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا ٱلدِّينَ فَنَسُوا ٱلسِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهِلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِٱنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ ٱلنَّصَفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱمَّحَى رَسْمُهَا ٱنْقَطَعَ ٱلْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ ٱلْعَجَمُ دُونَهُمْ وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ ٱلْمُلْكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي ٱلْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَدُوَلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ وَٱلتَّبَابِعَةِ شَاهِدَةٌ بِذَٰلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي ٱلْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعُدَ عَهْدُهُمْ بِٱلسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا ٱلدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَآلُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيبَ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به وإن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقين وإلا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه إما طوعا ببذل المال لهم ثم يبذي لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم وإما كرها إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقين فيضطر الباقون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى لأن كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصر فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الأحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذٰلِكَ أَنَّا قَرَّرْنَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلْمُغَالَبَةَ وَٱلْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلتَّذَامُرِ وَٱسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُلْكَ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ مَلْذُوذٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَٱلْمَلَاذِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَافُسُ غَالِباً وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا غُلِبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ ٱلْمُنَازَعَةُ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْحَرْبِ وَٱلْقِتَالِ وَٱلْمُغَالَبَةِ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً هٰذَا ٱلْأَمْرُ بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ مُنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرْبَاهُمْ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ فِيهَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ ٱللّٰهُ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ إِنَّمَا يُدْرِكُونَ أَصْحَابَ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ ٱلتَّسْلِيمُ لَهُمْ وَٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصاً أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي نِسْيَانِ هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَثَرِهَا لِطُولِ ٱلْأَمَدِ وَٱسْتِغْنَائِهِمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ قُوَّةِ [ٱلْعَصَبِيَّةِ] بِمَا تَلَاشَى وَطَنُهُمْ وَخَلَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ وَٱللّٰهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ ٱلِٱنْقِيَادُ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلَا ٱعْتَادُوهُ فَإِذَا ٱسْتَقَرَّتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي أَهْلِ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِٱلْمُلْكِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ فِي أَعْقَابٍ كَثِيرِينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبَةٍ نَسِيَتِ ٱلنُّفُوسُ شَأْنَ ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي ٱلْعَقَائِدِ دِينُ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُمْ وَٱلتَّسْلِيمِ وَقَاتَلَ ٱلنَّاسُ مَعَهُمْ

عَلَى أَمْرِهِمْ قِتَالُهُمْ عَلَى العَقَائِدِ الإِيمَانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ بَلْ كَأَنَّ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ لاَ يُبَدَّلُ وَلاَ يُعْلَمُ خِلاَفُهُ وَلِأَمْرٍ مَا يُوضَعُ الكَلاَمُ فِي الإِمَامَةِ آخِرَ الكَلاَمِ عَلَى العَقَائِدِ الإِيمَانِيَّةِ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ اسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ المَخْصُوصَةِ إِمَّا بِالمَوَالِي وَالمُصْطَنَعِينَ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي ظِلِّ العَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِالعَصَائِبِ الخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِي وِلاَيَتِهَا وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِبَنِي العَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ العَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ المُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الوَاثِقِ وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالمَوَالِي مِنَ العَجَمِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ العَجَمُ الأَوْلِيَاءُ عَلَى النَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا وَصَارَ الخَلاَئِقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ السَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ التَّتَارِ فَقَتَلُوا الخَلِيفَةَ وَمَحَوْا رَسْمَ الدَّوْلَةِ وَكَذَا صِنْهَاجَةُ بِالمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ المِائَةِ الخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ الظِّلِّ بِالمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةَ وَالقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةَ وَرُبَّمَا انْتَزَى بِتِلْكَ الثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ المُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ وَالمُلْكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ المُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ العَصَبِيَّةِ فِي المَصَامِدَةِ فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهَا مِنَ العَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلاَيَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ العَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ المُلْكِ وَلَبِسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلاَ قَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صُورَةَ الأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالمَوَالِي وَالمُصْطَنَعِينَ وَالطُّرَّاءِ عَلَى الأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ العُدْوَةِ مِنْ قَبَائِلِ البَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمْ اقْتِدَاءً بِالدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الاسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ العَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيمَةٌ

اَسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي ٱقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمِ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُرَابِطُونَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَٱسْتَبْدَلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ وَمَحَوا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهَذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ ٱلدَّوْلَةِ وَحِمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ ٱلطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ ٱلدُّوَلِ بِإِطْلَاقٍ هُمُ ٱلْجُنْدُ أَهْلُ ٱلْعَطَاءِ ٱلْمَفْرُوضِ مَعَ ٱلْأَهِلَّةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ ٱلْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ ٱلدُّوَلِ ٱلْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِٱلدُّوَلِ ٱلْأَخِيرَةِ بَعْدَ ٱلتَّمْهِيدِ وَٱسْتِقْرَارِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلنِّصَابِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلصِّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَٱلرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ ٱلدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقِ جِدَّتِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى ٱلْمُسْتَخْدَمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِٱلْأَجْرِ عَلَى ٱلْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُوَلَ ٱلطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ ٱخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱنْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ ٱلْمُسْتَعِينِ ٱبْنِ هُودَ وَٱبْنِهِ ٱلْمُظَفَّرِ أَهْلِ سَرَقُسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْعَصَبِيَّةِ شَيْءٌ لِٱسْتِيلَاءِ ٱلتَّرَفِ عَلَى ٱلْعَرَبِ مُنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِٱلْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ ٱلِٱسْتِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ لِذَلِكَ لَا يُنَازَعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِٱلْأُجَرَاءِ مِنَ ٱلْمُرْتَزِقَةِ فَأَطْلَقَ ٱلطَّرْطُوشِيُّ ٱلْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ ٱلْأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَٱفْهَمْ سِرَّ ٱللَّهِ فِيهِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلَبٌ كَبِيرٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ وَفِي نُفُوسِ ٱلْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَٱنْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا ٱلْخَارِجُ وَٱنْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبِتِ عِزِّهِ ٱشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعُنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ ٱسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوُلَهُ ٱلْأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مُظَاهَرَتِهِ بِٱصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ ٱلْمُلْكِ وَخِطَطِهِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةِ ثَغْرٍ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ وَٱنْقِيَادًا لِمَا ٱسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ

صِبْغَةِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَالَمِ وَعَقِيدَةٍ إِيَانِيَّةٍ ٱسْتَقَرَّتْ فِي ٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ لَمَّا ٱنْتَبَذَ ٱلطَّالِبِيُّونَ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْقَاصِيَةِ وَٱبْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ ٱلْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلصِّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلاً ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَرَجُوا بِٱلْقَاصِيَةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمِ ٱلْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرُبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلْأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصِنْهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْعُبَيْدِيِّينَ فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَٱقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ ٱلْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَٱلشَّامَ وَٱلْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شِقَّ ٱلْأَبْلُمَةِ وَهٰؤُلَاءِ ٱلْبَرَابِرَةُ ٱلْقَائِمُونَ بِٱلدَّوْلَةِ مَعَ ذٰلِكَ كُلُّهُمْ مُسَلِّمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي ٱلرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيماً لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ ٱلْمُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلِمَا ٱسْتَحْكَمَ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ ٱلْأُمَمِ فَلَمْ يَزَلِ ٱلْمُلْكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَٱللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلتَّغَلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱتِّفَاقِ ٱلْأَهْوَاءِ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَجَمْعُ ٱلْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةٍ مِنَ ٱللهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ ٱلْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ ٱلْبَاطِلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلدُّنْيَا حَصَلَ ٱلتَّنَافُسُ وَفَشَا ٱلْخِلَافُ وَإِذَا ٱنْصَرَفَتْ إِلَى ٱلْحَقِّ وَرَفَضَتِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى ٱللهِ ٱتَّحَدَتْ وِجْهَتُهَا فَذَهَبَ ٱلتَّنَافُسُ وَقَلَّ ٱلْخِلَافُ وَحَسُنَ ٱلتَّعَاوُنُ وَٱلتَّعَاضُدُ وَٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْكَلِمَةِ لِذٰلِكَ فَعَظُمَتِ ٱلدَّوْلَةُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِٱلتَّنَافُسِ وَٱلتَّحَاسُدِ ٱلَّذِي فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَتُفْرِدُ ٱلْوِجْهَةَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلِٱسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ ٱلْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَٱلْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِٱلْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ ٱلْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ ٱلْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَٱلْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفاً فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفاً بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَا قَالَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ أَيْضاً فِي دَوْلَةِ لَمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ فَقَدْ كَانَ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱلدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلِٱسْتِبْصَارِ وَٱلِٱسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ ٱلدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ ٱلْأَمْرُ وَيَصِيرُ ٱلْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ ٱلدِّينِ فَتَغْلِبُ ٱلدَّوْلَةَ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ ٱلْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ ٱلزَّائِدَةِ ٱلْقُوَّةِ عَلَيْهَا ٱلَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ٱلدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي ٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشاً وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ ٱلدَّعْوَةُ ٱلدِّينِيَّةُ بِٱتِّبَاعِ ٱلْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلاً وَٱسْتَتْبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ ٱلصِّبْغَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهٰذَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ عَلَيْهِ ٱلْكَافَّةُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ مَا بَعَثَ ٱللّٰهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَإِذَا كَانَ هٰذَا فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِخَرْقِ ٱلْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تَخْرَقَ لَهُ ٱلْعَادَةُ فِي ٱلْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِٱبْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ ٱلنَّعْلَيْنِ فِي ٱلتَّصَوُّفِ ثَارَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى ٱلْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِٱلْمُرَابِطِينَ قُبَيْلَ دَعْوَةِ ٱلْمَهْدِيِّ فَٱسْتَتَبَّ لَهُ ٱلْأَمْرُ قَلِيلًا لِشُغْلِ لِمَتُونَةَ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ ٱسْتَوْلَى ٱلْمُوَحِّدُونَ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ أَنْ أَذْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكُشَ وَأَمْكَنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ ٱلْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَحْوَالُ ٱلثُّوَّارِ ٱلْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ مِنَ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ ٱلدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلنَّهْيِ عَنْهُ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي ٱلثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ ٱللّٰهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَٱلْمُتَلَثِّلُونَ بِهِمْ مِنَ ٱلْغَوْغَاءِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذٰلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هٰذَا ٱلسَّبِيلِ مَأْزُورِينَ غَيْرَ مَأْجُورِينَ لِأَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَأَحْوَالُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزَحْزِحُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلَّا ٱلْمُطَالَبَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصَبِيَّةُ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى ٱللّٰهِ بِٱلْعَشَائِرِ وَٱلْعَصَائِبِ وَهُمُ ٱلْمُؤَيَّدُونَ مِنَ ٱللّٰهِ بِٱلْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ لٰكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَٱللّٰهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَّرَ بِهِ ٱلِٱنْفِرَادُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِي هُوَّةِ ٱلْهَلَاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُتَلَبِّسِينَ بِذٰلِكَ فِي

طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضى من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع إبراهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكنني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان وذلك سنة إحدى ومائتين وجهز له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المنتحلين لمثل هذا

تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذه من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما إن كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة

وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي
بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها إلى غايته والعلة الطبيعية
في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال
فشأنها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا
انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الأشعة والأنوار
إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم إذا
أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز
محفوظا إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز
وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها
فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غلب على القلب وملك انهزم جميع
الأطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون
على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف
ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم
المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من
أيديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها إلى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شأن
العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من
الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة
وأفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها
حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الإسلام
ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان
حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند
نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ هُمُ ٱلْحَامِيَةُ ٱلَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلَّفَ ٱللهُ كَلِمَةَ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعَشْرَةَ ٱلآفٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي ٱلْأُمَمِ مِنَ ٱلْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمًى وَلَا وَزَرٌ فَٱسْتُبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ ٱلْعَظِيمَتَيْنِ فِي ٱلْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْقُوطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَخَطَوْا مِنَ ٱلْحِجَازِ إِلَى ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَمِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلتُّرْكِ بِأَقْصَى ٱلشَّمَالِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ صِنْهَاجَةَ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كُتَامَةُ ٱلْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَمِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبَ وَٱلشَّامَ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازَ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ قَصَّرَ مُلْكُهُمْ عَنْ مُلْكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ ٱلْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ ٱعْتَبِرْ بَعْدَ ذٰلِكَ حَالَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِزَنَاتَةَ بَنِي مَرِينَ وَبَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ ٱلْغَلَبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مَرِينَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ ٱلآفٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلرَّفْهِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّابِعِ كَثَّرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ ٱلْمُلْكِ يَكُونُ ٱتِّسَاعُ ٱلدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طُولُ أَمَدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمُرَ ٱلْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزَاجِهِ وَمِزَاجُ ٱلدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ ٱلْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمَدُ ٱلْعُمُرِ طَوِيلًا وَٱلْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ ٱلْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنَ

ٱلْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ ٱلنَّقْصِ لِكَثْرَةِ ٱلْمَمَالِكِ وَٱخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمَدُهَا أَطْوَلَ ٱلدُّوَلِ لاَ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ أَهْلُ ٱلْمَرْكَزِ وَلاَ بَنُو أُمَيَّةَ ٱلْمُسْتَبِدُّونَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَدَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَانَ أَمَدُهَا قَرِيباً مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صِنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيقِيَّةَ لِبُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلاَثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ ٱسْتِيلاَءِ ٱلْمُوَحِّدِينَ عَلَى ٱلْقَلْعَةِ وَبِجَايَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمَائَةٍ وَدَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ تُنَاهِزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَكَذَا نِسَبُ ٱلدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا سُنَّةُ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ ٱخْتِلاَفُ ٱلْآرَاءِ وَٱلْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوَى عَصَبِيَّةً تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ ٱلِٱنْتِقَاضُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْإِسْلاَمِ وَلِهَذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنَ هَذِهِ ٱلْأَوْطَانِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمِ ٱلْغَلَبُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي كَانَ لِٱبْنِ أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ٱلْإِفْرَنْجَةِ شَيْئاً وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ ٱلثَّوْرَةَ وَٱلرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ ٱلْإِثْخَانُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى ٱلثَّوْرَةِ وَٱلْخُرُوجِ وَٱلْأَخْذِ بِدِينِ ٱلْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱرْتَدَّتِ ٱلْبَرَابِرَةُ بِٱلْمَغْرِبِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلاَمِ فِيهِمْ إِلا لِعَهْدِ وِلاَيَةِ مُوسَى ٱبْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقِيَّةَ مُفَرِّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعَصَائِبِ وَٱلْقَبَائِلِ ٱلْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ ٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِتِلْكَ ٱلصِّفَةِ وَلاَ ٱلشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلْكَافَّةِ دَهْمَاءَ أَهْلِ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلاَ مُشَاقٌّ وَٱلْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضاً الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعاً لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد إذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن

الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناوله بعصابة قريبة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس وإنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز إليه البحر من أعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط ثم سما لصاحب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدأه بعصابة إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم ولا بد من أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم

وَتُقْرَعُ عَصَبِيَّتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَاقَةً وَلَا جَمَلاً فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلْأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدُّوَلِ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ النَّوَافِلِ عَوَائِدَ ضَرُورِيَّةً فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفُرُشِ وَالْآنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلُبْسِ الْأَنِيقِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ وَيُنَاغِي خَلَفُهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا الْغَلَبُ وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِبِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِبِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْآنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إلى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ ٱلحَاكِمِينَ وَٱللهُ تعالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجوهٍ . ٱلأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي ٱلإِنْفِرَادَ بِٱلمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهمَا كَانَ ٱلمَجْدُ مُشْتَرِكاً بَيْنَ ٱلعِصَابَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِداً كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى ٱلغَيْرِ وَٱلذَّبِّ عَنِ ٱلحَوزَةِ أُسوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا وَمَرْمَاهُمْ إِلَى ٱلعِزِّ جَمِيعاً يَسْتَطِيبُونَ ٱلمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ ٱلهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ ٱلوَاحِدُ مِنْهُمْ بِٱلمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَٱسْتَأْثَرَ بِٱلأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ ٱلغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا ٱلمَذَلَّةَ وَٱلإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِيَ ٱلجِيلُ ٱلثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذٰلِكَ يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلعَطَاءِ أَجْراً مِنَ ٱلسُّلطَانِ لَهُمْ عَنِ ٱلحِمَايَةِ وَٱلمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى ٱلمَوْتِ فَيَصِيرُ ذٰلِكَ وَهْناً فِي ٱلدَّوْلَةِ وَخَضْداً مِنَ ٱلشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي ٱلضُّعْفِ وَٱلهَرَمِ لِفَسَادِ ٱلعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ ٱلبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَٱلوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلتَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَٱلفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَٱلمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذٰلِكَ فِي أَجْيَالِهِمِ ٱلمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ ٱلعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسُّهُمُ ٱلحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي ٱلغَزْوِ وَٱلحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمِ ٱلعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي ٱلكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعُفُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِضُعْفِهِمْ وَأَيْضاً إِذَا كَثُرَ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقَصِّراً عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمِ ٱحْتَاجَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَٱلجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ ٱلمُكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ ٱلزِّيَادَةِ مَحْدُوداً فَإِذَا وُزِّعَتِ ٱلجِبَايَةُ عَلَى ٱلأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا ٱلزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ ٱلحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ ٱلأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يعظُمُ ٱلتَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ ٱلأَعْطِيَاتِ لِذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ ٱلحَامِيَةِ وَثَالِثاً وَرَابِعاً إِلَى أَنْ يَعُودَ ٱلعَسْكَرُ إِلَى أَقَلِّ ٱلأَعْدَادِ فَتَضْعُفُ ٱلحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ ٱلقَبَائِلِ وَٱلعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ ٱللَّهُ فِيهَا بِٱلفَنَاءِ ٱلَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ وَأَيْضاً فَٱلتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلْخُلُقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ ٱلحَضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالُ ٱلخَيْرِ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى ٱلمُلْكِ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ وَيَتَّصِفُونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ فَيَكُونُ عَلَامَةً عَلَى ٱلإِدْبَارِ وَٱلِانْقِرَاضِ بِمَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ وَتَأْخُذُ ٱلدَّوْلَةُ مَبَادِئُ ٱلعَطَبِ وَتَتَضَعْضَعُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ ٱلهَرَمِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهَا . ٱلوَجْهُ ٱلثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِذَا ٱتَّخَذُوا ٱلدَّعَةَ وَٱلرَّاحَةَ مَأْلَفاً وَخُلُقاً صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِبِلَّةً شَأْنَ ٱلعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيلَافِهَا فَتَرْبَى أَجْيَالُهُمْ ٱلحَادِثَةُ فِي غَضَارَةِ ٱلعَيْشِ وَمِهَادِ ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ ٱلتَّوَحُّشِ وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ ٱلبَدَاوَةِ ٱلَّتِي كَانَ بِهَا ٱلمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ ٱلبَأْسِ وَتَعَوُّدِ ٱلِافْتِرَاسِ وَرُكُوبِ ٱلبَيْدَاءِ وَهِدَايَةِ ٱلقَفْرِ فَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلسُّوقَةِ مِنَ ٱلحَضَرِ إِلَّا فِي ٱلثَّقَافَةِ وَٱلشَّارَةِ فَتَضْعُفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بَأْسُهُمْ وَتَنْخَضِدُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ ٱلهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلحَضَارَةِ وَٱلسُّكُونِ وَٱلدَّعَةِ وَرِقَّةِ ٱلحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ ٱلبَدَاوَةِ وَٱلخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئاً فَشَيْئاً وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ ٱلبَسَالَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِهَا ٱلحِمَايَةُ وَٱلمُدَافَعَةُ حَتَّى يَعُودُوا عِيَالاً عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي أَخْبَارُهَا فِي ٱلصُّحُفِ لَدَيْكَ تَجِدْ مَا قُلْتُهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحاً مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِي ٱلدَّوْلَةِ إِذَا طَرَقَهَا هَذَا ٱلهَرَمُ بِٱلتَّرَفِ وَٱلرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ أَنْصَاراً وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعَوَّدَ ٱلخُشُونَةَ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْداً يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى ٱلحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَانَاةِ ٱلشَّدَائِدِ مِنَ ٱلجُوعِ وَٱلشَّظَفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلهَرَمِ ٱلَّذِي عَسَاهُ أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ ٱللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ جُنْدِهَا ٱلمَوَالِي مِنَ ٱلتُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أُولَئِكَ ٱلمَمَالِيكِ ٱلمَجْلُوبِينَ إِلَيْهِمْ فُرْسَاناً وَجُنْداً فَيَكُونُونَ أَجْرَأَ عَلَى ٱلحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى ٱلشَّظَفِ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلمَمَالِيكِ ٱلَّذِينَ

كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة الموحدين بأفريقية فإن صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود وأما أعمار الدول أيضاً وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن

السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين

ثلاثةً مِنَ ٱلآبَاءِ فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هٰذَا ٱلقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عَمُودِ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِد وَكَذٰلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحَصَّلاً لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي ٱلغَالِب صَحِيحاً وَٱللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إِعلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ ٱلغَلَبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتْبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ ٱلبَأْسِ وَتَعَوُّدِ ٱلِافْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ غَالِباً إِلَّا مَعَ ٱلبِدَاوَةِ فَطَوْرُ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلمُلْكُ تَبِعَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱتِّسَاعُ ٱلأَحْوَالِ وَٱلحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي ٱلتَّرَفِ وَإِحْكَامِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ ٱلمَطَابِخِ وَٱلمَلَابِسِ وَٱلمَبَانِي وَٱلفُرُشِ وَٱلأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ ٱلمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعُ فِي ٱسْتِجَادَتِهِ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَتَتَكَثَّرُ بِٱخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلمَلَاذِّ وَٱلتَّنَعُّمِ بِأَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ ٱلعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ ٱلحَضَارَةِ فِي ٱلمُلْكِ يَتْبَعُ طَوْرَ ٱلبِدَاوَةِ ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ ٱلرَّفَهِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلُ ٱلدُّوَلِ أَبَداً يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ ٱلحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ ٱلسَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالَهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي ٱلغَالِبِ يَأْخُذُونَ وَمِثْلُ هٰذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ ٱلفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَٱلرُّومَ وَٱسْتَخْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذٰلِكَ ٱلعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلحَضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُمُ ٱلمُرَقَّقُ فَكَانُوا يَحْسَبُونَهُ رِقَاعاً وَعَثَرُوا عَلَى ٱلكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَٱسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحاً وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا ٱسْتَعْبَدُوا أَهْلَ ٱلدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَٱسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ وَٱخْتَارُوا مِنْهُمُ ٱلمَهَرَةَ فِي أَمْثَالِ ذٰلِكَ وَٱلقَوَمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذٰلِكَ وَٱلقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَٱلتَّفَنُّنَ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلعَيْشِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا ٱلغَايَةَ فِي ذٰلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ ٱلحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ فِي ٱلأَحْوَالِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلمَطَاعِمِ وَٱلمَشَارِبِ وَٱلمَلَابِسِ وَٱلمَبَانِي وَٱلأَسْلِحَةِ وَٱلفُرُشِ وَٱلآنِيَةِ وَسَائِرِ ٱلمَاعُونِ وَٱلخُرْثِيِّ وَكَذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ ٱلمُبَاهَاةِ وَٱلوَلَائِمِ وَلَيَالِي ٱلأَعْرَاسِ فَأَتَوْا مِنْ ذٰلِكَ وَرَاءَ ٱلغَايَةِ وَٱنْظُر

ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن ابن سهل وما بذل أبوها الحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفم الصلح وركب إليها في السفين وما أنفق في أملاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملتوتة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان [1] وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبا نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفني الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات [2] المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل

(١) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلثان

(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو اه مختار

فارسَ صَنيعاً أَحضرَ فيه صِحافَ ٱلذَّهبِ على أخونةِ ٱلفِضَّةِ أَربعاً على كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحمِلُهُ أَربعُ وَصائفَ وَيَجلِسُ عليهِ أَربعَةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فإِذَا طَعِمُوا أُتبِعُوا أَربَعتَهُمُ ٱلمَائِدَةَ بِصِحافِهَا وَوَصائِفِهَا فَقالَ ٱلحَجَّاجُ يَا غُلامُ أَنحرِ ٱلجُزُرَ وَأَطعِمِ ٱلنَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَستَقِلُّ بِهٰذِهِ ٱلأُبَّهَةِ وَكَذٰلِكَ كانتْ . وَمِنْ هٰذا ٱلبابِ أَعطِيَةُ بَنِي أُميَّةَ وَجوائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ أَكثَرُهَا ٱلإِبِلَ أَخذًا بِمَذاهِبِ ٱلعَرَبِ وَبِداوَتِهِمْ ثُمَّ كانَتِ ٱلجَوائِزُ في دَولَةِ بَنِي ٱلعَبَّاسِ وَٱلعُبَيدِيِّينَ مِنْ بَعدِهِمْ مَا عَلِمتَ مِنْ أَحمالِ ٱلمالِ وَتُخُوتِ ٱلثِّيابِ وَإِعدادِ ٱلخَيلِ بِمَراكِبِهَا وَهٰكَذَا كانَ شَأْنُ كُتامَةَ مَعَ ٱلأَغالِبَةِ بِأَفرِيقيَّةَ وَكَذَا بَنِي طُغجٍ بِمِصرَ وَشَأْنُ لِمتُونَةَ مَعَ مُلوكِ ٱلطَّوائِفِ بِٱلأَندَلُسِ وَٱلمُوَحِّدِينَ كَذٰلِكَ وَشَأْنُ زَناتَةَ مَعَ ٱلمُوَحِّدِينَ وَهَلُمَّ جَرًّا تَنتَقِلُ ٱلحَضارَةُ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ إلى ٱلدُّوَلِ ٱلخالِفَةِ فَٱنتَقَلَتْ حَضارَةُ ٱلفُرسِ لِلعَرَبِ بَنِي أُميَّةَ وَبَنِي ٱلعَبَّاسِ وَٱنتَقَلَتْ حَضارَةُ بَنِي أُميَّةَ بِٱلأَندَلُسِ إلى مُلوكِ ٱلمَغرِبِ مِنَ ٱلمُوَحِّدِينَ وَزَناتَةَ لِهٰذا ٱلعَهدِ وَٱنتَقَلَتْ حَضارَةُ بَنِي ٱلعَبَّاسِ إلى ٱلدَّيلَمِ ثُمَّ إلى ٱلتُّركِ ثُمَّ إلى ٱلسَّلجوقيَّةِ ثُمَّ إلى ٱلتُّركِ ٱلمَماليكِ بِمِصرَ وَٱلتَّتَرِ بِٱلعِراقَينِ وَعَلَى قَدرِ عِظَمِ ٱلدَّولَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا في ٱلحَضارَةِ إذْ أُمورُ ٱلحَضارَةِ مِنْ تَوابِعِ ٱلتَّرَفِ وَٱلتَّرَفُ مِنْ تَوابِعِ ٱلثَّروَةِ وَٱلنِّعمَةِ وَٱلثَّروَةُ وَٱلنِّعمَةُ مِنْ تَوابِعِ ٱلمُلكِ وَمِقدارِ مَا يَستَولِي عَلَيهِ أَهلُ ٱلدَّولَةِ فَعَلَى نِسبَةِ ٱلمُلكِ يَكُونُ ذٰلِكَ كُلُّهُ فَٱعتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحيحًا في ٱلعُمرانِ وَٱللهُ وارِثُ ٱلأَرضِ وَمَنْ عَلَيهَا وَهُوَ خَيرُ ٱلوارِثِينَ

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

وَٱلسَّبَبُ في ذٰلِكَ أَنَّ ٱلقَبيلَ إذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلمُلكُ وَٱلتَّرَفُ كَثُرَ ٱلتَّناسُلُ وَٱلوُلدُ وَٱلعُمومِيَّةُ فَكَثُرَتِ ٱلعِصابَةُ وَٱستَكثَرُوا أَيضًا مِنَ ٱلمَوالي وَٱلصَّنائِعِ وَرَبِيَتْ أَجيالُهُم في جَوِّ ذٰلِكَ ٱلنَّعيمِ وَٱلرَّفَهِ فَٱزدادُوا بِهِ عَدَدًا إلى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثرَةِ ٱلعَصائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثرَةِ ٱلعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلجيلُ ٱلأَوَّلُ وَٱلثَّاني وَأَخَذَتِ ٱلدَّولَةُ في ٱلهَرَمِ لَمْ تَستَقِلَّ أُولٰئِكَ ٱلصَّنائِعُ وَٱلمَوالي بِأَنفُسِهِمْ في تَأسيسِ ٱلدَّولَةِ وَتَمهيدِ مُلكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيسَ لَهُمْ مِنَ ٱلأَمرِ شَيءٌ إِنَّمَا كانُوا عِيالًا عَلَى أَهلِهَا وَمَعونَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ ٱلأَصلُ لَمْ يَستَقِلَّ ٱلفَرعُ بِٱلرُّسوخِ فَيَذهَبُ وَيَتَلاشَى وَلَا تَبقَى ٱلدَّولَةُ عَلَى حالِهَا

مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا وَقَعَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ كَانَ عَدَدُ ٱلْعَرَبِ كَمَا قُلْنَاهُ لِعَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفاً وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ ٱلتَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ بَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ ٱلْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عُمُورِيَّةَ لَمَّا ٱفْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هٰذَا ٱلْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحاً إِذَا ٱعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي ٱلثُّغُورِ ٱلدَّانِيَةِ وَٱلْقَاصِيَةِ شَرْقاً وَغَرْباً إِلَى ٱلْجُنْدِ ٱلْحَامِلِينَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنِعِينَ وَقَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفاً بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فَٱنْظُرْ مَبَالِغَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ لِأَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱلنَّعِيمُ ٱلَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِيَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ ٱلْعَرَبِ لِأَوَّلِ ٱلْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هٰذَا وَلَا قَرِيباً مِنْهُ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ ٱلْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقاً مِنْ أَحْوَالِ ذٰلِكَ ٱلطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْآخَرِ لِأَنَّ ٱلْخُلُقَ تَابِعٌ بِٱلطَّبْعِ لِمِزَاجِ ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي ٱلْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . أَلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ طَوْرُ ٱلظَّفَرِ بِٱلْبُغْيَةِ وَغَلَبِ ٱلْمُدَافِعِ وَٱلْمُمَانِعِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْمُلْكِ وَٱنْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْمَجْدِ وَجِبَايَةِ ٱلْمَالِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ وَٱلْحِمَايَةِ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ ذٰلِكَ هُوَ مُقْتَضَى ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي وَقَعَ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا . أَلطَّوْرُ ٱلثَّانِي طَوْرُ ٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَٱلِانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَٱلْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مَعْنِيّاً بِٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ٱلْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ ٱلضَّارِبِينَ فِي ٱلْمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ ٱلْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُقِرَّ ٱلْأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ ٱلْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

ٱلْأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ لِأَنَّ ٱلْأَوَّلِينَ دَافَعُوا ٱلْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهٰذَا يُدَافِعُ ٱلْأَقَارِبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْباً مِنَ ٱلْأَمْرِ . ٱلطَّوْرُ ٱلثَّالِثُ طَوْرُ ٱلْفَرَاغِ وَٱلدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ ٱلْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَالِ وَتَخْلِيدِ ٱلْآثَارِ وَبُعْدِ ٱلصِّيتِ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَضَبْطِ ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءِ ٱلنَّفَقَاتِ وَٱلْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ ٱلْمَبَانِي ٱلْحَافِلَةِ وَٱلْمَصَانِعِ ٱلْعَظِيمَةِ وَٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُتَّسِعَةِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ وَإِجَازَةِ ٱلْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْأُمَمِ وَوُجُوهِ ٱلْقَبَائِلِ وَبَثِّ ٱلْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هٰذَا مَعَ ٱلتَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَٱعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشِكَّتِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ ٱلزِّينَةِ فَيُبَاهِي بِهِمِ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُسَالِمَةَ وَيُرْهِبُ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُحَارِبَةَ وَهٰذَا ٱلطَّوْرُ آخِرُ أَطْوَارِ ٱلِاسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ ٱلطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ . ٱلطَّوْرُ ٱلرَّابِعُ طَوْرُ ٱلْقُنُوعِ وَٱلْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا قَانِعاً بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ سِلْماً لِأَنْظَارِهِ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقَلِّداً لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ ٱلنَّعْلِ بِٱلنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ ٱلِاقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي ٱلْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ ٱلطَّوْرُ ٱلْخَامِسُ طَوْرُ ٱلْإِسْرَافِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مُتْلِفاً لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِي سَبِيلِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَلَاذِّ وَٱلْكَرَمِ عَلَى بِطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَٱصْطِنَاعِ أَخْدَانِ ٱلسُّوءِ وَخَضْرَاءِ ٱلدِّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِداً لِكِبَارِ ٱلْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضَيِّعاً مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ فَيَكُونُ مُخَرِّباً لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِماً لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ تَحْصُلُ فِي ٱلدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ ٱلْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا ٱلْمَرَضُ ٱلْمُزْمِنُ ٱلَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي نَسْرُدُهَا وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلاً وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ ٱلأَثَرُ فَمِنْ ذَٰلِكَ مَبَانِي ٱلدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا ٱلْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْفَعَلَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلأَيْدِي عَلَى ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةَ ٱلْجَوَانِبِ كَثِيرَةَ ٱلْمَمَالِكِ وَٱلرَّعَايَا كَانَ ٱلْفَعَلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ ٱلْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ أَلا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَٱنْظُرْ بِٱلْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا ٱقْتَدَرَ فِيهِ ٱلْفُرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ فَتَكَاءَدَ عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ وَقِصَّةُ ٱسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَٱنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ ٱلْهَدْمِ وَٱلْبِنَاءِ فِي ٱلسُّهُولَةِ تَعْرِفْ مِنْ ذَٰلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَٱنْظُرْ إِلَى بَلاطِ ٱلْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ وَٱلْقَنْطَرَةِ ٱلَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذَٰلِكَ بِنَاءِ ٱلْحَنَايَا لِجَلْبِ ٱلْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فِي ٱلْقَنَاةِ ٱلرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا وَآثَارِ شَرْشَالَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلآثَارِ ٱلْمَاثِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ ٱخْتِلافُ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ وَٱعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ ٱلأَفْعَالَ لِلأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِٱلْهِنْدَامِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَةِ ٱلأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَٰلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ ٱلْهَيَاكِلُ وَٱلْمَصَانِعُ وَلا تَتَوَهَّمْ مَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْعَامَّةُ أَنَّ ذَٰلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ ٱلأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ فِي ذَٰلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ ٱلْهَيَاكِلِ وَٱلآثَارِ وَلَقَدْ وَلِعَ ٱلْقُصَّاصُ بِذَٰلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ فِي ذَٰلِكَ أَخْبَاراً عَرِيقَةً فِي ٱلْكَذِبِ مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عُوجِ بْنِ عِنَاقٍ(١) رَجُلٍ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ ٱلَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي ٱلشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطُولِهِ يَتَنَاوَلُ ٱلسَّمَكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ ٱلْبَشَرِ ٱلْجَهْلَ بِأَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ لِمَا ٱعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عنق بالنون قاله نصر الهوريني

أَنَّ ٱلْحَرَّ هُوَ ٱلضَّوْءُ وَأَنَّ ٱلضَّوْءَ فِيمَا قَرُبَ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَكْثَرُ لِٱنْعِكَاسِ ٱلْأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ بِمُقَابَلَةِ ٱلْأَضْوَاءِ فَتَتَضَاعَفُ ٱلْحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَٰلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ ٱلْأَشِعَّةِ ٱلْمُنْعَكِسَةِ فَلَا حَرَّ هُنَالِكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ ٱلْبَرْدُ حَيْثُ مَجَارِي ٱلسَّحَابِ وَأَنَّ ٱلشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ وَكَذَٰلِكَ عُوجُ بْنُ عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ أَوْ مِنَ ٱلْكَنْعَانِيِّينَ ٱلَّذِينَ كَانُوا فَرِيسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمِ ٱلشَّامَ وَأَطْوَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجُسْمَانُهُمْ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا يَشْهَدُ لِذَٰلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِّبَتْ وَجُدِّدَتْ لَمْ تَزَلِ ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ ٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَٰذَا ٱلْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَٰذَا أَنَّهُمُ ٱسْتَعْظَمُوا آثَارَ ٱلْأُمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ وَٱلتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَٰلِكَ وَبِٱلْهِنْدَامِ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ ٱلْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعِظَمِ هَيَاكِلِهَا وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذَٰلِكَ وَقَدْ زَعَمَ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ ٱلْفَلَاسِفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا ٱلتَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلَّتِي هِيَ جِبِلَّةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ ٱلْكُرَةِ وَنِهَايَةِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْكَمَالِ وَكَانَتِ ٱلْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَٱلْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ طُرُوءَ ٱلْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِٱنْحِلَالِ ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً كَانَتِ ٱلْأَعْمَارُ أَزْيَدَ فَكَانَ ٱلْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةِ نَشْأَتِهِ تَامَّ ٱلْأَعْمَارِ كَامِلَ ٱلْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ ٱلْمَادَّةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ ٱلِٱنْحِلَالِ وَٱنْقِرَاضِ ٱلْعَالَمِ وَهَٰذَا رَأْيٌ لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا ٱلتَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نُشَاهِدُ مَسَاكِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَحْدَثُوهُ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْهَيَاكِلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْمَسَاكِنِ كَدِيَارِ ثَمُودَ ٱلْمَنْحُوتَةِ فِي ٱلصَّلْدِ مِنَ ٱلصَّخْرِ بُيُوتًا صِغَارًا وَأَبْوَابُهَا ضَيِّقَةٌ وَقَدْ أَشَارَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ ٱسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ وَطَرْحِ مَا عُجِنَ بِهِ وَأُهْرِقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَكَذَٰلِكَ أَرْضُ عَادٍ وَمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَسَائِرِ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَٱلْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ آثَارِ ٱلدُّوَلِ أَيْضًا حَالُهَا فِي ٱلْأَعْرَاسِ وَٱلْوَلَائِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ ٱلْحَجَّاجِ وَٱبْنِ ذِي ٱلنُّونِ وَقَدْ مَرَّ

ذلكَ كُلّهُ وَمِنْ آثارِهَا أيضاً عطَايَا الدُوَلِ وأنّهَا تكُونُ عَلَى نِسبَتِهَا ويَظهَرُ ذلكَ فيهَا وَلَوْ أشرَفَتْ عَلَى الهَرَمِ فإنَّ الهِمَمَ الّتي لأهلِ الدَوْلَةِ تكُونُ عَلَى نِسبَةِ قوّةِ مُلكِهِم وَغلَبِهِمْ للنّاسِ وَالهِمَمُ لاَ تَزالُ مُصَاحِبَةً لهم إلى انقِراضِ الدَوْلَةِ وَاعتَبِرْ ذلكَ بجَوائِزِ ابنِ ذِي يَزَنٍ لِوَفدِ قُرَيشٍ كَيفَ أعطَاهُمْ مِنْ أرطَالِ الذَهَبِ وَالفِضّةِ وَالأَعْبُدِ وَالوَصَائِفِ عَشْراً عَشْراً وَمِنْ كَرِشِ العَنبَرِ وَاحِدَةً وَأضعَفَ ذلكَ بِعَشَرَةِ أمثالِهِ لعَبدِ المُطّلِبِ وإنَّمَا مُلكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةُ اليَمَنِ خَاصّةً تَحتَ استِبْدادِ فارسَ وإنَّمَا حَمَلَهُ على ذلكَ هِمّةُ نَفسِهِ بِمَا كانَ لِقَوْمِهِ التّبَابِعَةِ مِنَ المُلْكِ فِي الأرضِ وَالغَلَبِ عَلَى الأُمَمِ فِي العِرَاقَيْنِ وَالهِنْدِ وَالمَغرِبِ وكانَ الصّنهَاجِيُّونَ بِأفرِيقِيّةَ أيضاً إذا أجازُوا الوَفْدَ مِن أُمَرَاءِ زَنَاتَةَ الوَافِدِينَ عَلَيهِمْ فإنَّمَا يُعطُونَهُمُ المَالَ أحمَالاً وَالكِسَاءَ تُخُوتاً مَملُوءَةً وَالحُمْلاَنَ جَنَائِبَ عَدِيدَةً وَفِي تَارِيخِ ابنِ الرّقِيقِ مِنْ ذلكَ أخبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذلِكَ كانَ عَطَاءُ البَرَامِكَةِ وَجَوائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكانُوا إذَا كَسَبُوا مُعْدِماً فإنَّمَا هُوَ الوِلاَيَةُ وَالنِّعمَةُ آخِرَ الدَّهرِ لاَ العَطَاءُ الّذِي يَستَنفِدُهُ يَوْمٌ أوْ بَعضُ يَوْمٍ وَأخبَارُهُمْ فِي ذلكَ كَثِيرَةٌ مَسطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسبَةِ الدُوَلِ جَارِيَةٌ هذَا جَوْهَرٌ الصِّقِلِّيُّ الكاتِبُ قائِدُ جَيْشِ العُبَيدِيِّينَ لَمّا ارْتَحَلَ إلى فَتحِ مِصرَ استَعَدَّ مِنَ القَيرَوانِ بِألفِ حِمْلٍ مِنَ المَالِ وَلاَ تَنتَهِي اليَوْمَ دَوْلَةٌ إلى مِثْلِ هذَا وَكَذلِكَ وُجِدَ بِخَطِّ أحمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الحَميدِ عَمَلٌ بِمَا يُحمَلُ إلى بَيتِ المَالِ بِبَغدادَ أيّامَ المَأمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي نَقَلْتُهُ مِنْ جِرَابِ الدَّوْلَةِ (علات السواد) سَبعٌ وَعِشرُونَ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ مَرّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةُ ألفِ دِرهَمٍ وَمِنَ الحُلَلِ النَّجرَانِيّةِ مِائَتَا حُلّةٍ وَمِنْ طِينِ الخَتْمِ مِائَتَانِ وَأربَعُونَ رِطْلاً (كنكر) أحَدَ عَشَرَ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ مَرّتَيْنِ وَسِتُّمِائَةِ ألفِ دِرهَمٍ (كورد جلة) عِشرُونَ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ وَثَمَانِيَةُ دَرَاهِمَ (حلوان) أربَعَةُ آلافِ ألفِ دِرهَمٍ مَرّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةِ ألفَ دِرهَمٍ (الاهواز) خَمسَةٌ وَعِشرُونَ ألفَ دِرهَمٍ مَرّةً وَمِنَ السُّكّرِ ثَلاَثُونَ ألفَ رِطلٍ (فارس) سَبعَةٌ وَعِشرُونَ ألفَ ألفِ دِرهَمٍ وَمِنْ مَاءِ الوَرْدِ ثَلاَثُونَ ألفَ قَارُورَةٍ وَمِنَ الزَّيتِ الأسْوَدِ عِشرُونَ ألفَ رِطلٍ (كرمان) أربَعَةُ آلافِ ألفِ دِرهَمٍ مَرّتَيْنِ وَمِائَتَا ألفِ دِرهَمٍ وَمِنَ المَتَاعِ اليَمَانِيّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ التَّمرِ عِشرُونَ ألفَ رِطلٍ (مكران) أربَعُمِائَةِ ألفِ دِرهَمٍ مَرّةً (السند وما يليه) أحَدَ عَشَرَ ألفَ

أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا (سجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْفَانِيدِ عِشْرُونَ رِطْلًا (خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ وَمِنَ ٱلْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْإِهْلِيلَجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (جرجان) إِثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْإِبْرِيسِمِ أَلْفُ شُقَّةٍ (قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ (طبرستان والرويان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنَ ٱلْفُرُشِ ٱلطَّبَرِيِّ سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَمِنَ ٱلْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ (الري) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (همذان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنْ رُبِّ ٱلرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ (ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (ماسبذان والدينار [1]) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (شهرزور) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱلْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ (أذربيجان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ وَمِنَ ٱلْبُزَاةِ [2] عَشَرَةٌ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْبُسُطِ [3] ٱلْمَحْفُورِ عِشْرُونَ وَمِنَ ٱلرَّقْمِ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا وَمِنَ ٱلْمَسَايِحِ ٱلسُّورِ مَاهِيٍّ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلصُّونَجِ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْبِغَالِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلْمُهْرَةِ ثَلَاثُونَ (قنسرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ أَلْفُ حِمْلٍ (دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (الاردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ وَمِنَ

---

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان ور بان اه (٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة القسط

اَلزَّيْتِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ رِطْلٍ (مصر) أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (برقة) أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (افريقية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْبُسُطِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ (اليمن) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى ٱلْمَتَاعِ (الحجاز) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ٱنْتَهَى وَأَمَّا ٱلْأَنْدَلُسُ فَٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلثِّقَاتُ مِنْ مُؤَرِّخِيهَا أَنَّ عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرَ خَلَّفَ فِي بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَكُونُ جُمْلَتُهَا بِٱلْقَنَاطِيرِ خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ قِنْطَارٍ وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ ٱلرَّشِيدِ أَنَّ ٱلْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ ٱلْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةُ آلَافِ قِنْطَارٍ وَخَمْسُمِائَةِ قِنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي نِسَبِ ٱلدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَلَا تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْهُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضِيقَ حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ ٱلْمُمْكِنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ عَنِ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ بَادَرَ بِٱلْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْوَالَ ٱلْوُجُودِ وَٱلْعُمْرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُتْبَةً سُفْلَى أَوْ وُسْطَى فَلَا يَحْصُرُ ٱلْمَدَارِكَ كُلَّهَا فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا ٱعْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةَ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَنَاسَبْنَا ٱلصَّحِيحَ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِٱلَّذِي نُشَاهِدُهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي هِيَ أَقَلُّ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا وَهُوَ لِمَا بَيْنَهَا مِنَ ٱلتَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا وَعُمْرَانِ مَمَالِكِهَا فَٱلْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْأَصْلِ فِي ٱلْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذٰلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا مَا يَلْحَقُ بِٱلْمُسْتَفِيضِ وَٱلْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا ٱلْمُعَايَنُ وَٱلْمُشَاهَدُ مِنْ آثَارِ ٱلْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخُذْ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَنْقُولَةِ مَرَاتِبَ ٱلدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِمَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةِ ٱلْمُسْتَطْرَفَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِٱلْمَغْرِبِ لِعَهْدِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينٍ رَجُلٌ مِنْ مَشْيَخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِٱبْنِ بَطُّوطَةَ[1] كَانَ رَحَلَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْيَمَنِ وَٱلْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي حَاضِرَةَ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ وَهُوَ ٱلسُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهْ وَٱتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزُجُوهْ وَكَانَ لَهُ مِنْهُ مَكَانٌ وَٱسْتَعْمَلَهُ فِي خِطَّةِ ٱلْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ ٱلْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ ٱنْقَلَبَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس اه

وَٱتَّصَلَ بِٱلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ ٱلْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ ٱلْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ ٱلْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ ٱلسَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ ٱلْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى ٱلسَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ ٱلنَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ ٱلْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْحَفْلِ مَنْجَنِيقَاتٌ عَلَى ٱلظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱلدَّنَانِيرِ عَلَى ٱلنَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيوَانَهُ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ فَتَنَاجَى ٱلنَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامَئِذٍ وَزِيرَ ٱلسُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ ٱلْبَعِيدَ ٱلصِّيتِ فَفَاوَضْتُهُ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَٰلِكَ ٱلرَّجُلِ لِمَا ٱسْتَفَاضَ فِي ٱلنَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي ٱلْوَزِيرُ فَارِسٌ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هٰذَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَٱبْنِ ٱلْوَزِيرِ ٱلنَّاشِئِ فِي ٱلسِّجْنِ وَذَٰلِكَ أَنَّ وَزِيرًا ٱعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي ٱلسِّجْنِ سِنِينَ رَبِيَ فِيهَا ٱبْنُهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَحْبِسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ ٱللُّحْمَانِ ٱلَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هٰذَا لَحْمُ ٱلْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا ٱلْغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاتِهَا وَنُعُوتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ ٱلْفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ ٱلْغَنَمُ مِنَ ٱلْفَارِ وَكَذَا فِي لَحْمِ ٱلْإِبِلِ وَٱلْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنْ فِي مَحْبِسِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ إِلَّا ٱلْفَارَ فَيَحْسَبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ ٱلْفَارِ وَلِهٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي ٱلنَّاسَ فِي ٱلْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمُ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ٱلزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ ٱلْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ ٱلْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى أُصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيْمِنًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ ٱلْمُمْكِنِ وَٱلْمُمْتَنِعِ بِصَرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ ٱلْإِمْكَانِ قَبِلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ وَلَيْسَ مُرَادُنَا ٱلْإِمْكَانَ ٱلْعَقْلِيَّ ٱلْمُطْلَقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ ٱلْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا ٱلْإِمْكَانُ بِحَسَبِ ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ ٱلشَّيْءِ وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا ٱلْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَٰلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ وَحَكَمْنَا بِٱلِٱمْتِنَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إعلَمْ أنَّ صَاحِبَ ٱلدَّوْلَةِ إنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ فَهُمْ عِصَابَتُهُ وَظُهَرَاؤُهُ عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ ٱلْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهِ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى ٱلْغَلَبِ وَشُرَكَاؤُهُ فِي ٱلْأَمْرِ وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ هذَا مَا دَامَ ٱلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَإِذَا جَاءَ ٱلطَّوْرُ ٱلثَّانِي وَظَهَرَ ٱلِٱسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَٱلِٱنْفِرَادُ بِٱلْمَجْدِ وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِٱلْمَرَاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ ٱلْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَٱحْتَاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ ٱلْأَمْرِ وَصَدِّهِمْ عَنِ ٱلْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ وَأَخَصَّ بِهِ قُرْبًا وَٱصْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَٱلرُّتْبَةِ ٱلَّتِي أَلِفُوهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَخُصُّهُمْ بِمَزِيدِ ٱلتَّكْرِمَةِ وَٱلْإِيثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْوِلَايَاتِ مِنَ ٱلْوِزَارَةِ وَٱلْقِيَادَةِ وَٱلْجِبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ ٱلْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ ٱلْأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ ٱلْمُخْلِصُونَ وَذٰلِكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِٱهْتِضَامِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَلَامَةٌ عَلَى ٱلْمَرَضِ ٱلْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَ بِنَاءُ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهَا وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلِٱمْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَيَضْطَغِنُونَ عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ ٱلدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ هٰذَا ٱلدَّاءِ لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي ٱلْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمُهَا وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ ٱلْعَرَبِ مِثْلِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَٱلْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ وَٱلْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْقَسْرِيِّ وَٱبْنِ هُبَيْرَةَ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى ٱلْأَشْعَرِيِّ وَنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلْعَرَبِ وَكَذَا صَدْرٌ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ كَانَ ٱلِٱسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا بِرِجَالَاتِ ٱلْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ ٱلدَّوْلَةُ لِلِٱنْفِرَادِ بِٱلْمَجْدِ وَكَبْحِ ٱلْعَرَبِ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْوِلَايَاتِ صَارَتِ ٱلْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنَ ٱلْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَبَنِي

طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي ٱلتُّرْكِ مِثْلَ بُغَا وَوَصِيفٍ وَأُتَامِشَ وَبَاكَنَاكَ وَٱبْنِ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرِ هٰؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ فَتَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا وَٱلْعِزُّ لِغَيْرِ مَنِ ٱجْتَلَبَهُ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُصْطَنِعِينَ فِي ٱلدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنَ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْمُغَالَبَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلنَّسَبِ لِأَجْلِ ٱلتَّنَاصُرِ فِي ذَوِي ٱلْأَرْحَامِ وَٱلْقُرْبَى وَٱلتَّخَاذُلِ فِي ٱلْأَجَانِبِ وَٱلْبُعَدَاءِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱلْوِلَايَةُ وَٱلْمُخَالَطَةُ بِٱلرِّقِّ أَوْ بِٱلْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي كَانَ بِهِ ٱلِٱلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعِشْرَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَطُولُ ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلصُّحْبَةِ بِٱلْمَرْبَى وَٱلرِّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ ٱلِٱلْتِحَامُ بِذٰلِكَ جَاءَتِ ٱلنُّعْرَةُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱلِٱصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ ٱلْمُصْطَنِعِ وَمَنِ ٱصْطَنَعَهُ نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ ٱلْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ ٱللُّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْوِلَايَةُ بَيْنَ ٱلْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ ٱلنَّسَبُ عَنِ ٱلْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا ٱصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ ٱلْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ ٱلْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ ٱلْمَوْلَى وَلِأَهْلِ ٱلْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ ٱلْوِلَايَةِ وَٱلِٱصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ ٱلرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ ٱلْأَجَانِبِ وَيَكُونُ ٱلِٱلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ وَٱلتَّنَاصُرُ لِذٰلِكَ أَبْعَدَ وَذٰلِكَ أَنْقَصُ مِنَ ٱلِٱصْطِنَاعِ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ . ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ ٱلِٱصْطِنَاعَ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ ٱللُّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي ٱلْأَكْثَرِ ٱلنَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ ٱلْمُلْكِ فَيَقْرُبُ ٱلْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ ٱلْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ ٱللُّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلنَّسَبِ فَتَضْعُفُ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوِلَايَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

اَلدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي الدُّوَلِ وَالرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدْهُ أَشَدَّ الْتِحَاماً بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ لا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللُّحْمَةِ مَا لِلْأَوَّلِينَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ الْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْقِرَاضِ فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ اللُّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالْاِتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْاِنْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذٰلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ قَرِيباً فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هٰؤُلَاءِ الْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَانْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي الْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوَرِّي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ الْاِسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذٰلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ اللَّذَّاتِ الَّتِي يَدْعُوهُ إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنَّ حَظَّ ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ ٱلسَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ ٱلصَّفْقَةِ وَخِطَابُ ٱلتَّهْوِيلِ وَٱلْقُعُودُ مَعَ ٱلنِّسَاءِ خَلْفَ ٱلْحِجَابِ وَأَنَّ ٱلْحَلَّ وَٱلرَّبْطَ وَٱلْأَمْرَ وَٱلنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدَهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجَيْشِ وَٱلْمَالِ وَٱلثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَٰلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ ٱلْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْثِرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَٱلتُّرْكِ وَكَافُورٍ ٱلْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَٰلِكَ ٱلْمَحْجُورُ ٱلْمُغَلَّبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلْحَجْرِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ ٱلْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي ٱلْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ ٱلرُّتْبَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذَٰلِكَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلْأَقَلِّ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغَلُّبِ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ ٱسْتَمَرَّ لَهَا ذَٰلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ ٱلْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ ٱلرُّجُولَةِ وَأَلِفُوا أَخْلَاقَ ٱلدَّايَاتِ وَٱلْأَظْآرِ وَرَبَوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ ٱسْتِبْدَادًا مِنْ تَغَلُّبٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي ٱلْقُنُوعِ بِٱلْأُبَّهَةِ وَٱلتَّنَفُّسِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنْوَاعِ ٱلتَّرَفِ وَهَٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ ٱسْتِبْدَادِ عَشِيرِ ٱلْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَٱنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَٰذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُذْ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَتْبَعَتْهُمْ حَتَّى ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْغَلَبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا ٱنْحَفَظَ رَسْمُ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَٰذَا ٱلْمُتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ ٱلْمَلِكِ أَوِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ ٱلْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ ٱنْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْإِبْرَامِ وَٱلنَّقْضِ يُوهِمُ فِيهَا أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ مُنَفِّذٌ فِي ذَٰلِكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ ٱلْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ

وَأَلْقَابِهِ جُهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلتُّهْمَةِ بِذٰلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ٱلْاِسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ وَذٰلِكَ بِٱلْحِجَابِ ٱلَّذِي ضَرَبَهُ ٱلسُّلْطَانُ وَأَوْلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ ٱلْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمُغَالِطٌ عَنْهُ بِٱلنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ لَنَفِسَهُ (١) عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ ٱلْمَلِكِ وَحَاوَلُوا ٱلْاِسْتِئْثَارَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذٰلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى ٱلتَّسْلِيمِ لَهُ وَٱلْاِنْقِيَادِ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ ٱلْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ ٱلْاِسْتِبْدَادِ بِٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْمَرَاسِمِ ٱلْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ فَنَفِسَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِٱبْنِ عَمِّ ٱلْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذٰلِكَ خَرَابُ دَوْلَةِ ٱلْعَامِرِيِّينَ وَهَلَاكُ ٱلْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَٱسْتُبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا وَٱخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

أَلْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِٱجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا ٱجْتَمَعُوا دَعَتِ ٱلضَّرُورَةُ إِلَى ٱلْمُعَامَلَةِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلْعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ ٱلْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى ٱلْغَضَبِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ فَيَقَعُ ٱلتَّنَازُعُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى ٱلْهَرْجِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى ٱنْقِطَاعِ ٱلنَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ ٱلْبَارِي سُبْحَانَهُ بِٱلْمُحَافَظَةِ فَٱسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَٱحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَازِعِ وَهُوَ ٱلْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمَلِكُ ٱلْقَاهِرُ ٱلْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَٱلْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ ٱلْمُطَالَبَاتُ وَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْمُدَافَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلا له كما في القاموس

منْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ . وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِهَا وَلَيْسَ ٱلْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا ٱلْمُلْكُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ ٱلرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي ٱلْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ ٱلْبُعُوثَ وَيَحْمِي ٱلثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى ٱلْمُلْكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي ٱلْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ ٱلثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ ٱلْأَمْوَالِ أَوْ بَعْثِ ٱلْبُعُوثِ فَهُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ ٱلْأَغَالِبَةِ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ ٱلْعَجَمِ صَدْرَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضاً عَنِ ٱلِٱسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَٱلضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ ٱلْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضاً مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ ٱلنَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ ٱلْجِهَاتِ ٱلَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيراً مَا يُوجَدُ هَذَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلنِّطَاقِ أَعْنِي تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ٱلْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صِنْهَاجَةَ مَعَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ ٱلْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلَ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَمِثْلَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ مِنَ ٱلْفُرْسِ مَعَ ٱلْإِسْكَنْدَرِ وَقَوْمِهِ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَٱعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ وَٱللَّهُ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضرّ بالملك ومفسد له في الاكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ ٱلرَّعِيَّةِ فِي ٱلسُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ أَوِ ٱتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جَوْدَةِ خَطِّهِ أَوْ ثُقُوبِ ذِهْنِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلسُّلْطَانَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ ٱلسُّلْطَانِ أَنَّهُ ٱلْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ ٱلْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَٱلسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَٱلرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَٱلصِّفَةُ ٱلَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ ٱلْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ ٱلْجَوْدَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ ٱلْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرَراً عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكاً لَهُمْ وَيَعُودُ حُسْنُ ٱلْمَلَكَةِ إِلَى ٱلرِّفْقِ فَإِنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِراً بَاطِشاً بِٱلْعُقُوبَاتِ مُنَقِّباً عَنْ عَوْرَاتِ ٱلنَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمِلَهُمُ ٱلْخَوْفُ وَٱلذُّلُّ وَلَاذُوا مِنْهُ بِٱلْكَذِبِ وَٱلْمَكْرِ

وَٱلْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ ٱلْحِمَايَةُ بِفَسَادِ ٱلنِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَٰلِكَ فَتَفْسُدُ ٱلدَّوْلَةُ وَيَخْرَبُ ٱلسِّيَاجُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهْرُهُ فَسَدَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلاً وَفَسَدَ ٱلسِّيَاجُ مِنْ أَصْلِهِ بِٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقاً بِهِمْ مُتَجَاوِزاً عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ٱسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأُشْرِبُوا مَحَبَّتَهُ وَٱسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَٱسْتَقَامَ ٱلْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ ٱلْمَلَكَةِ فَهِيَ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَٱلْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَٱلْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ ٱلْمُلْكِ وَأَمَّا ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَٱلْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ ٱلرِّفْقِ بِهِمْ وَٱلنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلتَّحَبُّبِ إِلَى ٱلرَّعِيَّةِ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَةُ ٱلرِّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقِظاً شَدِيدَ ٱلذَّكَاءِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّفْقُ فِي ٱلْغُفْلِ وَٱلْمُتَغَفِّلِ وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي ٱلْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ ٱلرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَٱطِّلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِأَلْمَعِيَّتِهِ فَيَهْلِكُونَ لِذَٰلِكَ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَيْرِ أَضْعَفِكُمْ وَمِنْ هَٰذَا ٱلْبَابِ ٱشْتَرَطَ ٱلشَّارِعُ فِي ٱلْحَاكِمِ قِلَّةَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلذَّكَاءِ وَمَأْخَذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ ٱلْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَلِعَجْزٍ أَمْ لِخِيَانَةٍ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ أَعْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَٰكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَنِ ٱلنَّاسِ فَأُخِذَ مِنْ هَٰذَا أَنَّ ٱلْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَاصِ لِمَا يَتْبَعُ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلتَّعَسُّفِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَةِ وَحَمْلِ ٱلْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَٰذَا أَنَّ ٱلْكَيْسَ وَٱلذَّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ ٱلسِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي ٱلْفِكْرِ كَمَا أَنَّ ٱلْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي ٱلْجُمُودِ وَٱلطَّرَفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَٱلْمَحْمُودُ هُوَ ٱلتَّوَسُّطُ كَمَا فِي ٱلْكَرَمِ مَعَ ٱلتَّبْذِيرِ وَٱلْبُخْلِ وَكَمَا فِي ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْهَوَجِ وَٱلْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَٰذَا يُوصَفُ ٱلشَّدِيدُ ٱلْكَيْسِ بِصِفَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلْمُلْكِ أَنَّهُ ٱلِاجْتِمَاعُ ٱلضَّرُورِيُّ لِلْبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْقَهْرِ ٱللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي ٱلْغَالِبِ جَائِرَةً عَنِ ٱلْحَقِّ مُجْحِفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ ٱلْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَلى ما لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنَ ٱلْخَلَفِ وَٱلسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَعْسُرُ طَاعَتُهُ لِذَلِكَ وَتَجِيءُ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْمُفْضِيَةُ إِلى ٱلْهَرْجِ وَٱلْقَتْلِ فَوَجَبَ أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلى قَوَانِينَ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا ٱلْكَافَّةُ يَنْقَادُونَ إِلى أَحْكَامِهَا كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَإِذَا خَلَتِ ٱلدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ لَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ ٱسْتِيلَاؤُهَا سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ. فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ ٱلْعُقَلَاءِ وَأَكَابِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ ٱللهِ بِشَارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيَشْرَعُهَا كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْخَلْقَ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطْ فَإِنَّهَا كُلَّهَا عَبَثٌ وَبَاطِلٌ إِذْ غَايَتُهَا ٱلْمَوْتُ وَٱلْفَنَاءُ وَٱللهُ يَقُولُ أَفَحَسِبْتُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً فَالْمَقْصُودُ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ ٱلْمُفْضِي بِهِمْ إِلى ٱلسَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ صِرَاطُ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ فَجَاءَتِ ٱلشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى فِي ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلِاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ فَأَجْرَتْهُ عَلى مِنْهَاجِ ٱلدِّينِ لِيَكُونَ ٱلْكُلُّ مَحُوطاً بِنَظَرِ ٱلشَّارِعِ فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى ٱلْقَهْرِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَإِهْمَالِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي مَرْعَاهَا فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى ٱلسِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضاً لِأَنَّهُ نَظَرٌ بِغَيْرِ نُورِ ٱللهِ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ لِأَنَّ ٱلشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ ٱلْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالُ ٱلْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ وَأَحْكَامُ ٱلسِّيَاسَةِ إِنَّمَا تَطَّلِعُ عَلَى مَصَالِحِ ٱلدُّنْيَا فَقَطْ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ حَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَقْصُودُ ٱلشَّارِعِ بِٱلنَّاسِ صَلَاحُ آخِرَتِهِمْ فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى ٱلشَّرَائِعِ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ

عَلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَكَانَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ لِأَهْلِ ٱلشَّرِيعَةِ وَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامَهُمْ وَهُمُ ٱلْخُلَفَاءُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ مَعْنَى ٱلْخِلَافَةِ وَأَنَّ ٱلْمُلْكَ ٱلطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْغَرَضِ وَٱلشَّهْوَةِ وَٱلسِّيَاسِيَّ هُوَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ ٱلْمَصَالِحِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَٱلْخِلَافَةُ هِيَ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمِ ٱلْأُخْرَوِيَّةِ وَٱلدُّنْيَوِيَّةِ ٱلرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا إِذْ أَحْوَالُ ٱلدُّنْيَا تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ ٱلشَّارِعِ إِلَى ٱعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ ٱلْآخِرَةِ فَهِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنْيَا بِهِ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنْيَا بِهِ تُسَمَّى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَٱلْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةً وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهًا بِإِمَامِ ٱلصَّلَاةِ فِي ٱتِّبَاعِهِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِهِ وَلِهٰذَا يُقَالُ ٱلْإِمَامَةُ ٱلْكُبْرَى وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يَخْلُفُ ٱلنَّبِيَّ فِي أُمَّتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةٌ بِإِطْلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللهِ وَٱخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ ٱللهِ فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمُ ٱقْتِبَاسًا مِنَ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّتِي لِلْآدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً وَقَوْلِهِ جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَمَنَعَ ٱلْجُمْهُورُ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَسْتُ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَلٰكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ ٱلِاسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ ٱلْغَائِبِ وَأَمَّا ٱلْحَاضِرُ فَلَا ثُمَّ إِنَّ نَصْبَ ٱلْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وُجُوبُهُ فِي ٱلشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَتَسْلِيمِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَلَمْ تُتْرَكِ ٱلنَّاسُ فَوْضَى فِي عَصْرٍ مِنَ ٱلْأَعْصَارِ وَٱسْتَقَرَّ ذٰلِكَ إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ ٱلْإِمَامِ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرِكَ وُجُوبِهِ ٱلْعَقْلُ وَأَنَّ ٱلْإِجْمَاعَ ٱلَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكْمِ ٱلْعَقْلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجَبَ بِٱلْعَقْلِ لِضَرُورَةِ ٱلِاجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ وَٱسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُنْفَرِدِينَ وَمِنْ ضَرُورَةِ

الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها وأما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده

ثمّ نقول لهم إنّ هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلّا بالعصبيّة والشوكة والعصبيّة مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصّب إمام وهو عين ما فررتم عنه وإذا تقرّر أنّ هذا النصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحلّ فيتعيّن عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم وأمّا شروط هذا المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواسّ والأعضاء ممّا يؤثّر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي فأمّا اشتراط العلم فظاهر لأنّه إنّما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها وما لم يعلمها لا يصحّ تقديمه لها ولا يكفي من العلم إلّا أن يكون مجتهداً لأنّ التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وأمّا العدالة فلأنّه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف وأمّا الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها عارفاً بالعصبيّة وأحوال الدهاء قويّاً على معاناة السياسة ليصحّ له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدوّ وإقامة الأحكام وتدبير المصالح وأمّا سلامة الحواسّ والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثّر فقده من الأعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والأنثيين فتشترط السلامة منها كلّها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه وإن كان إنّما يشين في المنظر فقط كفقد إحدى هذه الأعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرّف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرّف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقّة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره وإلّا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علّته

حتى يُنفذ فعل الخليفة وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الأنصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش وأمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فإنه خرج مخرج التمثيل والغرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته أو لما دخلتني فيه الظنة وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضاً فمولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة لسالم في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم من الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره لأنه إذا ذهبت

ٱلشَّوْكَةُ بِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ ٱلْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْإِخْلَالُ بِشَرْطِ ٱلْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذٰلِكَ أَيْضاً إِلَى ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَسَقَطَ ٱعْتِبَارُ شُرُوطِ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ ٱلْإِجْمَاعِ . وَلْنَتَكَلَّمِ ٱلْآنَ فِي حِكْمَةِ ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ ٱلصَّوَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ فَنَقُولُ . إِنَّ ٱلْأَحْكَامَ ٱلشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحِكَمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ ٱلْحِكْمَةِ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ ٱلْقُرَشِيِّ وَمَقْصَدِ ٱلشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يُقْتَصَرْ فِيهِ عَلَى ٱلتَّبَرُّكِ بِوُصْلَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ مَوْجُودَةً وَٱلتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلاً لٰكِنَّ ٱلتَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ ٱلْمَصْلَحَةِ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ وَهِيَ ٱلْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا ٱعْتِبَارَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ ٱلْخِلَافُ وَٱلْفُرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ ٱلْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ ٱلْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ ٱلْأُلْفَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّ قُرَيْشاً كَانُوا عُصْبَةَ مُضَرَ وَأَصْلَهُمْ وَأَهْلَ ٱلْغَلَبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلشَّرَفِ فَكَانَ سَائِرُ ٱلْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذٰلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِغَلَبِهِمْ فَلَوْ جُعِلَ ٱلْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتُوُقِّعَ ٱفْتِرَاقُ ٱلْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ ٱنْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ مُضَرَ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ ٱلْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى ٱلْكَرَّةِ فَتَتَفَرَّقَ ٱلْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفَ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلشَّارِعُ مُحَذِّرٌ مِنْ ذٰلِكَ حَرِيصٌ عَلَى ٱتِّفَاقِهِمْ وَرَفْعِ ٱلتَّنَازُعِ وَٱلشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلَ ٱللُّحْمَةُ وَٱلْعَصَبِيَّةُ وَتَحْسُنَ ٱلْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ ٱلنَّاسِ بِعَصَا ٱلْغَلَبِ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا فُرْقَةٍ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ ٱلنَّاسِ مِنْهَا فَٱشْتُرِطَ نَسَبُهُمُ ٱلْقُرَشِيُّ فِي هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي ٱنْتِظَامِ ٱلْمِلَّةِ وَٱتِّفَاقِ ٱلْكَلِمَةِ وَإِذَا ٱنْتَظَمَتْ كَلِمَتُهُمُ ٱنْتَظَمَتْ بِٱنْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَ أَجْمَعَ فَأَذْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ ٱلْعَرَبِ وَٱنْقَادَتِ ٱلْأُمَمُ سِوَاهُمْ الى أَحْكَامِ ٱلْمِلَّةِ وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ ٱلْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ ٱلْفُتُوحَاتِ وَٱسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنِ ٱضْمَحَلَّ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ عَلَى بُطُونِ مُضَرَ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَسِيَرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذٰلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ

في كتاب التدبير وغيره فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب [1] في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

علياً رضيَ اللهُ عنهُ هوَ الّذي عيّنهُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ بنصوصٍ ينقلُونها ويؤوّلونها على مُقتضى مذهبِهم لا يعرفُها جهابذةُ السُّنّةِ ولا نقلَةُ الشّريعةِ بل أكثرُها موضوعٌ أوْ مطعُونٌ في طريقِهِ أوْ بعيدٌ عنْ تأويلاتِهِم الفاسدةِ وتنقسمُ هذهِ النّصوصُ عندَهُم إلى جليٍّ وخفيٍّ فالجليُّ مثلُ قولِهِ منْ كُنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ قالُوا ولمْ تطّردْ هذهِ الولايةُ إلّا في عليٍّ ولهذا قالَ لهُ عمرُ أصبحتَ مولى كُلِّ مُؤمنٍ ومُؤمنةٍ ومنها قولُهُ أقضاكُمْ عليٌّ ولا معنى للإمامةِ إلّا القضاءُ بأحكامِ اللهِ وهُوَ المُرادُ بأولي الأمرِ الواجبةِ طاعتُهُم بقولِهِ أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرّسولَ وأُولي الأمرِ منكُمْ والمُرادُ الحُكمُ والقضاءُ ولهذا كانَ حكَماً في قضيّةِ الإمامةِ يومَ السّقيفةِ دُونَ غيرِهِ ومنها قولُهُ منْ يُبايعُني على رُوحِهِ وهُوَ وصيّي ووليُّ هذا الأمرِ منْ بعدي فلمْ يُبايعْهُ إلّا عليٌّ ومنَ الخفيِّ عندَهُم بعثُ النّبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ علياً لقراءةِ سُورةِ براءةَ في الموسمِ حينَ أُنزلتْ فإنّهُ بعثَ بها أوّلاً أبا بكرٍ ثُمّ أُوحيَ إليهِ ليُبلّغْهُ رجلٌ منكَ أوْ منْ قومِكَ فبعثَ علياً ليكُونَ القارئَ المُبلّغَ قالُوا وهذا يدُلُّ على تقديمِ عليٍّ وأيضاً فلمْ يُعرفْ أنّهُ قدّمَ أحداً على عليٍّ وأمّا أبو بكرٍ وعُمرُ فقدّمَ عليهِما في غزوتينِ أُسامةَ بنَ زيدٍ مرّةً وعمرَو بنَ العاصِ أُخرى وهذهِ كُلُّها أدلّةٌ شاهدةٌ بتعيينِ عليٍّ للخلافةِ دُونَ غيرِهِ فمنها ما هُوَ غيرُ معرُوفٍ ومنها ما هُوَ بعيدٌ عنْ تأويلِهِم ثُمّ منهُمْ منْ يرى أنّ هذهِ النّصوصَ تدُلُّ على تعيينِ عليٍّ وتشخيصِهِ وكذلكَ تنتقلُ منهُ إلى منْ بعدَهُ وهؤلاءِ هُمُ الإماميّةُ ويتبرّأُونَ منَ الشّيخينِ حيثُ لمْ يُقدّمُوا علياً ويُبايعُوهُ بمُقتضى هذهِ النّصوصِ ويغمصُونَ في إمامتِهِما ولا يُلتفتُ إلى نقلِ القدحِ فيهِما منْ غُلاتِهِم فهُوَ مردُودٌ عندنا وعندَهُم ومنهُم منْ يقُولُ إنّ هذهِ الأدلّةَ إنّما اقتضتْ تعيينَ عليٍّ بالوصفِ لا بالشّخصِ والنّاسُ مُقصّرُونَ حيثُ لمْ يضعُوا الوصفَ موضعَهُ ولا هُمُ الزّيديّةُ ولا يتبرّأُونَ منَ الشّيخينِ ولا يغمصُونَ في إمامتِهِما معَ قولِهِم بأنّ علياً أفضلُ منهُما لكنّهُمْ يُجوّزُونَ إمامةَ المفضُولِ معَ وُجُودِ الأفضلِ ثُمّ اختلفتْ نُقُولُ هؤلاءِ الشّيعةِ في مساقِ الخلافةِ بعدَ عليٍّ فمنهُمْ منْ ساقَها في وُلدِ فاطمةَ بالنّصِّ عليهِمْ واحداً بعدَ واحدٍ على ما يُذكرُ بعدُ وهؤلاءِ يُسمّونَ الإماميّةَ نسبةً إلى مقالتِهِمْ باشتراطِ معرفةِ الإمامِ وتعيينِهِ في الإيمانِ وهيَ أصلٌ عندَهُمْ ومنهُمْ منْ ساقَها في وُلدِ فاطمةَ لكنْ بالاختيارِ معَ الشّيوخِ ويشترطُ أنْ يكُونَ الإمامُ منهُمْ عالماً

زَاهِداً جوَاداً شُجَاعاً وَيَخْرُجَ دَاعِياً إلى إمَامَتِهِ وَهٰؤُلاءِ هُمُ ٱلزَّيْدِيَّةُ نِسْبَةً إلى صَاحِبِ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلسِّبْطُ وَقَدْ كَانَ يُنَاظِرُ أَخَاهُ مُحَمَّداً ٱلْبَاقِرَ عَلَى ٱشْتِرَاطِ ٱلْخُرُوجِ فِي ٱلْإِمَامِ فَيَلْزَمُهُ ٱلْبَاقِرُ أَنْ لا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ ٱلْعَابِدِينَ إِمَاماً لأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ يَنْعَى عَلَيْهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ وَأَخْذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاظَرَ ٱلْإِمَامِيَّةُ زَيْداً فِي إِمَامَةِ ٱلشَّيْخَيْنِ وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِإِمَامَتِهِمَا وَلا يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا رَفَضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ وَبِذٰلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُم مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَٱبْنَيْهِ ٱلسِّبْطَيْنِ عَلَى ٱخْتِلافِهِمْ فِي ذٰلِكَ إلى إِخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ ثُمَّ إلى وُلْدِهِ وَهُمُ ٱلْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إلى كَيْسَانَ مَوْلاهُ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلطَّوَائِفِ ٱخْتِلافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا ٱخْتِصَاراً وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يُسَمَّوْنَ ٱلْغُلاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ ٱلْعَقْلِ وَٱلْإِيمَانِ فِي ٱلْقَوْلِ بِأُلُوهِيَّةِ هٰؤُلاءِ ٱلْأَئِمَّةِ إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ ٱتَّصَفُوا بِصِفَاتِ ٱلْأُلُوهِيَّةِ أَوْ أَنَّ ٱلْإِلٰهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ ٱلنَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِٱلنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إلى ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَطَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ ٱلْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلَعْنَتِهِ وَٱلْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هٰذَا عَنْهُ وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ ٱلْإِمَامِ لا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ ٱنْتَقَلَتْ رُوحُهُ إلى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذٰلِكَ ٱلْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلتَّنَاسُخِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ ٱلْغُلاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ لا يَتَجَاوَزُهُ إلى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعَيِّنُ لِذٰلِكَ عِنْدَهُمْ وَهٰؤُلاءِ هُمُ ٱلْوَاقِفِيَّةُ فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذٰلِكَ بِقِصَّةِ ٱلْخَضِرِ قِيلَ مِثْلُ ذٰلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي ٱلسَّحَابِ وَٱلرَّعْدُ صَوْتُهُ وَٱلْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

أَلا إِنَّ ٱلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاةَ ٱلْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ وَٱلثَّلاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ ٱلْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وَسِبْطٌ لا يَذُوقُ ٱلْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ ٱلْجَيْشَ يَقْدُمُهُ ٱللِّوَاءُ

تَغَيَّبَ لا يُرَى فِيهِمْ زَمَاناً بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وَقَالَ مِثْلَهُ غُلاةُ ٱلإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصاً ٱلِاثْنَا عَشَرِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلْعَسْكَرِيُّ وَيُلَقِّبُونَهُ ٱلْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ فِي ٱلْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ ٱعْتُقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ ٱلزَّمَانِ فَيَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلاً يُشِيرُونَ بِذٰلِكَ إِلَى ٱلْحَدِيثِ ٱلْوَاقِعِ فِي كِتَابِ ٱلتِّرْمِذِيِّ فِي ٱلْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى ٱلْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُنْتَظَرَ لِذٰلِكَ وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْمَغْرِبِ بِبَابِ هٰذَا ٱلسِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَباً فَيَهْتِفُونَ بِٱسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ ٱلنُّجُومُ ثُمَّ يَنْفَضُّونَ وَيُرْجِئُونَ ٱلْأَمْرَ إِلَى ٱللَّيْلَةِ ٱلْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَبَعْضُ هٰؤُلَاءِ ٱلْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ ٱلْإِمَامَ ٱلَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ ٱلدُّنْيَا وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذٰلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَٱلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ ٱلْبَقَرَةِ ٱلَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ ٱلَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُعْجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ ٱلِاسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّيِّدُ ٱلْحِمْيَرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذٰلِكَ

إِذَا مَا ٱلْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ وَعَلَّلَهُ ٱلْمَوَاشِطُ بِٱلْخِضَابِ
فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَقُمْ يَا صَاحِ نَبْكِ عَلَى ٱلشَّبَابِ
إِلَى يَوْمٍ تَئُوبُ ٱلنَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمُ قَبْلَ ٱلْحِسَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ ٱلْإِيَابِ
أَدِينُ بِأَنَّ ذٰلِكَ دِينُ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي ٱلنُّشُورِ بِذِي ٱرْتِيَابِ
كَذَاكَ ٱللّٰهُ أَخْبَرَ عَنْ أُنَاسٍ حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فِي ٱلتُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَؤُونَةَ هٰؤُلَاءِ ٱلْغُلَاةِ أَئِمَّةُ ٱلشِّيعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُبْطِلُونَ ٱحْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا ٱلْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا ٱلْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ إِلَى ٱبْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ ٱفْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ ٱبْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ ٱلسَّرَاةِ مُنْصَرِفاً مِنَ ٱلشَّامِ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ٱبْنِهِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرٰهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَارِثِيَّةِ ٱلْمُلَقَّبِ بِٱلسَّفَّاحِ وَأَوْصَى هُوَ

إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعية إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله . وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد ابن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه أدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمره ابنه أدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوصل

ٱلدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ كَمَا نَذْكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا ٱلْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا ٱلْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ ٱلرِّضَى إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ بِٱلْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ ٱلْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا ٱفْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِٱلْإِمَامِ وَهُمُ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى ٱبْنِهِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ وَهُمُ ٱلِاثْنَا عَشَرِيَّةُ لِوُقُوفِهِمْ عِنْدَ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ ٱلزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ بِٱلنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ ٱلنَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ ٱلْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ ٱنْتَقَلَتِ ٱلْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ ٱلْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ ٱبْنُهُ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ ٱلْمَسْتُورِينَ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللَّهِ ٱلْمَهْدِيُّ ٱلَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلشِّيعِيُّ فِي كُتَامَةَ وَتَتَابَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلَكَ ٱلْقَيْرَوَانَ وَٱلْمَغْرِبَ وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدُ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هٰؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى ٱلْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضاً بِٱلْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِٱلْإِمَامِ ٱلْبَاطِنِ أَيِ ٱلْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضاً ٱلْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ ٱلْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا ٱلْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلصَّبَّاحِ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حُصُوناً بِٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا ٱلْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ ٱلتَّتَرِ بِٱلْعِرَاقِ فَٱنْقَرَضَتْ وَمَقَالَةُ هٰذَا ٱلصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ ٱلْمِلَلِ وَٱلنِّحَلِ لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ *

وَأَمَّا ٱلِاثْنَا عَشَرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ بْنِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ ٱلْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هٰذَا ثُمَّ ٱبْنِهِ عَلِيٍّ ٱلرِّضَى ٱلَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِ ٱلْمَأْمُونُ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلتَّقِيُّ ثُمَّ ٱبْنُهُ عَلِيٌّ ٱلْهَادِي ثُمَّ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْحَسَنُ ٱلْعَسْكَرِيُّ ثُمَّ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْمَهْدِيُّ ٱلْمُنْتَظَرُ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هـذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هـذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

إعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه . فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى اطراحها وتركها فقال إن الله أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق والإسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله وإنما حض على الإلفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموماً وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحاً وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة قاموس

على المصالح ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية وكذا العصبية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد لأن ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فأما إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك * ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين أنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه الجواب في تلك الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنما قصده بها وجه الله فسكت * وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام ثم عهد إلى عمر فاقتفى أثره وقاتل الأمم فغلبهم وأذن للعرب بانتزاع

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ
عَفَّانَ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا وَٱلْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ ٱلْمُلْكِ مُنَكِّبُونَ عَنْ طُرُقِهِ
وَأَكَّدَ ذٰلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَبَدَاوَةِ ٱلْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ
ٱلْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَتَرَفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ ٱلَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلزُّهْدِ فِي ٱلنَّعِيمِ
وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْعَيْشِ وَشَظَفِهِ ٱلَّذِي أَلِفُوهُ
فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشاً مِنْ مُضَرَ لَمَّا كَانُوا بِٱلْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ
زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ ٱلْأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَٱخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا
مِنْ رَبِيعَةَ وَٱلْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيراً مَا يَأْكُلُونَ
ٱلْعَقَارِبَ وَٱلْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ ٱلْعِلْهِزِ وَهُوَ وَبَرُ ٱلْإِبِلِ يَمْهُونَهُ بِٱلْحِجَارَةِ فِي ٱلدَّمِ
وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيباً مِنْ هٰذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ
عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ ٱللهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا
إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ بِوَعْدِ ٱلصِّدْقِ فَٱبْتَزُّوا
مُلْكَهُمْ وَٱسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارُ ٱلرَّفَهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ ٱلْفَارِسُ ٱلْوَاحِدُ يُقْسَمُ
لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفاً مِنَ ٱلذَّهَبِ أَوْ نَحْوُهَا فَٱسْتَوْلَوْا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ
ٱلْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِٱلْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ
يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ ٱلدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ
يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمَئِذٍ وَكَانَتِ ٱلْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِٱلْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ
ٱلْحِنْطَةَ بِنُخَالِهَا وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هٰذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ
فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ ٱقْتَنَى ٱلصَّحَابَةُ ٱلضِّيَاعَ وَٱلْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ
وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي ٱلْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا
مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَخَلَّفَ إِبِلاً وَخَيْلاً كَثِيرَةً وَبَلَغَ ٱلثُّمُنُ ٱلْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ ٱلزُّبَيْرِ بَعْدَ
وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلَّفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمَةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ ٱلْعِرَاقِ
أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ ٱلسَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبَطِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ
ٱبْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَبَلَغَ ٱلرُّبُعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ
بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً وَخَلَّفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ ٱلْفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ مَا كَانَ يُكَسَّرُ

بالفُوُوس غيرَ ما خلّفَ مِنَ ٱلأموالِ وَٱلضِياعِ بمائَةِ ألفِ دينارٍ وَبنى ٱلزُّبيرُ دارَه بالبَصْرةِ وكذلِكَ بَنى بمِصْرَ وَٱلكُوفَةِ وَٱلإسكندريَّةِ وكذلِكَ بَنى طَلحَةُ دارَه بالكُوفَةِ وَشيَّدَ دارَهُ بالمَدينَةِ وَبنَاها بٱلجِصِّ وَٱلآجُرِّ وَٱلسَّاجِ وَبنى سَعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ دارَهُ بٱلعَقيقِ وَرَفَعَ سَمْكَها وَأوسَعَ فَضاءَها وَجَعلَ عَلى أعلاها شُرُفاتٍ وَبنى ٱلمِقدادُ دارَهُ بٱلمَدينَةِ وَجعَلَها مُجصَّصَةَ ٱلظَّاهِرِ وَٱلباطِنِ وَخلَّفَ لِعليّ بن مُنَبِّهٍ خَمسين ألفَ دينارٍ وَعقاراً وَغيرَ ذلِكَ مَا قيمَتُهُ ثلاثُمائَةِ ألفِ دِرهَم. اه كَلامُ ٱلمَسعُودي فكانَتْ مَكاسِبُ ٱلقَومِ كَما تَراهُ وَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ مَنعِيّاً عَلَيهِمْ في دينِهِمْ إذ هِيَ أموالٌ حلالٌ لِأنَّها غنائِمُ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يكُنْ تصَرُّفُهُمْ فيها بإسرافٍ إنَّما كانُوا عَلى قَصدٍ في أحوالِهِمْ كَما قُلناهُ فَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ بِقادِحٍ فيهِمْ وَإنْ كانَ ٱلإستِكثارُ مِنَ ٱلدُّنيا مَذمُوماً فإنَّما يَرجِعُ إلى ما أشَرْنا إلَيهِ مِنَ ٱلإسرافِ وَٱلخُرُوجِ بهِ عَنِ ٱلقَصدِ وَإذا كانَ حالُهُمْ قَصداً وَنَفَقاتُهُمْ في سُبُلِ ٱلحَقِّ وَمَذاهِبِهِ كانَ ذلِكَ ٱلإستِكثارُ عَوناً لَهُمْ عَلى طُرُقِ ٱلحَقِّ وَٱكتِسابِ ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ فَلَمَّا تَدرَّجَتِ ٱلبِداوَةُ وَٱلغَضاضَةُ إلى نِهايَتِها وَجاءَتْ طَبيعَةُ ٱلمُلكِ ٱلَّتي هِيَ مُقتَضى ٱلعَصَبيَّةِ كَما قُلناهُ وَحصَلَ ٱلتَّغلُّبُ وَٱلقَهرُ كانَ حُكمُ ذلِكَ ٱلمُلكِ عِندَهُمْ حُكمَ ذلِكَ ٱلرَّفَهِ وَٱلإستِكثارِ مِنَ ٱلأموالِ فَلَمْ يَصرِفُوا ذلِكَ ٱلتَّغلُّبَ في باطِلٍ وَلا خَرَجُوا بهِ عَنْ مَقاصِدِ ٱلدِّيانَةِ وَمَذاهِبِ ٱلحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعتِ ٱلفِتنَةُ بَينَ عَليٍّ وَمُعاوِيَةَ وَهِيَ مُقتَضى ٱلعَصَبيَّةِ كانَ طَريقُهُمْ فيها ٱلحَقَّ وَٱلإجتِهادَ وَلَم يَكُونُوا في مُحارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنيَوِيٍّ أوْ لإيثارِ باطِلٍ أوْ لإستِشعارِ حِقدٍ كَما قَدْ يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ وَيَنزِعُ إلَيهِ مُلحِدٌ وَإنَّما ٱختَلَفَ ٱجتِهادُهُمْ في ٱلحَقِّ وَسَفَّهَ كُلٌّ وَاحِدٍ نَظَرَ صاحِبِهِ بٱجتِهادِهِ في ٱلحَقِّ فَٱقتَتَلُوا عَلَيهِ وَإنْ كانَ ٱلمُصيبُ عَليّاً فَلَمْ يَكُنْ مُعاوِيَةُ قائِماً فيها بِقَصدِ ٱلباطِلِ إنَّما قَصَدَ ٱلحَقَّ وَأخطَأَ وَٱلكُلُّ كانُوا في مَقاصِدِهِمْ عَلى حَقٍّ ثُمَّ ٱقتَضَتْ طَبيعَةُ ٱلمُلكِ ٱلإنفِرادَ بٱلمَجدِ وَٱستِئثارَ ٱلواحِدِ بهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعاوِيَةَ أنْ يَدفَعَ عَنْ نَفسِهِ وَقَومِهِ فَهُوَ أمرٌ طَبيعِيٌّ ساقَتْهُ ٱلعَصَبيَّةُ بِطَبيعَتِها وَٱستَشعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَن لَمْ يَكُنْ عَلى طَريقَةِ مُعاوِيَةَ في ٱقتِفاءِ ٱلحَقِّ مِنْ أتباعِهِمْ فَٱعصَوصَبُوا عَلَيهِ وَٱستَماتُوا دُونَهُ وَلَوْ حَمَلَهُمْ مُعاوِيَةُ عَلى غَيرِ تِلكَ ٱلطَّريقَةِ وَخالَفَهُمْ في ٱلإنفِرادِ بٱلأمرِ لِوُقُوعٍ في ٱفتِراقِ ٱلكَلِمَةِ ٱلَّتي كانَ جَمعُها وَتأليفُها أهَمَّ عَلَيهِ مِنْ أمرٍ لَيسَ وَراءَهُ كَبيرُ مُخالَفَة

وَقَدْ كَانَ عمرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهِ يَقُولُ إِذَا رَأَى ٱلْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدِ بْن أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهُ ٱلْخِلافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلِ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ ٱلْأَمْرَ عَنْهُمْ لِئَلَّا تَقَعَ ٱلْفُرْقَةُ وَهٰذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ ٱلْمُلْكِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱلْمُلْكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ ٱلْوَاحِدَ ٱنْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ ٱلْحَقِّ وَوُجُوهِهِ لَمْ يَكُنْ فِي ذٰلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدِ ٱنْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُوهُ دَاوُدُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا ٱقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلِٱنْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْحَقِّ وَكَذٰلِكَ عَهِدَ مُعَاوِيَةُ إِلَى يَزِيدَ خَوْفاً مِنَ ٱفْتِرَاقِ ٱلْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يَرْضَوا تَسْلِيمَ ٱلْأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ ٱخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحاً. وَلا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذٰلِكَ وَلا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَعْهَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفِسْقِ حَاشَا ٱللهَ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ كَانَ مَرْوَانُ ٱبْنُ ٱلْحَكَمِ وَٱبْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكاً لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي ٱلْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ ٱلْبِطَالَةِ وَٱلْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ ٱلْحَقِّ جُهْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ ٱفْتِرَاقِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلَّذِي هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلِٱتِّبَاعِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ ٱلسَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدِ ٱحْتَجَّ مَالِكٌ فِي ٱلْمُوَطَّإِ بِعَمَلِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلْأُولَى مِنَ ٱلتَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ ٱلْأَمْرُ فِي وُلْدِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ ٱلدِّينِ بِٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَٱلصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يُهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلَفُهُمْ وَٱسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ ٱلْمُلْكِ فِي أَغْرَاضِهِمِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّي ٱلْقَصْدِ فِيهَا وَٱعْتِمَادِ ٱلْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا دَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى أَنْ نَعَوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِٱلدَّعْوَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلِيَ رِجَالُهَا ٱلْأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ ٱلْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا ٱلْمُلْكَ فِي وُجُوهِ ٱلْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا ٱسْتَطَاعُوا حَتَّى جَاءَ بَنُو ٱلرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُ وَٱلطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى ٱلْأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ فَأَعْطَوُا ٱلْمُلْكَ وَٱلتَّرَفَ حَقَّهُ وَٱنْغَمَسُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَنَبَذُوا ٱلدِّينَ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيّاً فَتَأَذَّنَ ٱللهُ بِحَرْبِهِمْ وَٱنْتِزَاعِ ٱلْأَمْرِ مِنْ أَيْدِي ٱلْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمْكَنَ سِوَاهُمْ وَٱللهُ لا

يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكاه المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الأمور ورفضهم دنيآتها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله[1] بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فاراً أيام السفاح قال أقمت ملياً ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت ما منعك عن القعود على ثيابنا فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه إلي وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك واظنه تصحيفاً قاله نصر

هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للإلفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله

مقدِّرُ ٱللَّيلِ وَٱلنَّهارِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة [1]

إعلَمْ أَنَّ ٱلْبَيْعَةَ هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ كَأَنَّ ٱلْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ ٱلنَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ لاَ يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا ٱلْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيداً لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذٰلِكَ فِعْلَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتِ ٱلْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِٱلْأَيْدِي هٰذَا مَدْلُولُهَا فِي عُرْفِ ٱللُّغَةِ وَمَعْهُودِ ٱلشَّرْعِ وَهُوَ ٱلْمُرَادُ فِي ٱلْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةِ وَعِنْدَ ٱلشَّجَرَةِ وَحَيْثُمَا وَرَدَ هٰذَا ٱللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ ٱلْبَيْعَةِ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ ٱلْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذٰلِكَ فَسُمِّيَ هٰذَا ٱلْإِسْتِيعَابُ أَيْمَانَ ٱلْبَيْعَةِ وَكَانَ ٱلْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهٰذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ ٱلْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا ٱلْوُلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ ٱلْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ ٱلْإِمَامِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَأَمَّا ٱلْبَيْعَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ ٱلْأَرْضِ أَوِ ٱلْيَدِ أَوِ ٱلرِّجْلِ أَوِ ٱلذَّيْلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا ٱسْمُ ٱلْبَيْعَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ مَجَازاً لِمَا كَانَ هٰذَا ٱلْخُضُوعُ فِي ٱلتَّحِيَّةِ وَٱلْتِزَامُ ٱلْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ ٱلطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَٱسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ فِي ٱلْأَصْلِ لِمَا فِي ٱلْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ ٱلتَّنَزُّلِ وَٱلْإِبْتِذَالِ ٱلْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ ٱلْمَنْصِبِ ٱلْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِمَّنْ يَقْصِدُ ٱلتَّوَاضُعَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ ٱلدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَٱفْهَمْ مَعْنَى ٱلْبَيْعَةِ فِي ٱلْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلاَ تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثاً وَمَجَّاناً وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَٱللّٰهُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فيها فهي معبد النصارى . اه

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إعلم أنّا قدّمنا الكلام في الإمامة ومشروعيّتها لما فيها من المصلحة وأنّ حقيقتها للنّظر في مصالح الأمّة لدينهم ودنياهم فهو وليّهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولّى أمورهم كما كان هو يتولّاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشّرع بإجماع الأمّة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصّحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشّورى إلى السّتّة بقيّة العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوّض بعضهم إلى بعض حتّى أفضى ذلك إلى عبد الرّحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متّفقين على عثمان وعلى عليّ فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إيّاه على لزوم الاقتداء بالشّيخين في كلّ ما يعنّ دون اجتهاده فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من الصّحابة حاضرون للأولى والثّانية ولم ينكره أحد منهم فدلّ على أنّهم متّفقون على صحّة هذا العهد عارفون بمشروعيّته والإجماع حجّة كما عرف ولا يتّهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنّه مأمون على النّظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتّهامه في الولد والوالد أو لمن خصّص التّهمة بالولد دون الوالد فإنّه بعيد عن الظّنّة في ذلك كلّه لا سيّما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقّع مفسدة فتنتفي الظّنّة في ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان فعل معاوية مع وفاق النّاس له حجّة في الباب والّذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنّما هو مراعاة المصلحة في اجتماع النّاس واتّفاق أهوائهم باتّفاق أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بني أميّة إذ بنو أميّة يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملّة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممّن يظنّ أنّه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتّفاق واجتماع الأهواء الّذي شأنه أهمّ عند الشّارع وإن كان لا يظنّ بمعاوية غير هذا فعدالته

وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد الله ابن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف. سأل رجل علياً رضي الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك يشير إلى وازع الدين أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفاً من الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية إذ هو أمر

منَ اللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمكَنَ خَوفاً مِن العَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُلْكُ لِلهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمورٌ تَدعُو الضَّرُورَةُ إِلى بَيَانِ الحَقِّ فِيهَا * فَالأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الفِسْقِ أَيَّامَ خِلافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعدَلُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعذُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُختَلِفَةً وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الفِسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُم مَنْ رَأَى الخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقْضَ بَيْعَتِهِ مِنْ أَجلِ ذٰلِكَ كَمَا فَعَلَ الحُسَيْنُ وَعَبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي ذٰلِكَ وَمِنْهُم مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ القَتْلِ مَعَ العَجزِ عَنِ الوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمهُورِ أَهلِ الحَلِّ وَالعَقدِ مِن قُرَيْشٍ وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةُ مُضَرَ أَجمَعَ وَهِيَ أَعظَمُ مِنْ كُلِّ شَوكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُم فَأَقصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهٰذَا كَانَ شَأْنَ جُمهُورِ المُسلِمِينَ وَالكُلُّ مُجتَهِدُونَ وَلَا يُنكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي البِرِّ وَتَحَرِّي الحَقِّ مَعرُوفَةٌ وَفَّقَنَا اللهُ لِلاقتِدَاءِ بِهِمْ * وَالأَمرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ العَهدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ الشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَهُوَ أَمرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النَّقلِ وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالقِرطَاسِ لِيَكْتُبَ الوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَولُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي العَهدِ فَقَالَ إِنْ أَعهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيرٌ مِنِّي يَعنِي أَبَا بَكرٍ وَإِنْ أَترُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيرٌ مِنِّي يَعنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعهَدْ وَكَذٰلِكَ قَولُ عَلِيٍّ لِلعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسأَلَانِهِ عَن شَأْنِهِمَا فِي العَهدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهرِ وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيّاً عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبهَةُ الإِمَامِيَّةِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الإِمَامَةِ مِنْ أَركَانِ الدِّينِ كَمَا يَزعُمُونَ وَلَيسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ المَصَالِحِ العَامَّةِ المُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الخَلقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَركَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَستَخلِفُ فِيهَا كَمَا استَخلَفَ أَبَا بَكرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشتَهِر

كَمَا ٱشْتَهَرَ أَمْرُ ٱلصَّلاةِ وَٱحْتِجَاجُ ٱلصَّحَابَةِ عَلَى خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى ٱلصَّلاةِ فِي قَوْلِهِمِ ٱرْتَضَاهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ٱلوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ وَيَدُلُّ ذٰلِكَ أَيْضاً عَلَى أَنَّ أَمْرَ ٱلإِمَامَةِ وَٱلعَهْدِ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمّاً كَمَا هُوَ ٱليَوْمَ وَشَأْنُ ٱلعَصَبِيَّةِ ٱلمُرَاعَاةُ فِي ٱلٱجْتِمَاعِ وَٱلٱفْتِرَاقِ فِي مَجَارِي ٱلعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذٰلِكَ ٱلٱعْتِبَارِ لِأَنَّ أَمْرَ ٱلدِّينِ وَٱلإِسْلامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ ٱلعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ ٱلقُلُوبِ عَلَيْهِ وَٱسْتِمَاتَةِ ٱلنَّاسِ دُونَهُ وَذٰلِكَ مِنْ أَجْلِ ٱلأَحْوَالِ ٱلَّتِي كَانُوا يُشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ ٱلمَلائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَبَرِ ٱلسَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خِطَابِ ٱللهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى مُرَاعَاةِ ٱلعَصَبِيَّةِ لِمَا شَمَلَ ٱلنَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ ٱلٱنْقِيَادِ وَٱلإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ ٱلمُعْجِزَاتِ ٱلخَارِقَةِ وَٱلأَحْوَالِ ٱلإِلٰهِيَّةِ ٱلوَاقِعَةِ وَٱلمَلائِكَةِ ٱلمُتَرَدِّدَةِ ٱلَّتِي وَجِمُوا مِنْهَا وَدُهِشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ ٱلخِلافَةِ وَٱلمُلْكِ وَٱلعَهْدِ وَٱلعَصَبِيَّةِ وَسَائِرِ هٰذِهِ ٱلأَنْوَاعِ مُنْدَرِجاً فِي ذٰلِكَ ٱلقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا ٱنْحَصَرَ ذٰلِكَ ٱلمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ ٱلمُعْجِزَاتِ ثُمَّ بِفَنَاءِ ٱلقُرُونِ ٱلَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَٱسْتَحَالَتْ تِلْكَ ٱلصِّبْغَةُ قَلِيلاً قَلِيلاً وَذَهَبَتِ ٱلخَوَارِقُ وَصَارَ ٱلحُكْمُ لِلعَادَةِ كَمَا كَانَ فَٱعْتُبِرَ أَمْرُ ٱلعَصَبِيَّةِ وَمَجَارِي ٱلعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ ٱلمَصَالِحِ وَٱلمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ ٱلمُلْكُ وَٱلخِلافَةُ وَٱلعَهْدُ بِهِمَا مُهِمّاً مِنَ ٱلمُهِمَّاتِ ٱلأَكِيدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَتِ ٱلخِلافَةُ لِعَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ فَلَمْ يَعْهَدْ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتِ ٱلأَهَمِّيَّةُ زَمَانَ ٱلخِلافَةِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِمَا دَعَتِ ٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلحِمَايَةِ وَٱلجِهَادِ وَشَأْنِ ٱلرِّدَّةِ وَٱلفُتُوحَاتِ فَكَانُوا بِٱلخِيَارِ فِي ٱلفِعْلِ وَٱلتَّرْكِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ثُمَّ صَارَتِ ٱليَوْمَ مِنْ أَهَمِّ ٱلأُمُورِ لِلإِلْفَةِ عَلَى ٱلحِمَايَةِ وَٱلقِيَامِ بِٱلمَصَالِحِ فَٱعْتُبِرَتْ فِيهَا ٱلعَصَبِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ سِرُّ ٱلوَازِعِ عَنِ ٱلفُرْقَةِ وَٱلتَّخَاذُلِ وَمَنْشَأُ ٱلٱجْتِمَاعِ وَٱلتَّوَافُقِ وَٱلكَفِيلِ بِمَقَاصِدِ ٱلشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا * وَٱلأَمْرُ ٱلثَّالِثُ شَأْنُ ٱلحُرُوبِ ٱلوَاقِعَةِ فِي ٱلإِسْلامِ بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱخْتِلافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلدِّينِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ ٱلٱجْتِهَادِ فِي ٱلأَدِلَّةِ ٱلصَّحِيحَةِ وَٱلمَدَارِكِ ٱلمُعْتَبَرَةِ وَٱلمُجْتَهِدُونَ إِذَا ٱخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ ٱلحَقَّ فِي ٱلمَسَائِلِ ٱلٱجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ فَإِنَّ جِهَتَهُ لا تَتَعَيَّنُ بِإِجْمَاعٍ فَيَبْقَى ٱلكُلُّ عَلَى ٱحْتِمَالِ ٱلإِصَابَةِ وَلا يَتَعَيَّنُ ٱلمُخْطِئُ

منها وَٱلتَّأثِيمُ مَدفُوعٌ عَنِ ٱلكُلِّ إِجْمَاعاً وَإِنْ قُلنَا إِنَّ ٱلكُلَّ حَقٌّ وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِد مصِيبٌ فَأَحرَى بِنَفْيِ ٱلخَطَإِ وَٱلتَّأثِيمِ وَغَايَةُ ٱلخِلافِ ٱلَّذِي بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلافٌ ٱجتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهٰذَا حُكْمُهُ وَٱلَّذِي وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلإِسْلام إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةُ عَلِيٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ ٱلزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ ٱلحُسَيْنِ مَعَ يَزِيد وَوَاقِعَةُ ٱبنِ ٱلزُّبَيْرِ مَعَ عَبدِ ٱلمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَان مفتَرِقِينَ فِي ٱلأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِيٍّ وَٱلَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ مَن تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ ٱلنَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَٱبْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ بنِ زَيد وَٱلمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ وَعَبدِ ٱللهِ بنِ سَلامٍ وَقُدَامَةَ بنِ مَظْعُونٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ٱلخُدرِيِّ وَكَعْب بنِ مَالِكٍ وَٱلنُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ وَمَسْلَمَةَ بنِ مُخَلدٍ وَفَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِم مِنْ أَكَابِرِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلَّذِينَ كَانُوا فِي ٱلأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضاً إِلَى ٱلطَّلَبِ بِدَم عُثْمَانَ وَتَرَكُوا ٱلأَمرَ فَوضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ ٱلمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُوَلُّونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِي هَوَادَةً فِي ٱلسُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِيهِ لا فِي ٱلمُمَالأَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ لِلهِ مِنْ ذٰلِكَ وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَّحَ بِمَلامَتِهِ إِنَّمَا يُوَجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ ٱختَلَفُوا بَعدَ ذٰلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدِ ٱنعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنهَا بِٱجْتِمَاعِ مَنِ ٱجتَمَع عَلَيهَا بِٱلمَدِينَةِ دَارِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ ٱلصَّحَابَةِ وَأَرْجَأَ ٱلأَمرَ فِي ٱلمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى ٱجْتِمَاعِ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقِ ٱلكَلِمَةِ فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذٰلِكَ وَرَأَى ٱلآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنعَقِدْ لِٱفْتِرَاقِ ٱلصَّحَابَةِ أَهلِ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ بِٱلآفَاقِ وَلَم يحضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلا تَكُونُ ٱلبَيْعَةُ إِلَّا بِٱتِّفَاقِ أَهلِ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ وَلا تَلزَمُ بِعَقْد مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنَ ٱلقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ ٱلمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوضَى فَيُطَالِبُون أَوَّلاً بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هٰذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمرُو بنُ ٱلعَاص وَأُمُّ ٱلمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَٱلزُّبَيْرُ وَٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللهِ وَطَلْحَةُ وَٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ وَسَعْدٌ وَسَعِيد وَٱلنُّعمَانُ بنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ ٱلَّذِين تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِٱلمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهلَ ٱلعَصْرِ ٱلثَّانِي مِنْ بَعْدِهِم ٱتَّفَقُوا عَلَى ٱنعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلُزُومِهَا لِلمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَب إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ ٱلخَطَإِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصاً طَلحَة

وَٱلزُّبَيْرِ لِٱنْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ ٱلْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ ٱلتَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلشَّأْنِ فِي ٱلْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَٰلِكَ إِجْمَاعاً مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلَى ٱلْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى ٱلْفَرِيقَيْنِ نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ ٱلْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيّاً لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ ٱلْإِنْصَافِ عَذَرْتَ ٱلنَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ ٱلِٱخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَٱخْتِلَافِ ٱلصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ٱبْتَلَى ٱللَّهُ بِهَا ٱلْأُمَّةَ بَيْنَمَا ٱلْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ ٱللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا ٱلْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَزَلُوا هٰذِهِ ٱلْأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا ٱرْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنَ ٱلْجَفَاءِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلتَّفَاخُرِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ ٱلْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ ٱسْتِفْحَالِ ٱلدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ ٱلْحِجَازِ وَيَثْرِبَ ٱلسَّابِقِينَ ٱلْأَوَّلِينَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَٱسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَٰلِكَ وَغَصُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلتَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَٱلْأَزْدِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ فَصَارُوا إِلَى ٱلْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَٱلْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ وَٱلتَّمْرِيضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَٱلتَّعَلُّلِ فِي ذَٰلِكَ بِٱلتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَٱلِٱسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِيهِمْ بِٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلسَّوِيَّةِ وَٱلْعَدْلِ فِي ٱلْقَسْمِ عَنِ ٱلسَّوِيَّةِ وَفَشَتِ ٱلْمَقَالَةُ بِذَٰلِكَ وَٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ ٱلْخَبَرَ بَعَثَ ٱبْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى ٱلْأُمَرَاءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْناً وَأَدَّوْا ذَٰلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ ٱلطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ ٱلشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى ٱلْكُوفَةِ بِشُرْبِ ٱلْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ الى ٱلْمَدِينَةِ

من أهل الأمصار يسألون عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه من العزل فأبى إلا أن يكون على جرحة ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه في يد حامله الى عامل مصر بأن يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكنا من مروان فإنه كاتبك فحلف مروان فقال ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم إلا خيراً لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لأن عصبية مضر كانت في قريش وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد

فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فقد تبين لك غلط الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه . إن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد

لا يُقاومون بني أميّةَ في جاهليةٍ ولا إسلامٍ والقولُ بتعيّنِ الخطإِ في جهةِ معاويةَ مع عليٍّ لا سبيلَ إليه. لأنّ الإجماعَ هنالكَ قضى لنا به ولم نجدْهُ ها هنا. وأمّا يزيدُ فعيّن خطأَهُ فسقُهُ وعبدُ الملكِ صاحبُ ابنِ الزّبيرِ أعظمُ النّاسِ عدالةً وناهيكَ بعدالتِه احتجاجُ مالكٍ بفعلِه وعُدولُ ابنِ عبّاسٍ وابنِ عمرَ إلى بيعتِه عن ابنِ الزّبيرِ لم تنعقد لأنّه لم يحضرْها أهلُ العقدِ والحلِّ كبيعةِ مروانَ وابنُ الزّبيرِ على خلافِ ذلكَ والكلُّ مجتهدونَ محمولونَ على الحقِّ في الظّاهرِ وإنْ لم يتعيّنْ في جهةٍ منهما والقتلُ الذي نزلَ به بعدَ تقريرِ ما قرّرناهُ يجيءُ على قواعدِ الفقهِ وقوانينِه مع أنّه شهيدٌ مثابٌ باعتبارِ قصدِه وتحرّيهِ الحقَّ هذا هو الّذي ينبغي أنْ تُحملَ عليهِ أفعالُ السّلفِ منَ الصّحابةِ والتّابعينَ فهمْ خيارُ الأمّةِ وإذا جعلناهم عُرضةً للقدحِ فمنِ الّذي يختصُّ بالعدالةِ والنّبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقولُ خيرُ النّاسِ قرني ثمّ الّذين يلونهمْ مرّتينِ أو ثلاثاً ثمّ يفشو الكذبُ فجعلَ الخيرةَ وهيَ العدالةُ مختصّةً بالقرنِ الأوّلِ والّذي يليهِ فإيّاكَ أن تعوّدَ نفسَكَ أو لسانَكَ التّعرّضَ لأحدٍ منهمْ ولا يشوّشْ قلبَكَ بالرّيبِ في شيءٍ ممّا وقعَ منهمْ والتمسْ لهمْ مذاهبَ الحقِّ وطرقَهُ ما استطعتَ فهمْ أولى النّاسِ بذلكَ وما اختلفوا إلّا عن بيّنةٍ وما قاتلوا أو قتلوا إلّا في سبيلِ جهادٍ أو إظهارِ حقٍّ واعتقدْ مع ذلكَ أنّ اختلافَهمْ رحمةٌ لمنْ بعدَهمْ منَ الأمّةِ ليقتديَ كلُّ واحدٍ بمنْ يختارُهُ منهم ويجعلَهُ إمامَهُ وهاديَهُ ودليلَهُ فافهمْ ذلكَ وتبيّنْ حكمةَ اللهِ في خلقِه وأكوانِه واعلمْ أنّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ وإليهِ الملجأُ والمصيرُ واللهُ تعالى أعلمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لمّا تبيّنَ أنّ حقيقةَ الخلافةِ نيابةٌ عنْ صاحبِ الشّرعِ في حفظِ الدّينِ وسياسةِ الدّنيا فصاحبُ الشّرعِ متصرّفٌ في الأمرينِ أمّا في الدّينِ فبمقتضى التّكاليفِ الشّرعيّةِ الّذي هو مأمورٌ بتبليغِها وحملِ النّاسِ عليها وأمّا سياسةُ الدّنيا فبمقتضى رعايتِه لمصالحِهمْ في العمرانِ البشريِّ وقدْ قدّمنا أنّ هذا العمرانَ ضروريٌّ للبشرِ وأنّ رعايةَ مصالحِه كذلكَ لئلّا يفسدَ إنْ أهملتْ وقدّمنا أنّ الملكَ وسطوتَهُ كافٍ في حصولِ هذهِ المصالحِ نعمْ إنّما تكونُ أكملَ إذا كانتْ بالأحكامِ الشّرعيّةِ لأنّهُ أعلمُ بهذهِ

ٱلْمَصَالِحِ فَقَدْ صَارَ ٱلْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٌ وَوَظَائِفُ تَابِعَةٌ تَتَعَيَّنُ خِطَطًا وَتَتَوَزَّعُ عَلَى رِجَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَظَائِفَ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوَظِيفَتِهِ حَسْبَمَا يُعَيِّنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا ٱلْمَنْصِبُ ٱلْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ ٱلْمَلِكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا ٱلِاعْتِبَارِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ ٱلدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِخِطَطٍ وَمَرَاتِبَ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ ٱلْآنَ ٱلْخِطَطَ ٱلدِّينِيَّةَ ٱلْمُخْتَصَّةَ بِٱلْخِلَافَةِ وَنَرْجِعُ إِلَى ٱلْخِطَطِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخِطَطَ ٱلدِّينِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنَ ٱلصَّلَاةِ وَٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ وَٱلْجِهَادِ وَٱلْحِسْبَةِ كُلُّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ٱلْإِمَامَةِ ٱلْكُبْرَى ٱلَّتِي هِيَ ٱلْخِلَافَةُ فَكَأَنَّهَا ٱلْإِمَامُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلْأَصْلُ ٱلْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ ٱلْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمِلَّةِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ ٱلشَّرْعِ فِيهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ ٱلصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ ٱلْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ ٱلْمُلْكِ بِخُصُوصِهِ ٱلْمُنْدَرِجِ مَعَهَا تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ ٱسْتِدْلَالُ ٱلصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِٱسْتِخْلَافِهِ فِي ٱلصَّلَاةِ عَلَى ٱسْتِخْلَافِهِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ٱرْتَضَاهُ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا فَلَوْلَا أَنَّ ٱلصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ ٱلْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ فِي ٱلْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدُ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ ٱلْغَاشِيَةِ مُعَدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ ٱلْمَشْهُودَةِ وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ ٱلْعَامَّةِ فَأَمَّا ٱلْمَسَاجِدُ ٱلْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا ٱلْإِمَامَ فِي ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَٱلْجُمُعَةِ وَٱلْعِيدَيْنِ وَٱلْخُسُوفَيْنِ وَٱلِاسْتِسْقَاءِ وَتَعَيُّنُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْأَوْلَى وَٱلِاسْتِحْسَانِ وَلِئَلَّا يَفْتَاتَ ٱلرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِٱلْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ ٱلْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصْبُ ٱلْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا ٱلْمَسَاجِدُ ٱلْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى ٱلْجِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ ٱلْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَٱلْمُوَلَّى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ

فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا مستخلفين فيها وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير والأذان بالصلاة فإنه داع إلى الله والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشارة وتنويهاً فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلاً لها وزجره لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الأثر أجرأكم على الفتيا أجرأكم على جراثيم جهنم فالسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة

وهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أمّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَم إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ وَآسِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى مَن ٱدَّعَى وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَٱلصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَو حَرَّمَ حَلَالاً وَلَا يَمْنَعْكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ أَمْسِ فَرَاجَعْتَ ٱلْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِنَّ ٱلْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةَ ٱلْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ ٱلتَّمَادِي فِي ٱلْبَاطِلِ ٱلْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ ٱعْرِفِ ٱلْأَمْثَالَ وَٱلْأَشْبَاهَ وَقِسِ ٱلْأُمُورَ بِنَظَائِرِهَا وَٱجْعَلْ لِمَنِ ٱدَّعَى حَقّاً غَائِباً أَوْ بَيِّنَةً أَمَداً يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا ٱسْتَحْلَلْتَ ٱلْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى. ٱلْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُوداً فِي حَدٍّ أَوْ مُجَرَّباً عَلَيْهِ شَهَادَةَ زُورٍ أَوْ ظَنِيناً فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ ٱلْإِيمَانِ وَدَرَأَ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَإِيَّاكَ وَٱلْقَلَقَ وَٱلضَّجَرَ وَٱلتَّأَفُّفَ بِٱلْخُصُومِ فَإِنَّ ٱسْتِقْرَارَ ٱلْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحَقِّ يُعْظِمُ ٱللهُ بِهِ ٱلْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ ٱلذِّكْرَ وَٱلسَّلَامُ. إِنْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَلِّدُونَ ٱلْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ أَشْغَالِهَا مِنَ ٱلْجِهَادِ وَٱلْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ ٱلثُّغُورِ وَحِمَايَةِ ٱلْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ ٱلْعِنَايَةِ فَٱسْتَخَفُّوا ٱلْقَضَاءَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقَلِّدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلْوَلَاءِ وَلَا يُقَلِّدُونَهُ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا ٱلْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ وَخُصُوصاً كُتُبَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْقَاضِيَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ بِحَسَبِ ٱشْتِغَالِ ٱلْخُلَفَاءِ وَٱلْمُلُوكِ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْكُبْرَى وَٱسْتَقَرَّ مَنْصِبُ ٱلْقَضَاءِ آخِرَ ٱلْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ ٱسْتِيفَاءَ بَعْضِ ٱلْحُقُوقِ ٱلْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ ٱلْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَجَانِينِ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ ٱلسَّفَهِ وَفِي وَصَايَا ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ ٱلْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ ٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيِ مَن رَآهُ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلْأَبْنِيَةِ وَتَصَفُّحِ ٱلشُّهُودِ وَٱلْأُمَنَاءِ وَٱلنُّوَّابِ وَٱسْتِيفَاءِ

ٱلعِلْمِ وَٱلخِبْرَةِ فِيهِمْ بِٱلعَدَالَةِ وَٱلجَرْحِ لِيَحْصُلَ لَهُ ٱلوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هٰذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ وَظِيفَتِهِ وَتَوَابِعِ وِلَايَتِهِ وَقَدْ كَانَ ٱلخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلقَاضِي ٱلنَّظَرَ فِي ٱلمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ ٱلسَّلْطَنَةِ وَنَصَفَةِ ٱلقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ ٱلظَّالِمَ مِنَ ٱلخَصْمَيْنِ وَتَزْجُرُ ٱلمُتَعَدِّيَ وَكَأَنَّهُ يُمْضِي مَا عَجَزَ ٱلقُضَاةُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي ٱلبَيِّنَاتِ وَٱلتَّقْرِيرِ وَٱعْتِمَادِ ٱلأَمَارَاتِ وَٱلقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ ٱلحُكْمِ إِلَى ٱسْتِجْلَاءِ ٱلحَقِّ وَحَمْلِ ٱلخَصْمَيْنِ عَلَى ٱلصُّلْحِ وَٱسْتِحْلَافِ ٱلشُّهُودِ وَذٰلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ ٱلقَاضِي * وَكَانَ ٱلخُلَفَاءُ ٱلأَوَّلُونَ يُبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ ٱلمُهْتَدِي مِنْ بَنِي ٱلعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقُضَاتِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي إِدْرِيسَ ٱلخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ ٱلمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَٱلمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلقَاضِي قِيَادَةَ ٱلجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ ٱلطَّوَائِفِ وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ ٱلمَأْمُونِ بِٱلطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ ٱلرُّومِ وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوْلِيَةُ هٰذِهِ ٱلوَظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذٰلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضاً ٱلنَّظَرُ فِي ٱلجَرَائِمِ وَإِقَامَةِ ٱلحُدُودِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ وَٱلأُمَوِيَّةِ بِٱلأَنْدَلُسِ وَٱلعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلمَغْرِبِ رَاجِعاً إِلَى صَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ ٱلوَظَائِفِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلدُّوَلِ تَوَسَّعَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ ٱلقَضَاءِ قَلِيلاً فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي ٱلحُكْمِ مَجَالاً وَيَفْرِضُ ٱلعُقُوبَاتِ ٱلزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ ٱلجَرَائِمِ وَيُقِيمُ ٱلحُدُودَ ٱلثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي ٱلقَوَدِ وَٱلقِصَاصِ وَيُقِيمُ ٱلتَّعْزِيرَ وَٱلتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ ٱلجَرِيمَةِ ثُمَّ تُنُوسِيَ شَأْنُ هَاتَيْنِ ٱلوَظِيفَتَيْنِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تُنُوسِيَ فِيهَا أَمْرُ ٱلخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ ٱلمَظَالِمِ رَاجِعاً إِلَى ٱلسُّلْطَانِ كَانَ لَهُ تَفْوِيضٌ مِنَ ٱلخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَٱنْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ ٱلشُّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ ٱلتُّهْمَةِ عَلَى ٱلجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ ٱلقَطْعِ وَٱلقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجَبِ ٱلسِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ ٱلأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِٱسْمِ ٱلوَالِي وَتَارَةً بِٱسْمِ ٱلشُّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ ٱلتَّعَازِيرِ وَإِقَامَةِ ٱلحُدُودِ فِي ٱلجَرَائِمِ ٱلثَّابِتَةِ شَرْعاً فَجُمِعَ ذٰلِكَ لِلقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ

ذلكَ مِنْ تَوابعِ وَظيفَةِ وِلايَتِهِ وَٱسْتَقَرَّ ٱلأَمْرُ لِهَذَا ٱلعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هٰذِهِ ٱلوَظِيفَةُ عَنْ أَهلِ عَصَبِيَّةِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّ ٱلأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلافَةً دِينِيَّةً وَهٰذِهِ ٱلخُطَّةُ مِن مَرَاسِمِ ٱلدِّينِ فَكَانُوا لا يُوَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ ٱلعَرَبِ وَمَوالِيهِمْ بِٱلحِلْفِ أَوْ بِٱلرِّقِّ أَوْ بِٱلاصْطِناعِ مِمَّنْ يُوثَقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ غَنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ * وَلَمَّا ٱنْقَرَضَ شَأْنُ ٱلخِلافَةِ وَطَوْرُهَا وَصَارَ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكاً أَوْ سُلْطَاناً صَارَتْ هٰذِهِ ٱلخُطَطُ ٱلدِّينِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَلْقَابِ ٱلمُلْكِ وَلا مَرَاسِمِهِ ثُمَّ خَرَجَ ٱلأَمْرُ جُمْلَةً مِنَ ٱلعَرَبِ وَصَارَ ٱلمُلْكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَٱلبَرْبَرِ فَٱزْدَادَتْ هٰذِهِ ٱلخُطَطُ ٱلخِلافِيَّةُ بُعْداً عَنْهُمْ بِمَنْحَاهَا وَعَصَبِيَّتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ ٱلعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ وَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نِحْلَتُهُمْ بَيْنَ ٱلأُمَمِ وَطَرِيقُهُمْ وَغَيْرُهُمْ لا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوَلُّونَهَا جَانِباً مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِٱلمِلَّةِ فَقَطْ فَصَارُوا يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عِصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دُوَلِ ٱلخُلَفَاءِ ٱلسَّالِفَةِ وَكَانَ أُولٰئِكَ ٱلمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرَفُ ٱلدُّوَلِ مُنْذُ مِئِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ ٱلبَدَاوَةِ وَخُشُونَتَهَا وَٱلتَبَسُوا بِٱلحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرَفِهِمْ وَدَعَتِهِمْ وَقِلَّةِ ٱلمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَارَتْ هٰذِهِ ٱلخُطَطُ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ ٱلخُلَفَاءِ مُخْتَصَّةً بِهَذَا ٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهلِ ٱلأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ ٱلعِزِّ لِفَقْدِ ٱلأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلحَضَارَةِ فَلَحِقَهُمْ مِنَ ٱلاحْتِقَارِ مَا لَحِقَ ٱلحَضَرَ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ ٱلبُعَدَاءَ عَن عَصَبِيَّةِ ٱلمُلْكِ ٱلَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى ٱلحَامِيَةِ وَصَارَ ٱعْتِبَارُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِٱلمِلَّةِ وَأَخْذِهَا بِأَحْكَامِ ٱلشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمُ ٱلحَامِلُونَ لِلأَحْكَامِ ٱلمُقْتَدُونَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ إِيثَارُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَاماً لِذَوَاتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يُتَلَمَّحُ مِنَ ٱلتَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ ٱلمُلْكِ لِتَعْظِيمِ ٱلرُّتَبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ شَيْءٌ وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لا حَقِيقَةَ وَرَاءَهُ إِذْ حَقِيقَةُ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهلِ ٱلقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَمَنْ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلا حَلَّ لَهُ وَلا عَقْدَ لَدَيْهِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَخْذَ ٱلأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ عَنْهُمْ وَتَلَقِّي ٱلفَتَاوَى مِنْهُمْ فَنَعَمْ وَٱللهُ ٱلمُوَفِّقُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ ٱلمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ ٱلفُقَهَاءِ وَٱلقُضَاةِ مِنَ ٱلشُّورَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلأَنْبِيَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّ

ذلكَ لَيسَ كَمَا ظَنَّهُ وَحُكمُ ٱلْمَلِكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيداً عَنِ ٱلسِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ فِي هٰؤلاءِ لا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشُّورَى وَٱلْحَلَّ وَٱلْعَقْدَ لا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصَبِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلٍّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ وَأَمَّا مَنْ لا عَصَبِيَّةَ لَهُ وَلا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلا مِنْ حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي ٱلشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنًى يَدْعُو إِلَى ٱعْتِبَارِهِ فِيهَا ٱللّٰهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي ٱلِاسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً وَأَمَّا شُورَاهُ فِي ٱلسِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِفُقْدَانِهِ ٱلْعَصَبِيَّةَ وَٱلْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ ٱلشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ ٱلِاعْتِقَادِ فِي ٱلدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ ٱنْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْفُقَهَاءَ فِي ٱلْأَغْلَبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَمَا ٱحْتَفَّ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا ٱلشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ ٱلْأَعْمَالِ فِي ٱلْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ ٱلْقَضَاءِ فِي ٱلْمُعَامَلاتِ يَنُصُّونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَمَلِ بِهَا هٰذِهِ غَايَةُ أَكَابِرِهِمْ وَلا يَتَّصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقَلِّ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلسَّلَفُ رِضْوَانُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ ٱلدِّينِ وَٱلْوَرَعِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا ٱلشَّرِيعَةَ ٱتِّصَافاً بِهَا وَتَحَقُّقاً بِمَذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا ٱتِّصَافاً وَتَحَقُّقاً دُونَ نَقْلٍ فَهُوَ مِنَ ٱلْوَارِثِينَ مِثْلُ أَهْلِ رِسَالَةِ ٱلْقُشَيْرِيِّ وَمَنِ ٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْأَمْرَانِ فَهُوَ ٱلْعَالِمُ وَهُوَ ٱلْوَارِثُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مِثْلُ فُقَهَاءِ ٱلتَّابِعِينَ وَٱلسَّلَفِ وَٱلْأَئِمَّةِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَمَنِ ٱقْتَفَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْأُمَّةِ بِأَحَدِ ٱلْأَمْرَيْنِ فَٱلْعَابِدُ أَحَقُّ بِٱلْوِرَاثَةِ مِنَ ٱلْفَقِيهِ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ ٱلْعَابِدَ وَرِثَ بِصِفَةٍ وَٱلْفَقِيهُ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ شَيْئاً إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنُصُّهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ ٱلْعَمَلِ وَهٰؤلاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ عَصْرِنَا إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَصْرِيفِهِ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ ٱلْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ ٱلْقَاضِي بِٱلشَّهَادَةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحَمُّلاً عِنْدَ ٱلْإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ ٱلتَّنَازُعِ وَكَتْباً فِي ٱلسِّجِلَّاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ ٱلنَّاسِ وَأَمْلاكُهُمْ وَدُيُونُهُمْ وَسَائِرُ مُعَامَلاتِهِمْ وَشَرْطُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ ٱلِاتِّصَافُ بِٱلْعَدَالَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلْبَرَاءَةُ مِنَ ٱلْجَرْحِ ثُمَّ ٱلْقِيَامُ بِكَتْبِ ٱلسِّجِلَّاتِ وَٱلْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَٱنْتِظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ

جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران [1] على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم

الحسبة والسكة

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشيء اه

يتزّهُ ٱلقاضي عنها لعمومها وسُهولةِ أغراضها فتُدفعُ إلى صاحبِ هذهِ ٱلوظيفةِ ليقومُ بها فوضُعُها على ذلكَ أنْ تكونَ خادمةً لمنصبِ ٱلقضاءِ وقدْ كانتْ في كثيرٍ منَ ٱلدُّوَل ٱلإسلاميّةِ مثل ٱلعُبيديّينَ بمصرَ وٱلمغربِ وٱلأمويّينَ بٱلأندلُسِ داخلةً في عُمومِ ولايةِ ٱلقاضي يُوَلّي فيها بٱختيارِهِ ثُمَّ لمّا ٱنفردتْ وظيفةُ ٱلسُّلطانِ عنِ ٱلخلافةِ صارَ نظرُهُ عامًّا في أُمورِ ٱلسّياسةِ ٱندرجتْ في وظائفِ ٱلمُلكِ وأُفردتْ بٱلولايةِ .

وأمّا ٱلسّكّةُ فهيَ ٱلنّظرُ في ٱلنّقودِ ٱلمُتعاملِ بها بينَ ٱلنّاسِ وحفظُها ممّا يُداخلُها منَ ٱلغشِّ أوِ ٱلنّقصِ إنْ كانَ يُتعاملُ بها عددًا أوْ ما يتعلّقُ بذلكَ ويُوصلُ إليهِ منْ جميعِ ٱلٱعتباراتِ ثُمَّ في وضعِ علامةِ ٱلسُّلطانِ على تلكَ ٱلنّقودِ بٱلٱستجادةِ وٱلخلوصِ برسمِ تلكَ ٱلعلامةِ فيها منْ خاتمِ حديدٍ ٱتُّخذَ لذلكَ ونُقشَ فيهِ نقوشٌ خاصّةٌ بهِ فيُوضعُ على ٱلدّينارِ بعدَ أنْ يُقدَّرَ ويُضربُ عليهِ بٱلمطرقةِ حتّى تُرسمَ فيهِ تلكَ ٱلنّقوشُ وتكونُ علامةً على جودتِهِ بحسبِ ٱلغايةِ ٱلّتي وقفَ عندها ٱلسّبكُ وٱلتّخليصُ في مُتعارفِ أهلِ ٱلقُطرِ ومذاهبِ ٱلدّولةِ ٱلحاكمةِ فإنَّ ٱلسّبكَ وٱلتّخليصَ في ٱلنّقودِ لا يقفُ عندَ غايةٍ وإنّما ترجعُ غايتُهُ إلى ٱلٱجتهادِ فإذا وقفَ أهلُ أُفقٍ أوْ قُطرٍ على غايةٍ منَ ٱلتّخليصِ وقفوا عندها وسمَّوها إمامًا وعيارًا يعتبرونَ بهِ نقودَهُمْ وينتقدونها بمُماثلتِهِ فإنْ نقصَ عنْ ذلكَ كانَ زيفًا وٱلنّظرُ في ذلكَ كلِّهِ لصاحبِ هذهِ ٱلوظيفةِ وهيَ دينيّةٌ بهذا ٱلٱعتبارِ فتندرجُ تحتَ ٱلخلافةِ وقدْ كانتْ تندرجُ في عُمومِ ولايةِ ٱلقاضي ثُمَّ أُفردتْ لهذا ٱلعهدِ كما وقعَ في ٱلحسبةِ هذا آخرُ ٱلكلامِ في ٱلوظائفِ ٱلخلافيّةِ وبقيتْ منها وظائفُ ذهبتْ بذهابِ ما يُنظرُ فيهِ وأُخرى صارتْ سُلطانيّةً فوظيفةُ ٱلإمارةِ وٱلوزارةِ وٱلحربِ وٱلخراجِ صارتْ سُلطانيّةً نتكلّمُ عليها في أماكنِها بعدَ وظيفةِ ٱلجهادِ ووظيفةُ ٱلجهادِ بطلتْ ببُطلانِهِ إلّا في قليلٍ منَ ٱلدّولِ يُمارسونَهُ ويُدرجونَ أحكامَهُ غالبًا في ٱلسُّلطانيّاتِ وكذا نقابةُ ٱلأنسابِ ٱلّتي يُتوصّلُ بها إلى ٱلخلافةِ أوِ ٱلحقِّ في بيتِ ٱلمالِ قدْ بطلتْ لدُثورِ ٱلخلافةِ ورسومِها وبٱلجملةِ قدِ ٱندرجتْ رسومُ ٱلخلافةِ ووظائفُها في رسومِ ٱلمُلكِ وٱلسّياسةِ في سائرِ ٱلدُّولِ لهذا ٱلعهدِ وٱللهُ مُصرّفُ ٱلأُمورِ كيفَ يشاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُم وَسَائِرُ ٱلْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرِ عَلَى ذٰلِكَ إِلى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويِعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّهُمْ ٱسْتَثْقَلُوا هٰذَا ٱللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِماً إِلى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْهُجْنَةِ وَيَذْهَبَ مِنْهُ ٱلتَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ ٱلْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هٰذَا ٱللَّقَبِ إِلى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلَهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ ٱلْبُعُوثِ بِٱسْمِ ٱلْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ ٱلْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ ٱلْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ ٱلْحِجَازِ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ أَيْضاً يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَٱتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱسْتَحْسَنَهُ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذٰلِكَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ وَٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِٱلْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ ٱلْبُعُوثِ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَٱسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا أَصَبْتَ وَٱللهِ ٱسْمَهُ إِنَّهُ وَٱللهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَقّاً فَدَعَوْهُ بِذٰلِكَ وَذَهَبَ لَقَباً لَهُ فِي ٱلنَّاسِ وَتَوَارَثَهُ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لا يُشَارِكُهُم فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ثُمَّ إِنَّ ٱلشِّيعَةَ خَصُّوا عَلِيّاً بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ نَعْتاً لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ ٱلَّتِي هِيَ أُخْتُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَعْرِيضاً بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ ٱلصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَبِدْعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهٰذَا ٱللَّقَبِ وَلِمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ ٱلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمَّوْنَ بِٱلْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي ٱلْخَفَاءِ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُحَوِّلُونَ ٱللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ بِٱلْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي جَهَرُوا بِٱلدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا ٱلرَّايَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دُعِيَ أَخُوهُ ٱلسَّفَّاحُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيَةَ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ بِٱلْإِمَامِ حَتَّى

ٱنتَهَى ٱلأَمْرُ إلى عُبَيدِ ٱللهِ ٱلمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيضاً يَدْعُونَهُ بِٱلإمَامِ وَلِٱبْنِهِ أَبي ٱلقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا ٱسْتَوْثَقَ لَهُمُ ٱلأَمْرُ دُعُوا مِنْ بَعْدِهَا بِأَمِيرِ ٱلمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلأَدَارِسَةُ بِٱلمَغْرِبِ كَانُوا يُلَقِّبُونَ أَدْرِيسَ بِٱلإمَامِ وَٱبْنَهُ أَدْرِيسَ ٱلأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُم وَتَوَارَثَ ٱلخُلَفَاءُ هٰذَا ٱللَّقَبَ بِأَمِيرِ ٱلمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ ٱلحِجَازَ وَٱلشَّامَ وَٱلعِرَاقَ وَٱلمَوَاطِنَ ٱلَّتِي هِيَ دِيَارُ ٱلعَرَبِ وَمَرَاكِزُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَهْلُ ٱلمِلَّةِ وَٱلفَتْحِ وَٱزْدَادَ لِذَلِكَ فِي عُنْفُوَانِ ٱلدَّوْلَةِ وَبَذْخِهَا لَقَبٌ آخَرُ لِلخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي أَمِيرِ ٱلمُؤْمِنِينَ مِنَ ٱلِاشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَٱسْتَحْدَثَ لِذَلِكَ بَنُو ٱلعَبَّاسِ حِجَاباً لِأَسْمَائِهِم ٱلأَعْلَامِ عَنِ ٱمْتِهَانِهَا فِي أَلْسِنَةِ ٱلسُّوقَةِ وَصَوْناً لَهَا عَنِ ٱلِابْتِذَالِ فَتَلَقَّبُوا بِٱلسَّفَّاحِ وَٱلمَنْصُورِ وَٱلمَهْدِيِّ وَٱلهَادِي وَٱلرَّشِيدِ إلى آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱقْتَفَى أَثَرَهُمْ فِي ذَلِكَ ٱلعُبَيْدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِٱلمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ ٱلغَضَاضَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ لِأَنَّ ٱلعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تُفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ ٱلبِدَاوَةِ إلى شِعَارِ ٱلحَضَارَةِ وَأَمَّا بِٱلأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلَفِهِمْ مَعَ مَا عَلِمُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِٱلقُصُورِ عَنْ مُلْكِ ٱلحِجَازِ أَصْلِ ٱلعَرَبِ وَٱلمِلَّةِ وَٱلبُعْدِ عَنْ دَارِ ٱلخِلَافَةِ ٱلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ ٱلعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ ٱلقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي ٱلعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلُ ٱلآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلنَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلأَمِيرِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمَّدِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلأَوْسَطِ لِأَوَّلِ ٱلمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ وَٱشْتَهَرَ مَا نَالَ ٱلخِلَافَةَ بِٱلمَشْرِقِ مِنَ ٱلحَجْرِ وَٱسْتِبْدَادِ ٱلمَوَالِي وَعَيْثِهِمْ فِي ٱلخُلَفَاءِ بِٱلعَزْلِ وَٱلِاسْتِبْدَالِ وَٱلقَتْلِ وَٱلسَّمْلِ ذَهَبَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ هٰذَا إلى مِثْلِ مَذَاهِبِ ٱلخُلَفَاءِ بِٱلمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ ٱلمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ وَأُخِذَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةً وَمَذْهَبٌ لُقِّنَ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلحَالُ عَلَى ذَلِكَ إلى أَنِ ٱنْقَرَضَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلعَرَبِ أَجْمَعَ وَذَهَبَ رَسْمُ ٱلخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ ٱلمَوَالِي مِنَ ٱلعَجَمِ عَلَى بَنِي ٱلعَبَّاسِ وَٱلصَّنَائِعِ عَلَى ٱلعُبَيْدِيِّينَ بِٱلقَاهِرَةِ وَصِنْهَاجَةُ عَلَى أُمَرَاءِ أَفْرِيقِيَّةَ وَزَنَاتَةُ عَلَى ٱلمَغْرِبِ وَمُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱقْتَسَمُوهُ وَٱفْتَرَقَ أَمْرُ ٱلإِسْلَامِ فَٱخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ ٱلمُلُوكِ بِٱلمَغْرِبِ وَٱلمَشْرِقِ فِي ٱلِاخْتِصَاصِ بِٱلأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعاً بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ . فَأَمَّا مُلُوكُ ٱلمَشْرِقِ مِنَ ٱلعَجَمِ فَكَانَ ٱلخُلَفَاءُ يَخُصُّونَهُمْ بِأَلْقَابِ

تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور وزيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين . وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا عن الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه يا أمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً فاتخذها لقباً ويقال إنه كان دعي له بأمير

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدَباً مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَابِطُونَ مِنِ انْتِحَالِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ آخِذاً بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تَعْرِيضاً بِذَلِكَ النَّكِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ فَسُمِّيَ الْإِمَامَ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلاً مِنْ مَذْهَبِ الشِّيعَةِ فِي أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأُرْدِفَ بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخْذاً بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشِّيعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَآلُ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمُ اسْتِئْثَاراً بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لِانْتِفَاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ الْبَدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ وَأَتْبَاعِ لَمْتُونَةَ فِي انْتِحَالِ اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدَباً مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوَّلاً وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ اسْتِبْلَاغاً فِي مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَتَتْمِيماً لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمْ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالنَّوْعُ الْإِنْسَانِيُّ أَيْضاً بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ وَالْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعاً لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ الْكَافَّةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعاً أَوْ

كَوْنُهَا اتُّخِذَتْ فِيهَا الْخِلافَةُ وَالْمُلْكُ لِتَوَجُّهِ الشَّوْكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعاً وَأَمَّا ما سِوَى الْمِلَّةِ الْإِسْلامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُم عَامَّةً وَلا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعاً إِلَّا فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلِأَمْرٍ غَيْرِ دِينِيٍّ وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالطَّبْعِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى الْأُمَمِ كَمَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ وَلِذَلِكَ بَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لا يَعْتَنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ إِنَّمَا هَمُّهُمْ إِقَامَةُ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ بَيْنَهُمْ يُسَمَّى الْكُوهِنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ الصَّلاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَشْتَرِطُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُعْقِبْ ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبْعِ سَبْعِينَ شَيْخاً كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ وَالْكُوهِنُ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتْبَةً فِي الدِّينِ وَأَبْعَدُ عَنْ شَغَبِ الْأَحْكَامِ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ إِلَى أَنِ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَتَمَحَّضَتِ الشَّوْكَةُ لِلْمُلْكِ فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَوْرَثَهُمُ اللهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا كَمَا بُيِّنَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ فَحَارَبَتْهُمْ أُمَمُ الْفِلِسْطِينِ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرْمَنِ وَأَرْدُنَّ وَعَمَّانَ وَمَارِبَ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَى شُيُوخِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمُلْكِ وَضَجِرَ بَنُو طَالُوتَ وَغَلَبَ الْأُمَمَ وَقَتَلَ جَالُوتَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَامْتَدَّ إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلادِ الرُّومِ ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ سُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشَرَةِ وَالْأُخْرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا وَبِنْيَامِينَ ثُمَّ غَلَبَهُمْ بُخْتُنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَوَّلاً الْأَسْبَاطَ الْعَشَرَةَ ثُمَّ ثَانِياً بَنِي يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ

خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة

ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الإمام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الإنجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الإبريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبوغالمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قسا على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيروه أصلا يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن

ٱلْبَطْرَكَ ٱلْقَائِمَ بِٱلدِّينِ لَا يُرْجَعُ فِي تَعْيِينِهِ إِلَى ٱجْتِهَادِ ٱلْأَقِسَّةِ كَمَا قَرَّرَهُ حَنَانِيَا تِلْمِيذ مرقاس وَأَبْطَلُوا ذَٰلِكَ ٱلرَّأْيَ وَإِنَّمَا يُقَدَّمُ عَنْ بَلَاءٍ وَٱخْتِيَارٍ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرُؤَسَائِهِمْ فَبَقِيَ ٱلْأَمْرُ كَذَٰلِكَ ثُمَّ ٱخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي تَقْرِيرِ قَوَاعِدِ ٱلدِّينِ وَكَانَتْ لَهُمْ مُجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هَٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةِ فَبَقِيَ ٱلْأَمْرُ فِيهَا عَلَى ذَٰلِكَ وَٱتَّصَل فِيهِمْ نِيَابَةُ ٱلْأَسَاقِفَةِ عَنِ ٱلْبَطَارِكَةِ وَكَانَ ٱلْأَسَاقِفَةُ يَدْعُونَ ٱلْبَطْرَكَ بِٱلْأَبِ أَيْضاً تَعْظِيماً لَهُ فَٱشْتَبَهَ ٱلِٱسْمُ فِي أَعْصَارٍ مُتَطَاوِلَةٍ يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرَكِيَّةُ هِرَقْلَ بِإِسْكَنْدَرِيَّة فَأَرَادُوا أَنْ يُمَيِّزُوا ٱلْبَطْرَكَ عَنِ ٱلْأُسْقُفِ فِي ٱلتَّعْظِيمِ فَدَعَوْهُ ٱلْبَابَا وَمَعْنَاهُ أَبُو ٱلْآبَاءِ وَظَهَرَ هَٰذَا ٱلِٱسْمُ أَوَّلَ ظُهُورِهِ بِمِصْرَ عَلَى مَا زَعَمَ جِرْجِيسُ بْنُ ٱلْعَمِيدِ فِي تَأْرِيخِهِ ثُمَّ نَقَلُوهُ إِلَى صَاحِبِ ٱلْكُرْسِيِّ ٱلْأَعْظَمِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ كُرْسِيُّ بِطْرُسَ ٱلرَّسُولِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى ٱلْآنَ ثُمَّ ٱخْتَلَفَتِ ٱلنَّصَارَى فِي دِينِهِمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ وَفِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي ٱلْمَسِيحِ وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرَقاً وَٱسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ كُلٌّ عَلَى صَاحِبِهِ فَٱخْتَلَفَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنِ ٱسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ هِيَ فِرَقُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهُمُ ٱلْمَلْكِيَّةُ وَٱلْيَعْقُوبِيَّةُ وَٱلنَّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ ٱخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرَكٍ فَبَطْرَكُ رُومَةَ ٱلْيَوْمَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْبَابَا عَلَى رَأْيِ ٱلْمَلْكِيَّةِ وَرُومَةُ لِلْإِفْرَنْجَةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِتِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ وَبَطْرَكُ ٱلْمُعَاهِدِينَ بِمِصْر عَلَى رَأْيِ ٱلْيَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَٱلْحَبَشَةُ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرَكِ مِصْر فِيهِمْ أَسَاقِفَةٌ يَنُوبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلْبَابَا بِبَطْرَكِ رُومَة لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا تُسَمِّي ٱلْيَعَاقِبَةُ بَطْرَكَهُمْ بِهَٰذَا ٱلِٱسْمِ وَضَبْطُ هَٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ بِبَاءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ مِنْ أَسْفَلُ وَٱلنُّطْقُ بِهَا مُفَخَّمَةٌ وَٱلثَّانِيَةُ مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ ٱلْبَابَا عِنْدَ ٱلْإِفْرَنْجَةِ أَنَّهُ يَحُضُّهُمْ عَلَى ٱلِٱنْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي ٱخْتِلَافِهِمْ وَٱجْتِمَاعِهِمْ تَحَرُّجاً مِنِ ٱفْتِرَاقِ ٱلْكَلِمَةِ وَيَتَحَرَّى بِهِ ٱلْعَصَبِيَّةَ ٱلَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْإِنْبَرَذُورَ (١) وَحَرْفُهُ ٱلْوَسَطُ بَيْنَ ٱلذَّالِ وَٱلظَّاءِ ٱلْمُعْجَمَتَيْنِ وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ ٱلتَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ فَيُسَمَّى ٱلْمُتَوَّجَ وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ ٱلْإِنْبَرَذُورِ وَهَٰذَا

(١) المشهور قديماً إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول إمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابها

إعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه [1] فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سابلتهم وإلى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذراً من التطفيف وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش وإلى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضى بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الأشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب الرجال ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فتتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفترق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والإقطاعات وإلى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب

---

(١) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم

وَصَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَصَاحِبِ ٱلْبَرِيدِ وَوِلَايَةِ ٱلثُّغُورِ ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوَظَائِفَ ٱلسُّلْطَانِيَّةَ فِي هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ لِٱشْتِمَالِ مَنْصِبِ ٱلْخِلَافَةِ عَلَى ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْأَحْكَامُ ٱلشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ ٱلْحُكْمِ ٱلشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَٱلْفَقِيهُ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا ٱسْتِبْدَاداً عَلَى ٱلْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَعْوِيضاً مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى ٱلْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْأَمْوَالِ وَسَائِرِ ٱلسِّيَاسَاتِ مُطْلَقاً أَوْ مُقَيَّداً وَفِي مُوجِبَاتِ ٱلْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَعَانِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جِبَايَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنِ ٱنْسِحَابِ حُكْمِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَوُجُودِ ٱلْبَشَرِ لَا بِمَا يَخُصُّهَا مِنْ أَحْكَامِ ٱلشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ ٱسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَالِكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذٰلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ

الوزارة * وَهِيَ أُمُّ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرُّتَبِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ ٱسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ ٱلْإِعَانَةِ فَإِنَّ ٱلْوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ ٱلْمُؤَازَرَةِ وَهِيَ ٱلْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ ٱلْوِزْرِ وَهُوَ ٱلثِّقْلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مُفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْمُعَاوَنَةِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ ٱلْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلسُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجُنْدِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هٰذَا هُوَ ٱلْوَزِيرُ ٱلْمُتَعَارَفُ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْقَدِيمَةِ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ فِي

أمور جباية المال وإنفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضطلع وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها يرجع إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر وأما حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده وكان قليلاً فيهم وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة

يستنيب في كتابته متى عنّ له من يحسنه وأمّا مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه فلمّا انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أوّل شيء بُدِئَ به في الدولة شأن الباب وسدّه دون الجمهور بما كانوا يخشون عن أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعليّ ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمّات فاتّخذوا من يقوم لهم بذلك وسمّوه الحاجب وقد جاء أنّ عبد الملك لمّا ولّى حاجبه قال له قد ولّيتك حجابة بابي إلّا عن ثلاثة المؤذّن للصلاة فإنّه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلّا يفسد ثمّ استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذمّيّين واتّخذ للسجلّات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنّه إنّما احتيج له من حيث الخطّ والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائر دولة بني أميّة فكان النظر للوزير عامّاً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهليّة وغير ذلك فلمّا جاءت دولة بني العبّاس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحلّ والعقد تعيّنت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطّته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه ثمّ جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلّات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطّتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتّى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيّام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانيّة كلّها إلّا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثمّ جاء في

ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ ٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَتَعَاوَرَ فِيهَا ٱسْتِبْدَادُ ٱلْوِزَارَةِ مَرَّةً وَٱلسُّلْطَانِ أُخْرَى وَصَارَ ٱلْوَزِيرُ إِذَا ٱسْتَبَدَّ مُحْتَاجاً إِلَى ٱسْتِنَابَةِ ٱلْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذَلِكَ لِتَصِحَّ ٱلْأَحْكَامُ ٱلشَّرْعِيَّةُ وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَتْ فَٱنْقَسَمَتِ ٱلْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وِزَارَةِ تَنْفِيذٍ وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ ٱلسُّلْطَانُ قَائِماً عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى وِزَارَةِ تَفْوِيضٍ وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ ٱلْوَزِيرُ مُسْتَبِداً عَلَيْهِ ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ ٱلِاسْتِبْدَادُ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ لِمُلُوكِ ٱلْعَجَمِ وَتَعَطَّلَ رَسْمُ ٱلْخِلَافَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِأُولَئِكَ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا أَلْقَابَ ٱلْخِلَافَةِ وَٱسْتَنْكَفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ ٱلْوُزَرَاءِ فِي ٱللَّقَبِ لِأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِٱلْإِمَارَةِ وَٱلسُّلْطَانِ وَكَانَ ٱلْمُسْتَبِدُّ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُسَمَّى أَمِيرَ ٱلْأُمَرَاءِ أَوْ بِٱلسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحَلِّيهِ بِهِ ٱلْخَلِيفَةُ مِنْ أَلْقَابِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَلْقَابِهِمْ وَتَرَكُوا ٱسْمَ ٱلْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا ٱلشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ ٱللِّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ ٱلنَّاسِ فَٱمْتُهِنَتْ وَتَرَفَّعَ ٱلْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ وَلِأَنَّهُمْ عَجَمٌ وَلَيْسَتْ تِلْكَ ٱلْبَلَاغَةُ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنْ لِسَانِهِمْ فَتُخُيِّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ ٱلطَّبَقَاتِ وَٱخْتُصَّتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلْأَمِيرِ بِصَاحِبِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْجُنْدِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةٌ عَلَى أَهْلِ ٱلرُّتَبِ وَأَمْرُهُ نَافِذٌ فِي ٱلْكُلِّ إِمَّا نِيَابَةً أَوِ ٱسْتِبْدَاداً وَٱسْتَمَرَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى هَذَا ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ آخِراً بِمِصْرَ فَرَأَوْا أَنَّ ٱلْوِزَارَةَ قَدِ ٱبْتُذِلَتْ بِتَرَفُّعِ أُولَئِكَ عَنْهَا وَدَفْعِهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمَحْجُورِ وَنَظَرُهُ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَقَّبٌ بِنَظَرِ ٱلْأَمِيرِ فَصَارَتْ مَرْؤُوسَةً نَاقِصَةً فَٱسْتَنْكَفَ أَهْلُ هَذِهِ ٱلرُّتْبَةِ ٱلْعَالِيَةِ فِي ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱسْمِ ٱلْوِزَارَةِ وَصَارَ صَاحِبُ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجُنْدِ يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱلنَّائِبِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَبَقِيَ ٱسْمُ ٱلْحَاجِبِ فِي مَدْلُولِهِ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجِبَايَةِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَأَنِفُوا ٱسْمَ ٱلْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أَصْنَافاً وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيراً فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ ٱلْمَالِ وَزِيراً وَلِلتَّرْسِيلِ وَزِيراً وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ ٱلْمُتَظَلِّمِينَ وَزِيراً وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ ٱلثُّغُورِ وَزِيراً وَجَعَلَ لَهُمْ بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فُرُشٍ مُنَضَّدَةٍ لَهُمْ وَيُنَفِّذُونَ أَمْرَ ٱلسُّلْطَانِ هُنَاكَ كُلٌّ فِيمَا جُعِلَ لَهُ وَأُفْرِدَ لِلتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمُ ٱرْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةِ ٱلسُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَٱرْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ

مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية والحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الأمور لمن يشاء

(الحجابة) * قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يوماً عن الخطط مرؤوسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم غاية رفيعة كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين

يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين عن جمعه لخطتي السيف والقلم ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ * وأما بنو أبي حفص بأفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً والتقدم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر

وَٱلِاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ ٱلْحِجَابَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ سُلَّماً إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ ٱسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرِينَ فَلَا أَثَرَ لِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا رِئَاسَةُ ٱلْحَرْبِ وَٱلْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتْبَةُ ٱلْقَلَمِ فِي ٱلْحُسْبَانِ وَٱلرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنِ ٱخْتَصَّتْ بِبَعْضِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تُجْمَعُ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تُفَرَّقُ وَأَمَّا بَابُ ٱلسُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ ٱلْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِٱلْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ ٱلْمُقَدَّمُ عَلَى ٱلْجَنَادِرَةِ ٱلْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ ٱلسُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ ٱلْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَٱلْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ فَٱلْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ ٱلنَّاسِ بِٱلْوُقُوفِ عِنْدَ ٱلْحُدُودِ فِي دَارِ ٱلْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزِ ٱلْخُطَطِ لِبَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ مُنَفِّذَ ٱلْخَاصِّ بِٱلسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ ٱلْحُسْبَانَ وَٱلسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ تَقْلِيدُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبَعِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَٱلْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِٱلْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ حَالِ ٱلسُّلْطَانِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِٱلْوَكِيلِ وَأَمَّا ٱلْوَزِيرُ فَكَٱلْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ ٱلتَّرْسِيلُ وَٱلسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى ٱلسِّجِلَّاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ ٱلْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ فَٱسْمُ ٱلْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَهُمُ ٱلتُّرْكُ يُنَفِّذُ ٱلْأَحْكَامَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ ٱلنِّيَابَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْحُكْمُ فِي أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَفِي ٱلْعَامَّةِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ ٱلتَّوْلِيَةُ وَٱلْعَزْلُ فِي بَعْضِ ٱلْوَظَائِفِ عَلَى ٱلْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ ٱلْقَلِيلَ مِنَ ٱلْأَرْزَاقِ وَيَبُتُّهَا وَتُنَفَّذُ أَوَامِرُهُ كَمَا تُنَفَّذُ ٱلْمَرَاسِمُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ وَكَأَنَّ لَهُ ٱلنِّيَابَةَ ٱلْمُطْلَقَةَ عَنِ ٱلسُّلْطَانِ وَلِلْحُجَّابِ ٱلْحُكْمُ فَقَطْ فِي طَبَقَاتِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْجُنْدِ عِنْدَ ٱلتَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارِ مَنْ أَبَى ٱلِانْقِيَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ ٱلنِّيَابَةِ وَٱلْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِبَايَةِ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي ٱلْإِنْفَاقَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ

أَوِ ٱلْجِرَايَاتِ ٱلْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مع ذَٰلِكَ ٱلتَّوْلِيَةُ وَٱلْعَزْلُ فِي سَائِرِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لِهَٰذِهِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلتَّنْفِيذِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَٰذَا ٱلْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ ٱلْقِبْطِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَى دِيوَانِ ٱلْحُسْبَانِ وَٱلْجِبَايَةِ لِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذَٰلِكَ فِي مِصْرَ مُنْذُ عُصُورٍ قَدِيمَةٍ وَقَدْ يُولِّيهَا ٱلسُّلْطَانُ بَعْضَ ٱلْأَحْيَانِ لِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ ٱلدَّاعِيَةِ لِذَٰلِكَ وَٱللهُ مُدَبِّرُ ٱلْأُمُورِ وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبايات

إِعْلَمْ أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلضَّرُورِيَّةِ لِلْمُلْكِ وَهِيَ ٱلْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ ٱلْجِبَايَاتِ وَحِفْظُ حُقُوقِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءُ ٱلْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفِ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي إِبَّانَاتِهَا وَٱلرُّجُوعُ فِي ذَٰلِكَ إِلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلَّتِي يُرَتِّبُهَا قَوَمَةُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَقَهَارِمَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَٰلِكَ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ مَبْنِيٍّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ ٱلْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْمَهَرَةُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ بِٱلدِّيوَانِ وَكَذَٰلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هَٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كُتَّابِ دِيوَانِهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُمْ يُحَادِثُونَ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ مَجَانِينُ بِلُغَةِ ٱلْفُرْسِ فَسُمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذَٰلِكَ وَحُذِفَتِ ٱلْهَاءُ لِكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيوَانٌ ثُمَّ نُقِلَ هَٰذَا ٱلِٱسْمُ إِلَى كِتَابِ هَٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَٱلْحُسْبَانَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ ٱسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ سُمِّيَ ٱلْكُتَّابُ بِذَٰلِكَ لِسُرْعَةِ نُفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ ٱلْأُمُورِ وَوُقُوفِهِمْ عَلَى ٱلْجَلِيِّ مِنْهَا وَٱلْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَذَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَعَلَى هَٰذَا فَيَتَنَاوَلُ ٱسْمُ ٱلدِّيوَانِ كِتَابَ ٱلرَّسَائِلِ وَمَكَانَ جُلُوسِهِ بِبَابِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ وَقَدْ تُفْرَدُ هَٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ بِنَاظِرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ وَقَدْ يُفْرَدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَاظِرٍ كَمَا يُفْرَدُ فِي بَعْضِ ٱلدُّوَلِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ وَحُسْبَانِ أَعْطِيَاتِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذَٰلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُوهَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي ٱلدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ ٱلْغَلَبِ وَٱلِٱسْتِيلَاءِ وَٱلنَّظَرِ فِي أَعْطَافِ ٱلْمُلْكِ وَفُنُونِ ٱلتَّمْهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ ٱلدِّيوَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ

رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ فَٱسْتَكْثَرُوهُ وَتَعِبُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ ٱلْأَمْوَالِ وَضَبْطِ ٱلْعَطَاءِ وَٱلْحُقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ بِٱلدِّيوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ ٱلشَّامِ يُدَوِّنُونَ فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ ٱلْهُرْمُزَانُ لَمَّا رَآهُ يَبْعَثُ ٱلْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوَانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخَلَّ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبِطُ ذَلِكَ ٱلْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا وَسَأَلَ عُمَرُ عَنِ ٱسْمِ ٱلدِّيوَانِ فَعُبِّرَ لَهُ وَلَمَّا ٱجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ ٱبْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيوَانَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ ٱلْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا ٱلْأَقْرَبَ فَٱلْأَقْرَبَ هٰكَذَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ دِيوَانِ ٱلْجَيْشِ وَرَوَى ٱلزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ دِيوَانُ ٱلْعِرَاقِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ وَدِيوَانُ ٱلشَّامِ بِٱلرُّومِيَّةِ وَكُتَّابُ ٱلدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَٱسْتَحَالَ ٱلْأَمْرُ مُلْكًا وَٱنْتَقَلَ ٱلْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ ٱلْحَضَارَةِ وَمِنْ سَذَاجَةِ ٱلْأُمِّيَّةِ إِلَى حِذْقِ ٱلْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي ٱلْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ وَٱلْحُسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالِيَ ٱلْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ ٱلشَّامِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ٱبْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونُ كَاتِبُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ ٱلرُّومِ ٱطْلُبُوا ٱلْعَيْشَ فِي غَيْرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا ٱللهُ عَنْكُمْ . وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْعِرَاقِ فَأَمَرَ ٱلْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَارِسِيَّةِ وَلَقِنَ ذَلِكَ عَنْ زَاذَانَ فَرُّوخَ كَاتِبِ ٱلْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَاذَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلْأَشْعَثِ ٱسْتَخْلَفَ ٱلْحَجَّاجُ صَالِحًا هٰذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ ٱلدِّيوَانَ مِنَ ٱلْفَارِسِيَّةِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لِذَلِكَ كُتَّابُ ٱلْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلهِ دَرُّ صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِنَّتَهُ عَلَى ٱلْكُتَّابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكَ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِٱلْجَيْشِ أَوْ بَيْتِ ٱلْمَالِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَتَمْيِيزِ ٱلنَّوَاحِي بِٱلصُّلْحِ وَٱلْعَنْوَةِ وَفِي تَقْلِيدِ

هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها. ولما استبد بنو أبي حفص بأفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة. وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخارج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان. وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغة فتعين للنظر العام

منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمتولى من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص. هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإلصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم

بعلامة الرئيس عليه يستدلّ بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصيّة لمّا ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثمّ الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة إتباعاً لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه بذلك بخطّ يصنعه ويتخيّر له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختصّ السلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبدّاً بأمره قائماً على نفسه فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقّع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقّاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فإمّا أن تصدر كذلك وإمّا أن يحذو الكاتب على مثالها في سجلّ يكون بيد صاحب القصّة ويحتاج الموقّع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقّع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصّة إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتّى قيل إنّها كانت تباع كلّ قصّة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أنّ صاحب هذه الخطّة لا بدّ من أن يتخيّر أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فإنّه معرّض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلّق بالفضائل مع ما يضطرّ إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبيّة فيختصّ السلطان أهل عصبيّته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلّد المال والسيف والكتابة منهم فأمّا رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم وأمّا المال والكتابة فيضطرّ إلى ذلك البلاغة في هذه والحسبان في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلّدونه إلّا أنّه لا تكون يد آخر من أهل العصبيّة غالبة على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فإنّ الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلّا أنّه تحت يد أمير من أهل

عصبيّة الروم يعرف بالدّويدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب
أحواله إليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار
وغير ذلك من توابعها * وأمّا الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها
السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها
عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب وهي أمّا بعد حفظكم الله يا أهل
صناعة الكتابة وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم فإنّ الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد
الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرّمين
أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرّفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات
إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات
أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها
وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا
يوجد كافٍ إلّا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون
وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون فأمتعكم
الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم
وليس أحد من أهل الصناعات كلّها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال
الفضل المذكورة المعدودة منكم أيّها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا
الكتاب من صفتكم فإنّ الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق
به في مهمّات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم مقداماً
في موضع الإقدام محجماً في موضع الإحجام مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف
كتوماً للأسرار وفيّاً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها
والطوارق في أماكنها قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ
منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل
وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعدّ لكلّ أمر عدّته وعتاده ويهيّئ لكلّ وجه هيئته
وعادته فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب وتفقّهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب
الله عزّ وجلّ والفرائض ثمّ العربيّة فإنّها ثقاف ألسنتكم ثمّ أجيدوا الخطّ فإنّه حلية

كُتُبَكُمْ وَارْوُوا الأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيَرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ وَلَا تُضِيعُوا النَّظَرَ فِي الحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتَّابِ الخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ المَطَامِعِ سَنِيِّهَا وَدَنِيِّهَا وَسَفْسَافِ الأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكُتَّابِ وَنَزِّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَأُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السِّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالكِبْرَ وَالسُّخْفَ وَالعَظَمَةَ فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلَبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ الفَضْلِ وَالعَدْلِ وَالنُّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَآسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَداً مِنْكُمُ الكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنِ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفْهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَذَمَّةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَحْذَرِ السَّقْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالمَلَالَ عِنْدَ تَغَيُّرِ الحَالِ فَإِنَّ العَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى القُرَّاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكِتْمَانِ سِرِّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفِعَالِهِ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالِاضْطِرَارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعِرُوا ذَلِكَ وَفَّقَكُمُ اللهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ وَالحِرْمَانِ وَالمُوَاسَاةِ وَالإِحْسَانِ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَنِعْمَتِ الشِّيمَةُ هَذِهِ مَنْ وُسِمَ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صُيِّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤْثِرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقاً وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفاً فَإِنَّ الخَلْقَ عِيَالُ اللهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالعَدْلِ حَاكِماً وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِماً وَلِلْفَيْءِ مُوَفِّراً وَلِلْبِلَادِ عَامِراً وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفاً وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفاً وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعاً حَلِيماً وَفِي سِجِلَّاتِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْصَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقاً وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلاً فَلْيَخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الحُسْنِ وَاحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ القُبْحِ بِأَلْطَفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلِ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ البَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيراً بِسِيَاسَتِهَا

ٱلتَّمسَ مَعرِفَةَ أَخلاقِها فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحاً لَمْ يَهِجْها إِذَا رَكِبَها وَإِنْ كَانَتْ شَبُوباً ٱتَّقاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْها وَإِنْ خَافَ مِنْها شُرُوداً تَوَقَّاها مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِها وَإِنْ كَانَتْ حَرُوناً قَمَعَ بِرِفْقٍ هَوَاهَا فِي طُرُقِها فَإِنِ ٱسْتَمَرَّتْ عَطَفَها يَسِيراً فَيَسْلَسُ لَهُ قِيادُها وَفِي هٰذَا ٱلْوَصْفِ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ دَلائِلُ لِمَنْ سَاسَ ٱلنَّاسَ وَعَامَلَهُم وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَٱلْكَاتِبُ بِفَضْلِ أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُنَاظِرُهُ وَيَفْهَم عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ أَوْلَى بِٱلرِّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِ مِنْ سَائِسِ ٱلْبَهِيمَةِ ٱلَّتِي لا تُحِيرُ جَوَاباً وَلا تَعرِفُ صَوَاباً وَلا تَفْهَمُ خِطَاباً إِلَّا بِقَدَرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُها ٱلرَّاكِبُ عَلَيْهَا أَلا فَارْفُقُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ فِي ٱلنَّظَرِ وَٱعْمَلُوا مَا أَمْكَنَكُمْ فِيهِ مِنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ ٱللهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ ٱلنَّبْوَةَ وَٱلِاسْتِثْقَالَ وَٱلْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى ٱلْمُوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى ٱلْمُؤَاخَاةِ وَٱلشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ وَلَا يُجَاوِزَنَّ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ ٱللهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدَمَةٌ لا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى ٱلتَّقْصِيرِ وَحَفَظَةٌ لا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ ٱلتَّضْيِيعِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَٱسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِٱلْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ وَٱحْذَرُوا مَتَالِفَ ٱلسَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ ٱلتَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ ٱلْفَقْرَ وَيُذِلَّانِ ٱلرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسِيَّمَا ٱلْكُتَّابِ وَأَرْبَابِ ٱلْآدَابِ وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَٱسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ ثُمَّ ٱسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ ٱلتَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتْلِفَةً وَهُوَ ٱلْوَصْفُ ٱلشَّاغِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ فَلْيَقْصِدِ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ ٱلْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي ٱبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلْيَضْرَعْ إِلَى ٱللهِ فِي صِلَةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وُقُوعِهِ فِي ٱلْغَلَطِ ٱلْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ ٱلَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذٰلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِٱلْأُمُورِ وَأَحْمَلُ

لِعِبْءِ ٱلتَّدْبِيرِ مِنْ مُوَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ ٱلرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِٱلْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ ٱغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يُكَاثِرُ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ ٱللهِ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِٱلتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَٱلتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَٱلتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هٰذَا مَا سَبَقَ بِهِ ٱلْمَثَلُ مَنْ تَلْزَمُهُ ٱلنَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ ٱلْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ ٱلَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَٰلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ ٱلطَّلَبَةِ وَٱلْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ

(الشرطة) * وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ ٱلْحَاكِمَ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ ٱلْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ ٱلْوَالِي وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ ٱلْجَرَائِمِ فِي حَالِ ٱسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ ٱلْحُدُودَ بَعْدَ ٱسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ ٱلتُّهَمَ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي ٱلْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي ٱسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلسِّيَاسَةِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارٍ يُكْرِهُهُ عَلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ إِذَا ٱحْتَفَّتْ بِهِ ٱلْقَرَائِنُ لِمَا تُوجِبُهُ ٱلْمَصْلَحَةُ ٱلْعَامَّةُ فِي ذَٰلِكَ فَكَانَ ٱلَّذِي يَقُومُ بِهٰذَا ٱلِٱسْتِبْدَادِ وَبِٱسْتِيفَاءِ ٱلْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ ٱلشُّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلدِّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ ٱلْقَاضِي وَنَزَّهُوا هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ ٱلْقُوَّادِ وَعُظَمَاءَ ٱلْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ ٱلتَّنْفِيذِ فِي طَبَقَاتِ ٱلنَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى ٱلدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ ٱلرِّيَبِ وَٱلضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي ٱلرَّعَاعِ وَٱلْفَجَرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَنُوِّعَتْ إِلَى شُرْطَةٍ كُبْرَى وَشُرْطَةٍ صُغْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ ٱلْكُبْرَى عَلَى ٱلْخَاصَّةِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي ٱلظُّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ ٱلصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِٱلْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ ٱلْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِبَابِ دَارِ ٱلسُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤُونَ ٱلْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ

وِلاَيَتُهَا لِلْأَكَابِرِ مِنْ رِجَالاَتِ ٱلدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحاً لِلْوِزَارَةِ وَٱلْحِجَابَةِ

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ ٱلتَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً وَكَانَ لاَ يَلِيهَا إِلَّا رِجَالاَتُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ٱلتَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ ٱلْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ وِلاَيَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِينَ . وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فَوِلاَيَتُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ ٱصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ فِي رِجَالاَتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلتُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي ٱلنَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ ٱلصَّلاَبَةِ وَٱلْمَضَاءِ فِي ٱلْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ ٱلْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ ٱلدَّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ ٱلْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَٱللّٰهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَخُطَطِهَا فِي مُلْكِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَمَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عُرْفِهِمْ ٱلْبَلْمَنْدَ بِتَفْخِيمِ ٱللاَّمِ مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّهُ ٱسْمُهَا فِي ٱصْطِلاَحِ لُغَتِهِمْ وَإِنَّمَا ٱخْتَصَّتْ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةُ بِمُلْكِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعاً عَلَى ضِفَّةِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ بِلاَدُ ٱلْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى ٱلشَّامِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلشَّمَالِيَّةِ بِلاَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلرُّومِ إِلَى بِلاَدِ ٱلشَّامِ أَيْضاً وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ وَٱلْبَحْرَ ٱلشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدْوَتِهِ وَٱلسَّاكِنُونَ بِسِيفِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدْوَتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لاَ تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ ٱلْبِحَارِ فَقَدْ كَانَتِ ٱلرُّومُ وَٱلْإِفْرَنْجَةُ وَٱلْقُوطُ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي ٱلسُّفُنِ فَكَانُوا مَهَرَةً فِي رُكُوبِهِ وَٱلْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَّ مَنْ أَسَفَّ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ ٱلْعُدْوَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ ٱلرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْقُوطِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي ٱلْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى ٱلْبَرْبَرِ بِهَا وَٱنْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا ٱلْمُدُنُ ٱلْحَافِلَةُ مِثْلُ قَرْطَاجَنَّةَ وَسَبِيطَلَةَ وَجَلُولاَءَ وَمِرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَّةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ ٱلْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْعُدَدِ فَكَانَتْ هٰذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ

السَّاكِنِينَ حَفَافَيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفْ لِيَ الْبَحْرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عُودٍ فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مَنِ افْتَاتَ عَلَى عُمَرَ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ بَجِيلَةَ لَمَّا أَغْزَاهُ عُمَانَ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِبَدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهَرَةً فِي ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرَنُوا عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا الدِّرَايَةَ بِثِقَافَتِهِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَمُ الْعَجَمِ خَوَلاً لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ وَاسْتَخْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أُمَماً وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتُهُ وَاسْتَحْدَثُوا بُصَرَاءَ بِهَا فَشَرِهُوا إِلَى الْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا السُّفُنَ فِيهِ وَالشَّوَانِيَ وَشَحَنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسِّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ وَاخْتَصُّوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَثُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةٍ بِتُونِسَ لِإِنْشَاءِ الْآلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصاً عَلَى مَرَاسِمِ الْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ زِيَادَةِ اللهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفُتْيَا وَفَتْحُ قَوْصَرَةَ أَيْضاً فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ أَغْزَى صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السَّوَاحِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّخْرِيبِ وَانْتَهَى أُسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مِائَتَيْ مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا وَأُسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ دُمَاحِس وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِقْلَاعِ بِجَايَةَ وَالْمَرِيَّةَ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْمَمَالِكِ

مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ السُّفُنُ أَسْطُولٌ يُرْجِعُ نَظَرَهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ وَرَئِيسٌ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرْيَتِهِ بِالرِّيحِ أَوْ بِالْمَجَاذِيفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِغَزْوٍ مُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مُهِمٍّ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هٰذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ وَيَابِسَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَةَ وَقُوصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُسَ وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشِّيعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِيُّ صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سَرْدَانِيَةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِوَقْتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هٰذَا الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَةَ الى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ الْإِفْرَنْجِ وَتُثْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقِلِّيَةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَانْحَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَعْدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرِيَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَكْثَرَ مِنْ بَسِيطِ هٰذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَداً وَاخْتَلَفَتْ فِي طُرُقِهِ سِلْماً وَحَرْباً فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ الْعُبَيْدِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ وَطَرَقَهَا الْاعْتِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقِلِّيَةَ وَإِقْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّاءَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنَوْا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بني خزرون على طرابلس ثمّ على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثمّ ملكوا المهدية مقرّ ملوك العبيديّين من يد أعقاب بلكّين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرّة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشّام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدّولة العبيديّة عناية تجاوزت الحدّ كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصّة بها وكان الجانب الغربيّ من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوّة لم يتحيّفه عدوّ ولا كانت لهم به كرّة فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً * ولمّا استفحلت دولة الموحّدين في المائة السّادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطّة هذا الأسطول على أتمّ ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصّقلّيّ أصله من صدّغيار الموطّنين بجزيرة سرويكش أسره النّصارى من سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلّية واستكفاه ثمّ هلك وولي ابنه فأسخطه ببعض النّزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السّيّد بها من بني عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلقّاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرّة والكرامة وأجزل الصّلة وقلّده أمر أساطيله فجلّى في جهاد أمم النّصرانيّة وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحّدين * وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولمّا قام صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ملك مصر والشّام لعهده باسترجاع ثغور الشّام من يد أمم النّصرانيّة وتطهير بيت المقدس تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثّغور من كلّ ناحية قريبة لبيت المقدس الّذي كانوا قد استولوا عليه فأمدّوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندريّة لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشّرقيّ من البحريّة وتعدّد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل فأوفد صلاح الدّين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحّدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ

ملوك شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من أمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القسي فتمم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم إلى مرسلهم ولم يجبه إلى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته على أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان أو قلة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة وأن ذلك يكون في الأساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إعلَمْ أنَّ ٱلسَّيفَ وَٱلقَلَمَ كِلاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أمْرِهِ إلّا أنّ ٱلحَاجَةَ فِي أوّلِ ٱلدَّوْلَةِ إلَى ٱلسَّيْفِ مَا دَامَ أهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أمْرِهِمْ أشَدُّ مِنَ ٱلحَاجَةِ إلَى ٱلقَلَمِ لِأنَّ ٱلقَلَمَ فِي تِلْكَ ٱلحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنَفِّذٌ لِلحُكْمِ ٱلسُّلْطَانِيِّ وَٱلسَّيْفُ شَرِيكٌ فِي ٱلمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضْعُفُ عَصَبِيَّتُهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلهَرَمِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ ٱلدَّوْلَةُ إلَى ٱلاِسْتِظْهَارِ بِأرْبَابِ ٱلسُّيُوفِ وَتَقْوَى ٱلحَاجَةُ إلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ ٱلشَّأنُ أوّلَ ٱلأمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مَزِيَّةٌ عَلَى ٱلقَلَمِ فِي ٱلحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أرْبَابُ ٱلسَّيْفِ حِينَئِذٍ أوْسَعَ جَاهاً وَأكْثَرَ نِعْمَةً وَأسْنَى إقْطَاعاً وَأمَّا فِي وَسَطِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلسَّيْفِ لِأنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إلّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلمُلْكِ مِنَ ٱلجِبَايَةِ وَٱلضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ ٱلدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ ٱلأحْكَامِ وَٱلقَلَمُ هُوَ ٱلمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْظُمُ ٱلحَاجَةُ إلَى تَصْرِيفِهِ وَتَكُونُ ٱلسُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أغْمَادِهَا إلّا إذَا أنَابَتْ نَائِبَةٌ أوْ دُعِيَتْ إلَى سَدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إلَيْهَا فَتَكُونُ أرْبَابُ ٱلأقْلَامِ فِي هَذِهِ ٱلحَاجَةِ أوْسَعَ جَاهاً وَأعْلَى رُتْبَةً وَأعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأقْرَبَ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ مَجْلِساً وَأكْثَرَ إلَيْهِ تَرَدُّداً وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيّاً لِأنَّهُ حِينَئِذٍ آلَتُهُ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَٱلنَّظَرِ إلَى أعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أطْرَافِهِ وَٱلمُبَاهَاةِ بِأحْوَالِهِ وَيَكُونُ ٱلوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأهْلُ ٱلسُّيُوفِ مُسْتَغْنًى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ ٱلسُّلْطَانِ حَذِرِينَ عَلَى أنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أبُو مُسْلِمٍ لِلمَنْصُورِ حِينَ أمَرَهُ بِٱلقُدُومِ أمَّا بَعْدُ فَإنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا ٱلفُرْسِ أخْوَفُ مَا يَكُونُ ٱلوُزَرَاءُ إذَا سَكَنَتِ ٱلدَّهْمَاءُ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعلَمْ أنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأحْوَالاً تَقْتَضِيهَا ٱلأُبَّهَةُ وَٱلبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم

الآلة * فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره أرسطو إن كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات * وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية [1] لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم * ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة

---

(١) قوله موسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقي بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ ٱلْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْغَزَوَاتِ لِعَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قَرْعُ ٱلطُّبُولِ وَٱلنَّفْخُ فِي ٱلْأَبْوَاقِ فَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ ٱلْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنَزُّهاً عَنْ غِلْظَةِ ٱلْمُلْكِ وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ وَٱحْتِقَاراً لِأُبَّهَتِهِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ مِنَ ٱلْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلَافَةُ مُلْكاً وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ ٱلدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَابَسَهُمُ ٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أُولَٰئِكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْبَذَخِ وَٱلتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا ٱسْتَحْسَنُوهُ ٱتِّخَاذُ ٱلْآلَةِ فَأَخَذُوهَا وَأَذِنُوا لِعُمَّالِهِمْ فِي ٱتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِٱلْمُلْكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيراً مَا كَانَ ٱلْعَامِلُ صَاحِبُ ٱلثَّغْرِ أَوْ قَائِدُ ٱلْجَيْشِ يَعْقِدُ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لِوَاءَهُ وَيَخْرُجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ ٱلرَّايَاتِ وَٱلْآلَاتِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ ٱلْعَامِلِ وَٱلْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا ٱخْتَصَّ بِهِ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَٱلسَّوَادِ فِي رَايَاتِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُوداً حُزْناً عَلَى شُهَدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعْياً عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذَٰلِكَ سُمُّوا ٱلْمُسَوِّدَةَ * وَلَمَّا ٱفْتَرَقَ أَمْرُ ٱلْهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ ٱلطَّالِبِيُّونَ عَلَى ٱلْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصْرٍ ذَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَٰلِكَ فَٱتَّخَذُوا ٱلرَّايَاتِ بِيضاً وَسُمُّوا ٱلْمُبَيِّضَةَ لِذَٰلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ ٱلطَّالِبِيِّينَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ كَٱلدَّاعِي بِطَبَرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بِدْعَةِ ٱلرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَٱلْقَرَامِطَةِ وَلَمَّا نَزَعَ ٱلْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ ٱلسَّوَادِ وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى لَوْنِ ٱلْخُضْرَةِ فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضْرَاءَ وَأَمَّا ٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ ٱلْعَزِيزُ إِلَى فَتْحِ ٱلشَّامِ خَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْبُنُودِ وَخَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَبْوَاقِ وَأَمَّا مُلُوكُ ٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَّوْهَا بِٱلذَّهَبِ وَٱتَّخَذُوهَا مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْخَالِصِ مُلَوَّنَةً وَٱسْتَمَرُّوا عَلَى ٱلْإِذْنِ فِيهَا لِعُمَّالِهِمْ حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةَ قَصَرُوا ٱلْآلَةَ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَٱلْبُنُودِ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَّالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِباً خَاصّاً يَتْبَعُ أَثَرَ ٱلسُّلْطَانِ فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى ٱلسَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثِرٍ وَمُقِلٍّ بِٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِ ٱلدُّوَلِ فِي ذَٰلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ ٱلْعَدَدِ تَبَرُّكاً بِٱلسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي ٱلْأَحْمَرِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ ٱلْعَشَرَةَ وَٱلْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةَ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أَيّام ٱلسُّلطَانِ أَبِي ٱلْحَسَنِ فِيمَا أَدرَكْنَاهُ مِائَةٌ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَمِائَةٌ مِنَ ٱلبُنُودِ مُلَوَّنَة بِٱلْحَرِيرِ مَنْسُوجَةٌ بِٱلذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَأْذَنُونَ لِلْوُلاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْقُوَّادِ فِي ٱتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ ٱلْكَتَّانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ ٱلْحَرْبِ لا يَتَجَاوَزُون ذَٰلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ لِهَٰذَا ٱلعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا خُصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ ٱلشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا ٱلشَّالِشَ وَٱلْجِتْرَ وَهِيَ شِعَارُ ٱلسُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّد ٱلرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا ٱلسَّنَاجِقَ وَاحِدُهَا سَنْجَقٌ وَهِيَ ٱلرَّايَةُ بِلِسَانِهِمْ. وَأَمَّا ٱلطُّبُولُ فَيُبَالِغُون فِي ٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنهَا وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدِ عَسْكَرٍ أَن يَتَّخِذَ مِنْ ذَٰلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا ٱلْجِتْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِٱلسُّلْطَانِ. وَأَمَّا ٱلْجَلالِقَةُ لِهَٰذَا ٱلعَهْدِ مِن أُمَمِ ٱلإِفْرَنْجَةِ بِٱلأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمِ ٱتِّخَاذُ ٱلأَلْوِيَةِ ٱلقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجَوِّ صُعُداً وَمَعَهَا قَرْعُ ٱلأَوْتَارِ مِنَ ٱلطَّنَابِيرِ وَنَفْخُ ٱلغِيطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ ٱلغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِن حُرُوبِهِمْ هٰكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ ٱلعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلافُ أَلسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلعَالَمِينَ

(السرير). وَأَمَّا ٱلسَّرِيرُ وَٱلْمِنْبَرُ وَٱلتَّخْتُ وَٱلْكُرْسِيُّ فَهِيَ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِك مُنَضَّدَةٌ لِجُلُوسِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعاً عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي ٱلصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَل ذَٰلِكَ مِنْ سُنَنِ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلإِسْلامِ وَفِي دُوَلِ ٱلعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ ٱلذَّهَب وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمَا وَسَلامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مُغَشًّى بِٱلذَّهَب إِلَّا أَنَّهُ لا تَأْخُذُ بِهِ ٱلدُّوَلُ إِلَّا بَعْدَ ٱلِٱسْتِفْحَالِ وَٱلتَّرَفِ شَأْنَ ٱلأُبَّهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَاهُ وَأَمَّا فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ عِنْدَ ٱلبِدَاوَةِ فَلا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّخَذَهُ فِي ٱلإِسْلام مُعَاوِيَةُ وَٱسْتَأْذَنَ ٱلنَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدِنْتُ فَأَذِنُوا لَهُ فَٱتَّخَذَهُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْمُلُوك ٱلإِسْلامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ ٱلأُبَّهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ ٱلعَاصِ بِمِصْرَ يَجْلِس فِي قَصْرِهِ عَلَى ٱلأَرْضِ مَعَ ٱلعَرَبِ وَيَأْتِيهِ ٱلْمُقَوْقِسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ ٱلذَّهَب مَحْمُولاً عَلَى ٱلأَيْدِي لِجُلُوسِهِ شَأْنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ بِمَا ٱعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ ٱلذِّمَّةِ وَٱطِّرَاحاً لِأُبَّهَةِ ٱلْمُلْكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَٰلِكَ لِبَنِي ٱلعَبَّاس وَٱلعُبَيْدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ ٱلإِسْلامِ شَرْقاً وَغَرْباً مِنَ ٱلأَسِرَّةِ وَٱلْمَنَابِرِ وَٱلتُّخُوتِ مَا عَفَا عَن ٱلأَكَاسِرَةِ وَٱلقَيَاصِرَةِ وَٱللّٰهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(السكة) وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش
فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش
عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد
أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون
التعامل بها عددا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما
للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير
والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة
فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص
من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم
السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل
تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع
أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام
أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت
دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون
بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر
عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز
المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين
ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد
ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد
القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم
مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها
في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة
وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن
الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع
درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أيّامَ ٱلفُرسِ كانَتْ مُختلفةً وكانَ مِنها على وَزنِ ٱلمِثقالِ عِشرُونَ قِيراطاً ومِنها اثنا عشر ومِنها عشرةٌ فلَمّا احتِيجَ إلى تقديرِهِ في ٱلزّكاةِ أُخذَ ٱلوَسطُ وذلكَ اثنا عشرَ قِيراطاً فكانَ ٱلمِثقالُ دِرهماً وثلاثةَ أسباعِ دِرهمٍ وقِيلَ كانَ مِنها ٱلبَغليُّ بِثمانيةِ دَوانِقَ وٱلطّبريُّ أربعةَ دَوانِقَ وٱلمغربيُّ ثمانيةَ دَوانِقَ وٱليمنيُّ سِتّةَ دَوانِقَ فأمرَ عُمرُ أن يُنظرَ ٱلأغلبُ في ٱلتّعامُلِ فكانَ ٱلبَغليُّ وٱلطّبريُّ اثني عشرَ دانِقاً وكانَ ٱلدِّرهمُ سِتّةَ دَوانِقَ وإنْ زِدتَ ثلاثةَ أسباعِهِ كانَ مِثقالاً وإذا أنقصْتَ ثلاثةَ أعشارِ ٱلمِثقالِ كانَ دِرهماً فلَمّا رأى عبدُ ٱلملِكِ ٱتّخاذَ ٱلسّكّةِ لِصيانةِ ٱلنّقدَينِ ٱلجارِيَينِ في مُعاملةِ ٱلمُسلِمينَ مِنَ ٱلغِشِّ عيّنَ مِقدارَها على هذا ٱلّذي ٱستقرَّ لِعهدِ عُمرَ رضِيَ ٱللهُ عنهُ وٱتّخذَ فيهِ كلِماتٍ لا صُوراً لِأنَّ ٱلعربَ كانَ ٱلكلامُ وٱلبلاغةُ أقربَ مناحِيهِم وأظهرَها معَ أنَّ ٱلشّرعَ ينهى عنِ ٱلصُّوَرِ فلَمّا فعلَ ذلكَ ٱستمرَّ بينَ ٱلنّاسِ في أيّامِ ٱلمِلّةِ كُلِّها وكانَ ٱلدِّينارُ وٱلدِّرهمُ على شكلَينِ مُدوّرَينِ وٱلكِتابةُ عليهِما في دوائرَ مُتوازيةٍ يُكتبُ فيها مِن أحدِ ٱلوجهَينِ أسماءُ ٱللهِ تهليلاً وتحميداً وصلاةً على ٱلنّبيِّ وآلِهِ وفي ٱلوجهِ ٱلثّاني ٱلتّاريخُ وٱسمُ ٱلخليفةِ وهكذا أيّامَ ٱلعبّاسيّينَ وٱلعُبيديّينَ وٱلأُمويّينَ وأمّا صنهاجةُ فلَم يتّخذوا سِكّةً إلّا آخرَ ٱلأمرِ ٱتّخذَها منصورٌ صاحبُ بِجايةَ ذكرَ ذلكَ ٱبنُ حمّادٍ في تاريخِهِ ولَمّا جاءتْ دولةُ ٱلموحِّدينَ كانَ مِمّا سنَّ لهُمُ ٱلمهديُّ ٱتّخاذُ سِكّةِ ٱلدِّرهمِ مُربّعَ ٱلشّكلِ وأنْ يُرسمَ في دائرةِ ٱلدِّينارِ شكلٌ مُربّعٌ في وسطِهِ ويُملأَ مِن أحدِ ٱلجانبَينِ تهليلاً وتحميداً ومِنَ ٱلجانبِ ٱلآخرِ كتْباً في ٱلسُّطورِ بِٱسمِهِ وٱسمِ ٱلخُلفاءِ مِن بعدِهِ ففعلَ ذلكَ ٱلموحِّدونَ وكانتْ سِكّتُهُم على هذا ٱلشّكلِ لِهذا ٱلعهدِ ولقد كانَ ٱلمهديُّ فيما يُنقلُ يُنعتُ قبلَ ظُهورِهِ بِصاحبِ ٱلدِّرهمِ ٱلمُربّعِ نعتَهُ بذلكَ ٱلمُتكلِّمونَ بِٱلحدَثانِ مِن قبلِهِ ٱلمُخبِرونَ في ملاحِمِهِم عن دولتِهِ وأمّا أهلُ ٱلمشرقِ لِهذا ٱلعهدِ فسِكّتُهُم غيرُ مُقدّرةٍ وإنّما يتعاملونَ بِٱلدّنانيرِ وٱلدّراهِمِ وزناً بِٱلصَّنَجاتِ ٱلمُقدّرةِ بِعِدّةٍ مِنها ولا يطبعونَ عليها بِٱلسّكّةِ نُقوشَ ٱلكلِماتِ بِٱلتّهليلِ وٱلصّلاةِ وٱسمِ ٱلسُّلطانِ كما يفعلُهُ أهلُ ٱلمغربِ ذلكَ تقديرُ ٱلعزيزِ ٱلعليمِ

ولْنختِمِ ٱلكلامَ في ٱلسّكّةِ بِذِكرِ حقيقةِ ٱلدِّرهمِ وٱلدِّينارِ ٱلشّرعيّينِ وبيانِ حقيقةِ مِقدارِهِما

وذلك أنّ الدينار والدرهم مختلفا السكّة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال والشرع قد تعرّض لذكرهما وعلّق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها فلا بدّ لهما عنده من حقيقة ومقدار معيّن في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أنّ الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أنّ الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعين درهماً وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبّة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبّة وخمسا حبّة وهذه المقادير كلّها ثابتة بالإجماع فإنّ الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو أربعة دوانق والبغلي وهو ثمانية دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستّة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغليّة ومائة طبريّة خمسة دراهم وسطاً وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه

ذكر ذلك الخطّابي في كتاب معالم السنن والماوردي في الأحكام السلطانيّة وأنكره المحقّقون من المتأخّرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيّان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلّق الحقوق الشرعيّة بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحقّ أنّهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلّق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخّص في الخارج وإنّما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما وزنتهما حتّى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيّام عبد الملك فشخّص مقدارهما وعيّنهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكّة باسمه وتاريخه أثر الشهادتين الإيمانيّتين وطرح النقود الجاهليّة رأساً حتّى خلصت ونقش عليها سكّة وتلاشى وجودها فهذا هو الحقّ الذي لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكّة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كلّ الأقطار والآفاق ورجع الناس إلى تصوّر مقاديرهما

ٱلشَّرْعِيَّةِ ذِهْناً كَمَا كَانَ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أُفُقٍ يَسْتَخْرِجُونَ ٱلْحُقُوقَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ ٱلنِّسْبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ ٱلدِّينَارِ بِٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ ٱلشَّعِيرِ ٱلْوَسَطِ فَهُوَ ٱلَّذِي نَقَلَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ ٱلْإِجْمَاعُ إِلَّا ٱبْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَٰلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَٰلِكَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلْحَقِّ وَرَدَّهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَدُّوهُ وَهْماً وَغَلَطاً وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ وَٱللَّهُ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَٰلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْأُوقِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذِهْناً لَا ٱخْتِلَافَ فِيهَا وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً

(الخاتم) وَأَمَّا ٱلْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلْوَظَائِفِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَٱلْخَتْمُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ ٱلْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَاباً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُوماً فَٱتَّخَذَ خَاتَماً مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ . مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ . قَالَ ٱلْبُخَارِيُّ جَعَلَ ٱلثَّلَاثَ ٱلْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَّمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بِئْرِ أَرِيسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ ٱلْمَاءِ فَلَمْ يُدْرَكْ قَعْرُهَا بَعْدُ وَٱغْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ ٱلْخَاتَمِ وَٱلْخَتْمِ بِهِ وُجُوهٌ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْآلَةِ ٱلَّتِي تُجْعَلُ فِي ٱلْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخَتَّمَ إِذَا لَبِسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ ٱلْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ ٱلْقُرْآنَ كَذَٰلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلنَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ ٱلْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلسِّدَادِ ٱلَّذِي يُسَدُّ بِهِ ٱلْأَوَانِي وَٱلدِّنَانُ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَٰلِكَ بِٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحُ ٱلْمِسْكِ وَلَيْسَ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْخِتَامِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسِّدَادُ لِأَنَّ ٱلْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي ٱلدَّنِّ سِدَادُ ٱلطِّينِ أَوِ ٱلْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبُولِغَ فِي وَصْفِ خَمْرِ ٱلْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ ٱلْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفاً وَذَوْقاً مِنَ ٱلْقَارِ وَٱلطِّينِ ٱلْمَعْهُودَيْنِ فِي ٱلدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ ٱلْخَاتَمِ عَلَى هٰذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا ٱلنَّاشِئِ عَنْهَا وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ ٱلطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ ٱلْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ ٱلْكَلِمَاتِ

في ذلكَ ٱلصَّفحِ وكَذلكَ إذا طُبِعَ بهِ عَلَى جِسْمٍ لَيِّنٍ كَالشَّمعِ فإنَّهُ يَبقى نَقشُ ذلكَ ٱلمَكتُوبِ مُرتَسِماً فيهِ وإذا كانَتْ كَلِماتٌ وٱرتَسَمَتْ فَقَدْ يُقرَأُ مِنَ ٱلجِهَةِ ٱليُسرَى إذا كانَ ٱلنَّقشُ عَلَى ٱلاِستِقامَةِ مِنَ ٱليُمنَى وَقَدْ يُقرَأُ مِنَ ٱلجِهَةِ ٱليُمنَى إذا كانَ ٱلنَّقشُ مِنَ ٱلجِهَةِ ٱليُسرَى لِأَنَّ ٱلخَتْمَ يُقلِبُ جِهَةَ ٱلخَطِّ في ٱلصَّفحِ عَمَّا كانَ في ٱلنَّقشِ مِن يَمِينٍ أَوْ يَسارٍ فَيُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ٱلخَتْمُ بِهٰذا ٱلخاتَمِ بِغَمسِهِ في ٱلمِدادِ أَوِ ٱلطِّينِ وَوَضعِهِ في ٱلصفحِ فَتَنتَقِشَ ٱلكَلِماتُ فيهِ وَيَكُونُ هٰذا مِن مَعنَى ٱلنِّهايَةِ وٱلتَّمامِ بِمَعنَى صِحَّةِ ذلكَ ٱلمَكتُوبِ وَنُفُوذِهِ كَأَنَّ ٱلكِتابَ إنَّما يَتِمُّ ٱلعَمَلُ بهِ بِهٰذِهِ ٱلعَلاماتِ وَهُوَ مِن دُونِها مُلغًى لَيسَ بِتامٍّ وَقَدْ يَكُونُ هٰذا ٱلخَتْمُ بِٱلخَطِّ آخِرَ ٱلكِتابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِماتٍ مُنتَظِمَةٍ مِنْ تَحميدٍ أَوْ تَسبيحٍ أَوْ بِٱسمِ ٱلسُّلطانِ أَوِ ٱلأَميرِ أَوْ صاحِبِ ٱلكِتابِ مَنْ كانَ أَو شَيْءٍ مِنْ نُعُوتِهِ يَكُونُ ذلكَ ٱلخَطُّ عَلامَةً عَلَى صِحَّةِ ٱلكِتابِ وَنُفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذلكَ في ٱلمُتَعارَفِ عَلامَةً وَيُسَمَّى خَتْماً تَشبيهاً لَهُ بِأَثَرِ ٱلخاتَمِ ٱلآصِفِيِّ في ٱلنَّقشِ وَمِنْ هٰذا خاتَمُ ٱلقاضِي ٱلَّذي يَبعَثُ بهِ لِلخُصُومِ أَيْ عَلامَتُهُ وَخَطُّهُ ٱلَّذي يُنَفِّذُ بِهِما أَحكامَهُ وَمِنهُ خاتَمُ ٱلسُّلطانِ أَوِ ٱلخَليفَةِ أَيْ عَلامَتُهُ قالَ ٱلرَّشيدُ لِيَحيَى بنِ خالِدٍ لَمّا أَرادَ أَنْ يَستَوزِرَ جَعفَراً وَيَستَبدِلَ بهِ مِنَ ٱلفَضلِ أَخيهِ فَقالَ لِأَبيهِما يَحيَى يا أَبَتِ إنّي أَرَدتُ أَنْ أُحَوِّلَ ٱلخاتَمَ مِنْ يَميني إلى شِمالي فَكَنَّى لَهُ بِٱلخاتَمِ عَنِ ٱلوِزارَةِ لِما كانَتِ ٱلعَلامَةُ عَلَى ٱلرَّسائِلِ وٱلصُّكُوكِ مِنْ وَظائِفِ ٱلوِزارَةِ لِعَهدِهِمْ وَيَشهَدُ لِصِحَّةِ هٰذا ٱلإطلاقِ ما نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ أَنَّ مُعاوِيَةَ أَرسَلَ إلى ٱلحَسَنِ عِندَ مُراوَدَتِهِ إيّاهُ في ٱلصُّلحِ صَحيفَةً بَيضاءَ خَتَمَ عَلَى أَسفَلِها وَكَتَبَ إلَيهِ أَنِ ٱشتَرِطْ في هٰذِهِ ٱلصَّحيفَةِ ٱلَّتي خَتَمتُ أَسفَلَها ما شِئتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعنَى ٱلخَتمِ هُنا عَلامَةٌ في آخِرِ ٱلصَّحيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيرِهِ وَيُحتَمَلُ أَنْ يُختَمَ بهِ في جِسمٍ لَيِّنٍ فَتَنتَقِشُ فيهِ حُرُوفُهُ وَيُجعَلُ عَلَى مَوضِعِ ٱلحَزمِ مِنَ ٱلكِتابِ إذا حُزِمَ وَعَلَى ٱلمَودُوعاتِ وَهُوَ مِنَ ٱلسِّدادِ كَما مَرَّ وَهُوَ في ٱلوَجهَينِ آثارُ ٱلخاتَمِ فَيُطلَقُ عَلَيهِ خاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطلَقَ ٱلخَتمَ عَلَى ٱلكِتابِ أَيِ ٱلعَلامَةَ مُعاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعُمَرَ بنِ ٱلزُّبَيرِ عِندَ زِيادٍ بِٱلكُوفَةِ بِمائَةِ أَلفٍ فَفَتَحَ ٱلكِتابَ وَصَيَّرَ ٱلمائَةَ مائَتَينِ وَرَفَعَ زِيادٌ حِسابَهُ فَأَنكَرَها مُعاوِيَةُ وَطَلَبَ بِها عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتّى قَضاها عَنهُ أَخُوهُ عَبدُ ٱللهِ وٱتَّخَذَ مُعاوِيَةُ عِندَ ذلكَ دِيوانَ ٱلخاتَمِ ذَكَرَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَقالَ آخَرونَ وَحَزَمَ ٱلكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ

تخزَمُ أي جعلَ لهَا ٱلسّدادَ وديوانُ ٱلختمِ عبارةٌ عنِ ٱلكُتّابِ ٱلقائمينَ على إنفاذ كُتُبِ ٱلسُّلطَانِ وَٱلختمِ عليها إمَّا بِٱلعَلامَةِ أوْ بِٱلخزمِ وقدْ يُطلقُ ٱلديوانُ على مكان جلوسِ هؤلاءِ ٱلكُتّابِ كمَا ذكرْنَاهُ في دِيوانِ ٱلأعمالِ وَٱلخزمُ لِلكُتُبِ يكون إمَّا بدسِّ ٱلورَقِ كمَا في عُرفِ كُتّابِ ٱلمَغربِ وإمَّا بإلصاقِ رأسِ ٱلصَّحيفَةِ على ما تنطَوي عليهِ مِنَ ٱلكِتابِ كمَا في عُرفِ أهلِ ٱلمَشرقِ وقدْ يُجعلُ على مكانِ ٱلدّسِّ أو ٱلإلصاقِ علامَةٌ يُؤمَنُ معهَا مِنْ فتحِهِ وَٱلاطّلاعِ على مَا فيهِ فأهلُ ٱلمَغربِ يجعلونَ على مكانِ ٱلدّسِّ قِطعَةً مِنَ ٱلشَّمعِ ويختمُونَ عليهَا بخاتمٍ نُقِشَتْ فيهِ علامَةٌ لِذلكَ فيرتَسم ٱلنّقشُ في ٱلشّمعِ وكانَ في ٱلمَشرقِ في ٱلدّوَلِ ٱلقديمَةِ يُختمُ على مكانِ ٱللّصقِ بخاتم منقوشٍ أيضاً قدْ غُمِسَ في مَداف مِنَ ٱلطّينِ مُعدٍّ لِذلكَ صِبْغُهُ أحمرُ فيرتَسِمُ ذلك ٱلنّقشُ عليهِ وكانَ هذَا ٱلطّينُ في ٱلدّوْلَةِ ٱلعبّاسيّةِ يُعرفُ بطينِ ٱلختمِ وكانَ يُجلَبُ مِن سيرافَ فيظهرُ أنّهُ مخصوصٌ بهَا فهذَا ٱلخاتمُ ٱلذي هوَ ٱلعلامَةُ ٱلمكتوبَةُ أوِ ٱلنّقش لِلسّدادِ وَٱلخزمُ لِلكُتُبِ خاصٌّ بديوانِ ٱلرّسائلِ وكانَ ذلكَ لِلوزيرِ في ٱلدّوْلَةِ ٱلعبّاسيّةِ ثمّ ٱختلفَ ٱلعُرفُ وصارَ لِمَنْ إليهِ ٱلتّرسيلُ وديوانُ ٱلكُتّابِ في ٱلدّوْلَةِ ثُمّ صارُوا في دُوَلِ ٱلمَغربِ يعدُّونَ مِنْ علاماتِ ٱلمُلكِ وشاراتِهِ ٱلخاتمَ ٱلإصبعِ فيستجيدونَ صوغَهُ مِنَ ٱلذّهبِ ويرصّعونَهُ بِٱلفُصُوصِ مِنَ ٱلياقوتِ وَٱلفيروزجِ وَٱلزُّمرّدِ ويلبسُهُ ٱلسُّلطان شارَةً في عُرفِهِمْ كمَا كانتِ ٱلبُرْدَةُ وَٱلقضيبُ في ٱلدّوْلَةِ ٱلعبّاسيّةِ وَٱلمِظلّةُ في ٱلدّوْلَة ٱلعُبيديّةِ وَٱللهُ مُصرِّفُ ٱلأمورِ بحُكمِهِ

(الطراز) * مِنْ أُبّهَةِ ٱلمُلكِ وَٱلسُّلطانِ ومَذاهبِ ٱلدّوَلِ أنْ تُرسَمَ أسماؤُهمْ أو علاماتٌ تختصُّ بهِمْ في طِرازِ أثوابِهِمِ ٱلمُعدّةِ لِلباسِهِمْ مِنَ ٱلحريرِ أوِ ٱلدّيباجِ أو ٱلإبريسمِ تُعتبرُ كِتابَةُ خطِّهَا في نسجِ ٱلثّوبِ ألحاماً وإسداءً بخيطِ ٱلذّهبِ أوْ مَا يُخالِف لونَ ٱلثّوبِ مِنَ ٱلخيوطِ ٱلملوّنَةِ مِنْ غيرِ ٱلذّهبِ على مَا يُحكمُهُ ٱلصُّنّاعُ في تقديرِ ذلكَ ووضعِهِ في صِناعَةِ نسجِهِمْ فتصيرُ ٱلثّيابُ ٱلمُلوكيّةُ مُعلّمَةً بذلكَ ٱلطِّرازِ قصدَ ٱلتّنويه بلابسِهَا مِنَ ٱلسُّلطانِ فمَنْ دونَهُ أوِ ٱلتّنويهِ بمَنْ يختصُّهُ ٱلسُّلطانُ بملبوسِهِ إذَا قصد تشريفَهُ بذلكَ أوْ ولايتَهُ لِوظيفَةٍ مِنْ وظائفِ دوْلتِهِ وكانَ مُلوكُ ٱلعجمِ مِنْ قبلِ ٱلإسلام يجعلونَ ذلكَ ٱلطّرازَ بصُوَرِ ٱلملوكِ وأشكالِهِمْ أوْ أشكالٍ وصُوَرٍ مُعيّنَةٍ لِذلكَ ثمّ

اعْتَاضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكَتْبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى الْفَأْلِ أَوِ السِّجِلَّاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أُبَّهَةِ الْأُمُورِ وَأَفْخَمِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الدُّورُ الْمُعَدَّةُ لِنَسْجِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ الطِّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطِّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ الصِّبَاغِ وَالْآلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ آلَاتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يُقَلِّدُونَ ذَلِكَ لِخَوَاصِّ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ نِطَاقُ الدُّوَلِ عَنِ التَّرَفِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ لِضِيقِ نِطَاقِهَا فِي الِاسْتِيلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ وَالْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّذَاجَةِ الَّتِي لُقِّنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تُومَرْتَ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَاسْتَدْرَكَ مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ الدَّوْلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ النَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ فَأَدْرَكْنَا بِالْمَغْرِبِ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرِينِيَّةِ لِعُنْفُوَانِهَا وَشُمُوخِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لُقِّنُوهُ مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مُعَاصِرِهِمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَاتَّبَعَ هُوَ فِي ذَلِكَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِلَمْحَةٍ شَاهِدَةٍ بِالْأَثَرِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ الطِّرَازِ تَحْرِيرٌ آخَرُ عَلَى مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمْرَانِ بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا يُنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَّاعِهِ مِنَ الْحَرِيرِ وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُزَرْكَشَ لَفْظَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوِ الْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعِدُّهُ الصُّنَّاعُ لَهُمْ فِيمَا يُعِدُّونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طُرَفِ الصِّنَاعَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الْفَسَاطِيطُ وَالسِّيَاجُ

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ وَتَرَفِهِ اتِّخَاذَ الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ وَالْفَازَاتِ مِنْ ثِيَابِ الْكَتَّانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطْنِ فَيُبَاهَى بِهَا فِي الْأَسْفَارِ وَتُنَوَّعُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي بُيُوتِهِمُ الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ الْمُلْكِ وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إنَّمَا يَسْكُنُونَ بُيُوتَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ خِيَاماً مِنَ الْوَبَرِ وَالصُّوفِ وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بَادِينَ إِلَّا الْأَقَلَّ مِنْهُمْ فَكَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لِغَزَوَاتِهِمْ وَحُرُوبُهُمْ بِظُعُونِهِمْ وَسَائِرِ حِلَلِهِمْ وَأَحْيَائِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ لِذَلِكَ كَثِيرَةَ الْحِلَلِ بَعِيدَةَ مَا بَيْنَ الْمَنَازِلِ مُتَفَرِّقَةَ الْأَحْيَاءِ يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ الْأُخْرَى كَشَأْنِ الْعَرَبِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَحْتَاجُ إِلَى سَاقَةٍ تَحْشُدُ النَّاسَ عَلَى أَثَرِهِ أَنْ يُقِيمُوا إِذَا ظَعَنَ وَنُقِلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحَجَّاجَ حِينَ أَشَارَ بِهِ رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ وَقِصَّتُهُمَا فِي إِحْرَاقِ فَسَاطِيطِ رَوْحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ قِصَّةٌ مَشْهُورَةٌ وَمِنْ هَذِهِ الْوِلَايَةِ تُعْرَفُ رُتْبَةُ الْحَجَّاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى إِرَادَتَهُمْ عَلَى الظَّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بَوَادِرَ السُّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْحَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ ثِقَةً بِغَنَائِهِ فِيهَا بِعَصَبِيَّتِهِ وَصَرَامَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالْبَذَخِ وَنَزَلُوا الْمُدُنَ وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهْرِ الْخُفِّ إِلَى ظَهْرِ الْحَافِرِ اتَّخَذُوا لِلسُّكْنَى فِي أَسْفَارِهِمْ ثِيَابَ الْكَتَّانِ يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا بُيُوتاً مُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالِ مُقَدَّرَةَ الْأَمْثَالِ مِنَ الْقَوْرَاءِ وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمُرَبَّعَةِ وَيَحْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ مَذَاهِبِ الِاحْتِفَالِ وَالزِّينَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لِلْعَسَاكِرِ عَلَى فَسَاطِيطِهِ وَفَازَاتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ سِيَاجاً مِنَ الْكَتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِهِ أَفْرَاكَ بِالْكَافِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقُطْرِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ . وَأَمَّا فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَةُ بِالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ إِلَى الْمُقَامِ . بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فَخَفَّ لِذَلِكَ ظَهْرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَاجُ بَيْنَ مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مُعَسْكَرٍ وَاحِدٍ يَحْصُرُهُ الْبَصَرُ فِي بَسِيطَةٍ زَهْواً أَنِيقاً لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي بَذَخِهَا وَتَرَفِهَا وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ وَزَنَاتَةُ الَّتِي أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ فِي بُيُوتِ سُكْنَاهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقَيَاطِينِ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ بَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ التَّرَفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ عُرْضَةً لِلْبَيَاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ

فيه الصيحة ولخشيتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستنامة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوي العزيز

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام. فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده. وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضى عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك إلا ما كسرته فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا

فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى أن يغمراسن بن زيان عاهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بني مرين حضره رسول المنتصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها

إِرَادَةُ ٱنْتِقَامِ بَعْضِ ٱلْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلٍّ مِنْهَا أَهْلُ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا تَذَامَرُوا لِذَٰلِكَ وَتَوَافَقَتِ ٱلطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطْلُبُ ٱلِٱنْتِقَامَ وَٱلْأُخْرَى تُدَافِعُ كَانَتِ ٱلْحَرْبُ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هٰذَا ٱلِٱنْتِقَامِ فِي ٱلْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلّٰهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمُلْكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ فَٱلْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَجَاوِرَةِ وَٱلْعَشَائِرِ ٱلْمُتَنَاظِرَةِ وَٱلثَّانِي وَهُوَ ٱلْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ٱلسَّاكِنِينَ بِٱلْقَفْرِ كَٱلْعَرَبِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ آذَنُوهُ بِٱلْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فِيمَا وَرَاءَ ذَٰلِكَ مِنْ رُتْبَةٍ وَلَا مُلْكٍ وَإِنَّمَا هَمُّهُمْ وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبُ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَٱلثَّالِثُ هُوَ ٱلْمُسَمَّى فِي ٱلشَّرِيعَةِ بِٱلْجِهَادِ وَٱلرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ ٱلدُّوَلِ مَعَ ٱلْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمَانِعِينَ لِطَاعَتِهَا فَهٰذِهِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلصِّنْفَانِ ٱلْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ وَٱلصِّنْفَانِ ٱلْأَخِيرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ ٱلْحُرُوبِ ٱلْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ مُنْذُ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٍ بِٱلزَّحْفِ صُفُوفًا وَنَوْعٍ بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ أَمَّا ٱلَّذِي بِٱلزَّحْفِ فَهُوَ قِتَالُ ٱلْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقُبِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِي بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَقِتَالُ ٱلزَّحْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَذَٰلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ ٱلزَّحْفِ تُرَتَّبُ فِيهِ ٱلصُّفُوفُ وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى ٱلْقِدَاحُ أَوْ صُفُوفُ ٱلصَّلَاةِ وَيَمْشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى ٱلْعَدُوِّ قُدُمًا فَلِذَٰلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ ٱلْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي ٱلْقِتَالِ وَأَرْهَبَ لِلْعَدُوِّ لِأَنَّهُ كَٱلْحَائِطِ ٱلْمُمْتَدِّ وَٱلْقَصْرِ ٱلْمَشِيدِ لَا يُطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي ٱلتَّنْزِيلِ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ أَيْ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِٱلثَّبَاتِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَٱلْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ إِيجَابِ ٱلثَّبَاتِ وَتَحْرِيمُ ٱلتَّوَلِّي فِي ٱلزَّحْفِ فَإِنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلصَّفِّ فِي ٱلْقِتَالِ حِفْظُ ٱلنِّظَامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَمَنْ وَلَّى ٱلْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخَلَّ بِٱلْمَصَافِّ وَبَاءَ بِإِثْمِ ٱلْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمْكَنَ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَعَظُمَ ٱلذَّنْبُ لِعُمُومِ ٱلْمَفْسَدَةِ وَتَعَدِّيهَا إِلَى ٱلدِّينِ بِخَرْقِ سِيَاجِهِ فَعُدَّ مِنَ ٱلْكَبَائِرِ وَيَظْهَرُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ ٱلزَّحْفِ أَشَدُّ عِنْدَ ٱلشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ

منَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْأَمنِ مِنَ ٱلْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ ٱلزَّحفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُم فِي ٱلْقِتَالِ مَصَافاً ثَابِتاً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ ٱلزَّحفِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ . ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْقَدِيمَةَ ٱلْكَثِيرَةَ ٱلْجُنُودِ ٱلْمُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ ٱلْجُيُوشَ وَٱلْعَسَاكِرَ أَقْسَاماً يُسَمُّونَهَا كَرَادِيسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كُرْدُوسٍ صُفُوفَهُ وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمُ ٱلْكَثْرَةَ ٱلْبَالِغَةَ وَحُشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ ٱلنَّوَاحِي ٱسْتَدْعَى ذٰلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِذَا ٱخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ ٱلْحَرْبِ وَٱعْتَوَرُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ ٱلطَّعْنَ وَٱلضَّرْبَ فَيُخْشَى مِنْ تَدَافُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ ٱلنُّكْرَاءِ وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذٰلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ ٱلْعَسَاكِرَ جُمُوعاً وَيَضُمُّونَ ٱلْمُتَعَارِفِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرَتِّبُونَهَا قَرِيباً مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي ٱلْجِهَاتِ ٱلْأَرْبَعِ وَرَئِيسُ ٱلْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي ٱلْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلتَّعْبِئَةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي أَخْبَارِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلدَّوْلَتَيْنِ وَصَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ عَسْكَراً مُنْفَرِداً بِصُفُوفِهِ مُتَمَيِّزاً بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُقَدِّمَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ نَاحِيَةَ ٱلْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ ٱلْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ ٱلْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشِّمَالِ كَذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ ٱلْمَيْسَرَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْعَسْكَرِ يُسَمُّونَهُ ٱلسَّاقَةَ وَيَقِفُ ٱلْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي ٱلْوَسَطِ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ ٱلْقَلْبَ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبُ ٱلْمُحْكَمُ إِمَّا فِي مَدًى وَاحِدٍ لِلْبَصَرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ أَكْثَرُهَا ٱلْيَوْمُ وَٱلْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَعْطَاهُ حَالُ ٱلْعَسَاكِرِ فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلزَّحفُ مِنْ بَعْدِ هٰذِهِ ٱلتَّعْبِئَةِ وَٱنْظُرْ ذٰلِكَ فِي أَخْبَارِ ٱلْفُتُوحَاتِ وَأَخْبَارِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتِ ٱلْعَسَاكِرُ لِعَهْدِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ تَتَخَلَّفُ عَنْ رَحِيلِهِ لِبُعْدِ ٱلْمَدَى فِي ٱلتَّعْبِئَةِ فَٱحْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعُيِّنَ لِذٰلِكَ ٱلْحَجَّاجُ ٱبْنُ يُوسُفَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَدْرَكْنَا دُوَلاً قَلِيلَةَ ٱلْعَسَاكِرِ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ ٱلْحَرْبِ إِلَى ٱلتَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ ٱلْجُيُوشِ مِنَ ٱلطَّائِفَتَيْنِ مَعاً يَجْمَعُهُمْ لَدَيْنَا حِلَّةٌ أَوْ مَدِينَةٌ وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ بِٱسْمِهِ وَلَقَبِهِ فَٱسْتَغْنَى عَنْ تِلْكَ ٱلتَّعْبِئَةِ

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فِي ٱلْحُرُوبِ ضَرْبُ ٱلْمَصَافِّ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ

ا الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل * وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف * وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده

قال الطبري لما ذكر قتال الجيبري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب أبا الذلفاء فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى . فتنوسي قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال(١) والأبنية وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيعات وتخرم صفوفهم . ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءا للمقاتلة أمامه فلا بد من أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف وإلا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الأمة المتعودة الثبات في الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر وإنهم استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الإجفال على مصاف السلطان والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من ممالأتهم على المسلمين هذا هو الواقع لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم * وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون

(١) قوله للاثقال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الخندق الآتي قريبا اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم اهـ

كُلُّ رِدْءٍ لِلَّذِي أَمَامَهُ خَوْفاً أَنْ يَكْبِسَهُمُ ٱلْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ ٱلنَّصرُ لِإِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبِئَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْأُوَلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفْرُ ٱلْخَنَادِقِ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ عِنْدَمَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّحْفِ حَذَراً مِنْ مَعَرَّةِ ٱلْبَيَاتِ وَٱلْهُجُومِ عَلَى ٱلْعَسْكَرِ بِٱللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ ٱلْخَوْفِ فَيَلُوذُ ٱلْجَيْشُ بِٱلْفِرَارِ وَتَجِدُ ٱلنُّفُوسُ فِي ٱلظُّلْمَةِ سِتْراً مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذٰلِكَ أَرْجَفَ ٱلْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ ٱلْهَزِيمَةُ فَكَانُوا لِذٰلِكَ يَحْتَفِرُونَ ٱلْخَنَادِقَ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَتَهُمْ وَيُدِيرُونَ ٱلْحَفَائِرَ نِطَاقاً عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حِرْصاً أَنْ يُخَالِطَهُمُ ٱلْعَدُوُّ بِٱلْبَيَاتِ فَيَتَخَاذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هٰذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ ٱقْتِدَارٌ بِٱحْتِشَادِ ٱلرِّجَالِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعُمْرَانِ وَضَخَامَةِ ٱلْمُلْكِ فَلَمَّا خَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَتَبِعَهُ ضَعْفُ ٱلدُّوَلِ وَقِلَّةُ ٱلْجُنُودِ وَعَدَمُ ٱلْفَعَلَةِ نُسِيَ هٰذَا ٱلشَّأْنُ جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللهُ خَيْرُ ٱلْقَادِرِينَ وَٱنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَتَحْرِيضَهُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صِفِّينَ تَجِدْ كَثِيراً مِنْ عِلْمِ ٱلْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي كَلَامٍ لَهُ فَسَوُّوا صُفُوفَكُمْ كَٱلْبُنْيَانِ ٱلْمَرْصُوصِ وَقَدِّمُوا ٱلدَّارِعَ وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ وَعَضُّوا عَلَى ٱلْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ وَٱلْتَوُوا عَلَى أَطْرَافِ ٱلرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصْوَنُ لِلْأَسِنَّةِ وَغُضُّوا ٱلْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَخْفِتُوا ٱلْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ وَأَوْلَى بِٱلْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتِكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصِّدْقِ وَٱلصَّبْرِ فَإِنَّهُ بِقَدْرِ ٱلصَّبْرِ يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ وَقَالَ ٱلْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ ٱلْأَزْدَ عَضُّوا عَلَى ٱلنَّوَاجِذِ مِنَ ٱلْأَضْرَاسِ وَٱسْتَقْبِلُوا ٱلْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشُدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَثْأَرُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقاً عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى ٱلْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِئَلَّا يُسْبَقُوا بِوِتْرٍ وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذٰلِكَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصَّيْرَفِيُّ شَاعِرُ لَمْتُونَةَ وَأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشِفِينَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيُذَكِّرُهُ بِأُمُورِ ٱلْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ ٱلْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِي يَتَقَنَّعُ ... مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَلِكُ ٱلْهُمَامُ ٱلْأَرْوَعُ

وَمَنِ ٱلَّذِي غَدَرَ ٱلْعَدُوُّ بِهِ دُجًى ... فَٱنْفَضَّ كُلٌّ وَهْوَ لَا يَتَزَعْزَعُ

تَمْضِي ٱلْفَوَارِسُ وَٱلطِّعَانُ يَصُدُّهَا ... عَنْـهُ وَيُذْمِرُهَا ٱلْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَٱللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ ٱلتَّرَائِكِ إِنَّـهُ ... صُبْحٌ عَلَى هَامِ ٱلْجُيُوشِ يُلَمَّعُ
أَنَّى فَزِعْتُمْ يَا بَنِي صِنْهَاجَـةٍ ... وَإِلَيْـكُمُ فِي ٱلرَّوْعِ كَانَ ٱلْمَفْزَعُ
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْـكُمُ ... حِضْنٌ وَقَلْبٌ أَسْلَمَتْهُ ٱلْأَضْلُـعُ
وَصَدَدْتُمُ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّـهُ ... لِعِقَابِـهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمُ إِلَّا أُسُودُ خَفِيَّـةٍ ... كُلٌّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلِعُ
يَا تَاشِفِينُ أَقِمْ لِجَيْشِكَ عُـذْرَهُ ... بِاللَّيْلِ وَٱلْعُذْرُ ٱلَّذِي لَا يُدْفَعُ

ومنها في سياسة الحرب

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ ٱلسِّيَاسَةِ مَا بِهِ ... كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ قَبْلَكَ تُولَعُ
لَا إِنَّنِي أَدْرَى بِهَـا لَكِنَّهَـا ... ذِكْرَى تَحُضُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَٱلْبَسْ مِنَ ٱلْحَلَقِ ٱلْمُضَاعَفَةِ ٱلَّتِي ... وَصَّى بِهَـا صُنْعَ ٱلصَّنَائِعِ تُبَّعُ
وَٱلْهِنْدُوَانِيَّ ٱلرَّقِيقَ فَإِنَّـهُ ... أَمْضَى عَلَى حَدِّ ٱلدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَٱرْكَبْ مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلسَّوَابِقِ عُدَّةً ... حِصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَدْفَعُ
خَنْدِقْ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً ... سِيَّانِ تَتْبَـعُ ظَافِرًا أَوْ تُتْبَعُ
وَٱلْوَادِ لَا تَعْبُرْهُ وَٱنْزِلْ عِنْـدَهُ ... بَيْنَ ٱلْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَٱجْعَلْ مُنَاجَزَةَ ٱلْجُيُوشِ عَشِيَّـةً ... وَوَرَاءَكَ ٱلصِّدْقُ ٱلَّذِي هُوَ أَمْنَعُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ ٱلْجُيُوشُ بِمَعْرَكٍ ... ضَنْكٍ فَأَطْرَافُ ٱلرِّمَاحِ تُوَسِّعُ
وَٱصْدُمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ ... شَيْئًا فَإِظْهَارُ ٱلنُّكُولِ يُضَعْضِعُ
وَٱجْعَلْ مِنَ ٱلطُّلَّاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ ... لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعِ ٱلْكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجِفًا ... لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَٱصْدُمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ ٱلْبَيْتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ ٱلْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ ٱسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا ٱلْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَكِيثُ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْفُرْصَةَ وَٱلْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي ٱلْحَرْبِ

وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لأمرته لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم * ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهي إما من خداع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدى حول العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمسون إلى النجاة وأمثال ذلك وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون * وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحرب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب

ٱلآخر مثل أن يكون أحدُ ٱلجانبين فيه عشرةٌ أو عشرون من ٱلشجعان ٱلمشاهير وفي ٱلجانب ٱلآخر ثمانيةٌ أو ستةَ عشر فٱلجانبُ ٱلزائدُ ولو بواحد يكون له ٱلغلبُ وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجعٌ إلى ٱلأسباب ٱلظاهرة ٱلتي قدّمنا وليس بصحيح وإنما ٱلصحيح ٱلمعتبرُ في ٱلغلب حالَ ٱلعصبية أن يكون في أحد ٱلجانبين عصبيةٌ واحدةٌ جامعةٌ لكلّهم وفي ٱلجانب ٱلآخر عصائبُ متعدّدةٌ لأنّ ٱلعصائب إذا كانت متعدّدةً يقع بينها من ٱلتخاذل ما يقعُ في ٱلوحدان ٱلمتفرّقين ٱلفاقدين للعصبية تنزّلُ كلُّ عصابة منهم منزلة ٱلواحد ويكونُ ٱلجانبُ ٱلذي عصابتُهُ متعدّدةٌ لا يقاوم ٱلجانبُ ٱلذي عصبتُهُ واحدةٌ لأجل ذلك فتفهّمْهُ وٱعلمْ أنّهُ أصحُّ في ٱلاعتبار ممّا ذهب إليه ٱلطرطوشيُّ ولم يحمِلْهُ على ذلك إلّا نسيانُ شأن ٱلعصبية في حلّةٍ وبلدةٍ وأنّهم إنّما يرون ذلك ٱلدفاعَ وٱلحمايةَ وٱلمطالبة إلى ٱلوحدان وٱلجماعةَ ٱلناشئةُ عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبيةً ولا نسباً وقد بيّنّا ذلك أوّلَ ٱلكتاب مع أنّ هذا وأمثالَهُ على تقدير صحّته إنّما هو من ٱلأسباب ٱلظاهرة مثل ٱتفاق ٱلجيش في ٱلعدّة وصدق ٱلقتال وكثرة ٱلأسلحة وما أشبهها فكيف يُجعل ذلك كفيلاً بٱلغلب ونحنُ قد قرّرنا لك ٱلآن أنّ شيئاً منها لا يعارضُ ٱلأسبابَ ٱلخفيّة من ٱلحيل وٱلخداع ولا ٱلأمورَ ٱلسماوية من ٱلرعب وٱلخذلان ٱلإلهي فٱفهمْهُ وتفهّم أحوالَ ٱلكون وٱللهُ مقدّرُ ٱلليل وٱلنهار * ويلحقُ بمعنى ٱلغلب في ٱلحروب وأنّ أسبابهُ خفيّةٌ وغيرُ طبيعيّةٍ حالُ ٱلشهرة وٱلصيت فقلَّ أن تصادفَ موضعَها في أحدٍ من طبقات ٱلناس من ٱلملوك وٱلعلماء وٱلصالحين وٱلمنتحلين للفضائل على ٱلعموم وكثيرٌ ممّن ٱشتهر بٱلشرّ وهو بخلافه وكثيرٌ ممّن تجاوزت عنه ٱلشهرةُ وهو أحقُّ بها وأهلُها وقد تصادفُ موضعَها وتكونُ طبقاً على صاحبها وٱلسببُ في ذلك أنّ ٱلشهرة وٱلصيتَ إنّما هما بٱلإخبار وٱلإخبارُ يدخُلُها ٱلذهولُ عن ٱلمقاصد عند ٱلتناقل ويدخُلُها ٱلتعصّب وٱلتشيعُ ويدخُلُها ٱلأوهامُ ويدخُلُها ٱلجهلُ بمطابقة ٱلحكايات للأحوال لخفائها بٱلتلبيس وٱلتصنّع أو لجهل ٱلناقل ويدخُلُها ٱلتقرّبُ لأصحاب ٱلتجلّة وٱلمراتب ٱلدنيويّة بٱلثناء وٱلمدح وتحسين ٱلأحوال وإشاعة ٱلذكر بذلك وٱلنفوسُ مولعةٌ بحبّ ٱلثناء وٱلناسُ متطاولون إلى ٱلدنيا وأسبابها من جاهٍ أو ثروةٍ وليسوا من ٱلأكثر براغبين في ٱلفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقةُ ٱلحقّ مع هذه كلّها فتختلّ ٱلشهرةُ عن

أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ مِنْ هٰذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبٍ خَفِيٍّ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِٱلْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْوَزَائِعِ كَثِيرَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَآخِرَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ كَثِيرَةَ ٱلْوَزَائِعِ قَلِيلَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ ٱلدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا ٱلْمَغَارِمَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنَ ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوَزَائِعِ لِأَنَّ مِقْدَارَ ٱلزَّكَاةِ مِنَ ٱلْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ ٱلْحُبُوبِ وَٱلْمَاشِيَةِ وَكَذَا ٱلْجِزْيَةُ وَٱلْخَرَاجُ وَجَمِيعُ ٱلْمَغَارِمِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي ٱلْمُسَامَحَةَ وَٱلْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ ٱلْجَنَاحِ وَٱلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْغَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذٰلِكَ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذٰلِكَ مِقْدَارُ ٱلْوَظِيفَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْوَزِيعَةِ ٱلَّتِي تُجْمَعُ ٱلْأَمْوَالُ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ ٱلْوَزَائِعُ وَٱلْوَظَائِفُ عَلَى ٱلرَّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ ٱلِاعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ ٱلِاغْتِبَاطِ بِقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ ٱلِاعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْوَزَائِعِ فَكَثُرَتِ ٱلْجِبَايَةُ ٱلَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَٱتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَٱتَّصَفُوا بِٱلْكَيْسِ وَذَهَبَ سِرُّ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَخُلُقُهَا مِنَ ٱلْإِغْضَاءِ وَٱلتَّجَافِي وَجَاءَ ٱلْمُلْكُ ٱلْعَضُوضُ وَٱلْحَضَارَةُ ٱلدَّاعِيَةُ إِلَى ٱلْكَيْسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا ٱنْغَمَسُوا فِيهِ مِنَ ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ فَيُكَثِّرُونَ ٱلْوَظَائِفَ وَٱلْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ ٱلْمَغَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ مِقْدَاراً عَظِيماً لِتَكْثُرَ لَهُمُ ٱلْجِبَايَةُ وَيَضَعُونَ ٱلْمُكُوسَ عَلَى ٱلْمُبَايَعَاتِ وَفِي ٱلْأَبْوَابِ كَمَا نَذْكُرُ بَعْدُ ثُمَّ تَتَدَرَّجُ ٱلزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارٍ بَعْدَ مِقْدَارٍ لِتَدَرُّجِ عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْحَاجَاتِ وَٱلْإِنْفَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ ٱلْمَغَارِمُ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ ٱلزِّيَادَةَ تَدَرَّجَتْ قَلِيلاً قَلِيلاً وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى ٱلتَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا تَثْبُتُ عَلَى ٱلرَّعَايَا فِي ٱلِاعْتِمَارِ لِذَهَابِ ٱلْأَمَلِ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلنَّفْعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ

ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الإعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ملكوت كل شيء

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الدولة

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه طرق الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد

ٱلْأَسْوَاقُ لِفَسَادِ ٱلْآمَالِ وَيُؤْذِنُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَيَعُودُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلَا يَزَالُ ذٰلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ ٱلْمَشْرِقِ فِي أُخْرَيَاتِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتِ ٱلْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى ٱلْحَاجِّ فِي ٱلْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ ٱلرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِآثَارِ ٱلْخَيْرِ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ ٱلطَّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ أَمِيرُ ٱلْمُرَابِطِينَ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ ٱلْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حِينَ ٱسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلنَّفَقَاتِ وَقَصُرَ ٱلْحَاصِلُ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَٱحْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ فَتَارَةً تُوضَعُ ٱلْمُكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ ٱلرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ ٱلْمُكُوسِ إِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ ٱلْعُمَّالِ وَٱلْجُبَاةِ وَٱمْتِكَاكِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ ٱلْحُسْبَانُ وَتَارَةً بِٱسْتِحْدَاثِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفِلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ ٱلْجِبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ ٱلتُّجَّارَ وَٱلْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ ٱلْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ لِٱسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِنْ إِدْرَارِ ٱلْجِبَايَةِ وَتَكْثِيرِ ٱلْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِدْخَالُ ٱلضَّرَرِ عَلَى ٱلرَّعَايَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوَّلاً مُضَايَقَةُ ٱلْفَلَاحِينَ وَٱلتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلرَّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي ٱلْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحَمَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقْرُبُ وَإِذَا رَافَقَهُمُ ٱلسُّلْطَانُ فِي ذٰلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيراً مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ مِنْ ذٰلِكَ غَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ قَدْ يَنْتَزِعُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَصْباً أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْخَسُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ ٱلْفِلَاحَةِ وَمُغَلُّهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

ٱلغَلَّاتِ وَحصلَتْ بَضَائِعُ ٱلتِّجارَةِ مِنْ سَائِرِ ٱلْأَنْوَاعِ فَلا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ ٱلْأَسْوَاقِ وَلا نَفَاقَ ٱلبِيَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ ٱلدَّوْلَةِ فَيُكَلِّفُونَ أَهْلَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ مِنْ تَاجِرٍ أَوْ فَلَّاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ ٱلبَضَائِعِ وَلا يَرْضَوْنَ فِي أَثْمَانِهَا إِلَّا ٱلقِيَمَ وَأَزْيَدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ فِي ذٰلِكَ نَاضَّ أَمْوَالِهِمْ وَتَبْقَى تِلْكَ ٱلبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عُرُوضاً جَامِدَةً وَيَمْكُثُونَ عُطْلًا مِنَ ٱلإِدَارَةِ ٱلَّتِي فِيهَا كَسْبُهُمْ وَمَعَاشُهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمُ ٱلضَّرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلمَالِ فَيَبِيعُونَ تِلْكَ ٱلسِّلَعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ ٱلْأَسْوَاقِ بِأَبْخَسِ ثَمَنٍ وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذٰلِكَ عَلَى ٱلتَّاجِرِ وَٱلفَلَّاحِ مِنْهُمْ بِمَا يُذْهِبُ رَأْسَ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سُوقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذٰلِكَ وَيَتَكَرَّرُ وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى ٱلرَّعَايَا مِنَ ٱلعَنَتِ وَٱلمُضَايَقَةِ وَفَسَادِ ٱلْأَرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ آمَالَهُمْ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إِلَى فَسَادِ ٱلجِبَايَةِ فَإِنَّ مُعْظَمَ ٱلجِبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلفَلَّاحِينَ وَٱلتُّجَّارِ وَلا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ ٱلمُكُوسِ وَنُمُوِّ ٱلجِبَايَةِ بِهَا فَإِذَا ٱنْقَبَضَ ٱلفَلَّاحُونَ عَنِ ٱلفِلَاحَةِ وَقَعَدَ ٱلتُّجَّارُ عَنِ ٱلتِّجَارَةِ وَذَهَبَتِ ٱلجِبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ دَخَلَهَا ٱلنَّقْصُ ٱلمُتَفَاحِشُ وَإِذَا قَايَسَ ٱلسُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ ٱلجِبَايَةِ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَاحِ ٱلقَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلجِبَايَةِ أَقَلَّ مِنَ ٱلقَلِيلِ ثُمَّ إِنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيداً فَيَذْهَبُ لَهُ بِحَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ ٱلجِبَايَةِ فِيمَا يُعَانِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أَوْ بَيْعٍ فَإِنَّهُ مِنَ ٱلبَعِيدِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلمَكْسِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ فِي تِلْكَ ٱلصَّفَقَاتِ لَكَانَ تَكَسُّبُهَا كُلُّهَا حَاصِلًا مِنْ جِهَةِ ٱلجِبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ ٱلتَّعَرُّضُ لِأَهْلِ عُمْرَانِهِ وَٱخْتِلَالُ ٱلدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَنَقْصِهِمْ فَإِنَّ ٱلرَّعَايَا إِذَا قَعَدُوا عَنْ تَثْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ بِٱلفِلَاحَةِ وَٱلتِّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاشَتْ بِٱلنَّفَقَاتِ وَكَانَ فِيهَا تَلَافُ أَحْوَالِهِمْ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَكَانَ ٱلفُرْسُ لا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ٱلمَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلفَضْلِ وَٱلدِّينِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلسَّخَاءِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذٰلِكَ ٱلعَدْلَ وَأَنْ لا يَتَّخِذَ صَنْعَةً فَيُضِرَّ بِجِيرَانِهِ وَلا يُتَاجِرَ فَيُحِبَّ غَلَاءَ ٱلْأَسْعَارِ فِي ٱلبَضَائِعِ وَأَنْ لا يَسْتَخْدِمَ ٱلعَبِيدَ فَإِنَّهُمْ لا يُشِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلا مَصْلَحَةٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ لا يُنْمِي مَالَهُ وَلا يُدِرُّ مَوْجُودَهُ إِلَّا ٱلجِبَايَةُ وَإِدْرَارُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلعَدْلِ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلنَّظَرِ لَهُمْ بِذٰلِكَ فَبِذٰلِكَ تَنْبَسِطُ آمَالُهُمْ وَتَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْأَخْذِ فِي تَثْمِيرِ ٱلْأَمْوَالِ وَتَنْمِيَتِهَا فَتَعْظُمُ مِنْهَا جِبَايَةُ ٱلسُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذٰلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ فَلْحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مَضَرَّةٌ عَاجِلَةٌ لِلرَّعَايَا وَفَسَادٌ لِلجِبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلعِمَارَةِ وَقَدْ يَنْتَهِي ٱلحَالُ بِهٰؤُلَاءِ ٱلمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ

وَٱلْفِلَاحَةِ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْمُتَغَلِّبِينَ فِي ٱلْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ ٱلْغَلَّاتِ وَٱلسِّلَعِ مِنْ أَرْبَابِهَا ٱلْوَارِدِينَ عَلَى بَلَدِهِمْ وَيَفْرِضُونَ لِذَٰلِكَ مِنَ ٱلثَّمَنِ مَا يَشَاؤُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلرَّعَايَا بِمَا يَفْرِضُونَ مِنَ ٱلثَّمَنِ وَهٰذِهِ أَشَدُّ مِنَ ٱلْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ ٱلسُّلْطَانَ عَلَى ذٰلِكَ مَنْ يُدَاخِلُهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ أَعْنِي ٱلتُّجَّارَ وَٱلْفَلَّاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ ٱلسُّلْطَانَ عَلَى ذٰلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ ٱلْمَالِ سَرِيعاً وَلَا سِيَّمَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ بِلَا مَغْرَمٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ ٱلْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَثْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلضَّرَرِ بِنَقْصِ جِبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعَايَتِهِمِ ٱلْمُضِرَّةِ بِجِبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَٱللهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ ٱلْقَبِيلِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ بِمِقْدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فَرَئِيسُهُمْ فِي ذٰلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلِٱسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ ٱلْجِبَايَةِ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذٰلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَجَاهُهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا ٱسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلِٱسْتِبْدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلْجِبَايَاتِ إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُظُوظُهُمْ إِذْ ذَاكَ لِقِلَّةِ غَنَائِهِمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ بِمَا ٱنْكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَصَارَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي ٱلْقِيَامِ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ ٱلْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِٱلْجِبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى ٱلْأَمْوَالِ وَيَحْتَجِنُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مُهِمَّاتِ ٱلْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِئُ خَزَائِنُهُ وَيَتَّسِعُ نِطَاقُ جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ وَمَوْلًى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ ٱلْأَمْوَالَ وَيَتَأَثَّلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ فِي

الهرم بتلاشي العصبية وفناء القليل المباهرين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثلة آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه . وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عباده

فصل * ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها ولا سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان

وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ ٱلرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ أَمَّا أَوَّلاً فَلِمَا يَرَاهُ ٱلْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكُ لَهُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرَةً مِنْ خِدْمَتِهِ لِسِوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلسَّفَرِ لِفَرِيضَةِ ٱلْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وُقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَلَمْ يَحُجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ ٱلْحَجُّ لِأَهْلِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ ٱلأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِياً فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبْ إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِهَا فَتَحُومُ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱنْتِزَاعِ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ وَٱلْتِقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَلَصَ بِذٰلِكَ ٱلْمَالِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلأَقَلِّ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْمُلُوكِ بِذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَٱلتَّخْوِيفِ تَعْرِيضاً أَوْ بِالْقَهْرِ ظَاهِراً لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي ٱلْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ ٱلْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ فَأَحْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تَجِدُ ٱلسَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالشَّرْعِ وَٱلْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ ٱللِّحْيَانِيُّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ ٱلْحَفْصِيِّينَ بِإِفْرِيقِيَةَ ٱلْخُرُوجَ عَنْ عُهْدَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱللَّحَاقَ بِمِصْرَ فِرَاراً مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ ٱلثُّغُورِ ٱلْغَرْبِيَّةِ لَمَّا ٱسْتَجْمَعَ لِغَزْوِ تُونِسَ فَٱسْتَعْمَلَ ٱللِّحْيَانِيُّ ٱلرِّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ طَرَابُلُسَ يُوَرِّي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ ٱلسُّفُنَ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بِبَيْتِ ٱلْمَالِ مِنَ ٱلصَّامِتِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْجَوْهَرِ حَتَّى ٱلْكُتُبِ وَٱحْتَمَلَ ذٰلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلاوُونَ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نُزُلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً بِالتَّعْرِيضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ٱبْنِ ٱللِّحْيَانِيِّ إِلَّا فِي جِرَايَتِهِ ٱلَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ حَسْبَمَا نَذْكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ ٱلدُّوَلِ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنِ ٱتَّفَقَ لَهُمُ ٱلْخَلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

أَلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران فإذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فإن كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضاً فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه ومنه إليهم فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله

من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وانذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق [فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي

من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً لأن النقص إنما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترفعه بجدتها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الأملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهماً وأدلته من القرآن والسنة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادراً على الظلم لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على

اقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد. ولا تقولن إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لأن المحارب زمن حرابته قادر فإن في الجواب عن ذلك طريقين: أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أموال على ما ذهب إليه كثير وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء. ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتأجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف

ٱلتُّجَّارِ ٱلْمُقِيمِينَ بِٱلْمَدِينَةِ وَٱلْوَارِدِينَ مِنَ ٱلْآفَاقِ فِي ٱلْبَضَائِعِ وَسَائِرِ ٱلسُّوقَةِ وَأَهْلِ ٱلدَّكَاكِينِ فِي ٱلْمَآكِلِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ فِيمَا يُتَّخَذُ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ فَتَشْمُلُ ٱلْخَسَارَةُ سَائِرَ ٱلْأَصْنَافِ وَٱلطَّبَقَاتِ وَتَتَوَالَى عَلَى ٱلسَّاعَاتِ وَتُجْحِفُ بِرُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِيجَةً إِلَّا ٱلْقُعُودَ عَنِ ٱلْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِٱلْأَرْبَاحِ وَيَتَثَاقَلُ ٱلْوَارِدُونَ مِنَ ٱلْآفَاقِ لِشِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ فَتَكْسُدُ ٱلْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ ٱلرَّعَايَا لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَسْوَاقُ عُطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ جِبَايَةُ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْمُكُوسِ عَلَى ٱلْبِيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيَؤُولُ ذَٰلِكَ إِلَى تَلَاشِي ٱلدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمْرَانِ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَٰذَا ٱلْخَلَلُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعَرُ بِهِ هَٰذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَٰذِهِ ٱلذَّرَائِعِ وَٱلْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَّانًا وَٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرَمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى ٱلْخَلَلِ وَٱلْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتَقِضُ ٱلدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ ٱلْهَرْجِ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَٰذِهِ ٱلْمَفَاسِدِ حَظَرَ ٱلشَّرْعُ ذَٰلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ ٱلْمُكَايَسَةَ فِي ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ سَدًّا لِأَبْوَابِ ٱلْمَفَاسِدِ ٱلْمُفْضِيَةِ إِلَى ٱنْتِقَاضِ ٱلْعُمْرَانِ بِٱلْهَرْجِ أَوْ بُطْلَانِ ٱلْمَعَاشِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّاعِيَ لِذَٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَى ٱلْإِكْثَارِ مِنَ ٱلْمَالِ بِمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ ٱلْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ ٱلدَّخْلُ عَلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ أَلْقَابًا وَوُجُوهًا يُوَسِّعُونَ بِهَا ٱلْجِبَايَةَ لِيَفِيَ لَهُمُ ٱلدَّخْلُ بِٱلْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّرَفُ يَزِيدُ وَٱلْخَرْجُ بِسَبَبِهِ يَكْثُرُ وَٱلْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ بِذَٰلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمَّحِي دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرَسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ ٱسْتِيلَاؤُهَا وَٱلْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِٱلدِّينِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا

بعزّ الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه
فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة
والقرب من الناس وسهولة الإذن فإذا رسخ عزّه وصار إلى الانفراد بنفسه عن
الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه لما يكثر حينئذ بحاشيته فيطلب
الانفراد من العامّة ما استطاع ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل
دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثمّ إذا استفحل الملك
وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت أخلاق صاحب الدولة إلى أخلاق الملك وهي أخلاق
غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربّما جهل تلك
الأخلاق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوا وصاروا إلى حالة الانتقام
منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواصّ من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصّة
عن لقائهم في كلّ وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم على الناس من
التعرّض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخصّ من الحجاب الأوّل يفضي إليهم منه
خواصّهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامّة والحجاب الثاني يفضي إلى
مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامّة والحجاب الأوّل يكون في أوّل
الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أميّة وكان
القائم على ذلك الحجاب يسمّى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح
ثمّ لمّا جاءت دولة بني العبّاس وجدت الدولة من الترف والعزّ ما هو معروف
وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب
أخصّ به وصار بباب الخلفاء داران للعبّاسية دار الخاصّة ودار العامّة كما هو مسطور
في أخبارهم ثمّ حدث في الدول حجاب ثالث أخصّ من الأوّلين وهو عند محاولة الحجر
على صاحب الدولة وذلك أنّ أهل الدولة وخواصّ الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب
وحاولوا الاستبداد عليهم فأوّل ما يبدأ به ذلك المستبدّ أن يحجب عنه بطانة أبيه
وخواصّ أوليائه يوهمه أنّ في مباشرتهم إيّاه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب
ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوّده ملابسة أخلاقه هو حتّى لا يتبدّل به سواه إلى أن
يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في

ٱلْغَالِبِ إِلَّا أَوَاخِرَ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْخَبَرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى هَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ ٱلدُّوَلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ يُحَاوِلُونَ عَلَى ذَٰلِكَ بِطِبَاعِهِمْ عِنْدَ هَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ وَذَهَابِ ٱلِاسْتِبْدَادِ مِنْ أَعْقَابِ مُلُوكِهِمْ لِمَا رُكِّبَ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ ٱلِاسْتِبْدَادِ بِٱلْمُلْكِ وَخُصُوصًا مَعَ ٱلتَّرْشِيحِ لِذَٰلِكَ وَحُصُولِ دَوَاعِيهِ وَمَبَادِيهِ

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثَارِ ٱلْهَرَمِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱنْقِسَامُهَا وَذَٰلِكَ إِنَّ ٱلْمُلْكَ عِنْدَ مَا يَسْتَفْحِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبِدُّ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْمَجْدِ وَيَنْفَرِدُ بِهِ وَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ عَنِ ٱلْمُشَارَكَةِ وَيَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أَسْبَابِهَا مَا ٱسْتَطَاعَ بِإِهْلَاكِ مَنِ ٱسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ ٱلْمُرَشَّحِينَ لِمَنْصِبِهِ فَرُبَّمَا ٱرْتَابَ ٱلْمُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذَٰلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَنَزَعُوا إِلَى ٱلْقَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ حَالِهِمْ مِنَ ٱلِاغْتِرَارِ وَٱلِاسْتِرَابَةِ وَيَكُونُ نِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي ٱلتَّضَايُقِ وَرَجَعَ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ فَيَسْتَبِدُّ ذَٰلِكَ ٱلنَّازِعُ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَعْظُمُ بِتَرَاجُعِ نِطَاقِ ٱلدَّوْلَةِ حَتَّى يُقَاسِمَ ٱلدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادَ وَٱنْظُرْ ذَٰلِكَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ حِينَ كَانَ أَمْرُهَا حَرِيزًا مُجْتَمِعًا وَنِطَاقًا مُمْتَدًّا فِي ٱلِاتِّسَاعِ وَعَصَبِيَّةُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَاحِدَةٌ غَالِبَةٌ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ فَلَمْ يَنْبِضْ عِرْقٌ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ سَائِرَ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْخَوَارِجِ ٱلْمُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بِدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ لِنَزْعَةِ مُلْكٍ وَلَا رِئَاسَةٍ وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُمْ لِمُزَاحَمَتِهِمُ ٱلْعَصَبِيَّةَ ٱلْقَوِيَّةَ ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ ٱلْأَمْرُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱسْتَقَلَّ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ بِٱلْأَمْرِ وَكَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ قَدْ بَلَغَتِ ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْغَلَبِ وَٱلتَّرَفِ وَآذَنَتْ بِٱلتَّقَلُّصِ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ نَزَعَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلُ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ قَاصِيَةِ دَوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِ فَٱسْتَحْدَثَ بِهَا مُلْكًا وَٱقْتَطَعَهَا عَنْ دَوْلَتِهِمْ وَصَيَّرَ ٱلدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ ثُمَّ نَزَعَ إِدْرِيسُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَخَرَجَ بِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهِ وَأَمْرِ ٱبْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ ٱلْبَرَابِرَةُ مِنْ أُورُبَةَ وَمُغِيلَةَ وَزَنَاتَةَ وَٱسْتَوْلَى عَلَى نَاحِيَةِ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ثُمَّ ٱزْدَادَتِ ٱلدَّوْلَةُ تَقَلُّصًا فَٱضْطَرَبَ ٱلْأَغَالِبَةُ فِي ٱلِامْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ ثُمَّ خَرَجَ ٱلشِّيعَةُ وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ كُتَامَةُ وَصِنْهَاجَةُ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَغَلَبُوا عَلَى ٱلْأَدَارِسَةِ وَقَسَمُوا ٱلدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ وَصَارَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ثَلَاثَ دُوَلٍ دَوْلَةَ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ

مركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام ودولة بني أمية المجددين بالأندلس لملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكرياء يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكاً ببجاية وقسنطينة وما إليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بأفريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لابد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدول والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبينا أنها

تحدثُ لِلدَّوْلَةِ بالطَّبعِ وَأَنها كُلّها أُمورٌ طبيعيَّةٌ لها وَإِذا كانَ الهرمُ طبيعياً في الدَّوْلَةِ كانَ حدوثُهُ بمثابةِ حدوثِ الأُمورِ الطَّبيعيَّةِ كما يحدثُ الهرمُ في المزاجِ الحيوانيِّ وَالهرمُ مِنَ الأَمراضِ المزمنةِ الَّتي لا يُمكنُ دواؤُها وَلا ارتفاعُها لِما أَنَّهُ طبيعيٌّ وَالأُمورُ الطَّبيعيَّةُ لا تتبدَّلُ وَقَدْ يتنبَّهُ كثيرٌ مِنْ أَهلِ الدُّوَلِ مِمَّنْ لَهُ يقظةٌ في السِّياسةِ فيرى ما نزلَ بدولتِهِم مِنْ عوارضِ الهرمِ وَيظنُّ أَنَّهُ مُمكنُ الارتفاعِ فيأخذُ نفسَهُ بتلافي الدَّوْلَةِ وَإِصلاحِ مزاجِها عَنْ ذلكَ الهرمِ وَيحسبُهُ أَنَّهُ لحقها بتقصيرِ مَنْ قبلَهُ مِنْ أَهلِ الدَّوْلَةِ وَغفلتِهِم وَلَيسَ كذلكَ فإِنَّها أُمورٌ طبيعيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالعوائدُ هِيَ المانعةُ لَهُ مِنْ تلافيها وَالعوائدُ منزلةٌ طبيعيَّةٌ أُخرى فإِنَّ مَنْ أَدركَ مثلاً أَباهُ وَأَكثرَ أَهلِ بيتِهِ يلبسونَ الحريرَ وَالدِّيباجَ وَيتحلَّونَ بالذَّهبِ في السِّلاحِ وَالمراكبِ وَيحتجبونَ عَنِ النَّاسِ في المجالسِ وَالصَّلواتِ فلا يُمكنُهُ مخالفةُ سلفِهِ في ذلكَ إِلى الخشونةِ في اللِّباسِ وَالزِّيِّ وَالاختلاطِ بالنَّاسِ إِذِ العوائدُ حينئذٍ تمنعُهُ وَتقبحُ عليهِ مرتكبَهُ وَلَوْ فعلَهُ لرُمِيَ بالجنونِ وَالوسواسِ في الخروجِ عَنِ العوائدِ دفعةً وَخُشِيَ عليهِ عائدةُ ذلكَ وَعاقبتُهُ في سلطانِهِ وَانظرْ شأنَ الأَنبياءِ في إِنكارِ العوائدِ وَمخالفتِها لولا التَّأْييدُ الإِلهيُّ وَالنَّصرُ السَّماويُّ وَرُبَّما تكونُ العصبيَّةُ قَدْ ذهبتْ فتكونُ الأُبَّهةُ تعوِّضُ عَنْ موقعِها مِنَ النُّفوسِ فإِذا أُزيلتْ تلكَ الأُبَّهةُ مَعَ ضعفِ العصبيَّةِ تجاسرتِ الرَّعايا على الدَّوْلَةِ بذهابِ أَوهامِ الأُبَّهةِ فتتدرَّعُ الدَّوْلَةُ بتلكَ الأُبَّهةِ ما أَمكنها حتَّى ينقضيَ الأَمرُ وَرُبَّما يحدثُ عندَ آخرِ الدَّوْلَةِ قوَّةٌ توهمُ أَنَّ الهرمَ قَدِ ارتفعَ عنها وَيومضُ ذُبالُها إِيماضةَ الخمودِ كما يقعُ في الذُّبالِ المشتعلِ فإِنَّهُ عندَ مقاربةِ انطفائِهِ يومضُ إِيماضةً توهمُ أَنَّها اشتعالٌ وَهِيَ انطفاءٌ فاعتبرْ ذلكَ وَلا تغفلْ سرَّ اللهِ تعالى وَحكمتَهُ في اطِّرادِ وجودِهِ على ما قدَّرَ فيهِ وَلِكُلِّ أَجلٍ كتابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إِعلمْ أَنَّ مبنى الملكِ على أَساسينِ لا بُدَّ منهما فالأَوَّلُ الشَّوكةُ وَالعصبيَّةُ وَهُوَ المعبَّرُ عنهُ بالجندِ وَالثَّاني المالُ الَّذي هُوَ قوامُ أُولئكَ الجندِ وَإِقامةُ ما يحتاجُ إِليهِ الملكُ مِنَ الأَحوالِ وَالخللُ إِذا طرقَ الدَّوْلَةَ طرقها في هذينِ الأَساسينِ فلنذكرْ أَوَّلاً طروقَ

ٱلخَلَل في ٱلشَّوْكَة وَٱلعَصبيَّة ثُمَّ نَرجعُ إلى طُرُوقِهِ في ٱلمَالِ وَٱلْجِبَايَة وَٱعْلَمْ أَنَّ تَمهيد ٱلدَّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا قُلْنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ كُبْرَى جَامِعَة لِلْعَصَائِبِ مُسْتَتْبِعَةٍ لَهَا وَهِيَ عَصَبِيَّةُ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلخَاصَّةِ مِنْ عَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلدَّوْلَةَ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَانَ أَوَّلُ مَا يُجْدَعُ أُنُوف عَشِيرَتِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ ٱلْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي ٱسْمِ ٱلْمُلْكِ فَيَسْتَبِدُّ فِي جَدْعِ أُنُوفِهِمْ بِمَا بَلَغ مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْعِزِّ وَٱلْغَلَبِ فَيُحِيطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا ٱلتَّرَفُ وَٱلْقَهْر ثُمَّ يَصِيرُ ٱلْقَهْرُ آخِراً إِلَى ٱلْقَتْلِ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوخِ ٱلْمُلْكِ لِصَاحِب ٱلأَمْرِ فَيَنْقَلِبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِٱلْقَتْلِ وَٱلْإِهَانَةِ وَسَلْب ٱلنِّعْمَةِ وَٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي تَعَوَّدُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقِلُّونَ وَتَفْسُدُ عَصَبِيَّةُ صَاحِب ٱلدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْكُبْرَى ٱلَّتِي كَانَتْ تُجْمَعُ بِهَا ٱلْعَصَائِبُ وَتَسْتَتْبِعُهَا فَتَنْحَل عُرْوَتُهَا وَتَضْعُفُ شَكِيمَتُهَا وَتَسْتَبْدِلُ عَنْهَا بِٱلْبِطَانَةِ مِنْ مَوَالِي ٱلنِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ ٱلْإِحْسَان وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ عَصَبِيَّةً إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ ٱلشِّدَّةِ ٱلشَّكِيمِيَّةِ لِفُقْدَانِ ٱلرَّحِمِ وَٱلْقَرَابَة مِنْهَا وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ شَأْنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِٱلْقَرَابَةِ وَٱلرَّحِمِ لِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِي ذَٰلِكَ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱلْعَشِيرِ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَيُحِسُّ بِذَٰلِكَ أَهْل ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بِطَانَتِهِ تَجَاسُراً طَبِيعِيّاً فَيُهْلِكُهُمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَة وَيَتْبَعُهُمْ بِٱلْقَتْلِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَيُقَلِّدُ ٱلْآخِرُ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ذَٰلِكَ ٱلْأَوَّلَ مَعَ مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلَكَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمِ ٱلْهَلَاكُ بِٱلتَّرَف وَٱلْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِبْغَةِ تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَيُفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَتَوَرُّتِهَا وَيَصِيرُوا أَوْجَز عَلَى ٱلْحِمَايَةِ وَيَقِلُّونَ لِذَٰلِكَ فَتَقِلُّ ٱلْحِمَايَةُ ٱلَّتِي تَنْزِلُ بِٱلْأَطْرَافِ وَٱلثُّغُورِ فَتَتَجَاسَرُ ٱلرَّعَايَا عَلَى بَعْضِ ٱلدَّعْوَةِ فِي ٱلْأَطْرَافِ وَيُبَادِرُ ٱلْخَوَارِجُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ ٱلْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ ٱلْقَاصِيَةِ لَهُم وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ ٱلْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَٰلِكَ يَتَدَرَّجُ وَنِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ يَتَضَايَقُ حَتَّى تَصِيرَ ٱلْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ ٱلْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ ٱلدَّوْلَةِ وَرُبَّمَا ٱنْقَسَمَتِ ٱلدَّوْلَةُ عِنْد ذَٰلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي ٱلْأَصْلِ كَمَا قُلْنَاهُ وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْل عَصَبِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْعَاناً لِأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَلِغَلَبِهِمِ ٱلْمَعْهُودِ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ فِي

ٱلإسلام كيفَ ٱنتهتْ أوّلاً إلى ٱلأندلس وٱلهندِ وٱلصينِ وكانَ أمرُ بني أُميّةَ نافذاً في جميع ٱلعربِ بعصبيّةِ بني منافٍ حتّى لقدْ أمرَ سليمانُ بنُ عبدِ ٱلملكِ بدمشقَ بقتلِ عبدِ ٱلعزيزِ بنِ موسى بن نصيرٍ بقرطبةَ فقُتلَ ولمْ يُردَّ أمرُهُ ثمَّ تلاشتْ عصبيّةُ بني أُميّةَ بما أصابهمْ منَ ٱلترفِ فٱنقرضوا وجاءَ بنو ٱلعبّاسِ فغضّوا منْ أعنّةِ بني هاشمٍ وقتلوا ٱلطالبيّينَ وشرّدوهمْ فٱنحلّتْ عصبيّةُ عبدِ منافٍ وتلاشتْ وتجاسرَ ٱلعربُ عليهمْ فٱستبدّ عليهمْ أهلُ ٱلقاصيةِ مثلُ بني ٱلأغلبِ بإفريقيّةَ وأهلِ ٱلأندلسِ وغيرِهمْ وٱنقسمتِ ٱلدّولةُ ثمّ خرجَ بنو أدريسَ بٱلمغربِ وقامَ ٱلبربرُ بأمرِهمْ إذعاناً للعصبيّةِ ٱلّتي لهمْ وأمناً أنْ تصلَهمْ مقاتلةٌ أوْ حاميةٌ للدّولةِ فإذا خرجَ ٱلدّعاةُ آخراً فيتغلّبونَ على ٱلأطرافِ وٱلقاصيةِ وتحصلُ لهمْ هناكَ دعوةٌ وملكٌ تنقسمُ بهِ ٱلدّولةُ وربّما يزيدُ ذلكَ متى زادتِ ٱلدّولةُ تقلّصاً إلى أنْ ينتهيَ إلى ٱلمركزِ وتضعفَ ٱلبطانةُ بعدَ ذلكَ بما أخذَ منها ٱلترفُ فتهلكُ وتضمحلُّ وتضعفُ ٱلدّولةُ ٱلمنقسمةُ كلُّها وربّما طالَ أمدُها بعدَ ذلكَ فتستغني عنِ ٱلعصبيّةِ بما حصلَ لها منَ ٱلصبغةِ في نفوسِ أهلِ إيالتِها وهيَ صبغةُ ٱلانقيادِ وٱلتسليمِ منذُ ٱلسنينَ ٱلطويلةِ ٱلّتي لا يعقلُ أحدٌ منَ ٱلأجيالِ مبدأَها ولا أوّليّتَها فلا يعقلونَ إلّا ٱلتسليمَ لصاحبِ ٱلدّولةِ فيستغني بذلكَ عنْ قوّةِ ٱلعصائبِ. ويكفي صاحبَها بما حصلَ لها في تمهيدِ أمرِها ٱلإجراءُ على ٱلحاميةِ منْ جنديٍّ ومرتزقٍ ويعضدُ ذلكَ ما وقعَ في ٱلنفوسِ عامّةً منَ ٱلتسليمِ فلا يكادُ أحدٌ يتصوّرُ عصياناً أوْ خروجاً إلّا وٱلجمهورُ منكرونَ عليهِ مخالفونَ لهُ فلا يقدرُ على ٱلتصدّي لذلكَ ولوْ جهدَ جهدَهُ وربّما كانتِ ٱلدّولةُ في هذا ٱلحالِ أسلمَ منَ ٱلخوارجِ وٱلمنازعةِ لٱستحكامِ صبغةِ ٱلتسليمِ وٱلانقيادِ لهمْ فلا تكادُ ٱلنفوسُ تحدّثُ سرَّها بمخالفةٍ ولا يختلجُ في ضميرِها ٱنحرافٌ عنِ ٱلطاعةِ فيكونُ أسلمَ منَ ٱلهرجِ وٱلانتقاضِ ٱلذي يحدثُ منَ ٱلعصائبِ وٱلعشائرِ ثمَّ لا يزالُ أمرُ ٱلدّولةِ كذلكَ وهيَ تتلاشى في ذاتِها شأنَ ٱلحرارةِ ٱلغريزيّةِ في ٱلبدنِ ٱلعادمِ للغذاءِ إلى أنْ تنتهيَ إلى وقتِها ٱلمقدورِ ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ولكلِّ دولةٍ أمدٌ وٱللهُ يقدّرُ ٱلليلَ وٱلنهارَ وهوَ ٱلواحدُ ٱلقهّارُ . وأمّا ٱلخللُ ٱلّذي يتطرّقُ منْ جهةِ ٱلمالِ فٱعلمْ أنَّ ٱلدّولةَ في أوّلِها تكونُ بدويّةً كما مرَّ فيكونُ خلقُ ٱلرفقِ بٱلرعايا وٱلقصدِ في ٱلنفقاتِ وٱلتعفّفِ عنِ ٱلأموالِ فتتجافى عنِ ٱلإمعانِ في ٱلجبايةِ وٱلتحذلقِ

وَالْكَيْسُ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسَانِ الْعُمَّالِ وَلا دَاعِيَةَ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النَّفَقَةِ فَلا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الْإِسْتِيلاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْحِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرَّعِيَّةِ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمُكُوسِ عَلَى أَثْمَانِ الْبِيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِدْرَارِ الْجِبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِالرَّفْهِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ فَلا تَفِي بِهَا الْمُكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدِ اسْتَفْحَلَتْ فِي الْإِسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشُبْهَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفَشَلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوِي بِسَكِينَةِ الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِيجَةً وَتَكُونُ جُبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثَرْوَتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجِبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ لِذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاحْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجِبَايَةِ وَتَفْشُو السِّعَايَةُ فِيهِمْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحِقْدِ فَتَعُمُّهُمُ النَّكَبَاتُ وَالْمُصَادَرَاتُ وَاحِداً وَاحِداً إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثَرْوَتُهُمْ وَتَتَلاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيُفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأُبَّهَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطُلِمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمُ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهَنُ فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشَّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْإِسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مُدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَذْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعَ مِنَ السَّيْفِ لِقِلَّةِ غَنَائِهِ فَتَعْظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النَّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلا يُغْنِي فِيمَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النَّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى أَنْ تُفْضِيَ إِلَى الْهَلاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الْإِسْتِيلاءِ الْكَلَالَ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السِّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِئَ وَاللهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعلَمْ أنَّ نشأةَ الدُّوَلِ وبِدايَتَها إذا أخذَتِ الدَّولةُ المُستقِرَّةُ في الهرمِ والانتقاص تكونُ على نوعَينِ إمّا بأنْ يَستبِدَّ وُلاةُ الأعمالِ في الدَّولةِ بالقاصيةِ عندَ ما يتقلَّص ظِلُّها عنهم فيكونُ لكلِّ واحدٍ منهم دولةٌ يَستجِدُّها لقومِهِ وما يستقِرُّ في نِصابِهِ يرِثُهُ عنهُ أبناؤُهُ أو مَواليهِ ويَستفحِلُ لهمُ المُلكُ بالتَّدريجِ ورُبَّما يَزدحِمونَ على ذلكَ المُلكِ ويتقارعونَ عليهِ ويَتنازَعونَ في الاستئثارِ بهِ ويَغلِبُ منهم مَنْ يكونُ لهُ فضلُ قوَّةٍ على صاحبِهِ ويَنتزِعُ ما في يدِهِ كما وقعَ في دولةِ بني العبّاسِ حينَ أخذَتْ دولتُهم في الهرمِ وتقلَّصَ ظِلُّها عنِ القاصيةِ واستبدَّ بنو سامانَ بما وراءَ النَّهرِ وبنو حمدانَ بالموصلِ والشّامِ وبنو طولونَ بمصرَ وكما وقعَ بالدَّولةِ الأمويَّةِ بالأندلسِ وافترقَ مُلكُها في الطَّوائفِ الَّذينَ كانوا وُلاتَها في الأعمالِ وانقسمَتْ دُوَلاً ومُلوكاً أورَثوها مَنْ بعدَهم مِنْ قرابتِهم أو مَواليهم وهذا النَّوعُ لا يكونُ بينَهم وبينَ الدَّولةِ المُستقِرَّةِ حرباً لأنَّهم مستقِرُّونَ في رئاستِهم ولا يَطمَعونَ في الاستيلاءِ على الدَّولةِ المُستقِرَّةِ بحربٍ وإنَّما الدَّولةُ أدركَها الهرمُ وتقلَّصَ ظِلُّها عنِ القاصيةِ وعجزَتْ عنِ الوُصولِ إليها والنَّوعُ الثّاني بأنْ يخرُجَ على الدَّولةِ خارجٌ مِمَّنْ يُجاوِرُها مِنَ الأُمَمِ والقبائلِ إمّا بدعوةٍ يحمِلُ النّاسَ عليها كما أشرْنا إليهِ أو يكونُ صاحبَ شوكةٍ وعصبيَّةٍ كبيراً في قومِهِ قدِ استفحَلَ أمرُهُ فيَسمو بهم إلى المُلكِ وقد حدَّثوا بهِ أنفُسَهم بما حصلَ لهم مِنَ الاعتزازِ على الدَّولةِ المُستقِرَّةِ وما نزلَ بها مِنَ الهرمِ فيتعيَّنُ لهُ ولقومِهِ الاستيلاءُ عليها ويُمارِسونَها بالمُطالبةِ إلى أنْ يظفَروا بها ويَرِثونَ (1) كما يتبيَّنُ واللهُ سُبحانَهُ وتعالى أعلَمُ

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرْنا أنَّ الدُّوَلَ الحادثةَ المُتجدِّدةَ نوعانِ نوعٌ مِنْ ولايةِ الأطرافِ إذا تقلَّصَ ظِلُّ الدَّولةِ عنهم وانحسرَ تيّارُها وهؤلاءِ لا يقعُ منهم مُطالبةٌ للدَّولةِ في الأكثرِ كما قدَّمناهُ لأنَّ قُصاراهُمُ القُنوعُ بما في أيديهم وهوَ نهايةُ قوَّتِهم والنَّوعُ الثّاني نوعُ

(1) قوله ويرثون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء . اهـ

ٱلدُّعاةِ وَٱلْخوارِجِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَهؤُلاءِ لا بُدَّ لَهُمْ مِنَ ٱلْمُطالَبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وافِيَةٌ بِها فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلِٱعْتِزازِ ما هُوَ كُفاءُ ذٰلِكَ وَوافٍ بِهِ فَيَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ حُرُوبٌ سِجالٌ تَتَكَرَّرُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُمُ ٱلِٱسْتِيلاءُ وَٱلظَّفَرُ بِٱلْمَطْلُوبِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي ٱلْغالِبِ ظَفَرٌ بِٱلْمُناجَزَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلظَّفَرَ فِي ٱلْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدَّمْناهُ بِأُمُورٍ نَفْسانِيَّةٍ وَهْمِيَّةٍ وَإِنْ كانَ ٱلْعَدَدُ وَٱلسِّلاحُ وَصِدْقُ ٱلْقِتالِ كَفِيلًا بِهِ لٰكِنَّهُ قاصِرٌ مَعَ تِلْكَ ٱلْأُمُورِ ٱلْوَهْمِيَّةِ كَمَا مَرَّ وَلِذٰلِكَ كانَ ٱلْخِداعُ مِنْ أَنْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَكْثَرِ مَا يَقَعُ ٱلظَّفَرُ بِهِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ قَدْ صَيَّرَتِ ٱلْعَوائِدُ ٱلْمَأْلُوفَةُ طاعَتَها ضَرُورِيَّةً واجِبَةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَتَكْثُرُ بِذٰلِكَ ٱلْعَوائِقُ لِصاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ وَيَكْثُرُ مِنْ هِمَمِ أَتْباعِهِ وَأَهْلِ شَوْكَتِهِ وَإِنْ كانَ ٱلْأَقْرَبُونَ مِنْ بِطانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي طاعَتِهِ وَمُؤازَرَتِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلْآخَرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ داخَلَهُمُ ٱلْفَشَلُ بِتِلْكَ ٱلْعَقائِدِ فِي ٱلتَّسْلِيمِ لِلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ ٱلْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكادُ صاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ يَرْجِعُ إِلَى ٱلصَّبْرِ وَٱلْمُطاوَلَةِ حَتَّى يَتَّضِحَ هَرَمُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ فَتَضْمَحِلَّ عَقائِدُ ٱلتَّسْلِيمِ لَها مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثَ مِنْهُمُ ٱلْهِمَمُ لِصِدْقِ ٱلْمُطالَبَةِ مَعَهُ فَيَقَعُ ٱلظَّفَرُ وَٱلِٱسْتِيلاءُ وَأَيْضًا فَٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ كَثِيرَةُ ٱلرِّزْقِ بِمَا ٱسْتَحْكَمَ لَهُمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ ٱلنَّعِيمِ وَٱللَّذّاتِ وَٱخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوالِ ٱلْجِبايَةِ فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمُ ٱرْتِباطُ ٱلْخُيُولِ وَٱسْتِجادَةُ ٱلْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمُ فِيهِمُ ٱلْأُبَّهَةُ ٱلْمُلْكِيَّةُ وَيَفِيضُ ٱلْعَطاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمْ ٱخْتِيارًا وَٱضْطِرارًا فَيُرْهِبُونَ بِذٰلِكَ كُلِّهِ عَدُوَّهُمْ وَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلْبَداوَةِ وَأَحْوالِ ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصاصَةِ فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهامُ ٱلرُّعْبِ بِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَحْوالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَيُحْرَمُونَ عَنْ قِتالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلْمُطاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ مَأْخَذَها مِنَ ٱلْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ ٱلْخَلَلُ فِيها فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْجِبايَةِ فَيَنْتَهِزُ حِينَئِذٍ صاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ فُرْصَتَهُ فِي ٱلِٱسْتِيلاءِ عَلَيْها بَعْدَ حِينٍ مُنْذُ ٱلْمُطالَبَةِ سُنَّةَ ٱللهِ فِي عِبادِهِ وَأَيْضًا فَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ كُلُّهُمْ مُبايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ بِأَنْسابِهِمْ وَعَوائِدِهِمْ وَفِي سائِرِ مَناحِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفاخِرُونَ لَهُمْ وَمُنابِذُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُطالَبَةِ وَبِطَمَعِهِمْ فِي ٱلِٱسْتِيلاءِ عَلَيْهِ فَتَتَمَكَّنُ

ٱلْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ سِراً وَجَهْراً وَلاَ يَصِلُ إِلَى أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ يُصِيبُونَ مِنْهُ غِرَّةً (١) بَاطِناً وَظَاهِراً لِٱنْقِطَاعِ ٱلْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ فَيُقِيمُونَ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكِلُونَ عَنِ ٱلْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ ٱللهُ بِزَوَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُفُورِ ٱلْخَلَلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَٱتَّضَحَ لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلاَشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا ٱقْتَطَعُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا وَنَقَصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبَعِثُ هِمَمُهُمْ يَداً وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ بُثَّ فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ ٱلتَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي ٱلْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ ٱلِٱسْتِيلاَءُ آخِراً بِٱلْمُعَاجَلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حِينَ ظُهُورِهَا حِينَ قَامَ ٱلشِّيعَةُ بِخُرَاسَانَ بَعْدَ ٱنْعِقَادِ ٱلدَّعْوَةِ وَٱجْتِمَاعِهِمْ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ ٱلظَّفَرُ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا ٱلْعَلَوِيَّةِ بِطَبَرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي ٱلدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْقَضَى أَمْرُ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَسَمَا ٱلدَّيْلَمُ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقَيْنِ فَمَكَثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يُطَاوِلُونَ حَتَّى ٱقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا ٱلْعُبَيْدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلشِّيعِيُّ بِبَنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْبَرْبَرِ عَشْرَ سِنِينَ وَيَزِيدُ يُطَاوِلُ بَنِي ٱلْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَثُوا ثَلاَثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا ٱلْعَسَاكِرَ وَٱلْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ ٱلْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرّاً وَبَحْراً مِنْ بَغْدَادَ وَٱلشَّامِ وَمَلَكُوا ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَٱلْفَيُّومَ وَٱلصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى ٱلْحِجَازِ وَأُقِيمَتْ بِٱلْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرُ ٱلْكَاتِبُ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَٱسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَٱقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أُصُولِهَا وَٱخْتَطَّ ٱلْقَاهِرَةَ فَجَاءَ ٱلْخَلِيفَةُ بَعْدَ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ فَنَزَلَهَا لِسِتِّينَ سَنَةً أَوْ نَحْوِهَا مُنْذُ ٱسْتِيلاَئِهِمْ عَلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَا ٱلسَّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ ٱلتُّرْكِ لَمَّا ٱسْتَوْلَوْا عَلَى بَنِي سَامَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ ٱلنَّهْرِ مَكَثُوا نَحْواً مِنْ ثَلاَثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سُبُكْتِكِينَ بِخُرَاسَانَ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ وَكَذَا ٱلتَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ ٱلْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ ٱلِٱسْتِيلاَءُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ ٱلْمُرَابِطُونَ مِنْ

(١) قوله غرة بكسر الغين اي غفلة

لِمتُونَة على مُلُوكِه مِنْ مِغرَاوَة فطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرجَ ٱلْمُوَحِّدُون بدَعْوَتِهِمْ عَلى لِمتُونَة فَمَكَثُوا نَحواً مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكِش وَكَذَا بَنُو مَرِين مِنْ زَنَاتَةَ خَرجُوا عَلى ٱلْمُوَحِّدِينَ فَمَكَثُوا يُطَاوِلُونَهُم نَحواً مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً وَٱسْتَوْلَوْا عَلى فَاسَ وَٱقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلْكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلاثِينَ أُخْرَى حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكِش حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ فَهٰكَذَا حَالُ ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ فِي ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُطَاوَلَةِ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلاً وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ ٱسْتِيلَاؤُهُمْ عَلى فَارِسَ وَٱلرُّومِ لِثَلاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا ٱسْتِمَاتَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ٱسْتِبْصَاراً بِٱلْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ ٱللّٰهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ ٱلرُّعْبِ وَٱلتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقاً لِلْعَادَةِ ٱلْمُقَرَّرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقِرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقاً فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ ٱلْمُتَعَارَفِ ظُهُورُهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَٱلْمُعْجِزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ٱلْأُمُورُ ٱلْعَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران اخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا وَٱلْاعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنَ ٱلدِّينِ إِنْ كَانَتِ ٱلدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ ٱلْمُكَارَمَةِ وَٱلْمُحَاسَنَةِ ٱلَّتِي تَقْتَضِيهَا ٱلْبَدَاوَةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً ٱنْبَسَطَتْ آمَالُ ٱلرَّعَايَا وَٱنْتَشَطُوا لِلْعُمْرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكْثُرُ ٱلتَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِٱلتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي ٱلْأَقَلِّ وَفِي ٱنْقِضَاءِ ٱلْجِيلَيْنِ تُشْرِفُ ٱلدَّوْلَةُ عَلى نِهَايَةِ عُمْرِهَا ٱلطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ٱلْعُمْرَانُ فِي غَايَةِ ٱلْوُفُورِ وَٱلنَّمَاءِ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَاخِرَ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ فِيهَا ٱلْإِجْحَافُ بِٱلرَّعَايَا وَسُوءُ ٱلْمَلَكَةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَاهُ لِأَنَّ ٱلْإِجْحَافَ وَإِنْ حَدَثَ حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ ٱلْجِبَايَاتُ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ ٱلْعُمْرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّدْرِيجِ

في الأُمورِ الطَّبيعيَّةِ ثُمَّ إنَّ المَجاعاتِ والمَوَتانَ تَكثُرُ عِندَ ذلِكَ في أواخِرِ الدُّوَلِ والسَّبَبُ فيهِ إمَّا المَجاعاتُ فَلِقَبْضِ النَّاسِ أيديَهُم عَنِ الفَلحِ في الأَكْثَرِ بِسَبَبِ ما يَقَعُ في آخِرِ الدَّولَةِ مِنَ العُدوانِ في الأَموالِ والجِباياتِ أوِ الفِتَنِ الواقِعَةِ في انتِقاصِ الرَّعايا وكَثرَةِ الخَوارِجِ لِهَرَمِ الدَّولَةِ فَيَقِلُّ احتِكارُ الزَّرعِ غالِباً ولَيسَ صَلاحُ الزَّرعِ وثَمَرَتُهُ بِمُستَمِرِّ الوُجودِ ولا عَلى وَتيرَةٍ واحِدَةٍ فَطَبيعَةُ العالَمِ في كَثرَةِ الأَمطارِ وقِلَّتِها مُختَلِفَةٌ والمَطَرُ يَقوى ويَضعُفُ ويَقِلُّ ويَكثُرُ والزَّرعُ والثِّمارُ والضَّرعُ عَلى نِسبَتِهِ إلَّا أنَّ النَّاسَ واثِقونَ في أقواتِهِم بِالاحتِكارِ فَإذا فُقِدَ الاحتِكارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلمَجاعاتِ فَغَلا الزَّرعُ وعَجَزَ عَنهُ أولو الخَصاصَةِ فَهَلَكوا وكانَ بَعضَ السَّنَواتِ الاحتِكارُ مَفقوداً فَشَمَلَ النَّاسَ الجوعُ وأمَّا كَثرَةُ المَوَتانِ فَلَها أسبابٌ مِن كَثرَةِ المَجاعاتِ كَما ذَكَرناهُ أو كَثرَةِ الفِتَنِ لاختِلالِ الدَّولَةِ فَيَكثُرُ الهَرجُ والقَتلُ أو وُقوعُ الوَباءِ وسَبَبُهُ في الغالِبِ فَسادُ الهَواءِ بِكَثرَةِ العُمرانِ لِكَثرَةِ ما يُخالِطُهُ مِنَ العَفَنِ والرُّطوباتِ الفاسِدَةِ وإذا فَسَدَ الهَواءُ وهُوَ غِذاءُ الرُّوحِ الحَيَوانِيِّ ومُلابِسُهُ دائِماً فَيَسري الفَسادُ إلى مِزاجِهِ فَإذا كانَ الفَسادُ قَوِيّاً وَقَعَ المَرَضُ في الرِّئَةِ وهذِهِ هِيَ الطَّواعينُ وأمراضُها مَخصوصَةٌ بِالرِّئَةِ وإن كانَ الفَسادُ دونَ القَوِيِّ والكَثيرِ فَيَكثُرُ العَفَنُ ويَتَضاعَفُ فَتَكثُرُ الحُمَّياتُ في الأَمزِجَةِ وتَمرَضُ الأَبدانُ وتَهلِكُ وسَبَبُ كَثرَةِ العَفَنِ والرُّطوباتِ الفاسِدَةِ في هذا كُلِّهِ كَثرَةُ العُمرانِ ووُفورُهُ آخِرَ الدَّولَةِ لِما كانَ في أوائِلِها مِن حُسنِ المَلَكَةِ ورِفقِها وقِلَّةِ المَغرَمِ وهُوَ ظاهِرٌ ولِهذا تَبَيَّنَ في مَوضِعِهِ مِنَ الحِكمَةِ أنَّ تَخَلُّلَ الخَلاءِ والقَفرِ بَينَ العُمرانِ ضَروريٌّ لِيَكونَ تَمَوُّجُ الهَواءِ يَذهَبُ بِما يَحصُلُ في الهَواءِ مِنَ الفَسادِ والعَفَنِ بِمُخالَطَةِ الحَيَواناتِ ويَأتي بِالهَواءِ الصَّحيحِ ولِهذا أيضاً فَإنَّ المَوَتانَ يَكونُ في المُدُنِ المَوفورَةِ العُمرانِ أكثَرَ مِن غَيرِها بِكَثيرٍ كَمِصرَ بِالمَشرِقِ وفاسَ بِالمَغرِبِ واللهُ يُقَدِّرُ ما يَشاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

إعلَمْ أنَّهُ قَد تَقَدَّمَ لَنا في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ الاجتِماعَ لِلبَشَرِ ضَروريٌّ وهُوَ مَعنى العُمرانِ الَّذي نَتَكَلَّمُ فيهِ وأنَّهُ لا بُدَّ لَهُم في الاجتِماعِ مِن وازِعٍ حاكِمٍ يَرجِعونَ

إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة وأحكام الملك مندرجة فيها. الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وغيره إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك

وَلا سُوقَةٌ . وَنَصُّ الكِتَابِ (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَحْدَه
لا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَاحْفَظْ رَعِيَّتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار
وَالْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ اللهُ مِنَ العَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْه
وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَالعَمَلِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن
عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنِ اسْتَرْعَاكَ
أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ العَدْلَ فِيهِمْ وَالقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالدَّفْع
عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالأَمْنَ لِسِرْبِهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِم
وَمُؤَاخِذُكَ بِمَا فُرِضَ عَلَيْكَ وَمُوقِفُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثِيبُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ
فَفَرِّغْ لِذَلِكَ فَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلا يُشْغِلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلاكُ
شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوَفِّقُكَ اللهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْتَسِبُ إِلَيْهِ فِعْلُكَ
المُوَاظَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَالجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاس
قِبَلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاغِ الوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتِّل
فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكَّنْ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشَهُّدِكَ وَلْتَصْرِفْ فِيهِ رَأْيَكَ وَنِيَّتَكَ
وَاحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَادْأَبْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ثُمَّ اتْبِعْ ذَلِكَ بِالأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم
وَالمُثَابَرَةِ عَلَى خَلائِقِهِ وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِن
عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ
وَنَهْيِهِ وَحَلالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم
ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلا تَمِيلَنَّ عَنِ العَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيب
مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الفِقْهَ وَأَهْلَهُ وَالدِّينَ وَحَمَلَتَهُ وَكِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالعَامِلِين
بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ المَرْءُ الفِقْهُ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَالحَثُّ عَلَيْهِ وَالمَعْرِفَةُ
بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الخَيْرِ كُلِّهِ وَالقَائِدُ إِلَيْهِ وَالآمِرُ بِهِ وَالنَّاهِي
عَنِ المَعَاصِي وَالمُوبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزْدَادُ المَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلالا
لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ العُلَى فِي المَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالهَيْبَة
لِسُلْطَانِكَ وَالأَنَسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالاقْتِصَادِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَن

نفعاً ولا أخصّ أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم إثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً فإنه يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزي بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك وإذا عاهدت عهداً فأوف به وإذا وعدت خيراً فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب

كُلَّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَٱشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ ٱلْكَذِبِ وَٱلزُّورِ وَأَبْغِضْ أَهْلَ ٱلنَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآجِلِهَا تَقْرِيبُ ٱلْكَذُوبِ وَٱلْجَرَاءَةُ عَلَى ٱلْكَذِبِ لِأَنَّ ٱلْكَذِبَ رَأْسُ ٱلْمَآثِمِ وَٱلزُّورَ وَٱلنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ ٱلنَّمِيمَةَ لا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا لاَ يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلاَ يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَحِبَّ أَهْلَ ٱلصَّلاَحِ وَٱلصِّدْقِ وَأَعِزَّ ٱلْأَشْرَافَ بِٱلْحَقِّ وَآسِ ٱلضُّعَفَاءَ وَصِلِ ٱلرَّحِمَ وَٱبْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ ٱللهِ تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَٱلْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَٱجْتَنِبْ سُوءَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْجَوْرِ وَٱصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ وَأَظْهِرْ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِٱلْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ وَقُمْ بِٱلْحَقِّ فِيهِمْ وَبِٱلْمَعْرِفَةِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ ٱلْهُدَى وَٱمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ وَآثِرِ ٱلْحِلْمَ وَٱلْوَقَارَ وَإِيَّاكَ وَٱلْحِدَّةَ وَٱلطَّيْشَ وَٱلْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ أَنَا مُسَلَّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ ٱلرَّأْيِ وَقِلَّةِ ٱلْيَقِينِ بِٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلهِ وَحْدَهُ ٱلنِّيَّةَ فِيهِ وَٱلْيَقِينَ بِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُلْكَ لِلهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَغَيُّرَ ٱلنِّعْمَةِ وَحُلُولَ ٱلنِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ ٱلنِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ ٱللهِ وَإِحْسَانَهُ وَٱسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعْ عَنْكَ شَرَهَ نَفْسِكَ وَلْتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ ٱلَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ ٱلْبِرَّ وَٱلتَّقْوَى وَٱسْتِصْلاَحَ ٱلرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلاَدِهِمْ وَٱلتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَٱلْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَٱلْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَمْوَالَ إِذَا ٱكْتُنِزَتْ وَٱدُّخِرَتْ فِي ٱلْخَزَائِنِ لاَ تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلاَحِ ٱلرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ ٱلْأَذِيَّةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا ٱلْعَامَّةُ وَتَرَتَّبَتْ بِهَا ٱلْوِلاَيَةُ وَطَابَ بِهَا ٱلزَّمَانُ وَٱعْتُقِدَ فِيهَا ٱلْعِزُّ وَٱلْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ ٱلْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ ٱلْإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ وَوَفِّرْ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قِبَلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفِ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّتِ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَٱسْتَوْجَبْتَ ٱلْمَزِيدَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ وَكَانَ ٱلْجَمِيعُ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِطَاعَتِكَ وَأَطْيَبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ وَأَجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّدْتُ لَكَ فِي هَذَا ٱلْبَابِ وَلْيَعْظُمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ ٱلْمَالِ مَا أُنْفِقَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَثِبْهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تنسيكَ الدُّنيا وَغُرُورُها هولَ الآخرةِ فتتهاونَ بما يحقُّ عليكَ فإنَّ التّهاونَ يورثُ التّفريطَ وَالتّفريطَ يُورثُ البَوارَ وَليكُنْ عَمَلُكَ لِلهِ عزَّ وَجلَّ وَارْجُ الثّوابَ فيهِ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ قَدْ أسبغَ عليكَ فضلَهُ وَاعتصِمْ بالشُّكرِ وعليهِ فاعتمِدْ يزِدْكَ اللهُ خيراً وَإحساناً فإنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ يُثيبُ بقدرِ شُكرِ الشّاكرينَ وَإحسانِ المُحسِنينَ وَلا تحقِرَنَّ ذَنباً وَلا تُمالِئَنَّ حاسداً وَلا ترحَمَنَّ فاجراً وَلا تَصِلَنَّ كَفُوراً وَلا تُداهِنَنَّ عدُوّاً وَلا تُصدِّقَنَّ نمّاماً وَلا تأمَنَنَّ غدّاراً وَلا تُواليَنَّ فاسِقاً وَلا تتّبِعَنَّ غاوياً وَلا تحمَدَنَّ مرائياً وَلا تحقِرَنَّ إنساناً وَلا تردَّنَّ سائلاً فقيراً وَلا تُحسِّنَنَّ باطِلاً وَلا تُلاحِظَنَّ مُضحِكاً وَلا تُخلِفَنَّ وَعداً وَلا تزهُوَنَّ فخراً وَلا تُظهِرَنَّ غضباً وَلا تُباينَنَّ رَجاءً وَلا تمشِيَنَّ مرحاً وَلا تُفرِطَنَّ في طَلبِ الآخرةِ وَلا ترفَعْ لِلنّمامِ عيناً وَلا تُغمِضَنَّ عن ظالمٍ رَهبةً مِنهُ أوْ مُحاباةً وَلا تطلُبَنَّ ثوابَ الآخرةِ في الدُّنيا وَأكثِرْ مُشاورةَ الفُقهاءِ وَاستعمِلْ نفسَكَ بالحِلمِ وَخُذْ عنْ أهلِ التّجاربِ وَذوي العقلِ وَالرّأيِ وَالحِكمةِ وَلا تُدخِلَنَّ في مشُورتِكَ أهلَ الرِّقّةِ وَالبُخلِ وَلا تسمَعَنَّ لهُمْ قولاً فإنَّ ضررَهُمْ أكثرُ مِنْ نفعِهِم وَليسَ شيءٌ أسرعَ فساداً لِما استقبلتَ فيهِ أمرَ رعيّتِكَ مِنَ الشُّحِّ وَاعلَمْ أنّكَ إذا كُنتَ حريصاً كُنتَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطيّةِ وَإذا كُنتَ كذلكَ لمْ يستقِمْ لكَ أمرُكَ إلّا قليلاً فإنَّ رعيّتَكَ إنّما تعقِدُ على محبّتِكَ بالكفِّ عنْ أموالِهِمْ وَتركِ الجَورِ عليهِمْ وَابتدِئ. مَنْ صافاكَ مِنْ أوليائِكَ بالإفضالِ عليهِمْ وَحُسنِ العطيّةِ لهُمْ وَاجتنِبِ الشُّحَّ وَاعلَمْ أنّهُ أوّلُ ما عصى الإنسانُ بهِ ربَّهُ وَإنَّ العاصيَ بمنزلةِ خِزْيٍ وَهوَ قولُ اللهِ عزَّ وَجلَّ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفلِحونَ فسهِّلْ طريقَ الجودِ بالحقِّ وَاجعلْ لِلمُسلمينَ كُلِّهِمْ مِنْ فيئِكَ حظّاً وَنصيباً وَأيقِنْ أنَّ الجُودَ أفضلُ أعمالِ العِبادِ فأعِدَّهُ لنفسِكَ خُلُقاً وَارضَ بهِ عملاً وَمذهباً وَتفقَّدِ الجُندَ في دَواوينِهِمْ وَمكاتبِهِمْ وَأدِرَّ عليهِمْ أرزاقَهُمْ وَوسِّعْ عليهِمْ في معايشِهِمْ يُذهِبِ اللهُ عزَّ وَجلَّ بذلكَ فاقتَهُمْ فيقوى لكَ أمرُهُمْ وَتزيدُ قلوبُهُمْ في طاعتِكَ وَأمرِكَ خُلوصاً وَانشراحاً وَحسبُ ذي السُّلطانِ مِنَ السّعادةِ أنْ يكونَ على جُندِهِ وَرعيّتِهِ ذا رحمةٍ في عدلِهِ وَحيطتِهِ وَإنصافِهِ وَعنايتِهِ وَشفقتِهِ وَبِرِّهِ وَتوسعتِهِ فزايِلْ مكروهَ احدِ البابَيْنِ باستشعارِ فضيلةِ البابِ الآخرِ وَلُزومِ العملِ بهِ تلقَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى نجاحاً وَصلاحاً وَفلاحاً وَاعلمْ أنَّ القضاءَ مِنَ اللهِ تعالى بالمكانِ

الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْدِلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ وَتَأْمَنُ السُّبُلُ وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ الطَّاعَةِ وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ الدِّينَ وَيُجْرِي السُّنَنَ وَالشَّرَائِعَ فِي مَجَارِيهَا وَاشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعْ عَنِ النُّطَفِ وَامْضِ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَأَقِلَّ الْعَجَلَةَ وَابْعُدْ عَنِ الضَّجَرِ وَالْقَلَقِ وَاقْنَعْ بِالْقِسْمِ وَانْتَفِعْ بِتَجْرِبَتِكَ وَانْتَبِهْ فِي صَمْتِكَ وَاسْدُدْ فِي مَنْطِقِكَ وَأَنْصِفِ الْخَصْمَ وَقِفْ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلِغْ فِي الْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذْكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ مُحَابَاةٌ وَلَا مُجَامَلَةٌ وَلَا لَوْمَةُ لَائِمٍ وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّ وَرَاقِبْ وَانْظُرْ وَتَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَاعْتَبِرْ وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَارْفُقْ بِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ وَسَلِّطِ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكِ دَمٍ فَإِنَّ الدِّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ انْتِهَاكًا لَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا وَانْظُرْ هَذَا الْخَرَاجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرَّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرِفْعَةً وَلِأَهْلِهِ تَوْسِعَةً وَمَنَعَةً وَلِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ كَبْتًا وَغَيْظًا وَلِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا فَوَزِّعْهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيٍّ لِغِنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الِاحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَاحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَلْزَمُ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ وَقَيِّمُهُمْ فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفِّذْهُ فِي قِوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِمْ وَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أُولِي الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالْخِبْرَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ فَلَا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفْكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِالْوَاجِبِ اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ الْأُحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ وَاجْتَرَرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعَنْتَ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتِ الْخَيْرَاتُ بِبَلَدِكَ وَفَشَتِ الْعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُوَرِكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ وَقَوِيتَ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ

مرضيَّ العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة
فنافس في ذلك ولا تقدم عليه شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى واجعل في
كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم
حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأموره كلها فإن أردت أن تأمرهم بأمر
فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه
حسن الدفاع والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ
فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل في أمره وقدره وأتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه
فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت
وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك
وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك وأكثر مباشرته بنفسك فإن للغد أموراً وحوادث
تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه وإذا
أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيثقلك ذلك حتى تمرض منه وإذا أمضيت
لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك وانظر أحرار الناس
وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم
بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن
قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساً
وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك
والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسألة ووكل بأمثاله أهل الصلاح
من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم
وتعاهد ذوي البأساء وأيتامهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء
بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك
عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن
منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً
تأويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد
ذلك إلى إسراف في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم

لم يُرضِهم ذلكَ ولَمْ تَطِبْ أنفسُهم دُونَ رفعِ حوائجِهم إلى وُلاتِهم طمَعاً في نَيلِ الزِّيادةِ وفضلِ الرِّفقِ مِنهُمْ ورُبَّما تبرَّمَ المُتصفِّحُ لأُمورِ النّاسِ لِكثرةِ ما يَرِدُ عليهِ ويُشغِلُ فِكرَهُ وذِهنَهُ فيها ما ينالُهُ بِهِ مِنْ مؤونةٍ وليسَ مَنْ يرغبُ في العدلِ ويعرفُ محاسنَ أُمورِهِ في العاجلِ وفضلَ ثوابِ الآجلِ كالذي يستثقِلُ ما يُقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى ويلتمسُ رحمتَهُ وأكثِرِ الإذنَ للنّاسِ عليكَ وأبرِزْ لهمْ وجهَكَ وسكِّنْ لهُمْ حواسَّكَ واخفِضْ لهم جَناحَكَ وأظهِرْ لهمْ بِشرَكَ ولِنْ لهمْ في المسألةِ والنُّطقِ واعطِفْ عليهِمْ بجُودِكَ وفضلِكَ وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحةٍ وطيبِ نفسٍ والتِماسٍ للصَّنيعةِ والأجرِ مِنْ غيرِ تكديرٍ ولا امتِنانٍ فإنَّ العطيّةَ على ذلكَ تِجارةٌ مُربِحةٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى واعتبِرْ بما ترى مِنْ أُمورِ الدُّنيا ومَنْ مضى قبلَكَ مِنْ أهلِ السُّلطانِ والرِّئاسةِ في القُرونِ الخاليةِ والأُممِ البائدةِ ثُمَّ اعتصِمْ في أحوالِكَ كُلِّها باللهِ سُبحانَهُ وتعالى والوُقوفِ عندَ محبّتِهِ والعملِ بشريعتِهِ وسُنّتِهِ وبإقامةِ دينِهِ وكتابِهِ واجتنِبْ ما فارقَ ذلكَ وخالفَهُ ودعا إلى سُخطِ اللهِ عزَّ وجلَّ واعرِفْ ما يَجمعُ عُمّالُكَ مِنَ الأموالِ وما يُنفِقونَ مِنها ولا تَجمَعْ حَراماً ولا تُنفِقْ إسرافاً وأكثِرْ مُجالسةَ العُلماءِ ومُشاورتَهُمْ ومُخالطتَهُمْ وليكُنْ هواكَ اتِّباعَ السُّنَنِ وإقامتَها وإيثارَ مكارمِ الأخلاقِ ومعاليها وليكُنْ أكرمُ دُخلائِكَ وخاصّتِكَ عليكَ مَنْ إذا رأى عيباً فيكَ لمْ تمنعْهُ هيبتُكَ عنْ إنهاءِ ذلكَ إليكَ في سِرِّكَ وإعلامِكَ بما فيهِ مِنَ النَّقصِ فإنَّ أُولئكَ أنصحُ أوليائِكَ ومُظاهِرونَ لكَ وانظُرْ عُمّالَكَ الذينَ بحضرتِكَ وكُتّابَكَ فوقِّتْ لِكُلِّ رجُلٍ مِنهُمْ في كُلِّ يومٍ وقتاً يدخُلُ فيهِ عليكَ بكُتُبِهِ ومُؤامَراتِهِ وما عِندَهُ مِنْ حوائجِ عُمّالِكَ وأُمورِ الدَّولةِ ورعيَّتِكَ ثُمَّ فرِّغْ لِما يُورِدُهُ عليكَ مِنْ ذلكَ سمعَكَ وبصرَكَ وفهمَكَ وعقلَكَ وكرِّرِ النَّظرَ فيهِ والتَّدبُّرَ لهُ فما كانَ مُوافِقاً لِلحقِّ والحزمِ فأمضِهِ واستخِرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ وما كانَ مُخالِفاً لذلكَ فاصرِفْهُ إلى المسألةِ عنهُ والتَّثبُّتِ فيهِ ولا تمتَنَّ على رعيَّتِكَ ولا غيرِهِمْ بمعروفٍ تُؤتيهِ إليهِمْ ولا تقبَلْ مِنْ أحدٍ إلّا الوفاءَ والاستقامةَ والعونَ في أُمورِ أميرِ المُسلمينَ ولا تضَعَنَّ المعروفَ إلّا على ذلكَ وتفهَّمْ كِتابي إليكَ وأنعِمِ النَّظرَ فيهِ والعملَ بهِ واستعِنْ باللهِ على جميعِ أُمورِكَ واستخِرْهُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ معَ الصَّلاحِ وأهلِهِ وليكُنْ أعظمُ سيرتِكَ وأفضلُ رغبتِكَ ما كانَ للهِ عزَّ

وَجلَّ رِضىً وَلدِينِهِ نِظَاماً وَلأَهلِهِ عِزًّا وَتَمكِيناً وَلِلمِلَّةِ وَٱلذِّمَّةِ عَدلاً وَصَلاحاً وَأَنَا أَسأَلُ ٱللهَ أَنْ يُحسِنَ عَونَكَ وَتَوفِيقَكَ وَرُشدَكَ وَكَلاءَتَكَ وَٱلسَّلامُ . وَحدَّثَ ٱلإِخبَارِيُّون أَنَّ هٰذَا ٱلكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمرُهُ أُعجِبَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَٱتَّصَلَ بِٱلمَأمُونِ فَلَمَّا قُرِىءَ عَلَيهِ قَالَ مَا أَبقَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ يَعنِي طَاهِراً شَيْئاً مِنْ أُمُورِ ٱلدُّنيَا وَٱلدِّينِ وَٱلتَّدبِيرِ وَٱلرَّأيِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَصَلاحِ ٱلمُلكِ وَٱلرَّعِيَّةِ وَحِفظِ ٱلسُّلطَانِ وَطَاعَةِ ٱلخُلَفَاءِ وَتَقوِيمِ ٱلخِلافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحكَمَهُ وَأَوصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ ٱلمَأمُونُ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ ٱلعُمَّالِ فِي ٱلنَّوَاحِي لِيَقتَدُوا بِهِ وَيَعمَلُوا بِمَا فِيهِ هٰذَا أَحسَنُ مَا وَقَفتُ عَلَيهِ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱللهُ أَعلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعلَمْ أَنَّ فِي ٱلمَشهُورِ بَينَ ٱلكَافَّةِ مِنْ أَهلِ ٱلإِسلامِ عَلَى مَمَرِّ ٱلأَعصَارِ أَنَّهُ لا بُد فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهلِ ٱلبَيتِ يُؤَيِّدُ ٱلدِّينَ وَيُظهِرُ ٱلعَدلَ وَيَتبَعُهُ ٱلمُسلِمُونَ وَيَستَولِي عَلَى ٱلمَمَالِكِ ٱلإِسلامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِٱلمَهدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ ٱلدَّجَّالِ وَمَا بَعدَهُ مِنْ أَشرَاطِ ٱلسَّاعَةِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ٱلصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى يَنزِلُ مِن بَعدِهِ فَيَقتُلُ ٱلدَّجَّالَ أَو يَنزِلُ مَعَهُ فَيُسَاعِدُهُ عَلَى قَتلِهِ وَيَأتَمُّ بِٱلمَهدِيِّ فِي صَلاتِهِ وَيَحتَجُّون فِي ٱلشَّأنِ بِأَحَادِيثَ خَرَّجَهَا ٱلأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمَ فِيهَا ٱلمُنكِرُونَ لِذٰلِكَ وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعضِ ٱلأَخبَارِ وَلِلمُتَصَوِّفَةِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمرِ هٰذَا ٱلفَاطِمِيِّ طَرِيقَةٌ أُخرَى وَنَوعٌ مِن ٱلإِستِدلالِ وَرُبَّمَا يَعتَمِدُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلكَشفِ ٱلَّذِي هُوَ أَصلُ طَرَائِقِهِم . وَنَحنُ ٱلآنَ نَذكُرُ هُنَا ٱلأَحَادِيثَ ٱلوَارِدَةَ فِي هٰذَا ٱلشَّأنِ وَمَا لِلمُنكِرِينَ فِيهَا مِنَ ٱلمَطَاعِنِ وَمَا لَهُمْ فِي إِنكَارِهِمْ مِنَ ٱلمُستَنَدِ ثُمَّ نُتبِعُهُ بِذِكرِ كَلامِ ٱلمُتَصَوِّفَةِ وَرَأيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلصَّحِيحُ مِنْ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلأَئِمَّةِ خَرَّجُوا أَحَادِيثَ ٱلمَهدِيِّ مِنهُمُ ٱلتِّرمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَٱلبَزَّازُ بنُ مَاجَةَ وَٱلحَاكِمُ وَٱلطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو يَعلَى ٱلمَوصِلِيّ وَأَسنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ مِثلِ عَلِيٍّ وَٱبنِ عَبَّاسٍ وَٱبنِ عُمَرَ وَطَلحَةَ وَٱبن مَسعُودٍ وَأَبِي هُرَيرَةَ وَأَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ٱلخُدرِيِّ وَأُمِّ حَبِيبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوبَانَ وَقُرَّةَ بنِ إِيَاسٍ وَعَلِيٍّ ٱلهِلالِيِّ وَعَبدِ ٱللهِ بنِ ٱلحَارِثِ بنِ جَزءٍ بِأَسَانِيدَ رُبَّمَا يَعرِضُ لَهَا

الْمُنْكِرُونَ كَمَا نَذْكُرُهُ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْناً فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ بِغَفْلَةٍ أَوْ بِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ ضُعْفٍ أَوْ سُوءِ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذٰلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذٰلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحَيْنِ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدِ اتَّصَلَ فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلَقِّيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ دَفْعاً وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحَيْنِ بِمَثَابَتِهِمَا فِي ذٰلِكَ فَقَدْ تَجِدُ مَجَالاً لِلْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهَا بِمَا نُقِلَ عَنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذٰلِكَ .

وَلَقَدْ تَوَغَّلَ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نَقَلَ السُّهَيْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرَبِهَا إِسْنَاداً مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ الْأَخْبَارِ مُسْتَنِداً إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَّبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَّبَ بِالدَّجَّالِ فَقَدْ كَذَبَ وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ وَحَسْبُكَ هٰذَا غُلُوّاً وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مُتَّهَمٌ وَضَّاعٌ .

وَأَمَّا التِّرْمِذِيُّ فَخَرَّجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النُّجُودِ أَحَدِ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللّٰهُ ذٰلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللّٰهُ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي. هٰذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَلَفْظُ التِّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضاً مِنْ طَرِيقٍ مَوْقُوفاً عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطُرُقُ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ عَلَى مَا أَصَّلْتُهُ مِنَ الْاحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ (إِنْتَهَى) إِلَّا أَنَّ عَاصِماً قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ رَجُلاً صَالِحاً قَارِئاً لِلْقُرْآنِ خَيِّراً ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيتِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ كَانَ يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ فِي زِرٍّ وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذٰلِكَ إِلَى ضُعْفِ رِوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ

كَانَ ثِقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْخَطَإِ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ ٱضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ هٰذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ٱبْنُ عُلَيَّةَ فَقَالَ كُلُّ مَنِ ٱسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ ٱلصِّدْقِ صَالِحُ ٱلْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذٰلِكَ ٱلْحَافِظِ وَٱخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ ٱلنَّسَائِيِّ وَقَالَ ٱبْنُ خِرَاشٍ فِي حَدِيثِهِ نُكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى ٱلْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلاً ٱسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضاً سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي ٱلنُّجُودِ وَفِي ٱلنَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ ٱلذَّهَبِيُّ ثَبْتٌ فِي ٱلْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ ٱلْحَدِيثِ وَإِنِ ٱحْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ ٱلشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُوناً بِغَيْرِهِ لَا أَصْلاً وَٱللهُ أَعْلَمُ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ فِي ٱلْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ قِطْرِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي ٱلطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ ٱللهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَقِطْرُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بْنُ ٱلْقَطَّانِ وَٱبْنُ مَعِينٍ وَٱلنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ ٱلْعِجْلِيَّ قَالَ حَسَنُ ٱلْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشَيُّعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ٱبْنُ مَعِينٍ مَرَّةً ثِقَةٌ شِيعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قِطْرٍ وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدَعُهُ مِثْلَ ٱلْكَلْبِ وَقَالَ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ لَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ ٱلرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ زَائِغٌ غَيْرُ ثِقَةٍ ٱنْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ٱلنَّسَفِيِّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ إِنَّ ٱبْنِي هٰذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِٱسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشْبِهُهُ فِي ٱلْخُلُقِ وَلَا يُشْبِهُهُ فِي ٱلْخَلْقِ يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلاً وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي ٱلْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ قَالَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ ٱلنَّهْرِ يُقَالُ لَهُ ٱلْحَارِثُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّئُ أَوْ يُمَكِّنُ لِآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

على كل مؤمن نصره أو قال إجابته سكت أبو داود عليه وقال في موضع آخر في هارون هو من ولد الشيعة وقال السليماني فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس في حديثه خطأ وقال الذهبي صدق له أوهام وأما أبو إسحاق الشيعي وإن خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة . وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة قالت سمعت في المستدرك من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بالصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي بن نفيل عليه ولا يعرف إلا به وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ويلقي الإسلام بجرانه على الأرض فيلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وقتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي نعم ذكره أبو داود في أبوابه وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني أجلى الجبهة اقنى

ٱلْأَنفِ يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ هٰذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفْظُ ٱلْحَاكِمِ ٱلْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ أَشَمُّ ٱلْأَنْفِ أَقْنَى أَجْلَى يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً يَعِيشُ هٰكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ ٱلسَّبَّابَةِ وَٱلْإِبْهَامِ وَعَقَدَ ثَلَاثَ قَالَ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ . اهـ . وَعِمْرَانُ ٱلْقَطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱسْتِشْهَاداً لَا أَصْلاً وَكَانَ يَحْيَى ٱلْقَطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ لَيْسَ بِٱلْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ ٱلْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيّاً وَكَانَ يَرَى ٱلسَّيْفَ عَلَى أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْآجُرِيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْحَسَنِ وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْراً وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنٍ بِفَتْوَى شَدِيدَةٍ فِيهَا سَفْكُ ٱلدِّمَاءِ وَخَرَّجَ ٱلتِّرْمِذِيُّ وَٱبْنُ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدٍ ٱلْعَمِّيِّ عَنْ أَبِي صِدِّيقٍ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمْساً أَوْ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً زَيْدٌ ٱلشَّاكُّ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ قَالَ سِنِينَ قَالَ فَيَجِيءُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي قَالَ فَيَحْثُو لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ لَفْظُ ٱلتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُ ٱبْنِ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ فَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ تُؤْتَى ٱلْأَرْضُ أُكُلَهَا وَلَا يُدَّخَرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَٱلْمَالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ ٱلرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ . إِنْتَهَى وَزَيْدٌ ٱلْعَمِّيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ ٱلرَّقَاشِيِّ وَفَضْلَ بْنَ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيفٌ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَا شَيْءَ وَقَالَ مَرَّةً يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ مُتَمَاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَاهِي ٱلْحَدِيثِ ضَعِيفاً وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ ٱبْنُ عَدِيٍّ عَامَّةُ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضُعَفَاءُ عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ

شعبة لم يرو عن أضعف منه وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثواً لا يعده عداً ومن حديث أبي سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حثواً ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضاً من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً وقال فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضاً عن طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعاً أو ثمانياً يعني حججاً وقال فيه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحداً تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي هارون العبدي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هارون العبدي فلم يخرج له وهو ضعيف جداً متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه. وأما الراوي له عن حماد بن سلمة فهو أسد بن موسى يلقب أسد السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لو لم يصنف كان خيراً له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق

النَّاجِي عَنِ الْحسنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحدِ بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسُنَّتِي يُنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً يَعْمَلُ عَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيَنْزِلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ وَلَمْ يُدْخِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ أَحداً إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ انْتَهَى وَهٰذَا الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يُعَرِّفْهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا فِي هٰذَا الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَرِوَايَةِ أَبِي الصِّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ إِنَّهُ مَجْهُولٌ لٰكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السِّتَّةِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ يَرْوِي عَنْ أَنَسٍ رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَّابُ بْنُ بِشْرٍ وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالُ نَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئاً نَكْرَهُهُ فَقَالَ إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيداً وَتَطْرِيداً حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَيْرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيُقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطاً كَمَا مَلَأُوهَا جَوْراً فَمَنْ أَدْرَكَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْواً عَلَى الثَّلْجِ انْتَهَى. وَهٰذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ رَاوِيهِ قَالَ فِيهِ شُعْبَةُ كَانَ رَفَّاعاً يَعْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفُضَيْلِ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ الشِّيعَةِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذٰلِكَ وَقَالَ يَحْيَى ابْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ جَائِزُ الْحَدِيثِ وَكَانَ بِآخِرِهِ يُلَقَّنُ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيِّنٌ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ سَمِعْتُهُمْ يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لَا أَعْلَمُ أَحَداً تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ وَقَالَ

ابنُ عديٍّ هو من شيعةِ أهلِ الكوفةِ ومع ضعفِهِ يكتبُ حديثُهُ وروى لهُ مسلم لكن مقرونًا بغيرِهِ وبالجملةِ فالأكثرونَ على ضعفِهِ وقد صرّحَ الأئمّةُ بتضعيفِ هذا الحديثِ الّذي رواهُ عن إبراهيمَ عن علقمةَ عن عبدِ اللهِ وهو حديثُ الرّاياتِ وقال وكيعُ بنُ الجرّاحِ فيهِ ليسَ بشيءٍ وكذلكَ قالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ وقالَ أبو قدامةَ سمعتُ أبا أسامةَ يقولُ في حديثِ يزيدَ عن إبراهيمَ في الرّاياتِ لو حلفَ عندي خمسينَ يمينًا أسامةُ ما صدّقتُهُ أهذا مذهبُ إبراهيمَ أهذا مذهبُ علقمةَ أهذا مذهبُ عبدِ اللهِ وأوردَ العقيليُّ هذا الحديثَ في الضّعفاءِ وقالَ الذّهبيُّ ليسَ بصحيحٍ وخرّجَ ابنُ ماجةَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ من روايةِ ياسينَ العجليِّ عن إبراهيمَ بنِ محمّدِ بنِ الحنفيّةِ عن أبيهِ عن جدِّهِ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ المهديُّ منّا أهلَ البيتِ يصلحُ اللهُ بهِ في ليلةٍ وياسينُ العجليُّ وإنْ قالَ فيهِ ابنُ معينٍ ليسَ بهِ بأسٌ فقدْ قالَ البخاريُّ فيهِ نظرٌ وهذهِ اللّفظةُ من اصطلاحِهِ قويّةٌ في التّضعيفِ جدًّا وأوردَ لهُ ابنُ عديٍّ في الكاملِ والذّهبيُّ في الميزانِ هذا الحديثَ على وجهِ الاستنكارِ لهُ وقالَ هوَ معروفٌ بهِ وخرّجَ الطّبرانيُّ في معجمِهِ الأوسطِ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنّهُ قالَ للنّبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ أمنّا المهديُّ أمْ من غيرِنا يا رسولَ اللهِ فقالَ بلْ منّا بنا يختمُ اللهُ كما بنا فتحَ وبنا يستنقذونَ من الشّركِ وبنا يؤلّفُ اللهُ قلوبَهم بعدَ عداوةٍ بيّنةٍ كما بنا ألّفَ بينَ قلوبِهم بعدَ عداوةِ الشّركِ قالَ عليٌّ أمؤمنونَ أمْ كافرونَ قالَ مفتونٌ وكافرٌ انتهى. وفيهِ عبدُ اللهِ بنُ لهيعةَ وهوَ ضعيفٌ معروفُ الحالِ وفيهِ عمرُ بنُ جابرٍ الحضرميُّ وهوَ أضعفُ منهُ قالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ رُويَ عن جابرٍ مناكيرُ وبلغني أنّهُ كانَ يكذبُ وقالَ النّسائيُّ ليسَ بثقةٍ وقالَ كانَ ابنُ لهيعةَ شيخًا أحمقَ ضعيفَ العقلِ وكانَ يقولُ عليٌّ في السّحابِ وكانَ يجلسُ معنا فيبصرُ سحابةً فيقولُ هذا عليٌّ قدْ مرَّ في السّحابِ وخرّجَ الطّبرانيُّ عن عليٍّ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالَ يكونُ في آخرِ الزّمانِ فتنةٌ يحصلُ النّاسُ فيها كما يحصلُ الذّهبُ في المعدنِ فلا تسبّوا أهلَ الشّامِ ولكنْ سبّوا أشرارَهم فإنَّ فيهم الأبدالَ يوشكُ أنْ يرسلَ على أهلِ الشّامِ صيبٌ من السّماءِ فيفرّقُ جماعتَهم حتّى لو قاتلتهمُ الثّعالبُ غلبتهم فعندَ ذلكَ يخرجُ خارجٌ من أهلِ بيتي في ثلاثِ راياتٍ المكثِرُ يقولُ بهم خمسةَ عشرَ ألفًا والمقلُّ يقولُ بهم اثنا عشرَ ألفًا وأمارتُهم امت امت يلقون

ـسبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعاً ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورأيهم اه . وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى إلفتهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال له هيهات ثم عقد بيده سبعاً فقال ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوماً قزعاً كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أتريده قلت نعم قال فإنه يخرج من بين هذين الأخشبين قلت لا جرم والله ولا أدعها حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وإنما هو على شرط مسلم فقط فإن فيه عماراً الذهبي ويونس بن أبي إسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقري ولم يخرج له البخاري احتجاجاً بل استشهاداً مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع عرقوبيه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن إسحاق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل إلى أن يصرح بالسماع علي بن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن

معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطىء فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش خطاؤه فلا يحتج فيه وقال أحمد بن حنبل سعيد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحتج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذر فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فإنه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وتأمن البهائم السباع وتلقي الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه وإسماعيل ضعيف وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فالأكثرون على تضعيفه اه. وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي اه.

ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط قال ابن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ونسبوه إلى التشيع انتهى. وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن

لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فثمان وإلا فتسع تنعم فيها أمتي نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة وقال حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق قال قلت وكم يملك قال خمساً واثنتين قال قلت وما خمساً واثنتين قال لا أدري اه . وهذا السند غير محتج به وإن قال فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به إلا أنه قال فيه رجاء ابن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والأوسط عن قرة بن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها يلبث فيكم سبعاً أو ثمانياً أو تسعاً

يعني سِنِينَ اهـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبِّي بْنُ الْمُحْرِمِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاحَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ جَوْراً وَظُلْماً وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبِلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ . انتهى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . اهـ . وَخَرَّجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ . اهـ . وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِئْنَاساً فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَّجَهَا الْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقَلُّ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُنْكِرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ الْجُنْدِيُّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثِقَةٌ وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلاً قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنْ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى يُحَاوِلُونَ بِهَذَا التَّأْوِيلِ رَدَّ الِاحْتِجَاجِ بِهِ أَوِ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنِ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْمُجَاهَدَةِ

بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتَائِجِ ٱلْمَوَاجِدِ وَٱلْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ ٱلْإِمَامِيَّةِ وَٱلرَّافِضَةِ مِنَ ٱلشِّيعَةِ فِي تَفْضِيلِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَٱلْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَٱدِّعَاءِ ٱلْوَصِيَّةِ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱلتَّبَرِّي مِنَ ٱلشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي مَذَاهِبِهِمْ ثُمَّ حَدَثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ٱلْقَوْلُ بِٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ وَكَثُرَتِ ٱلتَّآلِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَجَاءَ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدَّعُونَ أُلُوهِيَّةَ ٱلْإِمَامِ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدَّعُونَ رَجْعَةَ مَنْ مَاتَ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ بِنَوْعِ ٱلتَّنَاسُخِ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيءَ مَنْ يُقْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ ٱلْأَمْرِ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ فِي ٱلْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا ثُمَّ حَدَثَ أَيْضاً عِنْدَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْكَشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمُ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ بِٱلْحُلُولِ وَٱلْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا ٱلْإِمَامِيَّةَ وَٱلرَّافِضَةَ لِقَوْلِهِمْ بِأُلُوهِيَّةِ ٱلْأَئِمَّةِ وَحُلُولِ ٱلْإِلَهِ فِيهِمْ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضاً ٱلْقَوْلُ بِٱلْقُطْبِ وَٱلْإِبْدَالِ وَكَأَنَّهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ ٱلرَّافِضَةِ فِي ٱلْإِمَامِ وَٱلنُّقَبَاءِ وَأُشْرِبُوا أَقْوَالَ ٱلشِّيعَةِ وَتَوَغَّلُوا فِي ٱلدِّيَانَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مُسْتَنَدَ طَرِيقِهِمْ فِي لُبْسِ ٱلْخِرْقَةِ أَنَّ عَلِيّاً رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَلْبَسَهَا ٱلْحَسَنَ ٱلْبَصْرِيَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِ ٱلْعَهْدَ بِٱلْتِزَامِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱتَّصَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِٱلْجُنَيْدِ مِنْ شُيُوخِهِمْ وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ عَلِيٍّ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ بَلِ ٱلصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أُسْوَةٌ فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَى وَفِي تَخْصِيصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهُمْ رَائِحَةٌ مِنَ ٱلتَّشَيُّعِ قَوِيَّةٌ يُفْهَمُ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْقَوْمِ دُخُولُهُمْ فِي ٱلتَّشَيُّعِ وَٱنْخِرَاطُهُمْ فِي سِلْكِهِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضاً ٱلْقَوْلُ بِٱلْقُطْبِ وَٱمْتَلَأَتْ كُتُبُ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ ٱلرَّافِضَةِ وَكُتُبُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي ٱلْفَاطِمِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُمْلِيهِ عَلَى بَعْضٍ وَيُلَقِّنُهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَكَأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِكَلَامِ ٱلْمُنَجِّمِينَ فِي ٱلْقِرَانَاتِ وَهُوَ مِنْ نَوْعِ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَلَاحِمِ وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَلِي هَذَا وَأَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ هَؤُلَاءِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَأْنِ ٱلْفَاطِمِيِّ ٱبْنُ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْحَاتِمِيُّ فِي كِتَابِ عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ وَٱبْنُ قَسِيٍّ فِي كِتَابِ خَلْعِ ٱلنَّعْلَيْنِ وَعَبْدُ ٱلْحَقِّ بْنُ سَبْعِينَ وَٱبْنُ أَبِي وَاصِلٍ تِلْمِيذُهُ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ خَلْعِ ٱلنَّعْلَيْنِ وَأَكْثَرُ كَلِمَاتِهِمْ فِي شَأْنِهِ أَلْغَازٌ وَأَمْثَالٌ وَرُبَّمَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ يُصَرِّحُ مُفَسِّرُو

كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واصل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وأنها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم إما ظاهراً كبني عبد المطلب وإما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل من إذا حضر لم يغب من هو آله وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة فكنى الشارح عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيهما فهي لبنة واحدة في التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واصل عنه وهذا الإمام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الخاء المعجمة بواحدة من

فوقَ سِتِّمائةٍ وَٱلفاءُ أختُ ٱلقافِ بِثمانينَ وَٱلجيمُ ٱلمُعجمَةُ بِواحدةٍ مِنْ أسفلُ ثلاثة وَذلِكَ سِتِّمائةٍ وَثلاثٌ وَثمانونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ ٱلقَرْنِ ٱلسّابِعِ وَلَمّا ٱنصرمَ هٰذا ٱلعَصرِ وَلَمْ يَظهرْ حَمَلَ ذاكَ بَعضُ ٱلمُقلِّدينَ لَهُمْ عَلى أنَّ ٱلمُرادَ بِتلكَ ٱلمُدَّةِ مَوْلِدُهُ وَعَبّر بِظُهورِهِ عَنْ مَوْلدِهِ وَأنَّ خُروجَهُ يَـكُونُ بَعدَ ٱلعَشْرِ وَٱلسَّبعِ ٱلمائةِ فإنَّهُ ٱلإمامُ ٱلنّاجِمُ مِن ناحيَةِ ٱلمَغرِبِ قالَ وَإذا كانَ مَوْلِدُهُ كَما زَعَمَ ٱبنُ ٱلعرَبِيِّ سَنَةَ ثلاثٍ وَثمانينَ وَسِتِّمائةٍ فَيكونُ عُمرُهُ عِندَ خُروجِهِ سِتّاً وَعِشرينَ سَنَةً قالَ وَزَعَموا أنَّ خُروجَ ٱلدَّجّالِ يَـكُونُ سَنَةَ ثلاثٍ وَأربعينَ وَسَبعِمائةٍ مِنَ ٱليَوْمِ ٱلمُحَمَّدِيِّ وَٱبتِداءُ ٱليَوْمِ ٱلمُحَمَّدِيِّ عِندَهُمْ مِنْ يَوْمِ وَفاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تَمامِ ألفِ سَنَةٍ قالَ ٱبنُ أبي وَاصِل في شَرْحِهِ كِتابَ خَلْعِ ٱلنَّعلَيْنِ ٱلوَلِيُّ ٱلمُنتظَرُ ٱلقائِمُ بِأمرِ ٱللّهِ ٱلمُشارُ إليهِ بِمُحَمَّد ٱلمَهدِيِّ وَخاتِمِ ٱلأوْلِياءِ وَلَيسَ هُوَ بِنَبِيٍّ وَإنَّما هُوَ وَلِيٌّ ٱبتعَثَهُ رُوحُهُ وَحَبيبُهُ قال صَلّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلعالِمُ في قَوْمِهِ كَٱلنَّبِيِّ في أُمَّتِهِ وَقالَ عُلَماءُ أُمَّتي كَأنبِياءِ بَني إسرائيل وَلَمْ تَزَلِ ٱلبُشرى تَتابَعُ بِهِ مِنْ أوَّلِ ٱليَوْمِ ٱلمُحَمَّدِيِّ إلى قُبَيْلِ ٱلخَمسِمائةِ نِصفِ ٱليَوْمِ وَتأكَّدَتْ وَتَضاعَفَتْ بِتَباشيرِ ٱلمَشايِخِ بِتَقريبِ وَقتِهِ وَٱزدِلافِ زَمانِهِ مُنذُ ٱنقضَت إلى هَلُمَّ جرّاً قالَ وَذَكَرَ ٱلكِندِيُّ أنَّ هٰذا ٱلوَلِيَّ هُوَ ٱلّذي يُصَلّي بِٱلنّاسِ صَلاةَ ٱلظُّهْر وَيُجدِّدُ ٱلإسلامَ وَيُظهِرُ ٱلعَدلَ وَيَفتحُ جَزيرَةَ ٱلأندَلُسِ وَيَصِلُ إلى رومِيَةَ فَيَفتَحُها وَيَسيرُ إلى ٱلمَشرِقِ فَيَفتَحُهُ وَيَفتَحُ ٱلقُسطَنطينِيَّةَ وَيَصيرُ لَهُ مُلكُ ٱلأرضِ فَيَتَقَوّى ٱلمُسلِمونَ وَيَعلو ٱلإسلامُ وَيُظهَرُ دينُ ٱلحَنيفِيَّةِ فإنَّ مِنْ صَلاةِ ٱلظُّهرِ إلى صَلاةِ ٱلعَصرِ وَقتَ صَلاةٍ قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ ما بَيْنَ هٰذَيْنِ وَقتٌ وَقالَ ٱلكِندِيُّ أيضاً ٱلحُروفُ ٱلعَرَبِيَّةُ غَيرُ ٱلمُعجَمَةِ يَعني ٱلمُفتَتَحَ بِها سُوَرُ ٱلقُرآنِ جُملَةُ عَدَدِها سَبعُمائة وَثلاثٌ وَأربَعونَ وَسَبعٌ دَجّالِيَّةٌ ثُمَّ يَنزِلُ عيسى في وَقتِ صَلاةِ ٱلعَصرِ فَيَصلُحُ ٱلدُّنيا وَتَمشي ٱلشّاةُ مَعَ ٱلذِّئبِ ثُمَّ مَبلَغُ مُلكِ ٱلعَجَمِ بَعدَ إسلامِهِمْ مَعَ عيسى مِائةٌ وَسِتّونَ عاماً عَدَدُ حُروفِ ٱلمُعجَمِ وَهِيَ ق ي ن دَوْلَةُ ٱلعَدلِ مِنها أربَعونَ عاماً قالَ ٱبنُ أبي وَاصِل وَما وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لا مَهدِيَّ إلّا عيسى فَمَعناهُ لا مَهدِيَّ تُساوي هِدايَتُهُ هِدايَتَهُ وَقيلَ لا يَتَكَلَّمُ في ٱلمَهدِ إلّا عيسى وَهٰذا مَدفوعٌ بِحَديثِ جُرَيجٍ وَغَيرِهِ وَقَدْ جاءَ في ٱلصَّحيح أنَّهُ قالَ لا يَزالُ هٰذا ٱلأمرُ قائِماً حَتّى تَقومَ ٱلسّاعَةُ أوْ يَكونَ عَلَيهِمِ ٱثنا عَشَرَ خَليفَة

يعني قريشاً وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون إو إحدى وثلاثون أو ست وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله إنك لذو قرنيها يريد الأمة أي إنك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً انتهى كلام ابن أبي واصل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات أنه إذا وصل القران إلى الثور على رأس ضح بحرفين الضاد(1) المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنما خرج من ديماس إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان

---

(1) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد لستين . اهـ . قاله نصر

كاللُّؤلؤ كَثِيرُ خِيلَانِ الْوَجهِ وَفي حَديثٍ آخرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلى الْبَياضِ وَالْحُمْرَةِ وَفي آخرَ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ في الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ دَلْوُ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنهَا وَتَلِدُ زَوْجَتُهُ وَذَكَرَ وَفاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَاماً وَجاءَ أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلى جَانِبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَجاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يُحْشَرَانِ بَيْنَ نَبِيَّيْنِ قالَ ابْنُ أَبي وَاصِلٍ وَالشِّيعَةُ تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ حَدِيثَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٌّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نِسْبَتُهُ إِلى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نِسْبَةُ عِيسَى إِلى الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ في الِاتِّبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ إِلى كَلامٍ مِنْ أَمْثَالِ هٰذا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدِلَّةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحَكُّمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيَنْقَضِي الزَّمَانُ وَلَا أَثَرَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا تَرَاهُ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نُجُومِيَّةٍ في هٰذا انْقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ. وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلى ظُهُورِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَحَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرُبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطْلِقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْبَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِسِيُّ كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ في أَوَّلِ هٰذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّاءُ عَنْ أَبِيهِ أَبي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبي يَعْقُوبَ الْمَذْكُورِ هٰذا آخِرُ مَا اطَّلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَغَنَا مِنْ كَلامِ هٰؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَا أَوْرَدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدِ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا تَتِمُّ دَعْوَةٌ مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصَبِيَّةٍ تُظْهِرُهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ مَنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللهِ فِيهِ وَقَدْ قَرَّرْنَا ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصَبِيَّةُ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ تَلَاشَتْ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاقِ وَوُجِدَ أُمَمٌ آخَرُونَ قَدِ اسْتَعْلَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ عَلى عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ في مَكَّةَ وَيَنْبُعَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ مِنْ بَني حَسَنٍ وَبَني حُسَيْنٍ وَبَني جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ في تِلْكَ الْبِلادِ وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَصَائِبُ بَدَوِيَّةٌ مُتَفَرِّقُونَ في مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ وَآرَائِهِمْ يَبْلُغُونَ الْآلَافَ مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هٰذا الْمَهْدِيِّ فَلا وَجْهَ لِظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَيُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ في اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةٌ وَعَصَبِيَّةٌ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ

كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هٰذَا الْوَجْهِ مِثْلِ أَنْ يَدْعُوَ فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هٰذَا الْأَمْرِ فِي أُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدَّعِيهِ الْعَامَّةُ وَالْأَغْمَارُ مِنَ الدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى عَقْلٍ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ ذٰلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيداً لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرُ مَا يُجِيبُونَ فِي ذٰلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافَ الْعُمْرَانِ مِثْلَ الزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطاً بِمَاسَةَ لِمَا كَانَ ذٰلِكَ الرِّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُلَثَّمِينَ مِنْ كُدَالَةَ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْماً لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأُمَمِ وَبُعْدُهُمْ عَنْ يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةٍ أَوْ قِلَّةٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ قُوَّةٍ وَلِبُعْدِ الْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ الدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ الدَّوْلَةِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهْرِ وَلَا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا هٰذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذٰلِكَ الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةٍ يُمِيهُ تَمَامَهَا وَسْوَاساً وَحُمْقاً وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأُبُلِّيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصْرِ السُّلْطَانِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُنْتَحِلِي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِالتُّوَيْزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوزَرَ مُصَغَّراً وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَةَ وَكَزُولَةَ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ السَّكْسِيوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَيَاتاً وَانْحَلَّ أَمْرُهُ وَكَذٰلِكَ ظَهَرَ فِي غُمَارَةَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَعَشْرِ التِّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الدَّهْمَاءُ مِنْ غُمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنْوَةً وَحَرَقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَزْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا النَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هٰذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حَجِّهِ فِي رِبَاطِ الْعُبَّادِ وَهُوَ مَدْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنٍ فِي جَبَلِ تِلِمْسَانَ الْمُطِلِّ عَلَيْهَا رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتْبُوعاً مُعَظَّماً كَثِيرَ التِّلْمِيذِ وَالْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ الرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ قَالَ وَتَأَكَّدَتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذٰلِكَ الطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِـكَرْبَلاءَ لِطَلَبِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ وَٱنْتِحَالِ دَعْوَةِ ٱلْفَاطِمِيِّ بِٱلْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلُ تِلْمُسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ٱرْجِعُوا فَقَدْ أَزْرَى بِنَا ٱلْغَلَطُ وَلَيْسَ هٰذَا ٱلْوَقْتُ وَقْتَنَا وَيَدُلُّ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ ٱلْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصَبِيَّةَ بَنِي مَرِينَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى ٱلْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ ٱلتَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهٰذَا ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ ٱلْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ ٱلدُّعَاةِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَٱلْقِيَامِ بِٱلسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ ٱلْوَاحِدُ فَٱلْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ ٱلسُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ ٱلسَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ ٱلْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ بِمَا ٱسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ ٱلْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ إِلَى ٱلدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا ٱلْإِقْصَارَ عَنِ ٱلْغَارَةِ وَٱلنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي ٱلدِّيَانَةِ غَيْرَ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا ٱلْمَعْصِيَةُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ فَتَجِدُ ذٰلِكَ ٱلْمُنْتَحِلَ لِلدَّعْوَةِ وَٱلْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِٱلسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ ٱلْإِقْتِدَاءِ وَٱلْإِتِّبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّهْبِ وَٱلْبَغْيِ وَإِفْسَادِ ٱلسَّابِلَةِ ثُمَّ ٱلْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّانَ بَيْنَ هٰذَا ٱلْأَجْرِ مِنْ إِصْلَاحِ ٱلْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ ٱلدُّنْيَا فَٱتِّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تَسْتَحْكِمُ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ لَهُ نُزُوعٌ عَنِ ٱلْبَاطِلِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ ٱلدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي ٱسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ ٱنْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مُرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِيناً مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سلَيم ورِيَاح وَبَعْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَيُلَبِّسُونَ فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ ٱسْمَ ٱلسُّنَّةِ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا ٱلْأَقَلَّ فَلا يَتِمُّ لَهُمْ وَلا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلتَّشَوُّقَ إِلى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمِ مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيَّمَا ٱلْحَوَادِثُ ٱلْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مُدَدِ ٱلدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَٱلتَّطَلُّعُ إِلى هٰذا طَبِيعَةٌ مَجْبُولُونَ عَلَيْهَا وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنَ ٱلنَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلى ٱلْوُقُوفِ عَلى ذٰلِكَ فِي ٱلْمَنَامِ وَٱلْأَخْبَارُ مِنَ ٱلْكُهَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجِدُ فِي ٱلْمُدُنِ صِنْفاً مِنَ ٱلنَّاسِ يَنْتَحِلُونَ ٱلْمَعَاشَ مِنْ ذٰلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحِرْصِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلدَّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَصِبْيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أَمْرِهِمْ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلْجَاهِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْمُعَاشَرَةِ وَٱلْعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ مَا بَيْنَ خَطٍّ فِي ٱلرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُنَجِّمَ وَطَرْقٍ بِٱلْحَصَى وَٱلْحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحَاسِبَ وَنَظَرٍ فِي ٱلْمَرَايَا وَٱلْمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ ٱلْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُنْكَرَاتِ ٱلْفَاشِيَةِ فِي ٱلْأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي ٱلشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذٰلِكَ وَإِنَّ ٱلْبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ ٱلْغَيْبِ إِلَّا مَنْ أَطْلَعَهُ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وِلايَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْمُلُوكُ فِي آمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذٰلِكَ ٱنْصَرَفَتِ ٱلْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنَجِّمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ ٱلْحَرْبِ وَٱلْمَلاحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَدَدِ ٱلْمُلُوكِ فِيهَا وَٱلتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْحَدَثَانَ وَكَانَ فِي ٱلْعَرَبِ ٱلْكُهَّانُ وَٱلْعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِشِقٍّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلْيَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ ٱلْحَبَشَةِ بِلادَهُمْ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَكَذَا

تأويلُ سَطيح لِرُؤيا ٱلمُوبَذانِ حَيثُ بَعَثَ إلَيهِ كِسرى بِهَا مَعَ عَبدِ ٱلمَسيحِ وأَخبَرَهُم بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلعَرَبِ وَكَذا كَانَ فِي جِيلِ ٱلبَرْبَرِ كُهَّانٌ مِنْ أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِن بَنِي يَفْرِنَ وَيُقَالُ مِنْ غُمْرَةَ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلى طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ بِرَطَانَتِهِم وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِزِنَاتَةَ مِنَ ٱلمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ بِٱلمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوَلَةٌ بَينَ أَهْلِ ٱلجِيلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِم أَنَّهُ كَانَ نَبِيّاً لِأَنَّ تَأْرِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ ٱلهِجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَنِدُ ٱلجِيلُ إلى خَبَرِ ٱلأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ ٱلمُتَعَاقِبِينَ فِيهِم كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَعْنُونَهُمْ فِي ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ . وَأَمَّا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى ٱلعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى ٱلخُصُوصِ وَكَانَ ٱلمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي مَنْ صَدْرِ ٱلإِسْلَامِ لِآثَارٍ مَنْقُولَةٍ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَخُصُوصاً مَسْلَمَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ ٱلأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَأَمْثَالِهِمَا وَرُبَّمَا ٱقْتَبَسُوا بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرَ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ ٱلكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلوِلَايَةِ وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِم مِنَ ٱلأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ فَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهَذِهِ ٱلرُّتَبِ ٱلشَّرِيفَةِ وَٱلكَرَامَاتِ ٱلمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ ٱلمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلعُلُومِ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ ٱلحُكَمَاءِ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ ٱلمُنَجِّمِينَ فِي ٱلمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَسَائِرِ ٱلأُمُورِ ٱلعَامَّةِ مِنَ ٱلقِرَانَاتِ وَفِي ٱلمَوَالِيدِ وَٱلمَسَائِلِ وَسَائِرِ ٱلأُمُورِ ٱلخَاصَّةِ مِنَ ٱلطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ ٱلفَلَكِ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَلْنَذْكُرِ ٱلآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ ٱلأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ ٱلمُنَجِّمِينَ . أَمَّا أَهْلُ ٱلأَثَرِ فَلَهُمْ فِي مُدَّةِ ٱلمِلَلِ وَبَقَاءِ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسُّهَيْلِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱلطَّبَرِيِّ مَا يَقْتَضِي أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا مُنْذُ ٱلمِلَّةِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَنَقَضَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ وَمُسْتَنَدُ ٱلطَّبَرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ٱلدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمَعِ ٱلآخِرَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ لِذَلِكَ دَلِيلاً وَسِرُّهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ ٱلدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ثُمَّ ٱليَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم مِنْ صَلاَةِ ٱلعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ وَقَالَ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِٱلسَّبَّابَةِ وَٱلْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلاَةِ ٱلعَصْرِ وَغُرُوبِ ٱلشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ يَكُونُ عَلَى ٱلتَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ وَكَذٰلِكَ وَصْلُ ٱلْوُسْطَى عَلَى ٱلسَّبَّابَةِ فَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةُ نِصْفَ سُبْعِ ٱلْجُمْعَةِ كُلِّهَا وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَنْ يُعْجِزَ ٱللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلاَفٍ وَسِتُّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي ٱلْمَاضِيَ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا كُلِّهَا سِتَّةُ آلاَفِ سَنَةٍ قَالَ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثَيْنِ مَا يَشْهَدُ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وُقُوعِ ٱلْوُجُودِ بِخِلاَفِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلاَ يَقْتَضِي نَفْيَ ٱلزِّيَادَةِ عَلَى ٱلنِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ فَإِنَّمَا فِيهِ ٱلإِشَارَةُ إِلَى ٱلقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلسَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ وَلاَ شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ ٱلسُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ ٱلْمِلَّةِ مِنْ مَدْرَكٍ آخَرَ لَوْ سَاعَدَهُ ٱلتَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ ٱلْحُرُوفَ ٱلْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ ٱلسُّوَرِ بَعْدَ حَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ قَالَ وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفاً يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الم يسطع نص حق كره) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ فَكَانَ سَبْعَمِائَةٍ وَثَلاَثَةً [1] أَضَافَهُ إِلَى ٱلْمُنْقَضِي مِنَ ٱلأَلْفِ ٱلآخِرِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ فَهٰذِهِ هِيَ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَلاَ يَبْعُدُ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ وَكَوْنُهُ لاَ يَبْعُدُ لاَ يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلاَ ٱلتَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلسُّهَيْلِيَّ عَلَى ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسِّيَرِ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ٱبْنَي أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرٍ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ ٱلأَحْرُفِ ٱلْمُقَطَّعَةِ أَلَمْ وَتَأَوَّلاَهَا عَلَى بَيَانِ ٱلْمُدَّةِ بِهٰذَا ٱلْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَٱسْتَقَلَّا ٱلْمُدَّةَ وَجَاءَ حُيَيٌّ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هٰذَا غَيْرُهُ فَقَالَ ٱلْمص ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلر ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلْمر فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَٱسْتَطَالَ ٱلْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لُبِسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لاَ نَدْرِي أَقَلِيلاً أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيراً ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرٍ مَا يُدْرِيكُم لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعَمِائَةٍ وَأَرْبَعَ سِنِينَ قَالَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

---

١ هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. اهـ. وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ دَلَالَةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُعِ وَالْاصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ الْجُمَّلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقِدَمُ الْاصْطِلَاحِ لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلاً وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَةً بِالْحِجَازِ غُفْلاً عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقْهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ الْعَوَامُّ فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٌّ فِي حَدِيثٍ خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذُّهْلِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ فَرُّوخَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْه وَاللهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَمِائَةٍ فَصَاعِداً إِلَّا قَدْ سَمَّاهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ صَحِيحاً فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مُبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارٍ أُخْرَى يُجَوَّدُ أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ أَيْضاً قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيباً فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابُهُ هَؤُلَاءِ. اهـ. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئاً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيباً فَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ اهـ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْأَشْرَاطِ لَا غَيْرُ لِأَنَّهُ الْمَعْهُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ شَاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ اخْتَلَفُوا فِي رِجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي

ٱبن فروخ أحاديثه مناكير وقال ٱلبخاري يعرف منـه وينكر وقال ٱبن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وإن خرج له في ٱلصحيحين ووثقه ٱبن معين فإنما خرج له ٱلبخاري ٱستشهاداً وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال ٱبن حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه ٱلزيادة ٱلتي وقعت لأبي داود في هذا ٱلحديث من هذه ٱلجهات مع شذوذها كما مر . وقد يستندون في حدثان ٱلدول على ٱلخصوص إلى كتاب ٱلجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق ٱلآثار وٱلنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده وٱعلم أن كتاب ٱلجفر كان أصله أن هارون بن سعيد ٱلعجلي وهو رأس ٱلزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر ٱلصادق وفيه علم ما سيقع لأهل ٱلبيت على ٱلعموم ولبعض ٱلأشخاص منهم على ٱلخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق ٱلكرامة وٱلكشف ٱلذي يقع لمثلهم من ٱلأولياء وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون ٱلعجلي وكتبه وسماه ٱلجفر بٱسم ٱلجلد ٱلذي كتب فيه لأن ٱلجفر في ٱللغة هو ٱلصغير وصار هذا ٱلإسم علماً على هذا ٱلكتاب عندهم وكان فيه تفسير ٱلقرآن وما في باطنه من غرائب ٱلمعاني مروية عن جعفر ٱلصادق وهذا ٱلكتاب لم تتصل روايتـه ولا عرف عينه وإنما يظهر منه شواذ من ٱلكلمات لا يصحبها دليل ولو صح ٱلسند إلى جعفر ٱلصادق لكان فيه نعم ٱلمستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل ٱلكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ٱبن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بٱلجوزجان كما هو معروف وإذا كانت ٱلكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من ٱلنبوة وعناية من ٱلله بٱلأصل ٱلكريم تشهد لفروعه ٱلطيبة وقد ينقل بين أهل ٱلبيت كثير من هـذا ٱلكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة ٱلعبيديين كثير منه وٱنظر ما حكاه ٱبن ٱلرقيق في لقاء أبي عبد ٱلله ٱلشيعي لعبيد ٱلله ٱلمهدي مع ٱبنه محمد ٱلحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه إلى ٱبن حوشب داعيتهم بٱليمن فأمره بٱلخروج إلى ٱلمغرب وبث ٱلدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك وأن عبيد ٱلله لما بنى ٱلمهدية بعد ٱستفحال

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا ٱلْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ ٱلْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِٱلْمَهْدِيَّةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ ٱلْخَبَرُ بِبُلُوغِهِ إِلَى ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي عَيَّنَهُ جَدُّهُ أَبُو عُبَيْدِ ٱللهِ فَأَيْقَنَ بِٱلظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ ٱلْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَٱتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلزَّابِ فَظَفِرَ بِهِ وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ. وَأَمَّا ٱلْمُنَجِّمُونَ فَيَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ مِثْلِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ فَمِنَ ٱلْقِرَانَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ زُحَلَ وَٱلْمُشْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ ٱلْقِرَانُ إِلَى بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ ٱلْمُثَلَّثَةِ مِنَ ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرَ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ ٱلثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ بِٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعِ عَوْدَاتٍ فِي مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ ٱنْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ ٱلْمُثَلَّثَةِ إِلَى ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلَّتِي تَلِيهَا أَعْنِي ٱلْبُرْجَ ٱلَّذِي يَلِي ٱلْبُرْجَ ٱلْأَخِيرَ مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ وَهٰذَا ٱلْقِرَانُ ٱلَّذِي هُوَ قِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسَطٍ فَٱلْكَبِيرُ هُوَ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْفَلَكِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَٱلْوَسَطُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي كُلِّ مُثَلَّثَةٍ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثَلَّثَةٍ أُخْرَى وَٱلصَّغِيرُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ وَبَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ ٱلْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ مِثَالُ ذٰلِكَ وَقَعَ ٱلْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْحَمَلِ وَبَعْدَ عِشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهٰذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ ٱلْقِرَانِ وَعَوْدَ ٱلْقِرَانِ وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ ٱلنَّارِيَّةِ إِلَى ٱلتُّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهٰذَا قِرَانٌ وَسَطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ ٱلْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ فِي تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ ٱلْكَبِيرُ وَٱلْقِرَانُ ٱلْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ ٱلْأُمُورِ مِثْلِ تَغْيِيرِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱنْتِقَالِ ٱلْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَٱلْوَسَطُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ وَٱلطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَٱلصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْخَوَارِجِ وَٱلدُّعَاةِ وَخَرَابِ ٱلْمُدُنِ أَوْ عُمْرَانِهَا وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هٰذِهِ ٱلْقِرَانَاتِ قِرَانُ ٱلنَّحْسَيْنِ فِي بُرْجِ ٱلسَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سنةً مرةً ويُسمَّى الرَّابعَ وبُرجُ السَّرطانِ هُوَ طالِعُ العالَمِ وفيهِ وَبالُ زُحلَ وهُبوط المرِّيخ فَتَعظُمُ دَلالةُ هٰذا القِرانِ في الفِتَنِ والحُروبِ وسَفكِ الدِّماءِ وظُهورِ الخوارِج وحَركةِ العساكِرِ وعِصيانِ الجُندِ والوَباءِ والقَحطِ ويَدومُ ذٰلِكَ أو يَنتَهي على قَدرِ السَّعادةِ والنُّحوسةِ في وَقتِ قِرانِهِما على قَدرِ تَيسيرِ الدَّليلِ فيهِ قالَ جراسُ بنُ أحمَد الحاسِبُ في الكِتابِ الَّذي ألَّفَهُ لِنِظامِ المُلكِ ورُجوعُ المرِّيخِ إلى العَقرَبِ لهُ أثَرٌ عظيمٌ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ لأنَّهُ كانَ دَليلَها فالمَولِدُ النَّبويُّ كانَ عِندَ قِرانِ العُلوِيَّين بِبُرجِ العَقرَبِ فلَمَّا رَجعَ هُنالِكَ حدَثَ التَّشويشُ على الخُلَفاءِ وكَثُرَ المَرَضُ في أهلِ العِلمِ والدِّينِ ونَقَصَت أحوالُهُم ورُبَّما انهَدَمَ بَعضُ بُيوتِ العِبادةِ وقد يُقالُ إنَّهُ كانَ عِندَ قَتلِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عَنهُ ومَروانَ مِن بَني أُميَّةَ والمُتوَكِّلِ مِن بَني العبَّاسِ فإذا رُوعِيَت هٰذِهِ الأحكامُ مَعَ أحكامِ القِراناتِ كانَت في غايةِ الإحكامِ وذَكَرَ شاذانُ البَلخيُّ أنَّ المِلَّةَ تَنتَهي إلى ثَلاثِمائةٍ وعِشرينَ وقَد ظَهَرَ كَذِبُ هٰذا القَولِ وقالَ أبو مَعشَرٍ يَظهَرُ بَعدَ المائةِ والخَمسينَ مِنها اختِلافٌ كثيرٌ ولَم يَصِحَّ ذٰلِكَ وقالَ جِراش رأيتُ في كُتُبِ القُدَماءِ أنَّ المُنَجِّمينَ أخبَروا كِسرى عَن مُلكِ العَرَبِ وظُهورِ النُّبوَّة فيهِم وأنَّ دَليلَهُمُ الزُّهرةُ وكانَت في شَرَفِها فيَبقى المُلكُ فيهِم أربعينَ سنةً وقالَ أبو مَعشَرٍ في كِتابِ القِراناتِ القِسمَةُ إذا انتَهَت إلى السَّابِعةِ والعِشرينَ مِنَ الحوتِ فيها شَرَفُ الزُّهرةِ ووَقَعَ القِرانُ مَعَ ذٰلِكَ بِبُرجِ العَقرَبِ وهُوَ دَليلُ العَرَبِ ظَهَرَت حينَئِذٍ دَولةُ العَرَبِ وكانَ مِنهُم نَبيٌّ ويَكونُ قُوَّةُ مُلكِهِ ومُدَّتُهُ على ما بَقِيَ مِن دَرَجاتِ شَرَف الزُّهرةِ وهِيَ إحدى عَشرَةَ دَرَجةً بِتَقريبٍ مِن بُرجِ الحوتِ ومُدَّةُ ذٰلِكَ سِتُّمائةٍ وعَشر سِنينَ وكانَ ظُهورُ أبي مُسلِمٍ عِندَ انتِقالِ الزُّهرةِ ووُقوعِ القِسمَةِ أوَّلَ الحَمَلِ وصاحِب الجَدِّ المُشتَري وقالَ يَعقوبُ بنُ إسحاقَ الكِنديُّ إنَّ مُدَّةَ المِلَّةِ تَنتَهي إلى سِتِّمائةٍ وثَلاثٍ وتِسعينَ سنةً قالَ لأنَّ الزُّهرةَ كانَت عِندَ قِرانِ المِلَّةِ في ثَمانٍ وعِشرينَ دَرَجةً وثَلاثينَ دَقيقةً مِنَ الحوتِ فالباقي إحدى عَشرَةَ دَرَجةً وثَماني عَشرَةَ دَقيقةً ودَقائِقُها سِتُّونَ فيَكونُ سِتَّمائةٍ وثَلاثاً وتِسعينَ سنةً قالَ وهٰذِهِ مُدَّةُ المِلَّةِ باتِّفاقِ الحُكَماءِ ويَعضُدُهُ الحُروفُ الواقِعةُ في أوَّلِ السُّوَرِ بِحَذفِ المُكَرَّرِ واعتِبارِهِ بِحِسابِ الجُمَّل قُلتُ وهٰذا هُوَ الَّذي ذَكَرَهُ السُّهَيليُّ والغالِبُ أنَّ الأوَّلَ هُوَ مُستَنَدُ السُّهَيليِّ فيما نَقَلناه

عنهُ قالَ خِرَاشٌ سَأَلَ هِرمزُ إفريذَ ٱلحَكيمَ عَنْ مُدَّةِ أَزْدَشِيرَ وَوَلَدِهِ مُلوكِ ٱلسَّاسانيَّة فقالَ دَليلُ مُلكِهِ ٱلمُشتَرِي وَكانَ في شَرَفِهِ فيُعْطَى أَطولَ ٱلسِّنينَ وَأَجوَدَها أَربَعمِائَة وَسَبعاً وَعِشرينَ سَنَةً ثُمَّ يَزيدُ ٱلزُّهَرَةُ وَتَكونُ في شَرَفِها وَهِيَ دَليلُ ٱلعَرَبِ فَيَملِكُون لِأَنَّ طالِعَ ٱلقِرانِ ٱلمِيزانُ وَصاحِبِهِ ٱلزُّهَرَةُ وَكانَتْ عِندَ ٱلقِرانِ في شَرَفِها فَدَلَّ أَنَّهُمْ يَملِكُونَ أَلفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسرَى أَنُو شِرْوانَ وَزيرَهُ بُزُرْجُمِهْرَ ٱلحَكيمِ عَنْ خُرُوجِ ٱلمُلكِ مِنْ فارِسَ إلى ٱلعَرَبِ فَأَخبَرَهُ أَنَّ ٱلقائِمَ مِنهُمْ يُولَدُ لِخَمسٍ وَأَربَعين مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَملِكُ ٱلمَشرِقَ وَٱلمَغرِبَ وَٱلمُشتَرِي يَغُوصُ إلى ٱلزُّهَرَةِ وَيَنتَقِلُ ٱلقِرانِ مِنَ ٱلهَوائِيَّةِ إلى ٱلعَقرَبِ وَهُوَ مائِيٌّ وَهُوَ دَليلُ ٱلعَرَبِ فَهذِهِ ٱلأَدِلَّةُ تُقضِي لِلمِلَّةِ بِمُدة دَوْرِ ٱلزُّهَرَةِ وَهِيَ أَلفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسرَى أَبرَوِيزُ أَلْيُوسَ ٱلحَكيمَ عَنْ ذٰلِكَ فَقالَ مِثْلَ قَولِ بُزُرْجُمِهْرَ وَقالَ تُوفيلُ ٱلرُّومِيُّ ٱلمُنَجِّمُ في أَيَّامِ بَني أُمَيَّةَ إنَّ مِلَّةَ ٱلإسلام تَبقَى مُدَّةَ ٱلقِرانِ ٱلكَبيرِ تِسعَمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإذا عادَ ٱلقِرانُ إلى بُرجِ ٱلعَقرَب كَما كانَ في ٱبتِداءِ ٱلمِلَّةِ وَتَغَيَّرَ وَضعُ ٱلكَواكِبِ عَنْ هَيئَتِها في قِرانِ ٱلمِلَّةِ فَحينَئِذ إمَّا أَنْ يَفتُرَ ٱلعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَجَدَّدَ مِنَ ٱلأَحكامِ ما يُوجِبُ خِلافَ ٱلظَّنِّ قالَ خِراش وَٱتَّفَقوا على أَنَّ خَرابَ ٱلعالَمِ يَكونُ بِٱستيلاءِ ٱلماءِ وَٱلنَّارِ حَتَّى تَهلِكَ سائِرُ ٱلمُكَوَّنات وَذٰلِكَ عِندَما يَقطَعُ قَلبُ ٱلأَسَدِ أَربعاً وَعِشرينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ ٱلمِرِّيخِ وَذٰلِكَ بَعد مُضِيِّ تِسعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَذَكَرَ خِراشٌ أَنَّ مَلِكَ زابُلِستانَ بَعَثَ إلى ٱلمَأمُون بِحَكيمِهِ ذُوبانَ أَتحَفَهُ بِهِ في هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ لِلمَأمُونِ في ٱلإختِياراتِ بِحُرُوبِ أَخيهِ وَبِعَقدِ ٱللِّواءِ لِطاهِرٍ وَأَنَّ ٱلمَأمُونَ أَعظَمَ حِكمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلكِهِمْ فَأَخبَرَه بِٱنقِطاعِ ٱلمُلكِ مِنْ عَقِبِهِ وَٱتِّصالِهِ في وُلْدِ أَخيهِ وَأَنَّ ٱلعَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ على ٱلخِلافَةِ مِن ٱلدَّيلَمِ في دَوْلَةِ سَنَةِ خَمسينَ وَيَكونُ ما يُريدُهُ ٱللهُ ثُمَّ يَسُوءُ حالُهُمْ ثُمَّ تَظهَرُ ٱلتُّركُ مِن شَمالِ ٱلمَشرِقِ فَيَملِكُونَ إلى ٱلشَّامِ وَٱلفُراتِ وَسَيحُونَ وَسَيَملِكُونَ بِلادَ ٱلرُّومِ وَيَكون ما يُريدُهُ ٱللهُ فَقالَ لَهُ ٱلمَأمُونُ مِنْ أَينَ لَكَ هٰذا فَقالَ مِنْ كُتُبِ ٱلحُكَماءِ وَمِنْ أَحكامِ صَصَّةَ بْنِ داهِرٍ ٱلهِنديِّ ٱلَّذي وَضَعَ ٱلشِّطْرَنجَ قُلتُ وَٱلتُّرْكُ ٱلَّذينَ أَشارَ إلى ظُهورِهِم بَعدَ ٱلدَّيلَمِ هُمُ ٱلسَّلجُوقيَّةُ وَقَدِ ٱنقَضَتْ دَولَتُهُمْ أَوَّلَ ٱلقَرنِ ٱلسَّابع قالَ خِراشٌ وَٱنتِقال ٱلقِرانِ إلى ٱلمُثَلَّثَةِ ٱلمائِيَّةِ مِنْ بُرجِ ٱلحُوتِ يَكونُ سَنَةَ ثَلاثٍ وَثَلاثينَ وَثَمانِمِائَة

ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملّة سنة ثلاث وخمسين. قال والذي في الحوت هو أوّل الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملّة. قال وتحويل السّنة الأولى من القران الأوّل في المثلّثات المائيّة في ثاني رجب سنة ثمان وستّين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك. وأمّا مستند المنجّمين في دولة على الخصوص فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لأنّ له دلالة عندهم على حدوث الدّولة وجهاتها من العمران والقائمين بها من الأمم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات. وقد توجد هذه الدّلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدّول. وقد كان يعقوب بن إسحاق الكنديّ منجّم الرّشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملّة كتاباً سمّاه الشّيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصّادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العبّاس وأنّها نهايته وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنّها تقع في انتصاف المائة السّابعة وأنّه بانقراضها يكون انقراض الملّة ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعلّه غرق في كتبهم الّتي طرحها هلاكو ملك التّتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء. وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمّونه الجفر الصّغير والظّاهر أنّه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الأوّلين من ملوك الموحّدين فيه على التّفصيل ومطابقة من تقدّم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده. وكان في دولة بني العبّاس من بعد الكنديّ منجّمون وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطّبريّ في أخبار المهديّ عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدّولة قال بعث إليّ الرّبيع والحسن في غزاتهما مع الرّشيد أيّام أبيه فجئتهما جوف اللّيل فإذا عندهما كتاب من كتب الدّولة يعني الحدثان وإذا مدّة المهديّ فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهديّ وقد مضى من دولته ما مضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الورّاق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا أنّي رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشكّ أنّها هي ثمّ كتب النّاس من بعد ذلك في حدثان الدّول منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه.

وَبِأَيْدِي ٱلنَّاسِ مُتَفَرِّقَةٌ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتُسَمَّى ٱلْمَلَاحِمَ وَبَعْضُهَا فِي حَدَثَانِ ٱلْمِلَّةِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَبَعْضُهَا فِي دَوْلَةٍ عَلَى ٱلْخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ يُعْتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَنْ وَاضِعِهِ ٱلْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلَاحِمِ بِٱلْمَغْرِبِ قَصِيدَةُ ٱبْنِ مُرَّانَةَ مِنْ بَحْرِ ٱلطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَتَحْسَبُ ٱلْعَامَّةُ أَنَّهَا مِنَ ٱلْحَدَثَانِ ٱلْعَامِّ فَيُطْلِقُونَ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا عَلَى ٱلْحَاضِرِ وَٱلْمُسْتَقْبَلِ وَٱلَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةِ لِمْتُونَةَ لِأَنَّ ٱلرَّجُلَ كَانَ قُبَيْلَ دَوْلَتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا ٱسْتِيلَاءَهُمْ عَلَى سَبْتَةَ مِنْ يَدِ مَوَالِي بَنِي حَمُّودٍ وَمُلْكَهُمْ لِعُدْوَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنَ ٱلْمَلَاحِمِ بِيَدِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ أَيْضاً قَصِيدَةٌ تُسَمَّى ٱلتُّبَّعِيَّةَ أَوَّلُهَا

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبْ   وَقَدْ يَطْرَبُ ٱلطَّائِرُ ٱلْمُغْتَصَبْ

وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَهْوٍ أَرَاهُ   وَلٰكِنْ لِتَذْكَارِ بَعْضِ ٱلسَّبَبْ

قَرِيباً مِنْ خَمْسِمِائَةِ بَيْتٍ أَوْ أَلْفٍ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيراً مِنْ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى ٱلْفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ وَمِنَ ٱلْمَلَاحِمِ بِٱلْمَغْرِبِ أَيْضاً مُلَعَّبَةٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلزَّجَلِيِّ مَنْسُوبَةٌ لِبَعْضِ ٱلْيَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحْكَامَ ٱلْقِرَانَاتِ لِعَصْرِهِ ٱلْعُلْوِيَّيْنِ وَٱلنَّحْسَيْنِ وَغَيْرِهِمَا وَذَكَرَ مِيتَتَهُ قَتِيلًا بِفَاسَ وَكَانَ كَذٰلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا   فافهموا يا قوم هذي الاشارا

نجم زحل اخبر بذي العلاما   وبدَّل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العماما   وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي   يصلب في بلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي   وقتله يا قوم على انفرادِ

وَأَبْيَاتُهُ نَحْوَ ٱلْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي ٱلْقِرَانَاتِ ٱلَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَمِنْ مَلَاحِمِ ٱلْمَغْرِبِ أَيْضاً قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ ٱلْمُتَقَارَبِ عَلَى رَوِيِّ ٱلْبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ بِتُونِسَ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ مَنْسُوبَةٌ لِٱبْنِ ٱلْأَبَّارِ وَقَالَ لِي قَاضِي قُسَنْطِينِيَّةَ ٱلْخَطِيبُ ٱلْكَبِيرُ أَبُو عَلِيِّ بْنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيراً بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ فِي ٱلتَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هٰذَا ٱبْنَ ٱلْأَبَّارِ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَافِظَ ٱلْأَنْدَلُسِيَّ ٱلْكَاتِبَ مَقْتُولَ ٱلْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خَيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ

تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قلّب يغرّ ببارقه الأشنب

ومنها
ويبعث من جيشه قائداً ويبقى هناك على مرقب
فتأتي إلى الشيخ أخباره فيقبل كالجمل الأجرب
ويظهر من عدله سيرة وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فإما (١) رأيت الرسوم امّحت ولم يرع حق لذي منصب
فخذ في الترحل عن تونس وودع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة تضيف البريء إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها

وبعد أبي عبد الإله شقيقه ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل

إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يمني بذلك نفسه إلى أن هلك ومن الملاحم في المغرب أيضاً الملعبة المنسوبة إلى الهوزني على لغة العامة في عروض البلد

دعني بدمعي الهتان فترت الامطار ولم تفتر
واستقت كلها الويدان واني تملى وتنغدر

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تجرفه العامة أو الخارف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الألغاز لا يعلم تأويله إلا الله لتخلله إلى أوفاق عددية ورموز ملغوزة وأشكال حيوانات تامة ورؤوس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روي اللام والغالب أنها كلها غير صحيحة لأنها لم تنشأ عن أصل علمي من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضاً أن هناك

---

(١) قوله فاما رأيت اصله فان رأيت زيدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطاوفي نسخة فلما رأيت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية . ا هـ . قاله نصر

مَلاحِمَ أُخرَى مَنْسُوبَةً لِابْنِ سِينَاءَ وَابْنِ عُقَّابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصِّحَّةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَانَاتِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضاً عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدَثَانِ دَوْلَةِ التُّرْكِ مَنْسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجَرْبَقِيَّ وَكُلُّهَا أَلْغَازٌ بِالْحُرُوفِ أَوَّلُهَا

إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سُؤْلِي ... مِنْ عِلْمِ جَفْرٍ وَصِيِّ وَالِدِ الْحَسَنِ
فَافْهَمْ وَكُنْ وَاعِياً حَرْفاً وَجُمْلَتَهُ ... وَالْوَصْفَ فَافْهَمْ كَفِعْلِ الْحَاذِقِ الْفَطِنِ
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ ... لَكِنَّنِي أَذْكُرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ
بِشَهْرِ بِيبَرْسَ يَبْقَى بَعْدَ خَمْسَتِهَا ... بِحَاءِ مِيمٍ بَطِيشٌ نَامَ فِي الْكَفَنِ
شِينٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ ... لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَيْ ذَلِكَ الْمِنَنِ
فَمِصْرُ وَالشَّامُ مَعْ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ ... وَأَذْرَبِيجَانُ فِي مُلْكٍ إِلَى الْيَمَنِ

وَأَبْيَاتُهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صَنْعَتِهَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٍ وَمَعْرُوفُ الِانْتِحَالِ

حَكَى الْمُؤَرِّخُونَ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ وَرَّاقٌ ذَكِيٌّ يُعْرَفُ بِالدَّانْيَالِيِّ يَبِلُّ الْأَوْرَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطٍّ عَتِيقٍ يَرْمُزُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يَعْرِفُ مَيْلَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الرِّفْعَةِ وَالْجَاهِ كَأَنَّهَا مَلَاحِمُ وَيَحْصُلُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ وَضَعَ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ مِيماً مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحٍ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ فَقَالَ لَهُ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْكَ وَهُوَ مُفْلِحٌ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ وَذَكَرَ عَنْهُ مَا يُرْضَاهُ وَيَنَالُهُ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَصَبَ لِذَلِكَ عَلَامَاتٍ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَيْهِ فَبَذَلَ لَهُ مَا أَغْنَاهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلْوَزِيرِ ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحٍ هَذَا وَكَانَ مَعْزُولاً فَجَاءَهُ بِأَوْرَاقٍ مِثْلِهَا وَذَكَرَ اسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَبِعَلَامَاتٍ ذَكَرَهَا وَأَنَّهُ يَلِي الْوِزَارَةَ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَتَسْتَقِيمُ الْأُمُورُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقْهَرُ الْأَعْدَاءَ وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِ وَأَوْقَفَ مُفْلِحاً هَذَا عَلَى الْأَوْرَاقِ وَذَكَرَ فِيهَا كَوَائِنَ أُخْرَى وَمَلَاحِمَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِمَّا وَقَعَ وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَنَسَبَ جَمِيعَهُ إِلَى دَانْيَالَ فَأُعْجِبَ بِهِ مُفْلِحٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِ الْمُقْتَدِرُ وَاهْتَدَى مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ وَالْعَلَامَاتِ إِلَى ابْنِ وَهْبٍ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً لِوِزَارَتِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ الْعَرِيقَةِ فِي الْكَذِبِ وَالْجَهْلِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلْغَازِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمَلْحَمَةَ الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى الْبَاجَرْبَقِيِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ . وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ

شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية وهو الباجربقي وكان عارفاً بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومي إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الباب الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا

الملك والدولة فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فإن كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وإن كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها . ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبَائِلَ وَٱلْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ ٱضْطُرُّوا لِلِٱسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَحَطِّ ٱلْأَثْقَالِ وَٱسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصاً مِنْ أُمُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْبَدْوِ وَٱلثَّانِي دَفْعُ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَى ٱلْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُنَازِعِينَ وَٱلْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَٱنْتِزَاعَ ذٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالَبَةُ ٱلْمِصْرِ عَلَى نِهَايَةٍ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ وَٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلِٱمْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ ٱلْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ لِأَنَّ ٱلشَّوْكَةَ وَٱلْعِصَابَةَ إِنَّمَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي ٱلْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ ٱلْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ ٱلْجَوْلَةِ وَثَبَاتُ هٰؤُلَاءِ بِٱلْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَثِيرِ عِصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هٰذَا ٱلْحِصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ ٱلْمُنَازِعِينَ مِمَّا يَفُتُّ فِي عَضُدِ ٱلْأُمَّةِ ٱلَّتِي تَرُومُ ٱلِٱسْتِيلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكَةَ ٱسْتِيلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ ٱنْتَظَمُوهَا فِي ٱسْتِيلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلِٱنْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ ٱسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوَّلاً وَحَطِّ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَكُونَ شَجاً فِي حَلْقِ مَنْ يَرُومُ ٱلْعِزَّةَ وَٱلِٱمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ يَدْعُو إِلَى نُزُولِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي آثَارِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ ٱلْمُدُنِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ حُشِرَ ٱلْفَعَلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا ٱسْتُعِينَ فِي ذٰلِكَ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِٱلْهِنْدَامِ ٱلَّذِي يُضَاعِفُ ٱلْقُوَى وَٱلْقُدَرَ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ ٱلْبِنَاءِ

لِعجزِ ٱلقُوّةِ ٱلبَشَرِيَّةِ وَضُعفِهَا عَنْ ذٰلِكَ كَٱلمَحَّالِ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ ٱلأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمِ ٱلعَظِيمَةِ مِثْلِ إِيوَانِ كِسْرَى وَأَهْرَامِ مِصْرَ وَحَنَايَا ٱلمُعَلَّقَةِ وَشَرْشَالَ بِٱلمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدَرِهِمْ مُتَفَرِّقِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ فَيَتَخَيَّلُ لَهُمْ أَجْسَاماً تُنَاسِبُ ذٰلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هٰذِهِ بِكَثِيرٍ فِي طُولِهَا وَقَدْرِهَا لِتَنَاسُبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلقُدَرِ ٱلَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ ٱلمَبَانِي عَنْهَا وَيَغْفُلُ عَنْ شَأْنِ ٱلهِنْدَامِ وَٱلمَحَّالِ وَمَا ٱقْتَضَتْهُ فِي ذٰلِكَ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلهَنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلمُتَقَلِّبِينَ فِي ٱلبِلَادِ يُعَايِنُ فِي شَأْنِ ٱلبِنَاءِ وَٱسْتِعْمَالِ ٱلحِيَلِ فِي نَقْلِ ٱلأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلمُعْتَنِينَ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلعَجَمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَاهُ عِيَاناً وَأَكْثَرُ آثَارِ ٱلأَقْدَمِينَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ تُسَمِّيهَا ٱلعَامَّةُ عَادِيَّةً نِسْبَةً إِلَى قَوْمِ عَادٍ لِتَوَهُّمِهِمْ أَنَّ مَبَانِيَ عَادٍ وَمَصَانِعَهُمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعِظَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعُفِ قُدَرِهِمْ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَقَدْ نَجِدُ آثَاراً كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ ٱلَّذِينَ تُعْرَفُ مَقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ ٱلأُمَمِ وَهِيَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ ٱلعِظَمِ أَوْ أَعْظَمَ كَإِيوَانِ كِسْرَى وَمَبَانِي ٱلعُبَيْدِيِّينَ مِنَ ٱلشِّيعَةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَٱلصَّنْهَاجِيِّينَ وَأَثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى ٱليَوْمِ فِي صَوْمَعَةِ قَلْعَةِ بَنِي حَمَّادٍ وَكَذٰلِكَ بِنَاءُ ٱلأَغَالِبَةِ فِي جَامِعِ ٱلقَيْرَوَانِ وَبِنَاءُ ٱلمُوَحِّدِينَ فِي رِبَاطِ ٱلفَتْحِ وَرِبَاطِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي ٱلمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ تِلِمْسَانَ وَكَذٰلِكَ ٱلحَنَايَا ٱلَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجَنَّةَ ٱلمَاءَ فِي ٱلقَنَاةِ ٱلرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا مَاثِلَةً لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلمَبَانِي وَٱلهَيَاكِلِ ٱلَّتِي نُقِلَتْ إِلَيْنَا أَخْبَارُ أَهْلِهَا قَرِيباً وَبَعِيداً وَتَيَقَّنَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا هٰذَا رَأْيٌ وَلِعَ بِهِ ٱلقُصَّاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلعَمَالِقَةِ وَنَجِدُ بُيُوتَ ثَمُودَ فِي ٱلحِجْرِ مَنْحُوتَةً إِلَى هٰذَا ٱلعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ أَنَّهَا بُيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا ٱلرَّكْبُ ٱلحِجَازِيُّ أَكْثَرَ ٱلسِّنِينَ وَيُشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ فِي جَوِّهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمْكِهَا عَلَى ٱلمُتَعَاهَدِ وَإِنَّهُمْ لَيُبَالِغُونَ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عُوجَ بْنَ عَنَاقٍ مِنْ جِيلِ ٱلعَمَالِقَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ ٱلسَّمَكَ مِنَ ٱلبَحْرِ طَرِيّاً فَيَشْوِيهِ فِي ٱلشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا أَنَّ ٱلحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ ٱلضَّوْءُ لِٱنْعِكَاسِ ٱلشُّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ ٱلأَرْضِ وَٱلهَوَاءِ وَأَمَّا ٱلشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ وَلَا بَارِدَةٍ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا فِي ٱلفَصْلِ ٱلثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا وَٱللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَٱلسَّبَبُ في ذٰلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ ٱلْبِنَاءِ إِلى ٱلتَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ ٱلْقُدَرِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ ٱلْمَبَانِي في عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْقُدَرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِٱلْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَاه فَيُحْتَاجُ إِلى مُعَاوَدَةِ قُدَرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا في أَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ إِلى أَنْ تَتِمَّ فَيَبْتَدِىءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِٱلْبِنَاءِ وَيَعْقُبُهُ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ في حَشْرِ ٱلْفَعَلَةِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ ٱلْقَصْدُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَكْمُلَ وَيَكُونَ مَاثِلًا لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ ٱلْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَٱنْظُرْ في ذٰلِكَ مَا نَقَلَهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ في بِنَاءِ سَدِّ مَأْرِبَ وَأَنَّ ٱلَّذِي بَنَاهُ سَبَا بْنُ يَشْجُبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِياً وَعَاقَهُ ٱلْمَوْتُ عَن إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هٰذَا نُقِلَ في بِنَاءِ قَرْطَاجَنَّةَ وَقَنَاتِهَا ٱلرَّاكِبَةِ عَلَى ٱلْحَنَايَا ٱلْعَادِيَةِ وَأَكْثَرُ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ في ٱلْغَالِبِ هٰذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَبَانِيَ ٱلْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ ٱلْمَلِكَ ٱلْوَاحِدَ يَشْرَعُ في ٱخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتْبَعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ في إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ ٱلْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَيْضاً أَنَّا نَجِدُ آثَاراً كَثِيرَةً مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ ٱلدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ ٱلْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ ٱلْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ ٱلْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلى ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَمُ وَٱلْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ ٱلْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضْعُفُ قُوَّتُنَا ٱلْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ ٱلْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلْقُدْرَةَ ٱلَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرِطَةُ ٱلْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرَ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهٰذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ في إِيوَانِ كِسْرَى لَمَّا ٱعْتَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ في مَحْبَسِهِ يَسْتَشِيرُهُ في ذٰلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لا تَفْعَلْ وَٱتْرُكْهُ مَاثِلًا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ ٱلَّذِينَ سَلَبُوا ٱلْمُلْكَ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْهَيْكَلِ فَٱتَّهَمَهُ في ٱلنَّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذَتْهُ ٱلنُّعَرَةُ لِلْعَجَمِ وَٱللهِ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ في هَدْمِهِ وَجَمَعَ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ وَٱتَّخَذَ لَهُ ٱلْفُؤُوسَ وَحَمَاهُ بِٱلنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ ٱلْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ بَعْدَ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَخَافَ ٱلْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِياً في ٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْهَدْمِ فَقَالَ لا تَفْعَلْ وَٱسْتَمِرَّ عَلَى ذٰلِكَ لِئَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ ٱلْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ ٱلْعَجَمِ فَعَرَفَهَا ٱلرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذٰلِكَ ٱتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ في هَدْمِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلَّتِي بِمِصْرَ

وَجمعَ ٱلفَعَلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَٱنْتَهَوا إِلَى حَجَرٍ بَيْنَ ٱلحَائِطِ وَٱلظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ ٱلحِيطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى ٱلْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مُنْفَذٌ ظَاهِرٌ وَيَزْعُمُ ٱلزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازاً بَيْنَ تِلْكَ ٱلحِيطَانِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ وَكَذَٰلِكَ حَنَايَا ٱلمُعَلَّقَةِ إِلَى هٰذَا ٱلعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ تُونُسَ إِلَى ٱنْتِخَابِ ٱلحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ ٱلصُّنَّاعُ حِجَارَةَ تِلْكَ ٱلحَنَايَا فَيُحَاوِلُونَ عَلَى هَدْمِهَا ٱلأَيَّامَ ٱلعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ ٱلصَّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ عَصَبِ ٱلرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ ٱلمَحَافِلُ ٱلمَشْهُورَةُ شَهِدْتُ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيراً وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلمُدُنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ ٱلأُمَمُ عِنْدَ حُصُولِ ٱلغَايَةِ ٱلمَطْلُوبَةِ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ فَتُؤْثِرُ ٱلدَّعَةَ وَٱلسُّكُونَ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى ٱتِّخَاذِ ٱلمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَٰلِكَ ٱلقَرَارُ وَٱلمَأْوَى وَجَبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ ٱلمَضَارِّ بِٱلحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبُ ٱلمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ ٱلمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا ٱلحِمَايَةُ مِنَ ٱلمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى مَنَازِلِهَا جَمِيعاً سِيَاجُ ٱلأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذَٰلِكَ فِي مُتَمَنِّعٍ مِنَ ٱلأَمْكِنَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعِّرَةٍ مِنَ ٱلجَبَلِ وَإِمَّا بِٱسْتِدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ ٱلعُبُورِ عَلَى جِسْرٍ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَصْعُبُ مَنَالُهَا عَلَى ٱلعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ ٱمْتِنَاعُهَا وَحِصْنُهَا وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَٰلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ ٱلآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ طِيبُ ٱلهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ ٱلأَمْرَاضِ فَإِنَّ ٱلهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِداً خَبِيثاً أَوْ مُجَاوِراً لِلْمِيَاهِ ٱلفَاسِدَةِ أَوْ مَنَافِعَ مُتَعَفِّنَةٍ أَوْ مُرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا ٱلعَفَنُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا فَأَسْرَعَ ٱلمَرَضُ لِلْحَيَوَانِ ٱلكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ وَٱلمُدُنُ ٱلَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ ٱلهَوَاءِ كَثِيرَةُ ٱلأَمْرَاضِ فِي ٱلغَالِبِ وَقَدِ ٱشْتَهَرَ بِذَٰلِكَ فِي قُطْرِ ٱلمَغْرِبِ بَلَدُ قَابِسَ مِنْ بِلَادِ ٱلجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَّى ٱلعَفَنِ بِوَجْهٍ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ ذَٰلِكَ حَادِثٌ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَٰلِكَ مِنْ قَبْلُ وَنَقَلَ ٱلبَكْرِيُّ فِي سَبَبِ حُدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نُحَاسٍ مَخْتُومٌ بِٱلرَّصَاصِ فَلَمَّا فُضَّ خِتَامُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى ٱلجَوِّ وَٱنْقَطَعَ وَكَانَ ذَٰلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ ٱلحُمَّيَاتِ فِيهِ وَأَرَادَ بِذَٰلِكَ أَنَّ ٱلإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ ٱلطِّلَسْمَاتِ لِوَبَائِهِ وَأَنَّـهُ

ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا ٱلعَفَنُ وَٱلْوَبَاءُ وَهٰذِهِ ٱلْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلعَامَّةِ وَمَبَاحِثِهِمِ ٱلرَّكِيكَةِ وَٱلبَكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ ٱلعِلْمِ وَٱسْتِنَارَةِ ٱلبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هٰذَا أَوْ يَتَبَيَّنُ خُرَفَهُ فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَٱلَّذِي يَكْشِفُ لَكَ ٱلحَقَّ فِي ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَهْوِيَةَ ٱلعَفِنَةَ أَكْثَرُ مَا يُهَيِّئُهَا لِتَعْفِينِ ٱلأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ ٱلحُمَّيَاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا ٱلرِّيحُ وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِيناً وَشِمَالاً خَفَّ شَأْنُ ٱلعَفَنِ وَٱلمَرَضِ ٱلبَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ وَٱلبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلسَّاكِنِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ ٱلهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ ٱلرِّيحُ ٱلمُتَخَلِّلَةُ لِلْهَوَاءِ ٱلرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى ٱلحَرَكَةِ وَٱلتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ ٱلسَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ ٱلهَوَاءُ مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِناً رَاكِداً وَعَظُمَ عَفَنُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ وَبَلَدُ نَابِسَ هٰذِهِ كَانَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةُ مُسْتَجِدَّةَ ٱلعُمْرَانِ كَثِيرَةَ ٱلسَّاكِنِ تَمُوجُ بِأَهْلِهَا مَوْجاً فَكَانَ ذٰلِكَ مُعِيناً عَلَى تَمَوُّجِ ٱلهَوَاءِ وَٱضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ ٱلأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفَنٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَمَا خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا ٱلمُتَعَفِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ ٱلعَفَنُ وَٱلمَرَضُ فَهٰذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ ذٰلِكَ فِي بِلَادٍ وُضِعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ ٱلهَوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلاً قَلِيلَةَ ٱلسَّاكِنِ فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا ٱنْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ذٰلِكَ وَهٰذَا مِثْلُ دَارِ ٱلمُلْكِ بِفَاسٍ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ ٱلمُسَمَّى بِٱلبَلَدِ ٱلجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعَالَمِ فَتَفَهَّمْهُ تَجِدْ مَا قُلْتُهُ لَكَ وَأَمَّا جَلْبُ ٱلمَنَافِعِ وَٱلمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا ٱلمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ ٱلبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عُيُونٌ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنَّ وُجُودَ ٱلمَاءِ قَرِيباً مِنَ ٱلبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى ٱلسَّاكِنِ حَاجَةَ ٱلمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ وَمِمَّا يُرَاعَى مِنَ ٱلمَرَافِقِ فِي ٱلمُدُنِ طِيبُ ٱلمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَوَاجِنِ ٱلحَيَوَانِ لِلنِّتَاجِ وَٱلضَّرْعِ وَٱلرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلمَرْعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيباً طَيِّباً كَانَ ذٰلِكَ أَرْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يُعَانُونَ مِنَ ٱلمَشَقَّةِ فِي بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضاً ٱلمَزَارِعُ فَإِنَّ ٱلزُّرُوعَ هِيَ ٱلأَقْوَاتُ فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ ٱلبَلَدِ بِٱلقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ أَسْهَلَ فِي ٱتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلشَّجَرُ لِلْحَطَبِ وَٱلبِنَاءِ فَإِنَّ ٱلحَطَبَ مِمَّا تَعُمُّ ٱلبَلْوَى فِي ٱتِّخَاذِهِ لِوُقُودِ ٱلنِّيرَانِ لِلِاصْطِلَاءِ وَٱلطَّبْخِ وَٱلخَشَبُ أَيْضاً ضَرُورِيٌّ لِسُقُفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ ٱلخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضاً قُرْبُهَا مِنَ

اَلْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ اَلْحَاجَاتِ اَلْقَاصِيَةِ مِنَ اَلْبِلَادِ اَلنَّائِيَةِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ اَلْأَوَّلِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ اَلْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ اَلسَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ اَلْوَاضِعُ غَافِلًا عَنْ حُسْنِ اَلِاخْتِيَارِ اَلطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهَمُّ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ اَلْعَرَبُ لِأَوَّلِ اَلْإِسْلَامِ فِي اَلْمُدُنِ اَلَّتِي اَخْتَطُّوهَا بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا اَلْأَهَمَّ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي اَلْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ اَلشَّجَرِ وَاَلْمَاءِ اَلْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا اَلْمَاءَ وَلَا اَلْمَزَارِعَ وَلَا اَلْحَطَبَ وَلَا مَرَاعِيَ اَلسَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ اَلظِّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذٰلِكَ كَالْقَيْرَوَانِ وَاَلْكُوفَةِ وَاَلْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهٰذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى اَلْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا اَلْأُمُورُ اَلطَّبِيعِيَّةُ

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي اَلْبِلَادِ اَلسَّاحِلِيَّةِ اَلَّتِي عَلَى اَلْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ اَلْأُمَمِ مَوْفُورَةِ اَلْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيخًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنَ اَلْعَدُوِّ وَاَلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ اَلْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ اَلْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عُمْرَانُ لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ اَلْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعِّرٌ مِنَ اَلْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَّةٍ لِلْبَيَاتِ وَسَهُلَ طُرُوقُهَا فِي اَلْأَسَاطِيلِ اَلْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحَيُّفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ اَلصَّرِيخِ لَهَا. وَأَنَّ اَلْحَضَرَ اَلْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ اَلْمُقَاتِلَةِ وَهٰذِهِ كَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ اَلْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ اَلْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا وَمَتَى كَانَتِ اَلْقَبَائِلُ وَاَلْعَصَائِبُ مُوَطَّنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ اَلصَّرِيخُ وَاَلنَّعِيرُ وَكَانَتْ مُتَوَعِّرَةَ اَلْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِاخْتِطَاطِهَا فِي هِضَابِ اَلْجِبَالِ وَعَلَى أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذٰلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ اَلْعَدُوِّ وَيَئِسُوا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةَ وَبِجَايَةَ وَبَلَدِ اَلْقُلِّ عَلَى صِغَرِهَا فَافْهَمْ ذٰلِكَ وَاَعْتَبِرْهُ فِي اَخْتِصَاصِ اَلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِاسْمِ اَلثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ اَلدَّوْلَةِ اَلْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ اَلدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرْقَةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا اَعْتُبِرَ فِي ذٰلِكَ اَلْمَخَافَةُ اَلْمُتَوَقَّعَةُ فِيهَا مِنَ اَلْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذٰلِكَ وَاَللهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ اَلْعَدُوِّ لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي اَلْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَاَللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمْ أَنَّ اَللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضَّلَ مِنَ اَلْأَرْضِ بِقَاعًا اَخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الأجور وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم. وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه. وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه. والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم فأما مكة فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محمل الآية في قوله وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ثم بعث الله إبراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بها حتى احتملوهما وسكنوا إليهما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زرباً لغنمه وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه وبقي إسماعيل ساكناً به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون

لَيهَا مِنْ كُلِّ أُفُقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ ٱلْبَيْتَ وَتُعَظِّمُهُ وَأَنَّ تُبَّعاً كَسَاهَا ٱلْمُلَاءَ وَٱلْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحاً وَنُقِلَ أَيْضاً أَنَّ ٱلْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتُقَرِّبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالَيِ ٱلذَّهَبِ ٱللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ حِينَ ٱحْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِينِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِجُرْهُمَ ٱلْوِلَايَةُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قِبَلِ خُؤُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خُزَاعَةُ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ ٱللهُ ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَٱنْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةُ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وِلَايَةُ خُزَاعَةَ فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ فَبَنَى ٱلْبَيْتَ وَسَقَّفَهُ بِخَشَبِ ٱلدَّوْمِ وَجَرِيدِ ٱلنَّخْلِ وَقَالَ ٱلْأَعْشَى

حَلَفْتُ بِثَوْبَيْ رَاهِبِ ٱلدُّورِ وَٱلَّتِي … بَنَاهَا قُصَيٌّ وَٱلْمُضَاضُ بْنُ جُرْهُمِ

ثُمَّ أَصَابَ ٱلْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهَدَّمَ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا ٱلنَّفَقَةَ لِذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَٱنْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَٱشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ ٱلْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعاً وَكَانَ ٱلْبَابُ لَاصِقاً بِٱلْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ ٱلْقَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ ٱلسُّيُولُ وَقَصُرَتْ بِهِمِ ٱلنَّفَقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَّرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْراً أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ ٱلْحِجْرُ وَبَقِيَ ٱلْبَيْتُ عَلَى هَذَا ٱلْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جُيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ ٱلْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ ٱلسَّكُونِيِّ وَرَمَى ٱلْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ ٱلنِّفْطِ ٱلَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنِ ٱخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ ٱلصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَٱحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ ٱلْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيّاً وَغَرْبِيّاً فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَجَمَعَ ٱلْوُجُوهَ وَٱلْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ٱبْنُ عَبَّاسٍ بِٱلتَّحَرِّي فِي حِفْظِ ٱلْقِبْلَةِ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَدَارَ عَلَى ٱلْأَسَاسِ ٱلْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا ٱلْأَسْتَارَ حِفْظاً لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي ٱلْفِضَّةِ وَٱلْكِلْسِ فَحَمَلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْأُوَلِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا ٱحْتَاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي ٱلْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا . سَبْعاً وَعِشْرِينَ

ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى في حديثه وجعل فرشها وإزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصنائح الأبواب من الذهب ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات . إلى أن تصدعت حيطانها ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت أني كنت حملت أبا حبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ست أذرع وشبراً مكان الحجر وبناها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيئاً فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لحمة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع وقد لحم . ويعرض ههنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بني على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين أحدهما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه على الآخر في الصناعة يرد ذلك وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم مع جميع جهاته وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد

ٱلرُّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ ٱلْمَنْصُورُ وَٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ ٱلزِّيَادَةُ وَٱسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَٰلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ ٱللَّهِ لِهَٰذَا ٱلْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَٰلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْبِطًا لِلْوَحْيِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ ٱلْحَجِّ وَمَنَاسِكَهُ وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لِغَيْرِهِ فَمَنَعَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ ٱلْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَٰلِكَ ٱلْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ ٱلْمَخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحَمَى ٱلْعَائِذَ بِهِ وَٱلرَّاتِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ ٱلْآفَاتِ فَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُصَادُ لَهُ وَحْشٌ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ وَحَدُّ ٱلْحَرَمِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهَٰذِهِ ٱلْحُرْمَةِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِلَى ٱلتَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ ٱلْعِرَاقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى ٱلثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ ٱلْمُنْقَطَعِ وَمِنْ طَرِيقِ ٱلطَّائِفِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمِرَةَ وَمِنْ طَرِيقِ جُدَّةَ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطَعِ ٱلْعَشَائِرِ . هٰذَا شَأْنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أُمَّ ٱلْقُرَى وَتُسَمَّى ٱلْكَعْبَةَ لِعُلُوِّهَا مِنِ ٱسْمِ ٱلْكَعْبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا بَكَّةَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِي لِأَنَّ ٱلنَّاسَ يَبُكُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءُ بَكَّةَ أَبْدَلُوهَا مِيمًا كَمَا قَالُوا لَازِبٌ وَلَازِمٌ لِقُرْبِ ٱلْمَخْرَجَيْنِ وَقَالَ ٱلنَّخَعِيُّ بِٱلْبَاءِ وَبِٱلْمِيمِ ٱلْبَلَدُ وَقَالَ ٱلزُّهْرِي بِٱلْبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَبِٱلْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتِ ٱلْأُمَمُ مُنْذُ عَهْدِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تُعَظِّمُهُ وَٱلْمُلُوكُ تَبْعَثُ إِلَيْهِ بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ وَقِصَّةُ ٱلْأَسْيَافِ وَغَزَالَيِ ٱلذَّهَبِ ٱللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ حِينَ ٱحْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ٱفْتَتَحَ مَكَّةَ فِي ٱلْجُبِّ ٱلَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ مِمَّا كَانَ ٱلْمُلُوكُ يُهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمِائَتَيْ قِنْطَارٍ وَزْنًا وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ ٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَعَنْتَ بِهَٰذَا ٱلْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذُكِرَ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ هٰكَذَا قَالَ ٱلْأَزْرَقِيُّ وَفِي ٱلْبُخَارِي بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ قَالَ وَلِمَ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا ٱللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا وَخَرَّجَهُ أَبُو دَاوُود وَٱبْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذَٰلِكَ ٱلْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ ٱلْأَفْطَسِ وَهُوَ ٱلْحَسَنُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عَمَدَ إِلَى

ٱلْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ «ا تَصْنَعُ ٱلْكَعْبَةُ بِهَذَا ٱلْمَالِ مَوْضُوعاً فِيهَا لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَلَتِ ٱلذَّخِيرَةُ مِنَ ٱلْكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . (وأما بيت المقدس) وَهُوَ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ ٱلصَّابِئَةِ مَوْضِعَ ٱلزُّهَرَةِ وَكَانُوا يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ ٱلزَّيْتَ فِيمَا يُقَرِّبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دُثِرَ ذَٰلِكَ ٱلْهَيْكَلُ وَٱتَّخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوهَا قِبْلَةً لِصَلاَتِهِمْ . وَذَٰلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِتَمْلِيكِهِمْ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ كَمَا وَعَدَ ٱللهُ أَبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحَقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ ٱلتِّيهِ أَمَرَهُ ٱللهُ بِٱتِّخَاذِ قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ ٱلسَّنْطِ عُيِّنَ بِٱلْوَحْيِ مِقْدَارُهَا وَصِفَتُهَا وَهَيَاكِلُهَا وَتَمَاثِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا ٱلتَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ بِقَنَادِيلِهَا وَأَنْ يَصْنَعَ مَذْبَحاً لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذَٰلِكَ كُلَّهُ فِي ٱلتَّوْرَاةِ أَكْمَلَ وَصْفٍ فَصَنَعَ ٱلْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ ٱلْمَصْنُوعَةُ عِوَضاً عَنِ ٱلْأَلْوَاحِ ٱلْمُنَزَّلَةِ بِٱلْكَلِمَاتِ ٱلْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ وَوَضَعَ ٱلْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهِدَ ٱللهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ ٱلْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ ٱلْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي ٱلتِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي ٱلْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا . وَلَمَّا مَلَكُوا ٱلشَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ ٱلْقُبَّةُ قِبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ بِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَٰلِكَ وَعَهِدَ بِهِ إِلَى ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ وَٱتَّخَذَ عُمُدَهُ مِنَ ٱلصُّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ ٱلزُّجَاجِ وَغَشَّى أَبْوَابَهُ وَحِيطَانَهُ بِٱلذَّهَبِ وَصَاغَ هَيَاكِلَهُ وَتَمَاثِيلَهُ وَأَوْعِيَتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْراً لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ تَحْمِلُهُ ٱلْأَسْبَاطُ وَٱلْكَهْنُوتِيَّةُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي ٱلْقَبْرِ وَوُضِعَتِ ٱلْقُبَّةُ وَٱلْأَوْعِيَةُ وَٱلْمَذْبَحُ كُلٌّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذَٰلِكَ مَا شَاءَ ٱللهُ ثُمَّ خَرَّبَهُ بُخْتُنَصَّرُ بَعْدَ ثَمَانِمَائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْعَصَا وَصَاغَ ٱلْهَيَاكِلَ وَنَثَرَ ٱلْأَحْجَارَ ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ بَنَاهُ عُزَيْرٌ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِعَانَةِ بَهْمَنَ مَلِكِ ٱلْفُرْسِ ٱلَّذِي كَانَتِ ٱلْوِلاَدَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَبْيِ بُخْتُنَصَّرَ وَحَدَّ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُوداً دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلاَمُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُمْ

مُلوكُ يُونَانَ وَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱسْتَفْحَلَ ٱلْمُلْكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي حشْمَنَايَ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِصِهْرِهِمْ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ على بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَتَأَنَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيطِش مِنْ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَّبَ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ ٱلرُّومُ بِدِينِ ٱلْمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ ٱخْتَلَفَ حَالُ مُلُوكِ ٱلرُّومِ فِي ٱلْأَخْـذِ بِدِينِ ٱلنَّصَارَى تَارَةً وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِين وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَٱرْتَحَلَتْ إِلَى ٱلْقُدْسِ فِي طَلَبِ ٱلْخَشَبَةِ ٱلَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا ٱلْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا ٱلْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا ٱلْقُمَامَاتُ وَٱلْقَاذُورَاتُ فَٱسْتَخْرَجَتِ ٱلْخَشَبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ ٱلْقُمَامَاتِ كَنِيسَةَ ٱلْقُمَامَةِ كَأَنَّهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِم وَهَرَّبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ ٱلْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ ٱلزِّبْلِ وَٱلْقُمَامَاتِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا جَزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ ٱلْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ ٱلْقُمَامَةِ بَيْتَ لَحْم وَهُوَ ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَبَقِيَ ٱلْأَمْرُ كَذَٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ ٱلْإِسْلَام وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ ٱلصَّخْرَةِ فَأُرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا ٱلزِّبْلُ وَٱلتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِداً عَلَى طَرِيقِ ٱلْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَذِنَ ٱللهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ ٱلْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ ٱحْتَفَـلَ ٱلْوَلِيدُ بْن عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَـلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ ٱلْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ ٱللهُ مِنَ ٱلْاحْتِفَال كَمَا فَعَـلَ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلْمَدِينَةِ وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بَلَاطَ ٱلْوَلِيدِ وَأَلْزَمَ مَلِكَ ٱلرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ ٱلْفَعَلَةَ وَٱلْمَالَ لِبِنَاءِ هَـٰذِهِ ٱلْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنَمِّقُوهَا بِٱلْفُسَيْفِسَاءِ فَأَطَاعَ لِذَٰلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا ٱقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَـةِ أَعْوَامَ ٱلْخَمْسِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ فِي آخِرِهَـا وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ ٱلْقَاهِرِ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَٱخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ ٱلْفِرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَبَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلْمُقَدَّسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا ٱسْتَقَلَّ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بْن أَيُّوبَ ٱلْكُرْدِيُّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَبِدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى ٱلشَّامِ وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ ٱلْفِرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوه

مِنْ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَذٰلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ ٱلْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ ٱلصَّخْرَةَ وَبَنَى ٱلْمَسْجِدَ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَعْرِضُ لَكَ ٱلْإِشْكَالُ ٱلْمَعْرُوفُ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَإِنَّ ٱلْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيهِ وَهُوَ يُنِيفُ عَلَى ٱلْأَلْفِ بِكَثِيرٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلْوَضْعِ فِي ٱلْحَدِيثِ لَيْسَ ٱلْبِنَاءَ وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ ٱلْمَقْدِسِ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ ٱلصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ فَلَعَلَّ ذٰلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتِ ٱلْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ ٱلْأَصْنَامَ وَٱلتَّمَاثِيلَ حَوَالَيِ ٱلْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَٱلصَّابِئَةُ ٱلَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فَفِيهِ حَلُّ هٰذَا ٱلْإِشْكَالِ. وَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ بِيَثْرِبَ فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا. ثُمَّ أَمَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ ٱللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي كَانَ ٱللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَزَلِهِ وَآوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذٰلِكَ سُمُّوا ٱلْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى ٱلْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ ٱلْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهَمَّهُمْ ذٰلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَلْحَدُهُ ٱلشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلصَّحِيحَةِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّصِّ ٱلصَّرِيحِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ٱلْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذٰلِكَ أَبُو ٱلْوَهَّابِ فِي ٱلْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى

تدلُّ بظاهرِها على ذلكَ وخالفَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ . وأصبحتْ على كلِّ حالٍ ثانيةَ المسجدِ الحرامِ وجنحَ إليها الأممُ بأفئدتِهِم من كلِّ أوبٍ فانظرْ كيفَ تدرَّجت الفضيلةُ في هذهِ المساجدِ المعظَّمةِ لما سبقَ من عنايةِ اللهِ لها وتفهَّمْ سرَّ اللهِ في الكونِ وتدريجَهُ على ترتيبٍ محكمٍ في أمورِ الدينِ والدنيا . وأمَّا غيرُ هذهِ المساجدِ الثلاثةِ فلا نعلمُهُ في الأرضِ إلَّا ما يُقالُ من شأنِ مسجدِ آدمَ عليهِ السلامُ بسرنديبَ من جزائرِ الهندِ لكنَّهُ لم يثبتْ فيهِ شيءٌ يُعوَّلُ عليهِ وقدْ كانتْ للأممِ في القديمِ مساجد يعظِّمونَها على جهةِ الديانةِ بزعمِهِم منها بيوتُ النارِ للفرسِ وهياكلُ يونانَ وبيوتُ العربِ بالحجازِ التي أمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهدمِها في غزواتِهِ وقدْ ذكرَ المسعوديُّ منها بيوتاً لسنا من ذكرِها في شيءٍ إذ هيَ غيرُ مشروعةٍ ولا هيَ على طريقٍ دينيٍّ ولا يُلتفتُ إليها ولا إلى الخبرِ عنها ويكفي في ذلكَ ما وقعَ في التواريخِ فمنْ أرادَ معرفةَ الأخبارِ فعليهِ بها واللهُ يهدي منْ يشاءُ سبحانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة

والسببُ في ذلكَ أنَّ هذهِ الأقطارَ كانتْ للبربرِ منذُ آلافٍ من السنينَ قبلَ الإسلامِ وكانَ عمرانُها كلُّهُ بدويّاً ولمْ تستمرَّ فيهم الحضارةُ حتى تستكملَ أحوالَها والدولُ التي ملكتْهُم منَ الإفرنجةِ والعربِ لمْ يطلْ أمدُ ملكِهِم فيهِم حتى ترسخَ الحضارةُ منها فلمْ تزلْ عوائدُ البداوةِ وشؤونُها فكانوا إليها أقربَ فلمْ تكثرْ مبانيهِم وأيضاً فالصنائعُ بعيدةٌ عن البربرِ لأنَّهُم أعرقُ في البدوِ والصنائعِ من توابعِ الحضارةِ وإنَّما تتمُّ المباني بها فلا بدَّ منَ الحذقِ في تعلُّمِها فلمَّا لمْ يكنْ للبربرِ انتحالٌ لها لمْ يكنْ لهمْ تشوُّقٌ إلى المباني فضلاً عن المدنِ وأيضاً فهمْ أهلُ عصبيَّاتٍ وأنسابٍ لا يخلو عنْ ذلكَ جمعٌ منهمْ والأنسابُ والعصبيَّةُ أجنحُ إلى البدوِ وإنَّما يدعو إلى المدنِ الدعةُ والسكونُ ويصيرُ ساكنُها عيالاً على حاميتِها فتجدُ أهلَ البدوِ لذلكَ يستنكفونَ عنْ سكنى المدينةِ أو الإقامةِ بها فلا يدعو إلى ذلكَ إلَّا الترفُ والغنى وقليلٌ ما هوَ في الناسِ فلذلكَ كانَ عمرانُ أفريقيَّةَ والمغربِ كلُّهُ أو أكثرُهُ بدويّاً أهلَ خيامٍ وظواعنَ وقياطنَ وكُنٍ في الجبالِ وكانَ عمرانُ بلادِ العجمِ كلُّهُ أو أكثرُهُ قرى

وَأَمْصَاراً وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا لِأَنَّ الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي صَرَاحَتِهَا وَالْتِحَامِهَا إِلَّا فِي الْأَقَلِّ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصَبِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمِصْرِ الَّذِي يَذْهَبُ بِالْبَسَالَةِ وَيُصَيِّرُهُ عِيَالاً عَلَى غَيْرِهِ فَافْهَمْهُ وَقِسْ عَلَيْهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْبَرِ بِعَيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أَعْرَقُ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ الْحَضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ الدِّينُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَانِعاً مِنَ الْمُغَالَاةِ أَوِ الْبُنْيَانِ وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهِدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ الْكُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ افْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ وَلَا تَطَاوَلُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالْزَمُوا السُّنَّةَ تَلْزَمْكُمُ الدَّوْلَةُ وَعَهِدَ إِلَى الْوَفْدِ وَتَقَدَّمَ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ الْقَدْرِ قَالُوا وَمَا الْقَدْرُ قَالَ لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ السَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعُدَ الْعَهْدُ بِالدِّينِ وَالتَّحَرُّجُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَالتَّرَفِ وَاسْتَخْدَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمُ الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِيَ وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ شَيَّدُوا الْمَبَانِيَ وَالْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكَثْرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَالْفُرْسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلَافاً مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقِبْطُ وَالنَّبَطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةِ وَالتَّبَابِعَةِ طَالَتْ آمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَداً وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَراً وَاسْتَبْصِرْ فِي هَذَا تَجِدْهُ كَمَا قُلْتُ وَاللهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ شَأْنُ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْبُعْدُ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا تَكُونُ ٱلْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَمَسُّ بِهِ وَذٰلِكَ قِلَّةُ مُرَاعَاتِهِمْ لِحُسْنِ ٱلِٱخْتِيَارِ فِي ٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمَكَانِ وَطِيبِ ٱلْهَوَاءِ وَٱلْمِيَاهِ وَٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِٱلتَّفَاوُتِ فِي هٰذَا تَتَفَاوَتُ جَوْدَةُ ٱلْمِصْرِ وَرَدَاءَتُهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلْعَرَبُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَإِنَّمَا يُرَاعُونَ مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ خَاصَّةً لَا يُبَالُونَ بِٱلْمَاءِ طَابَ أَوْ خَبُثَ وَلَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاءِ ٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَنَابِتِ وَٱلْأَهْوِيَةِ لِٱنْتِقَالِهِمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَقْلِهِمِ ٱلْحُبُوبَ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ وَأَمَّا ٱلرِّيَاحُ فَٱلْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِّ كُلِّهَا وَٱلظَّعْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطِيبِهَا لِأَنَّ ٱلرِّيَاحَ إِنَّمَا تَخْبُثُ مَعَ ٱلْقَرَارِ وَٱلسُّكْنَى وَكَثْرَةِ ٱلْفَضَلَاتِ وَٱنْظُرْ لَمَّا ٱخْتَطُّوا ٱلْكُوفَةَ وَٱلْبَصْرَةَ وَٱلْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا فِي ٱخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلْقَفْرِ وَمَسَالِكِ ٱلظَّعْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ ٱلْوَضْعِ ٱلطَّبِيعِيِّ لِلْمُدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةٌ تُمِدُّ عُمْرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسَطِ ٱلْأُمَمِ فَيَعْمُرُهَا ٱلنَّاسُ فَلِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ ٱنْحِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمِ ٱلَّتِي كَانَتْ سِيَاجًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا ٱلْخَرَابُ وَٱلِٱنْحِلَالُ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَمْصَارَ إِذَا ٱخْتُطَّتْ أَوَّلًا تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْمَسَاكِنِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ ٱلْبِنَاءِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلْجِيرِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى ٱلْحِيطَانِ عِنْدَ ٱلتَّأَنُّقِ كَٱلزُّلَّيْجِ وَٱلرُّخَامِ وَٱلزَّبْرَجِ وَٱلزُّجَاجِ وَٱلْفُسَيْفِسَاءِ وَٱلصَّدَفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدَوِيًّا وَآلَاتُهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ ٱلْآلَاتُ بِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ ٱلصُّنَّاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذٰلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ ٱلصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَفُقِدَتِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلْإِحْكَامُ وَٱلْمُغَالَاةُ عَلَيْهِ بِٱلتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقِلُّ ٱلْأَعْمَالُ لِعَدَمِ ٱلسَّاكِنِ فَيَقِلُّ جَلْبُ ٱلْآلَاتِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا

فتُفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ الْعُمْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلاً ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبَدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عِوَضاً عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْبَدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قُدِّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعاً فِي عُمْرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةُ الْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافاً فَالْقُوتُ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلاً لَا يَسْتَقِلُّ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ السِّتَّةُ أَوِ الْعَشَرَةُ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ لِلْآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحَصَادِ السُّنْبُلِ وَسَائِرِ مُؤَنِ الْفَلْحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوِ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الِاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضَرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ اكْتُفِيَ فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورَاتِ فَتُصْرَفُ فِي حَالَاتِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ حَظٌّ مِنَ الْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ الرَّفْهِ وَالْغِنَى إِلَى التَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ التَّأَنُّقِ فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَلَابِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآنِيَةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخَدَمِ وَالْمَرَاكِبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ الْمَهَرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ

وَخَرْجُهُ وَيَحْصُلُ ٱلْيَسَارُ لِمُنْتَحِلِي ذَٰلِكَ مِنْ قِبَلِ أَعْمَالِهِمْ وَمَتَى زَادَ ٱلْعُمْرَانُ زَادَتِ ٱلْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ ٱلتَّرَفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ وَٱسْتُنْبِطَتِ ٱلصَّنَائِعُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيَمُهَا وَتَضَاعَفَ ٱلْكَسْبُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِذَٰلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ ٱلْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَكَذَا فِي ٱلزِّيَادَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱلثَّالِثَةِ لِأَنَّ ٱلْأَعْمَالَ ٱلزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِٱلتَّرَفِ وَٱلْغِنَى بِخِلَافِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْأَصْلِيَّةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلْمَعَاشِ فَٱلْمِصْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمْرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ بِزِيَادَةِ كَسْبٍ وَرَفْهٍ بِعَوَائِدَ مِنَ ٱلتَّرَفِ لَا تُوجَدُ فِي ٱلْآخَرِ فَمَا كَانَ عُمْرَانُهُ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي ٱلتَّرَفِ أَبْلَغَ مِنْ حَالِ ٱلْمِصْرِ ٱلَّذِي دُونَهُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ٱلْأَصْنَافِ ٱلْقَاضِي مَعَ ٱلْقَاضِي وَٱلتَّاجِرِ مَعَ ٱلتَّاجِرِ وَٱلصَّانِعِ مَعَ ٱلصَّانِعِ وَٱلسُّوقِيِّ مَعَ ٱلسُّوقِيِّ وَٱلْأَمِيرِ مَعَ ٱلْأَمِيرِ وَٱلشُّرْطِيِّ مَعَ ٱلشُّرْطِيِّ * وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي ٱلْمَغْرِبِ مَثَلاً بِحَالِ فَاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلِ بِجَايَةَ وَتَلْمُسَانَ وَسَبْتَةَ تَجِدْ بَيْنَهُمَا بَوْناً كَثِيراً عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ثُمَّ عَلَى ٱلْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ ٱلْقَاضِي بِفَاسَ أَوْسَعُ مِنْ حَالِ ٱلْقَاضِي بِتَلْمُسَانَ وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ وَكَذَا أَيْضاً حَالُ تَلْمُسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوِ ٱلْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَٱلْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمَدَرِ ٱلَّذِينَ ٱعْتِمَالُهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فَقَطْ وَيُقَصِّرُونَ عَنْهَا وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِتَفَاوُتِ ٱلْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَأَنَّهَا كُلَّهَا أَسْوَاقٌ لِلْأَعْمَالِ وَٱلْخَرْجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى نِسْبَتِهِ فَٱلْقَاضِي بِفَاسَ دَخْلُهُ كِفَاءُ خَرْجِهِ وَكَذَا ٱلْقَاضِي بِتَلْمُسَانَ وَحَيْثُ ٱلدَّخْلُ وَٱلْخَرْجُ أَكْثَرُ تَكُونُ ٱلْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهُمَا بِفَاسَ أَكْثَرُ لِنَفَاقِ سُوقِ ٱلْأَعْمَالِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ فَٱلْأَحْوَالُ أَضْخَمُ ثُمَّ كَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقُسَنْطِينِيَّةَ وَٱلْجَزَائِرِ وَبِسْكَرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَاهُ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي لَا تُوَفِّي أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا وَلَا تُعَدُّ فِي ٱلْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ فَلِذَٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلصَّغِيرَةِ ضُعَفَاءَ ٱلْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي بِضَرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضُلُ مَا يَتَأَثَّلُونَهُ كَسْباً فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ وَهُمْ لِذَٰلِكَ مَسَاكِينُ مَحَاوِيجُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ حَتَّى فِي أَحْوَالِ ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلسُّؤَّالِ فَإِنَّ ٱلسَّائِلَ بِفَاسَ أَحْسَنُ حَالاً مِنَ ٱلسَّائِلِ بِتَلْمُسَانَ أَوْ وَهْرَانَ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسَ ٱلسُّؤَّالَ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ ٱلْأَضَاحِي أَثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيراً مِنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَٱقْتِرَاحِ ٱلْمَآكِلِ مِثْلَ سُؤَالِ ٱللَّحْمِ وَٱلسَّمْنِ

وَمِلاجِ الطَّبْخِ وَالْمَلابِسِ وَالْمَاعُونِ كَالغِرْبَالِ وَالْآنِيَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هٰذَا بِتِلِمْسَانَ أَوْ وَهْرَانَ لَاسْتَنْكَرَ وَعَنَّفَ وَزَجَرَ وَيَبْلُغُنَا لِهٰذَا الْعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ النُّقْلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذٰلِكَ وَلِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ الرَّفَهِ بِمِصْرَ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذٰلِكَ لِزِيَادَةِ إِيثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْآفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً وَإِيثَاراً مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمْرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِ هٰذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لِذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ. وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ فَمُتَكَافِئٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الْخَرْجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ وَالْخَرْجُ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ السَّاكِنِ وَوَسِعَ الْمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَلَا تُنْكِرْهُ وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكَاسِبِ الَّتِي يَسْهُلُ بِسَبَبِهَا الْبَذْلُ وَالْإِيثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هُجْرَانِهَا أَوْ غَشَيَانِهَا فَإِنَّ بُيُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرْوَةِ وَالْمَوَائِدِ الْخِصْبَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيَتِهَا بِنَثْرِ الْحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ الْفُتَاتِ فَيَزْدَحِمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْخَشَاشِ وَيُحَلِّقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَاناً وَتَمْتَلِئَ شِبَعاً وَرِيّاً وَبُيُوتُ أَهْلِ الْخَصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءِ الْكَاسِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَبِيبٌ وَلَا يُحَلِّقُ بِجَوِّهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَأْرَةٌ وَلَا هِرَّةٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الْحَبْـ ... ـبَ وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ

فَتَأَمَّلْ سِرَّ اللهِ تَعَالَى فِي ذٰلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْأَنَاسِيِّ بِغَاشِيَةِ الْعُجْمِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَفُتَاتَ الْمَوَائِدِ بِفَضَلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسُهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْذُلُهَا لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ لِوُجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ النِّعَمِ فِي الْعُمْرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

إِعْلَمْ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ الْأَقْوَاتُ

مِنَ ٱلْخِطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا . كَالْبَاقِلاءِ وَٱلْبَصَلِ وَٱلثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا ٱلْحَاجِيُّ وَٱلْكَمَالِي مِثْلُ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَسَائِرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْمَبَانِي فَإِذَا ٱسْتَبْحَرَ ٱلْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخُصَتْ أَسْعَارُ ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَتْ أَسْعَارُ ٱلْكَمَالِيِّ مِنَ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ ٱلْمِصْرِ وَضَعُفَ عُمْرَانُهُ كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ . وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْقُوتِ فَتَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى ٱتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعُمُّ ٱتِّخَاذُهَا أَهْلَ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعَ أَوِ ٱلْأَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ أَوْ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَٰلِكَ وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ فَتَفْضُلُ ٱلْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي ٱلْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ ٱلسِّنِينَ مِنَ ٱلْآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلَا ٱحْتِكَارُ ٱلنَّاسِ لَهَا لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ ٱلْآفَاتِ لَبُذِلَتْ دُونَ ثَمَنٍ وَلَا عِوَضٍ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْمَرَافِقِ مِنَ ٱلْأُدُمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعُمُّ بِهَا ٱلْبَلْوَى وَلَا يَسْتَغْرِقُ ٱتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْحِراً مَوْفُورَ ٱلْعُمْرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ ٱلدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ ٱلْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى ٱلْحَاجَاتِ قُصُوراً بَالِغاً وَيَكْثُرُ ٱلْمُسْتَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزْدَحِمُ أَهْلُ ٱلْأَغْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ ٱلرَّفْهِ وَٱلتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي ٱلْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا ٱلْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ وَٱلْأَعْمَالُ أَيْضاً فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ فَسَبَبُ ٱلْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ ٱلْأَوَّلُ كَثْرَةُ ٱلْحَاجَةِ لِمَكَانِ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْمِصْرِ بِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَٱلثَّانِي ٱعْتِزَازُ أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ لِخِدْمَتِهِمْ وَٱمْتِهَانُ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ ٱلْمَعَاشِ فِي ٱلْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا وَٱلثَّالِثُ كَثْرَةُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى ٱمْتِهَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصُّنَّاعِ فِي مِهَنِهِمْ فَيَبْذُلُونَ فِي ذَٰلِكَ لِأَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ أَعْمَالِهِمْ مُزَاحَمَةً وَمُنَافَسَةً فِي ٱلِاسْتِئْثَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ ٱلْعُمَّالُ وَٱلصُّنَّاعُ وَأَهْلُ ٱلْحِرَفِ وَتَغْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فِي ذَٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلْأَمْصَارُ ٱلصَّغِيرَةُ وَٱلْقَلِيلَةُ ٱلسَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقِلَّةِ ٱلْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ ٱلْقُوتِ

فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضا حاجة بقلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وباب الحفر والجباة في منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الأمصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان في ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ أضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلحا فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه. ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومته فصار ذلك سببا لرخص الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه.

الفصل الثالث عشر

في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر

حاجاتُ ساكِنِهِ مِنْ أَجلِ ٱلتَّرَفِ وتُعتادُ تِلكَ ٱلحاجاتُ لِمَا يَدعُو إِليهَا فَتَنقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ ٱلأَعمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذٰلِكَ عَزِيزَةً وَٱلمَرَافِقُ غَالِيَةً بِٱزدِحَامِ ٱلأَغرَاضِ عَلَيهَا مِنْ أَجلِ ٱلتَّرَفِ وبِٱلمَغَارِمِ ٱلسُّلطَانِيَّةِ ٱلَّتِي تُوضَعُ عَلَى ٱلأَسوَاقِ وَٱلبِيَاعَاتِ وَتُعتَبَرُ فِي قِيَمِ ٱلمَبِيعَاتِ وَيَعظُمُ فِيهَا ٱلغَلاءُ فِي ٱلمَرَافِقِ وَٱلأَوقَاتِ وَٱلأَعمَالِ فَتَكثُرُ لِذٰلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسبَةِ عُمرَانِهِ وَيَعظُمُ خَرجُهُ فَيَحتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلمَالِ ٱلكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيشِهِم وَسَائِرِ مَؤُونَتِهِم وَٱلبَدَوِيُّ لَم يَكُنْ دَخلُهُ كَثِيراً سَاكِناً بِمَكَانٍ كَاسِدِ ٱلأَسوَاقِ فِي ٱلأَعمَالِ ٱلَّتِي هِيَ سَبَبُ ٱلكَسبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسباً وَلاَ مَالاً فَيَتَعَذَّرُ عَلَيهِ مِنْ أَجلِ ذٰلِكَ سُكنَى ٱلمِصرِ ٱلكَبِيرِ لِغَلاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقَلِّ ٱلأَعمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَؤُونَتِهِ فَلاَ يُضطَرُّ إِلَى ٱلمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى ٱلمِصرِ وَسُكنَاهُ مِنَ ٱلبَادِيَةِ فَسَرِيعاً مَا يَظهَرُ عَجزُهُ وَيَفتَضِحُ فِي ٱستِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنهُم تَأَثُّلَ ٱلمَالِ وَيَحصُلُ لَهُ مِنهُ فَوقَ ٱلحَاجَةِ وَيَجرِي إِلَى ٱلغَايَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِأَهلِ ٱلعُمرَانِ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ يَنتَقِلُ إِلَى ٱلمِصرِ وَيَنتَظِمُ حَالُهُ مَعَ أَحوَالِ أَهلِهِ فِي عَوَائِدِهِم وَتَرَفِهِم وَهٰكَذَا شَأنُ بِدَاءَةِ عُمرَانِ ٱلأَمصَارِ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيءٍ مُحِيط

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

إِعلَمْ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمرَانُهُ مِنَ ٱلأَقطَارِ وَتَعَدَّدَتِ ٱلأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ ٱتَّسَعَتْ أَحوَالُ أَهلِهِ وَكَثُرَتْ أَموَالُهُمْ وَأَمصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دُوَلُهُمْ وَمَمَالِكُهُم وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرنَاهُ مِنْ كَثرَةِ ٱلأَعمَالِ وَمَا سَيَأتِي ذِكرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَب لِلثَّروَةِ بِمَا يَفضُلُ عَنهَا بَعدَ ٱلوَفَاءِ بِٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ ٱلسَّاكِنِ مِنَ ٱلفَضلَةِ ٱلبَالِغَةِ عَلَى مِقدَارِ ٱلعُمرَانِ وَكَثرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى ٱلنَّاسِ كَسباً يَتَأَثَّلُونَهُ حَسبَمَا نَذكُرُ ذٰلِكَ فِي فَصلِ ٱلمَعَاشِ وَبَيَانِ ٱلرِّزقِ وَٱلكَسبِ فَيَتَزَيَّدُ ٱلرَّفَهُ لِذٰلِكَ وَتَتَّسِعُ ٱلأَحوَالُ وَيَجِيءُ ٱلتَّرَفُ وَٱلغِنَى وَتَكثُرُ ٱلجِبَايَةُ لِلدَّولَةِ بِنَفَاقِ ٱلأَسوَاقِ فَيَكثُرُ مَالُهَا وَيَشمَخُ سُلطَانُهَا وَتَتَفَنَّنُ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلمَعَاقِلِ وَٱلحُصُونِ وَٱختِطَاطِ ٱلمُدُنِ وَتَشيِيدِ ٱلأَمصَارِ . وَٱعتَبِرْ ذٰلِكَ بِأَقطَارِ ٱلمَشرِقِ مِثلَ مِصرَ وَٱلشَّامِ وَعِرَاقِ ٱلعَجَمِ وَٱلهِندِ وَٱلصِّينِ وَنَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ كُلِّهَا

وَأَقْطَارِهَا وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ ٱلْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَحَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ فَالَّذِي نُشَاهِدُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أَحْوَالِ تُجَّارِ ٱلْأُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ ٱلْوَارِدِينَ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فِي رَفْهِهِمْ وَٱتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ ٱلْوَصْفُ وَكَذَا تُجَّارُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْأَقْصَى مِنْ عِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ ٱلْغِنَى وَٱلرَّفْهِ غَرَائِبُ تَسِيرُ ٱلرُّكْبَانُ بِحَدِيثِهَا وَرُبَّمَا تُتَلَقَّى بِٱلْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ ٱلْأَمْرِ وَيَحْسَبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ ٱلْعَامَّةِ أَنَّ ذٰلِكَ لِزِيَادَةٍ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ٱلْمَعَادِنَ ٱلذَّهَبِيَّةَ وَٱلْفِضِّيَّةَ أَكْثَرُ بِأَرْضِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ ٱلْأَقْدَمِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَمَعْدِنُ ٱلذَّهَبِ ٱلَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ وَهِيَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ ٱلْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلُبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ كَانَ ٱلْمَالُ عَتِيدًا مَوْفُورًا لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بَضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَبْتَغُونَ بِهَا ٱلْأَمْوَالَ وَلَا ٱسْتَغْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْجُمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ ٱلْمُنَجِّمُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذٰلِكَ وَٱسْتَغْرَبُوا مَا فِي ٱلْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱتِّسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بِأَنَّ عَطَايَا ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلسِّهَامِ فِي مَوَالِيدِ ٱلْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصَصًا فِي مَوَالِيدِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَذٰلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُمْ إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذٰلِكَ ٱلسَّبَبَ ٱلنُّجُومِيَّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا ٱلسَّبَبَ ٱلْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ ٱلْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَثْرَةُ ٱلْعُمْرَانِ تُفِيدُ كَثْرَةَ ٱلْكَسْبِ بِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذٰلِكَ ٱخْتَصَّ ٱلْمَشْرِقُ بِٱلرَّفْهِ مِنْ بَيْنِ ٱلْآفَاقِ لَا إِنَّ ذٰلِكَ لِمُجَرَّدِ ٱلْأَثَرِ ٱلنُّجُومِيِّ فَقَدْ فَهِمْتَ مِمَّا أَشَرْنَا لَكَ أَوَّلًا أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمْرَانِ ٱلْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ .

وَٱعْتَبِرْ حَالَ هٰذَا ٱلرَّفْهِ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ فِي قُطْرِ أَفْرِيقِيَّةَ وَبَرْقَةَ لَمَّا خَفَّ سَكَنُهَا وَتَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَضَعُفَتْ جِبَايَاتُهَا فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دُوَلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دُوَلُ ٱلشِّيعَةِ وَصَنْهَاجَةَ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ ٱلرَّفْهِ وَكَثْرَةِ ٱلْجِبَايَاتِ وَٱتِّسَاعِ ٱلْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتِ ٱلْأَمْوَالُ تُرْفَعُ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمُهِمَّاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ ٱلدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ

جوهَرُ ٱلـكَاتِبُ في سَفَرِهِ إلى فَتحِ مِصْرَ ألفَ جَملٍ مِنَ ٱلمَالِ يَستَعِدُّ بِهَا لأَرزَاقِ ٱلجُنودِ وَأَعطِيَاتِهِمْ وَنَفقَاتِ ٱلغُزَاةِ وَقُطرُ ٱلمَغربِ وَإِنْ كَانَ في ٱلقَدِيمِ دُونَ أَفرِيقِيَّةَ فَلَمْ يَـكُنْ بِٱلقَلِيلِ في ذٰلِكَ وَكَانَتْ أَحوَالُهُ في دُوَلِ ٱلمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجِبَايَاتُهُ مَوفُورَةً وَهُوَ لِهٰذَا ٱلعَهدِ قَدْ أَقصَرَ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِ ٱلعُمرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمرَانِ ٱلبَربَرِ فِيهِ أَكثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعهُودِهِ نَقصاً ظَاهِراً مَحسُوساً وَكَادَ أَنْ يَلحَقَ في أَحوَالِهِ بِمِثلِ أَحوَالِ أَفرِيقِيَّةَ بَعدَ أَنْ كَانَ عُمرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ إِلى بِلادِ ٱلسُّودَانِ في طُولِ مَا بَيْنَ ٱلسُّوسِ ٱلأَقصَى وَبَرقَةَ وَهِيَ ٱليَومَ كُلُّهَا أَوْ أَكثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلاءٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنهَا بِسِيفِ ٱلبَحرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ ٱلتُّلُولِ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلأَرضِ وَمَنْ عَلَيهَا وَهُوَ خَيرُ ٱلوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعلَمْ أَنَّ تَأَثُّلَ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ ٱلـكَثِيرَةِ لِأَهلِ ٱلأَمصَارِ وَٱلمُدُنِ لا يَـكُونُ دَفعَةً وَاحِدَةً وَلا في عَصرٍ وَاحِدٍ إِذْ لَيسَ يَـكُونُ لِأَحَدٍ مِنهُمْ مِنَ ٱلثَّروَةِ مَا يَملِكُ بِهِ ٱلأَملاكَ ٱلَّتِي تَخرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ ٱلحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحوَالُهُمْ في ٱلرَّفهِ مَا عَسَى أَنْ تَبلُغَ وَإِنَّمَا يَـكُونُ مِلـكُهُمْ وَتَأَثُّلُهُمْ لَهَا تَدرِيجاً إِمَّا بِٱلوِرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَملاكُ ٱلـكَثِيرِينَ مِنهُمْ إِلى ٱلوَاحِدِ وَأَكثَرَ لِذٰلِكَ أَوْ أَنْ يَـكُونَ بِحَوَالَةِ ٱلأَسوَاقِ فَإِنَّ ٱلعَقَارَ في آخِرِ ٱلدَّولَةِ وَأَوَّلِ ٱلأُخرَى عِندَ فَنَاءِ ٱلحَامِيَةِ وَخَرقِ ٱلسِّيَاجِ وَتَدَاعِي ٱلمِصرِ إِلى ٱلخَرَابِ تَقِلُّ ٱلغِبطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ ٱلمَنفَعَةِ فِيهَا بِتَلاشِي ٱلأَحوَالِ فَتَرخُصُ قِيمُهَا وَتَتَمَلَّكُ بِٱلأَثمَانِ ٱليَسِيرَةِ وَتُتَخَطَّى بِٱلمِيرَاثِ إِلى مُلكِ آخَرَ وَقَدِ ٱستَجَدَّ ٱلمِصرُ شَبَابَهُ بِٱستِفحَالِ ٱلدَّولَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱنتَظَمَتْ لَهُ أَحوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحصُلُ مَعَهَا ٱلغِبطَةُ في ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ لِـكَثرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعظُمُ قِيمُهَا وَيَـكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَـكُنْ في ٱلأَوَّلِ وَهٰذَا مَعنَى ٱلحَوَالَةِ فِيهَا وَيُصبِحُ مَالِـكُهَا مِنْ أَغنَى أَهلِ ٱلمِصرِ وَلَيسَ ذٰلِكَ بِسَعيِهِ وَٱكتِسَابِهِ إِذْ قُدرَتُهُ تَعجِزُ عَنْ مِثلِ ذٰلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ فَهِيَ غَيرُ كَافِيَةٍ لِمَالِـكِهَا في حَاجَاتِ مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لا تَفِي بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَسبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ في ٱلغَالِبِ لِسَدِّ ٱلخَلَّةِ وَضَرُورَةِ ٱلمَعَاشِ وَٱلَّذِي سَمِعنَاهُ مِنْ مَشيَخَةِ ٱلبُلدَانِ أَنَّ ٱلقَصدَ بِٱقتِنَاءِ ٱلمُلكِ مِنَ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ ٱلْخَشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ ٱلذُّرِّيَّةِ ٱلضُّعَفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَنُشُوؤُهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ ٱلِاكْتِسَابِ فَإِذَا ٱقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْمَكَاسِبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْوُلْدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ ٱلتَّكَسُّبِ لِضُعْفٍ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ ٱلْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ ٱلْعَقَارُ قِوَاماً لِحَالِهِ هَذَا قَصْدُ ٱلْمُتْرَفِينَ فِي ٱقْتِنَائِهِ وَأَمَّا ٱلتَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوِ ٱلنَّادِرِ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْبَالِغَةِ مِنْهُ وَٱلْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي ٱلْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْوُلَاةِ وَٱغْتَصَبُوهُ فِي ٱلْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أَصْحَابَهُ مِنْهُ مَضَارُّ وَمَعَاطِبُ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَرَمَقَتْهُ ٱلْعُيُونُ بِذَلِكَ وَٱنْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلْعَوَائِدِ زَاحَمَ عَلَيْهَا ٱلْأُمَرَاءَ وَٱلْمُلُوكَ وَغَصُّوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يُحَصِّلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ ٱلْمُؤَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ وَأَكْثَرُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ جَائِرَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ إِذِ ٱلْعَدْلُ ٱلْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱللُّبْثِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكاً عَضُوضاً فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَالِ وَٱلثَّرْوَةِ ٱلشَّهِيرَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَذُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا ٱلسُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ ٱلتَّعَدِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْباً بِوُجُوهِ ٱلتَّحَيُّلَاتِ وَأَسْبَابِ ٱلْحُكَّامِ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

ٱلعُمْرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ ٱلرَّفْهِ وَتَفَاوُتِ ٱلأُمَمِ فِي ٱلقِلَّةِ وَٱلكَثْرَةِ تَفَاوُتاً غَيْرَ مُنْحَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ ٱلتَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى ٱلقَوَمَةِ عَلَيْهِ وَٱلمَهَرَةِ فِيهِ وَبِقَدْرِ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ ٱلجِيلُ بِهَا وَمَتَى ٱتَّصَلَتِ ٱلأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتُ حَذِقَ أُولَئِكَ ٱلصُّنَّاعُ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَٱلأَعْصَارُ بِطُولِهَا وَٱنْفِسَاحِ أَمَدِهَا وَتَكْرِيرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا ٱسْتِحْكَاماً وَرُسُوخاً وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي ٱلأَمْصَارِ لِٱسْتِبْحَارِ ٱلعُمْرَانِ وَكَثْرَةِ ٱلرَّفْهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ ٱلرَّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بِطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَّسِعُ أَحْوَالُهُمْ بِٱلجَاهِ أَكْثَرَ مِنِ ٱتِّسَاعِهَا بِٱلمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ ٱلأَمْوَالِ مِنَ ٱلرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلمِصْرِ وَهُمُ ٱلأَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِذَلِكَ ثَرْوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمِ ٱلصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ ٱلحَضَارَةُ.

وَلِهَذَا تَجِدُ ٱلأَمْصَارَ ٱلَّتِي فِي ٱلقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةَ ٱلعُمْرَانِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ ٱلبَدَاوَةِ وَتَبْعُدُ عَنِ ٱلحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ ٱلمُدُنِ ٱلمُتَوَسِّطَةِ فِي ٱلأَقْطَارِ ٱلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ ٱلدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ ٱلسُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَٱلمَاءِ يَخْضَرُّ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ ٱلأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلجُفُوفِ عَلَى ٱلبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ وَٱلدَّوْلَةَ سُوقٌ لِلْعَالَمِ فَٱلبَضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلسُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا أَبْعَدَتْ عَنِ ٱلسُّوقِ ٱفْتُقِدَتِ ٱلبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا ٱتَّصَلَتْ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا فِي ذَلِكَ ٱلمِصْرِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخاً وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي ٱليَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِٱلشَّامِ نَحْواً مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمَائَةِ سَنَةٍ رَسَخَتْ حَضَارَتُهُمْ وَحَذِقُوا فِي أَحْوَالِ ٱلمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ ٱلمَطَاعِمِ وَٱلمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي ٱلغَالِبِ إِلَى ٱليَوْمِ وَرَسَخَتِ ٱلحَضَارَةُ أَيْضاً وَعَوَائِدُهَا فِي ٱلشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ ٱلرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا فِي غَايَةِ ٱلحَضَارَةِ. وَكَذَلِكَ أَيْضاً ٱلقِبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي ٱلخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ ٱلحَضَارَةِ فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ ٱليُونَانِ وَٱلرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ ٱلإِسْلَامِ ٱلنَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ ٱلحَضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضاً رَسَخَتْ

عوائدُ ٱلحضارةِ بٱليمنِ لاتِّصالِ دولةِ ٱلعربِ بها منذُ عهدِ ٱلعمالقةِ وٱلتبابعةِ آلافاً من ٱلسنينَ وأعقبهم ملكُ مضرَ وكذلكَ ٱلحضارةُ بٱلعراقِ لاتِّصالِ دولةِ ٱلنبطِ وٱلفرسِ أبها من لدنِ ٱلكلدانيِّينَ وٱلكيانيةِ وٱلكسرويَّةِ وٱلعربِ بعدهم آلافاً من ٱلسنينَ فلم يكنْ على وجهِ ٱلأرضِ لهذا ٱلعهدِ أحضرَ من أهلِ ٱلشامِ وٱلعراقِ ومصرَ وكذا أيضاً رسختْ عوائدُ ٱلحضارةِ وٱستحكمتْ بٱلأندلسِ لاتِّصالِ ٱلدولةِ ٱلعظيمةِ فيها للقوطِ ثمَّ ما أعقبها من ملكِ بني أميةَ آلافاً من ٱلسنينَ وكلتا ٱلدولتينِ عظيمةٌ فٱتصلتْ فيها عوائدُ ٱلحضارةِ وٱستحكمتْ. وأمَّا أفريقيةُ وٱلمغربُ فلم يكنْ بها قبلَ ٱلإسلامِ ملكٌ ضخمٌ إنَّما قطعَ ٱلإفرنجةُ إلى أفريقيةَ ٱلبحرَ وملكوا ٱلساحلَ وكانتْ طاعةُ ٱلبربرِ أهلِ ٱلضاحيةِ لهم طاعةً غيرَ مستحكمةٍ فكانوا على قلعةٍ وأوفازٍ وأهلُ ٱلمغربِ لم تجاورهم دولةٌ وإنَّما كانوا يبعثونَ بطاعتِهم إلى ٱلقوطِ من وراءِ ٱلبحرِ ولمَّا جاءَ ٱللهُ بٱلإسلامِ وملكَ ٱلعربُ أفريقيةَ وٱلمغربَ لم يلبثْ فيهم ملكُ ٱلعربِ إلَّا قليلاً أوَّلَ ٱلإسلامِ وكانوا لذلكَ ٱلعهدِ في طورِ ٱلبداوةِ ومن ٱستقرَّ منهم بأفريقيةَ وٱلمغربِ لم يجدْ بهما من ٱلحضارةِ ما يقلِّدُ فيهِ من سلفهُ إذ كانوا برابرَ منغمسينَ في ٱلبداوةِ ثمَّ ٱنتقضَ برابرةُ ٱلمغربِ ٱلأقصى لأقربِ ٱلعهودِ على يدِ ميسرةَ ٱلمطغريِّ أيامَ هشامِ ٱبنِ عبدِ ٱلملكِ ولم يراجعوا أمرَ ٱلعربِ بعدُ وٱستقلُّوا بأمرِ أنفسِهم وإنْ بايعوا لإدريسَ فلا تعدُّ دولتُهُ فيهم عربيةً لأنَّ ٱلبرابرَ هم ٱلذينَ تولَّوها ولم يكنْ من ٱلعربِ فيها كثيرُ عددٍ وبقيتْ أفريقيةُ للأغالبةِ ومن إليهم من ٱلعربِ فكانَ لهم من ٱلحضارةِ بعضُ ٱلشيءِ بما حصلَ لهم من ترفِ ٱلملكِ ونعيمِهِ وكثرةِ عمرانِ ٱلقيروانِ وورثَ ذلكَ عنهم كتامةُ ثمَّ صنهاجةُ من بعدهم وذلكَ كلُّهُ قليلٌ لم يبلغْ أربعمائةِ سنةٍ وٱنصرمتْ دولتُهم وٱستحالتْ صبغةُ ٱلحضارةِ بما كانتْ غيرَ مستحكمةٍ وتغلَّبَ بدوُ ٱلعربِ ٱلهلاليِّينَ عليها وخرَّبوها وبقيَ أثرٌ خفيٌّ من حضارةِ ٱلعمرانِ فيها وإلى هذا ٱلعهدِ يونسُ فيمن سلفَ لهُ بٱلقلعةِ أوِ ٱلقيروانِ أوِ ٱلمهديَّةِ سلفٌ فتجدُ لهُ من ٱلحضارةِ في شؤونِ منزلِهِ وعوائدِ أحوالِهِ آثاراً ملتبسةً بغيرها يميِّزها ٱلحضريُّ ٱلبصيرُ بها وكذا في أكثرِ أمصارِ أفريقيةَ وليسَ كذلكَ في ٱلمغربِ وأمصارِهِ لرسوخِ ٱلدولةِ بأفريقيةَ أكثرَ أمداً منذُ عهدِ ٱلأغالبةِ وٱلشيعةِ وصنهاجةَ وأمَّا ٱلمغربُ فٱنتقلَ إليهِ منذُ دولةِ

الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء ورجع إلى أعقابه وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم . فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجيل وعظم المدينة أو المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم ولا معقب لحكمه

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية وأن الحضارة غاية للبداوة وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً

كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تونق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها . وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الإملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبائع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على

الْكَذِبِ وَالْمُقَامَرَةِ وَالْغِشِّ وَالْخِلَابَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَيْمَانِ وَالرِّبَا فِي الْبِيَاعَاتِ ثُمَّ تَجِدُهُمْ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفِسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهِ وَبِدَوَاعِيهِ وَاطِّرَاحِ الْحِشْمَةِ فِي الْخَوْضِ فِيهِ حَتَّى بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَذَوِي الْمَحَارِمِ الَّذِينَ تَقْتَضِي الْبَدَاوَةُ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ فِي الْإِقْذَاعِ بِذَلِكَ وَتَجِدُهُمْ أَيْضاً أَبْصَرَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ يَدْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقاً لِأَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَيَمُوجُ بَحْرُ الْمَدِينَةِ بِالسَّفَلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَيُجَارِيهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ وَوِلْدَانِهِمْ مِمَّنْ أُهْمِلَ عَنِ التَّأْدِيبِ وَغَلَبَ عَلَيْهِ خُلُقُ الْجِوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ أَنْسَابٍ وَبُيُوتَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَاثِلُونَ وَإِنَّمَا تَفَاضَلُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخُلُقِ وَاكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَمَنِ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ لَمْ يَنْفَعْهُ زَكَاءُ نَسَبِهِ وَلَا طِيبُ مَنْبَتِهِ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيراً مِنْ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَذَوِي الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْغِمَارِ مُنْتَحِلِينَ لِلْحِرَفِ الدَّنِيئَةِ فِي مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ أَوِ الْأُمَّةِ تَأَذَّنَ اللهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرا . وَوَجْهُهُ حِينَئِذٍ انَّ مَكَاسِبَهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَفِي بِحَاجَاتِهِمْ لِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِداً وَاحِداً اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِّ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرْسُ النَّارَنْجِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَامَى غَرْسَ النَّارَنْجِ بِالدُّورِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِّيَّةٌ فِي النَّارَنْجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَإِجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ ثُمَّ إِنَّ النَّارَنْجَ وَاللِّيَّةَ وَالسَّرْوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ هُوَ مِنْ غَايَةِ الْحَضَارَةِ إِذْ لَا يُقْصَدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينِ إِلَّا أَشْكَالُهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ التَّفَنُّنِ فِي مَذَاهِبِ التَّرَفِ وَهَذَا هُوَ الطَّوْرُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا قُلْنَاهُ وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدِّفْلَى وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدِّفْلَى لَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَّا تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينِ بِنَوْرِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِ . وَمِنْ مَفَاسِدِ الْحَضَارَةِ الِانْهِمَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالِاسْتِرْسَالُ فِيهَا لِكَثْرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ

ٱلبطن من ٱلمآكل وٱلملاذ فيفضي ذلك إلى فساد ٱلنوع فافهم ذلك وٱعتبر به أنّ غاية ٱلعمران هي ٱلحضارة وٱلترف وأنّه إذا بلغ غايته ٱنقلب إلى ٱلفساد وأخذ في ٱلهرم كالأعمار ٱلطبيعية للحيوانات بل نقول إنّ ٱلأخلاق ٱلحاصلة من ٱلحضارة وٱلترف هي عين ٱلفساد لأنّ ٱلإنسان إنّما هو إنسان بٱقتداره على جلب منافعه ودفع مضارّه وٱستقامة خلقه للسعي في ذلك وٱلحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته إمّا عجزاً لما حصل له من ٱلدعة أو ترفّعاً لما حصل له من ٱلمربى في ٱلنعيم وٱلترف وكلا ٱلأمرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع ٱلمضارّ وٱستقامة خلقه للسعي في ذلك وٱلحضري بما قد فقد من خلق ٱلإنسان بٱلترف وٱلنعيم في قهر ٱلتأديب فهو بذلك عيال على ٱلحامية ٱلتي تدافع عنه ثمّ هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه ٱلعوائد وطاعتها وما تلوّنت به ٱلنفس من مكاناتها كما قررناه إلّا في ٱلأقلّ ٱلنادر وإذا فسد ٱلإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على ٱلحقيقة وبهذا ٱلاعتبار كان ٱلذين يتقرّبون على ٱلحضارة وخلقها موجودون في كلّ دولة فقد تبيّن أنّ ٱلحضارة هي سنّ ٱلوقوف لعمر ٱلعالم في ٱلعمران وٱلدولة وٱللّٰه سبحانه وتعالى كلّ يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قد ٱستقرينا في ٱلعمران أنّ ٱلدولة إذا ٱختلّت وٱنتقضت فإنّ ٱلمصر ٱلذي يكون كرسيّاً لسلطانها ينتقض عمرانه وربّما ينتهي في ٱنتقاضه إلى ٱلخراب . ولا يكاد ذلك يتخلّف وٱلسبب فيه أمور . ٱلأوّل أنّ ٱلدولة لا بدّ في أوّلها من ٱلبداوة ٱلمقتضية للتجافي عن أموال ٱلناس وٱلبعد عن ٱلتحذلق ويدعو ذلك إلى تخفيف ٱلجباية وٱلمغارم ٱلتي منها مادّة ٱلدولة فتقلّ ٱلنفقات ويقلّ ٱلترف فإذا صار ٱلمصر ٱلذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه ٱلدولة ٱلمتجدّدة ونقصت أحوال ٱلترف فيها نقص ٱلترف فيمن تحت أيديها من أهل ٱلمصر لأنّ ٱلرعايا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق ٱلدولة إمّا طوعاً لما في طباع ٱلبشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خلق ٱلدولة من ٱلانقباض عن ٱلترف في جميع ٱلأحوال وقلّة ٱلفوائد ٱلتي هي مادّة ٱلعوائد فتقصر

لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر . الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة ومستبشعة وقبيحة وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر . الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لأمصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشىء في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة ويترل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر وإذا ذهب من المصر أعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لابد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار. والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك إما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنو شروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولا والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم

البلوى به في المصر والحاجة إليه وما لا يستدعي في المصر يكون غفلا إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفر عنها القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب وأهل الأمصار كثيرة منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا إلى أن يكونوا لحما لحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيعا وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيع والأحلاف ويبذلون في أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أكفائه ليقص من أعنتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكا

يورثُهُ عِتبةً فَيَحْدُثُ في ذلِكَ ٱلمُلكِ ٱلأصغرِ ما يَحْدُثُ في ٱلمُلكِ ٱلأَعظَمِ مِنْ عوارِض ٱلجِدّةِ وٱلهرَمِ ورُبّما يَسمُو بعضُ هؤلاءِ إلى مَنازِعِ ٱلمُلوكِ ٱلأعاظِمِ أصحابِ ٱلقَبائِلِ وٱلعَشائِرِ وٱلعَصبِيّاتِ وٱلزُّحوفِ وٱلحُروبِ وٱلأقطارِ وٱلمَمالِكِ فَينتَحِلونَ بِها مِنَ ٱلجُلوس على ٱلسَّريرِ وٱتّخاذِ ٱلآلةِ وإعدادِ ٱلمَواكِبِ لِلسَّيرِ في أقطارِ ٱلبلَدِ وٱلتَّخَتُّمِ وٱلتحيّةِ وٱلخِطابِ بِٱلتَّهويلِ ما يَسخَرُ مِنهُ مَنْ يُشاهِدُ أحوالَهُمْ لِما ٱنتَحلوهُ مِنْ شاراتِ ٱلمُلكِ ٱلّتي لَيسوا لَها بِأهلٍ إنّما دَفَعَهُمْ إلى ذلِكَ تَقلّصُ ٱلدّولةِ وٱلتِحامُ بَعضِ ٱلقَراباتِ حتّى صارَتْ عَصبيّةً وقَدْ يَتنزّهُ بَعضُهُمْ عَنْ ذلِكَ ويَجري على مَذهبِ ٱلسَّذاجةِ فِراراً مِنَ ٱلتَّعريضِ بِنَفسِهِ لِلسُّخريةِ وٱلعَبثِ وقَدْ وقَعَ هذا بِأفريقيّةَ لِهذا ٱلعَهدِ في آخِرِ ٱلدّولةِ ٱلحفصيّةِ لِأهلِ بِلادِ ٱلجَريد مِنْ طَرابُلُسَ وقابِسَ وتُوزَرَ ونَفطةَ وقَفصةَ وبِسكرةَ وٱلزّابِ وما إلى ذلِكَ سَمَوا إلى مِثلِها عِندَ تَقلُّصِ ظِلِّ ٱلدّولةِ عَنهُمْ مُنذُ عُقودٍ مِنَ ٱلسِّنينَ فَٱستَغلَبوا على أمصارِهِم وٱستَبدّوا بِأمرِها على ٱلدّولةِ في ٱلأحكامِ وٱلجِبايةِ وأعطَوا طاعةً مَعروفةً وصَفقةً مُمرَّضةً وأقطَعوها جانِباً مِنَ ٱلمُلايَنةِ وٱلمُلاطَفةِ وٱلانقيادِ وهُمْ بِمَعزِلٍ عَنهُ وأورَثوا ذلِكَ أعقابَهُمْ لِهذا ٱلعَهدِ وحَدَثَ في خَلَفِهِمْ مِنَ ٱلغِلظةِ وٱلتَّجبُّرِ ما يَحدُثُ لِأعقابِ ٱلمُلوك وخَلَفِهِمْ ونَظَموا أنفُسَهُمْ في عِدادِ ٱلسَّلاطينِ على قُربِ عَهدِهِمْ بِٱلسّوقةِ حتّى مَحا ذلِك مَولانا أميرُ ٱلمُؤمنينَ أبو ٱلعبّاسِ وٱنتَزَعَ ما كانَ بِأيديهِمْ مِنْ ذلِكَ كما نَذكُرُهُ في أخبارِ ٱلدّولةِ وقَدْ كانَ مِثلُ ذلِكَ وقَعَ في آخِرِ ٱلدّولةِ ٱلصّنهاجيّةِ وٱستَقلَّ بِأمصارِ ٱلجَريد أهلُها وٱستَبدّوا على ٱلدّولةِ حتّى ٱنتزَعَ ذلِكَ مِنهُمْ شَيخُ ٱلمُوحّدينَ ومَلِكُهُمْ عَبدُ ٱلمُؤمِن بنُ عليٍّ ونَقَلَهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ إماراتِهِمْ بِها إلى ٱلمَغرِبِ ومَحا مِنْ تِلكَ ٱلبِلادِ آثارَهُمْ كما نَذكُرُ في أخبارِهِ وكَذا وقَعَ بِسَبتةَ لِآخِرِ دَولةِ بَني عَبدِ ٱلمُؤمِنِ وهذا ٱلتَّغلُّبُ يَكون غالِباً في أهلِ ٱلسَّرَواتِ وٱلبُيوتاتِ ٱلمُرشَّحينَ لِلمَشيخةِ وٱلرِّئاسةِ في ٱلمِصرِ وقَدْ يَحدُثُ ٱلتَّغلُّبُ لِبعضِ ٱلسَّفَلةِ مِنَ ٱلغَوغاءِ وٱلدَّهماءِ وإذا حَصلَتْ لَهُ ٱلعَصبيّةُ وٱلالتِحامُ بِٱلأوغاد لِأسبابٍ يَجُرُّها لَهُ ٱلمِقدارُ فَيَتغلّبُ على ٱلمَشيخةِ وٱلعِليةِ إذا كانوا فاقِدينَ لِلعِصابةِ وٱللهُ سُبحانَهُ وتَعالى غالِبٌ على أمرِهِ

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

إِعلَمْ أَنَّ لُغَاتِ أَهلِ ٱلأَمصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ ٱلأُمَّةِ أَوِ ٱلجِيلِ ٱلغَالِبِينَ عَلَيهَا أَو ٱلمُختَطِّينَ لَهَا وَلِذٰلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ ٱلأَمصَارِ ٱلإِسلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِٱلمَشرِقِ وَٱلمَغرِبِ لِهٰذَا ٱلعَهدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ ٱلمُضَرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعرَابُهُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّولَةِ ٱلإِسلَامِيَّةِ مِنَ ٱلغَلَبِ عَلَى ٱلأُمَمِ وَٱلدِّينِ وَٱلمِلَّةِ صُورَةٌ لِلوُجُودِ وَلِلمَمَالِكِ وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهُ وَٱلصُّورَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى ٱلمَادَّةِ وَٱلدِّينُ إِنَّمَا يُستَفَادُ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهِيَ بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ لِمَا أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَرَبِيٌّ فَوَجَبَ هَجرُ مَا سِوَى ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ مِنَ ٱلأَلسُنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا وَٱعتَبِرْ ذٰلِكَ فِي نَهيِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ عَنْ بِطَانَةِ ٱلأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خِبٌّ أَيْ مَكرٌ وَخَدِيعَةٌ فَلَمَّا هَجَرَ ٱلدِّينُ ٱللُّغَاتِ ٱلأَعجَمِيَّةَ وَكَانَ لِسَانُ ٱلقَائِمِينَ بِٱلدَّولَةِ ٱلإِسلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هُجِرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ تَبَعٌ لِلسُّلطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ ٱستِعمَالُ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ مِنْ شَعَائِرِ ٱلإِسلَامِ وَطَاعَةِ ٱلعَرَبِ وَهَجَرَ ٱلأُمَمُ لُغَاتِهِم وَأَلسِنَتَهُمْ فِي جَمِيعِ ٱلأَمصَارِ وَٱلمَمَالِكِ وَصَارَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذٰلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ ٱلأَلسِنَةُ ٱلعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً ثُمَّ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعضِ أَحكَامِهِ وَتَغَيُّرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي ٱلدِّلَالَاتِ عَلَى أَصلِهِ وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمصَارِ ٱلإِسلَامِ وَأَيضًا فَأَكثَرُ أَهلِ ٱلأَمصَارِ فِي ٱلمِلَّةِ لِهٰذَا ٱلعَهدِ مِنْ أَعقَابِ ٱلعَرَبِ ٱلمَالِكِينَ لَهَا ٱلهَالِكِينَ فِي تَرَفِهَا بِمَا كَثَّرُوا ٱلعَجَمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَٱللُّغَاتُ مُتَوَارَثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ ٱلأَعقَابِ عَلَى حِيَالِ لُغَةِ ٱلآبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلأَعجَامِ شَيئًا فَشَيئًا وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً مَنسُوبَةً إِلَى أَهلِ ٱلحَوَاضِرِ وَٱلأَمصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ ٱلبَدوِ مِنَ ٱلعَرَبِ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعرَقَ فِي ٱلعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ ٱلعَجَمُ مِنَ ٱلدَّيلَمِ وَٱلسَّلجُوقِيَّةِ بَعدَهُم بِٱلمَشرِقِ وَزَنَاتَةُ وَٱلبَربَرُ بِٱلمَغرِبِ وَصَارَ لَهُمُ ٱلمُلكُ وَٱلِاستِيلَاءُ عَلَى جَمِيعِ ٱلمَمَالِكِ ٱلإِسلَامِيَّةِ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ لِذٰلِكَ وَكَادَ يَذهَبُ لَولَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنَايَةِ ٱلمُسلِمِينَ بِٱلكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱللَّذَينِ بِهِمَا حُفِظَ ٱلدِّينُ وَسَارَ ذٰلِكَ مُرَجِّحًا لِبَقَاءِ ٱللُّغَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ ٱلمُضَرِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعرِ وَٱلكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا بِٱلأَمصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ ٱلتَّتَر

وَٱلْمُغُولُ بِٱلْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَٰلِكَ ٱلْمُرَجِّحُ وَفَسَدَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ بِٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَان وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبِلَادِ ٱلشَّمَالِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَذَهَبَتْ أَسَالِيبُ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُتَدَارَسَةِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسَّرَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِذَٰلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمُضَرِيَّةُ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ ٱلدِّينِ طَلَبًا لَهَا فَٱنْحَفَظَتْ بِبَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ حَتَّى إِنَّ كُتُبَ ٱلْعُلُومِ صَارَتْ تُكْتَبُ بِٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيسُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ.

الباب الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مَا يَقُوتُهُ وَيَمُونُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ لَدُنْ نُشُوئِهِ إِلَى أَشُدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ وَٱللهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَٱمْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ وَيَدُ ٱلْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى ٱلْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ ٱللهُ لَهُ مِنَ ٱلْاسْتِخْلَافِ وَأَيْدِي ٱلْبَشَرِ مُنْتَشِرَةٌ فَهِيَ مُشْتَرِكَةٌ فِي ذَٰلِكَ وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هٰذَا ٱمْتَنَعَ عَنِ ٱلْآخَرِ إِلَّا بِعِوَضٍ فَٱلْإِنْسَانُ مَتَى ٱقْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ ٱلضَّعْفَ سَعَى فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَكَاسِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ ٱللهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ بِدَفْعِ ٱلْأَعْوَاضِ عَنْهَا قَالَ ٱللهُ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللهِ

ٱلرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ ٱلْمُصْلِحِ لِلزِّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ ٱلْمَكَاسِبُ مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلْحَاجَةِ وَرِيَاشاً وَمُتَمَوَّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَٰلِكَ ثُمَّ إِنَّ ذَٰلِكَ ٱلْحَاصِلَ أَوِ ٱلْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى ٱلْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَٰلِكَ رِزْقاً قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَالِكِ رِزْقاً وَٱلْمُتَمَلَّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ ٱلْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً وَهَٰذَا مِثْلُ ٱلتُّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفَعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوَارِثِينَ مَتَى ٱنْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً هَٰذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى ٱلرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَقَدِ ٱشْتَرَطَ ٱلْمُعْتَزِلَةُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يُتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقاً وَأَخْرَجُوا ٱلْغُصُوبَاتِ وَٱلْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً وَٱللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ ٱلْغَاصِبَ وَٱلظَّالِمَ وَٱلْمُؤْمِنَ وَٱلْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَٰلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هَٰذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّعْيِ فِي ٱلِٱقْتِنَاءِ وَٱلْقَصْدِ إِلَى ٱلتَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي ٱلرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَٱبْتِغَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ قَالَ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱلسَّعْيُ إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَقْدَارِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَإِلْهَامِهِ فَٱلْكُلُّ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوَّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلاً بِنَفْسِهِ مِثْلَ ٱلصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُقْتَنًى مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَمَا تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ ٱنْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلْمَعْدِنِيَّيْنِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ قِيمَةً لِكُلِّ مُتَمَوَّلٍ وَهُمَا ٱلذَّخِيرَةُ وَٱلْقِنْيَةُ لِأَهْلِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِنِ ٱقْتُنِيَ سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ ٱلَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْزِلٍ فَهُمَا أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَٱلْقِنْيَةِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هَٰذَا كُلُّهُ فَٱعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ ٱلْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْمُتَمَوَّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَٱلْمُفَادُ ٱلْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ ٱلْقَصْدُ بِالْقِنْيَةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا ٱلْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ٱلصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْحِيَاكَةِ

معهما الخشب والغزل إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر وإن كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون إنما يكون بالإنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله مقدر الليل والنهار

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعا له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية وإما أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ الْمُنْصَرِفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ فِي الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هٰذَا كُلُّهُ فَلْحاً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادَّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعَ مِنْ كِتَابَةٍ وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحِيَاكَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ أَوْ فِي مَوَادَّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ الْإِمْتِهَانَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِمَّا بِالتَّقَلُّبِ بِهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَارْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هٰذَا تِجَارَةً فَهٰذِهِ وُجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْجِبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فَهِيَ وُجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهٰذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وُجُوهِ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَمَّا الصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصْرَفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ وَلِهٰذَا لَا يُوجَدُ غَالِباً إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَأَمَّا التِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْكَسْبِ فَالْأَكْثَرُ مِنْ طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحَيُّلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ لِتَحْصُلَ فَائِدَةُ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذٰلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذاً لِمَالِ الْغَيْرِ مَجَّاناً فَلِهٰذَا اخْتُصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنِ اتِّخَاذِ الْخَدَمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشُّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَم

غناءه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الثقة بكل أحد عجز ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات إما مضطلع بأمره ولا موثوقاً فيما يحصل بيده وإما بالعكس في إحداهما فقط مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه إذ هو باضطلاعه وثقته غني عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمثال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه وأما الصنف الثاني وهو ممن ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معاً فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من

تحتَ ٱلْأَرْضِ وَيَبْتَغُونَ ٱلْكَسْبَ مِنْ ذٰلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ ٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِطَلَاسِمَ سِحْرِيَّةٍ لَا يَفُضُّ خِتَامَهَا ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ عَثَرَ عَلَى عِلْمِهِ وَٱسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ ٱلْبَخُورِ وَٱلدُّعَاءِ وَٱلْقُرْبَانِ فَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ بِإِفْرِيقِيَّةَ يَرَوْنَ أَنَّ ٱلْإِفْرَنْجَةَ ٱلَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذٰلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي ٱلصُّحُفِ بِٱلْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِهَا وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ بِٱلْمَشْرِقِ يَرَوْنَ مِثْلَ ذٰلِكَ فِي أُمَمِ ٱلْقِبْطِ وَٱلرُّومِ وَٱلْفُرْسِ وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذٰلِكَ أَحَادِيثَ تُشْبِهُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ مِنِ ٱنْتِهَاءِ بَعْضِ ٱلطَّالِبِينَ لِذٰلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ ٱلْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلَّسْمَهُ وَلَا خَبَرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِٱلدِّيدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ ٱلْأَمْوَالَ وَٱلْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَٱلْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سُيُوفَهُمْ أَوْ تَمِيدُ بِهِ ٱلْأَرْضُ حَتَّى يَظُنَّهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْهَذَرِ وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ ٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْعَاجِزِينَ عَنِ ٱلْمَعَاشِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَوْرَاقِ ٱلْمُتَخَرِّمَةِ ٱلْحَوَاشِي إِمَّا بِخُطُوطٍ عَجَمِيَّةٍ أَوْ بِمَا تُرْجِمَ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ ٱلدَّفَائِنِ بِإِعْطَاءِ ٱلْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا يَبْتَغُونَ بِذٰلِكَ ٱلرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْعَثُونَهُ عَلَى ٱلْحَفْرِ وَٱلطَّلَبِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ ٱلْجَاهِ فِي مِثْلِ هٰذَا مِنْ مَنَالِ ٱلْحُكَّامِ وَٱلْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةٌ أَوْ غَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ ٱلسِّحْرِ وَطُرُقِهِ فَتَوَلَّعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ بِجَمْعِ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلِٱحْتِفَارِ وَٱلتَّسَتُّرِ فِيهِ بِظُلُمَاتِ ٱللَّيْلِ مَخَافَةَ ٱلرُّقَبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ ٱلدُّوَلِ فَإِذَا لَمْ يَعْثُرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذٰلِكَ إِلَى ٱلْجَهْلِ بِٱلطِّلَسْمِ ٱلَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَالِ يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ وَٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْغَالِبِ زِيَادَةً عَلَى ضَعْفِ ٱلْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِٱلْوُجُوهِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفَلْحِ وَٱلصِّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ مِنْ هٰذَا وَأَمْثَالِهِ عَجْزًا عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ٱلْمَكَاسِبِ وَرُكُونًا إِلَى تَنَاوُلِ ٱلرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَٱكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبَ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لِمَنَالِ ٱلْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ زِيَادَةُ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ وَخُرُوجُهَا

عَنْ حَدِّ ٱلنِّهَايَةِ حَتَّى تَقْصُرَ عَنْهَا وُجُوهُ ٱلْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَفِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ عَنِ ٱلْكَسْبِ بِٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيجَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا ٱلتَّمَنِّيَ لِوُجُودِ ٱلْمَالِ ٱلْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ لِيَفِيَ لَهُ ذَٰلِكَ بِٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرِهَا فَيَحْرِصُ عَلَى ٱبْتِغَاءِ ذَٰلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهَٰذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى ذَٰلِكَ هُمُ ٱلْمُتْرَفُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِٱبْتِغَاءِ ذَٰلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةِ ٱلرُّكْبَانِ عَنْ شَوَاذِّهِ كَمَا يَحْرِصُونَ عَلَى ٱلْكِيمِيَاءِ هٰكَذَا بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُفَاوَضَةِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذَٰلِكَ ٱلْبَحْثَ عَنْ تَغْوِيرِ ٱلْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالِ ٱلدَّفِينَةِ كُلَّهَا فِي مَجَارِي ٱلنِّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتُرُ دَفِينًا أَوْ مُخْتَزَنًا فِي تِلْكَ ٱلْآفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ ٱلدَّفَاتِرِ ٱلْمُفْتَعَلَةِ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَرْيَةِ ٱلنِّيلِ تَسَتُّرًا بِذَٰلِكَ مِنَ ٱلْكَذِبِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى مَعَاشِهِ فَيَحْرِصُ سَامِعُ ذَٰلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ ٱلْمَاءِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ مِنْ هٰذِهِ كَلَفًا بِشَأْنِ ٱلسِّحْرِ مُتَوَارَثًا فِي ذَٰلِكَ ٱلْقُطْرِ عَنْ أَوَّلِيهِ فَعُلُومُهُمُ ٱلسِّحْرِيَّةُ وَآثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي ٱلْبَرَارِي وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذَٰلِكَ وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يَنْسُبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ تُعْطِي فِيهَا كَيْفِيَّةَ ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةٍ سِحْرِيَّةٍ حَسْبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هٰذِهِ

يَا طَالِبًا لِلسِّرِّ فِي ٱلتَّغْوِيرِ ... إِسْمَعْ كَلَامَ ٱلصِّدْقِ مِنْ خَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتْبِهِمْ ... مِنْ قَوْلِ بُهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَٱسْمَعْ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي ... إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِٱلزُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغَوُّرَ ٱلْبِئْرِ ٱلَّتِي ... حَارَتْ لَهَا ٱلْأَوْهَامُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ
صَوِّرْ كَصُورَتِكَ ٱلَّتِي أَوْقَفْتَهَا ... وَٱلرَّأْسُ رَأْسُ ٱلشِّبْلِ فِي ٱلتَّقْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ ٱلَّذِي ... فِي ٱلدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ ٱلْبِيرِ
وَبِصَدْرِهِ هَاءٌ كَمَا عَايَنْتَهَا ... عَدَدُ ٱلطَّلَاقِ ٱحْذَرْ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ
وَيَطَا عَلَى ٱلطَّاءَاتِ غَيْرَ مُلَامِسٍ ... مَشْيَ ٱللَّبِيبِ ٱلْكَيِّسِ ٱلنِّحْرِيرِ
وَيَكُونُ حَوْلَ ٱلْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ ... تَرْبِيعُهُ أَوْلَى مِنَ ٱلتَّكْوِيرِ

وَٱذْبَحْ عَلَيْهِ ٱلطَّيْرَ وَٱلطَّخَةُ بِهِ وَٱقْصِدْهُ عُقْبَ ٱلذَّبْحِ بِٱلتَّبْخِيرِ
بِٱلسَّنْدَرُوسِ وَبِٱللُّبَانِ وَمَيْعَةٍ وَٱلْقِسْطِ وَٱلْبِسْهُ بِثَوْبِ حَرِيرِ
مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لا أَزْرَقٍ لا أَخْضَرٍ فِيهِ وَلا تَكْدِيرِ
وَيَشُدُّهُ خِيطَانُ صُوفٍ أَبْيَضٍ أَوْ أَحْمَرٍ مِنْ خَالِصِ ٱلتَّحْمِيرِ
وَٱلطَّالِعُ ٱلْأَسَدُ ٱلَّذِي قَدْ بَيَّنُوا وَيَكُونُ بَدْءُ ٱلشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرِ
وَٱلْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عُطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتٍ سَاعَةَ ٱلتَّدْبِيرِ

يعني أَنْ تَكُونَ ٱلطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ تَمْوِيهَاتِ ٱلْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَٱصْطِلاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي ٱلتَّخَرُّفَةُ وَٱلْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا ٱلْمَنَازِلَ ٱلْمَشْهُورَةَ وَٱلدُّورَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هٰذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ ٱلْحُفَرَ وَيَضَعُونَ ٱلْمَطَابِقَ فِيهَا وَٱلشَّوَاهِدَ ٱلَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعَفَاءَ ٱلْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلصَّحَائِفِ وَيَبْعَثُونَ عَلَى كِرَاءِ ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ ٱلْمَالِ لا يُعَبَّرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِٱلْمَالِ لِٱشْتِرَاءِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْبَخُورَاتِ لِحَلِّ ٱلطَّلاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ ٱلشَّوَاهِدِ ٱلَّتِي قَدْ أَعَدُّوهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَعِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلُبِسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱصْطِلاحٌ فِي كَلامِهِمْ يُلْبِسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتْلُونَهُ مِنْ حَفْرٍ وَبَخُورٍ وَذَبْحِ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَأَمَّا ٱلْكَلامُ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَلا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلا خَبَرٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لٰكِنَّهَا فِي حُكْمِ ٱلنَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ ٱلِٱتِّفَاقِ لا عَلَى وَجْهِ ٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِأَمْرٍ تَعُمُّ بِهِ ٱلْبَلْوَى حَتَّى يَدَّخِرَ ٱلنَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِٱلطَّلاسِمِ لا فِي ٱلْقَدِيمِ وَلا فِي ٱلْحَدِيثِ وَٱلرِّكَازُ ٱلَّذِي وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ ٱلْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِٱلْعُثُورِ وَٱلِٱتِّفَاقِ لا بِٱلْقَصْدِ وَٱلطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنِ ٱخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ ٱلْأَدِلَّةَ وَٱلْأَمَارَاتِ لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَيَكْتُبُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْآفَاقِ هٰذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ ٱلْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ ٱلْعُقَلاءِ لا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي ٱلِٱنْتِفَاعِ وَمَنِ ٱخْتَزَنَ ٱلْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لِوُلْدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْثِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يقصِدَ إخفاءَهُ بالكُلِّيَّةِ عن كُلِّ أحدٍ وإنَّما هُوَ للبَلاءِ والهلاكِ أو لِمَنْ لا يعرِفُهُ بالكُلِّيَّةِ مِمَّنْ سيأتي مِنَ الأُمَمِ فهٰذا لَيسَ مِنْ مَقاصِدِ العُقَلاءِ بِوَجْهٍ وأمَّا قولُهُم أينَ أموالُ الأُمَمِ مِن قَبلِنا وما عُلِمَ فيها مِنَ الكَثْرَةِ والوُفورِ فاعلَمْ أنَّ الأموالَ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والجَواهِرِ والأمتِعَةِ إنَّما هِيَ مَعادِنُ ومَكاسِبُ مِثْلُ الحَديدِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ وسائِرِ العَقاراتِ والمَعادِنِ والعُمْرانُ يُظهِرُها بالأعمالِ الإنسانيَّةِ ويَزيدُ فيها أو يُنقِصُها وما يُوجَدُ مِنها بأيدي النَّاسِ فهُوَ مُتَناقَلٌ مُتَوارَثٌ ورُبَّما انْتَقَلَ مِن قُطْرٍ إلى قُطْرٍ ومِنْ دَوْلَةٍ إلى أُخرَى بِحَسَبِ أغراضِهِ والعُمْرانُ الَّذي يَستَدعِي لَهُ فإنْ نَقَصَ المالُ في المَغرِبِ وأفريقيَّةَ فلَمْ يَنقُصْ بِبِلادِ الصَّقالِبَةِ والإفرَنجِ وإنْ نَقَصَ في مِصْرَ والشَّامِ فلَمْ يَنقُصْ في الهِندِ والصِّينِ وإنَّما هِيَ الآلاتُ والمَكاسِبُ والعُمْرانُ يُوفِّرُها أو يُنقِصُها مَعَ أنَّ المَعادِنَ يُدرِكُها البَلاءُ كَما يُدرِكُ سائِرَ المَوجوداتِ ويُسرِعُ إلى اللُّؤلُؤِ والجَوهَرِ أعظَمَ مِمَّا يُسرِعُ إلى غَيرِهِ وكَذا الذَّهَبُ والفِضَّةُ والنُّحاسُ والحَديدُ والرَّصاصُ والقَصديرُ يَنالُها مِنَ البَلاءِ والفَناءِ ما يُذهِبُ بأعيانِها لأقرَبِ وَقتٍ وأمَّا ما وَقَعَ في مِصْرَ مِن أمرِ المَطالِبِ والكُنوزِ فسَبَبُهُ أنَّ مِصْرَ في مَلَكَةِ القِبْطِ مُنذُ آلافٍ أو يَزيدُ مِنَ السِّنينَ وكانَ مَوتاهُم يُدفَنونَ بِوُجودِهِم مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والجَوهَرِ واللآلِئِ على مَذهَبِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أهلِ الدُّوَلِ فلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ القِبْطِ ومَلَكَ الفُرسُ بِلادَهُم نَقَّروا على ذٰلِكَ في قُبورِهِم فكَشَفوا عَنهُ فأخَذوا مِنْ قُبورِهِم ما لا يوصَفُ كالأهرامِ مِنْ قُبورِ المُلوكِ وغَيرِها وكَذا فَعَلَ اليونانِيُّونَ مِنْ بَعدِهِم وصارَتْ قُبورُهُم مَظِنَّةً لِذٰلِكَ لِهٰذا العَهدِ ويُعثَرُ على الدَّفينِ فيها كَثيراً مِنَ الأوقاتِ أمَّا ما يَدفِنونَهُ مِن أموالِهِم أو ما يُكَرِّمونَ بِهِ مَوتاهُم في الدَّفنِ مِنْ أوعِيَةٍ وتَوابيتَ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ مُعَدَّةٍ لِذٰلِكَ فصارَتْ قُبورُ القِبْطِ مُنذُ آلافٍ مِنَ السِّنينَ مَظِنَّةً لِوُجودِ ذٰلِكَ فيها فلِذٰلِكَ عُنِيَ أهلُ مِصْرَ بالبَحثِ عَنِ المَطالِبِ لِوُجودِ ذٰلِكَ فيها واستِخراجِها حَتَّى إنَّهُم حينَ ضُرِبَتِ المُكوسُ على الأصنافِ آخِرَ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ على أهلِ المَطالِبِ وصَدَرَتْ ضَريبَةٌ على مَنْ يَشتَغِلُ بِذٰلِكَ مِنَ الحَمْقَى والمَهَوَّسينَ فوَجَدَ بِذٰلِكَ المُتَعاطونَ مِنْ أهلِ الأطماعِ الذَّريعَةَ إلى الكَشفِ عَنهُ والذَّرعِ باستِخراجِهِ وما حَصَلوا إلَّا على الخَيبَةِ في جَميعِ مَساعيهِم نَعوذُ باللهِ مِنَ الخُسرانِ فيَحتاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيءٌ مِنْ هٰذا الوَسواسِ وابْتُلِيَ بِهِ أنْ

يتعوّذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوّذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وذلك أنّا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أنّ صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرّب بها إليه في سبيل التزلّف والحاجة إلى جاهه فالنّاس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروريّ أو حاجيّ أو كماليّ فتحصل قيم تلك الأعمال كلّها من كسبه وجميع معاشاته أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها النّاس من غير عوض فتتوفّر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضّرورة إلى إخراجها فتتوفّر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيّام يساراً وثروة ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدّمناه وفاقد الجاه بالكلّيّة ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلّا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التّجّار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير وممّا يشهد لذلك أنّا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدّين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظّنّ بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص النّاس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم وأسرعت إليهم الثّروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلّا ما يحصل لهم من قيم الأعمال الّتي وقعت المعونة بها من النّاس لهم رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن وفي البدو يسعى لهم النّاس في الفلح والتّجر وكلّ هو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثّل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السّرّ في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ ٱلَّذِي يَسْتَفِيدُهُ ٱلْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عُطِّلَ عَنِ ٱلْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ ٱلْكَسْبِ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذَٰلِكَ نُمُوُّ كَسْبِهِ أَوْ نُقْصَانُهُ وَقَدْ بَيَّنَّا آنِفاً أَنَّ ٱلْجَاهَ يُفِيدُ ٱلْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَجَلْبِ ٱلْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عِوَضاً عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ٱلْجَاهِ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمُهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ ٱلْغِنَى وَٱلْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ ثُمَّ إِنَّ ٱلْجَاهَ مُتَوَزِّعٌ فِي ٱلنَّاسِ وَمُتَرَتِّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ يَنْتَهِي فِي ٱلْعُلُوِّ إِلَى ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ وَفِي ٱلسُّفْلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضُرّاً وَلَا نَفْعاً بَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَبَيْنَ ذَٰلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةُ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا بِٱلتَّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ فَقْدُ ذَٰلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلتَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِٱلْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ ٱلنَّوْعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ ٱلِٱخْتِيَارِ وَأَنَّ أَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا تَصْدُرُ بِٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ لَا بِٱلطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْمُعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرِهُ أَبْنَاءَ ٱلنَّوْعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْجَاهَ هُوَ ٱلْقُدْرَةُ ٱلْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ بِٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلتَّسَلُّطِ بِٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي ٱلْعَدْلِ بِأَحْكَامِ ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَٰلِكَ وَلٰكِنَّ ٱلْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي ٱلْعِنَايَةِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلثَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِٱلْعَرَضِ كَسَائِرِ ٱلشُّرُورِ ٱلدَّاخِلَةِ فِي ٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وُجُودُ ٱلْخَيْرِ ٱلْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ ٱلْخَيْرُ بِذٰلِكَ بَلْ يَقَعُ

عَلى مَا يَنطَوِي عَلَيهِ مِنَ الشَّرِّ اليَسِيرِ وَهٰذَا مَعْنى وُقُوعِ الظُّلْمِ فِي الخَلِيقَةِ فَتَفَهَّمْ ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طِبَاقِ أَهْلِ العُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلى مَنْ دُونَهَا مِنَ الطِّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلى يَسْتَمِدُّ بِذِي الجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفاً فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلى قَدْرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالجَاهُ عَلى ذٰلِكَ دَاخِلٌ عَلى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ المَعَاشِ وَيَتَّسِعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطَّوْرِ الَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ الجَاهُ مُتَّسِعاً كَانَ الكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيِّقاً قَلِيلا فَمِثْلُهُ وَفَاقِدُ الجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِباً وَآيِباً فِي تَنْمِيَتِهِ كَأَكْثَرِ التُّجَّارِ وَأَهْلِ الفِلاحَةِ فِي الغَالِبِ وَأَهْلُ الصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ إِذَا فَقَدُوا الجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلى الفَقْرِ وَالخَصَاصَةِ فِي الأَكْثَرِ وَلا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يُرَمِّقُونَ العَيْشَ تَرْمِيقاً وَيُدَافِعُونَ ضَرُورَةَ الفَقْرِ مُدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ وَأَنَّ الجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ السَّعَادَةَ وَالخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجَلِّهَا وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجَلِّ المُنْعِمِينَ وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بِيَدٍ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ العِزِّ وَالمُلُوكُ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِذٰلِكَ قُلْنَا إِنَّ الخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هٰذَا الجَاهِ المُحَصِّلِ لِلسَّعَادَةِ وَالكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهٰذَا التَّمَلُّقِ وَلِهٰذَا نَجِدُ الكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرَفُّعِ وَالشَّمَمِ لا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي التَّكَسُّبِ عَلى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلى الفَقْرِ وَالخَصَاصَةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا الكِبْرَ وَالتَّرَفُّعَ مِنَ الأَخْلاقِ المَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ تَوَهُّمِ الكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلى بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالعَالِمِ المُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِهِ وَالكَاتِبِ المُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوِ الشَّاعِرِ البَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيَحْدُثُ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرٍ يَعْتَزُّونَ بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي المَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذٰلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوِرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي الحَاضِرِ بِالأَمْرِ المَعْدُومِ وَكَذٰلِكَ أَهْلُ الحِيلَةِ وَالبَصَرِ وَالتَّجَارِبِ بِالأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالاً فِي نَفْسِهِ بِذٰلِكَ وَاحْتِيَاجاً

إليه وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهوانا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم فسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشيء يسر له والله المقدر لا رب سواه ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خول له فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجده ونصحه ويتزلف إليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترين بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار لم

تَسْمَحُ بِهِ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَيَعْتَدُّونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ فَيَمْقُتُهُمُ ٱلسُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْتَدُّونَ بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرَفُّعٍ إِنَّمَا دَأْبُهُمُ ٱلْخُضُوعُ لَهُ وَٱلتَّمَلُّقُ وَٱلِٱعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمِ ٱلْوُجُوهُ وَٱلْخَوَاطِرُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ وَٱلِٱعْتِدَادِ بِٱلْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْداً مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَمَقْتاً وَإِيثَاراً لِهَؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلدَّوْلَةُ وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَٱلسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قِيمَةُ ٱلْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي ٱلْعُمْرَانِ عَامَّةَ ٱلْبَلْوَى بِهِ كَانَتْ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ وَكَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هَذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلدِّينِيَّةِ لَا تُضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ ٱلْخَلْقِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ ٱلْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنِ ٱحْتِيجَ إِلَى ٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ فِي ٱلْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ ٱلِٱضْطِرَارِ وَٱلْعُمُومِ فَيَقَعُ ٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظّاً مِنَ ٱلرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ ٱلدِّينُ وَٱلْمَرَاسِمُ ٱلشَّرْعِيَّةُ لَكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ ٱلْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ فَلَا يَصِحُّ فِي قَسْمِهِمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَهُمْ أَيْضاً لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَعِنْدَ نُفُوسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ ٱلْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظّاً يَسْتَدِرُّونَ بِهِ ٱلرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلشُّغْلِ بِهَذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسَعُهُمُ ٱبْتِذَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ ٱلدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثَرْوَتُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَقَدْ بَاحَثْتُ بَعْضَ ٱلْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْرَاقٌ مُخَرَّقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ ٱلدَّوَاوِينِ

بدارِ المأمونِ تشتمِلُ على كثيرٍ منَ الدّخلِ والخرْجِ وكانَ فيما طالعتُ فيهِ أرزاقُ القُضاةِ والأئمّةِ والمؤذِّنينَ فوقفتُهُ عليهِ وعلِمَ منهُ صحّةَ ما قلتُهُ ورجَعَ إليهِ وقضَينا العجبَ من أسرارِ اللهِ في خلقِهِ وحكمتِهِ في عوالِمِهِ واللهُ الخالِقُ القادِرُ لا ربَّ سِواهُ

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو

وذلكَ لأنّهُ أصيلٌ في الطّبيعةِ وبسيطٌ في منحاهُ ولذلكَ لا تجدُهُ ينتحِلُهُ أحدٌ مِن أهلِ الحضرِ في الغالبِ ولا منَ المترفينَ ويختصُّ منتحِلُهُ بالمذلّةِ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وقدْ رأى السّكّةَ ببعضِ دورِ الأنصارِ ما دخلتْ هذهِ دارَ قومٍ إلّا دخلَهُ الذّلُّ وحملَهُ البخاريُّ على الاستكثارِ منهُ وترجمَ عليهِ بابَ ما يُحذَرُ مِنْ عواقِبِ الاشتغالِ بآلةِ الزّرعِ أوْ تجاوزِ الحدِّ الّذي أُمِرَ بهِ والسّببُ فيهِ واللهُ أعلمُ ما يتبعُها منَ المغرمِ المُفضي إلى التّحكّمِ واليدُ العاليةُ فيكونُ الغارمُ ذليلاً بائساً بما تتناولُهُ أيدي القهرِ والاستطالةِ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ لا تقومُ السّاعةُ حتّى تعودَ الزّكاةُ مغرماً إشارةً إلى الملكِ العضوضِ القاهرِ للنّاسِ الّذي معهُ التّسلّطُ والجورُ ونسيانُ حقوقِ اللهِ تعالى في المتموّلاتِ واعتبارُ الحقوقِ كلِّها مغرمٌ للملوكِ والدّولِ واللهُ قادرٌ على ما يشاءُ واللهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ وبهِ التّوفيقُ

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلمْ أنّ التّجارةَ محاولةُ الكسبِ بتنميةِ المالِ بشراءِ السّلعِ بالرّخصِ وبيعِها بالغلاءِ أيّامَ كانتِ السّلعةُ مِنْ دقيقٍ أوْ زرعٍ أوْ حيوانٍ أوْ قماشٍ وذلكَ القدرُ النّامي يسمّى ربحاً فالمحاولُ لذلكَ الرّبحِ إمّا أنْ يختزنَ السّلعةَ ويتحيّنَ بها حوالةَ الأسواقِ منَ الرّخصِ إلى الغلاءِ فيعظُمُ ربحُهُ وإمّا بأنْ ينقُلَهُ إلى بلدٍ آخرَ تنفقُ فيهِ تلكَ السّلعةُ أكثرَ مِنْ بلدِهِ الّذي اشتراها فيهِ فيعظُمُ ربحُهُ ولذلكَ قالَ بعضُ الشّيوخِ منَ التّجّارِ لطالبِ الكشفِ عنْ حقيقةِ التّجارةِ أنا أُعلِّمُها لكَ في كلمتينِ اشتراءُ الرّخيصِ وبيعُ الغالي فقدْ حصلتِ التّجارةُ إشارةً منهُ بذلكَ إلى المعنى الّذي قرّرناهُ واللهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ وبهِ التّوفيقُ لا ربَّ سِواهُ

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مَعْنَى ٱلتِّجَارَةِ تَنْمِيَةُ ٱلْمَالِ بِشِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةِ بَيْعِهَا بِأَغْلَى مِنْ ثَمَنِ ٱلشِّرَاءِ إِمَّا بِٱنْتِظَارِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ أَوْ نَقْلِهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقُ وَأَغْلَى أَوْ بَيْعِهَا بِٱلْغَلَاءِ عَلَى ٱلْآجَالِ وَهٰذَا ٱلرِّبْحُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ ٱلْمَالِ يَسِيرٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَالَ إِذَا كَانَ كَثِيرًا عَظُمَ ٱلرِّبْحُ لِأَنَّ ٱلْقَلِيلَ فِي ٱلْكَثِيرِ كَثِيرٌ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هٰذِهِ ٱلتَّنْمِيَةِ مِنْ حُصُولِ هٰذَا ٱلْمَالِ بِأَيْدِي ٱلْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي تَقَاضِي أَثْمَانِهَا وَأَهْلُ ٱلنَّصَفَةِ قَلِيلٌ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْغِشِّ وَٱلتَّطْفِيفِ ٱلْمُجْحِفِ بِٱلْبَضَائِعِ وَمِنَ ٱلْمَطْلِ فِي ٱلْأَثْمَانِ ٱلْمُجْحِفِ بِٱلرِّبْحِ كَتَعْطِيلِ ٱلْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ وَمِنَ ٱلْجُحُودِ وَٱلْإِنْكَارِ ٱلْمُسْحِتِ لِرَأْسِ ٱلْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَقَيَّدْ بِٱلْكِتَابِ وَٱلشَّهَادَةِ وَغِنَى ٱلْحُكَّامِ فِي ذٰلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ ٱلْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى ٱلظَّاهِرِ فَيُعَانِي ٱلتَّاجِرُ مِنْ ذٰلِكَ أَحْوَالًا صَعْبَةً وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلتَّافِهِ مِنَ ٱلرِّبْحِ إِلَّا بِعِظَمِ ٱلْعَنَاءِ وَٱلْمَشَقَّةِ أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَاشَى رَأْسُ مَالِهِ فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى ٱلْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِٱلْحُسْبَانِ شَدِيدَ ٱلْمُمَاحَكَةِ مِقْدَامًا عَلَى ٱلْحُكَّامِ كَانَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى ٱلنَّصَفَةِ بِجَرَاءَتِهِ مِنْهُمْ وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدَّرِعُ بِهِ يُوقِعُ لَهُ ٱلْهَيْبَةَ عِنْدَ ٱلْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ ٱلْحُكَّامَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلِيهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ ٱلنَّصَفَةُ فِي مَالِهِ طَوْعًا فِي ٱلْأَوَّلِ وَكُرْهًا فِي ٱلثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْجَرَاءَةِ وَٱلْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقِدَ ٱلْجَاهِ مِنَ ٱلْحُكَّامِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِٱلتِّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعَرِّضُ مَالَهُ لِلضَّيَاعِ وَٱلذَّهَابِ وَيَصِيرُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلنَّاسِ وَخُصُوصًا ٱلرَّعَاعَ وَٱلْبَاعَةَ شَرِهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ وَلَوْلَا وَازِعُ ٱلْأَحْكَامِ لَأَصْبَحَتْ أَمْوَالُ ٱلنَّاسِ نَهْبًا وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللّٰهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلتُّجَّارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ ٱلْبَيْعَ وَٱلشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ

ٱلْمُكَايَسَةِ ضَرُورَةٌ فَإِنِ ٱقْتُصِرَ عَلَيْهَا ٱقْتُصِرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنِي خُلُقَ ٱلْمُكَايَسَةِ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنِ ٱسْتُرْذِلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتْبَعُ ذَٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ ٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ ٱلْأَيْمَانِ ٱلْكَاذِبَةِ عَلَى ٱلْأَثْمَانِ رَدًّا وَقَبُولًا فَأَجْدِرْ بِذَٰلِكَ ٱلْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ ٱلْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ ٱلرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِهَٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يُكْسِبُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جِلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلنَّادِرِ بَيْنَ ٱلْوُجُودِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

ٱلتَّاجِرُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِلَّا مَا تَعُمُّ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَٰلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا ٱخْتَصَّ نَقْلُهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ ٱلشِّرَاءِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلَ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ ٱلْوَسَطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ ٱلْعَالِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ ٱلثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلنَّاسُ أُسْوَةً فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْوَسَطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَٰلِكَ جُهْدَهُ فَفِيهِ نَفَاقُ سِلْعَةٍ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَٰلِكَ نَقْلُ ٱلسِّلَعِ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ ٱلْخَطَرِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ لِأَنَّ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعُوزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ ٱلْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ ٱلْبَلَدُ قَرِيبَ ٱلْمَسَافَةِ وَٱلطَّرِيقُ سَابِلًا بِٱلْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَٰذَا تَجِدُ ٱلتُّجَّارَ ٱلَّذِينَ يُولَعُونَ بِٱلدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ أَرْفَهَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَٱعْتِرَاضِ ٱلْمَفَازَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْمُخْطِرَةِ بِٱلْخَوْفِ وَٱلْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ٱلْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَّاءُ ٱلرُّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَٰذَا ٱلطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّاسِ فَتَجِدُ

سلَعَ بلادِ ٱلسُّودَانِ قَلِيلَةٌ لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِٱلْغَلاءِ وَكَذٰلِكَ سِلَعُنَا لَدَيْهِمْ فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ ٱلتُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمِ ٱلْغِنَى وَٱلثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلادِنَا إِلى ٱلْمَشْرِقِ لِبُعْدِ ٱلشُّقَّةِ أَيْضاً وَأَمَّا ٱلْمُتَرَدِّدُونَ فِي أُفُقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلسِّلَعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا وَٱللهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينِ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي ٱلْبَصَرِ وَٱلتَّجْرِبَةِ فِي ٱلْأَمْصَارِ أَنَّ ٱحْتِكَارَ ٱلزَّرْعِ لِتَحَيُّنِ أَوْقَاتِ ٱلْغَلاءِ مَشْؤُومٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِٱلتَّلَفِ وَٱلْخُسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلى ٱلْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلى مَا يَبْذُلُونَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَالِ ٱضْطِرَاراً فَتَبْقَى ٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ ٱلنُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ مَجَّاناً وَلَعَلَّهُ ٱلَّذِي ٱعْتَبَرَهُ ٱلشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَجَّاناً فَٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي ٱلْعُذْرِ فَهُوَ كَٱلْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْمَأْكُولاتِ مِنَ ٱلْمَبِيعَاتِ لاَ ٱضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ فَلا يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِٱخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَوْهُ فَلِهٰذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِٱلِاحْتِكَارِ تَجْتَمِعُ ٱلْقُوَى ٱلنَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ وَٱللهُ تَعَالى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هٰذَا حِكَايَةً ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشْيَخَةِ ٱلْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلْأَبُلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ ٱلْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ ٱلْفَقِيهُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَلِيلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ ٱلْأَلْقَابِ ٱلْمَخْزَنِيَّةِ لِجِرَايَتِهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ ٱلْخَمْرِ فَٱسْتَضْحَكَ ٱلْحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذٰلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ ٱلْجِبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَاماً فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لا تُتَابِعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَٱلْخَمْرُ قَلَّ أَنْ يَبْذُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبٌ مَسْرُورٌ بِوُجْدَانِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ وَهٰذِهِ مُلاحَظَةٌ غَرِيبَةٌ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ٱلصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ وَٱلْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلصَّنَائِعِ أَوِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلتِّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلسِّلَعِ وَٱدِّخَارُهَا يَتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةَ ٱلْأَسْوَاقِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحاً وَيَحْصُلُ مِنْهُ ٱلْكَسْبُ وَٱلْمَعَاشُ لِلْمُحْتَرِفِينَ بِٱلتِّجَارَةِ دَائِماً فَإِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي سِلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مُتَمَوَّلٍ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةُ ٱلْأَسْوَاقِ فَسَدَ ٱلرِّبْحُ وَٱلنَّمَاءُ بِطُولِ تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ وَكَسَدَتْ سُوقُ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفِ فَقَعَدَ ٱلتُّجَّارُ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَوَّلاً بِٱلزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ رُخْصُهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلزِّرَاعَةِ لِقِلَّةِ ٱلرِّبْحِ فِيهِ وَنَدَارَتِهِ أَوْ فَقْدِهِ فَيَفْقِدُونَ ٱلنَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعُودُونَ بِٱلْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ فَسَادُ حَالِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ أَيْضاً بِٱلطَّحْنِ وَٱلْخَبْزِ وَسَائِرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلزِّرَاعَةِ مِنَ ٱلْحَرْثِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ مَأْكُولاً وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ ٱلْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى أَهْلِ ٱلْفَلْحِ زَرْعاً فَإِنَّهَا تَقِلُّ جِبَايَتُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْجُنْدِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَكَذَا إِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلسُّكَّرِ أَوِ ٱلْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ ٱلْمُحْتَرِفُونَ عَنِ ٱلتِّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا ٱلْمَلْبُوسَاتُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ فِيهَا ٱلرُّخْصُ فَإِذَا ٱلرُّخْصُ ٱلْمُفْرِطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِذٰلِكَ ٱلصِّنْفِ ٱلرَّخِيصِ وَكَذَا ٱلْغَلَاءُ ٱلْمُفْرِطُ أَيْضاً وَإِنَّمَا مَعَاشُ ٱلنَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي ٱلتَّوَسُّطِ مِنْ ذٰلِكَ وَسُرْعَةِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَعِلْمُ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمُتَقَرِّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ وَإِنَّمَا يُحْمَدُ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَٱضْطِرَارِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْأَقْوَاتِ مِنْ بَيْنِ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلْعَالَةُ مِنَ ٱلْخَلْقِ هُمُ ٱلْأَكْثَرُ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَيَعُمُّ ٱلرِّفْقُ بِذٰلِكَ وَيَرْجَحُ جَانِبُ ٱلْقُوتِ عَلَى جَانِبِ ٱلتِّجَارَةِ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلْخَاصِّ وَٱللّٰهُ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة

قَدْ قَدَّمنا فِي الفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلْبِ الفَوَائِدِ وَالأَرْبَاحِ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ المُكَايَسَةِ وَالمُمَاحَكَةِ وَالتَّحَذْلُقِ وَمُمَارَسَةِ الخُصُومَاتِ وَاللَّجَاجِ وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الحِرْفَةِ وَهَذِهِ الأَوْصَافُ تَنْقُصُ مِنَ الذَّكَاءِ وَالمُرُوءَةِ وَتَجْرَحُ فِيهَا لِأَنَّ الأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ فَأَفْعَالُ الخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الخَيْرِ وَالزَّكَاءِ وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ فَتَتَمَكَّنُ وَتَرْسَخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالُ الخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا المَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنَ المَلَكَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الأَفْعَالِ وَتَتَفَاوَتُ هَذِهِ الآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ الطَّوْرِ مُحَالِفاً لِأَشْرَارِ البَاعَةِ أَهْلِ الغِشِّ وَالخَلَابَةِ وَالفُجُورِ فِي الأَثْمَانِ وإِقْرَاراً وَإِنْكَاراً كَانَتْ رَدَاءَةُ تِلْكَ الخُلُقِ عِنْدَهُ أَشَدَّ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ المُرُوءَةِ وَاكْتِسَابِهَا بِالجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ المُكَايَسَةِ وَالمُمَاحَكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ وَفِقْدَانِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي الجُمْلَةِ وَوُجُودُ الصِّنْفِ الثَّانِي مِنْهُمُ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي الفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدَّرِعُونَ بِالجَاهِ وَيُعَوِّضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ فَهُمْ نَادِرٌ وَأَقَلُّ مِنَ النَّادِرِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ المَالُ قَدْ يُوجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرِثَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثَرْوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى الِاتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُوراً وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وُكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ وَيَسْهُلُ لَهُ الحُكَّامُ النَّصَفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بِرِّهِ وَإِتْحَافِهِ فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ الخُلُقِ بِالبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الأَفْعَالِ المُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مُرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ تِلْكَ المُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الوُكَلَاءِ وَوِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذَرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم

إِعْلَمْ أَنَّ الصِّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرٍ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكَوْنِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِي

مَحْسُوسٌ وَٱلْأَحْوَالُ ٱلْجِسْمَانِيَّةُ ٱلْمَحْسُوسَةُ فَنَقْلُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ لِأَنَّ ٱلْمُبَاشَرَةَ فِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ ٱلْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةً وَٱلْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْصُلُ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ذَٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْسَخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْأَصْلِ تَكُونُ ٱلْمَلَكَةُ وَنَقْلُ ٱلْمُعَايَنَةِ أَوْعَبُ وَأَتَمُّ مِنْ نَقْلِ ٱلْخَبَرِ وَٱلْعِلْمِ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ عَنِ ٱلْخَبَرِ عَلَى قَدْرِ جُودَةِ ٱلتَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ ٱلْمُتَعَلِّمِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ إِنَّ ٱلصَّنَائِعَ مِنْهَا ٱلْبَسِيطُ وَمِنْهَا ٱلْمُرَكَّبُ وَٱلْبَسِيطُ هُوَ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلضَّرُورِيَّاتِ وَٱلْمُرَكَّبُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلتَّعْلِيمِ هُوَ ٱلْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوَّلاً وَلِأَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِٱلضَّرُورِيِّ ٱلَّذِي تَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقاً فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصاً وَلَا يَزَالُ ٱلْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ بِٱلِٱسْتِنْبَاطِ شَيْئاً فَشَيْئاً عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمُلَ وَلَا يَحْصُلُ ذَٰلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْصُلُ فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ ٱلْأَشْيَاءِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهَٰذَا تَجِدُ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا ٱلْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حِضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورُ ٱلتَّرَفِ فِيهَا إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ ٱلصَّنَائِعُ أَيْضاً إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِأَمْرِ ٱلْمَعَاشِ ضَرُورِيّاً كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِٱلْأَفْكَارِ ٱلَّتِي هِيَ خَاصِيَّةُ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَمِنَ ٱلْأَوَّلِ ٱلْحِيَاكَةُ وَٱلْجِزَارَةُ وَٱلتِّجَارَةُ وَٱلْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا وَمِنَ ٱلثَّانِي ٱلْوِرَاقَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ ٱلْكُتُبِ بِٱلِٱنْتِسَاخِ وَٱلتَّجْلِيدِ وَٱلْغِنَاءُ وَٱلشِّعْرُ وَتَعْلِيمُ ٱلْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَمِنَ ٱلثَّالِثِ ٱلْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ ٱلْعُمْرَانُ ٱلْحَضَرِيُّ وَتَتَمَدَّنُ ٱلْمَدِينَةُ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ ٱلْأَقْوَاتِ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا تَمَدَّنَتِ ٱلْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا ٱلْأَعْمَالُ وَوَفَتْ بِٱلضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صُرِفَ ٱلزَّائِدُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلْكَمَالَاتِ مِنَ ٱلْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَٱلْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ ٱلَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْقُوتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْحَيَوَانِيَّةُ وَٱلْغِذَائِيَّةُ فَهُوَ

مقدّم لضروريّته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنّق فيها حينئذٍ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفّر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنّق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتأنّق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والشماع والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والألوان والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في

الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصوراً فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلاً ما تحول إلا بزوال محلها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة

ابن حماد أثرًا باقيًا من ذلك وإن كانت هذه كلها اليوم خرابًا أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارًا تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحو في الكتاب والله الخلاق العليم

الفصل التاسع عشر

ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانًا لأنه كسبه ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للإهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرىء ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضًا فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثريًا ضرورة والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

الفصل العشرون

في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها وإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها أو يموت ولا يكون خلف منه

فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات في التناقص إلى أن تضمحل والله الخلاق العليم وسبحانه وتعالى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الأماكن من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحران وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث

ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى

وَمِثَالُ ذَٰلِكَ ٱلْخَيَّاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَةَ ٱلْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةَ ٱلتِّجَارَةِ أَوِ ٱلْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ٱلْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكِمْ بَعْدُ وَلَمْ تَرْسَخْ صِبْغَتُهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَأَلْوَانٌ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً وَمَنْ كَانَ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ ٱلْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ ٱسْتِعْدَاداً لِحُصُولِهَا فَإِذَا تَلَوَّنَتِ ٱلنَّفْسُ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ ٱلْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ بِٱللَّوْنِ ٱلْحَاصِلِ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَةِ أَضْعَفَ وَهَٰذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعاً عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِينَ مَلَكَتُهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهَٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَةِ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي ٱلْغَايَةِ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ مَلَكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقَصِّراً فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَبْنِيٌّ سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ وَتَلْوِينِهِ بِلَوْنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلنَّفْسِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشِذُّ عَنِ ٱلْحَصْرِ وَلَا يَأْخُذُهَا ٱلْعَدُّ إِلَّا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِٱلْمَوْضِعِ فَنَخُصُّهَا بِٱلذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا ٱلضَّرُورِيُّ فَٱلْفِلَاحَةُ وَٱلْبِنَاءُ وَٱلْخِيَاطَةُ وَٱلتِّجَارَةُ وَٱلْحِيَاكَةُ وَأَمَّا ٱلشَّرِيفَةُ بِٱلْمَوْضِعِ فَكَٱلتَّوْلِيدِ وَٱلْكِتَابَةِ وَٱلْوِرَاقَةِ وَٱلْغِنَاءِ وَٱلطِّبِّ فَأَمَّا ٱلتَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ ٱلْبَلْوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ ٱلْمَوْلُودِ وَتَتِمُّ غَالِباً وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَٰلِكَ ٱلْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ وَأَمَّا ٱلطِّبُّ فَهُوَ حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّعُ

عنْ عِلْمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذٰلِكَ بَدَنُ ٱلْإِنْسَانِ وَأَمَّا ٱلْكِتَابَةُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلْوِرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ ٱلنِّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلْبَعِيدِ ٱلْغَائِبِ وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ وَٱلْعُلُومِ فِي ٱلصُّحُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ ٱلْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا ٱلْغِنَاءُ فَهُوَ نِسَبُ ٱلْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ وَكُلُّ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلثَّلَاثِ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعَاظِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا بِذٰلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَهَنَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلدَّوَاعِي وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ثَمَرَتُهَا ٱتِّخَاذُ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْحُبُوبِ بِٱلْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ لَهَا وَٱزْدِرَاعِهَا وَعِلَاجِ نَبَاتِهَا وَتَعَهُّدِهِ بِٱلسَّقْيِ وَٱلتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حَصَادِ سُنْبُلِهِ وَٱسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ ٱلْأَعْمَالِ لِذٰلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ أَقْدَمُ ٱلصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْقُوتِ ٱلْمُكَمِّلِ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ غَالِباً إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ مِنْ دُونِ ٱلْقُوتِ وَلِهٰذَا ٱخْتُصَّتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ بِٱلْبَدْوِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِذٰلِكَ بَدَوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا ٱلْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى ٱلْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ ٱلْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلْعَمَلِ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَنَازِلِ لِلْكِنِّ وَٱلْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي ٱلْمُدُنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ ٱلْأَذَى مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ كَٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلسُّقُفِ وَٱلْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَٱلْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ فِي هٰذِهِ ٱلْجِبِلَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذٰلِكَ بِٱعْتِدَالٍ أَهَالِي ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱتِّخَاذِ ذٰلِكَ لِقُصُورِ

أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طرق بعضهم بعضاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج أو أسوار تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً ويحوطهم الحكم من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد

مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ ٱلْبِنَاءِ فِي عَرْضِ ٱلْأَسَاسِ وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرُعٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ يُرْبَطُ عَلَيْهَا بِٱلْحِبَالِ وَٱلْجُدُرِ وَيُسَدُّ ٱلْجِهَتَانِ ٱلْبَاقِيَتَانِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ ٱلتُّرَابُ مُخْتَلِطًا بِٱلْكِلْسِ وَيُرْكَزُ بِٱلْمَرَاكِزِ ٱلْمُعَدَّةِ حَتَّى يَنْعَمَ رَكْزُهُ وَيَخْتَلِطَ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يُزَادُ ٱلتُّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِئَ ذٰلِكَ ٱلْخَلَاءُ بَيْنَ ٱللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ ٱلْكِلْسِ وَٱلتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يُعَادُ نَصْبُ ٱللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرْكَزُ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيَنْتَظِمَ ٱلْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ ٱلْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى ٱلطَّابِيَةَ وَصَانِعُهُ ٱلطَّوَّابَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ تُجَلَّلَ ٱلْحِيطَانُ بِٱلْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُحَلَّ بِٱلْمَاءِ وَيُخَمَّرَ أُسْبُوعًا أَوْ أُسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدْرِ مَا يَعْتَدِلُ مِزَاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ ٱلنَّارِيَّةِ ٱلْمُفْسِدَةِ لِلْإِلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذٰلِكَ عَلَاهُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحَائِطِ وَذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ عَمَلُ ٱلسُّقُفِ بِأَنْ تُمَدَّ ٱلْخُشُبُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلنِّجَارَةِ أَوِ ٱلسَّاذَجَةُ عَلَى حَائِطَيِ ٱلْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا ٱلْأَلْوَاحُ كَذٰلِكَ مَوْصُولَةً بِٱلدَّسَاتِرِ وَيُصَبُّ عَلَيْهَا ٱلتُّرَابُ وَٱلْكِلْسُ وَيُبْسَطُ بِٱلْمَرَاكِزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا ٱلْكِلْسُ كَمَا يُعَالَى عَلَى ٱلْحَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ ٱلْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّنْمِيقِ وَٱلتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحِيطَانِ ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُجَسَّمَةُ مِنَ ٱلْجِصِّ يُخَمَّرُ بِٱلْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ ٱلْبَلَلِ فَيُشَكَّلُ عَلَى ٱلتَّنَاسُبِ تَخْرِيمًا بِمَثَاقِبِ ٱلْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرُوَاءٌ وَرُبَّمَا عُولِيَ عَلَى ٱلْحِيطَانِ أَيْضًا بِقِطَعِ ٱلرُّخَامِ وَٱلْآجُرِّ وَٱلْخَزَفِ أَوْ بِٱلصَّدَفِ أَوِ ٱلسَّبَجِ يُفَصَّلُ أَجْزَاءً مُتَجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتُوضَعُ فِي ٱلْكِلْسِ عَلَى نِسَبٍ وَأَوْضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ ٱلْحَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطَعُ ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُنَمْنَمَةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ بِنَاءِ ٱلْجِبَابِ وَٱلصَّهَارِيجِ لِسَفْحِ ٱلْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي ٱلْبُيُوتِ قِصَاعُ ٱلرُّخَامِ ٱلْقَوْرَاءُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلْخَرْطِ بِٱلْفُوهَاتِ فِي وَسَطِهَا لِنَبْعِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي إِلَى ٱلصِّهْرِيجِ يُجْلَبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِ ٱلْقَنَوَاتِ ٱلْمُفْضِيَةِ إِلَى ٱلْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبِنَاءِ وَتَخْتَلِفُ ٱلصُّنَّاعُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْحِذْقِ وَٱلْبَصَرِ وَيَعْظُمُ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَّسِعُ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا يَرْجِعُ ٱلْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هٰؤُلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبِنَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمُدُنِ لِكَثْرَةِ ٱلِٱزْدِحَامِ وَٱلْعُمْرَانِ يَتَشَاحُّونَ حَتَّى فِي ٱلْفَضَاءِ وَٱلْهَوَاءِ ٱلْأَعْلَى

وَالْأَسَافِلِ وَمِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحِيطَانِ فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضاً فِي اسْتِحْقَاقِ الطُّرُقِ وَالْمَنَافِذِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَلَاتِ الْمُسَرَّبَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلْوِهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَايُقِ الْجِوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالَ حَائِطِهِ خَشْيَةَ سُقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرْصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصَرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَاقِدِ وَالْقُمُطِ وَمَرَاكِزِ الْخَشَبِ وَمَيْلِ الْحِيطَانِ وَاعْتِدَالِهَا وَقَسْمِ الْمَسَاكِنِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تَضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحِيطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْخِبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِالْجَوْدَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِاعْتِبَارِ الدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا فَلِذَلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ بَدَوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرِهَا كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِالشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعَلَةِ الْمَهَرَةِ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَّلَ لَهُ غَرَضَهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحِيطَانِ بِالْوَزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الْإِرْتِفَاعِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَثْقَالِ بِالْهِنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجِزُ قُدَرُ الْفَعَلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسَبٍ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ الثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفاً فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ كُلْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأُصُولٍ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوَلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ الْهَيَاكِلِ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعِظَمِ الْجُسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيَلِ الْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَتَفَهَّمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ ٱلْعُمْرَانِ وَمَادَّتُهَا ٱلْخَشَبُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلْآدَمِيِّ فِي كُلِّ مُكَوَّنٍ مِنَ ٱلْمُكَوَّنَاتِ مَنَافِعَ تَكْمُلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ أَوْ حَاجَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا ٱلشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْحَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحد وَمِنْ مَنَافِعِهَا ٱتِّخَاذُهَا خَشَباً إِذَا يَبِسَتْ وَأَوَّلُ مَنَافِعِهِ أَنْ يَكُونَ وَقُوداً لِلنِّيرَانِ فِي مَعَاشِهِم وَعِصِيّاً لِلِاتِّكَاءِ وَٱلذَّوْدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَدَعَائِمَ لِمَا يُخْشَى مَيْلُهُ مِنْ أَثْقَالِهِم ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ فَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا ٱلْعُمُد وَٱلْأَوْتَادَ لِخِيَامِهِمْ وَٱلْحُدُوجَ لِظَعَائِنِهِمْ وَٱلرِّمَاحَ وَٱلْقِسِيَّ وَٱلسِّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْحَضَرِ فَٱلسُّقُفُ لِبُيُوتِهِمْ وَٱلْأَغْلَاقُ لِأَبْوَابِهِمْ وَٱلْكَرَاسِيُّ لِجُلُوسِهِمْ وَكُل وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ فَٱلْخَشَبَةُ مَادَّةٌ لَهَا وَلَا تَصِيرُ إِلَى ٱلصُّورَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهَا إِلَّا بِٱلصِّنَاعَة وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُتَكَفِّلَةُ بِذٰلِكَ ٱلْمُحَصِّلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُوَرِهَا هِيَ ٱلنِّجَارَةُ عَلَى ٱخْتِلَافِ رُتَبِهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ ٱلْخَشَبِ أَوَّلاً إِمَّا بِخَشَبٍ أَصْغَرَ مِنْهُ أَوْ أَلْوَاحٍ ثُمَّ تُرَكَّبُ تِلْكَ ٱلْفَصَائِلُ بِحَسَبِ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَطْلُوبَةِ وَهُوَ فِي كُلِّ ذٰلِكَ يُحَاوِلُ بِصَنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ ٱلْفَصَائِلِ بِٱلِانْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءً لِذٰلِكَ ٱلشَّكْلِ ٱلْمَخْصُوصِ وَٱلْقَائِم عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ ٱلنَّجَّارُ وَهُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ ثُمَّ إِذَا عَظُمَتِ ٱلْحَضَارَةُ وَجَاءَ ٱلتَّرَفُ وَتَأَنَّقَ ٱلنَّاسُ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْسِيٍّ أَو مَاعُونٍ حَدَثَ ٱلتَّأَنُّقُ فِي صِنَاعَةِ ذٰلِكَ وَٱسْتِجَادَتِهِ بِغَرَائِبَ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ كَمَالِيَّةٍ لَيْسَتْ مِن ٱلضَّرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلَ ٱلتَّخْطِيطِ فِي ٱلْأَبْوَابِ وَٱلْكَرَاسِيِّ وَمِثْلَ تَهْيِئَةِ ٱلْقِطَعِ مِن ٱلْخَشَبِ بِصِنَاعَةِ ٱلْخَرْطِ يُحْكَمُ بَرْيُهَا وَتَشْكِيلُهَا ثُمَّ تُؤَلَّفُ عَلَى نِسَبٍ مُقَدَّرَةٍ وَتُلْحَم بِٱلدَّسَائِرِ فَتَبْدُو لِرَأْيِ ٱلْعَيْنِ مُلْتَحِمَةً وَقَدْ أُخِذَ مِنْهَا ٱخْتِلَافُ ٱلْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُب يُصْنَعُ هٰذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يُتَّخَذُ مِنَ ٱلْخَشَبِ فَيَجِيءُ آنَقَ مَا يَكُونُ وَكَذٰلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يُحْتَاج إِلَيْهِ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْمُتَّخَذَةِ مِنَ ٱلْخَشَبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ وَكَذٰلِكَ قَدْ يُحْتَاجُ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي إِنْشَاءِ ٱلْمَرَاكِبِ ٱلْبَحْرِيَّةِ ذَاتِ ٱلْأَلْوَاحِ وَٱلدُّسُرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَت عَلَى قَالَبِ ٱلْحُوتِ وَٱعْتِبَارِ سَبْحِهِ فِي ٱلْمَاءِ بِقَوَادِمِهِ وَكَلْكَلِهِ لِيَكُونَ ذٰلِكَ ٱلشَّكْلُ أَعْوَن

لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدوس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل السابع والعشرون
في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاماً في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى

كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيباً ولا نساء ولا مخيطاً ولا خفاً ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وإنما يجيء كأنه وارد إلى المحشر ضارعاً بقلبه مخلصاً لربه وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك. وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى أدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء وربما ينسبونها إلى هرمس وقد يقال إن هرمس هو أدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

الفصل الثامن والعشرون
في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الإعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدرها الله لمكثه هي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان من الأغشية من الإلتصاق والإلتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره ثم إن أخرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك

ٱلْوُصلَةُ عُضْوٌ فَضْلِيٌّ لِتَغْذِيَةِ ٱلْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا ٱلْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لا تَتَعَدَّى مَكَان ٱلْفَضْلَةِ وَلا تُضِرُّ بِمِعَاهُ وَلا بِرَحِمِ أُمِّهِ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ ٱلْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِٱلْكَيِّ أَوْ بِمَا تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ ٱلِٱنْدِمَالِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْمَنْفَذِ ٱلضَّيِّقِ وَهُوَ رَطْب ٱلْعِظَامِ سَهْلُ ٱلِٱنْعِطَافِ وَٱلِٱنْثِنَاءِ فَرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ ٱلتَّكْوِينِ وَرُطُوبَةِ ٱلْمَوَادِّ فَتَتَنَاوَلُهُ ٱلْقَابِلَةُ بِٱلْغَمْزِ وَٱلْإِصْلاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عُضْوٍ إِلَى شَكْلِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ ٱلْمُقَدَّرِ لَهُ وَيَرْتَدَّ خَلْقُهُ سَوِيًّا ثُمَّ بَعْدَ ذَٰلِكَ تُرَاجِعُ ٱلنُّفَسَاءَ وَتُحَاذِيهَا بِٱلْغَمْزِ وَٱلْمُلايَنَةِ لِخُرُوجِ أَغْشِيَةِ ٱلْجَنِينِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا وَيُخْشَى عِنْدَ ذَٰلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ ٱلْمَاسِكَةَ حَالَهَا ٱلطَّبِيعِيَّةُ قَبْلَ ٱسْتِكْمَالِ خُرُوجِ ٱلْأَغْشِيَةِ وَهِيَ فَضَلاتٌ فَتَعْفَنُ وَيَسْرِي عَفَنُهَا إِلَى ٱلرَّحِمِ فَيَقَعُ ٱلْهَلاكُ فَتُحَاذِرُ ٱلْقَابِلَةُ هَٰذَا وَتُحَاوِل فِي إِعَانَةِ ٱلدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ ٱلْأَغْشِيَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَوْلُود فَتُمَرِّخُ أَعْضَاءَهُ بِٱلْأَدْهَانِ وَٱلذَّرُورَاتِ ٱلْقَابِضَةِ لِتَشُدَّهُ وَتُجَفِّفَ رُطُوبَاتِ ٱلرَّحِم وَتُحَنِّكُهُ لِرَفْعِ لَهَاتِهِ وَتُسْعِطُهُ لِٱسْتِفْرَاغِ بُطُونِ دِمَاغِهِ وَتُغَرْغِرُهُ بِٱللَّعُوقِ لِدَفْعِ ٱلسُّدَد مِنْ مِعَاهُ وَتَجْوِيفِهَا عَنِ ٱلِٱلْتِصَاقِ ثُمَّ تُدَاوِي ٱلنُّفَسَاءَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْوَهَنِ ٱلَّذِي أَصَابَهَا بِٱلطَّلْقِ وَمَا لَحِقَ رَحِمَهَا مِنْ أَلَمِ ٱلِٱنْفِصَالِ إِذِ ٱلْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عُضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةُ ٱلتَّكْوِينِ فِي ٱلرَّحِمِ صَيَّرَتْهُ بِٱلِٱلْتِحَامِ كَٱلْعُضْوِ ٱلْمُتَّصِلِ فَلِذَٰلِكَ كَانَ فِي ٱنْفِصَالِهِ أَلَم يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ ٱلْقَطْعِ وَتُدَاوِي مَعَ ذَٰلِكَ مَا يَلْحَقُ ٱلْفَرْجَ مِنْ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ ٱلتَّمْزِيق عِنْدَ ٱلضَّغْطِ فِي ٱلْخُرُوجِ وَهَٰذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَجِدُ هَٰؤُلاءِ ٱلْقَوَابِلَ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا وَكَذَٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لِلْمَوْلُودِ مُدَّةَ ٱلرَّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ ٱلْفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبْصَرَ بِهَا مِنَ ٱلطَّبِيبِ ٱلْمَاهِرِ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ ٱلْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ ٱلْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنٌ إِنْسَانِيٌّ بِٱلْقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَاوَزَ ٱلْفِصَالَ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِٱلْفِعْلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلطَّبِيب أَشَدَّ فَهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ لِلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ لا يَتِمُّ كَوْن أَشْخَاصِهِ فِي ٱلْغَالِبِ دُونَهَا وَقَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ ٱلنَّوْعِ ٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنْ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِمَّا بِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ لَهُمْ مُعْجِزَةً وَخَرْقًا لِلْعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ ٱلْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِإِلْهَامٍ وَهِدَايَةٍ يُلْهَمُ لَهَا ٱلْمَوْلُودُ وَيُفْطَرُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وُجُودُهُم مِنْ دُونِ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَأَمَّا شَأْنُ ٱلْمُعْجِزَةِ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا وَمِنْهُ مَا رُوِيَ أَنَّ

النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ مَسْرُوراً مَخْتُوناً وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ شَاخِصاً بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ شَأْنُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلْهَامِ فَلَا يُنْكَرُ وَإِذَا كَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ الْإِلْهَامَاتِ كَالنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِالْإِنْسَانِ الْمُفَضَّلِ عَلَيْهَا وَخُصُوصاً بِمَنِ اخْتُصَّ بِكَرَامَةِ اللهِ. ثُمَّ الْإِلْهَامُ الْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الثَّدْيِ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الْإِلْهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا احْتَجُّوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِرَاضِ الْأَنْوَاعِ وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمُكَوَّنَاتِ وَخُصُوصاً فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا لَوِ انْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَاسْتَحَالَ وُجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَّرْنَا مَوْلُوداً دُونَ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَكَفَالَتِهَا إِلَى حِينِ الْفِصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلاً وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهَا ثَمَرَتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدِهِ ثَانِياً لِاقْتِضَاءَاتٍ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ فِي الْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمِزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَاناً ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلْهَامٌ لِتَرْبِيَتِهِ وَالْحُنُوِّ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وُجُودُهُ وَفِصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي سَمَّاهَا رِسَالَةَ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ لَكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ الْأَفْعَالِ إِلَى الْعِلَّةِ الْمُوجِبَةِ وَدَلِيلُ الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْقُدْرَةِ الْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّكَلُّفِ. ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدَلاً فَغَايَةُ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ اطِّرَادُ وُجُودِ هَذَا الشَّخْصِ بِخَلْقِ الْإِلْهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ وَمَا الضَّرُورَةُ الدَّاعِيَةُ لِذَلِكَ وَإِذَا كَانَ الْإِلْهَامُ يُخْلَقُ فِي الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلاً وَخَلْقُ الْإِلْهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكِلَا الْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبُطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا لِمَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ لِمَا عُرِفَ مِنْ فَائِدَتِهَا فَإِنَّ ثَمَرَتَهَا حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْأَصِحَّاءِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنِ ٱلْمَرْضَى بِٱلْمُدَاوَاةِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمُ ٱلْبُرْءُ مِنْ أَمْرَاضِهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ كُلِّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْجَامِعِ لِلطِّبِّ وَهُوَ قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ وَٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرَدَةُ فَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ فَٱلْحِمْيَةُ ٱلْجُوعُ وَهُوَ ٱلِٱحْتِمَاءُ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْجُوعَ هُوَ ٱلدَّوَاءُ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرَدَةُ فَمَعْنَى ٱلْبَرَدَةِ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ عَلَى ٱلطَّعَامِ فِي ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ ٱلْأَوَّلِ وَشَرْحُ هٰذَا أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِٱلْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِٱلْأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ ٱلْقُوَى ٱلْهَاضِمَةَ وَٱلْغَاذِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَماً مُلَائِماً لِأَجْزَاءِ ٱلْبَدَنِ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْعَظْمِ ثُمَّ تَأْخُذُهُ ٱلنَّامِيَةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْماً وَعَظْماً وَمَعْنَى ٱلْهَضْمِ طَبْخُ ٱلْغِذَاءِ بِٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ طَوْراً بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءاً بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْبَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ ٱلْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي ٱلْفَمِ وَلَاكَتْهُ ٱلْأَشْدَاقُ أَثَّرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ ٱلْفَمِ طَبْخاً يَسِيراً وَقَلَبَتْ مِزَاجَهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَمَا تَرَاهُ فِي ٱللُّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَاماً ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغاً فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ ٱلطَّعَامِ ثُمَّ يَحْصُلُ فِي ٱلْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ ٱلْمَعِدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوساً وَهُوَ صَفْوُ ذٰلِكَ ٱلْمَطْبُوخِ وَتُرْسِلُهُ إِلَى ٱلْكَبِدِ وَتُرْسِلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي ٱلْمِعَى ثُفْلاً يَنْفُذُ إِلَى ٱلْمَخْرَجَيْنِ ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ ذٰلِكَ ٱلْكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ عَبِيطاً وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ ٱلطَّبْخِ هِيَ ٱلصَّفْرَاءُ وَتَرْسُبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ ٱلسَّوْدَاءُ وَيَقْصُرُ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنْ طَبْخِ ٱلْغَلِيظِ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْبَلْغَمُ ثُمَّ تُرْسِلُهَا ٱلْكَبِدُ كُلَّهَا فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْجَدَاوِلِ وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ ٱلدَّمِ ٱلْخَالِصِ بُخَارٌ حَارٌّ رَطْبٌ يُمِدُّ ٱلرُّوحَ ٱلْحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ ٱلنَّامِيَةُ مَأْخَذَهَا فِي ٱلدَّمِ فَيَكُونُ لَحْماً ثُمَّ غَلِيظُهُ عِظَاماً ثُمَّ يُرْسِلُ ٱلْبَدَنُ مَا يَفْضُلُ عَنْ حَاجَاتِهِ مِنْ ذٰلِكَ فَضَلَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱللُّعَابِ وَٱلْمُخَاطِ وَٱلدَّمْعِ هٰذِهِ صُورَةُ ٱلْغِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ لَحْماً ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ

ٱلْحُمّيَاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ ٱلْحَارَّ ٱلْغَرِيزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ ٱلنُّضْجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْر مِنْ هٰذِهِ فَيَبْقَى ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ دُونَ نُضْجٍ وَسَبَبُهُ غَالِباً كَثْرَةُ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلْمَعِدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ أَوْ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ إِلَى ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْخَ ٱلْأَوَّلِ فَيَشْتَغِلُ بِهِ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ وَيَتْرُكُ ٱلْأَوَّلَ بِحَالِهِ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ تَمَامِ ٱلطَّبْخِ وَٱلنُّضْجِ وَتُرْسِلُهُ ٱلْمَعِدَةُ كَذٰلِكَ إِلَى ٱلْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ أَيْضاً عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي ٱلْكَبِدِ مِنَ ٱلْغِذَاءِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسِلُ ٱلْكَبِدُ جَمِيعَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْعُرُوقِ غَيْرَ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ ٱلْبَدَنُ حَاجَتَهُ ٱلْمُلَائِمَةَ أَرْسَلَهُ مَعَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلْأُخْرَى مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱلدَّمْعِ وَٱللُّعَابِ إِنِ ٱقْتَدَرَ عَلَى ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْكَبِدِ وَٱلْمَعِدَةِ وَتَتَزَايَدُ مَعَ ٱلْأَيَّامِ وَكُلُّ ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ ٱلْمُمْتَزِجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ ٱلطَّبْخُ وَٱلنُّضْجُ يَعْفَنُ فَيَتَعَفَّنُ ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ غَيْرُ ٱلنَّاضِجِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْخِلْطِ وَكُلُّ مُتَعَفِّنٍ فَفِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ فِي بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْحُمَّى وَٱخْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلطَّعَامِ إِذَا تُرِكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي ٱلزِّبْلِ إِذَا تَعَفَّنَ أَيْضاً كَيْفَ تَنْبَعِثُ فِيهِ ٱلْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَأْخَذَهَا فَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحُمّيَاتِ فِي ٱلْأَبْدَانِ وَهِيَ رَأْسُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَهٰذِهِ ٱلْحُمّيَاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ ٱلْغِذَاءِ عَنِ ٱلْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةً ثُمَّ يَتَنَاوَلُ ٱلْأَغْذِيَةَ ٱلْمُلَائِمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بُرْؤُهُ وَذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي ٱلتَّحَفُّظِ مِنْ هٰذَا ٱلْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ ٱلْعَفَنُ فِي عُضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي ٱلْبَدَنِ إِمَّا فِي ٱلْأَعْضَاءِ ٱلرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرَضُ ٱلْعُضْوُ وَيَحْدُثُ عَنْهُ مَرَضُ ٱلْقُوَى ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ هٰذِهِ كُلُّهَا جِمَاعُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى ٱلطَّبِيبِ وَوُقُوعُ هٰذِهِ ٱلْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱلْأَمْصَارِ أَكْثَرُ لِخِصْبِ عَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَآكِلِهِمْ وَقِلَّةِ ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَعَدَمِ تَوْقِيتِهِمْ لِتَنَاوُلِهَا وَكَثِيراً مَا يَخْلِطُونَ بِٱلْأَغْذِيَةِ مِنَ ٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْفَوَاكِهِ رَطْباً وَيَابِساً فِي سَبِيلِ ٱلْعِلَاجِ بِٱلطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ فَرُبَّمَا عَدَدْنَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ ٱلطَّبْخِ أَرْبَعِينَ نَوْعاً مِنَ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ لِلْغِذَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيباً عَنْ مُلَاءَمَةِ ٱلْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْأَهْوِيَةَ فِي ٱلْأَمْصَارِ

تفسُدُ بمُخالَطَةِ الأَبخِرة العَفِنَة مِن كَثرَةِ الفضَلات والأَهوِيَةِ مُنشِّطَةٌ للأرواحِ ومُقَوِّيَةٌ بنَشاطِها الأَثَرَ الحارَّ الغريزيَّ في الهَضمِ ثمَّ الرِّياضَةُ مفقودةٌ لأَهلِ الأَمصارِ إذ هُم في الغالِبِ وادِعونَ ساكِنونَ لا تأخُذُ منهُمُ الرِّياضَةُ شيئاً ولا تؤثِّرُ فيهِم أثراً فكانَ وُقوعُ الأمراضِ كثيراً في المُدنِ والأَمصارِ وعلى قَدرِ وُقوعِهِ كانَت حاجتُهُم إلى هذهِ الصِّناعَةِ وأمّا أهلُ البَدوِ فمأكولُهُم قليلٌ في الغالِبِ والجوعُ أغلَبُ عليهِم لقِلَّةِ الحُبوبِ حتّى صارَ لَهُم ذلكَ عادَةً وربَّما يُظَنُّ أنَّها جِبِلَّةٌ لاستِمرارِها ثمَّ الأُدُمُ قليلَةٌ لدَيهِم أو مفقودَةٌ بالجُملَةِ وعِلاجُ الطَّبخِ بالتَّوابِلِ والفواكِهِ إنَّما يدعو إلى تَرَفِ الحضارَةِ الَّذين هُم بمَعزِلٍ عنهُ فيتناوَلونَ أغذيَتَهُم بَسيطَةً بَعيدَةً عمّا يُخالِطُها ويُقرِّبُ مِزاجَها من مُلاءَمَةِ البدَنِ وأمّا أهويَتُهُم فقليلَةُ العَفَنِ لقِلَّةِ الرُّطوباتِ والعُفوناتِ إن كانوا ظَواعِنَ ثمَّ إنَّ الرِّياضَةَ موجودَةٌ فيهِم لكَثرَةِ الحرَكَةِ في رَكضِ الخيلِ أوِ الصَّيدِ أو طَلَبِ الحاجاتِ لمِهنَةِ أنفُسِهِم في حاجاتِهِم فيَحسُنُ بذلكَ كلِّهِ الهَضمُ ويَجودُ ويُفقَدُ إدخالُ الطَّعامِ على الطَّعامِ فتكونُ أمزِجَتُهُم أصلَحَ وأبعَدَ مِنَ الأمراضِ فتَقِلُّ حاجتُهُم إلى الطِّبِّ ولهذا لا يوجَدُ الطَّبيبُ في البادِيَةِ بوَجهٍ وما ذاكَ إلّا للاستِغناءِ عنهُ إذ لو احتيجَ إليهِ لوُجِدَ لأنَّهُ يكونُ لهُ بذلكَ في البَدوِ مَعاشٌ يدعوهُ إلى سُكناهُ سُنَّةَ اللهِ في عِبادِهِ ولَن تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلاً

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهوَ رُسومٌ وأشكالٌ حَرفِيَّةٌ تدُلُّ على الكَلِماتِ المسموعَةِ الدّالَّةِ على ما في النَّفسِ فهوَ ثاني رُتبَةٍ مِنَ الدِّلالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وهوَ صِناعَةٌ شريفَةٌ إذِ الكِتابَةُ من خَواصِّ الإنسانِ الَّتي يُمَيَّزُ بها عنِ الحيَوانِ وأيضاً فهيَ تُطلِعُ على ما في الضَّمائرِ وتتأدّى بها الأغراضُ إلى البلادِ البَعيدَةِ فتُقضى الحاجاتُ وقد دُفِعَت مؤونَةُ المُباشَرَةِ لها ويُطَّلَعُ بها على العُلومِ والمَعارِفِ وصُحُفِ الأوَّلينَ وما كتَبوهُ مِن عُلومِهِم وأخبارِهِم فهيَ شريفَةٌ بهذهِ الوُجوهِ والمنافِعِ وخروجُها في الإنسانِ مِنَ القوَّةِ إلى الفِعلِ إنَّما يكونُ بالتَّعليمِ وعلى قَدرِ الاجتِماعِ والعُمرانِ والتَّناغي في الكَمالاتِ والطَّلَبِ لذلكَ تكونُ جودَةُ الخَطِّ في المدينَةِ إذ هوَ مِن جُملَةِ الصَّنائعِ وقد قدَّمنا أنَّ هذا شأنُها وأنَّها تابعَةٌ للعُمرانِ ولهذا

نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون
خطه قاصراً أو قراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن
الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر
لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً
في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم
والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وإنما أتى هذا من كمال الصنائع
ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغ
من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو
المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر
نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم
من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها
من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر
ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية
وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها
من إياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياد وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة
والخط من الصنائع الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم
من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها
من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال وكان لحمير كتابة
تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلمت
مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو
فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو
والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو
قريباً من كتابتهم لهذا العهد أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء

أقرَبُ إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول وأمّا مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخطّ العربي لأوّل الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسّط لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخطّ عند أهلها ثمّ اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً بما رسمه أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم وخير الخلق من بعده المتلقّون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خطّ وليّ أو عالم تبرّكاً ويتبع رسمه خطأً أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتّبع ذلك وأثبت رسماً ونبّه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتنّ في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفّلين من أنّهم كانوا محكمين لصناعة الخطّ وأنّ ما يتخيّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيّل بل لكلّها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنّه إنّه تنبيه على أنّ الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد إنّه تنبيه على كمال القدرة الربّانيّة وأمثال ذلك ممّا لا أصل له إلّا التحكّم المحض وما حملهم على ذلك إلّا اعتقادهم أنّ في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهّم النقص في قلّة إجادة الخطّ وحسبوا أنّ الخطّ كمال فنزّهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح واعلم أنّ الخطّ ليس بكمال في حقّهم إذ الخطّ من جملة الصنائع المدنيّة المعاشيّة كما رأيته فيما مرّ والكمال في الصنائع إضافيّ بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنّما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس. وقد كان صلّى الله عليه وسلّم أمّيّاً وكان ذلك كمالاً في حقّه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزّهه عن الصنائع العمليّة التي هي أسباب المعاش والعمران كلّها وليست الأمّيّة كمالاً في حقّنا نحن إذ هو منقطع إلى ربّه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلّها حتّى العلوم الاصطلاحيّة فإنّ الكمال في حقّه هو تنزّهه عنها جملة بخلافنا ثمّ لمّا جاء الملك للعرب وفتحوا

ٱلْأَمْصَارَ وَمَلَكُوا ٱلْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا ٱلْبَصْرَةَ وَٱلْكُوفَةَ وَٱحْتَاجَتِ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ
ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلُّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ وَٱسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ
فِي ٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ ٱلْإِتْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ ٱلْغَايَةِ وَٱلْخَطُّ ٱلْكُوفِيُّ
مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ثُمَّ ٱنْتَشَرَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَمَالِكِ وَٱفْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ
وَٱلْأَنْدَلُسَ وَٱخْتَطَّ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتِ ٱلْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ لَمَّا ٱسْتَبْحَرَتْ فِي
ٱلْعُمْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ ٱلْخَطُّ ٱلْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوفَ
ٱلرَّسْمِ وَتَبِعَهُ ٱلْأَفْرِيقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ ٱلْقَدِيمُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ
ٱلْمَشْرِقِيِّ وَتَحَيَّزَ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْأُمَوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلصَّنَائِعِ
وَٱلْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خَطِّهِمِ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَطَمَا بَحْرُ
ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْحَضَارَةِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَعَظُمَ ٱلْمُلْكُ وَنَفَقَتْ أَسْوَاقُ
ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَسَخَتِ ٱلْكُتُبُ وَأُجِيدَ كَتْبُهَا وَتَجْلِيدُهَا وَمُلِئَتْ بِهَا ٱلْقُصُورُ وَٱلْخَزَائِنُ
ٱلْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ ٱلْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَاغَوْا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْحَلَّ نِظَامُ
ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ ٱلْخِلَافَةِ
فَٱنْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابَةِ بَلْ وَٱلْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهُ بِهَا
نَافِقَةً لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعَلِّمُونَ يَرْسُمُونَ لِتَعْلِيمِ ٱلْحُرُوفِ بِقَوَانِينَ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا
مُتَعَارَفَةٍ بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ ٱلْمُتَعَلِّمُ أَنْ يُحْكِمَ أَشْكَالَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَوْضَاعِ
وَقَدْ لَقِنَهَا حَسَنًا وَحَذَقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينَ عِلْمِيَّةً فَتَجِيءُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ
وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَٱفْتَرَقُوا فِي ٱلْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاشِي مُلْكِ ٱلْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِنَ
ٱلْبَرْبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ فَٱنْتَشَرُوا فِي عُدْوَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ لَدُنِ
ٱلدَّوْلَةِ ٱللَّمْتُونِيَّةِ إِلَى هَذَا ٱلْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ ٱلْعُمْرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا
بِأَذْيَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خَطُّهُمْ عَلَى ٱلْخَطِّ ٱلْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنُسِيَ خَطُّ ٱلْقَيْرَوَانِ
وَٱلْمَهْدِيَّةِ بِنِسْيَانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ كُلُّهَا عَلَى ٱلرَّسْمِ
ٱلْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوَفُّرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ ٱلْجَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ
وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمٌ بِبِلَادِ ٱلْجَرِيدِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُخَالِطُوا كُتَّابَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِجِوَارِهِمْ
إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ ٱلْمُلْكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوطِ

أهل الأندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فارس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأنه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة

الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالإمحاء وهي الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد

أَنَّ صِناعَةَ الرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ الدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَغِيهِ لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ فِي الْاِنْتِسَاخِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا النَّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا فَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَشَدَّ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوَقَّعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعاً عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً ثُمَّ تُؤَلَّفُ تِلْكَ النَّغَمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارَفَةٍ فَيَلَذُّ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ التَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمُوسِيقَى أَنَّ الْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفَ صَوْتٍ وَرُبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءاً مِنْ أَحَدَ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَاخْتِلَافُ هٰذِهِ النِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِخُرُوجِهَا مِنَ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْذُوذاً عِنْدَ السَّمَاعِ بَلْ لِلْمَلْذُوذِ تَرَاكِيبُ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ الْمُوسِيقَى وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاوِقُ ذٰلِكَ التَّلْحِينَ فِي النَّغَمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقَرْعِ أَوْ بِالنَّفْخِ فِي الْآلَاتِ تُتَّخَذُ لِذٰلِكَ فَتَرَى لَهَا لَذَّةً عِنْدَ السَّمَاعِ فَمِنْهَا لِهٰذَا الْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ الشَّبَّابَةَ وَهِيَ قَصَبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَيُقَطَّعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ جَمِيعاً عَلَى تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَضْعاً مُتَعَارَفاً حَتَّى تَحْدُثَ النِّسَبُ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلَ كَذٰلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَذُّ السَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هٰذِهِ الْآلَةِ الْمِزْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزُّلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ الْقَصَبَةِ مَنْحُوتَةَ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ جَوْفَاءُ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذٰلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفُذُ النَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يُجْرَى فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ بِالْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرِي فِي الشَّبَّابَةِ وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ الزَّمْرِ لِهٰذَا الْعَهْدِ الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نُحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

اَلذِّرَاعِ يَتَّسِعُ إلى أَنْ يَـكُونَ اَنْفِرَاجُ مَخْرَجِهِ في مِقْدَارِ دُونَ اَلْـكَفِّ في شَـكْلِ بَرْيِ اَلْقَلَمِ وَيُنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي اَلرِّيحَ مِنَ اَلْفَمِ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ اَلصَّوْتُ تَحِيناً دَوِيّاً وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيْضاً مَعْدُودَةٌ وَتُقَطَّعُ نَغْمَةٌ مِنْهَا كَذَلِكَ بِالْأَصَابِعِ عَلى اَلتَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْذُوذاً وَمِنْهَا اَلَآتُ اَلْأَوْتَارِ وَهِيَ جَوْفَاءُ كُلُّهَا إِمَّا عَلى شَـكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ اَلْـكُرَةِ مِثْلِ اَلْبِرْبَطِ وَاَلرَّبَابِ أَوْ عَلى شَـكْلٍ مُرَبَّعٍ كَالْقَانُونِ تُوضَعُ اَلْأَوْتَارُ عَلى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةً فِي رَأْسِهَا إِلى دُسُرٍ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ شَدُّ اَلْأَوْتَارِ وَرَخْوُهَا عِنْدَ اَلْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا ثُمَّ تُقْرَعُ اَلْأَوْتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَـا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِالشَّمْعِ وَاَلْـكُنْدُرِ وَيُقَطَّعُ اَلصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ اَلْيَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ نَقْلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلى وَتَرٍ وَاَلْيَدُ اَلْيُسْرَى مَعَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ آلَاتِ اَلْأَوْتَارِ تُوَقِّعُ بِأَصَابِعِهَا عَلى أَطْرَافِ اَلْأَوْتَارِ فِيمَا يُقْرَعُ أَوْ يُحَـكُّ بِالْوَتَرِ فَتَحْدُثُ اَلْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْذُوذَةً وَقَدْ يَـكُونُ اَلْقَرْعُ فِي اَلطُّسُوتِ بِالْقُضْبَانِ أَوْ فِي اَلْأَعْوَادِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ عَلى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ يَحْدُثُ عَنْهُ اَلْتِذَاذٌ بِالْمَسْمُوعِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ اَلسَّبَبَ فِي اَللَّذَّةِ اَلنَّاشِئَةِ عَنِ اَلْغِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ اَللَّذَّةَ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ اَلْمُلَائِمِ وَاَلْمَحْسُوسُ إِنَّمَا تُدْرَكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ فَإِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمُلَائِمَةً كَانَتْ مَلْذُوذَةً وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً كَانَتْ مُؤْلِمَةً فَالْمُلَائِمُ مِنَ اَلطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتُهُ حَاسَّةَ اَلذَّوْقِ فِي مِزَاجِهَا وَكَذَا اَلْمُلَائِمُ مِنَ اَلْمَلْمُوسَاتِ وَفِي اَلرَّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ اَلرُّوحِ اَلْقَلْبِيِّ اَلْبُخَارِيِّ لِأَنَّهُ اَلْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ اَلْحَاسَّةُ وَلِهَـذَا كَانَتِ اَلرَّيَاحِينُ وَاَلْأَزْهَارُ اَلْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ رَائِحَةً وَأَشَدَّ مُلَاءَمَةً لِلرُّوحِ لِغَلَبَةِ اَلْحَرَارَةِ فِيهَا اَلَّتِي هِيَ مِزَاجُ اَلرُّوحِ اَلْقَلْبِيِّ وَأَمَّا اَلْمَرْئِيَّاتُ وَاَلْمَسْمُوعَاتُ فَالْمُلَائِمُ فِيهَا تَنَاسُبُ اَلْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهُوَ أَنْسَبُ عِنْدَ اَلنَّفْسِ وَأَشَدُّ مُلَاءَمَةً لَهَا فَإِذَا كَانَ اَلْمَرْئِيُّ مُتَنَاسِباً فِي أَشْكَالِهِ وَتَخَاطِيطِهِ اَلَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ اَلْخَاصَّةُ مِنْ كَمَالِ اَلْمُنَاسَبَةِ وَاَلْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى اَلْجَمَالِ وَاَلْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرَكٍ كَانَ ذَلِكَ حِينَئِذٍ مُنَاسِباً لِلنَّفْسِ اَلْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَذُّ بِإِدْرَاكِ مُلَائِمِهَا وَلِهَـذَا تَجِدُ اَلْعَاشِقِينَ اَلْمُسْتَهْتَرِينَ فِي اَلْمَحَبَّةِ يُعَبِّرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعِشْقِهِمْ بِامْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ بِرُوحِ اَلْمَحْبُوبِ وَفِي هَذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ اِتِّحَادُ اَلْمَبْدَإِ وَإِنْ كَانَ مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ

رأيت بينك وبينه اتحاداً في البداءة يشهد لك به اتحاد كما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن يمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدإ والكون ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني كان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولاً أن لا يخرج من الصوت إلى مده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه وثانياً تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل متناسباً على ما حصره أهل الصناعة فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمي العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا

منْ حَيثُ ٱتِّبَاعُ ٱلحَرَكَاتِ فِي مَوضعِها وَمِقْدارِ ٱلمَدِّ عِندَ مَنْ يُطْلِقُهُ أوْ يُقصِرُهُ وَأَمثال ذٰلِكَ وَٱلتَّلحِينُ أيضاً يَتعَيَّنُ لَهُ مِقْدارٌ مِنَ ٱلصَّوتِ لا يَتِمُّ إلّا بِهِ مِنْ أجْلِ ٱلتَّناسُبِ ٱلَّذِي قلناهُ في حَقيقَةِ ٱلتَّلحِينِ وَٱعتِبارُ أحدِهِما قَدْ يُخِلُّ بِالآخَرِ إذا تَعارَضا وَتَقدِيمُ ٱلرِّوايَةِ مُتعَيِّن مِنْ تَغيِيرِ ٱلرِّوايَةِ ٱلمَنقولَةِ في ٱلقُرْآنِ فَلا يُمكِنُ ٱجتِماعُ ٱلتَّلحِينِ وَٱلأداءِ ٱلمُعتَبَرِ في ٱلقُرْآنِ بِوَجهٍ وَإنَّما مُرادُهُمُ ٱلتَّلحِينُ ٱلبَسِيطُ ٱلَّذِي يَهْتَدِي إلَيهِ صَاحِبُ ٱلمِضْمارِ بِطَبْعِهِ كَما قَدَّمناهُ فَيُرَدِّدُ أصواتَهُ تَرْدِيداً عَلى نِسَبٍ يُدرِكُها ٱلعالِمُ بِالغِناءِ وَغَيرُهُ وَلا يَنبَغِي ذٰلِكَ بِوَجهٍ كَما قالَهُ مالِكٌ هٰذا هُوَ مَحَلُّ ٱلخِلافِ وَٱلظّاهِرُ تَنزِيهُ ٱلقُرْآنِ عَنْ هٰذا كُلِّهِ كَما ذَهَبَ إلَيهِ ٱلإمامُ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعالَى لِأنَّ ٱلقُرْآنَ مَحَلُّ خُشوعٍ بِذِكْرِ ٱلمَوتِ وَما بَعدَهُ وَلَيسَ مَقامَ ٱلتِّلذاذِ بِإدراكِ ٱلحَسَنِ مِنَ ٱلأصواتِ وَهٰكَذا كانَتْ قِراءَةُ ٱلصَّحابَةِ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُمْ كَما في أخبارِهِمْ وَأمّا قَولُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أُوتِيَ مِزْماراً مِنْ مَزامِيرِ آلِ داوُدَ فَلَيسَ ٱلمُرادُ بِهِ ٱلتَّرْدِيدَ وَٱلتَّلحِينَ إنَّما مَعناهُ حُسْنُ ٱلصَّوتِ وَأداءُ ٱلقِراءَةِ وَٱلإبانَةُ في مَخارِجِ ٱلحُروفِ وَٱلنُّطقُ بِها وَإذْ قَدْ ذَكَرْنا مَعنَى ٱلغِناءِ فَٱعلَمْ أنَّهُ يَحدُثُ في ٱلعُمْرانِ إذا تَوَفَّرَ وَتَجاوَزَ حَدَّ ٱلضَّرُورِيِّ إلى ٱلحاجِيِّ ثُمَّ إلى ٱلكَمالِيِّ وَتَفَنَّنُوا فَتَحدُثُ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةُ لِأنَّهُ لا يَستَدعِيها إلّا مَنْ فَرَغَ مِنْ جَمِيعِ حاجاتِهِ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلمُهِمَّةِ مِنَ ٱلمَعاشِ وَٱلمَنزِلِ وَغَيرِهِ فَلا يَطلُبُها إلّا ٱلفارِغُونَ عَنْ سائِرِ أحوالِهِم تَفَنُّناً في مَذاهِبِ ٱلمَلذُوذاتِ وَكانَ في سُلطانِ ٱلعَجَمِ قَبلَ ٱلمِلَّةِ مِنها بَحرٌ زاخِرٌ في أمصارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكانَ مُلوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذٰلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كانَ لِمُلوكِ ٱلفُرسِ ٱهتِمامٌ بِأهلِ هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ وَلَهُمْ مَكانٌ في دَولَتِهِمْ وَكانُوا يَحضُرُونَ مَشاهِدَهُم وَمَجامِعَهُمْ وَيُغَنُّونَ فِيها وَهٰذا شَأنُ ٱلعَجَمِ لِهٰذا ٱلعَهدِ في كُلِّ أُفُقٍ مِنْ آفاقِهِمْ وَمَملَكَةٍ مِنْ مَمالِكِهِمْ وَأمّا ٱلعَرَبُ فَكانَ لَهُمْ أوَّلاً فَنُّ ٱلشِّعرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ ٱلكَلامَ أجزاءً مُتَساوِيَةً عَلى تَناسُبٍ بَينَها في عِدَّةِ حُرُوفِها ٱلمُتَحَرِّكَةِ وَٱلسّاكِنَةِ وَيُفَصِّلُونَ ٱلكَلامَ في تِلكَ ٱلأجزاءِ تَفصِيلاً يَكُونُ كُلُّ جُزءٍ مِنها مُستَقِلّاً بِالإفادَةِ لا يَنعَطِفُ عَلى ٱلآخَرِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلبَيتَ فَتُلائِمُ ٱلطَّبعَ بِالتَّجزِئَةِ أوَّلاً ثُمَّ بِتَناسُبِ ٱلأجزاءِ في ٱلمَقاطِعِ وَٱلمَبادِئِ ثُمَّ بِتَأدِيَةِ ٱلمَعنَى ٱلمَقصُودِ وَتَطبِيقِ ٱلكَلامِ عَلَيها فَلَهِجُوا بِهِ فَٱمتازَ مِنْ بَينِ كَلامِهِم بِحَظٍّ مِنَ ٱلشَّرَفِ لَيسَ لِغَيرِهِ لِأجلِ ٱختِصاصِهِ بِهٰذا ٱلتَّناسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيواناً لِأخبارِهِم

وَحِكَمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحَكّاً لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِيبِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمُوسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَنْتَحِلُوا عِلْماً وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ نِحَلِهِمْ ثُمَّ تَغَنَّى الْحُدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبِلِهِمْ وَالْفِتْيَانُ فِي فَضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَّعُوا الْأَصْوَاتَ وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِالشِّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ الْقِرَاءَةِ تَغْبِيراً بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْغَابِرِ وَهُوَ الْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النَّغَمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السِّنَادَ وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقَصُ عَلَيْهِ وَيُمْشَى بِالدُّفِّ وَالْمِزْمَارِ فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ الْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْهَزَجَ وَهَذَا الْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَفَطَّنَ لَهُ الطِّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَأْنَ الْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ الْعَرَبِ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجَمِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي عَرَفْتَ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئاً مَا وَلَمْ يَكُنِ الْمَلْذُوذُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعَ الْقِرَاءَةِ وَالتَّرَنُّمَ بِالشِّعْرِ الَّذِي هُوَ دَيْدَنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الرَّفَهُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأُمَمِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتِحْلَاءِ الْفَرَاغِ وَافْتَرَقَ الْمُغَنُّونَ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِيَ لِلْعَرَبِ وَغَنَّوْا جَمِيعاً بِالْعِيدَانِ وَالطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمَزَامِيرِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ فَلَحَّنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ نَشِيطٌ الْفَارِسِيُّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحَّنُوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ مَعْبَدٌ وَطَبَقَتُهُ وَابْنُ شُرَيْحٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ أَيَّامَ بَنِي الْعَبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ وَابْنِهِ إِسْحَاقَ وَابْنِهِ حَمَّادٍ وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِبَغْدَادَ مَا تَبِعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمْعَنُوا فِي اللَّهْوِ

وَٱللعبِ وَٱتُّخِذَتْ آلاتُ ٱلرَّقصِ فِي ٱلمَلْبسِ وَٱلقُضْبانُ وَٱلأَشْعارُ ٱلَّتِي يُتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ وَجُعِلَ صِنفاً وَحْدَهُ وَٱتُّخِذَتْ آلاتٌ أُخرى لِلرَّقصِ تُسَمَّى بِٱلكُرَجِ وَهِيَ تَمَاثِيلُ خَيْلٍ مُسْرَجَةٍ مِنَ ٱلخَشَبِ مُعلَّقَةٌ بِأَطْرافِ أَقْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا ٱلنِّسْوانُ وَيُحاكِينَ بِهَا ٱمْتِطاءَ ٱلخَيْلِ فَيَكِرُّونَ وَيَفِرُّونَ وَيُثاقِفُونَ وَأَمْثالُ ذٰلِكَ مِنَ ٱللَّعِبِ ٱلمُعَدِّ لِلْوَلائِمِ وَٱلأَعْراسِ وَأَيَّامِ ٱلأَعْيادِ وَمَجالِسِ ٱلفَراغِ وَٱللَّهْوِ وَكَثُرَ ذٰلِكَ بِبَغْدادَ وَأَمْصارِ ٱلعِراقِ وَٱنْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا وَكانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غُلامٌ ٱسْمُهُ زِرْيابُ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلغِناءَ فَأَجادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى ٱلمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِٱلحَكَمِ بْنِ هِشامِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ أَمِيرِ ٱلأَنْدَلُسِ فَبالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلِقائِهِ وَأَسْنَى لَهُ ٱلجَوائِزَ وَٱلإِقْطاعاتِ وَٱلجِراياتِ وَأَحَلَّهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدَمائِهِ بِمَكانٍ فَأَوْرَثَ بِٱلأَنْدَلُسِ مِنْ صِناعَةِ ٱلغِناءِ مَا تَناقَلُوهُ إِلَى أَزْمانِ ٱلطَّوائِفِ وَطَمَا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَةَ بَحْرٌ زاخِرٌ وَتَناقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهابِ غَضارَتِهَا إِلَى بِلادِ ٱلعُدْوَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلمَغْرِبِ وَٱنْقَسَمَ عَلَى أَمْصارِهَا وَبِهَا ٱلآنَ مِنْهَا صُبابَةٌ عَلَى تَراجُعِ عُمْرانِهَا وَتَناقُصِ دُوَلِهَا وَهٰذِهِ ٱلصِّناعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلعُمْرانِ مِنَ ٱلصَّنائِعِ لِأَنَّهَا كَمالِيَّةٌ فِي غَيْرِ وَظِيفَةٍ مِنَ ٱلوَظائِفِ إِلَّا وَظِيفَةَ ٱلفَراغِ وَٱلفَرَحِ وَهُوَ أَيْضاً أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ ٱلعُمْرانِ عِنْدَ ٱخْتِلالِهِ وَتَراجُعِهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلًا وخصوصاً الكتابة والحساب

قَدْ ذَكَرْنَا فِي ٱلكِتابِ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ لِلإِنْسانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِٱلقُوَّةِ وَأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ ٱلقُوَّةِ إِلَى ٱلفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ ٱلعُلُومِ وَٱلإِدْراكاتِ عَنِ ٱلمَحْسُوساتِ أَوَّلاً ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِٱلقُوَّةِ ٱلنَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْراكاً بِٱلفِعْلِ وَعَقْلاً مَحْضاً فَتَكُونُ ذاتاً رُوحانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودُهَا فَوَجَبَ لِذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلعِلْمِ وَٱلنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلاً فَرِيداً وَٱلصَّنائِعُ أَبَداً يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفادٌ مِنْ تِلْكَ ٱلمَلَكَةِ فَلِهٰذَا كانَتِ ٱلحُنْكَةُ فِي ٱلتَّجْرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلاً وَٱلحَضارَةُ ٱلكامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلاً لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنائِعَ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ ٱلمَنْزِلِ وَمُعاشَرَةِ أَبْناءِ ٱلجِنْسِ وَتَحْصِيلِ ٱلآدابِ فِي مُخالَطَتِهِمْ ثُمَّ ٱلقِيامِ بِأُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱعْتِبارِ آدابِهَا وَشَرائِطِهَا وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَوانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُوماً فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيادَةُ عَقْلٍ وَٱلكِتابَةُ مِنْ بَيْنِ ٱلصَّنائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذٰلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَنْظَارِ بِخِلَافِ ٱلصَّنَائِعِ وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ ٱنْتِقَالاً مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْخَطِّيَّةِ إِلَى ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ وَمِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ دَائِماً فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ ٱلِٱنْتِقَالِ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ إِلَى ٱلْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلَّذِي يُكْسِبُ ٱلْعُلُومَ ٱلْمَجْهُولَة فَيُكْسِبُ بِذٰلِكَ مَلَكَةً مِنَ ٱلتَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةَ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي ٱلْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلِٱنْتِقَالِ وَلِذٰلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كِتَابِهِ لَمَّا رَآهُمْ بِتِلْكَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلْكَيْسِ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونٌ قَالُوا وَذٰلِكَ أَصْلُ ٱشْتِقَاقِ ٱلدِّيوَانِ لِأَهْلِ ٱلْكِتَابَةِ وَيَلْحَقُ بِذٰلِكَ ٱلْحِسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي ٱلْعَدَدِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّداً لِلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعَقْلِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الباب السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَتْهُ جَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱلْغِذَاءِ وَٱلْكِنِّ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِٱلْفِكْرِ ٱلَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْمُهَيِّءِ لِذٰلِكَ ٱلتَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ عَنِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَٱلْعَمَلِ بِهِ وَٱتِّبَاعِ صَلَاحِ أُخْرَاهُ فَهُوَ مُفَكِّرٌ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ دَائِماً لَا يَفْتُرُ عَنِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلِ ٱخْتِلَاجُ ٱلْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَعَنْ هٰذَا ٱلْفِكْرِ تَنْشَأُ ٱلْعُلُومُ وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هٰذَا ٱلْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ بَلِ ٱلْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ ٱلطِّبَاعُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ رَاغِباً فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عِنْدَهُ مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِدْرَاكٍ أَو أَخَذَهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيُلَقَّنُ ذٰلِكَ عَنْهُمْ وَيَحْرِصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ ثُمَّ إِنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْرِضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذٰلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِلْحَاقُ ٱلْعَوَارِضِ بِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْرِضُ لِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ عِلْماً مَخْصُوصاً وَتَتَشَوَّفُ نُفُوسُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ ٱلنَّاشِيءِ إِلَى تَحْصِيلِ ذٰلِكَ فَيَفْزَعُونَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ ٱلتَّعْلِيمُ مِنْ هٰذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحِذْقَ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّفَنُّنَ فِيهِ وَٱلْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي ٱلْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ وَٱسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ ٱلْحِذْقُ فِي ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ ٱلْمُتَنَاوَلِ حَاصِلًا وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ ٱلْمَسْأَلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشْتَرِكاً بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِىءٌ فِيهِ وَبَيْنَ ٱلْعَامِّيِّ ٱلَّذِي لَمْ يَعْرِفْ عِلْماً وَبَيْنَ ٱلْعَالِمِ ٱلنِّحْرِيرِ وَٱلْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوِ ٱلشَّادِي فِي ٱلْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ غَيْرُ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ وَٱلْمَلَكَاتُ كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي ٱلْبَدَنِ أَوْ فِي ٱلدِّمَاغِ مِنَ ٱلْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَٱلْحِسَابِ وَٱلْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَةٌ فَتَفْتَقِرُ إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلسَّنَدُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ إِلَى مَشَاهِيرِ ٱلْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَراً عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أُفُقٍ وَجِيلٍ وَيَدُلُّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْعِلْمِ صِنَاعَةٌ ٱخْتِلَافُ ٱلْإِصْطِلَاحَاتِ فِيهِ فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَشَاهِيرِ ٱصْطِلَاحٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ ٱلْإِصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَإِلَّا لَكَانَ وَاحِداً عِنْدَ جَمِيعِهِمْ أَلَا تَرَى إِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ ٱصْطِلَاحُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا أُصُولُ ٱلْفِقْهِ وَكَذَا ٱلْعَرَبِيَّةُ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يُتَوَجَّهُ إِلَى مُطَالَعَتِهِ تَجِدُ ٱلْإِصْطِلَاحَاتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلْعِلْمُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ سَنَدَ تَعْلِيمِ ٱلْعِلْمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ

بِٱخْتِلَالِ عُمْرَانِهِ وَتَنَاقُصِ ٱلدُّوَلِ فِيهِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذٰلِكَ مِنْ نَقْصِ ٱلصَّنَائِعِ وَفِقْدَانِهَا
كَمَا مَرَّ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَيْرَوَانَ وَقُرْطُبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَٱسْتَبْحَرَ عُمْرَانُهُمَا
وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ وَرَسَخَ فِيهِمَا ٱلتَّعْلِيمُ لِٱمْتِدَادِ
عُصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ ٱلْحَضَارَةِ فَلَمَّا خَرِبَتَا ٱنْقَطَعَ ٱلتَّعْلِيمُ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا
كَانَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِمَرَّاكُشَ مُسْتَفَاداً مِنْهَا وَلَمْ تَرْسَخِ ٱلْحَضَارَةُ بِمَرَّاكُشَ لِبَدَاوَةِ
ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ ٱنْقِرَاضِهَا بِمَبْدَإِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ ٱلْحَضَارَةِ
فِيهَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَبَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ بِمَرَّاكُشَ ٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ
ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونَ لِعَهْدِ أَوَاسِطِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ فَأَدْرَكَ تِلْمِيذَ ٱلْإِمَامِ ٱبْنِ
ٱلْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلُقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَحَذَقَ فِي ٱلْعَقْلِيَّاتِ وَٱلنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ
بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ حَسَنٍ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنُ شُعَيْبٍ ٱلدَّكَّالِيُّ
كَانَ ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَأَخَذَ عَنْ مَشْيَخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَٱسْتَقَرَّ بِهَا
وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيداً فَأَخَذَ عَنْهُمَا أَهْلُ تُونِسَ وَٱتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جِيلًا
بَعْدَ جِيلٍ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى ٱلْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ شَارِحِ ٱبْنِ ٱلْحَاجِبِ وَتِلْمِيذِهِ
وَٱنْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تِلِمْسَانَ فِي ٱبْنِ ٱلْإِمَامِ وَتِلْمِيذِهِ فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ عَلَى
مَشْيَخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بِأَعْيَانِهَا وَتِلْمِيذُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ بِتُونِسَ وَٱبْنِ ٱلْإِمَامِ بِتِلِمْسَانَ
لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ ٱلْقِلَّةِ بِحَيْثُ يُخْشَى ٱنْقِطَاعُ سَنَدِهِمْ ثُمَّ ٱرْتَحَلَ مِنْ زَوَاوَةَ فِي
آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ ٱلدِّينِ ٱلْمِشَدَّالِيُّ وَأَدْرَكَ تِلْمِيذَ أَبِي عَمْرِو بْنِ
ٱلْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلُقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَقَرَأَ مَعَ شِهَابِ ٱلدِّينِ ٱلْقَرَافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ
وَحَذَقَ فِي ٱلْعَقْلِيَّاتِ وَٱلنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ مُفِيدٍ وَنَزَلَ
بِبِجَايَةَ وَٱتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا وَرُبَّمَا ٱنْتَقَلَ إِلَى تِلِمْسَانَ عِمْرَانُ ٱلْمِشَدَّالِيُّ مِنْ
تِلْمِيذِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا وَتِلْمِيذُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِبِجَايَةَ وَتِلِمْسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقَلُّ
مِنَ ٱلْقَلِيلِ وَبَقِيَتْ فَاسُ وَسَائِرُ أَقْطَارِ ٱلْمَغْرِبِ خِلْواً مِنْ حُسْنِ ٱلتَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ
ٱنْقِرَاضِ تَعْلِيمِ قُرْطُبَةَ وَٱلْقَيْرَوَانِ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ ٱلتَّعْلِيمِ فِيهِمْ فَعَسُرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ ٱلْمَلَكَةِ
وَٱلْحِذْقِ فِي ٱلْعُلُومِ وَأَيْسَرُ طُرُقِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَتْقُ ٱللِّسَانِ بِٱلْمُحَاوَرَةِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ فِي
ٱلْمَسَائِلِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُقَرِّبُ شَأْنَهَا وَيُحَصِّلُ مَرَامَهَا فَتَجِدُ طَالِبَ ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ

ذَهاب ٱلكَثِيرِ مِنْ أَعْمارِهِمْ فِي مُلازَمَةِ ٱلمَجالِسِ العِلْمِيَّةِ سُكُوتًا لاَ يَنْطِقُونَ وَلاَ يفاوِضُونَ وَعِنايَتُهُمْ بِٱلحِفظِ أَكْثَرُ مِنَ ٱلحاجَةِ فَلاَ يَحْصُلُونَ عَلى طائِلٍ مِنْ مَلَكَةِ ٱلتَّصَرُّف فِي ٱلعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ ثُمَّ بَعْدَ تَحْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ حَصَّلَ تَجِدُ مَلَكَتَهُ قاصِرَةً فِي عِلْمِهِ إِنْ فَاوَضَ أَوْ نَاظَرَ أَوْ عَلَّمَ وَمَا أَتاهُمُ ٱلقُصُورُ إِلَّا مِنْ قِبَلِ ٱلتَّعْلِيمِ وَٱنْقِطاعِ سَنَدِهِ وَإِلَّا فَحِفْظُهُمْ أَبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِواهُمْ لِشِدَّةِ عِنايَتِهِمْ بِهِ وَظَنِّهِمْ أَنَّهُ ٱلمَقْصُودُ مِنَ ٱلمَلَكَةِ ٱلعِلْمِيَّةِ وَلَيْسَ كَذلِكَ وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذلِكَ فِي ٱلمَغْرِبِ أَنَّ ٱلمُدَّةَ ٱلمُعَيَّنَةَ لِسُكْنَى طَلَبَةِ ٱلعِلْمِ بِٱلمَدارِسِ عِنْدَهُمْ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ بِتُونِسَ خَمْسُ سِنِينَ وَهذِهِ ٱلمُدَّةُ بِٱلمَدارِسِ عَلَى ٱلمُتَعارَفِ هِيَ أَقَلُّ مَا يَتَأَتَّى فِيهَا لِطَالِبِ ٱلعِلْمِ حُصُولُ مُبْتَغاهُ مِنَ ٱلمَلَكَةِ ٱلعِلْمِيَّةِ أَوِ ٱليَأْسِ مِنْ تَحْصِيلِهَا فَطَالَ أَمَدُهَا فِي ٱلمَغْرِبِ لِهذِهِ ٱلمُدَّةِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ ٱلجَوْدَةِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ خَاصَّةً لاَ مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلأَنْدَلُسِ فَذَهَبَ رَسْمُ ٱلتَّعْلِيمِ مِن بَيْنِهِمْ وَذَهَبَتْ عِنايَتُهُمْ بِٱلعُلُومِ لِتَنَاقُصِ عُمْرانِ ٱلمُسْلِمِينَ بِهَا مُنْذُ مِئِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِ ٱلعِلْمِ فِيهِمْ إِلَّا فَنُّ ٱلعَرَبِيَّةِ وَٱلأَدَبِ ٱقْتَصَرُوا عَلَيْهِ وَٱنْحَفَظَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ بَيْنَهُمْ فَٱنْحَفَظَ بِحِفْظِهِ وَأَمَّا ٱلفِقْهُ بَيْنَهُمْ فَرَسْمٌ خُلْوٌ وَأَثَرٌ بَعْدَ عَيْنٍ وَأَمَّا ٱلعَقْلِيَّاتُ فَلا أَثَرٌ وَلاَ عَيْنٌ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِٱنْقِطَاعِ سَنَدِ ٱلتَّعْلِيمِ فِيهَا بِتَنَاقُصِ ٱلعُمْرَانِ وَتَغَلُّبِ ٱلعَدُوِّ عَلى عَامَّتِهَا إِلَّا قَلِيلاً بِسِيفِ ٱلبَحْرِ شُغْلُهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا وَٱللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ. وَأَمَّا ٱلمَشْرِقُ فَلَمْ يَنْقَطِعْ سَنَدُ ٱلتَّعْلِيمِ فِيهِ بَلْ أَسْوَاقُهُ نَافِقَةٌ وَبُحُورُهُ زَاخِرَةٌ لِٱتِّصَالِ ٱلعُمْرانِ ٱلمَوْفُورِ وَٱتِّصَالِ ٱلسَّنَدِ فِيهِ وَإِنْ كَانَتِ ٱلأَمْصَارُ ٱلعَظِيمَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ مَعَادِنَ ٱلعِلْمِ قَدْ خَرِبَتْ مِثْلَ بَغْدَادَ وَٱلبَصْرَةِ وَٱلكُوفَةِ إِلَّا أَنَّ ٱللهَ تَعالى قَدْ أَدَالَ مِنْهَا بِأَمْصارٍ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ وَٱنْتَقَلَ ٱلعِلْمُ مِنْهَا إِلى عِرَاقِ ٱلعَجَمِ بِخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ مِنَ ٱلمَشْرِقِ ثُمَّ إِلى ٱلقَاهِرَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ ٱلمَغْرِبِ فَلَمْ تَزَلْ مَوْفُورَةً وَعُمْرَانُهَا مُتَّصِلاً وَسَنَدُ ٱلتَّعْلِيمِ بِهَا قَائِماً فَأَهْلُ ٱلمَشْرِقِ عَلى ٱلجُمْلَةِ أَرْسَخُ فِي صِنَاعَةِ تَعْلِيمِ ٱلعِلْمِ وَفِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْ رَحَّالَةِ أَهْلِ ٱلمَغْرِبِ إِلى ٱلمَشْرِقِ فِي طَلَبِ ٱلعِلْمِ أَنَّ عُقُولَهُمْ عَلى ٱلجُمْلَةِ أَكْمَلُ مِنْ عُقُولِ أَهْلِ ٱلمَغْرِبِ وَأَنَّهُمْ أَشَدُّ نَبَاهَةً وَأَعْظَمُ كَيْساً بِفِطْرَتِهِمِ ٱلأُولَى وَأَنَّ نُفُوسَهُمُ ٱلنَّاطِقَةَ أَكْمَلُ بِفِطْرَتِهَا مِنْ نُفُوسِ أَهْلِ ٱلمَغْرِبِ وَيَعْتَقِدُونَ ٱلتَّفَاوُتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي حَقِيقَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ وَيَتَشَيَّعُونَ لِذلِكَ

وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ قطْرِ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهٰذَا ٱلْمِقْدَارِ ٱلَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا ٱلْأَقَالِيمَ ٱلْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلسَّابِعِ فَإِنَّ ٱلْأَمْزِجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَٱلنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا ٱلَّذِي فَضَلَ بِهِ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ أَهْلَ ٱلْمَغْرِبِ هوَ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ آثَارِ ٱلْحَضَارَةِ مِنَ ٱلْعَقْلِ ٱلْمَزِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَنَزِيدُهُ ٱلْآنَ تَحْقِيقاً وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلْمَسْكَنِ وَٱلْبِنَاءِ وَأُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقَفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكٍ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا ٱلْآخِرُ عَنِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرَتَّبَةٍ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى ٱلنَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلاً جَدِيداً تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا ٱلْعَقْلُ بِسُرْعَةِ ٱلْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَغَنَا فِي تَعْلِيمِ ٱلصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٌ لا تُدْرَكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ ٱلْحُمُرَ ٱلْإِنْسِيَّةَ وَٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمَ مِنَ ٱلْمَاشِي وَٱلطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ ٱلْكَلامِ وَٱلْأَفْعَالِ يُسْتَغْرَبُ نُدُورُهَا وَيَعْجِزُ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنُ ٱلْمَلَكَاتِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلصَّنَائِعِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَّةِ يَزِيدُ ٱلْإِنْسَانَ ذَكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِٱلْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ كَيْساً لِمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فَيَظُنُّهُ ٱلْعَامِّيُّ تَفَاوُتاً فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ أَلا تَرَى إِلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ ٱلْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّياً بِٱلذَّكَاءِ مُمْتَلِئاً مِنَ ٱلْكَيْسِ حَتَّى أَنَّ ٱلْبَدَوِيَّ لَيَظُنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلْحَضَرِيَّةِ مَا لا يَعْرِفُهُ ٱلْبَدَوِيُّ فَلَمَّا ٱمْتَلأَ ٱلْحَضَرِيُّ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ ٱلْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نُفُوسَ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجِبِلَّتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ ٱلْفَهْمِ وَٱلْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا ٱلَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ مِنْ

ذلكَ هُوَ رونَقُ الصَّنائعِ وَالتَّعليمِ فَإنَّ لها آثاراً تَرجِعُ إلى النَّفسِ كَمَا قدَّمناهُ وَكَذا أهلُ المَشرِقِ لمَّا كانُوا في التَّعليمِ وَالصَّنائعِ أرسَخَ رُتبَةً وَأعلى قَدَماً وَكانَ أهلُ المَغرِبِ أقرَبَ إلى البِداوَةِ لِمَا قَدَّمناهُ في الفَصلِ قَبلَ هذا ظَنَّ المُغفَّلونَ في بادِيءِ الرَّأيِ أنَّهُ لِكَمالٍ في حَقيقَةِ الإنسانيَّةِ اختَصُّوا بِهِ عَنْ أهلِ المَغرِبِ وَلَيسَ ذلكَ بِصَحيحٍ فَتَفَهَّمهُ وَاللهُ يَزيدُ في الخَلقِ مَا يَشاءُ وَهُوَ إلهُ السَّمواتِ وَالأرضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَالسَّبَبُ في ذلكَ أنَّ تَعليمَ العِلمِ كَمَا قَدَّمناهُ مِنْ جُملَةِ الصَّنائعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمنا أنَّ الصَّنائعَ إنَّمَا تَكثُرُ في الأمصارِ وَعلى نِسبَةِ عُمرانِها في الكَثرَةِ وَالقِلَّةِ وَالحَضارَةِ وَالتَّرَفِ تَكونُ نِسبَةُ الصَّنائعِ في الجَودَةِ وَالكَثرَةِ لأنَّهُ أمرٌ زائدٌ على المَعاشِ فَمتى فَضَلَتْ أعمالُ أهلِ العُمرانِ عَنْ مَعاشِهِم انصَرَفَتْ إلى مَا وَراءَ المَعاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ في خاصِيَّةِ الإنسانِ وَهِيَ العُلومُ وَالصَّنائعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطرَتِهِ إلى العِلمِ مِمَّنْ نَشأَ في القُرى وَالأمصارِ غَيرِ المُتَمَدِّنَةِ فَلا يَجِدُ فِيهَا التَّعليمَ الَّذي هُوَ صِناعِيٌّ لِفُقدانِ الصَّنائعِ في أهلِ البَدوِ كَمَا قَدَّمناهُ وَلا بُدَّ لَهُ مِنَ الرِّحلَةِ في طَلَبِهِ إلى الأمصارِ المُستَبحِرَةِ شأنَ الصَّنائعِ كُلِّها وَاعتَبِرْ مَا قَرَّرناهُ بِحالِ بَغدادَ وَقُرطُبَةَ وَالقَيرَوانِ وَالبَصرَةِ وَالكُوفَةِ لَمَّا كَثُرَ عُمرانُها صَدرَ الإسلامِ وَاستَوَتْ فِيهَا الحَضارَةُ كَيفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحارُ العِلمِ وَتَفَنَّنُوا في اصطِلاحاتِ التَّعليمِ وَأصنافِ العُلومِ وَاستِنباطِ المَسائلِ وَالفُنونِ حَتَّى أربَوا على المُتَقَدِّمينَ وَفاتُوا المُتأخِّرينَ وَلَمَّا تَناقَصَ عُمرانُها وَابذَعَرَّ سُكَّانُها انطَوى ذلكَ البِساطُ بِمَا عَلَيهِ جُملَةً وَفُقِدَ العِلمُ بِهَا وَالتَّعليمُ وَانتَقَلَ إلى غَيرِهَا مِنْ أمصارِ الإسلامِ وَنَحنُ لِهذا العَهدِ نَرى أنَّ العِلمَ وَالتَّعليمَ إنَّمَا هُوَ بِالقاهِرَةِ مِنْ بِلادِ مِصرَ لِمَا أنَّ عُمرانَها مُستَبحِرٌ وَحَضارَتَها مُستَحكِمَةٌ مُنذُ آلافٍ مِنَ السِّنينَ فَاستَحكَمَتْ فِيهَا الصَّنائعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُملَتِها تَعليمُ العِلمِ وَأكَّدَ ذلكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهذِهِ العُصورِ بِهَا مُنذُ مِائتَينِ مِنَ السِّنينَ في دَولَةِ التُّركِ مِنْ أيَّامِ صَلاحِ الدِّينِ بنِ أيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرّاً وَذلكَ أنَّ أُمَراءَ التُّركِ في دَولَتِهِم يَخشَونَ عادِيَةَ سُلطانِهِم عَلى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِم لِمَا لَهُ عَلَيهِم مِنَ الرِّقِّ أوِ الوَلاءِ وَلِمَا يُخشَى مِنْ مَعاطِبِ المُلكِ وَنَكَباتِهِ فَاستَكثَرُوا مِنْ بِناءِ المَدارِسِ

وَٱلزَّوَايَا وَٱلرُّبُطِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا ٱلْأَوْقَافَ ٱلْمُغِلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكًا لِوُلْدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ ٱلْجُنُوحِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْأُجُورِ فِي ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَفْعَالِ فَكَثُرَتِ ٱلْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ ٱلْغَلَّاتُ وَٱلْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ ٱلْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جِرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَيْهَا ٱلنَّاسُ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارُهَا وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلَّتِي يَخُوضُ فِيهَا ٱلْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي ٱلْأَمْصَارِ تَحْصِيلًا وَتَعْلِيمًا هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٍ نَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ وَٱلْأَوَّلُ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْحِكْمِيَّةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ وَهِيَ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا ٱلْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ (١) نَظَرُهُ وَبَحْثُهُ عَلَى ٱلصَّوَابِ مِنَ ٱلْخَطَإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَٱلثَّانِي هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّقْلِيَّةُ ٱلْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى ٱلْخَبَرِ عَنِ ٱلْوَاضِعِ ٱلشَّرْعِيِّ وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِلْحَاقِ ٱلْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِٱلْأُصُولِ لِأَنَّ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَعَاقِبَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلنَّقْلِ ٱلْكُلِّيِّ بِمُجَرَّدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى ٱلْإِلْحَاقِ بِوَجْهٍ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلْقِيَاسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ ٱلْخَبَرِ بِثُبُوتِ ٱلْحُكْمِ فِي ٱلْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ إِلَى ٱلنَّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كُلِّهَا هِيَ ٱلشَّرْعِيَّاتُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي تُهَيِّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذَلِكَ عُلُومَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي هُوَ لِسَانُ ٱلْمِلَّةِ وَبِهِ نُزِّلَ ٱلْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ ٱلْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ ٱللَّهِ تَعَالَى ٱلْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ بِٱلنَّصِّ أَوْ بِٱلْإِجْمَاعِ أَوْ بِٱلْإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلنَّظَرِ بِٱلْكِتَابِ بِبَيَانِ أَلْفَاظِهِ أَوَّلًا وَهٰذَا هُوَ عِلْمُ ٱلتَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَٱخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعدياً فتقول وقفته على كذا أي أطلعته عليه قاله نصر

رِوَايَاتِ ٱلْقُرَّاءِ فِي قِرَاءَتِهِ وَهٰذَا هُوَ عِلْمُ ٱلْقِرَاءَاتِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ ٱلسُّنَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَٱلْكَلَامِ فِي ٱلرُّوَاةِ ٱلنَّاقِلِينَ لَهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ لِيَقَعَ ٱلْوُثُوقُ بِأَخْبَارِهِمْ بِعِلْمِ مَا يَجِبُ ٱلْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ هِيَ عُلُومُ ٱلْحَدِيثِ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي ٱسْتِنْبَاطِ هٰذِهِ ٱلْأَحْكَامِ مِنْ أُصُولِهَا مِنْ وَجْهٍ قَانُونِيٍّ يُفِيدُ ٱلْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱسْتِنْبَاطِ وَهٰذَا هُوَ أُصُولُ ٱلْفِقْهِ وَبَعْدَ هٰذَا تَحْصُلُ ٱلثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ ٱللهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِ ٱلْمُكَلَّفِينَ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفِقْهُ ثُمَّ إِنَّ ٱلتَّكَالِيفَ مِنْهَا بَدَنِيٌّ وَمِنْهَا قَلْبِيٌّ وَهُوَ ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْإِيمَانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ مِمَّا لَا يُعْتَقَدُ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْعَقَائِدُ ٱلْإِيمَانِيَّةُ فِي ٱلذَّاتِ وَٱلصِّفَاتِ وَأُمُورِ ٱلْحَشْرِ وَٱلنَّعِيمِ وَٱلْعَذَابِ وَٱلْقَدَرِ وَٱلْحِجَاجُ عَنْ هٰذِهِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ هُوَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَهُ ٱلْعُلُومُ ٱللِّسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافٌ فَمِنْهَا عِلْمُ ٱللُّغَةِ وَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ وَعِلْمُ ٱلْآدَابِ حَسْبَمَا نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا كُلِّهَا وَهٰذِهِ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّقْلِيَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ بِٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذٰلِكَ فَهِيَ مُشَارِكَةٌ لَهَا فِي ٱلْجِنْسِ ٱلْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا ٱلْعُلُومُ ٱلشَّرْعِيَّةُ ٱلْمُنَزَّلَةُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُبَلِّغِ لَهَا وَأَمَّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَمُبَايِنَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْمِلَلِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ ٱلْمِلَلِ فَمَهْجُورَةٌ وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ فَقَدْ نَهَى ٱلشَّرْعُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلْمُنَزَّلَةِ غَيْرِ ٱلْقُرْآنِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِٱلَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَرَأَى ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَرَقَةً مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ ٱلْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ أَلَمْ آتِكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً وَٱللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا ٱتِّبَاعِي ثُمَّ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ ٱلشَّرْعِيَّةَ ٱلنَّقْلِيَّةَ قَدْ نَفَقَتْ أَسْوَاقُهَا فِي هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَٱنْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ ٱلنَّاظِرِينَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهُذِّبَتِ ٱلْاِصْطِلَاحَاتُ وَرُتِّبَتِ ٱلْفُنُونُ فَجَاءَتْ مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ فِي ٱلْحُسْنِ وَٱلتَّنْمِيقِ وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رِجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا ٱلتَّعْلِيمُ وَٱخْتَصَّ ٱلْمَشْرِقُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ مِنْهَا حَسْبَمَا نَذْكُرُهُ ٱلْآنَ عِنْدَ تَعْدِيدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَقَدْ كَسَدَتْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ أَسْوَاقُ ٱلْعِلْمِ بِٱلْمَغْرِبِ لِتَنَاقُصِ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ وَٱنْقِطَاعِ سَنَدِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ وَمَا أَدْرِي مَا فَعَلَ ٱللهُ

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا وَتُنُوقِلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَ نَقْلُهَا أَيْضًا بِأَدَائِهَا وَاخْتُصَّتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَنِ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أُصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لَحِقَتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتَهَا فِي النَّقْلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتَهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُوِّنَتْ فَكُتِبَتْ فِيمَا كُتِبَ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُنْفَرِدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مَعْنِيًّا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لِمَا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَنَفَقَتْ بِهَا سُوقُ الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أَئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَآلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

منْ بَيْنِهَا كِتَابَ ٱلتَّيْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ ٱلْعُصُورِ وَٱلْأَجْيَالِ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ فِيرُّهْ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِيصِهِ فَنَظَمَ ذَٰلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزَ فِيهَا أَسْمَاءَ ٱلْقُرَّاءِ بِحُرُوفِ ا ب ج د تَرْتِيباً أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَٱسْتَوْعَبَ فِيهَا ٱلْفَنَّ ٱسْتِيعَاباً حَسَناً وَعُنِيَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى ٱلْعَمَلُ عَلَى ذَٰلِكَ فِي أَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ ٱلْقِرَاءَاتِ فَنُّ ٱلرَّسْمِ أَيْضاً وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ ٱلْقُرْآنِ فِي ٱلْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ ٱلْخَطِّيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفاً كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ ٱلْخَطِّ كَزِيَادَةِ ٱلْيَاءِ فِي بِأَيْيدٍ وَزِيَادَةِ ٱلْأَلِفِ فِي لَاأَذْبَحَنَّهُ وَلَاأَوْضَعُوا وَٱلْوَاوِ فِي جَزَاؤُ ٱلظَّالِمِينَ وَحَذْفِ ٱلْأَلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رُسِمَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّاءَاتِ مَمْدُوداً وَٱلْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ ٱلْهَاءِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هَٰذَا ٱلرَّسْمِ ٱلْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هَٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ وَقَانُونِهِ ٱحْتِيجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا أَيْضاً عِنْدَ كَتْبِهِمِ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَهَتْ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِيِّ ٱلْمَذْكُورِ فَكَتَبَ فِيهَا كُتُباً مِنْ أَشْهَرِهَا كِتَابُ ٱلْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَمَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ ٱلْخِلَافُ فِي ٱلرَّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِيِّ وَٱلْمُشْتَهِرُ بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نُقِلَ بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرُ فَنَظَمَ ٱلْخَرَّازُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ بِٱلْمَغْرِبِ أُرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى ٱلْمُقْنِعِ خِلَافاً كَثِيراً وَعَزَاهُ لِنَاقِلِيهِ وَٱشْتَهَرَتْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَٱلشَّاطِبِيِّ فِي ٱلرَّسْمِ .

(واما التفسير) فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بَلَاغَتِهِمْ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَكَانَ يَنْزِلُ جُمَلاً جُمَلاً وَآيَاتٍ آيَاتٍ لِبَيَانِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْفُرُوضِ ٱلدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ ٱلْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ ٱلْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخاً لَهُ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ ٱلْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ ٱلنَّاسِخَ مِنَ ٱلْمَنْسُوخِ

وَيُعَرِّفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ ٱلْآيَاتِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ إِنَّهَا نَعْيُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ رِضْوَانُ ٱللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ ٱلتَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقَلاً بَيْنَ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ ٱلْمَعَارِفُ عُلُوماً وَدُوِّنَتِ ٱلْكُتُبُ فَكُتِبَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ ٱلْآثَارُ ٱلْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَٱنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى ٱلطَّبَرِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ وَٱلثَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ ٱللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ ٱلْآثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ ٱللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَةِ وَأَحْكَامِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ فَوُضِعَتِ ٱلدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلٍ وَلَا كِتَابٍ فَتُنُوسِيَ ذَلِكَ وَصَارَتْ تُتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ ٱللِّسَانِ فَٱحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ ٱلْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بَلَاغَتِهِمْ وَصَارَ ٱلتَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى ٱلْآثَارِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَنِ ٱلسَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ ٱلنُّزُولِ وَمَقَاصِدِ ٱلْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِٱلنَّقْلِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْغَثِّ وَٱلسَّمِينِ وَٱلْمَقْبُولِ وَٱلْمَرْدُودِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْبَدَاوَةُ وَٱلْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ فِي أَسْبَابِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ وَبَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ ٱلْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ مِنَ ٱلْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ مِنَ ٱلنَّصَارَى وَأَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ ٱلَّذِينَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ ٱلَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ ٱلْيَهُودِيَّةِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلَّتِي يَحْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْحِدْثَانِ وَٱلْمَلَاحِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَعَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَٱمْتَلَأَتِ ٱلتَّفَاسِيرُ مِنَ ٱلْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ ٱلْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ فَتُتَحَرَّى فِي ٱلصِّحَّةِ ٱلَّتِي يَجِبُ بِهَا ٱلْعَمَلُ وَتَسَاهَلَ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي

مثل ذلكَ وَملأُوا كُتُبَ ٱلتَّفسيرِ بِهَذِهِ ٱلمَنْقُولاتِ وَأَصلها كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهلِ ٱلتَّوْرَاةِ ٱلَّذِينَ يَسكُنُونَ ٱلبَادِيَةَ وَلا تَحْقِيقَ عِندَهُمْ بِمَعرِفَةِ مَا يَنقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعُد صيتُهُمْ وَعظُمَتْ أَقدَارُهُم لِمَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ ٱلمَقَامَاتِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلمِلَّةِ فَتُلُقِّيَتْ بِٱلقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ ٱلنَّاسُ إِلى ٱلتَّحْقِيقِ وَٱلتَّمْحِيصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدِ بْن عطيَّةَ مِنَ ٱلمُتَأَخِّرِينَ بِٱلمَغرِبِ فَلَخَّصَ تِلكَ ٱلتَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقرَبُ إِلى ٱلصِّحَّةِ مِنهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوَلٍ بَيْنَ أَهلِ ٱلمَغرِبِ وَٱلأَندَلُسِ حَسَنَ ٱلمَنحَى وَتَبِعَهُ ٱلقُرْطُبِيُّ فِي تِلكَ ٱلطَّرِيقَةِ عَلى مِنهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشهُورٍ بِٱلمَشرِقِ.

وَٱلصِّنفُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلتَّفسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلى ٱللِّسَانِ مِنْ مَعرِفَةِ ٱللُّغَةِ وَٱلإِعرَابِ وَٱلبَلاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلمَعنَى بِحَسَبِ ٱلمَقَاصِدِ وَٱلأَسَالِيبِ وَهَذَا ٱلصِّنفُ مِنَ ٱلتَّفسِيرِ قَلَّ أَنْ يَنفَرِدَ عَنِ ٱلأَوَّلِ إِذِ ٱلأَوَّلُ هُوَ ٱلمَقصُودُ بِٱلذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعدَ أَنْ صَارَ ٱللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعضِ ٱلتَّفَاسِيرِ غَالِباً وَمِنْ أَحسَنِ مَا ٱشتَمَلَ عَلَيهِ هَذَا ٱلفَنُّ مِنَ ٱلتَّفَاسِيرِ كِتَابُ ٱلكَشَّافِ لِلزَّمَخشَرِيِّ مِنْ أَهلِ خَوَارَزْمِ ٱلعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهلِ ٱلاعتِزَالِ فِي ٱلعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِٱلحِجَاجِ عَلى مَذَاهِبِهِمِ ٱلفَاسِدَةِ حَيثُ تَعرِضُ فِي آيِ ٱلقُرْآنِ مِنْ طُرُقِ ٱلبَلاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهلِ ٱلسُّنَّةِ ٱنحِرَافٌ عَنهُ وَتَحذِيرٌ لِلجُمهُورِ مِنْ مَكَامِنِهِ مَعَ إِقرَارِهِمْ بِرُسُوخِ قَدَمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱللِّسَانِ وَٱلبَلاغَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ وَاقِفاً مَعَ ذَلِكَ عَلى ٱلمَذَاهِبِ ٱلسُّنِّيَّةِ مُحسِناً لِلحِجَاجِ عَنهَا فَلا جَرَمَ إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلْتُغْتَنَمْ مُطَالَعَتُهُ لِغَرَابَةِ فُنُونِهِ فِي ٱللِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَينَا فِي هَذِهِ ٱلعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعضِ ٱلعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيُّ مِنْ أَهلِ تُورِيزَ مِنْ عِرَاقِ ٱلعَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ ٱلزَّمَخشَرِيِّ هَذَا وَتَتَبَّعَ أَلفَاظَهُ وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي ٱلاعتِزَالِ بِأَدِلَّةٍ تُزَيِّفُهَا وَيُبَيِّنُ أَنَّ ٱلبَلاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي ٱلآيَةِ عَلى مَا يَرَاهُ أَهلُ ٱلسُّنَّةِ لا عَلى مَا يَرَاهُ ٱلمُعتَزِلَةُ فَأَحسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمتَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ ٱلبَلاغَةِ وَفَوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ ٱلحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنهَا مَا يُنظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَنسُوخِهِ

وَذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النَّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفاً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفاً عَنْهُمْ بِاعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمِ الَّتِي تَكَفَّلَ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبَرَانِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ وَعُلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمُتَأَخِّرَ نَاسِخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَصْعَبِهَا قَالَ الزُّهْرِيُّ أَعْيَا الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ عُلُومِ الْأَحَادِيثِ النَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ الشُّرُوطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجَبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجْتَهِدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُحَصِّلُ ذَلِكَ الظَّنَّ وَهُوَ بِمَعْرِفَةِ رُوَاةِ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الدِّينِ بِتَعْدِيلِهِمْ وَبَرَاءَتِهِمْ مِنَ الْجَرْحِ وَالْغَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَى الْقَبُولِ أَوِ التَّرْكِ وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ هَؤُلَاءِ النَّقَلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ وَاحِداً وَاحِداً وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوِي لَمْ يَلْقَ الرَّاوِيَ الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ فَحُكِمَ بِقَبُولِ الْأَعْلَى وَرَدِّ الْأَسْفَلِ وَيُخْتَلَفُ فِي الْمُتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ أَئِمَّةِ الشَّأْنِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرَتَّبَةِ مِثْلُ الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضَلِ وَالشَّاذِّ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْقَابِهِ الْمُتَدَاوَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ لِأَئِمَّةِ اللِّسَانِ أَوِ الْوِفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ الرِّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رُتَبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي أَلْفَاظٍ تَقَعُ فِي مُتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَصْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقَلَةِ الْحَدِيثِ فِي عُصُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ وَمِصْرَ بِالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ

في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الإمام محمد بن أدريس الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدإ هذا الأمر نقلا صرفا شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطإ أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحافظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمدوا منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة (1) آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وإما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فناً برأسه وكذا الغريب وللناس فيه تآليف مشهورة

(1) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين محرره

ثمّ المؤتلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن فحول علمائه وأئمّتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذّبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخّرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك والفنّ شريف في مغزاه لأنّه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدّمين إذ العادة تشهد بأنّ هؤلاء الأئمّة على تعدّدهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئا من السنّة أو يتركوه حتّى يعثر عليه المتأخّر هذا بعيد عنهم وإنّما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمّهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنّفيها والنظر في أسانيدها إلى مؤلّفها وعرض ذلك على ما تقرّر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتّصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمّهات الخمس إلّا في القليل. فأمّا البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعدّدة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقّه في تراجمه لأنّه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثمّ يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمّنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرّر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حقّ الشرح كابن بطّال وابن المهلّب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأمّة يعنون أنّ أحدا من علماء الأمّة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار. وأمّا صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبّوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح ممّا لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكيّة عليه شرحا وسمّاه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثمّ أكمله القاضي عياض من بعده وتمّمه وسمّاه إكمال

ٱلْمُعَلِّمِ وَتَلاَهُمَا مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ بِشَرْحٍ ٱسْتَوْفَى مَا فِي ٱلْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحاً وَافِياً . وَأَمَّا كُتُبُ ٱلسُّنَنِ ٱلْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَآخِذِ ٱلْفُقَهَاءِ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ ٱلْحَدِيثِ فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَٱلْأَسَانِيدِ ٱلَّتِي ٱشْتَمَلَتْ عَلَى ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ ٱلسُّنَّةِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنَزَّلَهَا أَئِمَّةُ ٱلْحَدِيثِ وَجَهَابِذَتُهُ وَعَرَّفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ ٱلْأَئِمَّةُ فِي ٱلْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ ٱلْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قُلِبَ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذٰلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ ٱلْمُحَدِّثُونَ ٱمْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَبُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ لاَ أَعْرِفُ هٰذِهِ وَلٰكِنْ حَدَّثَنِي فُلاَنٌ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ ٱلْأَحَادِيثِ عَلَى ٱلْوَضْعِ ٱلصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقَرُّوا لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ . وَٱعْلَمْ أَيْضاً أَنَّ ٱلْأَئِمَّةَ ٱلْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْإِقْلاَلِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوِهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ ٱلْمُوَطَّإِ (1) وَغَايَتُهَا ثَلٰثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوُهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلٍّ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ ٱجْتِهَادُهُ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ تَقَوَّلَ بَعْضُ ٱلْمُبْغِضِينَ ٱلْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ فِي ٱلْحَدِيثِ فَلِهٰذَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ وَلاَ سَبِيلَ إِلَى هٰذَا ٱلْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ ٱلْأَئِمَّةِ لِأَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ مِنَ ٱلْحَدِيثِ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَٱلْجِدُّ وَٱلتَّشْمِيرُ فِي ذٰلِكَ لِيَأْخُذَ ٱلدِّينَ عَنْ أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى ٱلْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا ٱلْمُبَلِّغِ لَهَا وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ ٱلرِّوَايَةَ لِأَجْلِ ٱلْمَطَاعِنِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيهَا وَٱلْعِلَلِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي طُرُقِهَا سِيَّمَا وَٱلْجَرْحُ مُقَدَّمٌ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ ٱلِٱجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ ٱلْأَخْذِ بِمَا يَعْرِضُ مِثْلُ ذٰلِكَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ ٱلْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذٰلِكَ فَتَقِلُّ رِوَايَتُهُ

---

(1) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية اقوال خمسة في عدة احاديثه اولها ٥٠٠ ثانيها ٧٠٠ ثالثها الف ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني

لِضُعْفٍ في ٱلطُّرُقِ هٰذا مَعَ أنَّ أهْلَ ٱلْحِجازِ أكْثَرُ رِوايَةً لِلْحَدِيثِ مِنْ أهْلِ ٱلْعِراقِ لِأنَّ ٱلْمَدِينَةَ دارُ ٱلْهِجْرَةِ وَمَأْوَى ٱلصَّحابَةِ وَمَنِ ٱنْتَقَلَ مِنْهُمْ إلى ٱلْعِراقِ كانَ شُغْلُهُمْ بِٱلْجِهادِ أكْثَرَ وَٱلْإمامُ أبُو حَنِيفَةَ إنَّما قَلَّتْ رِوايَتُهُ لِما شَدَّدَ في شُرُوطِ ٱلرِّوايَةِ وَٱلتَّحَمُّلِ وَضُعْفِ رِوايَةِ ٱلْحَدِيثِ ٱلْيَقِينِيِّ إذا عارَضَها ٱلْفِعْلُ ٱلنَّفْسِيُّ وَقَلَّتْ مِنْ أجْلِها رِوايَةٌ فَقَلَّ حَدِيثُهُ لِأنَّهُ تَرَكَ رِوايَةَ ٱلْحَدِيثِ مُتَعَمِّداً فَحاشاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَدُلُّ عَلى أنَّهُ مِنْ كِبارِ ٱلْمُجْتَهِدِينَ في عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ ٱعْتِمادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ وَٱلتَّعْوِيلُ عَلَيْهِ وَٱعْتِبارُهُ رَدّاً وَقَبُولاً وَأمّا غَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَهُمُ ٱلْجُمْهُورُ فَتَوَسَّعُوا في ٱلشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ وَٱلْكُلُّ عَنِ ٱجْتِهادٍ وَقَدْ تَوَسَّعَ أصْحابُهُ مِنْ بَعْدِهِ في ٱلشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رِوايَتُهُمْ وَرَوَى ٱلطَّحاوِيُّ فَأكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ ٱلْقَدْرِ إلّا أنَّهُ لا يَعْدِلُ ٱلصَّحِيحَيْنِ لِأنَّ ٱلشُّرُوطَ ٱلَّتِي ٱعْتَمَدَها ٱلْبُخارِيُّ وَمُسْلِمٌ في كِتابَيْهِما مُجْمَعٌ عَلَيْها بَيْنَ ٱلْأُمَّةِ كَما قالُوهُ وَشُرُوطُ ٱلطَّحاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفَقٍ عَلَيْها كَٱلرِّوايَةِ عَنِ ٱلْمَسْتُورِ ٱلْحالِ وَغَيْرِهِ فَلِهٰذا قُدِّمَ ٱلصَّحِيحانِ بَلْ وَكُتُبُ ٱلسُّنَنِ ٱلْمَعْرُوفَةُ عَلَيْهِ لِتَأخُّرِ شَرْطِهِ عَنْ شُرُوطِهِمْ وَمِنْ أجْلِ هٰذا قِيلَ في ٱلصَّحِيحَيْنِ بِٱلْإجْماعِ عَلى قَبُولِهِما مِنْ جِهَةِ ٱلْإجْماعِ عَلى صِحَّةِ ما فِيهِما مِنَ ٱلشُّرُوطِ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَيْها فَلا تَأْخُذْكَ رِيبَةٌ في ذٰلِكَ فَٱلْقَوْمُ أحَقُّ ٱلنّاسِ بِٱلظَّنِّ ٱلْجَمِيلِ بِهِمْ وَٱلْتِماسِ ٱلْمَخارِجِ ٱلصَّحِيحَةِ لَهُمْ وَٱللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى أعْلَمُ بِما في حَقائِقِ ٱلْأُمُورِ

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

ألْفِقْهُ مَعْرِفَةُ أحْكامِ ٱللهِ تَعالى في أفْعالِ ٱلْمُكَلَّفِينَ بِٱلْوُجُوبِ وَٱلْحَذَرِ وَٱلنَّدْبِ وَٱلْكَراهَةِ وَٱلْإباحَةِ وَهِيَ مُتَلَقّاةٌ مِنَ ٱلْكِتابِ وَٱلسُّنَّةِ وَما نَصَبَهُ ٱلشّارِعُ لِمَعْرِفَتِها مِنَ ٱلْأدِلَّةِ فَإذا ٱسْتُخْرِجَتِ ٱلْأحْكامُ مِنْ تِلْكَ ٱلْأدِلَّةِ قِيلَ لَها فِقْهٌ وَكانَ ٱلسَّلَفُ يَسْتَخْرِجُونَها مِنْ تِلْكَ ٱلْأدِلَّةِ عَلى ٱخْتِلافٍ فِيما بَيْنَهُمْ وَلا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ ضَرُورَةَ أنَّ ٱلْأدِلَّةَ غالِبُها مِنَ ٱلنُّصُوصِ وَهِيَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَفي ٱقْتِضاءاتِ ألْفاظِها لِكَثِيرٍ مِنْ مَعانِيها ٱخْتِلافٌ بَيْنَهُمْ مَعْرُوفٌ وَأيْضاً فَٱلسُّنَّةُ مُخْتَلِفَةُ ٱلطُّرُقِ في ٱلثُّبُوتِ وَتَتَعارَضُ في ٱلْأكْثَرِ أحْكامُها فَتَحْتاجُ إلى ٱلتَّرْجِيحِ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ أيْضاً فَٱلْأدِلَّةُ مِنْ غَيْرِ ٱلنُّصُوصِ مُخْتَلَفٌ فِيها وَأيْضاً فَٱلْوَقائِعُ ٱلْمُتَجَدِّدَةُ لا تُوَفّي بِها ٱلنُّصُوصُ وَما كانَ مِنْها غَيْرَ ظاهِرٍ في ٱلْمَنْصُوصِ

فيُحمَلُ على المنصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها إشاراتٌ للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود ابن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين

ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من الأئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا وتلقوا كتبه بالإغفال والترك حتى إنها ليحظر بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز. فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشافعي وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمة.

واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة ذكرت في باب الإجماع والأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المطلبي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل إلى العراق

من بعد مالك وأتى أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي بن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان الإمام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم

وَٱبْنُ ٱلْمَوَّازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ ٱلْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ وَطَبَقَتُهُ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ فِقْهُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَتَلَاشَى مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ ٱلرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سُوقُهُ وَٱشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ مِنَ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّتِي رَبِيَتْ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَيُّوبِيَّةِ بِٱلشَّامِ وَعِزُّ ٱلدِّينِ بْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ أَيْضاً ثُمَّ ٱبْنُ ٱلرِّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ ثُمَّ تَقِيُّ ٱلدِّينِ ٱلسُّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنِ ٱنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ ٱلدِّينِ ٱلْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ أَكْبَرُ ٱلشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ ٱلْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ ٱلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فَٱخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِباً إِلَى ٱلْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَٱلْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ ٱلْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى ٱلْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَٱقْتَصَرُوا عَنِ ٱلْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ مَالِكٌ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتِلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضاً فَٱلْبَدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ ٱلْحَضَارَةَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ ٱلْحِجَازِ أَمْيَلَ لِمُنَاسَبَةِ ٱلْبَدَاوَةِ وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمَالِكِيُّ غَضّاً عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْماً مَخْصُوصاً عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْقِيَاسِ فَٱحْتَاجُوا إِلَى تَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ ٱلِٱشْتِبَاهِ بَعْدَ ٱلِٱسْتِنَادِ إِلَى ٱلْأُصُولِ ٱلْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّنْظِيرِ أَوِ ٱلتَّفْرِقَةِ وَٱتِّبَاعِ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا مَا ٱسْتَطَاعُوا وَهَذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ ٱلْفِقْهِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ جَمِيعاً مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ ٱفْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَٱلْعِرَاقِ فَكَانَ بِٱلْعِرَاقِ مِنْهُمْ ٱلْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ٱبْنِ خُوَيْزِ مَنْدَادَ وَٱبْنِ ٱللَّبَّانِ وَٱلْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ وَٱلْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ ٱلْقَصَّارِ وَٱلْقَاضِي عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بِمِصْرَ ٱبْنُ ٱلْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَٱبْنُ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ وَٱلْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ وَطَبَقَتُهُمْ وَرَحَلَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنِ ٱبْنِ ٱلْقَاسِمِ وَطَبَقَتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ ٱلْوَاضِحَةِ ثُمَّ دَوَّنَ ٱلْعُتْبِيُّ مِنْ تَلَامِذَتِهِ كِتَابَ ٱلْعُتْبِيَّةِ وَرَحَلَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ أَسَدُ بْنُ ٱلْفُرَاتِ فَكَتَبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَكَتَبَ عَلَى ٱبْنِ ٱلْقَاسِمِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ وَجَاءَ إِلَى ٱلْقَيْرَوَانِ بِكِتَابِهِ وَسُمِّيَ ٱلْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ فَقَرَأَ بِهَا سُحْنُونُ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ ٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ٱبْنَ ٱلْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ ٱلْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا وَكَتَبَ سُحْنُونُ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَأَثْبَتَ مَا رَجَعَ عَنْهُ وَكَتَبَ لِأَسَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ سُحْنُونَ فَأَنِفَ مِنْ ذَٰلِكَ فَتَرَكَ ٱلنَّاسُ كِتَابَهُ وَٱتَّبَعُوا مُدَوَّنَةَ سُحْنُونَ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى ٱلْمُدَوَّنَةَ وَٱلْمُخْتَلِطَةَ وَعَكَفَ أَهْلُ ٱلْقَيْرَوَانِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى ٱلْوَاضِحَةِ وَٱلْعُتْبِيَّةِ ثُمَّ ٱخْتَصَرَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱلْمُدَوَّنَةَ وَٱلْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمُخْتَصَرِ وَلَخَّصَهُ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ ٱلْبَرَادِعِيُّ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْقَيْرَوَانِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلتَّهْذِيبِ وَٱعْتَمَدَهُ ٱلْمَشْيَخَةُ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَكَذَٰلِكَ ٱعْتَمَدَ أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابَ ٱلْعُتْبِيَّةِ وَهَجَرُوا ٱلْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ ٱلْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّهَاتِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلْإِيضَاحِ وَٱلْجَمْعِ فَكَتَبَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ عَلَى ٱلْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ٱبْنِ يُونُسَ وَٱللَّخْمِيِّ وَٱبْنِ مُحْرِزٍ ٱلتُّونِسِيِّ وَٱبْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَتَبَ أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى ٱلْعُتْبِيَّةِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ٱبْنِ رُشْدٍ وَأَمْثَالِهِ وَجَمَعَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ وَٱلْخِلَافِ وَٱلْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ ٱلنَّوَادِرِ فَٱشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ ٱلْمَذَاهِبِ وَفَرَّعَ ٱلْأُمَّهَاتِ كُلَّهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَنَقَلَ ٱبْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى ٱلْمُدَوَّنَةِ وَزَخَرَتْ بِحَارُ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْمَالِكِيِّ فِي ٱلْأُفُقَيْنِ إِلَى ٱنْقِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطُبَةَ وَٱلْقَيْرَوَانِ ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ ٱلْحَاجِبِ لَخَّصَ فِيهِ طُرُقَ أَهْلِ ٱلْمَذْهَبِ فِي كُلِّ بَابٍ وَتَعْدِيدَ أَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ فَجَاءَ كَٱلْبَرْنَامَجِ لِلْمَذْهَبِ وَكَانَتِ ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَالِكِيَّةُ بَقِيَتْ فِي مِصْرَ مِنْ لَدُنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ مِسْكِينٍ وَٱبْنِ ٱلْمُيَسِّرِ وَٱبْنِ ٱللَّهِيثِ وَٱبْنِ ٱلرَّشِيقِ وَٱبْنِ شَاسٍ وَكَانَتْ بِٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي بَنِي عَوْفٍ

وَبَنِي سَنَدٍ وَٱبْنِ عَطَاءِ ٱللهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ ٱلْحَاجِبِ لَـكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَذَهَابِ فِقْهِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَظُهُورِ فُقَهَاءِ ٱلسُّنَّةِ مِنَ ٱلشَّافِعِيَّةِ وَٱلْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ آخِرَ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ ٱلْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَخُصُوصاً أَهْلُ بِجَايَةَ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَشْيَخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ ٱلدِّينِ ٱلزَّوَاوِيُّ هُوَ ٱلَّذِي جَلَبَهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَٱنْتَشَرَ بِقُطْرِ بِجَايَةَ فِي تَلْمِيذِهِ وَمِنْهُمْ ٱنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَةُ ٱلْفِقْهِ بِٱلْمَغْرِبِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤْثَرُ عَنِ ٱلشَّيْخِ نَاصِرِ ٱلدِّينِ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَٱبْنِ رُشْدٍ وَٱبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشْيَخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلْبَتِهِمْ فِي ٱلْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ ٱبْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ ٱلتَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ ٱلْوِرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سِهَامِ ٱلْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصِحُّ بِٱعْتِبَارِ فُرُوضِهَا ٱلْأُصُولُ أَوْ مُنَاسَخَتُهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ ٱلْوَرَثَةِ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَابٍ تَصْحِيحِ ٱلْفَرِيضَةِ ٱلْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ ٱلْفُرُوضِ جَمِيعاً فِي ٱلْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ ٱلْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذَلِكَ بِعَدَدٍ أَكْثَرَ وَبِقَدْرِ مَا تَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُقِرَّ بَعْضُ ٱلْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرَهُ ٱلْآخَرُ فَتُصَحَّحُ عَلَى ٱلْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ ٱلسِّهَامِ ثُمَّ تُقْسَمُ ٱلتَّرِكَةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ ٱلْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ ٱلْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَانَ غَالِباً فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنّاً مُفْرَداً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا عِنْدَ ٱلْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخِّرِي ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابُ ٱبْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْحَوْفِيِّ ثُمَّ ٱلْجَعْدِيِّ وَمِنْ مُتَأَخِّرِي أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنُ ٱلنَّمِرِ ٱلطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ وَأَمَّا ٱلشَّافِعِيَّةُ وَٱلْحَنَفِيَّةُ وَٱلْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِٱتِّسَاعِ ٱلْبَاعِ فِي ٱلْفِقْهِ وَٱلْحِسَابِ

وَخُصُوصاً أَبَا ٱلْمَعَالِي رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ وَهُوَ فَنٌّ شَرِيفٌ لِجَمْعِهِ بَيْنَ ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْمَنْقُولِ وَٱلْوُصُولِ بِهِ إِلَى ٱلْحُقُوقِ فِي ٱلْوِرَاثَاتِ بِوُجُوهٍ صَحِيحَةٍ يَقِينِيَّةٍ عِنْدَمَا تُجْهَلُ ٱلْحُظُوظُ وَتُشْكِلُ عَلَى ٱلْقَاسِمِينَ وَلِلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بِهَا عِنَايَةٌ وَمِنَ ٱلْمُصَنِّفِينَ مَنْ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْحِسَابِ وَفَرْضِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَجْهُولَاتِ مِنْ فُنُونِ ٱلْحِسَابِ كَالْجَبْرِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْجُذُورِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ فَيَمْلَأُونَ بِهَا تَآلِيفَهُمْ وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَدَاوَلاً بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُفِيدُ فِيمَا يَتَدَاوَلُونَهُ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لِغَرَابَتِهِ وَقِلَّةِ وُقُوعِهِ فَهُوَ يُفِيدُ ٱلْمِرَانَ وَتَحْصِيلَ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱلْمُتَدَاوَلِ عَلَى أَكْمَلِ ٱلْوُجُوهِ وَقَدْ يَحْتَجُّ ٱلْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ عَلَى فَضْلِهِ بِالْحَدِيثِ ٱلْمَنْقُولِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّ ٱلْفَرَائِضَ ثُلُثُ ٱلْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى وَفِي رِوَايَةٍ نِصْفُ ٱلْعِلْمِ خَرَّجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ ٱلْحَافِظُ وَٱحْتَجَّ بِهِ أَهْلُ ٱلْفَرَائِضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِالْفَرَائِضِ فُرُوضُ ٱلْوِرَاثَةِ وَٱلَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا ٱلْمَحْمَلَ بَعِيدٌ وَأَنَّ ٱلْمُرَادَ بِالْفَرَائِضِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْفَرَائِضُ ٱلتَّكْلِيفِيَّةُ فِي ٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْعَادَاتِ وَٱلْمَوَارِيثِ وَغَيْرِهَا وَبِهٰذَا ٱلْمَعْنَى يَصِحُّ فِيهَا ٱلنِّصْفِيَّةُ وَٱلثُّلُثِيَّةُ وَأَمَّا فُرُوضُ ٱلْوِرَاثَةِ فَهِيَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ ٱلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَيُعَيِّنُ هٰذَا ٱلْمُرَادَ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ ٱلْفَرَائِضِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْمَخْصُوصِ أَوْ تَخْصِيصَهُ بِفُرُوضِ ٱلْوِرَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱصْطِلَاحٌ نَاشِئٌ لِلْفُقَهَاءِ عِنْدَ حُدُوثِ ٱلْفُنُونِ وَٱلِٱصْطِلَاحَاتِ وَلَمْ يَكُنْ صَدْرُ ٱلْإِسْلَامِ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا إِلَّا عَلَى عُمُومِهِ مُشْتَقّاً مِنَ ٱلْفَرْضِ ٱلَّذِي هُوَ لُغَةً ٱلتَّقْدِيرُ أَوِ ٱلْقَطْعُ وَمَا كَانَ ٱلْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ ٱلْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهِيَ حَقِيقَتُهُ ٱلشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصْرِهِمْ فَهُوَ أَلْيَقُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ ٱلْفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَجَلِّهَا قَدْراً وَأَكْثَرِهَا فَائِدَةً وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْأَحْكَامُ وَٱلتَّآلِيفُ وَأُصُولُ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ هِيَ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْقُرْآنُ ثُمَّ ٱلسُّنَّةُ ٱلْمُبَيِّنَةُ لَهُ فَعَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتِ ٱلْأَحْكَامُ تُتَلَقَّى مِمَّا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ

بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما

معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جبلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشترك لا يراد به معناه معاً والواو لا تقتضي الترتيب والعام إذا اخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأحكام وينقح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل من تبين أوصاف المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن . (واعلم) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب

لصَّدْرُ الْأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ احْتَاجَ الْفُقَهَاءُ وَالْمُجْتَهِدُونَ لَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْأَدِلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنًّا قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمَّوْهُ أُصُولَ الْفِقْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَمْلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْبَيَانِ وَالْخَبَرِ وَالنَّسْخِ وَحُكْمِ الْعِلَّةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ ثُمَّ كَتَبَ فُقَهَاءُ الْحَنَفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا أَمَسُّ بِالْفِقْهِ وَأَلْيَقُ بِالْفُرُوعِ لِكَثْرَةِ الْأَمْثِلَةِ مِنْهَا وَالشَّوَاهِدِ وَبِنَاءِ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى النُّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صُوَرَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَلَى الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمْكَنَ لِأَنَّهُ غَالِبُ فُنُونِهِمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ فِيهَا الْيَدُ الطُّولَى مِنَ الْغَوْصِ عَلَى النُّكَتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْتِقَاطِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ مَا أَمْكَنَ وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعَ مِنْ جَمِيعِهِمْ وَتَمَّمَ الْأَبْحَاثَ وَالشُّرُوطَ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمُلَتْ صِنَاعَةُ أُصُولِ الْفِقْهِ بِكَمَالِهِ وَتَهَذَّبَتْ مَسَائِلُهُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعُنِيَ النَّاسُ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ الْبُرْهَانِ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالْمُسْتَصْفَى لِلْغَزَالِيِّ وَهُمَا مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ الْعَهْدِ لِعَبْدِ الْجَبَّارِ وَشَرْحُهُ الْمُعْتَمَدُ لِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ ثُمَّ لَخَّصَ هَذِهِ الْكُتُبَ الْأَرْبَعَةَ فَحْلَانِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ فِي كِتَابِ الْمَحْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْآمِدِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ وَاخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمَا فِي الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ فَابْنُ الْخَطِيبِ أَمْيَلُ إِلَى الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالِاحْتِجَاجِ وَالْآمِدِيُّ مُولَعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَأَمَّا كِتَابُ الْمَحْصُولِ فَاخْتَصَرَهُ تِلْمِيذُ الْإِمَامِ سِرَاجُ الدِّينِ الْأُرْمَوِيُّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجُ الدِّينِ الْأُرْمَوِيُّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَ شِهَابُ الدِّينِ الْقَرَافِيُّ مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتٍ وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابٍ صَغِيرٍ سَمَّاهُ التَّنْقِيحَاتِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ الْمِنْهَاجِ وَعُنِيَ الْمُبْتَدِئُونَ بِهَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا كِتَابُ الْإِحْكَامِ لِلْآمِدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ

ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْمُخْتَصَرِ ٱلْكَبِيرِ ثُمَّ ٱخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوَلَهُ طَلَبَةُ ٱلْعِلْمِ وَعُنِيَ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمُطَالَعَتِهِ وَشَرْحِهِ وَحَصَلَتْ زُبْدَةُ طَرِيقَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ فِي هٰذِهِ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ. وَأَمَّا طَرِيقَةُ ٱلْحَنَفِيَّةِ فَكَتَبُوا فِيهَا كَثِيراً وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا لِلْمُتَقَدِّمِينَ تَأْلِيفُ أَبِي زَيْدٍ ٱلدَّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ كِتَابَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْبَزْدَوِيِّ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ وَجَاءَ ٱبْنُ ٱلسَّاعَاتِي مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْحَنَفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ ٱلْإِحْكَامِ وَكِتَابِ ٱلْبَزْدَوِيِّ فِي ٱلطَّرِيقَتَيْنِ وَسُمِّيَ كِتَابُهُ بِٱلْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَئِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثاً وَأُولِعَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَجَمِ بِشَرْحِهِ وَٱلْحَالُ عَلَى ذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ هٰذِهِ حَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعَدُّدُ ٱلتَّآلِيفِ ٱلْمَشْهُورَةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِيهِ وَٱللهُ يَنْفَعُنَا بِٱلْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(وأما الخلافات) فَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلْفِقْهَ ٱلْمُسْتَنْبَطَ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْمُجْتَهِدِينَ بِٱخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافاً لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱتَّسَعَ ذٰلِكَ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱتِّسَاعاً عَظِيماً وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يُقَلِّدُوا مَنْ شَاءُوا مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا ٱنْتَهَى ذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأَمْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ مِنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِهِمْ ٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنَعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ ٱلْاجْتِهَادِ لِصُعُوبَتِهِ وَتَشَعُّبِ ٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِٱتِّصَالِ ٱلزَّمَانِ وَٱفْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَأُقِيمَتْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبُ ٱلْأَرْبَعَةُ أُصُولَ ٱلْمِلَّةِ وَأُجْرِيَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَٱلْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مَجْرَى ٱلْخِلَافِ فِي ٱلنُّصُوصِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلْأُصُولِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلْمُنَاظَرَاتُ فِي تَصْحِيحِ كُلٍّ مِنْهُمْ مَذْهَبَ إِمَامِهِ تَجْرِي عَلَى أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلٌّ عَلَى مَذْهَبِهِ ٱلَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ وَأُجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ ٱلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَٱلشَّافِعِيُّ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُنَاظَرَاتِ بَيَانُ مَآخِذِ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَئِمَّةِ وَمَثَارَاتُ ٱخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ ٱجْتِهَادِهِمْ كَانَ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْعِلْمِ يُسَمَّى بِٱلْخِلَافِيَّاتِ وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا

إلى ٱسْتِنْبَاطِ ٱلْأَحكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ٱلْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِلِاسْتِنْبَاط وَصَاحِبَ ٱلْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ أَنْ يَهْدِمَهَا ٱلْمُخَالِفُ بِأَدِلَّتِهِ وَهُوَ لَعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلُ ٱلْفَائِدَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَآخِذِ ٱلْأَئِمَّةِ وَأَدِلَّتِهِمْ وَمِرَانِ ٱلْمُطَالِعِينَ لَهُ عَلَى ٱلِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ وَتَآلِيفُ ٱلْحَنَفِيَّةِ وَٱلشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَآلِيفِ ٱلْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ ٱلْقِيَاسَ عِنْدَ ٱلْحَنَفِيَّةِ أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفْتَ فَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ وَأَمَّا ٱلْمَالِكِيَّةُ فَٱلْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ نَظَرٍ وَأَيْضاً فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَهُمْ بَادِيَةٌ غُفْلٌ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَلِلْغَزَالِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ ٱلْمَآخِذِ وَلِأَبِي زَيْدٍ ٱلدَّبُوسِيِّ كِتَابُ ٱلتَّعْلِيقَةِ وَلِٱبْنِ ٱلْقَصَّارِ مِنْ شُيُوخِ ٱلْمَالِكِيَّةِ عُيُونُ ٱلْأَدِلَّةِ وَقَدْ جَمَعَ ٱبْنُ ٱلسَّاعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ ٱلْفِقْهِ جَمِيعَ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ ٱلْفِقْهِ ٱلْخِلَافِيِّ مُدْرِجاً فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ ٱلْخِلَافِيَّاتِ

(وأما الجدال) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَنَاظِرَيْنِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلّاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ وَطَرِيقَةُ ٱلْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالِطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَراً وَتَبِعَهُ مَنْ بَعْدَهُ

مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسَفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ ٱلْحِجَاجَ عَنِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ ٱلْمُنْحَرِفِينَ فِي ٱلِٱعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ ٱلسَّلَفِ وَأَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَسِرُّ هَذِهِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ هُوَ ٱلتَّوْحِيدُ فَلْنُقَدِّمْ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ ٱلتَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يَنْظُرُ وَيُشِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ ٱلْكَائِنَاتِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوْ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَوِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ فِي ٱرْتِقَائِهَا تَتَفَسَّحُ وَتَتَضَاعَفُ طُولاً وَعَرْضاً وَيَحَارُ ٱلْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذاً لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُحِيطُ سِيَّمَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْبَشَرِيَّةُ وَٱلْحَيَوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي ٱلشَّاهِدِ ٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَٱلْقَصْدِ إِلَيْهِ وَٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَتِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ ٱلْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِئِ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ يُلْقِيهَا ٱللّٰهُ فِي ٱلْفِكْرِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَٱلْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِيهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْماً فِي ٱلْغَالِبِ بِٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ مَحْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا ٱلتَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ ٱلنَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ ٱلَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ ٱلنَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ ٱلشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ ٱلنَّظَرِ

إلى ٱلأَسبابِ وَٱلْوُقوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادٍ يَهِيمُ فِيهِ ٱلْفِكْرُ وَلا يَحْلُو مِنْهُ بِطَائِلٍ وَلا يَظْفَرُ بِحَقِيقَةٍ قَالَ ٱللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ فِي وُقُوفِهِ عَنِ ٱلِٱرْتِقَاءِ إلى مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ٱلْهَالِكِينَ نَعُوذُ بِٱللهِ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ وَٱلْخُسْرَانِ ٱلْمبِينِ وَلا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هٰذا ٱلْوُقُوفَ أَوِ ٱلرُّجوعَ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَٱخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنٌ يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لا نَعْلَمُهَا إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا فَلْنَتَحَرَّزْ مِنْ ذٰلِكَ بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضاً فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هٰذِهِ ٱلأَسْبَابِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْ مُسَبَّبَاتِهَا مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِٱلْعَادَةِ لِٱقْتِرَانِ ٱلشَّاهِدِ بِٱلِٱسْتِنَادِ إلى ٱلظَّاهِرِ وَحَقِيقَةُ ٱلتَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فَلِذٰلِكَ أُمِرْنَا بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً وَٱلتَّوَجُّهِ إلى مُسَبِّبِ ٱلأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لِتَرْسَخَ صِفَةُ ٱلتَّوْحِيدِ فِي ٱلنَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمَنَا ٱلشَّارِعُ ٱلَّذِي هُوَ أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِٱطِّلاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ ٱلأَسْبَابِ فَقَدِ ٱنْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْكُفْرِ وَإِنْ سَبَحَ فِي بَحْرِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لا يَعُودَ إِلَّا بِٱلْخَيْبَةِ فَلِذٰلِكَ نَهَانَا ٱلشَّارِعُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلأَسْبَابِ وَأَمَرَنَا بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْمُطْلَقِ قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ ٱللهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ وَلا تَثِقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ ٱلْفِكْرُ مِنْ أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى ٱلإِحَاطَةِ بِٱلْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَٱلْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ ٱلْوُجُودِ كُلِّهِ وَسَفِّهْ رَأْيَهُ فِي ذٰلِكَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِئِ رَأْيِهِ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ لا يَعْدُوهَا وَٱلأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلافِ ذٰلِكَ وَٱلْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلا تَرَى ٱلأَصَمَّ كَيْفَ يَنْحَصِرُ ٱلْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلأَرْبَعِ وَٱلْمَعْقُولاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ ٱلْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ ٱلْمَسْمُوعَاتِ وَكَذٰلِكَ ٱلأَعْمَى أَيْضاً يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَلَوْلا مَا يَرُدُّهُمْ إلى ذٰلِكَ تَقْلِيدُ ٱلآبَاءِ وَٱلْمَشْيَخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَٱلْكَافَّةِ لَمَا أَقَرُّوا بِهِ لٰكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ ٱلْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هٰذِهِ ٱلأَصْنَافِ لا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ سُئِلَ ٱلْحَيَوَانُ ٱلأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكِراً لِلْمَعْقُولاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَإِذَا عَلِمْتَ هٰذا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْباً مِنَ ٱلإِدْرَاكَاتِ غَيْرَ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا مَخْلُوقَةٌ

محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ولله من ورائهم محيط فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن في هذا الغلط ومن يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك وإذ تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع فإذاً التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها إذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه وهذا معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الإدراك إدراك ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانياً والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا إنما حصل له

منْ رَحْمةِ اليتيمِ مقامَ العِلمِ ولَمْ يحصُلْ لهُ مقامُ الحالِ والاتِّصافِ ومِنَ النَّاسِ مَن يحصُلُ لهُ معَ مقامِ العِلمِ والاعترافِ بأنَّ رحمةَ المسكينِ قُربةٌ إلى اللهِ تعالى مقامٌ آخرُ أعلى مِنَ الأوّلِ وهُوَ الاتِّصافُ بالرَّحمةِ وحُصولُ ملَكتِها فمتى رأى يتيماً أوْ مسكيناً بادرَ إليهِ ومسحَ عليهِ والتمسَ الثَّوابَ في الشَّفقةِ عليهِ لا يكادُ يصبرُ عن ذلكَ ولوْ دفعَ عنهُ ثُمَّ يتصدَّقُ عليهِ بما حضرَهُ مِنْ ذاتِ يدِهِ وكذا عِلمُكَ بالتَّوحيدِ مع اتِّصافِكَ بهِ والعِلمُ حاصلٌ عنِ الاتِّصافِ ضرورةً وهُوَ أوثقُ مبنى مِنَ العِلمِ الحاصلِ قبلَ الاتِّصافِ وليسَ الاتِّصافُ بحاصلٍ عنْ مُجرَّدِ العِلمِ حتّى يقعَ العملُ ويتكرَّرَ مراراً غيرَ منحصرةٍ فترسخَ الملَكةُ ويحصلَ الاتِّصافُ والتَّحقيقُ ويجيءَ العِلمُ الثّاني النّافعُ في الآخرةِ فإنَّ العِلمَ الأوّلَ المُجرَّدَ عنِ الاتِّصافِ قليلُ الجدوى والنَّفعِ وهذا علمُ أكثرِ النُّظّارِ والمطلوبُ إنَّما هُوَ العِلمُ الحاليُّ النّاشئُ عنِ العادةِ . واعلمْ أن الكمالَ عندَ الشّارعِ في كُلِّ ما كلفَ بهِ إنَّما هُوَ في هذا فما طُلبَ اعتقادُه فالكمالُ فيهِ في العِلمِ الثّاني الحاصلِ عنِ الاتِّصافِ وما طُلبَ عملُهُ مِنَ العباداتِ فالكمالُ فيها في حُصولِ الاتِّصافِ والتَّحقُّقِ بها ثُمَّ إنَّ الإقبالَ على العباداتِ والمُواظبة عليها هُوَ المُحصِّلُ لهذهِ الثَّمرةِ الشَّريفةِ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رأسِ العباداتِ جعلتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ فإنَّ الصَّلاةَ صارتْ لهُ صِفةً وحالاً يجدُ فيها مُنتهى لذّاتِهِ وقُرَّةَ عينِهِ وأينَ هذا مِنْ صلاةِ النّاسِ ومَنْ لهُمْ بها فويلٌ للمُصلّينَ الّذينَ هُمْ عنْ صلاتِهِم ساهُونَ اللَّهُمَّ وفِّقنا واهدِنا الصِّراطَ المُستقيمَ صِراطَ الّذينَ أنعمتَ عليهِمْ غيرِ المغضوبِ عليهِمْ ولا الضّالِّينَ فقدْ تبيَّنَ لكَ منْ جميعِ ما قرَّرناهُ أنَّ المطلوبَ في التَّكاليفِ كُلِّها حُصولُ ملَكةٍ راسخةٍ في النَّفسِ يحصُلُ عنها عِلمٌ اضطراريٌّ للنَّفسِ هُوَ التَّوحيدُ وهُوَ العقيدةُ الإيمانيَّةُ وهُوَ الّذي تحصُلُ بهِ السَّعادةُ وأنَّ ذلكَ سواءٌ في التَّكاليفِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ ويُتفهَّمُ مِنهُ أنَّ الإيمانَ الّذي هُوَ أصلُ التَّكاليفِ وينبوعُها هُوَ بهذهِ المثابةِ ذو مراتبَ أوّلُها التَّصديقُ القلبيُّ المُوافقُ للِّسانِ وأعلاها حُصولُ كيفيَّةٍ مِن ذلكَ الاعتقادُ القلبيِّ وما يتبعُهُ مِنَ العملِ مُستوليةً على القلبِ فيستتبعُ الجوارحَ وتندرجُ في طاعتِها جميعُ التَّصرُّفاتِ حتّى تنخرطَ الأفعالُ كُلُّها في طاعةِ ذلكَ التَّصديقِ الإيمانيِّ وهذا أرفعُ مراتبِ الإيمانِ وهُوَ الإيمانُ الكاملُ الّذي لا يُقارفُ المُؤمنُ

معهُ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إذ حصولُ المَلَكةِ ورسوخُها مانعٌ من الانحرافِ عن مناهجِها طرفةَ عينٍ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ وفي حديثِ هرقلَ لمّا سألَ أبا سفيانَ بنَ حربٍ عنِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وأحوالِهِ فقالَ في أصحابِهِ هل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينِهِ قالَ لا قالَ وكذلكَ الإيمانُ حينَ تخالطُ بشاشتُهُ القلوبَ ومعناهُ أنَّ ملكةَ الإيمانِ إذا استقرّتْ عسُرَ على النفسِ مخالفتُها شأنَ الملكاتِ إذا استقرّتْ فإنّها تحصلُ بمثابةِ الجبلّةِ والفطرةِ وهذهِ هيَ المرتبةُ العاليةُ منَ الإيمانِ وهيَ في المرتبةِ الثانيةِ منَ العصمةِ لأنَّ العصمةَ واجبةٌ للأنبياءِ وجوباً سابقاً وهذهِ حاصلةٌ للمؤمنينَ حصولاً تابعاً لأعمالِهم وتصديقِهم وبهذهِ الملكةِ ورسوخِها يقعُ التفاوتُ في الإيمانِ كالذي يُتلى عليكَ منْ أقاويلِ السلفِ وفي تراجمِ البخاريِّ رضيَ اللهُ عنهُ في بابِ الإيمانِ كثيرٌ منهُ مثلُ أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ويزيدُ وينقصُ وأنَّ الصلاةَ والصيامَ منَ الإيمانِ وأنَّ تطوّعَ رمضانَ منَ الإيمانِ والحياءَ منَ الإيمانِ والمرادُ بهذا كلِّهِ الإيمانُ الكاملُ الذي أشرنا إليهِ وإلى ملكتِهِ وهوَ فعليٌّ وأمّا التصديقُ الذي هوَ أوّلُ مراتبِهِ فلا تفاوتَ فيهِ فمنِ اعتبرَ أوائلَ الأسماءِ وحملَهُ على التصديقِ منعَ منَ التفاوتِ كما قالَ أئمّةُ المتكلّمينَ ومنِ اعتبرَ أواخرَ الأسماءِ وحملَهُ على هذهِ الملكةِ التي هيَ الإيمانُ الكاملُ ظهرَ لهُ التفاوتُ وليسَ ذلكَ بقادحٍ في اتّحادِ حقيقتِهِ الأولى التي هيَ التصديقُ إذِ التصديقُ موجودٌ في جميعِ رتبِهِ لأنّهُ أقلُّ ما يطلقُ عليهِ اسمُ الإيمانِ وهوَ المخلّصُ منْ عهدةِ الكفرِ والفيصلُ بينَ الكافرِ والمسلمِ فلا يجزي أقلُّ منهُ وهوَ في نفسِهِ حقيقةٌ واحدةٌ لا تتفاوتُ وإنّما التفاوتُ في الحالِ الحاصلةِ عنِ الأعمالِ كما قلناهُ فافهمْ واعلمْ أنَّ الشارعَ وصفَ لنا هذا الإيمانَ الذي في المرتبةِ الأولى الذي هوَ تصديقٌ وعيّنَ أموراً مخصوصةً كلّفنا التصديقَ بها بقلوبِنا واعتقادَها في أنفسِنا معَ الإقرارِ بألسنتِنا وهيَ العقائدُ التي تقرّرتْ في الدينِ قالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ حينَ سُئلَ عنِ الإيمانِ فقالَ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ وهذهِ هيَ العقائدُ الإيمانيّةُ المقرّرةُ في علمِ الكلامِ . ولنشرْ إليها مجملةً لتتبيّنَ لكَ حقيقةُ هذا الفنِّ وكيفيّةُ حدوثِهِ فنقولُ . إعلمْ أنَّ الشارعَ لمّا أمرنا بالإيمانِ بهذا الخالقِ الذي ردّ

الْأَفْعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هٰذَا الْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ إِذَا حَضَرْنَا لَمْ يُعَرِّفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هٰذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِدْرَاكِنَا وَمِنْ فَوْقِ طَوْرِنَا فَكَلَّفَنَا أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا لَمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هٰذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَإِلَّا لَشَابَهَ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالِاتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانُعِ ثُمَّ اعْتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذٰلِكَ تَتِمُّ الْأَفْعَالُ شَاهِدَ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الِاتِّحَادِ وَالْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَإِلَّا لَمْ يُخَصَّصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدِّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَالْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِنَايَتِهِ بِالْإِيجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ فَإِنْ كَانَ عَبَثًا فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمَّ اعْتِقَادَ بَعْثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هٰذَا الْمَعَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذٰلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِيتَاءِ بِذٰلِكَ وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هٰذِهِ أُمَّهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا الْعَقْلِيَّةِ وَأَدِلَّتُهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأَئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذٰلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هٰذِهِ الْعَقَائِدِ أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذٰلِكَ إِلَى الْخِصَامِ وَالتَّنَاظُرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةٍ إِلَى النَّقْلِ فَحَدَثَ بِذٰلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ تَفْصِيلَ هٰذَا الْمُجْمَلِ وَذٰلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمُطْلَقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُوهِمُ التَّشْبِيهَ وَقَضَوْا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللّٰهِ فَآمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِبَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ اقْرَأُوهَا كَمَا جَاءَتْ أَيْ آمِنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا بِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ ابْتِلَاءً فَيَجِبُ الْوَقْفُ وَالْإِذْعَانُ لَهُ وَشَذَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدِعَةٌ اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ الْآيَاتِ وَتَوَغَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ فَفَرِيقٌ أَشْبَهُوا فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا بِظَوَاهِرَ وَرَدَتْ بِذٰلِكَ فَوَقَعُوا فِي التَّجْسِيمِ الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ التَّنْزِيهِ الْمُطْلَقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةً لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي النَّقْصَ وَالِافْتِقَارَ وَتَغْلِيبُ

آيات السُّلوب في التَّنْزِيه المُطلَق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلّق بظواهر هذه التي لنا عنها غُنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرّون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه ويتوقف مثله على الإذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما اندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لئلا يكرّ النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فإنهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل لخلافهم إيسار كثير منهم ودماؤهم وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات

ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ ٱلتَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلْأَدِلَّةُ ٱلْمُخَصِّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْأَرْبَعَ ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَائِمَ بِٱلنَّفْسِ بِطَرِيقِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهَّدُوهُ لِهَٰذِهِ ٱلْبِدَعِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلصَّلَاحِ وَٱلْأَصْلَحِ وَٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ وَكَمَّلَ ٱلْعَقَائِدَ فِي ٱلْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ وَأَلْحَقَ بِذَٰلِكَ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعُهْدَةِ فِي ذَٰلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَٰلِكَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَقُصَارَى أَمْرِ ٱلْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تَلْحَقُ بِٱلْعَقَائِدِ فَلِذَٰلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَٰذَا ٱلْفَنِّ وَسَمَّوْا مَجْمُوعَهُ عِلْمَ ٱلْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ عَلَى ٱلْبِدَعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَت رَاجِعَةً إِلَى عَمَلٍ وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَٱلْخَوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ ٱلشَّيْخِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيِّ وَٱقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تِلْمِيذُهُ كَٱبْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَّبَهَا وَوَضَعَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ٱلْأَدِلَّةُ وَٱلْأَنْظَارُ وَذَٰلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ ٱلْجَوْهَرِ ٱلْفَرْدِ وَٱلْخَلَاءِ وَأَنَّ ٱلْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِٱلْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ وَجَعَلَ هَٰذِهِ ٱلْقَوَاعِدَ تَبَعاً لِلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ ٱعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ ٱلدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ ٱلْمَدْلُولِ وَجُمِلَتْ هَٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْفُنُونِ ٱلنَّظَرِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا ٱلْأَقْيِسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي ٱلْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ ٱلشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ لِمُلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ٱلْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَٰلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيِّ إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبُو ٱلْمَعَالِي فَأَمْلَى فِي ٱلطَّرِيقَةِ كِتَابَ ٱلشَّامِلِ وَأَوْسَعَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِرْشَادِ وَٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ إِمَاماً لِعَقَائِدِهِمْ ثُمَّ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عُلُومُ ٱلْمَنْطِقِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ ٱلنَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمِعْيَارٌ لِلْأَدِلَّةِ فَقَطْ يُسْبَرُ بِهِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسْبَرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ ٱلْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلَّتِي

أَدَلَّتْ إلى ذلكَ وَرُبَّمَا أَنَّ كَثِيراً مِنهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلامِ ٱلفَلاسِفَةِ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلْإِلٰهِيَّاتِ فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلمَنطِقِ رَدَّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بُطْلانَ ٱلمَدْلُولِ مِنْ بُطْلانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ ٱلقَاضِي فَصَارَتْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ مِنْ مُصْطَلَحِهِمِ مبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ ٱلأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةَ ٱلمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا ٱلرَّدَّ عَلَى ٱلفَلاسِفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلعَقَائِدِ ٱلإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ ٱلعَقَائِدِ لِتَنَاسُبِ ٱلكَثِيرِ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلمُبْتَدِعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ ٱلكَلامِ عَلَى هٰذَا ٱلمَنْحَى ٱلغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وَتَبِعَهُ ٱلإِمَامُ ٱبْنُ ٱلخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَوْا أَثَرَهُمْ وَٱعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ ثُمَّ تَوَغَّلَ ٱلمُتَأَخِّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ ٱلفَلْسَفَةِ وَٱلتَبَسَ عَلَيْهِمْ شَأْنُ ٱلمَوْضُوعِ فِي ٱلعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِداً مِنِ ٱشْتِبَاهِ ٱلمَسَائِلِ فِيهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِٱلكَائِنَاتِ وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ ٱلبَارِىءِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ نَوْعُ ٱسْتِدْلَالِهِمْ غَالِباً وَٱلجِسْمُ ٱلطَّبِيعِيُّ يَنظُرُ فِيهِ ٱلفَيْلَسُوفُ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلكَائِنَاتِ إِلاَّ أَنَّ نَظَرَهُ فِيهَا مُخَالِفٌ لِنَظَرِ ٱلمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنظُرُ فِي ٱلجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَٱلمُتَكَلِّمُ يَنظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى ٱلفَاعِلِ وَكَذَا نَظَرُ ٱلفَيْلَسُوفِ فِي ٱلإِلٰهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي ٱلوُجُودِ ٱلمُطْلَقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِذَاتِهِ وَنَظَرُ ٱلمُتَكَلِّمِ فِي ٱلوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلمُوجِدِ وَبِٱلجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ ٱلكَلامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ ٱلعَقَائِدُ ٱلإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرْضِهَا صَحِيحَةً مِنَ ٱلشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا بِٱلأَدِلَّةِ ٱلعَقْلِيَّةِ فَتُرْفَعُ ٱلبِدَعُ وَتَزُولُ ٱلشُّكُوكُ وَٱلشُّبَهُ عَنْ تِلْكَ ٱلعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ ٱلفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَ كَلامُ ٱلنَّاسِ فِيهِ صَدْراً بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرِضُ ٱلعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهِضُ ٱلحُجَجَ وَٱلأَدِلَّةَ عَلِمْتَ حِينَئِذٍ مَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ ٱلفَنِّ وَأَنَّهُ لاَ يَعْدُوهُ وَلَقَدِ ٱخْتَلَطَتِ ٱلطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هٰؤُلاءِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ وَٱلتَبَسَتْ مَسَائِلُ ٱلكَلامِ بِمَسَائِلِ ٱلفَلْسَفَةِ بِحَيْثُ لاَ يَتَمَيَّزُ أَحَدُ ٱلفَنَّيْنِ مِنَ ٱلآخَرِ وَلاَ يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ ٱلبَيْضَاوِيُّ فِي ٱلطَّوَالِعِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَآلِيفِهِمْ إِلاَّ أَنَّ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ ٱلعِلْمِ لِلاطِّلاعِ عَلَى ٱلمَذَاهِبِ وَٱلإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ ٱلحِجَاجِ لِوُفُورِ ذَلِكَ فِيهَا وَأَمَّا مُحَاذَاةُ طَرِيقَةِ ٱلسَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ ٱلكَلامِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلطَّرِيقَةِ ٱلقَدِيمَةِ

للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد وما حذا حذوه ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائدهم فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

الفصل الحادي عشر
في علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه . قلت والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف

فلمّا اختصّ هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصّوا بمآخذ مدركة لهم وذلك أنّ الإنسان بما هو إنسان إنّما يتميّز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظنّ والشكّ والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي يميّز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلّة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمّام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بدّ وأن ينشأ له عن كلّ مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال إمّا أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد وإمّا أن لا تكون عبادة وإنّما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقّى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلّى الله عليه وسلّم من مات يشهد أن لا إله إلّا الله دخل الجنّة فالمريد لا بدّ له من الترقّي في هذه الأطوار وأصلها كلّها الطاعة والاخلاص ويتقدّمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات ثمّ تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فتعلم أنّه إنّما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لأنّ حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك إلّا القليل من الناس لأنّ الغفلة عن هذا كأنّها شاملة وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنّهم يأتون بالطاعات مخلّصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطّلعوا على أنّها خالصة من التقصير أو لا فظهر أنّ أصل طريقتهم كلّها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثمّ تستقرّ للمريد

مقاماً يترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بيّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوّناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دوّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك. ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوءه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق

ٱلْوُجودِ مَا لاَ يُدرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذٰلِكَ يُدرِكُونَ كَثِيراً مِنَ ٱلْوَاقِعَاتِ قَبلَ وُقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهِمَمِهِمْ وَقُوَى نُفُوسِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلسُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طَوعَ إِرَادَتِهِمْ فَٱلْعُظَمَاءُ مِنْهُم لاَ يَعْتَبِرُونَ هٰذَا ٱلْكَشْفَ وَلاَ يَتَصَرَّفُونَ وَلاَ يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِٱلتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعُدُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِحنَةً وَيَتَعَوَّذُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ وَقَدْ كَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنهُمْ عَلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُجَاهَدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْكَرَامَاتِ أَوْفَرَ ٱلْحُظُوظِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنهَا وَتَبِعَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَهْلُ ٱلطَّرِيقَةِ مِمَّنِ ٱشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ ٱلْقُشَيْرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبِعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ قَوماً مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱنْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ ٱلْحِجَابِ وَٱلْمَدَارِكِ ٱلَّتِي وَرَاءَهُ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُ ٱلرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلاَفِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ ٱلْقُوَى ٱلْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ بِٱلذِّكْرِ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نُشُوئِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْوُجودَ قَدِ ٱنْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ ٱلْوُجودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ ٱلْعَرْشِ إِلَى ٱلطَّشِّ هٰكَذَا قَالَ ٱلْغَزَالِي رَحِمَهُ ٱللّٰهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ ٱلرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلْكَشْفَ لاَ يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً عَنِ ٱلْإِسْتِقَامَةِ لِأَنَّ ٱلْكَشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ٱسْتِقَامَةٌ كَٱلسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِم مِنَ ٱلْمُرْتَاضِينَ وَلَيسَ مُرَادُنَا إِلَّا ٱلْكَشْفَ ٱلنَّاشِئَ عَنِ ٱلْإِسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ ٱلْمِرْآةَ ٱلصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَحُوذِيَ بِهَا جِهَةُ ٱلْمَرْئِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعْوَجّاً عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا ٱلْمَرْئِيُّ صَحِيحاً فَٱلْإِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَٱلْإِنْبِسَاطِ لِلْمِرْآةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَمَّا عُنِيَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِهٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَٱلسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرُّوحِ وَٱلْعَرْشِ وَٱلْكُرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذٰلِكَ وَأَهْلُ ٱلْفُتْيَا بَيْنَ مُنْكِرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسَلِّمٍ لَهُمْ وَلَيْسَ ٱلْبُرْهَانُ وَٱلدَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هٰذَا ٱلطَّرِيقِ رَدّاً وَقُبُولاً إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْوُجْدَانِيَّاتِ وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ ٱلْمُصَنِّفِينَ بَيَانَ مَذْهَبِهِمْ فِي كَشْفِ ٱلْوُجودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَتَى بِٱلْأَغْمَضِ

فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمّون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمّل من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من

جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك العقلي فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود وإنما هو في المدارك فقط فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه وإليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا والإنسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم

إنَّ هؤلاء المتأخرينَ من المتصوفةِ المتكلّمين في الكشفِ وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثيرُ منهم إلى الحلولِ والوحدةِ كما أشرنا إليه وملأوا الصحفَ منهُ مثلُ الهرويّ في كتابِ المقاماتِ لهُ وغيرُهُ وتبعهم ابنُ العربيّ وابن سبعين وتلميذُهُما ابنُ العفيفِ وابنُ الفارضِ والنجمُ الإسرائيليُّ في قصائدهم وكان سلفُهم مخالطينَ للإسماعيليةِ المتأخرينَ من الرافضةِ الدائنينَ أيضاً بالحلولِ وإلهيةِ الأئمةِ مذهباً لم يُعرفْ لأولِهم فأُشربَ كلُّ واحدٍ من الفريقينِ مذهبَ الآخرِ واختلط كلامُهم وتشابهت عقائدُهم وظهرَ في كلامِ المتصوفةِ القولُ بالقطبِ ومعناهُ رأس العارفينَ يزعُمونَ أنَّهُ لا يمكنُ أن يساويَهُ أحدٌ في مقامِهِ في المعرفةِ حتّى يقبضَهُ اللهُ ثمَّ يورِثَ مقامَهُ لآخرَ من أهلِ العرفانِ وقد أشارَ إلى ذلكَ ابنُ سينا في كتابِ الإشاراتِ في فصولِ التصوفِ منها فقالَ جلَّ جنابُ الحقِّ أن يكونَ شِرعةً لكلِّ واردٍ أو يطّلعَ عليهِ إلا الواحدَ بعدَ الواحدِ وهذا كلامٌ لا تقومُ عليهِ حجةٌ عقليةٌ ولا دليلٌ شرعيٌّ وإنما هوَ من أنواعِ الخطابةِ وهوَ بعينِهِ ما تقولُهُ الرافضةُ ودانوا بهِ ثمَّ قالوا بترتيبِ وجودِ الأبدالِ بعدَ هذا القطبِ كما قالَهُ الشيعةُ في النقباءِ حتّى أنّهم لمّا أسندوا لباسَ خرقةِ التصوفِ ليجعلوهُ أصلاً لطريقتِهم وتخليهم رفعوهُ إلى عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ من هذا المعنى أيضاً وإلاّ فعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لم يختصَّ من بينِ الصحابةِ بتخليةٍ ولا طريقةٍ في لباسٍ ولا حالٍ بل كانَ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهما أزهدَ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ وأكثرَهم عبادةً ولم يختصَّ أحدٌ منهم في الدينِ بشيءٍ يؤثرُ عنهُ في الخصوصِ بل كانَ الصحابةُ كلُّهم أسوةً في الدينِ والزهدِ والمجاهدةِ يشهدُ لذلكَ من كلامِ هؤلاءِ المتصوفةِ في أمرِ الفاطميِّ وما شحنوا كتبَهم في ذلكَ ممّا ليسَ لسلفِ المتصوفةِ فيهِ كلامٌ بنفيٍ أو إثباتٍ وإنّما هو مأخوذٌ من كلامِ الشيعةِ والرافضةِ ومذاهبِهم في كتبِهم واللهُ يهدي إلى الحقِّ ثمَّ إنَّ كثيراً من الفقهاءِ وأهلِ الفتيا انتدبوا للردِّ على هؤلاءِ المتأخرينَ في هذهِ المقالاتِ وأمثالِها وشملوا بالنكيرِ سائرَ ما وقعَ لهم في الطريقةِ والحقُّ أنَّ كلامَهم معهم فيهِ تفصيلٌ فإنَّ كلامَهم في أربعةِ مواضعَ أحدُها الكلامُ على المجاهداتِ وما يحصُلُ من الأذواقِ والمواجدِ ومحاسبةِ النفسِ على الأعمالِ لتحصُلَ تلكَ الأذواقُ التي

تَصِيرُ مَقاماً وَيُتَرَقَّى مِنْهُ إلى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَثانيهَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْكَشْفِ وَٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُدْرَكَةِ مِنْ عالَمِ ٱلْغَيْبِ مِثْلَ ٱلصِفاتِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ وَٱلْعَرْشِ وَٱلْكُرْسِيِّ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْوَحْيِ وَٱلنُّبُوَّةِ وَٱلرُّوحِ وَحقائِقِ كُلِّ مَوْجودٍ غائِبٍ أَوْ شاهِدٍ وَتَرْكِيبِ ٱلْأَكْوانِ فِي صُدُورِها عَنْ مُوجِدِها وَتَكَوُّنِهَا كَمَا مَرَّ وَثَالِثُهَا ٱلتَّصرُّفَاتُ فِي ٱلْعَوالِمِ وَٱلْأَكْوانِ بِأَنْوَاعِ ٱلْكَرَامَاتِ وَرَابِعُهَا أَلْفاظٌ مُوهِمَةُ ٱلظَّاهِرِ صَدَرَتْ مِنَ ٱلْكَثِيرِ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْقَوْمِ يُعَبِّرُونَ عَنهَا فِي ٱصطِلَاحِهِمْ بِٱلشَّطَحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكِرٌ وَمُحَسِّنٌ وَمُتَأَوِّلٌ فَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْمُجَاهَدَاتِ وَٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ ٱلْأَذْوَاقِ وَٱلْمَوَاجِدِ فِي نَتَائِجِهَا وَمُحَاسَبَةِ ٱلنَّفْسِ عَلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي أَسْبَابِهَا فَأَمْرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَأَذْوَاقُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَٱلتَّحَقُّقُ بِهَا هُوَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ وَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي كَرَامَاتِ ٱلْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِٱلْمُغَيَّبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي ٱلْكَائِنَاتِ فَأَمْرٌ صَحِيحٌ غَيْرُ مُنْكَرٍ وَإِنْ مَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ إِلَى إِنْكَارِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَمَا ٱحْتَجَّ بِهِ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْإِسْفَرَايِنِي مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى إِنْكَارِهَا لِٱلْتِبَاسِهَا بِٱلْمُعْجِزَةِ فَقَدْ فَرَّقَ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِٱلتَّحَدِّي وَهُوَ دَعْوَى وُقُوعِ ٱلْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ قَالُوا ثُمَّ إِنَّ وُقُوعَهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى ٱلْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالَةَ ٱلْمُعْجِزَةِ عَلَى ٱلصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا ٱلتَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ ٱلْكَاذِبِ لَتَبَدَّلَتْ صِفَةُ نَفْسِهَا وَهُوَ مُحَالٌ هَذَا مَعَ أَنَّ ٱلْوُجُودَ شَاهِدٌ بِوُقُوعِ ٱلْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ ٱلْكَرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا نَوْعُ مُكَابَرَةٍ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِ ٱلسَّلَفِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ وَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْكَشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ ٱلْعُلْوِيَّاتِ وَتَرْتِيبِ صُدُورِ ٱلْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وِجْدَانِي عِنْدَهُمْ وَفَاقِدُ ٱلْوِجْدَانِ عِنْدَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ وَٱللُّغَاتُ لَا تُعْطَى لَهُ دَلَالَةً عَلَى مُرَادِهِمْ مِنْهُ لِأَنَّهَا لَمْ تُوضَعْ إِلَّا لِلْمُتَعَارَفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا نَتَعَرَّضَ لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَنَتْرُكَهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ ٱلْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ ٱللَّهُ فَهْمَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُوَافِقِ لِظَاهِرِ ٱلشَّرِيعَةِ فَأَكْرِمْ بِهَا سَعَادَةً وَأَمَّا ٱلْأَلْفَاظُ ٱلْمُوهِمَةُ ٱلَّتِي يُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِٱلشَّطَحَاتِ وَيُؤَاخِذُهُمْ بِهَا أَهْلُ ٱلشَّرْعِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ ٱلْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ ٱلْحِسِّ وَٱلْوَارِدَاتُ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى يَنْطِقُوا عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ ٱلْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَٱلْمَجْبُورُ مَعْذُورٌ فَمَنْ

علِمَ مِنهُمْ فَضْلُهُ وَٱقتِدَاؤُهُ حُمِلَ عَلَى ٱلقَصْدِ ٱلْجَمِيلِ مِنْ هٰذَا وَأَنَّ ٱلعِبَارَةَ عَنِ ٱلمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفُقْدَانِ ٱلوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ فَضْلُهُ وَلاَ ٱشْتَهَرَ فَمُؤَاخَذٌ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا عَلَى تَأْوِيلِ كَلاَمِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ ٱلحَالُ فَمُؤَاخَذٌ أَيْضاً وَلِهٰذَا أَفْتَى ٱلفُقَهَاءُ وَأَكَابِرُ ٱلمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ ٱلحَلاَّجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورٍ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ ٱلمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلرِّسَالَةِ أَعْلاَمُ ٱلمِلَّةِ ٱلَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَيْهِم مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ ٱلحِجَابِ وَلاَ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلإِدْرَاكِ إِنَّمَا هَمُّهُمُ ٱلإِتِّبَاعُ وَٱلإِقْتِدَاءُ مَا ٱسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْفِلْ بِهِ بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ ٱلعَوَائِقِ وَٱلمِحَنِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ ٱلنَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ ٱلمَوْجُودَاتِ لاَ تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ ٱلإِنْسَانِ وَعِلْمُ ٱللهِ أَوْسَعُ وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ بِٱلهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلاَ يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ بَلْ حَظَرُوا ٱلخَوْضَ فِي ذٰلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يُكْشَفُ لَهُ ٱلحِجَابُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ ٱلخَوْضِ فِيهِ وَٱلوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ ٱلحِسِّ قَبْلَ ٱلكَشْفِ مِنَ ٱلإِتِّبَاعِ وَٱلإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِٱلتِزَامِهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ ٱلمُرِيدِ وَٱللهُ ٱلمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هٰذَا ٱلعِلْمُ مِنَ ٱلعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي ٱلمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ ٱلعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا ٱلرُّؤْيَا وَٱلتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُوداً فِي ٱلسَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي ٱلخَلَفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلمُلُوكِ وَٱلأُمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلإِكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلاَمِ ٱلمُعَبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلإِسْلاَمِ وَإِلَّا فَٱلرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ ٱلبَشَرِ عَلَى ٱلإِطْلاَقِ وَلاَ بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ ٱلصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ ٱلرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي ٱلقُرْآنِ وَكَذٰلِكَ ثَبَتَ عَنِ ٱلصَّحِيحِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَٱلرُّؤْيَا مُدْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ ٱلغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلرُّؤْيَا ٱلصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلمُبَشِّرَاتِ إِلَّا ٱلرُّؤْيَا

الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما بدأ به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو أن الروح القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل انحبس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الإدراك وإنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة من عالمه وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع إلى بدنه إذ هو ما دام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي إلى الحسي والخيال أيضا واسطة هذه حقيقة

ٱلرُّؤْيا وَمِنْ هٰذا ٱلتَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّالِحَةِ وَأَضْغاثِ ٱلأَحْلامِ ٱلْكاذِبَةِ فَإِنَّها كُلَّها صُوَرٌ فِي ٱلْخَيالِ حالَةَ ٱلنَّوْمِ وَلٰكِنْ إِنْ كانَتْ تِلْكَ ٱلصُّوَرُ مُتَنَزِّلَةً مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلْمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيا وَإِنْ كانَتْ مَأْخُوذَةً مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلَّتِي فِي ٱلْحافِظَةِ ٱلَّتِي كانَ ٱلْخَيالُ أَوْدَعَها إِيَّاها مُنْذُ ٱلْيَقَظَةِ فَهِيَ أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَأَمَّا مَعْنَى ٱلتَّعْبِيرِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْعَقْلِيَّ إِذا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقاهُ إِلَى ٱلْخَيالِ فَصَوَّرَهُ فَإِنَّما يُصَوِّرُهُ فِي ٱلصُّوَرِ ٱلْمُناسِبَةِ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَما يُدْرِكُ مَعْنَى ٱلسُّلْطانِ ٱلأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ ٱلْخَيالُ بِصُورَةِ ٱلْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ ٱلْعَداوَةَ فَيُصَوِّرُها ٱلْخَيالُ فِي صُورَةِ ٱلْحَيَّةِ فَإِذا ٱسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى ٱلْبَحْرَ أَوِ ٱلْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ ٱلْمُعَبِّرُ بِقُوَّةِ ٱلتَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ ٱلْبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ ٱلْمُدْرَكَ وَراءَها وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ ٱلْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مَثَلاً هُوَ ٱلسُّلْطانُ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يُناسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِها ٱلسُّلْطانُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَيَّةُ يُناسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِٱلْعَدُوِّ لِعِظَمِ ضَرَرِها وَكَذا ٱلأَوانِي تُشَبَّهُ بِٱلنِّساءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ وَأَمْثالُ ذٰلِكَ وَمِنَ ٱلْمَرْئِيِّ ما يَكُونُ صَرِيحاً لا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِجَلائِها وَوُضُوحِها أَوْ لِقُرْبِ ٱلشَّبَهِ فِيها بَيْنَ ٱلْمُدْرَكِ وَشِبْهِهِ وَلِهٰذا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ ٱلرُّؤْيا ثَلاثٌ رُؤْيا مِنَ ٱللّٰهِ وَرُؤْيا مِنَ ٱلْمَلَكِ وَرُؤْيا مِنَ ٱلشَّيْطانِ فَٱلرُّؤْيا ٱلَّتِي مِنَ ٱللّٰهِ هِيَ ٱلصَّرِيحَةُ ٱلَّتِي لا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَٱلَّتِي مِنَ ٱلْمَلَكِ هِيَ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى ٱلتَّعْبِيرِ وَٱلرُّؤْيا ٱلَّتِي مِنَ ٱلشَّيْطانِ هِيَ ٱلأَضْغاثُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخَيالَ إِذا أَلْقَى إِلَيْهِ ٱلرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّما يُصَوِّرُهُ فِي ٱلْقَوالِبِ ٱلْمُعْتادَةِ لِلْحِسِّ وَما لَمْ يَكُنِ ٱلْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلا يُمْكِنُ مِنْ وَلَدٍ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ ٱلسُّلْطانَ بِٱلْبَحْرِ وَلا ٱلْعَدُوُّ بِٱلْحَيَّةِ وَلا ٱلنِّساءُ بِٱلأَوانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ وَإِنَّما يُصَوِّرُ لَهُ ٱلْخَيالُ أَمْثالَ هٰذِهِ فِي شِبْهِها وَمُناسِبِها مِنْ جِنْسِ مَدارِكِهِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَسْمُوعاتُ وَٱلْمَشْمُوماتُ وَلْيَتَحَفَّظِ ٱلْمُعَبِّرُ مِنْ مِثْلِ هٰذا فَرُبَّما ٱخْتَلَطَ بِهِ ٱلتَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قانُونُهُ ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ ٱلتَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوانِينَ كُلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْها ٱلْمُعَبِّرُ عِبارَةَ ما يُقَصُّ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَما يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلسُّلْطانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْغَيْظِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْهَمِّ وَٱلأَمْرِ ٱلْفادِحِ وَمِثْلَ ما يَقُولُونَ ٱلْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كاتِمُ سِرٍّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلَى

ٱلْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فَيَحْفَظُ ٱلْمُعَبِّرُ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْكُلِّيَّةَ وَيُعَبِّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْضِيهِ ٱلْقَرَائِنُ ٱلَّتِي تُعَيِّنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلرُّؤْيَا وَتِلْكَ ٱلْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي ٱلْيَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي ٱلنَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ ٱلْمُعَبِّرِ بِٱلْخَاصِّيَّةِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مُتَنَاقَلًا بَيْنَ ٱلسَّلَفِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ مِنْ أَشْهَرِ ٱلْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَوَانِينُ وَتَنَاقَلَهَا ٱلنَّاسُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَلَّفَ ٱلْكَرْمَانِيُّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ أَلَّفَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ وَأَكْثَرُوا وَٱلْمُتَدَاوَلُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كُتُبُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱلْقَيْرَوَانِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْقَيْرَوَانِ مِثْلُ ٱلْمُمْتِعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ ٱلْإِشَارَةِ لِلسَّالِمِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيءٌ بِنُورِ ٱلنُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسَبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا كَمَا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ وَٱللهُ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَهِيَ غَيْرُ مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ بِوَجْهِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِلَى أَهْلِ ٱلْمِلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمْرَانُ ٱلْخَلِيقَةِ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْعُلُومُ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ ٱلْأَوَّلُ عِلْمُ ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ ٱلذِّهْنَ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي ٱقْتِنَاصِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْمَجْهُولَةِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْحَاصِلَةِ ٱلْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ ٱلْخَطَإِ مِنَ ٱلصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ ٱلْحَقِّ فِي ٱلْكَائِنَاتِ بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ ثُمَّ ٱلنَّظَرُ بَعْدَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ مِنَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ وَٱلْمُكَوَّنَةِ عَنْهَا مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْفَلَكِيَّةِ وَٱلْحَرَكَاتِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا ٱلْحَرَكَاتُ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلْفَنُّ بِٱلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَهُوَ ٱلثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلطَّبِيعَةِ مِنَ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَهُوَ ٱلثَّالِثُ مِنْهَا وَٱلْعِلْمُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى ٱلتَّعَالِيمَ أَوَّلُهَا عِلْمُ ٱلْهَنْدَسَةِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ إِمَّا ٱلْمُنْفَصِلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةً أَوِ ٱلْمُتَّصِلَةِ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ ٱلسَّطْحُ أَوْ ذُو أَبْعَادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

ٱلْجِسْمُ ٱلتَّعْلِيمِيُّ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيهَا عِلْمُ ٱلْأَرِتْمَاطِيقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْرِضُ لِلْكَمِّ ٱلْمُنْفَصِلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ وَٱلْعَوَارِضِ ٱللَّاحِقَةِ وَثَالِثُهَا عِلْمُ ٱلْمُوسِيقَى وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسَبِ ٱلْأَصْوَاتِ وَٱلنَّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِٱلْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاحِينِ ٱلْغِنَاءِ وَرَابِعُهَا عِلْمُ ٱلْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ ٱلْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعَدُّدُهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ ٱلسَّيَّارَةِ وَٱلْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحَرَكَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَٱسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَهٰذِهِ أُصُولُ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ٱلْمَنْطِقُ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ ٱلتَّعَالِيمُ فَٱلْأَرِتْمَاطِيقِي أَوَّلاً ثُمَّ ٱلْهَنْدَسَةُ ثُمَّ ٱلْهَيْئَةُ ثُمَّ ٱلْمُوسِيقَى ثُمَّ ٱلطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ ٱلْإِلٰهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ ٱلطِّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلْعَدَدِ عِلْمُ ٱلْحِسَابِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلْأَزْيَاجُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذٰلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّجُومِ عَلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَٱعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي ٱلْأَجْيَالِ ٱلَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ ٱلْأُمَّتَانِ ٱلْعَظِيمَتَانِ فِي ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَٱلرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى مَا بَلَغَنَا لِمَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ مَوْفُوراً فِيهِمْ وَٱلدَّوْلَةُ وَٱلسُّلْطَانُ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَعَصْرِهِ لَهُمْ فَكَانَ لِهٰذِهِ ٱلْعُلُومِ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكِلْدَانِيِّينَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلسِّرْيَانِيِّينَ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْقِبْطِ عِنَايَةٌ بِٱلسِّحْرِ وَٱلنِّجَامَةِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلطَّلَاسِمِ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُمُ ٱلْأُمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَٱخْتَصَّ بِهَا ٱلْقِبْطُ وَطَمَى بَحْرُهَا فِيهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْمَتْلُوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ ٱلسَّحَرَةِ وَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ مِنْ شَأْنِ ٱلْبَرَابِي بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَتَابَعَتِ ٱلْمِلَلُ بِحَظْرِ ذٰلِكَ وَتَحْرِيمِهِ فَدُرِسَتْ عُلُومُهُ وَبَطَلَتْ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُنْتَحِلُو هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُيُوفَ ٱلشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنِ ٱخْتِبَارِهَا وَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَكَانَ شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيماً وَنِطَاقُهَا مُتَّسِعاً لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱتِّصَالِ ٱلْمُلْكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم ممّا لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنفيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا . وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاءون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفرودسي وتامسطيون وغيرهم وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر . ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبحبح من السلطان والدولة وأخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم

في ٱستخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه وٱستوعب وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الأندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه . ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على بحج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام . وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعاً على العلوم الحكمية وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار .

الفصل الرابع عشر

في العلوم العددية

وأولها الأرتماطيقي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فرداً مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جراً وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الأعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها ثم المربعات ثم المخمسات الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضاً خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها كذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فإن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتآليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجا وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية

كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم . (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) . وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عددا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الأعداد إما بالإفراد مثل إزالة عدد منه عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فإن تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتديء بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على الفهم مالا يوجد في أعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين . (ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب أولها العدد لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه وثانيها الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه

في ٱلمَرْتَبَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَثَالِثُهَا ٱلمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهَمٌ وَمَا بَعْدَ ذٰلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ ٱلأُسِّ فِي ٱلمَضْرُوبَيْنِ ثُمَّ يَقَعُ ٱلعَمَلُ ٱلمَفْرُوضُ فِي ٱلمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ ٱلكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحاً وَيَحُطُّونَ ٱلمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ ٱلأُسُوسِ إِنْ أَمْكَنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ ٱلجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ ٱلعَدَدُ وَٱلشَّيْءُ وَٱلمَالُ فَإِنْ كَانَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَٱلمَالُ وَٱلجِذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ ٱلعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَٱلمَالُ وَإِنْ عَادَلَ ٱلجُذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ ٱلعَمَلُ ٱلهَنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ ٱلضَّرْبِ فِي ٱلِاثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَيُعَيِّنُهَا ذٰلِكَ ٱلضَّرْبُ ٱلمُفَصَّلُ وَلَا يُمْكِنُ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ وَٱثْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا ٱنْتَهَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ ٱلمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجِذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٌ أَوْ مُرَكَّبَةٌ تَجِيءُ سِتَّةً وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هٰذَا ٱلفَنِّ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلخُوَارَزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ وَجَاءَ ٱلنَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ ٱلسِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ ٱلكُتُبِ ٱلمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ ٱلقُرَشِيِّ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ بَعْضَ أَئِمَّةِ ٱلتَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ ٱلمَشْرِقِ أَنْهَى ٱلمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّتَّةِ ٱلأَجْنَاسِ وَبَلَغَهَا إِلَى فَوْقِ ٱلعِشْرِينَ وَٱسْتَخْرَجَ لَهَا كُلِّهَا أَعْمَالاً وَأَتْبَعَهُ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ وَٱللّٰهُ يَزِيدُ فِي ٱلخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (ومن فروعه ايضاً المعاملات) . وَهُوَ تَصْرِيفُ ٱلحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ ٱلمُدُنِ فِي ٱلبِيَاعَاتِ وَٱلمِسَاحَاتِ وَٱلزَّكَوَاتِ وَسَائِرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ ٱلعَدَدُ مِنَ ٱلمُعَامَلَاتِ يُصَرَّفُ فِي صِنَاعَتَيْ ذٰلِكَ ٱلحِسَابِ فِي ٱلمَجْهُولِ وَٱلمَعْلُومِ وَٱلكَسْرِ وَٱلصَّحِيحِ وَٱلجُذُورِ وَغَيْرِهَا وَٱلغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ ٱلمَسَائِلِ ٱلمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ ٱلمِرَانِ وَٱلدُّرْبَةِ بِتَكْرَارِ ٱلعَمَلِ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ ٱلحِسَابِ وَلِأَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ تَآلِيفُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ ٱلزَّهْرَاوِيِّ وَٱبْنِ ٱلسَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تِلْمِيذِ مَسْلَمَةَ ٱلمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ (ومن فروعه ايضاً الفرائض) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ ٱلسِّهَامِ لِذَوِي ٱلفُرُوضِ فِي ٱلوِرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ ٱلوَارِثِينَ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتِ ٱلفُرُوضُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى ٱلمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي ٱلفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وَإِنكَارٌ مِنْ بَعْضِ الْوَرَثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيَّنُ بِهِ سِهَامُ الْفَرِيضَةِ مِن كَمْ تَصِحُّ وَسِهَامُ الْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحاً حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ الْوَارِثِينَ مِنَ الْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سِهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرِهِ وَجَذْرِهِ وَمَعْلُومِهِ وَمَجْهُولِهِ وَتُرَتَّبُ عَلَى تَرْتِيبِ أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ الْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفِقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ الْوِرَاثَةِ مِنَ الْفُرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّدْبِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ السُّهْمَانِ بِاعْتِبَارِ الْحُكْمِ الْفِقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ الْعُلُومِ وَقَدْ يُورِدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلَ الْفَرَائِضُ ثُلُثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لَا فَرَائِضِ الْوِرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثُلُثَ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي هٰذَا الْفَنِّ قَدِيماً وَحَدِيثاً وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّآلِيفِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمِّرِ وَالْجَعْدِيِّ وَالصُّرْدِيِّ وَغَيْرِهِمْ لَكِنِ الْفَضْلُ لِلْحَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ سُلَيْمَانُ الشَّطِّيُّ كَبِيرُ مَشْيَخَةِ فَاسَ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ وَلِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَآلِيفُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ وَرُسُوخِ قَدَمِهِ وَكَذَا لِلْحَنَفِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَمَقَامَاتُ النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هٰذَا الْعِلْمُ هُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ إِمَّا الْمُتَّصِلَةِ كَالْخَطِّ وَالسَّطْحِ وَالْجِسْمِ وَإِمَّا الْمُنْفَصِلَةِ كَالْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مِثْلَ أَنَّ كُلَّ مُثَلَّثٍ فَزَوَايَاهُ مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهٍ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَالزَّاوِيَتَانِ الْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ وَمِثْلَ أَنَّ الْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ الْمُتَنَاسِبَةَ ضَرْبُ الْأَوَّلِ مِنْهَا فِي الثَّالِثِ كَضَرْبِ الثَّانِي فِي الرَّابِعِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَالْكِتَابُ الْمُتَرْجَمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ كِتَابُ أُوقْلِيدِسَ وَيُسَمَّى

كِتَابَ ٱلْأُصُولِ وَكِتَابَ ٱلْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحُنَيْنَ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قُرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ ٱلْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٍ فِي ٱلسُّطُوحِ وَوَاحِدَةٍ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسَبِ ٱلسُّطُوحِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٍ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَاشِرَةِ فِي ٱلْمُنْطِقَاتِ وَٱلْقُوَى عَلَى ٱلْمُنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ ٱلْجُذُورُ وَخَمْسٍ فِي ٱلْمُجَسَّمَاتِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلنَّاسُ ٱخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا ٱخْتَصَّهُ بِهِ وَكَذٰلِكَ ٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَغَيْرِهِمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحاً كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ ٱلْعُلُومِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهَنْدَسَةَ تُفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَٱسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ ٱلِٱنْتِظَامِ جَلِيَّةُ ٱلتَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ ٱلْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْيِسَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَٱنْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ ٱلْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ ٱلْخَطَإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَهْيَعِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِساً فَلَا يَدْخُلَنَّ مَنْزِلَنَا وَكَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللّٰهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ ٱلْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ ٱلصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ٱلَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ ٱلْأَقْذَارَ وَيُنَقِّيهِ مِنَ ٱلْأَوْضَارِ وَٱلْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيبِهِ وَٱنْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية والمخروطات) . أَمَّا ٱلْأَشْكَالُ ٱلْكُرَوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ لِثَاوُذُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُذُوسِيُوسَ مُقَدَّمٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوَقُّفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ ٱلْخَوْضَ فِي عِلْمِ ٱلْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَٱلْكَلَامُ فِي ٱلْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي ٱلْكُرَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ ٱلْقُطُوعِ وَٱلدَّوَائِرِ بِأَسْبَابِ ٱلْحَرَكَاتِ كَمَا نَذْكُرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَحْكَامِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْكُرَوِيَّةِ سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَأَمَّا ٱلْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ ٱلْهَنْدَسَةِ أَيْضاً وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيمَا يَقَعُ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمَخْرُوطَةِ مِنَ ٱلْأَشْكَالِ وَٱلْقُطُوعِ وَيُبَرْهِنُ عَلَى مَا يَعْرِضُ لِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي مَوَادُّهَا ٱلْأَجْسَامُ مِثْلَ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱلْهَيَاكِلُ ٱلنَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَحَيَّلُ عَلَى جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ وَنَقْلِ ٱلْهَيَاكِلِ

بالهِنْدام وَالميخال وَأمْثال ذلكَ وَقَد أفرَدَ بَعضُ المؤلّفينَ في هذا الفنّ كتاباً في الحيَل العِلميّة يتضمَّنُ مِنَ الصّناعات الغريبة وَالحيَل المُستطرَفة كُلّ عَجيبة ورُبّما استغلق على الفهوم لِصُعوبة براهينِه الهَندَسيّة وَهوَ موْجودٌ بأيدي النّاسِ يَنسِبُونَهُ إلى بَني شاكِر وَاللهُ تعالى أعلَمُ (ومن فروع الهندسة المساحة) وَهوَ فَنٌّ يُحتاجُ إليه في مَسْحِ الأرض وَمَعناهُ استِخراجُ مِقدارِ الأرضِ المَعلومَةِ بِنِسبَةِ شِبْرٍ أوْ ذِراعٍ أوْ غَيْرِهِمَا وَنِسبَةِ أرض مِنْ أرضٍ إذْ قُويِسَتْ بِمِثْلِ ذلِكَ وَيُحتاجُ إلى ذلِكَ في تَوْظيفِ الخَراجِ على المَزارِع وَالمُدُنِ وَبَساتينِ الغِراسَةِ وَفي قِسمَةِ الحَوائِطِ وَالأراضي بَيْنَ الشُّرَكاء أوِ الوَرَثَةِ وَأمثال ذلِكَ وَلِلنّاسِ فيها مَوْضوعاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثيرَةٌ وَاللهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ (المناظرة من فروع الهندسة) وَهوَ عِلمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أسبابُ الغَلَطِ في الإدراكِ البَصَري بِمَعرِفَةِ كَيفِيّةِ وُقوعِها بِناءً على أنّ إدراكَ البَصَرِ يَكونُ بِمَخروطٍ شُعاعيٍّ رَأسُهُ نقطَةُ الباصِرِ وَقاعِدَتُهُ المَرْئيّ ثُمّ يَقَعُ الغَلَطُ كَثيراً في رُؤيَةِ القَريبِ كَبيراً وَالبَعيد صَغيراً وَكَذا رُؤيَةُ الأشباحِ الصَّغيرَةِ تَحتَ الماءِ وَوَراءَ الأجسامِ الشَّفّافَةِ كَبيرَةً وَرُؤيَة النُّقطَةِ النّازِلَةِ مِنَ المَطَرِ خَطّاً مُستَقيماً وَالسُّلقَةِ دائِرَةً وَأمثالُ ذلِكَ فَيَتَبَيَّنُ في هذا العِلمِ أسبابُ ذلِكَ وَكَيفِيّاتُهُ بِالبَراهينِ الهَندَسيّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أيضاً اختِلافُ المَنظَر في القَمَرِ بِاختِلافِ العُروضِ الّذي يَنبَني عَلَيهِ مَعرِفَةُ رُؤيَةِ الأهِلَّةِ وَحُصولُ الكُسوفات وَكَثيرٌ مِنْ أمثالِ هذا وَقَد ألَّفَ في هذا الفَنّ كَثيرٌ مِنَ اليونانيّينَ وَأشهَرُ مَنْ ألَّفَ فيهِ مِنَ الإسلاميّينَ ابنُ الهَيثَمِ وَلِغَيرِهِ أيضاً تآليفُ وَهوَ مِنْ هذِهِ الرِّياضَةِ وَتَفاريعِها

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهوَ عِلمٌ يَنظُرُ في حَرَكاتِ الكَواكِبِ الثّابِتَةِ وَالمُتَحَرِّكَةِ وَالمُتَحَيِّرَةِ وَيَستَدِلّ مِنْ تِلكَ الحَرَكاتِ عَلى أشكالٍ وَأوضاعٍ لِلأفلاكِ لَزِمَتْ عَنها لِهذِهِ الحَرَكاتِ المَحسوسَة بِطُرُقٍ هَندَسيّةٍ كَما يُبَرهَنُ عَلى أنّ مَرْكَزَ الأرضِ مُبايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ الشَّمسِ بِوُجود حَرَكَةِ الإقبالِ وَالإدبارِ وَكَما يُستَدَلُّ بِالرُّجوعِ وَالاستِقامَةِ لِلكَواكِبِ عَلى وُجود أفلاكٍ صَغيرَةٍ حامِلَةٍ لَها مُتَحَرِّكَةٍ داخِلَ فَلَكِها الأعظَمِ وَكَما يُبَرهَنُ عَلى وُجود الفَلَكِ الثّامِنِ بِحَرَكَةِ الكَواكِبِ الثّابِتَةِ وَكَما يُبَرهَنُ عَلى تَعَدُّدِ الأفلاكِ لِلكَوكَب

الْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ الْمُيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكُ الْمَوْجُودِ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا تَرْكِيبُ الْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِالرَّصْدِ كَثِيراً وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تُوضَعُ لِيُرْصَدَ بِهَا حَرَكَةُ الْكَوْكَبِ الْمُعَيَّنِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ الْحِلَقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ الْآلَةَ الْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ الْمُسَمَّاةَ ذَاتَ الْحِلَقِ وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَاعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِاخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَحْقَابِ وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْآلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّوَرَ وَالْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لَازِماً لِمُخْتَلِفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ الْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي الْحَقِيقَةَ بِوَجْهٍ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ التَّآلِيفِ فِيهِ كِتَابُ الْمِجِسْطِي مَنْسُوبٌ لِبَطْلَيْمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ بَطْلَيْمُوس عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَّاحُ الْكِتَابِ وَقَدِ اخْتَصَرَهُ الْأَئِمَّةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ وَلَخَّصَهُ ابْنُ رُشْدٍ أَيْضاً مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَابْنُ السَّمْحِ وَابْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الِاقْتِصَارِ وَلِابْنِ الْفَرْغَانِيِّ هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرَّبَهَا وَحَذَفَ بَرَاهِينَهَا الْهَنْدَسِيَّةَ وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . (ومن فروعه علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينَ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخُصُّ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبُطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قِبَلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ الْهَيْئَةِ وَلِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ قَوَانِينُ كَالْمُقَدِّمَاتِ وَالْأُصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ

وَٱلتَّوَارِيخِ ٱلْمَاضِيَةِ وَأُصولٌ مُتَقَرِّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَوْجِ وَٱلْحَضِيضِ وَٱلْمُيُولِ وَأَصْنَافِ ٱلْحَرَكَاتِ وَٱسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضَعُونَهَا فِي جَدَاوِلَ مُرَتَّبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى ٱلْأَزْيَاجَ وَيُسَمَّى ٱسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ ٱلْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ ٱلْمَفْرُوضِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ٱلْبَتَّانِي (١) وَٱبْنِ ٱلْكَمَّادِ وَقَدْ عَوَّلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ عَلَى زِيجٍ مَنْسُوبٍ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ مِنْ مُنَجِّمِي تُونِسَ فِي أَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ٱبْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى ٱلرَّصْدِ وَأَنَّ يَهُودِيّاً كَانَ بِصِقِلِّيَةَ مَاهِراً فِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عُنِيَ بِٱلرَّصْدِ وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ لِذٰلِكَ عُنُوا بِهِ لِوَثَاقَةِ مَبْنَاهُ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ ٱلْبَنَّاءِ فِي آخَرَ سَمَّاهُ ٱلْمِنْهَاجَ فَوَلِعَ بِهِ ٱلنَّاسُ لِمَا سَهُلَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ ٱلْكَوَاكِبِ مِنَ ٱلْفَلَكِ لِتَنْبَنِيَ عَلَيْهَا ٱلْأَحْكَامُ ٱلنُّجُومِيَّةُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ ٱلْآثَارِ ٱلَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَٱلْمَوَالِيدِ ٱلْبَشَرِيَّةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ وَنُوضِحُ فِيهِ أَدِلَّتَهُمْ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينُ يُعْرَفُ بِهَا ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فِي ٱلْحُدُودِ ٱلْمُعَرِّفَةِ لِلْمَاهِيَّاتِ وَٱلْحُجَجِ ٱلْمُفِيدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَحْسُوسَاتُ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ وَجَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ وَغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ ٱلْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ ٱلْكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَذٰلِكَ بِأَنْ يَحْصُلَ فِي ٱلْخَيَالِ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَحْسُوسَةِ وَهِيَ ٱلْكُلِّيُّ ثُمَّ يَنْظُرُ ٱلذِّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمُتَّفِقَةِ وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تُوَافِقُهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَيْهِمَا بِٱعْتِبَارِ مَا ٱتَّفَقَا فِيهِ وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي ٱلتَّجْرِيدِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيّاً آخَرَ مَعَهُ يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ بَسِيطاً وَهٰذَا مِثْلُ مَا يُجَرَّدُ مِنْ أَشْخَاصِ ٱلْإِنْسَانِ صُورَةُ ٱلنَّوْعِ ٱلْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ

---

(١) قوله البتاني بفتح للوحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المحمدين

وبَيْنَ ٱلْحَيَوَانِ وَيُجَرِّدُ صُورَةَ ٱلْجِنْسِ ٱلْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلنَّبَاتِ إِلَى أَن يَنْتَهِي إِلَى ٱلْجِنْسِ ٱلْعَالِي وَهُوَ ٱلْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلِّيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ ٱلْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنِ ٱلتَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ ٱللَّهُ لَهُ ٱلْفِكْرَ ٱلَّذِي بِهِ يُدْرِكُ ٱلْعُلُومَ وَٱلصَّنَائِعَ وَكَانَ ٱلْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِدْرَاكٌ سَاذَجٌ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصْدِيقًا أَيْ حُكْمًا بِثُبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ ٱلْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ ٱلْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي ٱلذِّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي ٱلْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونَ ذَلِكَ تَصْدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلْعِلْمِ وَهَذَا ٱلسَّعْيُ مِنَ ٱلْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ فَٱقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِي يَسْعَى بِهِ ٱلْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْعِلْمِيَّةِ لِيَتَمَيَّزَ ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونَ ٱلْمَنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمَلًا جُمَلًا وَمُفْتَرِقًا وَلَمْ تُهَذَّبْ طُرُقُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو فَهَذَّبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ ٱلْمَخْصُوصُ بِٱلْمَنْطِقِ يُسَمَّى ٱلنَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٍ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى أَنْحَاءٍ . فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبَ فَيُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَن تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ ٱلْاعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَوْ مِنَ ٱلظَّنِّ وَقَد يُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ لَا بِٱعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مَخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَادَّةُ وَنَعْنِي بِهِ ٱلْمَادَّةَ ٱلْمُنْتِجَةَ لِلْمَطْلُوبِ ٱلْمَخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ أَوْ ظَنٍّ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ وَإِنْتَاجُ ٱلْقِيَاسِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ فَكَانَت لِذَلِكَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ثَمَانِيَةً . ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْأَجْنَاسِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ . وَٱلثَّانِي فِي ٱلْقَضَايَا ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْعِبَارَةِ . وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

ٱلْإِطْلَاقِ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْقِيَاسِ وَهٰذَا آخِرُ ٱلنَّظَرِ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ . ثُمَّ ٱلرَّابِعُ كِتَابُ ٱلْبُرْهَانِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْمُنْتِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ يَقِينِيَّةً وَيَخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ ٱلْيَقِينِ مَذْكُورَةٍ فِيهِ مِثْلَ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْمُعَرِّفَاتِ وَٱلْحُدُودِ إِذِ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْيَقِينُ لِوُجُوبِ ٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْحَدِّ وَٱلْمَحْدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَهَا فَلِذٰلِكَ ٱخْتُصَّتْ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِهٰذَا ٱلْكِتَابِ . وَٱلْخَامِسُ كِتَابُ ٱلْجَدَلِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ قَطْعَ ٱلْمُشَاغِبِ وَإِفْحَامَ ٱلْخَصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَيَخْتَصُّ أَيْضاً مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ يُذْكَرُ ٱلْمَوَاضِعُ ٱلَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ ٱلْقِيَاسِ قِيَاسَهُ وَفِيهِ عُكُوسُ ٱلْقَضَايَا . وَٱلسَّادِسُ كِتَابُ ٱلسَّفْسَطَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ خِلَافَ ٱلْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ ٱلْمُنَاظِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ فَاسِدٌ وَهٰذَا إِنَّمَا كُتِبَ لِيُعْرَفَ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُغَالِطِيُّ فَيُحْذَرَ مِنْهُ . وَٱلسَّابِعُ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ . وَٱلثَّامِنُ كِتَابُ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلتَّمْثِيلَ وَٱلتَّشْبِيهَ خَاصَّةً لِلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلنُّفْرَةِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْقَضَايَا ٱلتَّخْيِيلِيَّةِ هٰذِهِ هِيَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ٱلثَّمَانِيَةُ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنَّ حُكَمَاءَ ٱلْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَذَّبَتِ ٱلصِّنَاعَةُ وَرُتِّبَتْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ٱلْمُفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَٱسْتَدْرَكُوا فِيهَا مَقَالَةً تَخْتَصُّ بِهَا مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعاً وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلسَّبْعَةَ كُلَّهَا ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَأَلْحَقُوا بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ نَقَلُوهَا مِنْ كِتَابِ ٱلْبُرْهَانِ وَحَذَفُوا كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ ٱلْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِٱلْعَرَضِ لَا بِٱلذَّاتِ وَأَلْحَقُوا فِي كِتَابِ ٱلْعِبَارَةِ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْقَضَايَا بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى ٱلْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَذَفُوا ٱلنَّظَرَ فِيهِ

بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماماً وأغفلوها كأن لم تكن هي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب .

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدإ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجا وفي كتاب الإشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل التاسع عشر
في عالم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطِّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرَضُ وَيَصِحُّ فَيُحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ الصِّحَّةِ وَبُرْءَ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ بعدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْمَرَضَ الَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْزِجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا وَعلى الْمَرَضِ بِالْعَلَامَاتِ الْمُؤْذِنَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلاً فِي السَّحْنَةِ وَالْفَضَلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَاذِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتَيِ الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يُحَاذِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَصْلِ وَالسِّنِّ وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِهَذَا كُلِّهِ عِلْمَ الطِّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الْأَعْضَاءِ بِالْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْماً خَاصّاً كَالْعَيْنِ وَعِلَلِهَا وَأَكْحَالِهَا وَكَذَلِكَ أَلْحَقُوا بِالْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا الْمَنْفَعَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطِّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِراً لعيسى عَلَيْهِ السَّلَام وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقِلِّيَّةَ فِي سَبِيلِ تَغَلُّبٍ وَمُطَاوَعَةِ اغْتِرَابٍ وَتَآلِيفُهُ فِيهَا هِيَ الْأُمَّهَاتُ الَّتِي اقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَئِمَّةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ مِثْلَ الرَّازِي وَالْمَجُوسِيِّ وَابْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمْ ابْنُ زُهْرٍ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِوُقُوفِ الْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ .

وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمْرَانِ طِبٌّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَارَثاً عَنْ مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ الْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونٍ طَبِيعِيٍّ وَلا عَلَى مُوَافَقَةِ الْمِزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ هَذَا الطِّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ وَغَيْرِهِ وَالطِّبُّ الْمَنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيّاً لِلْعَرَبِ وَقَعَ فِي

ذِكْرِ أَحْوَالِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ ٱلَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبِلَّةٌ لا مِنْ جِهَةِ أَنَّ ذٰلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا ٱلشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ ٱلطِّبِّ وَلا غَيْرِهِ مِنَ ٱلْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ ٱلنَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ ٱلطِّبِّ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱللّٰهُمَّ إِلَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبَرُّكِ وَصِدْقِ ٱلْعَقْدِ ٱلْإِيمَانِيِّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلنَّفْعِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ فِي ٱلطِّبِّ ٱلْمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ ٱلْمَبْطُونِ بِٱلْعَسَلِ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ لا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل العشرون

في الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَتُهُ وَنُشُوءُهُ بِٱلسَّقْيِ وَٱلْعِلاجِ وَتَعَهُّدُهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ ذٰلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ ٱلسِّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ ٱلْفِلاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ ٱلنَّبَطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ ٱلْمِلَّةِ فِيمَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ ٱلسِّحْرِ مَسْدُوداً وَٱلنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُوراً فَٱقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى ٱلْكَلامِ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلاجِهِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذٰلِكَ وَحَذَفُوا ٱلْكَلامَ فِي ٱلْفَنِّ ٱلْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَٱخْتَصَرَ ٱبْنُ ٱلْعَوَّامِ كِتَابَ ٱلْفِلاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ ٱلْفَنُّ ٱلْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلاً نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةُ فِي كُتُبِهِ ٱلسِّحْرِيَّةِ أُمَّهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ ٱلْكَلامِ عَلَى ٱلسِّحْرِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَكُتُبُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْفِلاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلا يَعْدُونَ فِيهَا ٱلْكَلامَ فِي ٱلْغِرَاسِ وَٱلْعِلاجِ وَحِفْظِ ٱلنَّبَاتِ مِنْ جَوَائِحِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ .

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْمُطْلَقِ فَأَوَّلاً فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَٱلرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ ٱلْمَاهِيَّاتِ وَٱلْوَحْدَةِ وَٱلْكَثْرَةِ وَٱلْوُجُوبِ وَٱلْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِىءِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا ثُمَّ فِي أَحْوَالِ ٱلنَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى ٱلْمَبْدَإِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ وَسَيَأْتِي ٱلرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تَالِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَرَاءَ ٱلطَّبِيعَةِ وَكُتُبُ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلنَّجَا وَكَذٰلِكَ لَخَّصَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلُومِ ٱلْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمِ ٱلْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ ٱلْإِلٰهِيَّاتِ وَمَسَائِلَهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ ٱلْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلْإِلٰهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنًّا وَاحِداً قَدَّمُوا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ أَتْبَعُوهُ بِٱلْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا ثُمَّ بِٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا إِلَى آخِرِ ٱلْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْإِمَامُ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلْمَبَاحِثِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ وَصَارَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ مُخْتَلِطاً بِمَسَائِلِ ٱلْحِكْمَةِ وَكُتُبُهُ مَحْشُوَّةً بِهَا كَأَنَّ ٱلْغَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِهِمَا وَمَسَائِلِهِمَا وَاحِدٌ وَٱلْتَبَسَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا ٱلسَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ وَلَا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ ٱلْعَقْلَ مَعْزُولٌ عَنِ ٱلشَّرْعِ وَأَنْظَارِهِ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ إِقَامَةِ ٱلْحُجَجِ فَلَيْسَ بَحْثاً عَنِ ٱلْحَقِّ فِيهَا فَٱلتَّعْلِيلُ بِٱلدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً هُوَ شَأْنُ ٱلْفَلْسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ ٱلْتِمَاسُ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَعْضُدُ عَقَائِدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ ٱلسَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبَهَ أَهْلِ ٱلْبِدَعِ عَنْهَا ٱلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارِكَهُمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ تُفْرَضَ صَحِيحَةً بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا ٱلسَّلَفُ وَٱعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ ٱلْمَقَامَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِٱتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكِ ٱلْأَنْظَارِ ٱلْعَقْلِيَّةِ

فهيَ فوقَها ومُحيطةٌ بها لاستمدادِها من الأنوارِ الإلهيّةِ فلا تدخلُ تحتَ قانونِ النَّظرِ الضّعيفِ والمداركِ المُحاطِ بها فإذا هدانا الشّارعُ إلى مُدرَكٍ فينبغي أن نُقدِّمَهُ على مداركِنا ونثقَ بهِ دونَها ولا ننظرُ في تصحيحِهِ بمداركِ العقلِ ولو عارضَهُ بل نعتمدُ ما أُمرنا بهِ اعتقاداً وعِلماً ونسكتُ عمّا لم نفهمْ من ذلكَ ونفوِّضُهُ إلى الشّارعِ ونعزلُ العقلَ عنهُ والمتكلِّمونَ إنّما دعاهمْ إلى ذلكَ كلامُ أهلِ الإلحادِ في معارضاتِ العقائدِ السّلفيّةِ بالبدعِ النّظريّةِ فاحتاجوا إلى الرّدِّ عليهمْ من جنسِ معارضاتِهم واستدعى ذلكَ الحججَ النّظريّةَ ومحاذاةَ العقائدِ السّلفيّةِ بها وأمّا النّظرُ في مسائلِ الطّبيعيّاتِ والإلهيّاتِ بالتّصحيحِ والبطلانِ فليسَ من موضوعِ علمِ الكلامِ ولا من جنسِ أنظارِ المتكلِّمينَ فاعلمْ ذلكَ لتُميِّزَ بهِ بينَ الفنّينِ فإنّهما مختلطانِ عندَ المتأخّرينَ في الوضعِ والتّأليفِ والحقُّ مغايرةُ كلٍّ منهما لصاحبِهِ بالموضوعِ والمسائلِ وإنّما جاءَ الالتباسُ من اتّحادِ المطالبِ عندَ الاستدلالِ وصارَ احتجاجُ أهلِ الكلامِ كأنّهُ إنشاءٌ لطلبِ الاعتقادِ بالدّليلِ وليسَ كذلكَ بلْ إنّما هوَ ردٌّ على الملحدينَ والمطلوبُ مفروضُ الصّدقِ معلومُهُ وكذا جاءَ المتأخّرونَ من غلاةِ المتصوّفةِ المتكلّمينَ بالمواجدِ أيضاً فخلطوا مسائلَ الفنّينِ بفنّهمْ وجعلوا الكلامَ واحداً فيها كلَّها مثلَ كلامِهمْ في النّبوّاتِ والاتّحادِ والحلولِ والوحدةِ وغيرِ ذلكَ والمداركُ في هذهِ الفنونِ الثّلاثةِ متغايرةٌ مختلفةٌ وأبعدُها من جنسِ الفنونِ والعلومِ مداركُ المتصوّفةِ لأنّهمْ يدّعونَ فيها الوجدانَ ويفرّونَ عنِ الدّليلِ والوجدانُ بعيدٌ عنِ المداركِ العلميّةِ وأبحاثِها وتوابعِها كما بيّنّاهُ ونبيّنُهُ واللهُ يهدي من يشاءُ إلى طريقٍ مستقيمٍ واللهُ أعلمُ بالصّوابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهيَ علومٌ بكيفيّةِ استعداداتٍ تقتدرُ النّفوسُ البشريّةُ بها على التّأثيراتِ في عالمِ العناصرِ إمّا بغيرِ معينٍ أو بمعينٍ منَ الأمورِ السّماويّةِ والأوّلُ هوَ السّحرُ والثّاني هوَ الطّلسماتُ ولمّا كانتْ هذهِ العلومُ مهجورةً عندَ الشّرائعِ لما فيها منَ الضّررِ ولما يُشترطُ فيها منَ الوجهةِ إلى غيرِ اللهِ من كوكبٍ أو غيرِهِ كانتْ كتبُها كالمفقودةِ بينَ النّاسِ

إلا ما وُجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرها ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه. ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده. ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر وما يتبع في ذلك من التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه

الطِّلَسْمات وَهُوَ أَضْعَفُ رُتْبَةً مِنَ الأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تأثِيرٌ في القُوَى المُتَخَيِّلَةِ يَعْمُدُ صاحِبُ هذا التَّأْثِيرِ إلى القُوَى المُتَخَيِّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعاً مِنَ الخَيالاتِ وَالمُحاكاةِ وَصُوراً مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذٰلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُها إلى الحِسِّ مِنَ الرّائِينَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ المُؤَثِّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرّاؤُونَ كَأَنَّها في الخارِجِ وَلَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ كَما يُحكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرِي البَساتِينَ وَالأَنْهارَ وَالقُصُورَ وَلَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَيُسَمَّى هذا عِنْدَ الفَلاسِفَةِ الشَّعْوَذَةَ أَوِ الشَّعْبَذَةَ . هذا تَفْصِيلُ مَراتِبِهِ ثُمَّ هٰذِهِ الخاصِيَّةُ تَكُونُ في السّاحِرِ بِالقُوَّةِ شَأْنَ القُوَى البَشَرِيَّةِ كُلِّها وَإِنَّما تَخْرُجُ إلى الفِعْلِ بِالرِّياضَةِ وَرِياضَةُ السِّحْرِ كُلُّها إِنَّما تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إلى الأَفْلاكِ وَالكَواكِبِ وَالعَوالِمِ العُلْوِيَّةِ وَالشَّياطِينِ بِأَنْواعِ التَّعْظِيمِ وَالعِبادَةِ وَالخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَهِيَ لِذٰلِكَ وِجْهَةٌ إلى غَيْرِ اللهِ وَسُجُودٌ لَهُ وَالوِجْهَةُ إلى غَيْرِ اللهِ كُفْرٌ فَلِهٰذا كانَ السِّحْرُ كُفْراً وَالكُفْرُ مِنْ مَوادِّهِ وَأَسْبابِهِ كَما رَأَيْتَ وَلِهٰذا اخْتَلَفَ الفُقَهاءُ في قَتْلِ السّاحِرِ هَلْ لِكُفْرِهِ السّابِقِ عَلى فِعْلِهِ أَوْ لِتَصَرُّفِهِ بِالإِفْسادِ وَما يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الفَسادِ في الأَكْوانِ وَالكُلُّ حاصِلٌ مِنْهُ وَلَمّا كانَتِ المَرْتَبَتانِ الأُولَيانِ مِنَ السِّحْرِ لَها حَقِيقَةٌ في الخارِجِ وَالمَرْتَبَةُ الأَخِيرَةُ الثّالِثَةُ لا حَقِيقَةَ لَها اخْتَلَفَ العُلَماءُ في السِّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّما هُوَ تَخْيِيلٌ فَالقائِلُونَ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةً نَظَرُوا إلى المَرْتَبَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ وَالقائِلُونَ بِأَنْ لا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إلى المَرْتَبَةِ الثّالِثَةِ الأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمُ اخْتِلافٌ في نَفْسِ الأَمْرِ بَلْ إِنَّما جاءَ مِنْ قِبَلِ اشْتِباهِ هٰذِهِ المَراتِبِ وَاللهُ أَعْلَمُ . وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السِّحْرِ لا مِرْيَةَ فِيهِ بَيْنَ العُقَلاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ الَّذِي ذَكَرْناهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ قالَ اللهُ تَعالى وَلٰكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ وَسُحِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتّى كانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلا يَفْعَلُهُ وَجُعِلَ سِحْرُهُ في مُشْطٍ وَمُشاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ وَدُفِنَ في بِئْرِ ذَرْوانَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ في المُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ في العُقَدِ قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها كانَ لا يَقْرَأُ عَلى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ العُقَدِ الَّتِي سُحِرَ فِيها إِلّا انْحَلَّتْ وَأَمّا وُجُودُ السِّحْرِ في أَهْلِ بابِلَ وَهُمُ الكَلْدانِيُّونَ مِنَ النَّبَطِ وَالسُّرْيانِيِّينَ

فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متخرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي ر ك ر ف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك

من التآلف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الأسد ويسمى أيضاً طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند اصبع صورة أسد شائلاً ذنبه عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرة فاها فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتاباً في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والإمام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الأمر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة

خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأنهم بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فأخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك هـذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فإن الماشي على حرف حائط أو حبل منتصب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهـذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك أثرا للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هـذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم! ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم

بيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسحْرِ أنّ ٱلْمُعْجِزَةَ قُوّةٌ إِلٰهِيَّةٌ تَبْعَثُ عَلى ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ ٱلتَّأْثِيرَ فَهُوَ مُؤَيَّد بِرُوحِ ٱللّٰهِ عَلى فِعْلِهِ ذٰلِكَ وَٱلسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا ٱلْفَرْقُ فِي ٱلْمَعْقُولِيَّةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَٱلذَّاتِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلى ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ ٱلْمُعْجِزَةِ لِصَاحِبِ ٱلْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلْخَيْرِ وَٱلتَّحَدِّي بِهَا عَلى دَعْوَى ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلسِّحْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ ٱلشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلتَّفْرِيقِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ وَضَرَرِ ٱلْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلشَّرِّ. هٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّينَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ ٱلْكَرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضاً فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُوداً مِنْ جِنْسِ ٱلسِّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلْإِمْدَادِ ٱلْإِلٰهِي لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ وَنِحْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِ ٱلنُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي ٱلْمَدَدِ ٱلْإِلٰهِي حَظٌّ عَلى قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللّٰهِ وَإِذَا ٱقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلى أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ يَذَرُهُ لِلْأَمْرِ ٱلْإِلٰهِي فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ ٱلْإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهٍ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ ٱللّٰهِ وَٱلْقُوَى ٱلْإِلٰهِيَّةِ فَلِذٰلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ ٱلْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَٱضْمَحَلَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَكَذٰلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلى عُقْدَةٍ مِنَ ٱلْعُقَدِ ٱلَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا ٱنْحَلَّتْ فَٱلسِّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ ٱسْمِ ٱللّٰهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَرْكَشْ كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا ٱلْوَفْقُ ٱلْمِئِينِيُّ ٱلْعَدَدِيُّ مَنْسُوجاً بِٱلذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِذٰلِكَ ٱلْوَفْقِ وَوُجِدَتِ ٱلرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسْتُمُ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ ٱنْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزْعُمُ أَهْلُ ٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلْأَوْفَاقِ مَخْصُوصٌ بِٱلْغَلَبِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَأَنَّ ٱلرَّايَةَ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلاً إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ عَارَضَهَا ٱلْمَدَدُ ٱلْإِلٰهِيُّ مِنْ إِيمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللّٰهِ فَٱنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلشَّرِيعَةُ فَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَاباً وَاحِداً مَحْظُوراً

لان ٱلْأَفعَالَ إِنَّمَا أباحَ لَنَا ٱلشَّارِعُ مِنهَا مَا يُهِمُّنَا في دِينِنَا ٱلَّذِي فِيهِ صَلاحُ آخِرَتِنَا أَوْ في مَعَاشِنَا ٱلَّذِي فيهِ صَلاحُ دُنيَانا وَمَا لا يُهِمُّنَا في شَيْءٍ مِنهُمَا فَإِنْ كانَ فيهِ ضَرَر أَوْ نَوْع ضَرَرٍ كَٱلسِّحْرِ ٱلْحَاصِلِ ضَرَرُهُ بِٱلْوُقوعِ وَيُلحَقُ بِهِ ٱلطِّلَّسْمَاتُ لِأَنَّ أَثَرَهُمَا وَاحِد وَكَٱلتِّجَامَةِ ٱلَّتِي فيهَا نَوعُ ضَرَرٍ بِٱعتِقَادِ ٱلتَّأْثِيرِ فَتَفسُدُ ٱلعَقِيدَةُ ٱلْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ ٱلْأُمُور إِلى غَيرِ ٱللهِ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ذَلِكَ ٱلفِعلُ مَحْظُوراً على نِسبَتِهِ في ٱلضَّرَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا عَلَينَا وَلا فِيهِ ضَرَرٌ فَلا أَقَلَّ مِنْ تَرْكِهِ قُربَةً إِلى ٱللهِ فَإِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسلامِ ٱلمَرْءِ تَرْكَهُ مَا لا يَعنِيهِ فَجَعَلَتِ ٱلشَّرِيعَةُ بابَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلشَّعْوَذَةِ بَاباً وَاحِداً لِمَا فِيهَا مِن ٱلضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِٱلْحَظْرِ وَٱلتَّحْرِيمِ وَأَمَّا ٱلفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسِّحْرِ فَٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلى ٱلتَّحَدِّي وَهُوَ دَعْوَى وُقُوعِهَا على وَفْقِ مَا ادَّعَاه قالُوا وَٱلسَّاحِرُ مَصْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هٰذا ٱلتَّحَدِّي فَلا يَقَعُ مِنْهُ وَوُقُوعُ ٱلْمُعْجِزَةِ على وَفْق دَعْوَى ٱلْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلالَةَ ٱلْمُعْجِزَةِ عَلى ٱلصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا ٱلتَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ ٱلْكَذِبِ لَٱسْتَحَالَ ٱلصَّادِقُ كَاذِباً وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذاً لا تَقع ٱلْمُعْجِزَةُ مَعَ ٱلْكَاذِبِ بِإِطْلاقٍ وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ فَٱلفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاه فَرْقُ مَا بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ في نِهَايَةِ ٱلطَّرَفَيْنِ فَٱلسَّاحِرُ لا يَصْدُرُ مِنْهُ ٱلْخَيْرُ وَلا يَسْتَعْمِل في أَسْبَابِ ٱلْخَيْرِ وَصَاحِبُ ٱلْمُعْجِزَةِ لا يَصْدُرُ مِنْهُ ٱلشَّرُّ وَلا يَسْتَعْمِلُ في أَسْبَابِ ٱلشَّر وَكَأَنَّهُمَا عَلى طَرَفَيِ ٱلنَّقِيضِ في أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ لا رَبَّ سِوَاهُ وَمِنْ قَبِيلِ هٰذِهِ ٱلتَّأْثِيرَاتِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلْإِصَابَةُ بِٱلْعَيْنِ وَهُوَ تَأْثِير مِنْ نَفْسِ ٱلْمِعْيَانِ عِنْدَ مَا يَسْتَحْسِنُ بِعَيْنِهِ مُدْرَكاً مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوِ ٱلْأَحْوَالِ وَيُفْرِطُ في ٱسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ ٱلْإِسْتِحْسَانِ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ ٱلشَّيْءِ عَمَّنِ ٱتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ وَهُوَ جِبِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ أَعْنِي هٰذِهِ ٱلْإِصَابَةَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلتَّأْثِيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لا يُكْتَسَبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلى ٱخْتِيَارِ فَاعِلِهَا وَٱلْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةُ صُدُورِهَا وَلِهٰذا قَالُوا ٱلْقَاتِلُ بِٱلسِّحْرِ أَوْ بِٱلْكَرَامَةِ يُقْتَلُ وَٱلْقَاتِل بِٱلْعَيْنِ لا يُقْتَلُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُور في صُدُورِهِ عَنْهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا في ٱلْغُيُوبِ وَمُطَّلِعٌ عَلى مَا في ٱلسَّرَائِرِ

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وَهُوَ عِلْمٌ يَنظُرُ في ٱلمَادَّةِ ٱلَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَشْرَحُ ٱلعَمَلَ ٱلَّذِي يُوصِلُ إلى ذٰلِكَ فَيَتَصَفَّحُونَ ٱلمُكَوَّنَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْزِجَتِهَا وَقُوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ عَلى ٱلمَادَّةِ ٱلمُسْتَعِدَّةِ لِذٰلِكَ حَتَّى مِنَ ٱلفَضَلاتِ ٱلحَيَوَانِيَّـةِ كَٱلعِظَامِ وَٱلرِّيشِ وَٱلبَيْضِ وَٱلعَذِرَاتِ فَضْلًا عَنِ ٱلمَعَادِنِ ثُمَّ يَشْرَحُ ٱلأَعْمَالَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ ٱلمَادَّةُ مِنَ ٱلقُوَّةِ إلى ٱلفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ ٱلأَجْسَامِ إلى أَجْزَائِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ بِٱلتَّصْعِيدِ وَٱلتَّقْطِيرِ وَجَمْدِ ٱلذَّائِبِ مِنْهَا بِٱلتَّكْلِيسِ وَإِمْهَاءِ ٱلصُّلْبِ بِٱلقِهْرِ وَٱلصَّلَابَةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يُسَمُّونَهُ ٱلإِكْسِيرَ وَأَنَّهُ يُلْقَى مِنْهُ عَلى ٱلجِسْمِ ٱلمَعْدِنِيِّ ٱلمُسْتَعِدِّ لِقَبُولِ صُورَةِ ٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلفِضَّةِ بِٱلاسْتِعْدَادِ ٱلقَرِيبِ مِنَ ٱلفِعْلِ مِثْلَ ٱلرَّصَاصِ وَٱلقَصْدِيرِ وَٱلنُّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى بِٱلنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَبًا إِبْرِيزًا وَيَكْنُونَ عَنْ ذٰلِكَ ٱلإِكْسِيرِ إِذَا أَلْغَزُوا فِي ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ بِٱلرُّوحِ وَعَنِ ٱلجِسْمِ ٱلَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِٱلجَسَدِ فَشَرْحُ هٰذِهِ ٱلاصْطِلَاحَاتِ وَصُورَةُ هٰذَا ٱلعَمَلِ ٱلصِّنَاعِيِّ ٱلَّذِي يَقْلِبُ هٰذِهِ ٱلأَجْسَادَ ٱلمُسْتَعِدَّةَ إلى صُورَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ هُوَ عِلْمُ ٱلكِيمِيَاءِ وَمَا زَالَ ٱلنَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَرُبَّمَا يُعْزَى ٱلكَلَامُ فِيهَا إلى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِمَامُ ٱلمُدَوِّنِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ يَخُصُّونَهَا بِهِ فَيُسَمُّونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِٱلأَلْغَازِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ لا يَفْتَحُ مُقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا فِيهَـا وَٱلطُّغْرَائِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلمَشْرِقِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمُنَاظَرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلحُكَمَاءِ وَكَتَبَ فِيهَا مَسْلَمَةُ ٱلمَجْرِيطِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلأَنْدَلُسِ كِتَابَهُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ رُتْبَةَ ٱلحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِينًا لِكِتَابِهِ ٱلآخَرِ فِي ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ ٱلحَكِيمِ وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ ٱلعِلْمِ وَٱلحِكْمَةِ أَجْمَعَ وَكَلَامُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلكِتَابِ وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَآلِيفِهِمْ هِيَ أَلْغَازٌ يَتَعَذَّرُ فَهْمُهَا عَلى مَنْ لَمْ يُعَانِ ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي ذٰلِكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إلى هٰذِهِ ٱلرُّمُوزِ وَٱلأَلْغَازِ وَلِٱبْنِ ٱلمُغَيْرِبِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلى حُرُوفِ ٱلمُعْجَمِ مِنْ أَبْدَعِ مَا يَجِيءُ

في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطإ ما يذهبون إليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن. وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه فنبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير وأما من أي شيء تكون فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وإن كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد

وَٱلتَّشْقِيَةِ وَٱلتَّكْلِيسِ وَٱلتَّنْشِيفِ وَٱلتَّقْلِيبِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هٰذِهِ ٱلْأُصُولَ ٱلَّتِي هِيَ عِمَادُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَداً وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يُكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي ٱلْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارَكَهُ غَيْرُهُ فَصَارَ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَاحِداً فَسُمِّيَ حَجَراً وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوْزَانِهِ وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبُ ٱلرُّوحِ فِيهِ وَإِدْخَالُ ٱلنَّفْسِ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ ٱلنَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلِأَيِّ عِلَّةٍ وَمَا ٱلسَّبَبُ ٱلْمُوجِبُ لِذٰلِكَ فَإِنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْمَطْلُوبُ فَافْهَمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ ٱلنَّفْسَ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا ٱلْمُدَبِّرَةُ لِلْجَسَدِ وَٱلْحَامِلَةُ لَهُ وَٱلدَّافِعَةُ عَنْهُ وَٱلْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْحَرَكَةِ وَٱلْإِمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ ٱلْجَسَدَ وَٱلنَّفْسَ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى ٱلْغِذَاءِ وَٱلْعَشَاءِ وَقِوَامُهُ وَتَمَامُهُ بِٱلنَّفْسِ ٱلْحَيَّةِ ٱلنُّورَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْعَظَائِمَ وَٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُتَقَابِلَةَ ٱلَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِٱلْقُوَّةِ ٱلْحَيَّةِ ٱلَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا ٱنْفَعَلَ ٱلْإِنْسَانُ لِٱخْتِلَافِ تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوِ ٱتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلتَّضَادِّ وَلَمْ تَقْدِرِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِداً بَاقِياً فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ ٱلْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلطَّبَائِعَ ٱلَّتِي يَحْدُثُ عَنْهَا هٰذَا ٱلْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي ٱلْإِبْتِدَاءِ فَيْضِيَّةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى ٱلْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هٰذَا ٱلْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَّبَتْ كَمَا قُلْنَاهُ آنِفاً فِي ٱلْإِنْسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هٰذَا ٱلْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضاً وَصَارَتْ شَيْئاً وَاحِداً شَبِيهاً بِٱلنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعْلِهَا وَبِٱلْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا فَيَا عَجَباً مِنْ أَفَاعِيلِ ٱلطَّبَائِعِ إِنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ ٱلَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذٰلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْفَنَاءُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْأَوَّلِ لِلِٱخْتِلَافِ وَعُدِمَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لِلِٱتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱلتَّفْصِيلُ وَٱلتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَٱلتَّرْكِيبُ مَوْتٌ وَفَنَاءٌ وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ دَقِيقُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْحَكِيمَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ ٱلْعَدَمِ إِلَى ٱلْوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ ٱلْأَوَّلِ فَهُوَ فَانٍ لَا مُحَالَةَ فَإِذَا رُكِّبَ ٱلتَّرْكِيبَ ٱلثَّانِيَ عَدِمَ ٱلْفَنَاءَ وَٱلتَّرْكِيبُ ٱلثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ ٱلتَّفْصِيلِ وَٱلتَّقْطِيعِ فَإِذاً ٱلتَّفْصِيلُ وَٱلتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ خَاصَّةً فَإِذَا بَقِيَ ٱلْجَسَدُ

ٱلْمَحْلُولُ ٱنْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ ٱلصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي ٱلْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱخْتِلَاطَ ٱللَّطِيفِ بِٱللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنَ ٱخْتِلَاطِ ٱلْغَلِيظِ بِٱلْغَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذٰلِكَ ٱلتَّشَاكُلَ فِي ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَادِ لِأَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ بِأَشْكَالِهَا وَذَكَرْتُ لَكَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ ٱلْعَمَلَ أَوْفَقُ وَأَيْسَرُ مِنَ ٱلطَّبَائِعِ ٱللَّطَائِفِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَقَدْ يُتَصَوَّرُ فِي ٱلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْأَحْجَارَ أَقْوَى وَأَصْبَرُ عَلَى ٱلنَّارِ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى ٱلذَّهَبَ وَٱلْحَدِيدَ وَٱلنُّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى ٱلنَّارِ مِنَ ٱلْكِبْرِيتِ وَٱلزِّئْبَقِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَأَقُولُ إِنَّ ٱلْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحاً فِي بَدْئِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ ٱلْكِيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَاداً لَزِجَةً غَلِيظَةً فَلَمْ تَقْدِرِ ٱلنَّارُ عَلَى أَكْلِهَا لِإِفْرَاطِ غِلَظِهَا وَتَلَزُّجِهَا فَإِذَا أَفْرَطَتِ ٱلنَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحاً كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ خَلْقِهَا وَإِنَّ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحَ ٱللَّطِيفَةَ أَذَا أَصَابَتْهَا ٱلنَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى ٱلْبَقَاءِ عَلَيْهَا فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ ٱلْأَجْسَادَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ وَصَيَّرَ ٱلْأَرْوَاحَ فِي هٰذَا ٱلْحَالِ فَهُوَ أَجَلُّ مَا تَعْرِفُهُ. أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاح لِٱشْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا وَإِنَّمَا ٱشْتَعَلَتْ لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ ٱلنَّارَ إِذَا أَحَسَّتْ بِٱلرُّطُوبَة تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَاكِلُ ٱلنَّارَ وَلَا تَزَالُ تَغْتَذِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى وَكَذٰلِكَ ٱلْأَجْسَادُ إِذَا أَحَسَّتْ بِوُصُولِ ٱلنَّارِ إِلَيْهَا ٱنْتَقَلَت تَلَزُّجَهَا وَغِلَظَهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ ٱلْأَجْسَاد لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى ٱلنَّارِ فَلَطِيفُهُ مُتَّحِدٌ بِكَثِيفِهِ لِطُولِ ٱلطَّبْخِ ٱللَّيِّنِ ٱلْمَازِجِ لِلْأَشْيَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِٱلنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ ٱلتَّحْلِيلِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فَصَارَ ذٰلِكَ ٱلِٱنْضِمَامُ وَٱلتَّدَاخُلُ مُجَاوَرَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهُلَ بِذٰلِكَ ٱفْتِرَاقُهُمَا كَٱلْمَاءِ وَٱلدُّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا وَإِنَّمَا وَصَفْتُ ذٰلِكَ لِتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ ٱلطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْت ذٰلِكَ عِلْماً شَافِياً فَقَدْ أَخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهَا وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَخْلَاطَ ٱلَّتِي هِيَ طَبَائِعُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُوَافِقَةٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مُنْفَصِلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامٌ وَاحِد بِتَدْبِيرٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي ٱلْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي ٱلْكُلِّ كَمَا قَالَ ٱلْفَيْلَسُوف إِنَّكَ إِذَا أَحْكَمْتَ تَدْبِيرَ ٱلطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفَهَا وَلَمْ تُدْخِلْ عَلَيْهَا غَرِيباً فَقَدْ أَحْكَمْتَ مَا أَرَدْتَ إِحْكَامَهُ وَقِوَامَهُ إِذِ ٱلطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيباً

فقدْ زاغَ عنها ووقعَ في الخطإ . وٱعلمْ أنَّ هذهِ الطّبيعةَ إذا حلَّ لها جسدٌ مِنْ قرائنِها على ما ينبغي في الحلِّ حتّى يُشا كِلَها في الرِّقّةِ واللّطافةِ انبسطتْ فيهِ وجرتْ معهُ حيثُما جرى لأنّ الأجسادَ ما دامتْ غليظةً جافيةً لا تنبسطُ ولا تتزاوجُ وحلُّ الأجسادِ لا يكون بغيرِ الأرواحِ فافهمْ هداكَ اللهُ هذا القولَ وٱعلمْ هداكَ اللهُ أنَّ هذا الحلَّ في جسدِ الحيوانِ هوَ الحقُّ الّذي لا يضمحلُّ ولا ينقصُ وهوَ الّذي يقلبُ الطّبائعَ ويمسكُها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبةً وليسَ كلُّ جسدٍ يحلُّ خلافَ هذا هوَ الحلَّ التّامَّ لأنّهُ مخالفٌ للحياة وإنّما حلُّهُ بما يوافقُهُ ويدفعُ عنهُ حرقَ النّارِ حتّى يزولَ عنِ الغلظِ وتنقلبَ الطّبائعُ عنْ حالاتِها إلى ما لها أنْ تنقلبَ مِنَ اللّطافةِ والغلظِ فإذا بلغتِ الأجسادُ نهايتَها مِنَ التّحليلِ والتّلطيفِ ظهرتْ لها هنالكَ قوّةٌ تُمسكُها وتغوصُ وتقلبُ وتنفذُ وكلُّ عملٍ لا يُرى لهُ مصداقٌ في أوّلهِ فلا خيرَ فيهِ . وٱعلمْ أنَّ الباردَ مِنَ الطّبائعِ هوَ ييبّسُ الأشياءَ ويعقدُ رطوبتَها والحارَّ منها يُظهرُ رطوبتَها ويعقدُ يبسَها وإنّما أفردتُ الحرَّ والبردَ لأنّهما فاعلانِ والرّطوبةُ واليبسُ منفعلانِ وعلى انفعالِ كلِّ واحدٍ منهما لصاحبهِ تحدثُ الأجسامُ وتتكوّنُ وإنْ كانَ الحرُّ أكثرَ فعلاً في ذلكَ مِنَ البردِ لأنَّ البردَ ليسَ لهُ نقلُ الأشياءِ ولا تحرُّكها والحرُّ هوَ علّةُ الحركةِ ومتى ضعفتْ علّةُ الكونِ وهوَ الحرارةُ لمْ يتمَّ منها شيءٌ أبداً كما أنّهُ إذا أفرطتِ الحرارةُ على شيءٍ ولمْ يكنْ ثمَّ بردٌ أحرقتْهُ وأهلكتْهُ فمِنْ أجلِ هذهِ العلّةِ احتيجَ إلى الباردِ في هذهِ الأعمالِ ليقوى بهِ كلُّ ضدٍّ على ضدِّهِ ويدفعَ عنهُ حرَّ النّارِ ولمْ يحذرِ الفلاسفةُ أكبرَ شيءٍ إلّا مِنَ النّيرانِ المحرقةِ وأمرتْ بتطهيرِ الطّبائعِ والأدناسِ وإخراجِ دنسِها ورطوبتِها ونفيِ آفاتِها وأوساخِها عنها على ذلكَ استقامَ رأيُهمْ وتدبيرُهمْ فإنّما عملُهمْ إنّما هوَ معَ النّارِ أوّلاً وإليها يصيرُ أخيراً فلذلكَ نالوا إياكُم والنّيرانَ المحرقاتِ وإنّما أرادوا بذلكَ نفيَ الآفاتِ الّتي معها فتجتمعُ على الجسدِ آفتينِ فتكونُ أسرعَ لهلاكهِ وكذلكَ كلُّ شيءٍ إنّما يتلاشى ويفسدُ مِنْ ذاتهِ لتضادِّ طبائعهِ واختلافهِ فيتوسّطُ بينَ شيئينِ فلمْ يجدْ ما يقوّيهِ ويعينُهُ إلّا قهرتْهُ الآفةُ وأهلكتْهُ وٱعلمْ أنَّ الحكماءَ كلَّها ذكرتْ تردادَ الأرواحِ على الأجسادِ مراراً ليكونَ ألزمَ إليها وأقوى على قتالِ النّارِ إذا هيَ باشرتْها عندَ الإلفةِ أعني بذلكَ النّارَ العنصريّةَ فاعلمْهُ . ولننقلِ الآنَ على الحجرِ الّذي

يمكِنُ مِنهُ ٱلعَمَلُ عَلى مَا ذَكَرَتهُ ٱلفَلاسِفَةُ فَقَدِ ٱختَلَفُوا فيهِ فَمِنهُم مَن زَعَمَ أَنَّهُ في ٱلحَيَوانِ وَمِنهُم مَن زَعَمَ أَنَّهُ في ٱلنَّبَاتِ وَمِنهُم مَن زَعَمَ أَنَّهُ في ٱلمَعَادِنِ وَمِنهُم مَن زَعَمَ أَنَّهُ في ٱلجَميعِ وَهٰذِهِ ٱلدَّعاوَى لَيسَت بِنَا حَاجَةٌ إلى ٱستِقصَائِهَا وَمُناظَرَةِ أَهلِهَا عَلَيها لأَنَّ ٱلكَلامَ يَطُولُ جِدًّا وَقَد قُلتُ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّ ٱلعَمَلَ يَكُونُ في كُلِّ شَيْءٍ بِٱلقُوَّةِ لأَنَّ ٱلطَّبَائِعَ مَوجُودَةٌ في كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذٰلِكَ فَنُرِيدُ أَن نَعلَمَ مِن أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ ٱلعَمَلُ بِٱلقُوَّةِ وَٱلفِعلِ فَنَقصِدُ إلى ما قالَهُ ٱلحَرَّانِيُّ إِنَّ ٱلصِّبغَ كُلَّهُ أَحَدُ صِبغَينِ إِمَّا صِبغُ جَسَدٍ كَٱلزَّعفَرَانِ في ٱلثَّوبِ ٱلأَبيَضِ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ مُضمَحِلٌّ مُنتَقِضُ ٱلتَّركِيبِ وَٱلصِّبغُ ٱلثَّاني تَقليبُ ٱلجَوهَرِ مِن جَوهَرِ نَفسِهِ إلى جَوهَرِ غَيرِهِ وَلَونِهِ كَتَقليبِ ٱلشَّجَرِ بَل ٱلتُّرَابِ إلى نَفسِهِ وَقَلبِ ٱلحَيَوانِ وَٱلنَّبَاتِ إلى نَفسِهِ حَتَّى يَصِيرَ ٱلتُّرَابُ نَبَاتاً وَٱلنَّبَاتُ حَيَواناً وَلا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرُّوحِ ٱلحَيِّ وَٱلكِيَانِ ٱلفَاعِلِ ٱلَّذِي لَهُ تَولِيدُ ٱلأَجرَامِ وَقَلبُ ٱلأَعيَانِ فَإِذا كَانَ هٰذا هٰكَذا فَنَقُولُ إِنَّ ٱلعَمَلَ لا بُدَّ أَن يَكُونَ إِمَّا في ٱلحَيَوانِ وَإِمَّا في ٱلنَّبَاتِ وَبُرهَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُمَا مَطبُوعَانِ عَلى ٱلغِذاءِ وَبِهِ قِوامُهُمَا وَتَمَامُهُمَا فَأَمَّا ٱلنَّبَاتُ فَلَيسَ فِيهِ مَا في ٱلحَيَوانِ مِنَ ٱللَّطَافَةِ وَٱلقُوَّةِ وَلِذٰلِكَ قَلَّ خَوضُ ٱلحُكَمَاءِ فيهِ وَأَمَّا ٱلحَيَوانُ فَهُوَ آخِرُ ٱلِٱستِحَالاتِ ٱلثَّلاثِ وَنِهَايَتُهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلمَعدِنَ يَستَحِيلُ نَبَاتاً وَٱلنَّبَاتَ يَستَحِيلُ حَيَواناً وَٱلحَيَوانَ لا يَستَحِيلُ إلى شَيْءٍ هُوَ أَلطَفُ مِنهُ إِلَّا أَن يَنعَكِسَ رَاجِعاً إلى ٱلغِلَظِ وَأَنَّهُ أَيضاً لا يُوجَدُ في ٱلعَالَمِ شَيْءٌ تَتَعَلَّقُ فيهِ ٱلرُّوحُ ٱلحَيَّةُ غَيرَهُ وَٱلرُّوحُ أَلطَفُ مَا في ٱلعَالَمِ وَلَم تَتَعَلَّقِ ٱلرُّوحُ بِٱلحَيَوانِ إِلَّا بِمُشَاكَلَتِهِ إِيَّاهَا فَأَمَّا ٱلرُّوحُ ٱلَّتي في ٱلنَّبَاتِ فَإِنَّهَا يَسِيرَةٌ فيهَا غِلَظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ مُستَغرِقَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ لِغِلَظِهَا وَغِلَظِ جَسَدِ ٱلنَّبَاتِ فَلَم يَقدِر عَلى ٱلحَرَكَةِ لِغِلَظِهِ وَغِلَظِ رُوحِهِ وَٱلرُّوحُ ٱلمُتَحَرِّكَةُ أَلطَفُ مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلكَامِنَةِ كَثِيراً وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلمُتَحَرِّكَةَ لَهَا قَبُولُ ٱلغِذاءِ وَٱلتَّنَقُّلِ وَٱلتَّنَفُّسِ وَلَيسَ لِلكَامِنَةِ غَيرُ قَبُولِ ٱلغِذاءِ وَحدَهُ وَلا تَجرِي إِذا قِيسَت بِٱلرُّوحِ ٱلحَيَّةِ إِلَّا كَٱلأَرضِ عِندَ ٱلمَاءِ كَذٰلِكَ ٱلنَّبَاتُ عِندَ ٱلحَيَوانِ فَٱلعَمَلُ في ٱلحَيَوانِ أَعلى وَأَرفَعُ وَأَهوَنُ وَأَيسَرُ فَيَنبَغِي لِلعَاقِلِ إِذا عَرَفَ ذٰلِكَ أَن يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهلاً وَيَترُكَ مَا يُخشَى فيهِ عُسراً وَٱعلَم أَنَّ ٱلحَيَوانَ عِندَ ٱلحُكَمَاءِ يَنقَسِمُ أَقسَاماً مِنَ ٱلأُمَّهَاتِ ٱلَّتي هِيَ ٱلطَّبَائِعُ وَٱلحَدِيثَةُ ٱلَّتي هِيَ ٱلمَوَالِيدُ وَهٰذا مَعرُوفٌ مُتَيَسِّرُ ٱلفَهمِ فَلِذٰلِكَ قَسَمتَ

ٱلْحُكَمَاءُ ٱلْعَنَاصِرَ وَٱلْمَوَالِيدَ أقساماً حَيَّةً وأقساماً مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فاعِلاً حيًّا وَكُلَّ ساكِنٍ مَفْعُولاً مَيِّتاً وَقَسَمُوا ذٰلِكَ في جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَفي ٱلْأَجْسَادِ ٱلذَّائِبَةِ وَفي ٱلْعَقَاقِيرِ ٱلْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَّوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ في ٱلنَّارِ وَيَطِيرُ وَيَشْتَعِلُ حَيًّا وَمَا كانَ على خِلافِ ذٰلِكَ سَمَّوْهُ مَيِّتاً فَأَمَّا ٱلْحَيَوانُ وَٱلنَّبَاتُ فَسَمَّوْا كُلَّ ما ٱنْفَصَلَ مِنْهَا طَبَائِعَ أَرْبَعاً حيًّا وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَّوْهُ مَيِّتاً ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ ٱلْأَقْسَامِ ٱلْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لِوَفْقِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ فُصُولاً أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ ٱلْحَجَرِ ٱلَّذِي في ٱلْحَيَوانِ فَبَحَثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ مِنْهُ ٱلَّذِي أَرَادُوا وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هٰذا في ٱلْمَعَادِنِ وَٱلنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَخَلْطِهَا ثُمَّ تُفْصَلُ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأَمَّا ٱلنَّبَاتُ فَمِنْهُ ما يَنْفَصِلُ بِبَعْضِ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ مِثْلَ ٱلْأُشْنَانِ وَأَمَّا ٱلْمَعَادِنُ فَفِيهَا أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذا مُزِجَتْ وَدُبِّرَتْ كانَ مِنْهَا ما لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَّرْنا كُلَّ ذٰلِكَ فَكَانَ ٱلْحَيَوانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعَ وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلَ وَأَيْسَرَ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ ما هُوَ ٱلْحَجَرُ ٱلْمَوْجُودُ في ٱلْحَيَوانِ وَطَرِيقَ وُجُودِهِ إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْحَيَوانَ أَرْفَعُ ٱلْمَوَالِيدِ وَكَذا ما تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَالنَّبَاتِ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِنَّمَا كانَ ٱلنَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرِهِ ٱلصَّافِي وَجَسَدِهِ ٱللَّطِيفِ فَوَجَبَ لَهُ بِذٰلِكَ ٱللَّطَافَةُ وَٱلرِّقَّةُ وَكَذا هذا ٱلْحَجَرُ ٱلْحَيَوانِيُّ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّبَاتِ في ٱلتُّرَابِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ في ٱلْحَيَوانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ طَبَائِعَ أَرْبَعاً غَيْرُهُ فَٱفْهَمْ هٰذا ٱلْقَوْلَ فَإِنَّهُ لا يَكَادُ يَخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيِّنِ ٱلْجَهَالَةِ وَمَنْ لا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَاهِيَّةَ هٰذا ٱلْحَجَرِ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنا أُبَيِّنُ لَكَ وُجُوهَ تَدَابِيرِهِ حَتَّى يَكْمُلَ ٱلَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ ٱلْإِنْصَافِ إِنْ شاءَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ

(التدبير على بركة الله) خُذِ ٱلْحَجَرَ ٱلْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ ٱلْقَرْعَةَ وَٱلْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ طَبَائِعَهُ ٱلْأَرْبَعَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلنَّارُ وَٱلْهَوَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَٱلْمَاءُ وَهِيَ ٱلْجَسَدُ وَٱلصِّبْغُ فَإِذا عَزَلْتَ ٱلْمَاءَ عَنِ ٱلتُّرَابِ وَٱلْهَوَاءَ عَنِ ٱلنَّارِ فَٱرْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ في إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ ٱلْهَابِطَ أَسْفَلَ ٱلْإِنَاءِ وَهُوَ ٱلثُّفْلُ فَٱغْسِلْهُ بِٱلنَّارِ ٱلْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ ٱلنَّارُ عَنْهُ سَوَادَهُ وَيَزُولَ غِلَظُهُ وَجَفَاؤُهُ وَبَيِّضْهُ تَبْيِيضاً مُحْكَماً وَطَيِّرْ عَنْهُ فُضُولَ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُسْتَجِنَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذٰلِكَ مَاءً أَبْيَضَ لا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلا وَسَخَ وَلا تَضَادَّ ثُمَّ ٱعْمِدْ إِلَى تِلْكَ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْأُوَلِ ٱلصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهِّرْهَا أَيْضاً مِنَ ٱلسَّوَادِ وَٱلتَّضَادِّ وَكَرِّرْ عَلَيْهَا ٱلْغَسْلَ وَٱلتَّصْعِيدَ

حتّى تلطفَ وترِقَ وتصفو فإذا فعلتَ ذلكَ فقدْ فتحَ اللهُ عليكَ فابدأْ بالتّركيبِ الّذي عليهِ مدارُ العملِ وذلكَ أنَّ التّركيبَ لا يكونُ إلّا بالتّزويجِ والتّعفينِ فأمّا التّزويجُ فهوَ اختلاطُ اللّطيفِ بالغليظِ وأمّا التّعفينُ فهوَ التّمشيةُ والسّحقُ حتّى يختلطَ بعضُهُ ببعضٍ ويصيرَ شيئاً واحداً لا اختلافَ فيهِ ولا نقصانَ بمنزلةِ الامتزاجِ بالماءِ فعندَ ذلكَ يقوى الغليظُ على إمساكِ اللّطيفِ وتقوى النّفسُ على الغوصِ في الأجسادِ والدّبيبِ فيها وإنّما وُجدَ ذلكَ بعدَ التّركيبِ لأنَّ الجسدَ المحلولَ لمّا ازدوجَ بالرّوحِ مازجهُ بجميعِ أجزائهِ ودخلَ بعضُها في بعضٍ لتشاكلِها فصارَ شيئاً واحداً ووجبَ مِنْ ذلكَ أنْ يعرضَ للرّوحِ مِنَ الصّلاحِ والفسادِ والبقاءِ والثّبوتِ وما يعرضُ للجسدِ لموضعِ الامتزاجِ وكذلكَ النّفسُ إذا امتزجتْ بهما ودخلتْ فيهما بخدمةِ التّدبيرِ اختلطتْ أجزاؤُها بجميعِ أجزاءِ الآخرَيْنِ أعني الرّوحَ والجسدَ وصارتْ هيَ وهُما شيئاً واحداً لا اختلافَ فيهِ بمنزلةِ الجزءِ الكلّيِّ الّذي سلمتْ طبائعُهُ واتّفقتْ أجزاؤُهُ فإذا ألقى هذا المركّبُ الجسدَ المحلولَ وألحَّ عليهِ النّارَ وأظهرَ ما فيهِ مِنَ الرّطوبةِ على وجههِ ذابَ في الجسدِ المحلولِ ومِنْ شأنِ الرّطوبةِ الاشتعالُ وتعلّقُ النّارِ بها فإذا أرادتِ النّارُ التّعلّقَ بها منعها مِنَ الاتّحادِ بالنّفسِ ممازجةُ الماءِ لها فإنَّ النّارَ لا تتّحدُ بالدّهنِ حتّى يكونَ خالصاً وكذلكَ الماءُ مِنْ شأنِهِ النّفورُ مِنَ النّارِ فإذا ألحّتْ عليهِ النّارُ وأرادتْ تطييرَهُ حبسَهُ الجسدُ اليابسُ الممازجُ لهُ في جوفِهِ فمنعهُ مِنَ الطّيرانِ فكانَ الجسدُ علّةً لإمساكِ الماءِ والماءُ علّةً لبقاءِ الدّهنِ والدّهنُ علّةً لثباتِ الصّبغِ والصّبغُ علّةً لظهورِ الدّهنِ وإظهارِ الدّهنيّةِ في الأشياءِ المظلمةِ الّتي لا نورَ لها ولا حياةَ فيها فهذا هوَ الجسدُ المستقيمُ وهكذا يكونُ العملُ وهذهِ التّصفيةُ الّتي سألتُ عنها وهيَ الّتي سمّتها الحكماءُ بيضةً وإيّاها يعنونَ لا بيضةَ الدّجاجِ واعلمْ أنَّ الحكماءَ لمْ تسمّها بهذا الاسمِ لغيرِ معنًى بلْ أشبهتها ولقدْ سألتُ مسامةَ عنْ ذلكَ يوماً وليسَ عندهُ غيري فقلتُ لهُ أيّها الحكيمُ الفاضلُ أخبرني لأيِّ شيءٍ سمّتِ الحكماءُ مركّبَ الحيوانِ بيضةً اختياراً منهمْ لذلكَ أمْ لمعنًى دعاهمْ إليهِ فقالَ هلْ لمعنًى غامضٍ فقلتُ أيّها الحكيمُ وما ظهرَ لهمْ مِنْ ذلكَ مِنَ المنفعةِ والاستدلالِ على الصّناعةِ حتّى شبّهوها وسمّوها بيضةً فقالَ لشبهِها وقرابتِها مِنَ المركّبِ ففكّرْ فيهِ فإنّهُ سيظهرُ لكَ معناه

فبقيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُفَكِّراً لا أقدرُ على الْوُصولِ إلى مَعْناهُ فلمَّا رَأى ما بي مِنَ الفِكْرِ وَأنَّ نَفْسِي قَدْ مَضتْ فِيهَا أخذَ بِعَضُدي وَهَزَّني هَزَّةً خفِيفَةً وَقالَ لي يا أبا بَكْرٍ ذلِكَ للنِّسبةِ الَّتي بَيْنَهُمَا في كَمِّيَّةِ الأَلْوانِ عِنْدَ امْتِزاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأليفِهَا فلمَّا قالَ ذلِكَ انْجلَتْ عنِّي الظُّلْمَةُ وَأضَاءَ لي نُورُ قَلبي وَقَوِيَ عَقْلي على فَهْمِهِ فنَهَضْتُ شاكِراً اللهَ عَلَيْهِ إلى منْزِلي وَأقَمْتُ عَلى ذلِكَ شَكْلاً هندَسِياً يُبَرْهَنُ بِهِ عَلى صِحَّةِ ما قالَهُ مَسْلَمَةُ وَأنا واضِعُهُ لَكَ في هٰذَا الكِتَابِ . مِثَالُ ذلِكَ أنَّ المُرَكَّبَ إذا تَمَّ وَكَمُلَ كانَ نِسْبَةُ ما فيهِ مِن طبيعَةِ الْهواءِ كَنِسْبَةِ مَا في المُرَكَّبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إلى مَا في البَيْضَةِ مِنْ طَبيعَةِ النَّار وَكَذلِكَ الطَّبِيعَتانِ الأُخْرَيانِ الأَرْضُ وَالمَاءُ فَأقُولُ إنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ عَلى هٰذِهِ الصِّفَةِ هُمَا مُتَشابِهانِ وَمِثالُ ذلِكَ أنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ البَيْضَةِ هزوح فإذا أرَدْنا ذلِكَ فإنَّا نأخُذُ أقلَّ طَبَائِعِ المُرَكَّبِ وَهِيَ طَبيعَةُ اليُبُوسَةِ وَنُضِيفُ إليهَا مِثْلَها مِنْ طَبيعَةِ الرُّطُوبَةِ وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تُنَشِّفَ طَبيعَةُ اليُبُوسَةِ طَبيعَةَ الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَها وكَأنَّ في هٰذا الكَلامِ رَمْزاً وَلٰكِنَّهُ لا يَخْفَى عَلَيْكَ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعاً مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ وَهُوَ المَاءُ فَيَكُونُ الجَمِيعُ سِتَّةَ أمْثالٍ ثُمَّ تَحْمِلُ عَلَى الجَميعِ بَعْدَ التَّدْبيرِ مِثْلاً مِن طَبِيعَةِ الهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذلِكَ ثَلاثَةُ أجْزاءٍ فَيَكُونُ الجَميعُ تِسْعَةَ أمْثالِ اليُبُوسَةِ بالقُوَّةِ وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضِلْعَيْنِ مِنَ المُرَكَّبِ الَّذِي طَبِيعَتُهُ مُحِيطَةٌ بِسَطْحِ المُرَكَّبِ طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أوَّلاً الضِّلْعَيْنِ المُحِيطَيْنِ بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ المَاءِ وَطَبِيعَةَ الهَوَاءِ وَهُمَا ضِلْعَا ا ح د وَسَطْحِ اجد وَكَذلِكَ الضِّلْعَانِ المُحِيطَانِ بِسَطْحِ البَيْضَةِ اللَّذانِ هُمَا المَاءُ وَالهَواءُ ضِلْعَا هروح فَأقُولُ إنَّ سَطْحَ اجد يُشْبِهُ سَطْحَ هروح طَبِيعَةِ الهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْساً وَكَذلِكَ مج مِنْ سَطْحِ المُرَكَّبِ وَالحُكَمَاءُ لَمْ تُسَمِّ شَيْئاً بِاسْمِ شَيْءٍ إلَّا لِشَبَهِهِ بِهِ وَالكَلِمَاتُ الَّتِي سَألْتَ عَنْ شَرْحِهَا الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ وَهِيَ المُنْعَقِدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ العَلَوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أُخْرِجَ سَوَادُهُ وَقُطِّعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِّرَ بِالزَّاجِ حَتَّى صَار نحَاسِيّاً وَالمَغْنِيسِيا حَجَرُهُمُ الَّذِي تَجْمُدُ فِيهِ الأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ الطَّبِيعَةُ العَلَوِيَّةُ الَّتِي تَسْتَجِنُّ فِيهَا الأَرْوَاحُ لِتُقَابِلَ عَلَيْهَا النَّارُ وَالفِرْفِرَةُ لَوْنٌ أحْمَرُ قانٍ يُحْدِثُهُ الكِيَانُ وَالرَّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلاثُ قُوًى مُخْتَلِفَةُ الشُّخُوصِ وَلٰكِنَّهَا مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ فَالوَاحِدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَيِّرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَةُ نَفْسَانِيَّةٌ وَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَّاسَةٌ

غيرَ أنّها أغلظُ مِنَ الأولى ومَركزُها دونَ مَركزِ الأولى والثالثـةُ قوّةٌ أرضيّةٌ حاسّةٌ قابضةٌ مُنعكسةٌ إلى مَركزِ الأرضِ لثقلها وهيَ الماسكةُ الرّوحانيّةُ والنّفسانيّةُ جميعاً والمُحيطةُ بهما وأمّا سائرُ الباقيةِ فمُبتدعةٌ ومُخترعةٌ إلباساً على الجاهلِ ومَن عرفَ المُقدّماتِ استغنى عن غيرِها . فهذا جميعُ ما سألتني عنهُ وقد بعثتُ بهِ إليكَ مفسّراً ونرجو بتوفيقِ اللهِ أن تبلغَ أملكَ والسّلامُ انتهى كلامُ ابنِ بشرونَ وهوَ مِن كبارِ تلاميذِ مَسلمةَ المَجريطيّ شيخِ الأندلسِ في علومِ الكيمياءِ والسّيمياءِ والسّحرِ في القرنِ الثالثِ وما بعدهُ وأنتَ ترى كيفَ صرفَ ألفاظهم كلّها في الصّناعةِ إلى الرّمزِ والألغازِ الّتي لا تكادُ تبينُ ولا تُعرفُ وذلكَ دليلٌ على أنّها ليستْ بصناعةٍ طبيعيّةٍ • والّذي يجبُ أن يُعتقدَ في أمرِ الكيمياءِ وهوَ الحقُّ الّذي يعضدهُ الواقعُ أنّها من جنسِ آثارِ النّفوسِ الرّوحانيّةِ وتصرّفها في عالمِ الطّبيعةِ إمّا مِن نوعِ الكرامةِ إن كانتِ النّفوسُ خيّرةً أو مِن نوعِ السّحرِ إن كانتِ النّفوسُ شرّيرةً فاجرةً فأمّا الكرامةُ فظاهرةٌ وأمّا السّحرُ فلأنّ السّاحرَ كما ثبتَ في مكانِ تحقيقهِ يقلبُ الأعيانَ المادّيّةَ بقوّتهِ السّحريّةِ ولا بدّ لهُ معَ ذلكَ عندهم مِن مادّةٍ يقعُ فعلهُ السّحريُّ فيها كتخليقِ بعضِ الحيواناتِ من مادّةِ التّرابِ أوِ الشّجرِ والنّباتِ وبالجملةِ مِن غيرِ مادّتها المخصوصةِ بها كما وقعَ لسحرةِ فرعونَ في الحبالِ والعصيِّ وكما يُنقلُ عن سحرةِ السّودانِ والهنودِ في قاصيةِ الجنوبِ والتّركِ في قاصيةِ الشّمالِ أنّهم يسحرونَ الجوَّ للأمطارِ وغيرِ ذلكَ . ولمّا كانتْ هذهِ تخليقاً للذّهبِ في غيرِ مادّتهِ الخاصّةِ بهِ كانَ مِن قبيلِ السّحرِ والمتكلّمونَ فيهِ مِن أعلامِ الحكماءِ مثلَ جابرٍ ومَسلمةَ ومَن كانَ قبلهم مِن حكماءِ الأممِ إنّما نحوا هذا المنحى ولهذا كانَ كلامهم فيهِ ألغازاً حذراً عليها مِن إنكارِ الشّرائعِ على السّحرِ وأنواعهِ لا أنّ ذلكَ يرجعُ إلى الضّنانةِ بها كما هوَ رأيُ مَن لم يذهبْ إلى التّحقيقِ في ذلكَ وانظرْ كيفَ سمّى مَسلمةُ كتابهُ فيها رتبةَ الحكيمِ وسمّى كتابهُ في السّحرِ والطّلّسماتِ غايةَ الحكيمِ إشارةً إلى عمومِ موضوعِ الغايةِ وخصوصِ موضوعِ هذهِ لأنّ الغايةَ أعلى مِنَ الرّتبةِ فكأنّ مسائلَ الرّتبةِ بعضٌ مِن مسائلِ الغايةِ وتُشاركُها في الموضوعاتِ ومِن كلامهِ في الفنّينِ يتبيّنُ ما قلناهُ ونحنُ نبيّنُ فيما بعدُ غلطَ مَن يزعمُ أنّ مداركَ هذا الأمرِ بالصّناعةِ

الطَّبِيعِيَّةِ وَاللهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هٰذَا الْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هٰذِهِ الْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي الْعُمْرَانِ كَثِيرَةٌ فِي الْمُدُنِ وَضَرَرُهَا فِي الدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجَبَ أَنْ يُصْدَعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ الْمُعْتَقَدِ الْحَقِّ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّ قَوْماً مِنْ عُقَلَاءِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ الْحِسِّيَّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ الْحِسِّيِّ تُدْرَكُ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَلِهَا بِالْأَنْظَارِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَقْيِسَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَأَنَّ تَصْحِيحَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ قِبَلِ النَّظَرِ لَا مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ الْعَقْلِ وَهٰؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ فَلَاسِفَةً جَمْعَ فَيْلَسُوفٍ وَهُوَ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ مُحِبُّ الْحِكْمَةِ فَبَحَثُوا عَنْ ذٰلِكَ وَشَمَّرُوا لَهُ وَحَوَّمُوا عَلَى إِصَابَةِ الْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُوناً يَهْتَدِي بِهِ الْعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِالْمَنْطِقِ وَمُحَصَّلُ ذٰلِكَ أَنَّ النَّظَرَ الَّذِي يُفِيدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذِّهْنِ فِي الْمَعَانِي الْمُنْتَزَعَةِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الشَّخْصِيَّةِ فَيُجَرَّدُ مِنْهَا أَوَّلاً صُوَرٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ الطَّابِعُ عَلَى جَمِيعِ النُّقُوشِ الَّتِي تَرْسُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهٰذِهِ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَائِلَ ثُمَّ تُجَرَّدُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرِكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي الذِّهْنِ فَتُجَرَّدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي اشْتَرَكَتْ بِهَا ثُمَّ تُجَرَّدُ ثَانِياً إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ التَّجْرِيدُ إِلَى الْمَعَانِي الْبَسِيطَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَانِي وَالْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هٰذَا وَهِيَ الْأَجْنَاسُ الْعَالِيَةُ وَهٰذِهِ الْمُجَرَّدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِيَ فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرُ فِي هٰذِهِ الْمَعْقُولَاتِ الْمُجَرَّدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِيَحْصُلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّراً صَحِيحاً مُطَابِقاً إِذَا كَانَ ذٰلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْفُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النِّهَايَةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي الْبِدَاءَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ التَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

ٱلتَّصْدِيقُ وَسِيلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ ٱلتَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ
ٱلتَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَبِمَعْنَى ٱلشُّعُورِ لَا بِمَعْنَى ٱلْعِلْمِ ٱلتَّامِّ وَهٰذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرِسْطُو
ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي ٱلْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ
بِهٰذَا ٱلنَّظَرِ وَتِلْكَ ٱلْبَرَاهِينِ. وَحَاصِلُ مَدَارِكِهِمْ فِي ٱلْوُجُودِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ ٱلَّذِي
فَرَّعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى ٱلْجِسْمِ ٱلسُّفْلِيِّ بِحُكْمِ ٱلشُّهُودِ وَٱلْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى
إِدْرَاكُهُمْ قَلِيلًا فَشَعَرُوا بِوُجُودِ ٱلنَّفْسِ مِنْ قِبَلِ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلْحِسِّ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحَسُّوا مِنْ
قُوَى ٱلنَّفْسِ بِسُلْطَانِ ٱلْعَقْلِ وَوَقَفَ إِدْرَاكُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى ٱلْجِسْمِ ٱلْعَالِي ٱلسَّمَاوِيِّ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْقَضَاءِ
عَلَى أَمْرِ ٱلذَّاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكِ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ
أَنْهَوْا ذٰلِكَ نِهَايَةَ عَدَدِ ٱلْآحَادِ وَهِيَ ٱلْعَشْرُ تِسْعٌ مُفَصَّلَةٌ ذَوَاتُهَا جُمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلُ مُفْرَدٌ
وَهُوَ ٱلْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْوُجُودِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْقَضَاءِ مَعَ
تَهْذِيبِ ٱلنَّفْسِ وَتَخَلُّقِهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ مُمْكِنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ لِتَمْيِيزِهِ
بَيْنَ ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلرَّذِيلَةِ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمَيْلِهِ إِلَى ٱلْمَحْمُودِ مِنْهَا
وَٱجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا ٱلْبَهْجَةُ وَٱللَّذَّةُ وَأَنَّ
ٱلْجَهْلَ بِذٰلِكَ هُوَ ٱلشَّقَاءُ ٱلسَّرْمَدِيُّ وَهٰذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى ٱلنَّعِيمِ وَٱلْعَذَابِ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَى
خَبْطٍ لَهُمْ فِي تَفَاصِيلِ ذٰلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلَّذِي حَصَّلَ
مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حُجَجَهَا فِيمَا بَلَغَنَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَحْقَابِ هُوَ أَرِسْطُو ٱلْمَقْدُونِيُّ مِنْ
أَهْلِ مَقْدُونِيَةَ مِنْ بِلَادِ ٱلرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونَ وَهُوَ مُعَلِّمُ ٱلْإِسْكَنْدَرِ وَيُسَمُّونَهُ
ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْأَوَّلَ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مُهَذَّبَةً
وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَٱسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَانُونِ
مَا شَاءَ لَوْ تَكَفَّلَ لَهُ بِقَصْدِهِمْ فِي ٱلْإِلٰهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي ٱلْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ
بِتِلْكَ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذْوَ ٱلنَّعْلِ بِٱلنَّعْلِ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ وَذٰلِكَ أَنَّ كُتُبَ
أُولٰئِكَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرْجَمَهَا ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْيُونَانِيِّ إِلَى ٱللِّسَانِ
ٱلْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مَنْ أَضَلَّهُ ٱللهُ مِنْ مُنْتَحِلِي
ٱلْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيُّ
فِي ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا فِي ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ

ٱلْمُلْكَ مِنْ بَنِي بُوَيْهِ بِأَصْبَهَانَ وَغَيْرُهُمَا وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَمَّا إِسْنَادُهُمُ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ ٱلْأَوَّلِ وَٱكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى ٱلْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ ٱللهِ فَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقاً مِنْ ذٰلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَأَنَّهُمْ فِي ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْعَقْلِ فَقَطْ وَٱلْغَفْلَةِ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ ٱلْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْأَجْسَامِ خَاصَّةً ٱلْمُعْرِضِينَ عَنِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ ٱلْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ ٱلْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ ٱللهِ شَيْءٌ وَأَمَّا ٱلْبَرَاهِينُ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَهَا عَلَى مُدَّعَيَاتِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِعْيَارِ ٱلْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فَهِيَ قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ وَافِيَةٍ بِٱلْغَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلطَّبِيعِيَّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْيِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي ٱلْخَارِجِ غَيْرُ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامٌ ذِهْنِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ عَامَّةٌ وَٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخِّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي ٱلْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ ٱلذِّهْنِيِّ ٱلْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ ٱلشَّخْصِيِّ ٱللَّهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ ٱلْحِسُّ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ ٱلْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ ٱلْيَقِينُ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ ٱلذِّهْنِ أَيْضاً فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأُوَلِ ٱلْمُطَابِقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِٱلصُّوَرِ ٱلْخَيَالِيَّةِ لَا فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي ٱلرُّتْبَةِ ٱلثَّانِيَةِ فَيَكُونُ ٱلْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينِيّاً بِمَثَابَةِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ إِذِ ٱلْمَعْقُولَاتُ ٱلْأُوَلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ ٱلْخَارِجِ لِكَمَالِ ٱلِٱنْطِبَاقِ فِيهَا فَنُسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيَهُمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ ٱلْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ لَا تُهِمُّنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجَبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَعِلْمَ مَا بَعْدَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتِهَا مَجْهُولَةٌ رَأْساً وَلَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ ٱلْمَعْقُولَاتِ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْخَارِجِيَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمْكِنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرَكٌ لَنَا وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نُجَرِّدَ مِنْهَا مَاهِيَّاتٍ أُخْرَى بِحِجَابِ ٱلْحِسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأَتَّى لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرَكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى ٱلْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا وَخُصُوصاً فِي ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي هِيَ وِجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فأمرٌ غامضٌ لا سبيلَ إلى الوقوفِ عليهِ وقد صرّحَ بذلكَ محققوهم حيثُ ذهبوا إلى أن ما لا مادّةَ لهُ لا يُمكنُ البرهانُ عليهِ لأنَّ مقدّماتِ البرهانِ من شرطِها أن تكونَ ذاتيّةً وقالَ كبيرُهم أفلاطونُ إنّ الإلهيّاتِ لا يُوصلُ فيها إلى اليقينِ وإنّما يُقالُ فيها بالأخلقِ والأولى يعني الظنَّ وإذا كنّا إنّما نحصلُ بعدَ التعبِ والنصبِ على الظنِّ فقط فيكفينا الظنُّ الذي كانَ أوّلاً فأيُّ فائدةٍ لهذهِ العلومِ والاشتغالِ بها ونحنُ إنّما عنايتُنا بتحصيلِ اليقينِ فيما وراءَ الحسِّ منَ الموجوداتِ وهذهِ هيَ غايةُ الأفكارِ الإنسانيّةِ عندَهم وأمّا قولُهم إنّ السعادةَ في إدراكِ الموجوداتِ على ما هيَ عليهِ بتلكَ البراهينِ فقولٌ مزيّفٌ مردودٌ وتفسيرُهُ أنّ الإنسانَ مركّبٌ من جزأينِ أحدُهما جسمانيٌّ والآخرُ روحانيٌّ ممتزجٌ بهِ ولكلِّ واحدٍ منَ الجزأينِ مداركُ مختصّةٌ بهِ والمدركُ فيهما واحدٌ وهوَ الجزءُ الروحانيُّ يُدركُ تارةً مداركَ روحانيّةً وتارةً مداركَ جسمانيّةً إلّا أنّ المداركَ الروحانيّةَ يدركُها بذاتهِ بغيرِ واسطةٍ والمداركَ الجسمانيّةَ بواسطةِ آلاتِ الجسمِ منَ الدماغِ والحواسِّ وكلُّ مدرِكٍ فلهُ ابتهاجٌ بما يُدركُهُ واعتبِرْهُ بحالِ الصبيِّ في أوّلِ مداركِهِ الجسمانيّةِ التي هيَ بواسطةٍ كيفَ يبتهجُ بما يُبصرُهُ منَ الضوءِ وبما يسمعُهُ منَ الأصواتِ فلا شكَّ أنّ الابتهاجَ بالإدراكِ الذي للنفسِ من ذاتِها بغيرِ واسطةٍ يكونُ أشدَّ وألذَّ فالنفسُ الروحانيّةُ إذا شعرتْ بإدراكِها الذي لها من ذاتِها بغيرِ واسطةٍ حصلَ لها ابتهاجٌ ولذّةٌ لا يُعبّرُ عنهما وهذا الإدراكُ لا يحصلُ بنظرٍ ولا علمٍ وإنّما يحصلُ بكشفِ حجابِ الحسِّ ونسيانِ المداركِ الجسمانيّةِ بالجملةِ والمتصوّفةُ كثيراً ما يعتنونَ بحصولِ هذا الإدراكِ للنفسِ بحصولِ هذهِ البهجةِ فيحاولونَ بالرياضةِ إماتةَ القوى الجسمانيّةِ ومداركِها حتّى الفكرِ منَ الدماغِ وليحصلَ للنفسِ إدراكُها الذي لها من ذاتِها عندَ زوالِ الشواغبِ والموانعِ الجسمانيّةِ يحصلُ لهم بهجةٌ ولذّةٌ لا يُعبّرُ عنهما وهذا الذي زعموهُ بتقديرِ صحّتهِ مسلّمٌ لهم وهوَ معَ ذلكَ غيرُ وافٍ بمقصودِهم فأمّا قولُهم إنّ البراهينَ والأدلّةَ العقليّةَ محصّلةٌ لهذا النوعِ منَ الإدراكِ والابتهاجِ عنهُ فباطلٌ كما رأيتَهُ إذِ البراهينُ والأدلّةُ من جملةِ المداركِ الجسمانيّةِ لأنّها بالقوى الدماغيّةِ منَ الخيالِ والفكرِ والذكرِ ونحنُ نقولُ إنّ أوّلَ شيءٍ نُعنى بهِ في تحصيلِ هذا الإدراكِ إماتةُ هذهِ القوى الدماغيّةِ كلِّها لأنّها منازعةٌ لهُ قادحةٌ فيهِ وتجدُ الماهرَ منهم عاكفاً

على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للفص من تأليف أرسطو
وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا
يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن
أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته
فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف
عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمي
وقد رأيت فساده وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس
الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس وأما قولهم
إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً لأنا
إنما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركاً آخر للنفس من غير واسطة وأنها تبتهج
بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الأخروية ولا بد
بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة وأما قولهم إن السعادة في إدراك هذه
الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من
الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبينا فساد
ذلك وإن الوجود أوسع من إن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملته روحانياً أو جسمانيا
والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى
الجسمانية أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك وهي الموجودات التي
أحاط بها علمنا وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر وأنه يبتهج
بذلك النحو من الإدراك ابتهاجاً شديداً كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول
نشوئه ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا
بها الشارع إن لم نعمل لهاهيهات هيهات لما توعدون . وأما قولهم إن الإنسان مستقل
بتهذيب نفسه وإصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فأمر مبني على
أن ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لأن
الرذائل عائقة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية
وألوانها وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية

فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدإ والمعاد ما معناه إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار هذه ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع

ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْكُلِّيَّةِ وَٱلشَّخْصِيَّةِ فَالْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى ٱلْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَاتِهَا بِٱلتَّجْرِبَةِ وَهُوَ أَمْرٌ تَقْصُرُ ٱلْأَعْمَارُ كُلُّهَا لَوِ ٱجْتَمَعَتْ عَنْ تَحْصِيلِهِ إِذِ ٱلتَّجْرِبَةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي ٱلْمَرَّاتِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ بِٱلتَّكْرَارِ لِيَحْصُلَ عَنْهَا ٱلْعِلْمُ أَوِ ٱلظَّنُّ وَأَدْوَارُ ٱلْكَوَاكِبِ مِنْهَا مَا هُوَ طَوِيلُ ٱلزَّمَنِ فَيَحْتَاجُ تَكَرُّرُهُ إِلَى آمَادٍ وَأَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ يَتَقَاصَرُ عَنْهَا مَا هُوَ طَوِيلٌ مِنْ أَعْمَارِ ٱلْعَالَمِ وَرُبَّمَا ذَهَبَ ضُعَفَاءُ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى ٱلْكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَاتِهَا كَانَتْ بِٱلْوَحْيِ وَهُوَ رَأْيٌ فَائِلٌ وَقَدْ كَفَوْنَا مُؤْنَةَ إِبْطَالِهِ وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلْأَدِلَّةِ فِيهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَنِ ٱللهِ فَكَيْفَ يَدَّعُونَ ٱسْتِنْبَاطَهُ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيُشِيرُونَ بِذَلِكَ لِتَابِعِيهِمْ مِنَ ٱلْخَلْقِ وَأَمَّا بَطْلِيمُوسُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فَيَرَوْنَ أَنَّ دَلَالَةَ ٱلْكَوَاكِبِ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ مِزَاجٍ يَحْصُلُ لِلْكَوَاكِبِ فِي ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ قَالَ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلنَّيِّرَيْنِ وَأَثَرَهُمَا فِي ٱلْعُنْصُرِيَّاتِ ظَاهِرٌ لَا يَسَعُ أَحَداً جَحْدُهُ مِثْلَ فِعْلِ ٱلشَّمْسِ فِي تَبَدُّلِ ٱلْفُصُولِ وَأَمْزِجَتِهَا وَنُضْجِ ٱلثِّمَارِ وَٱلزَّرْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِعْلِ ٱلْقَمَرِ فِي ٱلرُّطُوبَاتِ وَٱلْمَاءِ وَإِنْضَاجِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْمُتَعَفِّنَةِ وَفَوَاكِهِ ٱلْقِثَّاءِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ ثُمَّ قَالَ وَلَنَا فِيمَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ طَرِيقَانِ ٱلْأُولَى ٱلتَّقْلِيدُ لِمَنْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُقْنِعٍ لِلنَّفْسِ ٱلثَّانِيَةُ ٱلْحَدْسُ وَٱلتَّجْرِبَةُ بِقِيَاسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى ٱلنَّيِّرِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلَّذِي عَرَفْنَا طَبِيعَتَهُ وَأَثَرَهُ مَعْرِفَةً ظَاهِرَةً فَتَنْظُرُ هَلْ يَزِيدُ ذَلِكَ ٱلْكَوْكَبُ عِنْدَ ٱلْقِرَانِ فِي قُوَّتِهِ وَمِزَاجِهِ فَتُعْرَفُ مُوَافَقَتُهُ لَهُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ أَوْ يَنْقُصُ عَنْهَا فَتُعْرَفُ مُضَادَّتُهُ ثُمَّ إِذَا عَرَفْنَا قُوَاهَا مُفْرَدَةً عَرَفْنَاهَا مُرَكَّبَةً وَذَلِكَ عِنْدَ تَنَاظُرِهَا بِأَشْكَالِ ٱلتَّثْلِيثِ وَٱلتَّرْبِيعِ وَغَيْرِهِمَا وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ طَبَائِعِ ٱلْبُرُوجِ بِٱلْقِيَاسِ أَيْضاً إِلَى ٱلنَّيِّرِ ٱلْأَعْظَمِ وَإِذَا عَرَفْنَا قُوَى ٱلْكَوَاكِبِ كُلِّهَا فَهِيَ مُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلْهَوَاءِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ وَٱلْمِزَاجُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْهَا لِلْهَوَاءِ يَحْصُلُ لِمَا تَحْتَهُ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ وَتَتَخَلَّقُ بِهِ ٱلنُّطَفُ وَٱلْبِزْرُ فَتَصِيرُ حَالاً لِلْبَدَنِ ٱلْمُتَكَوِّنِ عَنْهَا وَلِلنَّفْسِ ٱلْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ ٱلْفَائِضَةِ عَلَيْهِ ٱلْمُكْتَسِبَةِ لِمَا لَهَا مِنْهُ وَلِمَا يَتْبَعُ ٱلنَّفْسَ وَٱلْبَدَنَ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ كَيْفِيَّاتِ ٱلْبِزْرَةِ وَٱلنُّطْفَةِ كَيْفِيَّاتٌ لِمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا وَيَنْشَأُ مِنْهُمَا قَالَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ظَنِّي وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً مِنَ ٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ يَعْنِي ٱلْقَدَرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَسْبَابِ

الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء هذا محصّل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلالي كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادىء الرأي من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات أيضاً منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا

لِحَيَاتِهِ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ ٱللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِٱلْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِٱلْكَوَاكِبِ ٱلْحَدِيثُ ٱلصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بُطْلَانُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ ٱلشَّرْعِ وَضُعْفُ مَدَارِكِهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ ٱلْمَضَارِّ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْإِنْسَانِيِّ بِمَا تَبْعَثُ مِنْ عَقَائِدِ ٱلْعَوَامِّ مِنَ ٱلْفَسَادِ إِذَا ٱتَّفَقَ ٱلصِّدْقُ مِنْ أَحْكَامِهَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحَايِينِ ٱتِّفَاقاً لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعْلِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيَلْهَجُ بِذَلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظُنُّ ٱطِّرَادَ ٱلصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَيَقَعُ فِي رَدِّ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا ثُمَّ مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيراً فِي ٱلدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ ٱلْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذَلِكَ ٱلتَّوَقُّعُ مِنْ تَطَاوُلِ ٱلْأَعْدَاءِ وَٱلْمُتَرَبِّصِينَ بِٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلْفَتْكِ وَٱلثَّوْرَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيراً فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْظَرَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ ٱلْمَضَارِّ فِي ٱلدِّينِ وَٱلدُّوَلِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ وُجُودِهَا طَبِيعِيّاً لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ فَٱلْخَيْرُ وَٱلشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي ٱلْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ ٱلتَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا فَيَتَعَيَّنُ ٱلسَّعْيُ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ أَسْبَابِ ٱلشَّرِّ وَٱلْمَضَارِّ هٰذَا هُوَ ٱلْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ وَلْيَعْلَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمْكِنُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ تَحْصِيلُ عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَاظِرٌ وَظَنَّ ٱلْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ ٱلْقُصُورِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ فَإِنَّ ٱلشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتِ ٱلنَّظَرَ فِيهَا فُقِدَ ٱلِاجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِقِرَاءَتِهَا وَٱلتَّحْلِيقِ لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ ٱلْمُولَعُ بِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَأَقَلُّ مِنَ ٱلْأَقَلِّ إِنَّمَا يُطَالِعُ كُتُبَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِ بَيْتِهِ مُتَسَتِّراً عَنِ ٱلنَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ ٱلْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ ٱلصِّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَٱعْتِيَاصِهَا عَلَى ٱلْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلْفِقْهَ ٱلَّذِي عَمَّ نَفْعُهُ دِيناً وَدُنْيَا وَسَهُلَتْ مَآخِذُهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَعَكَفَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ ٱلتَّحْقِيقِ وَٱلتَّجْمِيعِ وَطُولِ ٱلْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْمَجَالِسِ وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْذِقُ فِيهِ ٱلْوَاحِدُ بَعْدَ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلْأَعْصَارِ وَٱلْأَجْيَالِ فَكَيْفَ يُعْلَمُ مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سَدُّ ٱلْحَظْرِ وَٱلتَّحْرِيمِ مَكْتُومٌ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ صَعْبُ ٱلْمَآخِذِ مُحْتَاجٌ بَعْدَ ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ لِأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدْسٍ وَتَخْمِينٍ

يكتفيان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين اهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه احداً . وممّا وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
اصبح في تونس وأمسي ... والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا ... يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب ... وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يرى عليا ... حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي ... به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا ... يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري ... ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم ... أنكم اليوم أملياء
مر خميس على خميس ... وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان ... وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول ... أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا ... أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلهاً ... حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري ... إلا عباديد أو إماء
يقضى عليها وليس تقضي ... وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ... ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً ... يحدثه الماء والهواء
لم تر حلواً إزاء مر ... تغذوهم تربة وماء

أللهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي ... مَا ٱلْجَوْهَرُ ٱلْفَرْدُ وَٱلْخَلَاءُ
وَلَا ٱلْهَيُولَى ٱلَّتِي تُنَادِي ... مَا لِيَ عَنْ صُورَةٍ عَرَاءُ
وَلَا وُجُودٌ وَلَا ٱنْعِدَامٌ ... وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِفَاءُ
وَٱلْكَسْبُ لَمْ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا ... مَا جَلَبَ ٱلْبَيْعُ وَٱلشِّرَاءُ
وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي ... مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أُصُولٌ ... وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
مَا تَبِعَ ٱلصَّدْرَ وَٱقْتَفَيْنَا ... يَا حَبَّذَا كَانَ ٱلِاقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ ... وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ٱلْهِذَاءُ
يَا أَشْعَرِيَّ ٱلزَّمَانِ إِنِّي ... أَشْعَرَنِي ٱلصَّيْفُ وَٱلشِّتَاءُ
لَمْ أُجْزَ بِٱلشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ ... وَٱلْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنَّنِي إِنْ أَكُنْ مُطِيعاً ... فَلَسْتُ أَعْصِي وَلِي رَجَاءُ
وَإِنَّنِي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ ... أَطَاعَهُ ٱلْعَرْشُ وَٱلثَّرَاءُ
لَيْسَ ٱنْتِصَارٌ بِكُمْ وَلَكِنْ ... أَتَاحَهُ ٱلْحُكْمُ وَٱلْقَضَاءُ
لَوْ حُدِّثَ ٱلْأَشْعَرِيُّ عَمَّنْ ... لَهُ إِلَى رَأْيِهِ ٱنْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمُ بِأَنِّي ... مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إعلم أنَّ كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأنَّ اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الأموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخراً إذا ظهر على خيبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة ويحسبون أنها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته

وَفِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عِنْدَهُمْ لِلْعِلَاجِ ٱلْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمْ بِٱلْحَجَرِ ٱلْمُكَرَّمِ هَلْ هِيَ ٱلْعَذِرَةُ أَوِ ٱلدَّمُ أَوِ ٱلشَّعْرُ أَوِ ٱلْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مِمَّا سِوَى ذَٰلِكَ وَجُمْلَةُ ٱلتَّدْبِيرِ عِنْدَهُمْ بَعْدَ تَعَيُّنِ ٱلْمَادَّةِ أَنْ تُمْهَى بِٱلْفِهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ أَمْلَسَ وَتُسْقَى أَثْنَاءَ إِمْهَائِهَا بِٱلْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْأَدْوِيَةِ مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي ٱنْقِلَابِهَا إِلَى ٱلْمَعْدِنِ ٱلْمَطْلُوبِ ثُمَّ تُجَفَّفُ بِٱلشَّمْسِ مِنْ بَعْدِ ٱلسَّقْيِ أَوْ تُطْبَخُ بِٱلنَّارِ أَوْ تُصَعَّدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِٱسْتِخْرَاجِ مَائِهَا أَوْ تُرَابِهَا فَإِذَا رَضِيَ بِذَٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ عِلَاجِهَا وَتَمَّ تَدْبِيرُهُ عَلَى مَا ٱقْتَضَتْهُ أُصُولُ صَنْعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ تُرَابٌ أَوْ مَائِعٌ يُسَمُّونَهُ ٱلْإِكْسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى ٱلْفِضَّةِ ٱلْمُحْمَاةِ بِٱلنَّارِ عَادَتْ ذَهَبًا أَوِ ٱلنُّحَاسِ ٱلْمُحْمَى بِٱلنَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلَى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْإِكْسِيرَ مَادَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْأَرْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَٰلِكَ ٱلْعِلَاجِ ٱلْخَاصِّ وَٱلتَّدْبِيرِ مِزَاجٌ ذُو قُوًى طَبِيعِيَّةٍ تُصَرِّفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا وَمِزَاجِهَا وَتَبُثُّ فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ ٱلْكَيْفِيَّاتِ وَٱلْقُوَى كَٱلْخَمِيرَةِ لِلْخُبْزِ تَقْلِبُ ٱلْعَجِينَ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ ٱلِٱنْفِشَاشِ وَٱلْهَشَاشَةِ لِيَحْسُنَ هَضْمُهُ فِي ٱلْمَعِدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَكَذَا إِكْسِيرُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ فِيمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَادِنِ يُصَرِّفُهُ إِلَيْهِمَا وَيَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهِمَا هَٰذَا مُحَصَّلُ زَعْمِهِمْ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَٰذَا ٱلْعِلَاجِ يَبْتَغُونَ ٱلرِّزْقَ وَٱلْمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقَلُونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كُتُبٍ لِأَئِمَّةِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاظَرُونَ فِي فَهْمِ لُغُوزِهَا وَكَشْفِ أَسْرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ تُشْبِهُ ٱلْمُعَمَّى كَتَآلِيفِ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ فِي رَسَائِلِهِ ٱلسَّبْعِينَ وَمَسْلَمَةَ ٱلْمَجْرِيطِي فِي كِتَابِهِ رُتْبَةِ ٱلْحَكِيمِ وَٱلطُّغْرَائِيِّ وَٱلْمُغَيْرِبِيِّ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْعَرِيقَةِ فِي إِجَادَةِ ٱلنَّظْمِ وَأَمْثَالِهَا وَلَا يَحْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَٰذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا . فَاوَضْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا ٱلْبَرَكَاتِ ٱلتَّلْفِيقِيَّ كَبِيرَ مَشْيَخَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَٰلِكَ وَوَقَفْتُهُ عَلَى بَعْضِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهَا فَتَصَفَّحَهُ طَوِيلًا ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَّا بِٱلْخَيْبَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَٰلِكَ عَلَى ٱلدُّلْسَةِ فَقَطْ إِمَّا ٱلظَّاهِرَةِ كَتَمْوِيهِ ٱلْفِضَّةِ بِٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلنُّحَاسِ بِٱلْفِضَّةِ أَوْ خَلْطِهِمَا عَلَى نِسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْءَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوِ ٱلْخَفِيَّةِ كَإِلْقَاءِ ٱلشَّبَهِ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ بِٱلصِّنَاعَةِ مِثْلَ تَبْيِيضِ ٱلنُّحَاسِ وَتَلْيِينِهِ بِٱلزُّوقِ ٱلْمُصَعَّدِ فَيَجِيءُ جِسْمًا مَعْدِنِيًّا

شبيهاً بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة بتلبسهم بسرقة أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شر من السارق ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالإكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العالم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضات فيها ولا يستريبون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا إنما سمعنا ولم نر هكذا شأنهم في كل عصر وجيل واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك

ثمَّ نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول إنَّ مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو النصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأنَّ اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أنَّ الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عزَّ وجلَّ والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأنَّ التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكراً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع إذاً من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثمَّ تحاولها بالعلاج إلى أن يتمَّ فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهو

الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى أحالته ذهبا أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته وذلك هو الإكسير على ما تقدم واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور الأول بعينه هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة فمن الأمثال السائرة للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم

مقَامَهُ حَتَّى يُحَاذِيَ بِذٰلِكَ كُلِّهِ فِعْلَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْمَعْدِنِ أَوْ تُعَدُّ لِبَعْضِ ٱلْمَوَادِّ صُورَةٌ مِزَاجِيَّةٌ كَصُورَةِ ٱلْخَمِيرَةِ لِلْخُبْزِ وَتَفْعَلُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَادَّةِ بِٱلْمُنَاسَبَةِ لِقُوَاهَا وَمَقَادِيرِهَا وَهٰذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَحْصُرُهَا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُحِيطُ وَٱلْعُلُومُ ٱلْبَشَرِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَنْ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا حَالُ مَنْ يَدَّعِي حُصُولَهُ عَلَى ٱلذَّهَبِ بِهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ بِمَثَابَةِ مَنْ يَدَّعِي بِٱلصَّنْعَةِ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ مِنَ ٱلْمَنِيِّ وَنَحْنُ إِذَا سَلَّمْنَا لَهُ ٱلْإِحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنِسْبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّةِ تَخْلِيقِهِ فِي رَحِمِهِ وَعَلِمَ ذٰلِكَ عِلْمًا مُحَصَّلًا بِتَفَاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشِذَّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ سَلَّمْنَا لَهُ تَخْلِيقَ هٰذَا ٱلْإِنْسَانِ وَأَنَّى لَهُ ذٰلِكَ وَلْنُقَرِّبْ هٰذَا ٱلْبُرْهَانَ بِٱلِٱخْتِصَارِ لِيَسْهُلَ فَهْمُهُ فَنَقُولُ. حَاصِلُ صِنَاعَةِ ٱلْكِيمِيَاءِ وَمَا يَدَّعُونَهُ بِهٰذَا ٱلتَّدْبِيرِ أَنَّهُ مُسَاوَقَةُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْمَعْدِنِيَّةِ بِٱلْفِعْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَمُحَاذَاتُهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ ٱلْجِسْمِ ٱلْمَعْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيقُ مَادَّةٍ بِقُوًى وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ مِزَاجِيَّةٍ تَفْعَلُ فِي ٱلْجِسْمِ فِعْلًا طَبِيعِيًّا فَتُصَيِّرُهُ وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا وَٱلْفِعْلُ ٱلصِّنَاعِيُّ مَسْبُوقٌ بِتَصَوُّرَاتِ أَحْوَالِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْمَعْدِنِيَّةِ ٱلَّتِي يَقْصِدُ مُسَاوَقَتَهَا أَوْ مُحَاذَاتَهَا أَوْ فِعْلِ ٱلْمَادَّةِ ذَاتِ ٱلْقُوَى فِيهَا تَصَوُّرًا مُفَصَّلًا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَتِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَٱلْعِلْمُ ٱلْبَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ بِمَا دُونَهَا وَهُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَقْصِدُ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ هٰذَا مُحَصَّلُ هٰذَا ٱلْبُرْهَانِ وَهُوَ أَوْثَقُ مَا عَلِمْتُهُ وَلَيْسَتِ ٱلِٱسْتِحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْفُصُولِ كَمَا رَأَيْتَهُ وَلَا مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعَذُّرِ ٱلْإِحَاطَةِ وَقُصُورِ ٱلْبَشَرِ عَنْهَا وَمَا ذَكَرَهُ ٱبْنُ سِينَا بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ فِي ٱلِٱسْتِحَالَةِ مِنْ جِهَةِ غَايَتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ حِكْمَةَ ٱللّٰهِ فِي ٱلْحَجَرَيْنِ وَنُدُورِهِمَا أَنَّهُمَا قِيَمٌ لِمَكَاسِبِ ٱلنَّاسِ وَمُتَمَوَّلَاتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِٱلصَّنْعَةِ لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ ٱللّٰهِ فِي ذٰلِكَ وَكَثُرَ وُجُودُهُمَا حَتَّى لَا يَحْصُلَ أَحَدٌ مِنِ ٱقْتِنَائِهِمَا عَلَى شَيْءٍ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلِٱسْتِحَالَةِ أَيْضًا وَهُوَ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ ٱلطُّرُقِ فِي أَفْعَالِهَا وَتَرْتَكِبُ ٱلْأَعْوَصَ وَٱلْأَبْعَدَ فَلَوْ كَانَ هٰذَا ٱلطَّرِيقُ ٱلصِّنَاعِيُّ ٱلَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَحِيحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ ٱلطَّبِيعَةِ فِي مَعْدِنِهَا أَوْ أَقَلُّ زَمَانًا لَمَا تَرَكَتْهُ ٱلطَّبِيعَةُ إِلَى طَرِيقِهَا ٱلَّذِي سَلَكَتْهُ فِي كَوْنِ ٱلْفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ وَتَخَلُّقِهِمَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ ٱلطُّغْرَائِيِّ هٰذَا ٱلتَّدْبِيرَ بِمَا عُثِرَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْرَدَاتٍ لِأَمْثَالِهِ فِي ٱلطَّبِيعَةِ كَٱلْعَقْرَبِ وَٱلنَّحْلِ وَٱلْحَيَّةِ وَتَخْلِيقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيحٌ فِي هٰذِهِ أَدَّى إِلَيْهِ ٱلْعُثُورُ كَمَا زَعَمَ وَأَمَّا ٱلْكِيمِيَاءُ فَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُنْتَحِلُوهَا يَخْبِطُونَ

فيها عشواء إلى هَلُمّ جراً ولا يظفرون إلّا بالحكايات الكاذبة ولو صحّ ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتُنوقل في الأصدقاء وضمِن تصديقه صحّة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا وإلى غيرنا . وأمّا قولهم إنّ الإكسير بمثابة الخميرة وإنّه مركّب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك فاعلم أنّ الخميرة إنّما تقلب العجين وتُعِدّه للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الإكسير بالخميرة وتحقيق الأمر في ذلك أنّ الكيمياء إن صحّ وجودها كما تزعم الحكماء المتكلّمون فيها مثل جابر بن حيّان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعيّة ولا تتمّ بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيّات إنّما هو من منحى كلامهم في الأمور السحريّة وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كلّيّات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبّر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبّر ذهب من مادّة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغيّر طريق عادته إلّا بإرفاد ما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعيّاً ضيّع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لأنّ نيله إن كان صحيحاً فهو واقع ممّا وراء الطبائع والصنائع كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء قال تعالى وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذني وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربّما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربّما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاها فلا تتمّ في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريّاً فقد تبيّن أنّها إنّما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إمّا معجزة أو

سحراً ولهذا كانَ كلامُ الحُكماءِ كُلِّهِم فيها إلغازاً لا يَظفرُ بحقيقتِهِ إلّا مَن خاضَ لُجّة من عِلمِ السِّحرِ وَاطّلعَ على تصرّفاتِ النّفسِ في عالَمِ الطّبيعةِ وأُمورُ خرقِ العادةِ غيرِ منحصرةٍ ولا يَقصِدُ أحدٌ إلى تحصيلِها وَاللهُ بما يعملونَ محيطٌ وأكثرُ ما يحمِلُ على التماسِ هذهِ الصّناعةِ وانتحالِها هوَ كما قلناهُ العجزُ عنِ الطُّرقِ الطّبيعيّةِ للمَعاشِ وابتغاؤُهُ مِن غيرِ وُجوهِهِ الطّبيعيّةِ كالفلاحةِ والتّجارةِ والصّناعةِ فيستَصعِبُ العاجزُ ابتغاءَهُ مِن هذهِ ويرومُ الحُصولَ على الكثيرِ مِنَ المالِ دفعةً بوجوهٍ غيرِ طبيعيّةٍ مِنَ الكيمياءِ وغيرِها وأكثرُ مَن يُعنى بذلكَ الفُقَراءُ مِن أهلِ العُمرانِ حتّى في الحُكماءِ المتكلّمينَ في إنكارِها واستحالتِها فإنَّ ابنَ سينا القائلَ باستحالتِها كانَ عِليةَ الوزراءِ فكانَ مِن أهلِ الغِنى والثّروةِ والفارابيَّ القائلَ بإمكانِها كانَ مِن أهلِ الفقرِ الّذينَ يُعوزُهُم أدنى بُلغةٍ مِنَ المعاشِ وأسبابِهِ وهذهِ تُهمةٌ ظاهرةٌ في أنظارِ النّفوسِ المولعةِ بطُرقِها وانتحالِها واللهُ الرّازقُ ذو القوّةِ المتينُ لا ربَّ سِواهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إعلَمْ أنّهُ ممّا أضرَّ بالنّاسِ في تحصيلِ العلمِ والوقوفِ على غاياتِهِ كثرةُ التآليفِ واختلافُ الاصطلاحاتِ في التّعاليمِ وتعدُّدُ طُرقِها ثُمَّ مُطالَبةُ المتعلّمِ والتّلميذِ باستحضارِ ذلكَ وحينئذٍ يُسلَّمُ لهُ منصِبُ التّحصيلِ فيحتاجُ المتعلّمُ إلى حفظِها كُلِّها أو أكثرِها ومُراعاةِ طُرقِها ولا يفي عُمرُهُ بما كُتِبَ في صناعةٍ واحدةٍ إذا تجرّدَ لها فيقعُ القُصورُ ولا بدَّ دونَ رُتبةِ التّحصيلِ ويُمثَّلُ ذلكَ مِن شأنِ الفقهِ في المذهبِ المالكيِّ بالكُتُبِ المدوّنةِ مثلاً وما كُتِبَ عليها مِنَ الشُّروحاتِ الفقهيّةِ مثلِ كتابِ ابنِ يونسَ واللّخميِّ وابنِ بشيرٍ والتّنبيهاتِ والمقدّماتِ والبيانِ والتّحصيلِ على العتبيّةِ وكذلكَ كتابُ ابنِ الحاجبِ وما كُتِبَ عليهِ ثُمَّ إنّهُ يحتاجُ إلى تمييزِ الطّريقةِ القيروانيّةِ مِنَ القرطبيّةِ والبغداديّةِ والمصريّةِ وطُرقِ المتأخّرينَ عنهُم والإحاطةِ بذلكَ كُلِّهِ وحينئذٍ يُسلَّمُ لهُ منصِبُ الفُتيا وهيَ كُلُّها متكرّرةٌ والمعنى واحدٌ والمتعلّمُ مُطالَبٌ باستحضارِ جميعِها وتمييزِ ما بينَها والعُمرُ ينقضي في واحدٍ منها ولوِ اقتصرَ المعلّمونَ بالمتعلّمينَ على المسائلِ المذهبيّةِ فقط لكانَ الأمرُ دونَ ذلكَ بكثيرٍ وكانَ التّعليمُ سهلاً ومأخذُهُ

قريباً وَلَكِنَّهُ دَاءٌ لا يَرْتَفِعُ لِاسْتِقْرَارِ ٱلْعَوَائِدِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ كَالطَّبِيعَةِ ٱلَّتِي لا يُمْكِن نَقْلُهَا وَلاَ تَحْوِيلُهَا وَيُمَثَّلُ أَيْضاً عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ وَطُرُقِ ٱلْبَصْرِيِّينَ وَٱلْكُوفِيِّينَ وَٱلْبَغْدَادِيِّينَ وَٱلأَنْدَلُسِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطُرُقِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلِ ٱبْنِ ٱلْحَاجِبِ وَٱبْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذٰلِكَ كَيْفَ يُطَالَبُ بِهِ ٱلْمُتَعَلِّمُ وَيَنْقَضِي عُمْرُهُ دُونَهُ وَلا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي ٱلْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ ٱلنَّادِرِ مِثْلِ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ تَآلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ يُعْرَفُ بِٱبْنِ هَاشِمٍ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا أَنَّهُ ٱسْتَوْلَى عَلَى غَايَةٍ مِنْ مَلَكَةِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِسِيبَوَيْهِ وَٱبْنِ جِنِّي وَأَهْلِ طَبَقَتِهِمَا لِعِظَمِ مَلَكَتِهِ وَمَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ أُصُولِ ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَتَفَارِيعِهِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ ٱلْفَضْلَ لَيْسَ مُنْحَصِراً فِي ٱلْمُتَقَدِّمِينَ سِيَّمَا مَعَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلشَّوَاغِبِ بِتَعَدُّدِ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱلطُّرُقِ وَٱلتَّآلِيفِ وَلَكِنَّ فَضْلَ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهٰذَا نَادِرٌ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْوُجُودِ وَإِلَّا فَٱلظَّاهِرُ أَنَّ ٱلْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمْرَهُ فِي هٰذَا كُلِّهِ فَلاَ يَفِي لَهُ بِتَحْصِيلِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَثَلاً ٱلَّذِي هُوَ آلَةٌ مِنَ ٱلآلَاتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلثَّمَرَةُ وَلَكِنِ ٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ إِلَى ٱخْتِصَارِ ٱلطُّرُقِ وَٱلأَنْحَاءِ فِي ٱلْعُلُومِ يُولَعُونَ بِهَا وَيُدَوِّنُونَ مِنْهَا بَرْنَامِجاً مُخْتَصَراً فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَصْرِ مَسَائِلِهِ وَأَدِلَّتِهَا بِٱخْتِصَارٍ فِي ٱلأَلْفَاظِ وَحَشْوِ ٱلْقَلِيلِ مِنْهَا بِٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَصَارَ ذٰلِكَ مُخِلًّا بِٱلْبَلَاغَةِ وَعَسِراً عَلَى ٱلْفَهْمِ وَرُبَّمَا عَمَدُوا إِلَى ٱلْكُتُبِ ٱلأُمَّهَاتِ ٱلْمُطَوَّلَةِ فِي ٱلْفُنُونِ لِلتَّفْسِيرِ وَٱلْبَيَانِ فَٱخْتَصَرُوهَا تَقْرِيباً لِلْحِفْظِ كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ ٱلْحَاجِبِ فِي ٱلْفِقْهِ وَٱبْنُ مَالِكٍ فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْخُونَجِيُّ فِي ٱلْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ وَهُوَ فَسَادٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِٱلتَّحْصِيلِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ فِيهِ تَخْلِيطاً عَلَى ٱلْمُبْتَدِئِ بِإِلْقَاءِ ٱلْغَايَاتِ مِنَ ٱلْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدَّ لِقَبُولِهَا بَعْدُ وَهُوَ مِنْ سُوءِ ٱلتَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذٰلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ بِتَتَبُّعِ أَلْفَاظِ ٱلِاخْتِصَارِ ٱلْعَوِيصَةِ لِلْفَهْمِ بِتَزَاحُمِ ٱلْمَعَانِي عَلَيْهَا وَصُعُوبَةِ ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَسَائِلِ

مِنْ بَيْنِهَا لِأَنَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ صَعْبَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظٌّ صَالِحٌ عَنِ ٱلْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ فَالْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ مِنَ ٱلتَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقُبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلَّتِي تَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ وَٱلْإِحَالَةِ ٱلْمُفِيدَيْنِ لِحُصُولِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلتَّامَّةِ وَإِذَا ٱقْتُصِرَ عَلَى ٱلتَّكْرَارِ قَصُرَتِ ٱلْمَلَكَةُ لِقِلَّتِهِ كَشَأْنِ هٰذِهِ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ ٱلْحِفْظِ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

إِعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ ٱلْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ ٱلْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذٰلِكَ ٱلْبَابِ وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذٰلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَٱسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ ٱلْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى ٱلْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي ٱلتَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي ٱلشَّرْحَ وَٱلْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُهِمًّا وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ ٱلْفَنِّ وَقَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ هٰذَا وَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذٰلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ ٱلتَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ ٱلْمَسَائِلَ ٱلْمُقْفَلَةَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذِهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِرَانًا عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعْيَ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ ٱلْفُنُونِ فِي مَبَادِئِهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْاسْتِعْدَادَاتِ

لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل
وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه
يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ثم في
التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ
عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كلّ ذهنه عنها وحسب ذلك من
صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما أتى
ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب
على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط
مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه
على ملكة بها ينفذ في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم
استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى
يستولي على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال
وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك
ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما
بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول
الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة
للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات
إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه
والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في
التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما
فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً
ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه
فربما كان ذلك أجدر لتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب . واعلم أيها المتعلم
أني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت
بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر

الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد يصور طرفيه يروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطائه وأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذاً أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشتراطاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو

تشغيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات واترك الأمر الصناعي جملة واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعاً لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك مستعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر ونظره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم أكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان. وأما إن وقفت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطأها وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الأكثرين من النظار والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة إلى إدراك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه في الأكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب والله الهادي إلى رحمته وما العلم إلا من عند الله.

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

إعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والإلهيات

مِنَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَعُلُومٍ هِيَ وَسِيلَةٌ آلِيَّةٌ لِهَذِهِ ٱلْعُلُومِ كَالْعَرَبِيَّةِ وَٱلْحِسَابِ وَغَيْرِهِمَا لِلشَّرْعِيَّاتِ كَالْمَنْطِقِ لِلْفَلْسَفَةِ وَرُبَّمَا كَانَ آلَةً لِعِلْمِ ٱلْكَلَامِ وَلِأُصُولِ ٱلْفِقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ ٱلْمَسَائِلِ وَٱسْتِكْشَافِ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَنْظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإِيضَاحًا لِمَعَانِيهَا ٱلْمَقْصُودَةِ وَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا مِثْلَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهَا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ ٱلْغَيْرِ فَقَطْ وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا ٱلْكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ ٱلْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ ٱلْمَقْصُودِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرُ فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ ٱلْمَقْصُودِ وَصَارَ ٱلْاشْتِغَالُ بِهَا لَغْوًا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ ٱلْحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْعُلُومِ ٱلْمَقْصُودَةِ بِٱلذَّاتِ لِطُولِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ وَٱلْعُمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ ٱلصُّورَةِ فَيَكُونُ ٱلْاشْتِغَالُ بِهَذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعُمْرِ وَشُغْلًا بِمَا لَا يَعْنِي وَهَذَا كَمَا فَعَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِي صِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ وَصِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَأُصُولِ ٱلْفِقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ ٱلْكَلَامِ فِيهَا وَأَكْثَرُوا مِنَ ٱلتَّفَارِيعِ وَٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ بِمَا أَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنِهَا آلَةً وَصَيَّرَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا أَنْظَارٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْمَقْصُودَةِ فَهِيَ مِنْ نَوْعِ ٱللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِٱلْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ لِأَنَّ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ ٱهْتِمَامُهُمْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْمَقْصُودَةِ أَكْثَرُ مِنَ ٱهْتِمَامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا فَإِذَا قَطَعُوا ٱلْعُمْرَ فِي تَحْصِيلِ ٱلْوَسَائِلِ فَمَتَى يَظْفَرُونَ بِٱلْمَقَاصِدِ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُعَلِّمِينَ لِهَذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلْآلِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَبْحِرُوا فِي شَأْنِهَا وَيُنَبِّهُوا ٱلْمُتَعَلِّمَ عَلَى ٱلْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقِفُوا بِهِ عِنْدَهُ فَمَنْ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلتَّوَغُّلِ فَلْيَرْقَ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ ٱلْمَرَاقِي صَعْبًا أَوْ سَهْلًا وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

إِعْلَمْ أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْوِلْدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ ٱلدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ ٱلْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى ٱلْقُلُوبِ مِنْ رُسُوخِ ٱلْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ وَبَعْضِ مُتُونِ ٱلْأَحَادِيثِ وَصَارَ ٱلْقُرْآنُ أَصْلَ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ

مَا يَحْصُلُ بَعْدُ مِنَ الْمَلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخاً وَهُوَ أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ وَأَسَالِيبِهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ بِاخْتِلَافِهِمْ بِاعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي الْوِلْدَانِ الِاقْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ وَأَخْذُهُمْ أَثْنَاءَ الْمُدَارَسَةِ بِالرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلِطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهٍ وَلَا مِنْ شِعْرٍ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَحْذِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعاً عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى الْبَرْبَرِ أُمَمِ الْمَغْرِبِ فِي وِلْدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّبِيبَةِ وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَارَسَةَ الْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمُرِهِ فَهُمْ لِذَلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي التَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأُسَّهُ وَمَنْبَعَ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلاً فِي التَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ رِوَايَةَ الشِّعْرِ فِي الْغَالِبِ وَالتَّرَسُّلَ وَأَخْذَهُمْ بِقَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَحِفْظِهَا وَتَجْوِيدِ الْخَطِّ وَالْكِتَابِ وَلَا تَخْتَصُّ عِنَايَتُهُمْ فِيهِ بِالْخَطِّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْوَلَدُ مِنْ عُمُرِ الْبُلُوغِ إِلَى الشَّبِيبَةِ وَقَدْ شَدَا بَعْضَ الشَّيْءِ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ وَالْبَصَرِ بِهِمَا وَبَرَزَ فِي الْخَطِّ وَالْكِتَابِ وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ الْعِلْمِ عَلَى الْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدٌ لِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ لَكِنَّهُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ ذَلِكَ لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِي آفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاسْتِعْدَادٌ إِذَا وُجِدَ الْمُعَلِّمُ وَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فَيَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ الْقُرْآنَ بِالْحَدِيثِ فِي الْغَالِبِ وَمُدَارَسَةِ قَوَانِينِ الْعُلُومِ وَتَلْقِينِ بَعْضِ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَاسْتِظْهَارَ الْوِلْدَانِ إِيَّاهُ وَوُقُوفَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهُ وَعِنَايَتَهُمْ بِالْخَطِّ تَبَعٌ لِذَلِكَ وَبِالْجُمْلَةِ فَطَرِيقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَاسْتَقَرُّوا بِتُونِسَ وَعَنْهُمْ أَخَذَ وِلْدَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ فَيَخْلِطُونَ فِي التَّعْلِيمِ كَذَلِكَ عَلَى مَا يَبْلُغُنَا

وَلا أَدرِي بِمَ عِنَايَتُهُمْ مِنهَا وَٱلَّذِي يُنقَلُ لَنَا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِدِرَاسَةِ ٱلْقُرْآنِ وَصُحُفِ ٱلعِلْمِ وَقَوَانِينِهِ فِي زَمَنِ ٱلشَّبِيبَةِ وَلاَ يَخْلِطُونَ بِتَعْلِيمِ ٱلْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ ٱلْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُون وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى ٱنفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ ٱلصَّنَائِعِ وَلا يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ ٱلصِّبْيَانِ وَإِذَا كَتَبُوا لَهُمُ ٱلْأَلْوَاحَ فَبِخَطٍّ قَاصِرٍ عَنِ ٱلْإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلُّمَ ٱلْخَطِّ فَعَلَى قَدْرِ مَا يَسْنَحُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ ٱلْهِمَّةِ فِي طَلَبِهِ وَيَبْتَغِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ فَأَفَادَهُمُ ٱلِاقْتِصَارُ عَلَى ٱلْقُرْآنِ ٱلْقُصُورَ عَنْ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ لا يَنْشَأُ عَنْهُ فِي ٱلْغَالِبِ مَلَكَةٌ لِمَا أَنَّ ٱلْبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ ٱلْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُونَ لِذَلِكَ عَنِ ٱلِاسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيبِهِ وَٱلِاحْتِذَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيبِهِ فَلاَ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَحَظُّهُ ٱلْجُمُودُ فِي ٱلْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْكَلَامِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمُ ٱلْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ ٱلْعُلُومِ فِي قَوَانِينِهَا كَمَا قُلْنَاهُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ وَمُحَاذَاةِ ٱلْمِثْلِ بِٱلْمِثْلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّرَسُّلُ وَمُدَارَسَةُ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعُمُرِ حُصُولَ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَقَصَّرُوا فِي سَائِرِ ٱلْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ مُدَارَسَةِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقَصِّرٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ ٱلتَّعْلِيمُ ٱلثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ ٱلصِّبَى وَلَقَدْ ذَهَبَ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلْعَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ ٱلتَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ ٱلْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ ٱلشِّعْرَ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ضَرُورَةُ فَسَادِ ٱللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى ٱلْحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى ٱلْقَوَانِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرْسِ ٱلْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ ٱلْمُقَدِّمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ ٱلصَّبِيُّ بِكِتَابِ ٱللهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ يَقْرَأُ مَا لاَ يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرُهُ أَهَمُّ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ ٱلدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ ٱلْفِقْهِ ثُمَّ ٱلْجَدَلِ ثُمَّ ٱلْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُخْلَطَ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ ٱلْفَهْمِ وَٱلنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ٱلْقَاضِي

أبو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن إلّا أنّ العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصّت به العوائد من تقدّم دراسة القرآن إيثاراً للتّبرّك والثّواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصّبي من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنّه ما دام في الحجر منقاد للحكم فإذا تجاوز البلوغ وانحلّ من ربقة القهر فربّما عصفت به رياح الشّبيبة فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلّا يذهب خلواً منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التّعليم لكان هذا المذهب الّذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكنّ الله يحكم ما يشاء لا معقّب لحكمه

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أنّ إرهاف الحدّ بالتّعليم مضرّ بالمتعلّم سيّما في أصاغر الولد لأنّه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيّق عن النّفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التّظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلّمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانيّة الّتي له من حيث الاجتماع والتّمرّن وهي الحميّة والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النّفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيّتها فارتكس وعاد في أسفل السّافلين وهكذا وقع لكلّ أمّة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كلّ من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السّوء حتّى إنّهم يوصفون في كلّ أفق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التّخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلّم في متعلّمه والوالد في ولده أن لا يستبدّا عليهما في التّأديب وقد قال محمّد بن أبي زيد في كتابه الّذي ألّفه في حكم المعلّمين والمتعلّمين لا ينبغي لمؤدّب الصّبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً ومن

كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة . انتهى .

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ ٱلنَّظَرَ ٱلْفِكْرِيَّ وَٱلْغَوْصَ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْتِزَاعَهَا مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدَهَا فِي ٱلذِّهْنِ أُمُوراً كُلِّيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ ٱلْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيَّ عَلَى ٱلْخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضاً يَقِيسُونَ ٱلْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا ٱعْتَادُوهُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْفِقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا فِي ٱلذِّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ ٱلْفَرَاغِ مِنَ ٱلْبَحْثِ وَٱلنَّظَرِ وَلَا تَصِيرُ بِٱلْجُمْلَةِ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّعُ مَا فِي ٱلْخَارِجِ عَمَّا فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ ذٰلِكَ كَٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا فِي ٱلْمَحْفُوظِ مِنْ أَدِلَّةِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ فَتُطْلَبُ مُطَابَقَةُ مَا فِي ٱلْخَارِجِ لَهَا عَكْسَ ٱلْأَنْظَارِ فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ فِي صِحَّتِهَا مُطَابَقَتُهَا لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلذِّهْنِيَّةَ وَٱلْأَنْظَارَ ٱلْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَٱلسِّيَاسَةُ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي ٱلْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيَتْبَعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنْ إِلْحَاقِهَا بِشِبْهٍ أَوْ مِثَالٍ وَيُنَافِي ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي يُحَاوَلُ تَطْبِيقُهُ عَلَيْهَا وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ عَلَى ٱلْآخَرِ كَمَا ٱشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا ٱخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ ٱلْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ ٱلْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ ٱلْأُمُورِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي ٱلسِّيَاسَةِ أَفْرَغُوا ذٰلِكَ فِي قَالَبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ ٱسْتِدْلَالَاتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ كَثِيراً وَلَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ بِثُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ ٱلْفُقَهَاءِ مِنَ ٱلْغَوْصِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْمُحَاكَاةِ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ وَٱلْعَامِّيُّ ٱلسَّلِيمُ ٱلطَّبْعِ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذٰلِكَ وَعَدَمِ ٱعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا ٱخْتُصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي ٱلْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يُفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ ٱلْمَوَادَّ ٱلْمَحْسُوسَةَ وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ كَٱلسَّابِحِ لَا يُفَارِقُ ٱلْبَرَّ عِنْدَ ٱلْمَوْجِ قَالَ ٱلشَّاعِرُ

فَلَا تُوغِلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ ... فَإِنَّ ٱلسَّلَامَةَ فِي ٱلسَّاحِلِ

فيكونُ مأموناً مِنَ النَّظَرِ في سِياسَتِهِ مُستقيمَ النَّظَرِ في مُعامَلَةِ أبناءِ جنسِهِ فيحسُن معاشُهُ وتندفعُ آفاتُهُ ومَضارُّهُ باستقامةِ نظرِهِ وفوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عليمٌ ومن هُنا يتبيَّن أنَّ صِناعةَ المَنطِقِ غيرُ مأمونةِ الغَلطِ لِكثرةِ ما فيها مِنَ الانتزاعِ وبُعدِها عن المحسوس فإنَّها تنظرُ في المعقولاتِ الثَّواني ولعلَّ المَوادَّ فيها ما يُمانِعُ تِلكَ الأحكامَ ويُنافيها عندَ مُراعاةِ التَّطبيقِ اليقينيِّ وأمَّا النَّظرُ في المعقولاتِ الأُوَلِ وهيَ الَّتي تجريدُها قريب فليسَ كذلِكَ لأنَّها خياليَّةٌ وصُورُ المحسوساتِ حافِظةٌ مُؤذِنةٌ بتصديقِ انطباقِهِ واللهُ سُبحانَهُ وتعالى أعلمُ وبهِ التَّوفيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

مِنَ الغريبِ الواقِعِ أنَّ حَمَلةَ العِلمِ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ أكثرُهُمُ العَجَمُ لا مِنَ العُلومِ الشَّرعيَّةِ ولا مِنَ العُلومِ العقليَّةِ إلَّا في القليلِ النَّادِرِ وإن كانَ مِنهُمُ العربيُّ في نِسبتِهِ فهوَ عجميٌّ في لُغتِهِ ومربَاهُ ومشيختِهِ معَ أنَّ المِلَّةَ عربيَّةٌ وصاحبُ شريعتِها عربيٌّ والسَّببُ في ذلِكَ أنَّ المِلَّةَ في أوَّلِها لم يكُن فيها عِلمٌ ولا صِناعةٌ لِمُقتضى أحوالِ السَّذاجةِ والبداوةِ وإنَّما أحكامُ الشَّريعةِ الَّتي هيَ أوامِرُ اللهِ ونواهيهِ كانَ الرِّجالُ ينقُلونَها في صُدورِهِم وقد عرفُوا مأخذَها مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ بِما تلقَّوهُ مِن صاحِبِ الشَّرعِ وأصحابِهِ والقومُ يومئذٍ عربٌ لم يعرفُوا أمرَ التَّعليمِ والتَّأليفِ والتَّدوينِ ولا دُفِعُوا إليهِ ولا دعَتهُم إليهِ حاجةٌ وجرى الأمرُ على ذلِكَ زمنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وكانُوا يُسمُّونَ المُختصِّينَ بِحَملِ ذلِكَ ونقلِهِ إلى القُرَّاءِ أي الَّذينَ يقرأُونَ الكِتابَ وليسُوا أُمِّيِّين لأنَّ الأُمِّيَّةَ يومئذٍ صِفةٌ عامَّةٌ في الصَّحابةِ بِما كانُوا عرباً فقيلَ لِحَمَلةِ القُرآنِ يومئذٍ قُرَّاءٌ إشارةٌ إلى هذا فهُم قُرَّاءٌ لِكِتابِ اللهِ والسُّنَّةِ المأثُورةِ عن اللهِ لأنَّهُم لم يعرفُوا الأحكامَ الشَّرعيَّةَ إلَّا مِنهُ ومِنَ الحديثِ الَّذي هُوَ في غالِبِ مَوارِدِهِ تفسيرٌ لهُ وشرحٌ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تركتُ فيكُم أمرينِ لن تضِلُّوا ما تمسَّكتُم بِهِما كِتابَ اللهِ وسُنَّتي فلمَّا بعُدَ النَّقلُ مِن لدُن دولةِ الرَّشيدِ فما بعدُ احتيجَ إلى وضعِ التَّفاسيرِ القُرآنيَّةِ وتقييدِ الحديثِ مخافةَ ضياعِهِ ثُمَّ احتيجَ إلى معرفةِ الأسانيدِ وتعديلِ النَّاقِلينَ لِلتَّمييزِ بينَ الصَّحيحِ مِنَ الأسانيدِ وما دُونَهُ ثُمَّ كثُرَ استخراجُ أحكامِ الواقِعاتِ مِن

ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذٰلِكَ ٱللِّسَانُ فَٱحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَصَارَتِ ٱلْعُلُومُ ٱلشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي ٱلِاسْتِنْبَاطَاتِ وَٱلِاسْتِخْرَاجِ وَٱلتَّنْظِيرِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱحْتَاجَتْ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ ٱلْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذٰلِكَ ٱلِاسْتِنْبَاطِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱلذَّبِّ عَنِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلْبِدَعِ وَٱلْإِلْحَادِ فَصَارَتْ هٰذِهِ ٱلْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُوماً ذَاتَ مَلَكَاتٍ مُحْتَاجَةً إِلَى ٱلتَّعْلِيمِ فَٱنْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ ٱلْحَضَرِ وَأَنَّ ٱلْعَرَبَ أَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنْهَا فَصَارَتِ ٱلْعُلُومُ لِذٰلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعُدَ عَنْهَا ٱلْعَرَبُ وَعَنْ سُوقِهَا وَٱلْحَضَرُ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ هُمُ ٱلْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَأَهْلُ ٱلْحَوَاضِرِ ٱلَّذِينَ هُمْ يَوْمَئِذٍ تَبَعٌ لِلْعَجَمِ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَمُ عَلَى ذٰلِكَ لِلْحَضَارَةِ ٱلرَّاسِخَةِ فِيهِمْ مُنْذُ دَوْلَةِ ٱلْفُرْسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ مِنْ بَعْدِهِ وَٱلزَّجَّاجَ مِنْ بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فَٱكْتَسَبُوهُ بِٱلْمَرْبَى وَمُخَالَطَةِ ٱلْعَرَبِ وَصَيَّرُوهُ قَوَانِينَ وَفَنّاً لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَذَا حَمَلَةُ ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِينَ حَفِظُوهُ عَنْ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَعْجِمُونَ بِٱللُّغَةِ وَٱلْمَرْبَى وَكَانَ عُلَمَاءُ أُصُولِ ٱلْفِقْهِ كُلُّهُمْ عَجَماً كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ ٱلْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَقُمْ بِحِفْظِ ٱلْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا ٱلْأَعَاجِمُ وَظَهَرَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعَلَّقَ ٱلْعِلْمُ بِأَكْنَافِ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ أَدْرَكُوا هٰذِهِ ٱلْحَضَارَةَ وَسُوقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ ٱلْبَدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمُ ٱلرِّيَاسَةُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ ٱلْأَنَفَةِ عَنِ ٱنْتِحَالِ ٱلْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلرُّؤَسَاءُ أَبَداً يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمِهَنِ وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذٰلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ ٱلْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَقِرُونَ حَمَلَتَهَا كُلَّ ٱلِاحْتِقَارِ حَتَّى إِذَا خَرَجَ ٱلْأَمْرُ مِنَ ٱلْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتِ ٱلْعُلُومُ ٱلشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةَ ٱلنِّسْبَةِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمُلْكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْبُعْدِ عَنْ نِسْبَتِهَا وَٱمْتُهِنَ حَمَلَتُهَا بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بُعَدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَغِلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسِّيَاسَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي نَقْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلدِّينِيَّةِ فَهٰذَا ٱلَّذِي قَرَّرْنَاهُ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ حَمَلَةَ ٱلشَّرِيعَةِ أَوْ عَامَّتَهُمْ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ أَيْضاً فَلَمْ تَظْهَرْ فِي ٱلْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قدمناه أولا فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الإصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبا في أحوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك

ٱللُّغَةُ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيق

علم النحو

إِعلَمْ أَنَّ ٱللُّغَةَ فِي ٱلْمُتَعَارَف هِيَ عِبَارَةُ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ ٱلْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ فَلا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرِّرَةً فِي ٱلْعُضْوِ ٱلْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ ٱللِّسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذٰلِكَ أَحْسَنَ ٱلْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ لِدَلَالَةِ غَيْرِ ٱلْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْمَجْرُورِ أَعْنِي ٱلْمُضَافَ وَمِثْلَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي تُفْضِي بِٱلْأَفْعَالِ إِلَى ٱلذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ أَلْفَاظٍ أُخْرَى وَلَيْسَ يُوجَدُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنًى أَوْ حَالٍ لا بُدَّ لَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ تَخُصُّهُ بِٱلدَّلَالَةِ وَلِذٰلِكَ نَجِدُ كَلامَ ٱلْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلامِ ٱلْعَرَبِ وَهٰذا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوامِعَ ٱلْكَلِمِ وَٱخْتُصِرَ لِيَ ٱلْكَلامُ ٱخْتِصَاراً فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ وَٱلْحَرَكَاتِ وَٱلْهَيْئَاتِ أَيِ ٱلْأَوْضَاعِ ٱعْتِبَارٌ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةٍ يَسْتَفِيدُونَ ذٰلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا ٱلْآخِرُ عَنِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صِبْيَانُنَا لِهٰذا ٱلْعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ ٱلْإِسْلامُ وَفَارَقُوا ٱلْحِجَازَ لِطَلَبِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَخَالَطُوا ٱلْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا ٱلسَّمْعُ مِنَ ٱلْمُخَالَفَاتِ ٱلَّتِي لِلْمُسْتَعْرِبِينَ وَٱلسَّمْعُ أَبُو ٱلْمَلَكَاتِ ٱللِّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِجُنُوحِهَا إِلَيْهِ بِٱعْتِيَادِ ٱلسَّمْعِ وَخَشِيَ أَهْلُ ٱلْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةُ رَأْساً وَيَطُولَ ٱلْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ ٱلْقُرْآنُ وَٱلْحَدِيثُ عَلَى ٱلْمَفْهُومِ فَٱسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ ٱلْمَلَكَةِ مُطَّرِدَةً شِبْهَ ٱلْكُلِّيَّاتِ وَٱلْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ ٱلْكَلامِ وَيُلْحِقُونَ ٱلْأَشْبَاهَ بِٱلْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَٱلْمَفْعُول مَنْصُوبٌ وَٱلْمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغَيُّرَ ٱلدَّلَالَةِ بِتَغَيُّرِ حَرَكَاتِ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ فَٱصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَاباً وَتَسْمِيَةِ ٱلْمُوجِبِ لِذٰلِكَ ٱلتَّغَيُّرِ عَامِلًا وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا ٱصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِٱلْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً وَٱصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ ٱلنَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَال بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغَيُّرَ ٱلْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلَى

ضَبْطِهَا بِالْقَوَانِينِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنِ انْتَهَتْ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ أَحْوَجَ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ فَهَذَّبَ الصِّنَاعَةَ وَكَمَّلَ أَبْوَابَهَا وَأَخَذَهَا عَنْهُ سِيبَوَيْهِ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَاسْتَكْثَرَ مِنْ أَدِلَّتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ فِيهَا كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الزَّجَّاجُ كُتُبًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْذُونَ فِيهَا حَذْوَ الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَحَدَثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ وَكَثُرَتِ الْأَدِلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَايَنَتِ الطُّرُقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الِاخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي الِاخْتِصَارِ فَاخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوِ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى الْمَبَادِئِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ كَمَا فَعَلَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْمُفَصَّلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقَدِّمَةِ لَهُ وَرُبَّمَا نَظَمُوا ذَلِكَ نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي الْأُرْجُوزَتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنِ مُعْطِي فِي الْأُرْجُوزَةِ الْأَلْفِيَّةِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالتَّآلِيفُ فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطُرُقُ التَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لِطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طُرُقُهُمْ كَذَلِكَ وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ تُؤْذِنُ بِالذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنَ النَّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ الْعُمْرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيوَانٌ مِنْ مِصْرَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ الْإِعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفَصَّلَةً وَتَكَلَّمَ عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ وَحَذَفَ مَا فِي الصِّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمُغْنِي فِي الْإِعْرَابِ وَأَشَارَ إِلَى نُكَتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا بِأَبْوَابٍ وَفُصُولٍ وَقَوَاعِدَ انْتَظَمَ سَائِرُهَا فَوَقَفْنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَوُفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ الَّذِينَ اقْتَفَوْا أَثَرَ ابْنِ جِنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ دَالٍّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم

الشَّفَةِ وَجعلَ حُرُوفَ العِلَّةِ آخِراً وهِيَ الحُرُوفُ الهَوائيَّةُ وبَدأَ مِنْ حُرُوفِ الحَلقِ بالعَينِ لأنَّهُ الأَقصَرُ مِنهَا فلذلِكَ سُمِّي كِتَابُهُ بالعَينِ لِأَنَّ المُتقَدِّمِينَ كانُوا يَذهَبُونَ في تَسمِيَةِ دَوَاوِينِهِم إِلَى مِثلِ هٰذا وهُوَ تَسمِيَتُهُ بأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالأَلفاظِ ثُمَّ بيَّنَ المُهمَلَ مِنهَا مِنَ المُستَعمَلِ وكانَ المُهمَلُ في الرُّباعيِّ وَالخُماسيِّ أكثَرَ لِقِلَّةِ استِعمَالِ العَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ ولَحِقَ بِهِ الثُّنائيُّ لِقِلَّةِ دَوَرَانِهِ وكانَ الاستِعمَالُ في الثُّلاثيِّ أغلَبَ فكانَتْ أوضاعُهُ أكثَرَ لِدَوَرانِهِ وَضَمَّنَ الخَليلُ ذٰلِكَ كُلَّهُ في كِتابِ العَينِ وَاستَوعَبَهُ أحسَنَ استِيعابٍ وأَوعاهُ وجاءَ أبو بكرٍ الزُّبيدِيُّ وكَتَبَ لِهِشامٍ المُؤيَّدِ بالأندلسِ في المائةِ الرَّابعةِ فاختَصَرَهُ معَ المُحافَظَةِ عَلى الاستِيعابِ وحَذَفَ مِنهُ المُهمَلَ كُلَّهُ وكَثِيراً مِنْ شَوَاهِدِ المُستَعمَلِ ولَخَّصَهُ لِلحِفظِ أحسَنَ تَلخِيصٍ وأَلَّفَ الجَوهَرِيُّ مِنَ المَشارِقَةِ كتابَ الصِّحاحِ عَلى التَّرتِيبِ المُتعارَفِ لِحُرُوفِ المُعجَمِ فجَعَلَ البَداءَةَ مِنهَا بالهَمزَةِ وجَعَلَ التَّرجَمَةَ بالحُرُوفِ عَلى الحَرفِ الأخِيرِ مِنَ الكَلِمَةِ لاضطِرارِ النَّاسِ في الأكثَرِ إلَى أوَاخِرِ الكَلِمِ وحَصرِ اللُّغَةِ اقتداءً بِحَصرِ الخَليلِ ثُمَّ أَلَّفَ فيها مِنَ الأندلُسيِّينَ ابنُ سِيدَه مِنْ أهلِ دانِيَةَ في دَولَةِ عليِّ بنِ مُجاهِدٍ كتابَ المُحكَمِ عَلى ذٰلِكَ المَنحَى مِنَ الاستِيعابِ وعَلى نَحوِ تَرتِيبِ كِتابِ العَينِ وزادَ فِيهِ التَّعرُّضَ لاشتِقاقاتِ الكَلِمِ وتَصارِيفِهَا فجاءَ مِن أحسَنِ الدَّواوِينِ ولَخَّصَهُ مُحمَّدُ بنُ أبي الحُسَينِ صاحِبُ المُستَنصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّولَةِ الحَفصِيَّةِ بتُونِسَ وقَلَبَ تَرتِيبَهُ إلَى تَرتِيبِ كِتابِ الصِّحاحِ في اعتِبارِ أواخِرِ الكَلِمِ وبِناءِ التَّراجِمِ عَلَيهَا فكانَا تَوأَمَي رَحِمٍ وسَلِيلَي أُبُوَّةٍ هٰذِهِ أُصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيما عَلِمناهُ وهُنَاكَ مُختَصَراتٌ أُخرَى مُختَصَّةٌ بِصِنفٍ مِنَ الكَلِمِ ومُستَوعِبَةٌ لِبَعضِ الأبوابِ أو لِكُلِّهَا إلَّا أنَّ وَجهَ الحَصرِ فِيهَا خَفِيٌّ ووَجهَ الحَصرِ في تِلكَ جَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ التَّراكيبِ كَمَا رأَيتَ ومِنَ الكُتُبِ المَوضُوعَةِ أيضاً في اللُّغَةِ كِتابُ الزَّمَخشَرِيِّ في المَجازِ بَيَّنَ فِيهِ كُلَّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ العَرَبُ مِنَ الألفاظِ وفِيما تَجَوَّزَتْ بِهِ مِنَ المَدلُولاتِ وهُوَ كِتابٌ شَرِيفُ الإفادَةِ ثُمَّ لَمَّا كانَتِ العَرَبُ تَضَعُ الشَّيءَ عَلى العُمُومِ ثُمَّ تَستَعمِلُ في الأُمُورِ الخاصَّةِ أَلفاظاً أُخرَى خاصَّةً بِهَا فَرَّقَ ذٰلِكَ عِندَنا بَينَ الوَضعِ وَالاستِعمالِ وَاحتاجَ إلَى فِقهٍ في اللُّغَةِ عَزِيزِ المَأخَذِ كَمَا وُضِعَ الأبيَضُ بالوَضعِ العامِّ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَياضٌ ثُمَّ اختُصَّ مَا فِيهِ بَياضٌ مِنَ الخَيلِ بالأشهَبِ ومِنَ الإنسانِ بالأزهَرِ ومِنَ الغَنَمِ بالأملَحِ حَتَّى صارَ استِعمالُ

ٱلْأَبيَض فِي هٰذِهِ كُلِّهَا لَحناً وَخُرُوجاً عَن لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱخْتَصَّ بِٱلتَّأليفِ فِي هٰذَا ٱلْمَنحَى ٱلثَّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ فِقهَ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ أَكَدِ مَا يَأْخُذُ بِهِ ٱللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ ٱسْتِعْمَالَ ٱلعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَلَيْسَ مَعرِفَةُ ٱلْوَضْعِ ٱلْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي ٱلتَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَرَبِ لِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْأَدِيبُ فِي فَنَّي نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ حَذَراً مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لَحنُهُ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَوِيَّةِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَاكِيبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ ٱللَّحنِ فِي ٱلْإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ وَكَذٰلِكَ أَلَّفَ بَعضُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَتَكَفَّلَ بِحَصْرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ فِي ذٰلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلْأَكْثَرِ وَأَمَّا ٱلْمُخْتَصَرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِٱلْمُتَدَاوَلِ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلْكَثِيرِ ٱلْاسْتِعْمَالِ تَسْهِيلاً لِحِفْظِهَا عَلَى ٱلطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلُ ٱلْأَلْفَاظِ لِٱبْنِ ٱلسِّكِّيتِ وَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبَ وَغَيْرِهِمَا وَبَعْضُهَا أَقَلُّ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لِٱخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ فِي ٱلْأَهَمِّ عَلَى ٱلطَّالِبِ لِلْحِفْظِ وَٱللهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

علم البيان

هٰذَا ٱلْعِلْمُ حَادِثٌ فِي ٱلْمِلَّةِ بَعدَ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱللِّسَانِيَّةِ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِٱلْأَلْفَاظِ وَمَا تُفِيدُهُ وَيُقْصَدُ بِهَا ٱلدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يَقْصِدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ إِمَّا تَصَوُّرُ مُفْرَدَاتٍ تُسْنَدُ وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا وَيُفْضِي بَعضُهَا إِلَى بَعضٍ وَٱلدَّالَّةُ عَلَى هٰذِهِ هِيَ ٱلْمُفْرَدَاتُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَٱلْأَفْعَالِ وَٱلْحُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزُ ٱلْمُسْنَدَاتِ مِنَ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَٱلْأَزْمِنَةِ وَيُدَلُّ عَلَيْهَا بِتَغَيُّرِ ٱلْحَرَكَاتِ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ وَأَبْنِيَةِ ٱلْكَلِمَاتِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلنَّحْوِ وَيَبْقَى مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالُ ٱلْمُتَخَاطِبِينَ أَوِ ٱلْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ ٱلْفِعلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ٱلْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ ٱلْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ وَإِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يَخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْإِبَانَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ زَيْدٌ جَاءَنِي مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ جَاءَنِي زَيْدٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُتَقَدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ ٱلْأَهَمُّ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلْمَجِيءِ قَبْلَ ٱلشَّخْصِ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَمَنْ قَالَ زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلشَّخْصِ

قَبْلَ ٱلْمَجِيءِ ٱلْمُسْنَدِ وَكَذَا ٱلتَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ ٱلْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مُبْهَمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ وَكَذَا تَأْكِيدُ ٱلْإِسْنَادِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْداً قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْداً لَقَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي ٱلدَّلَالَةِ وَإِنِ ٱسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ ٱلْإِعْرَابِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ ٱلْعَارِيَ عَنِ ٱلتَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ ٱلْخَالِيَ ٱلذِّهْنِ وَٱلثَّانِيَ ٱلْمُؤَكَّدَ بِإِنَّ يُفِيدُ ٱلْمُتَرَدِّدَ وَٱلثَّالِثُ يُفِيدُ ٱلْمُنْكِرَ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ تَقُولُ جَاءَنِي ٱلرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بِعَيْنِهِ جَاءَنِي رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ ٱلتَّنْكِيرِ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلرِّجَالِ ثُمَّ ٱلْجُمْلَةُ ٱلْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لَهَا خَارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوْ لَا وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ فَيُشْرِكُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ ٱلتَّابِعِ ٱلْمُفْرَدِ نَعْتاً وَتَوْكِيداً وَبَدَلاً بِلَا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ ٱلْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي ٱلْمَحَلُّ ٱلْإِطْنَابَ وَٱلْإِيجَازَ فَيُورَدُ ٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يُدَلُّ بِٱللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقُهُ وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَداً كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ ٱلْأَسَدِ ٱلْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ ٱللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمِّي هَذِهِ ٱسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُرَكَّبِ ٱلدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنَ ٱلْجُودِ وَقِرَى ٱلضَّيْفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ ٱلرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْمُفْرَدِ وَٱلْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالٌ لِلْوَاقِعَاتِ جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي ٱلْأَلْفَاظِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ وَٱشْتَمَلَ هَذَا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْبَيَانِ عَلَى ٱلْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَٱلْأَحْوَالِ وَٱلْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ ٱلصِّنْفُ ٱلْأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ ٱلْهَيْآتِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي تُطَابِقُ بِٱللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱللَّازِمِ ٱللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ ٱلْاسْتِعَارَةُ وَٱلْكِنَايَةُ كَمَا قُلْنَاهُ وَيُسَمَّى عِلْمَ ٱلْبَيَانِ وَأَلْحَقُوا بِهِمَا صِنْفاً آخَرَ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي تَزْيِينِ ٱلْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلتَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْ تَوْرِيَةٍ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بِإِيهَامِ مَعْنًى أَخْفَى مِنْهُ لِٱشْتِرَاكِ ٱللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ ٱلْبَدِيعِ وَأُطْلِقَ عَلَى ٱلْأَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ عِنْدَ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱسْمُ

ٱلبَيانِ وَهُوَ ٱسمُ ٱلصِنفِ ٱلثَّاني لِأَنَّ ٱلأَقدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فيهِ ثُمَّ تَلاحَقَتْ مَسائِلُ ٱلفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخرى وَكَتَبَ فِيهَا جَعفَرُ بنُ يَحيى وَٱلجاحِظُ وَقُدامَةُ وَأَمثالُهُم إِملاءاتٍ غَيرَ وافِيَةٍ فيهَا ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسائِلُ ٱلفَنِّ تَكمُلُ شَيئاً فَشَيئاً إِلى أَنْ مَحَّصَ ٱلسَّكاكِيُّ زُبدَتَهُ وَهَذَّبَ مَسائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبوابَهُ عَلى نَحوِ مَا ذَكَرْناهُ آنِفاً مِنَ ٱلتَّرتِيبِ وَأَلَّفَ كِتابَهُ ٱلمُسَمَّى بِٱلمِفتاحِ في ٱلنَّحوِ وَٱلتَّصرِيفِ وَٱلبَيانِ فَجَعَلَ هذا ٱلفَنَّ مِنْ بَعضِ أَجزائِهِ وَأَخَذَهُ ٱلمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتابِهِ وَلَخَّصُوا مِنهُ أُمَّهاتٍ هِيَ ٱلمُتَداوَلَةُ لِهذا ٱلعَهدِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلسَّكاكِي في كِتابِ ٱلتِّبيانِ وَٱبنُ مالِكٍ في كِتابِ ٱلمِصباحِ وَجَلالُ ٱلدِّينِ ٱلقَزوِينِيُّ في كِتابِ ٱلإِيضاحِ وَٱلتَّلخِيصِ وَهُوَ أَصغَرُ حَجماً مِنَ ٱلإِيضاحِ وَٱلعِنايَةُ بِهِ لِهذا ٱلعَهدِ عِندَ أَهلِ ٱلمَشرِقِ في ٱلشَّرحِ وَٱلتَّعلِيمِ مِنهُ أَكثَرُ مِنْ غَيرِهِ وَبِٱلجُملَةِ فَٱلمَشارِقَةُ عَلى هذا ٱلفَنِّ أَقوَمُ مِنَ ٱلمَغارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَٱللهُ أَعلَمُ أَنَّهُ كَمالِيٌّ في ٱلعُلُومِ ٱللِّسانِيَّةِ وَٱلصَّنائِعُ ٱلكَمالِيَّةُ تُوجَدُ في ٱلعُمرانِ وَٱلمَشرِقُ أَوفَرُ عُمراناً مِنَ ٱلمَغرِبِ كَمَا ذَكَرْناهُ أَو نَقُولُ لِعِنايَةِ ٱلعَجَمِ وَهُمْ مُعظَمُ أَهلِ ٱلمَشرِقِ كَتَفسِيرِ ٱلزَّمَخشَرِيِّ وَهُوَ كُلُّهُ مَبنِيٌّ عَلى هذا ٱلفَنِّ وَهُوَ أَصلُهُ وَإِنَّمَا ٱختَصَّ بِأَهلِ ٱلمَغرِبِ مِنْ أَصنافِهِ عِلمُ ٱلبَدِيعِ خاصَّةً وَجَعَلُوهُ مِنْ جُملَةِ عُلُومِ ٱلأَدَبِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَفَرَّعُوا لَهُ أَلقاباً وَعَدَّدُوا أَبواباً وَنَوَّعُوا أَنواعاً وَزَعَمُوا أَنَّهُم أَحصَوها مِنْ لِسانِ ٱلعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلَهُم عَلى ذَلِكَ ٱلوُلُوعُ بِتَزيِينِ ٱلأَلفاظِ وَأَنَّ عِلمَ ٱلبَدِيعِ سَهلُ ٱلمَأخَذِ وَصَعُبَتْ عَلَيهِم مَآخِذُ ٱلبَلاغَةِ وَٱلبَيانِ لِدِقَّةِ أَنظارِهِمَا وَغُمُوضِ مَعانِيهِمَا فَتَجافَوا عَنهُمَا وَمِمَّنْ أَلَّفَ في ٱلبَدِيعِ مِنْ أَهلِ أَفرِيقِيَّةَ ٱبنُ رَشِيقٍ وَكِتابُ ٱلعُمدَةِ لَهُ مَشهُورٌ وَجَرى كَثِيرٌ مِنْ أَهلِ أَفرِيقِيَّةَ وَٱلأَندَلُسِ عَلى مَنحاهُ وَٱعلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هذا ٱلفَنِّ إِنَّمَا هِيَ في فَهمِ ٱلإِعجازِ مِنَ ٱلقُرآنِ لِأَنَّ إِعجازَهُ في وَفاءِ ٱلدَّلالَةِ مِنهُ بِجَمِيعِ مُقتَضَياتِ ٱلأَحوالِ مَنطُوقَةً وَمَفهُومَةً وَهِيَ أَعلى مَراتِبِ ٱلكَلامِ مَعَ ٱلكَمالِ فِيمَا يُختَصُّ بِٱلأَلفاظِ في ٱنتِقائِهَا وَجُودَةِ رَصفِهَا وَتَركِيبِهَا وَهذا هُوَ ٱلإِعجازُ ٱلَّذِي تَقصُرُ ٱلأَفهامُ عَنْ إِدراكِهِ وَإِنَّمَا يُدرِكُ بَعضَ ٱلشَّيءِ مِنهُ مَنْ كانَ لَهُ ذَوقٌ بِمُخالَطَةِ ٱللِّسانِ ٱلعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيُدرِكُ مِنْ إِعجازِهِ عَلى قَدرِ ذَوقِهِ فَلِهذا كانَتْ مَدارِكُ ٱلعَرَبِ ٱلَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعلى مَقاماً في ذَلِكَ لِأَنَّهُم فُرسانُ ٱلكَلامِ وَجَهابِذَتُهُ وَٱلذَّوقُ عِندَهُم مَوجُودٌ بِأَوفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحِّهِ وَأَحوَجُ مَا يَكُونُ إِلى هذا

الفنّ المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفنّ بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفنّ بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل

علم الادب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكتّاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ

وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيّ ٱلقَالِي ٱلبَغْدَادِيّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنهَا وَكُتُبُ ٱلمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلغِنَاءُ فِي ٱلصَّدرِ ٱلأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلحِينُهُ وَكَانَ ٱلكُتَّابُ وَٱلفُضَلَاءُ مِنَ ٱلخَوَاصِّ فِي ٱلدَّولَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنفُسَهُمْ بِهِ حِرصاً عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنتِحَالُهُ قَادِحاً فِي ٱلعَدَالَةِ وَٱلمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلقَاضِي أَبُو ٱلفَرَجِ ٱلأَصبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخبَارَ ٱلعَرَبِ وَأَشعَارَهُمْ وَأَنسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُم وَدُوَلَهُمْ وَجَعَلَ مَبنَاهُ عَلَى ٱلغِنَاءِ فِي ٱلمِائَةِ صَوتاً ٱلَّتِي ٱختَارَهَا ٱلمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱستَوعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱستِيعَابٍ وَأَوفَاهُ وَلَعَمرِي إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلعَرَبِ وَجَامِعُ أَشتَاتِ ٱلمَحَاسِنِ ٱلَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلأَحوَالِ وَلَا يُعدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعلَمُهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيهَا ٱلأَدِيبُ وَيَقِفُ عِندَهَا وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحنُ ٱلآنَ نَرجِعُ بِٱلتَّحقِيقِ عَلَى ٱلإِجمَالِ فِيمَا تَكَلَّمنَا عَلَيهِ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَٱللّٰهُ ٱلهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعلَمْ أَنَّ ٱللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِٱلصِّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي ٱللِّسَانِ لِلعِبَارَةِ عَنِ ٱلمَعَانِي وَجَودَتِهَا وَقُصُورِهَا بِحَسَبِ تَمَامِ ٱلمَلَكَةِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيسَ ذٰلِكَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلمُفرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلتَّرَاكِيبِ فَإِذَا حَصَلَتِ ٱلمَلَكَةُ ٱلتَّامَّةُ فِي تَركِيبِ ٱلأَلفَاظِ ٱلمُفرَدَةِ لِلتَّعبِيرِ بِهَا عَنِ ٱلمَعَانِي ٱلمَقصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّألِيفِ ٱلَّذِي يُطَبِّقُ ٱلكَلَامَ عَلَى مُقتَضَى ٱلحَالِ بَلَغَ ٱلمُتَكَلِّمُ حِينَئِذٍ ٱلغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقصُودِهِ لِلسَّامِعِ وَهٰذَا هُوَ مَعنَى ٱلبَلَاغَةِ وَٱلمَلَكَاتُ لَا تَحصُلُ إِلَّا بِتَكرَارِ ٱلأَفعَالِ لِأَنَّ ٱلفِعلَ يَقَعُ أَوَّلاً وَتَعُودُ مِنهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالاً وَمَعنَى ٱلحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ غَيرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ ٱلتَّكرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً فَٱلمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَةُ ٱللُّغَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ مَوجُودَةً فِيهِمْ يَسمَعُ كَلَامَ أَهلِ جِيلِهِ وَأَسَالِيبَهُمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيفِيَّةِ تَعبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسمَعُ ٱلصَّبِيُّ ٱستِعمَالَ ٱلمُفرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلَقَّنُهَا أَوَّلاً ثُمَّ يَسمَعُ ٱلتَّرَاكِيبَ بَعدَهَا فَيُلَقَّنُهَا كَذٰلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمَاعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَٱسْتِعْمَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ هٰكَذَا تَصَيَّرَتِ ٱلْأَلْسُنُ وَٱللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا ٱلْعَجَمُ وَٱلْأَطْفَالُ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ ٱلْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ ٱللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِٱلطَّبْعِ أَيْ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى ٱلَّتِي أُخِذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمُضَرَ بِمُخَالَطَتِهِمْ ٱلْأَعَاجِمَ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ ٱلنَّاشِئَ مِنَ ٱلْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيُعَبِّرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ ٱلْمُخَالِطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ ٱلْعَرَبِ أَيْضاً وَٱخْتَلَطَ عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هٰذِهِ وَهٰذِهِ فَٱسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ ٱلْأُولَى وَهٰذَا مَعْنَى فَسَادِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَلِهٰذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ ٱللُّغَاتِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ ٱلْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ثُمَّ مَنْ ٱكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَإِيَادٍ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبِ ٱلْيَمَنِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِأُمَمِ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَّةَ ٱلْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ ٱلْأَعَاجِمِ وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ ٱلِٱحْتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ.

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْوَفَاءِ بِٱلدَّلَالَةِ عَلَى سُنَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةُ ٱلْحَرَكَاتِ عَلَى تَعَيُّنِ ٱلْفَاعِلِ مِنَ ٱلْمَفْعُولِ فَٱعْتَاضُوا مِنْهَا بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَبِقَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمَقَاصِدِ إِلَّا أَنَّ ٱلْبَيَانَ وَٱلْبَلَاغَةَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَفُ لِأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِأَعْيَانِهَا وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ ٱلْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطَ ٱلْحَالِ مُحْتَاجاً إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَكُلُّ مَعْنًى لَا بُدَّ وَأَنْ تَكْتَنِفَهُ أَحْوَالٌ تَخُصُّهُ فَيَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَلْسُنِ أَكْثَرُ مَا يُدَلُّ عَلَيْهَا بِأَلْفَاظٍ تَخُصُّهَا بِٱلْوَضْعِ وَأَمَّا فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يُدَلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ فِي تَرَاكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا مِنْ

تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيداً قائم وإن زيداً لقائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة اهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجود في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الإعراب وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة اخرى وكان القرآن منزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصلا الدين والملة فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي نزلا به فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة

العربيّة فأصبح فنّاً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسلّماً إلى فهم كتاب الله وسنّة رسوله وافياً ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربيّ لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابيّة في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصّها ولعلّها تكون في أواخره على غير المنهاج الأوّل في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجّاناً ولقد كان اللسان المضريّ مع اللسان الحميريّ بهذه المثابة وتغيّر عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميريّ وتصاريف كلماته تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنّها لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميريّة على مقاييس اللغة المضريّة وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميريّ أنّه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر إلّا أنّ العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه وممّا وقع في لغة هذا الجيل العربيّ لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فإنّهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربيّة أنّه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يجيئون بها متوسّطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتّى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصّاً بهم لا يشاركهم بها غيرهم حتّى إنّ من يريد التعرّب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنّه إنّما يتميّز العربيّ الصريح من الدخيل في العروبيّة والحضريّ بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنّها لغة مضر بعينها فإنّ هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف

أسوة وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها قد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا من قرأ في أم القرآن إهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فإن لغة أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري فتفهم ذلك والله الهادي المبين

الفصل التاسع والثلاثون

في أن لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فأما إنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحناً وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد وأما إنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى واعتبر ذلك في أمصار أفريقية والمغرب والأندلس والمشرق أما أفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر

وَلاَ جِيلٌ فَغَلَبَتِ ٱلْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَٱلْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَهِيَ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ أَبْعَدُ وَكَذَا ٱلْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ ٱلْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَٱلتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي ٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلسَّبْيِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوهُمْ خَوَلاً وَدَايَاتٍ وَأَظْآراً وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ ٱلْمَلَكَةِ حَتَّى ٱنْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةٍ بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضاً بَعْضُهُمْ بَعْضاً كَمَا نَذْكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِٱسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الاربعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ ٱلَّتِي نَزَلَ بِهَا ٱلْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنِ ٱمْتِزَاجِ ٱلْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَّا أَنَّ ٱللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمْكِناً شَأْنَ سَائِرِ ٱلْمَلَكَاتِ وَوَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ ٱلْقَدِيمِ ٱلْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِهِمْ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَكَلَامِ ٱلسَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ ٱلْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ ٱلْمُوَلَّدِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلُقِّنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِهٰذَا ٱلْحِفْظِ وَٱلْاِسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخاً وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى سَلَامَةِ ٱلطَّبْعِ وَٱلتَّفَهُّمِ ٱلْحَسَنِ لِمَنَازِعِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلذَّوْقُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى قَدْرِ ٱلْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلْمَقُولِ ٱلْمَصْنُوعِ نَظْماً وَنَثْراً وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةِ مُضَرَ وَهُوَ ٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي

أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمُهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَايِيسِهَا خَاصَّةً فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةٍ لَا نَفْسُ كَيْفِيَّةٍ فَلَيْسَتْ نَفْسَ الْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةً مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْماً وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلاً مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا الْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يُدْخِلَ الْخَيْطَ فِي خَرْتِ الْإِبْرَةِ ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لِفْقَيِ الثَّوْبِ مُجْتَمِعَيْنِ وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قُدَّامَ مَنْفَذِهَا الْأَوَّلِ بِمَطْرَحِ مَا بَيْنَ الثَّقْبَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتَمَادَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبْكِ وَالتَّنْبِيتِ وَالتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طُولِبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئاً وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالنِّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشَبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ الْخَشَبَةِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ قُبَالَتَكَ مُمْسِكٌ بِطَرَفِهِ وَتَتَعَاقَبَانِهِ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ الْمُضَرَّسَةُ الْمُحَدَّدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْخَشَبَةِ وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمْهُ وَهٰكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ مَعَ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَثِيراً مِنْ جَهَابِذَةِ النُّحَاةِ وَالْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ عِلْماً بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى ظُلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يُجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِذَلِكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَكَذَا نَجِدُ كَثِيراً مِمَّنْ يُحْسِنُ هٰذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِيدُ الْفَنَّيْنِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَفْعُولِ مِنَ الْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئاً مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَمِنْ هٰذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ الْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بَصِيراً بِحَالِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفَاقِيٌّ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سِيبَوَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْإِعْرَابِ فَقَطْ

بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقل ما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الأمور كلها والله أعلم بالغيب .

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل للمستعربين من العجم

إعلَمْ أنَّ لَفظَةَ ٱلذَّوقِ يَتَداوَلُهَا ٱلمُعتَنُونَ بِفنُونِ ٱلبَيانِ وَمعناهَا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلاغَةِ لِلسَانِ وَقَدْ مَرَّ تَفسيرُ ٱلبَلاغَةِ وَأَنَّهَا مُطابَقَةُ ٱلكَلامِ لِلمَعنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَواصَّ تَقَعُ لِلتَّراكِيبِ في إفادَةِ ذٰلِكَ فَٱلمُتَكَلِّمُ بِلِسانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبَلِيغُ فِيهِ يَتَحرَّى ٱلهَيئَةَ ٱلمُفيدَةَ لِذٰلِكَ عَلى أَساليبِ ٱلعَرَبِ وَأَنحاءِ مُخاطَباتِهِمْ وَيَنظِمُ ٱلكَلامَ على ذٰلِكَ ٱلوَجهِ جُهدَهُ فَإذا ٱتَّصَلَتْ مَقامَاتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلامِ ٱلعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ في نَظمِ ٱلكَلامِ عَلى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ أَمرُ ٱلتَّركِيبِ حَتَّى لا يَكادُ يَنحُو فِيهِ غَيرَ مَنحَى ٱلبَلاغَةِ ٱلَّتِي لِلعَرَبِ وَإنْ سَمِعَ تَركِيباً غَيرَ جارٍ عَلى ذٰلِكَ ٱلمَنحَى مَجَّهُ وَنَبا عَنهُ سَمعُهُ بِأَدنَى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيرِ فِكرٍ إلَّا بِمَا ٱستَفادَ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ فَإنَّ ٱلمَلَكاتِ إذا ٱستَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ في مَحالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعرِفْ شَأنَ ٱلمَلَكاتِ أَنَّ ٱلصَّوابَ لِلعَرَبِ في لُغَتِهِم إعراباً وَبَلاغَةً أَمرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ كانَتِ ٱلعَرَبُ تَنطِقُ بِٱلطَّبعِ وَلَيسَ كَذٰلِكَ وَإنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسانِيَّةٌ في نَظمِ ٱلكَلامِ وَتَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ في بادِىءِ ٱلرَّأيِ أَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبعٌ وَهٰذِهِ ٱلمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إنَّمَا تَحصُلُ بِمُمارَسَةِ كَلامِ ٱلعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلى ٱلسَّمعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَواصِّ تَراكِيبِهِ وَلَيسَتْ تَحصُلُ بِمَعرِفَةِ ٱلقَوانِينِ ٱلعِلمِيَّةِ في ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱستَنبَطَهَا أَهلُ صِناعَةِ ٱللِّسانِ فَإنَّ هٰذِهِ ٱلقَوانِينَ إنَّمَا تُفيدُ عِلماً بِذٰلِكَ ٱللِّسانِ وَلا تُفيدُ حُصُولَ ٱلمَلَكَةِ بِٱلفِعلِ في مَحَلِّهَا وَقَدْ مَرَّ ذٰلِكَ وَإذا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلبَلاغَةِ في ٱللِّسانِ تَهدِي ٱلبَلِيغَ إلى وُجُودِ ٱلنَّظمِ وَحُسنِ ٱلتَّركِيبِ ٱلمُوافِقِ لِتَراكِيبِ ٱلعَرَبِ في لُغَتِهِمْ وَنَظمِ كَلامِهِمْ وَلَوْ رامَ صاحِبُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ حَيداً عَنْ هٰذِهِ ٱلسُّبُلِ ٱلمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّراكِيبِ ٱلمَخصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيهِ وَلا وافَقَهُ عَلَيهِ لِسانُهُ لِأَنَّهُ لا يَعتادُهُ وَلا تَهدِيهِ إلَيهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِندَهُ وَإذا عُرِضَ عَلَيهِ ٱلكَلامُ حائِداً عَنْ أُسلُوبِ ٱلعَرَبِ وَبَلاغَتِهِمْ في نَظمِ كَلامِهِمْ أَعرَضَ عَنهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيسَ مِنْ كَلامِ ٱلعَرَبِ ٱلَّذِينَ مارَسَ كَلامَهُمْ وَرُبَّمَا يَعجِزُ عَنِ ٱلاحتِجاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصنَعُ أَهلُ ٱلقَوانِينِ ٱلنَّحوِيَّةِ

وَٱلْبيانيّةِ فإنَّ ذلكَ ٱستدلالٌ بِمَا حَصلَ مِنَ ٱلقوانينِ ٱلمُفادَةِ بِٱلاستقراءِ وَهذا أمرٌ وِجدانيٌّ حاصِلٌ بِمُمارَسَةِ كَلامِ ٱلعربِ حتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنهُم وَمِثالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صبيًّا مِنْ صِبيانِهِمْ نَشأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإنَّهُ يَتعلَّمُ لُغتَهُمْ وَيُحكِمُ شَأنَ ٱلإعْرابِ وَٱلبَلاغةِ فيها حتَّى يَستَوْلِيَ عَلى غايتِها وَلَيسَ مِنَ ٱلعِلمِ ٱلقانُونيِّ فِي شَيْءٍ وَإنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ فِي لِسانِهِ وَنُطقِهِ وَكَذٰلِكَ تَحصُلُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلجِيلِ بِحِفظِ كَلامِهِمْ وَأشعارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلمُداوَمَةِ عَلى ذٰلكَ بِحَيثُ يُحَصِّلُ ٱلمَلَكَةَ وَيَصيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ أجيالِهِمْ وَٱلقوانينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذا وَٱستُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ عِندَما تَرسَخُ وَتَستَقِرُّ ٱسمُ ٱلذَّوقِ ٱلَّذِي ٱصطَلَحَ عَلَيهِ أهلُ صِناعَةِ ٱلبَيانِ وَإنَّمَا هُوَ مَوضُوعٌ لِإدْراكِ ٱلطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ فِي ٱللِّسانِ مِنْ حَيثُ ٱلنُّطقُ بِٱلكَلامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإدراكِ ٱلطُّعُومِ ٱستُعِيرَ لَهَا ٱسمُهُ وَأيضًا فَهُوَ وِجدانِيٌّ ٱللِّسانِ كَمَا أنَّ ٱلطُّعومَ مَحسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوقٌ وَإذا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمتَ مِنهُ أنَّ ٱلأعاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسانِ ٱلعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيهِ ٱلمُضطَرِّينَ إلَى ٱلنُّطقِ بِهِ لِمُخالَطَةِ أهلِهِ كَٱلفُرسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّركِ بِٱلمَشرِقِ وَكَٱلبَربَرِ بِٱلمَغرِبِ فَإنَّهُ لا يَحصُلُ لَهُم هٰذا ٱلذَّوقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنا أمرَها لِأنَّ قُصاراهُمْ بَعدَ طائِفَةٍ مِنَ ٱلعُمرِ وَسَبقِ مَلَكَةٍ أُخرى إلَى ٱللِّسانِ وَهِيَ لُغاتُهُمْ أنْ يَعتَنُوا بِمَا يَتَداوَلُهُ أهلُ مِصرٍ بَينَهُمْ فِي ٱلمُحاوَرَةِ مِنْ مُفرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضطَرُّونَ إلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأهلِ ٱلأمصارِ وَبَعُدُوا عَنها كَمَا تَقَدَّمَ وَإنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ أُخرى وَلَيسَتْ هِيَ مَلَكَةُ ٱللِّسانِ ٱلمَطلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلكَ ٱلمَلَكَةَ مِنَ ٱلقَوانِينِ ٱلمُسَطَّرَةِ فِي ٱلكُتُبِ فَلَيسَ مِنْ تَحصِيلِ ٱلمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ إنَّمَا حَصَّلَ أحكامَها كَمَا عَرَفتَ وَإنَّمَا تَحصُلُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةُ بِٱلمُمارَسَةِ وَٱلاعتِيادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلامِ ٱلعَرَبِ فَإنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسمَعُهُ مِنْ أنَّ سِيبَوَيهِ وَٱلفارِسِيَّ وَٱلزَّمَخشَرِيَّ وَأمثالَهُم مِنْ فُرسانِ ٱلكَلامِ كانُوا أعجامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعلَمْ أنَّ أُولٰئِكَ ٱلقَومَ ٱلَّذِينَ تَسمَعُ عَنهُمْ إنَّمَا كانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأمَّا ٱلمُرَبَّى وَٱلنَّشأةُ فَكانَتْ بَيْنَ أهلِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ مِنَ ٱلعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنهُمْ فَٱستَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلكَلامِ عَلى غايَةٍ لا شَيْءَ وَراءَها وَكَأنَّهُمْ فِي أوَّلِ نَشأتِهِمْ مِنَ ٱلعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي أجيالِهِمْ

حتّى أدرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصارُوا مِنْ أَهلِهَا فهُمْ وَإِنْ كانُوا عُجماً في ٱلنَّسَبِ فليسُوا بِأَعجَام في ٱللُّغَةِ وَٱلكَلامِ لِأَنَّهمْ أَدرَكُوا ٱلمِلَّةَ في عُنفُوانِهَا وَٱللُّغَةَ في شَبَابِهَا وَلَمْ تَذهَب آثَارُ ٱلمَلَكَةِ وَلاَ مِنْ أَهلِ ٱلأَمصَارِ ثمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلمُمَارَسَةِ وَٱلمُدَارَسَةِ لِكَلاَمِ ٱلعَرَبِ حَتَّى ٱستَوْلَوا عَلَى غَايَتِهِ وَٱليَومَ ٱلوَاحِدُ مِنَ ٱلعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهلَ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ بِٱلأَمصَارِ فَأَوَّلَ مَا يَجِدُ تِلكَ ٱلمَلَكَةَ ٱلمَقصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ مُمتَحِيَةَ ٱلآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ ٱلخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقبَلَ عَلَى ٱلمُمَارَسَةِ لِكَلاَمِ ٱلعَرَبِ وَأَشعَارِهِمْ بِٱلمُدَارَسَةِ وَٱلحِفظِ يَستَفِيدُ تَحصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتهَا مَلَكَة أُخرَى فِي ٱلمَحَلِّ فَلاَ تَحصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعجَمِيًّا فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَجَمِيِّ بِٱلكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ بِٱلمُدَارَسَة فَرُبَّمَا يَحصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيثُ لاَ يَخفَى عَلَيكَ بِمَا تَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلقَوَانِينِ ٱلبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلكَ ٱلقَوَانِينِ ٱلبَيَانِيَّةِ وَلَيسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيءٍ وَٱللهُ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُستَقِيمٍ .

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا يَسبِقُ إِلَى ٱلمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلمَلَكَةِ ٱلمَطلُوبَة بِمَا سَبَقَ إِلَيهِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلحَضَرِيِّ ٱلَّذِي أَفَادَتهُ ٱلعُجمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا ٱللِّسَانُ عَن مَلَكَتِهِ ٱلأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخرَى هِيَ لُغَةُ ٱلحَضَرِ لِهٰذَا ٱلعَهدِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلمُعَلِّمِين يَذهَبُونَ إِلَى ٱلمُسَابَقَةِ بِتَعلِيمِ ٱللِّسَانِ لِلوِلدَانِ وَتَعتَقِدُ ٱلنُّحَاةُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلمُسَابَقَة بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعلِيمِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ وَكَلاَم ٱلعَرَبِ نَعَمْ صِنَاعَةُ ٱلنَّحوِ أَقرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهلِ ٱلأَمصَارِ أَعرَق فِي ٱلعُجمَةِ وَأَبعَدَ عَنْ لِسَانِ مُضَرَ قَصَّرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ ٱللُّغَةِ ٱلمُضَرِيَّةِ وَحُصُول

مَلَكَتِهَا لِتَمَكُّنِ الْمُنَافَاةِ حِينَئِذٍ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ فَأَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌّ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ بِالتَّعْلِيمِ وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّقِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ يَا أَخِي وَمَنْ لَا عَدِمْتُ فَقْدَهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَامًا أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقَنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَنَا الْخُرُوجُ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكِلَابُ مِنْ أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَبُوا هَذَا بَاطِلًا لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفًا وَاحِدًا وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِيِّ شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْنَا وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ مَشَاهِيرِ الشُّعَرَاءِ إِلَّا ابْنُ رَشِيقٍ وَابْنُ شَرَفٍ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعَرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةً إِلَى الْقُصُورِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَاتِهِمْ وَامْتِلَائِهِمْ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ اللُّغَوِيَّةِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَكَانَ فِيهِمُ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إِمَامُ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلِّي وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعَرَاءِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ لَمَّا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ مِئِينَ السِّنِينَ حَتَّى كَانَ الْإِنْفِضَاضُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغَلُّبِ النَّصْرَانِيَّةِ وَشُغِلُوا عَنْ تَعَلُّمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمْرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتِ الْمَلَكَةُ فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتِ الْحَضِيضَ وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ مُرَحَّلٍ مِنْ تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْإِشْبِيلِيِّينَ بِسَبْتَةَ وَكُتَّابِ دَوْلَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ فِي أَوَّلِهَا وَأَلْقَتِ الْأَنْدَلُسُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدْوَةِ لِعُدْوَةِ الْإِشْبِيلِيَّةِ إِلَى سَبْتَةَ وَمِنْ شَرْقِيِّ الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنِ انْقَرَضُوا وَانْقَطَعَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدْوَةِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعِوَجِ أَلْسِنَتِهِمْ وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قُلْنَاهُ ثُمَّ عَادَتِ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَمَ بِهَا ابْنُ بِشْرِينَ وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجَيَّابِ وَطَبَقَتُهُمْ ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطُّرَيْجِيُّ وَطَبَقَتُهُ وَقَفَاهُمُ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمُ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ شَهِيدًا بِسِعَايَةِ أَعْدَائِهِ وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لَا تُدْرَكُ وَاتَّبَعَ أَثَرَهُ تِلْمِيذُهُ وَبِالْجُمْلَةِ

فشأنُ هـذِهِ ٱلمَلَكَةِ بِالْأَندَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعلِيمُهَا أَيسَرُ وَأَسهَلُ بِمَا عَلَيهِ لِهَذَا ٱلعَهدِ كَمَا قَدَّمنَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيهَا وَعَلَى عُلُومِ ٱلأَدَبِ وَسَنَدِ تَعلِيمِهَا وَلِأَنَّ أَهلَ ٱللِّسَانِ ٱلعَجَمِيِّ ٱلَّذِينَ تَفسُدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيهِمْ وَلَيسَتْ عُجمَتُهُمْ أَصلًا لِلُغَةِ أَهلِ ٱلأَندَلُسِ وَٱلبَربَرِ فِي هٰذِهِ ٱلعُدْوَةِ وَهُمْ أَهلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا إِلَّا فِي ٱلأَمصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُنغَمِسُونَ فِي بَحرِ عُجمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمِ ٱلبَربَرِيَّةِ فَيَصعُبُ عَلَيهِمْ تَحصِيلُ ٱلمَلَكَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ بِالتَّعلِيمِ بِخِلَافِ أَهلِ ٱلأَندَلُسِ وَٱعتَبِرْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهلِ ٱلمَشرِقِ لِعَهدِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمَوِيَّةِ وَٱلعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأنُهُمْ شَأنَ أَهلِ ٱلأَندَلُسِ فِي تَمَامِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعدِهِمْ لِذَلِكَ ٱلعَهدِ عَنِ ٱلأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ إِلَّا فِي ٱلقَلِيلِ فَكَانَ أَمرُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ فِي ذَلِكَ ٱلعَهدِ أَقوَمَ وَكَانَ فُحُولُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلكُتَّابِ أَوفَرَ لِتَوَفُّرِ ٱلعَرَبِ وَأَبنَائِهِمْ بِالمَشرِقِ وَٱنظُرْ مَا ٱشتَمَلَ عَلَيهِ كِتَابُ ٱلأَغَانِي مِنْ نَظمِهِمْ وَنَثرِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ ٱلكِتَابَ هُوَ كِتَابُ ٱلعَرَبِ وَدِيوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ وَمِلَّتُهُمُ ٱلعَرَبِيَّةُ وَسِيَرُهُمْ وَآثَارُ خُلَفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشعَارُهُمْ وَغِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوعَبُ مِنهُ لِأَحوَالِ ٱلعَرَبِ وَبَقِيَ أَمرُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ مُستَحكِمًا فِي ٱلمَشرِقِ فِي ٱلدَّولَتَينِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبلَغَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي ٱلجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذكُرُه بَعدُ حَتَّى تَلَاشَى أَمرُ ٱلعَرَبِ وَدُرِسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَٱنقَضَى أَمرُهُمْ وَدَولَتُهُمْ وَصَارَ ٱلأَمرُ لِلأَعَاجِمِ وَٱلمُلكُ فِي أَيدِيهِمْ وَٱلتَّغَلُّبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَولَةِ ٱلدَّيلَمِ وَٱلسلجُوقِيَّةِ وَخَالَطُوا أَهلَ ٱلأَمصَارِ وَٱلحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ مُتَعَلِّمُهَا مِنهُمْ مُقَصِّرًا عَنْ تَحصِيلِهَا وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا ٱلعَهدِ فِي فَنَّيِ ٱلمَنظُومِ وَٱلمَنثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكثِرِينَ مِنهُ وَٱللهُ يَخلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَختَارُ وَٱللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَعلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الي فني النظم والنثر

إِعلَمْ أَنَّ لِسَانَ ٱلعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فِي ٱلشِّعرِ ٱلمَنظُومِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ ٱلمَوزُونُ ٱلمُقَفَّى وَمَعنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ أَوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلقَافِيَةُ وَفِي ٱلنَّثرِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ غَيرُ ٱلمَوزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ

في الكلام. فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه. واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في

ٱلْأَوْصافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ وَٱلْتِزامُ ٱلتَّقْفِيَةِ أَيْضاً مِنَ ٱللَّوْذَعَةِ وَٱلتَّزْيِينِ وَجَلالُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَخِطَابُ ٱلْجُمْهُورِ عَنِ ٱلْمُلُوكِ بِٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ يُنَافِي ذٰلِكَ وَيُبَايِنُهُ وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلاقُ ٱلْكَلامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسالاً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجِزُوا عَنِ ٱلْكَلامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ فِي ٱلْبَلاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلامِ عَلى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالى أَعْلَمُ .

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلَكَةٌ فِي ٱللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّقَتْ إِلى مَحَلِّهِ مَلَكَةٌ أُخْرَى قَصَّرَتْ بِٱلْمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ ٱلْمَلَكَةِ ٱللَّاحِقَةِ لِأَنَّ تَمَامَ ٱلْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ ٱلَّتِي عَلى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازِعَةً لَهَا فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ ٱلْقَبُولِ فَوَقَعَتِ ٱلْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ ٱلتَّمَامُ فِي ٱلْمَلَكَاتِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلى ٱلْإِطْلاقِ وَقَدْ بَرْهَنَّا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوٍ مِنْ هٰذَا

ٱلبُرْهَانِ فَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ ٱللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱنظُرْ مَن تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِراً فِي ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ أَبَداً فَٱلأَعْجَمِيُّ ٱلَّذِي سَبَقَتْ لَهُ ٱللُّغَةُ ٱلفَارِسِيَّةُ لاَ يَسْتَوْلِي عَلَى مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَلاَ يَزَالُ قَاصِراً فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَا ٱلبَرْبَرِيُّ وَٱلرُّومِيُّ وَٱلإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَداً مِنْهُم مُحْكِماً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلآخَرِ حَتَّى إِنَّ طَالِبَ ٱلعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ جَاءَ مقَصِراً فِي مَعَارِفِهِ عَنِ ٱلغَايَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ ٱللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ ٱلأَلْسُنَ وَٱللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لاَ تَزْدَحِمُ وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى ٱلغَايَةِ وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هٰذَا ٱلفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلاَمِ ٱلعَرَبِ وَهُوَ ٱلمُسَمَّى بِٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ ٱللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّنَا ٱلآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ ٱلأَلْسُنِ ٱلأُخْرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلاَمِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي ٱلبَلاَغَةِ تَخُصُّهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ غَرِيبُ ٱلنَّزْعَةِ عَزِيزُ ٱلمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلاَمٌ مُفَصَّلٌ قِطَعاً قِطَعاً مُتَسَاوِيَةً فِي ٱلوَزْنِ مُتَّحِدَةً فِي ٱلحَرْفِ ٱلأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلقِطَعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتاً وَيُسَمَّى ٱلحَرْفُ ٱلأَخِيرُ ٱلَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيّاً وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةُ ٱلكَلاَمِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَاكِيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلاَمٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامّاً فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيَحْرِصُ ٱلشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذٰلِكَ ٱلبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي ٱلبَيْتِ ٱلآخَرِ كَلاَماً آخَرَ كَذٰلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِن مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوَطِّئَ ٱلمَقْصُودَ ٱلأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تُنَاسِبَ ٱلمَقْصُودَ ٱلثَّانِي وَيُبْعِدُ ٱلكَلاَمَ عَنِ ٱلتَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ ٱلتَّشْبِيبِ إِلَى ٱلمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلبَيْدَاءِ وَٱلطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ ٱلرِّكَابِ أَوِ ٱلخَيْلِ أَوِ ٱلطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قومِهِ وعساكِرِهِ ومِنَ التفجُّعِ والعزاءِ في الرثاءِ إلى التأثُّرِ وأمثالِ ذلكَ ويُراعِي فِيهِ اتِّفاقَ القصيدةِ كلِّها في الوزنِ الواحدِ حذراً مِن أنْ يتساهلَ الطبعُ في الخروجِ مِن وزنٍ إلى وزنٍ يقاربُهُ فقد يخفى ذلكَ مِن أجلِ المقاربةِ على كثيرٍ مِنَ الناسِ ولهذهِ الموازينِ شروطٌ وأحكامٌ تضمَّنَها علمُ العروضِ وليسَ كلُّ وزنٍ يتَّفقُ في الطبعِ استعملَتْهُ العربُ في هذا الفنِّ وإنَّما هيَ أوزانٌ مخصوصةٌ تسمِّيها أهلُ تلكَ الصناعةِ البحورَ وقد حصروها في خمسةَ عشرَ بحراً بمعنى أنَّهم لم يجدوا للعربِ في غيرِها مِن الموازينِ الطبيعيَّةِ نظماً . واعلمْ أنَّ فنَّ الشعرِ مِن بينِ الكلامِ كانَ شريفاً عند العربِ ولذلكَ جعلوهُ ديوانَ علومِهم وأخبارِهم وشاهدَ صوابِهم وخطئِهم وأصلاً يرجعونَ إليهِ في الكثيرِ مِن علومِهم وحكمِهم وكانَتْ ملكتُهُ مستحكمةً فيهم شأنَ الملكاتِ كلِّها والملكاتُ اللسانيَّةُ كلُّها إنَّما تكتسبُ بالصناعةِ والارتياضِ في كلامِهم حتَّى يحصلَ شبهٌ في تلكَ الملكةِ والشعرُ مِن بينِ الكلامِ صعبُ المأخذ على مَن يريدُ اكتسابَ ملكتِهِ بالصناعةِ مِنَ المتأخِّرينَ لاستقلالِ كلِّ بيتٍ منهُ بأنَّهُ كلامٌ تامٌّ في مقصودِهِ ويصلحُ أنْ ينفردَ دونَ ما سواهُ فيحتاجُ مِن أجلِ ذلكَ إلى نوعِ تلطُّفٍ في تلكَ الملكةِ حتَّى يفرغَ الكلامَ الشعريَّ في قوالبِهِ الَّتي عُرفت لهُ في ذلكَ المنحى مِن شعرِ العربِ ويبرزَهُ مستقلّاً بنفسِهِ ثمَّ يأتي ببيتٍ آخر كذلكَ ثمَّ ببيتٍ ويستكملُ الفنونَ الوافيةَ بمقصودِهِ ثمَّ يناسبُ بينَ البيوتِ في موالاةِ بعضِها مع بعضٍ بحسبِ اختلافِ الفنونِ الَّتي في القصيدةِ ولصعوبةِ منحاه وغرابةِ فنِّهِ كانَ محكّاً للقرائحِ في استجادةِ أساليبِهِ وشحذِ الأفكارِ في تنزيلِ الكلامِ في قوالبِهِ ولا يكفي فيهِ ملكةُ الكلامِ العربيِّ على الإطلاقِ بل يحتاجُ بخصوصِهِ إلى تلطُّفٍ ومحاولةٍ في رعايةِ الأساليبِ الَّتي اختصَّتْهُ العربُ بها واستعمالِها ولنذكرْ هنا سلوكَ الأسلوبِ عندَ أهلِ هذهِ الصناعةِ وما يريدونَ بها في إطلاقِهم فاعلمْ أنَّها عبارةٌ عندَهم عنِ المنوالِ الَّذي ينسجُ فيهِ التراكيبُ أو القالبِ الَّذي يفرغُ فيهِ ولا يرجعُ إلى الكلامِ باعتبارِ إفادتِهِ أصلَ المعنى الَّذي هوَ وظيفةُ الإعرابِ ولا باعتبارِ إفادتِهِ كمالَ المعنى مِن خواصِّ التراكيبِ الَّذي هوَ وظيفةُ البلاغةِ والبيانِ ولا باعتبارِ الوزنِ كما استعملَهُ العربُ فيهِ الَّذي هوَ وظيفةُ العروضِ فهذهِ العلوم

الثلاثةُ خارجةٌ عن هذه الصناعةِ الشعريّةِ وإنّما يُرجعُ إلى صورةٍ ذهنيّةٍ للتراكيبِ المنتظمةِ كليّةٍ باعتبارِ انطباقِها على تركيبٍ خاصٍّ وتلكَ الصورةُ ينتزعُها الذهنُ من أعيانِ التراكيبِ وأشخاصِها ويصيّرُها في الخيالِ كالقالبِ أو المنوالِ ثمّ ينتقي التراكيبَ الصحيحةَ عندَ العربِ باعتبارِ الإعرابِ والبيانِ فيرصُّها فيهِ رصّاً كما يفعلهُ البنّاءُ في القالبِ أو النسّاجُ في المنوالِ حتّى يتّسعَ القالبُ بحصولِ التراكيبِ الوافيةِ بمقصودِ الكلامِ ويقعَ على الصورةِ الصحيحةِ باعتبارِ ملكةِ اللسانِ العربيِّ فيهِ فإنّ لكلِّ فنٍّ منَ الكلامِ أساليبَ تختصُّ بهِ وتوجدُ فيهِ على أنحاءٍ مختلفةٍ فسؤالُ الطلولِ في الشعرِ يكونُ بخطابِ الطلولِ كقولهِ يا دارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسندِ ويكونُ باستدعاءِ الصحبِ للوقوفِ والسؤالِ كقولهِ . قفا نسألِ الدارَ التي خفَّ أهلُها . أو باستبكاءِ الصحبِ على الطللِ كقولهِ . قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ . أو بالاستفهامِ عنِ الجوابِ لمخاطبٍ غيرِ معيّنٍ كقولهِ . ألم تسألْ فتخبرْكَ الرسومُ . ومثلَ تحيّةِ الطلولِ بالأمرِ لمخاطبٍ غيرِ معيّنٍ بتحيّتِها كقولهِ . حيِّ الديارَ بجانبِ الغزلِ . أو بالدعاءِ لها بالسقيا كقولهِ

أسقى طلولَهمُ أجشُّ هزيمُ   وغدتْ عليهمْ نضرةٌ ونعيمُ

أو سؤالهِ السقيا لها منَ البرقِ كقولهِ

يا برقُ طالعْ منزلاً بالأبرقِ   واحدُ السحابَ لها حداءَ الأينقِ

أو مثلِ التفجّعِ في الجزعِ باستدعاءِ البكاءِ كقولهِ

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ   وليسَ لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذرُ

أو باستعظامِ الحادثِ كقولهِ . أرأيتَ مَنْ حملوا على الأعوادِ أو بالتسجيلِ على الأكوانِ بالمصيبةِ لفقدهِ كقولهِ

منابتَ العشبِ لا حامٍ ولا راعٍ   مضى الردى بطويلِ الرمحِ والباعِ

أو بالإنكارِ على من لم يتفجّعْ لهُ منَ الجماداتِ كقولِ الخارجيّةِ

أيا شجرَ الخابورِ مالكَ مورقاً   كأنّكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ

أو بتهنئةِ فريقهِ بالراحةِ من ثقلِ وطأتهِ كقولهِ

ألقى الرماحَ ربيعةُ بنُ نزارِ   أودى الردى بفريقكَ المغوارِ

وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ وَتَنْتَظِمُ ٱلتَّرَاكِيبُ فِيهِ بِٱلْجُمَلِ وَغَيْرِ ٱلْجُمَلِ إِنْشَائِيَّةً وَخَبَرِيَّةً إِسْمِيَّةً وَفِعْلِيَّةً مُتَّفِقَةً وَغَيْرَ مُتَّفِقَةٍ مَفْصُولَةً وَمَوْصُولَةً عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلْأُخْرَى يُعَرِّفُكَ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِٱلْإِرْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْقَالَبِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْمُجَرَّدِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلَّتِي يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ ٱلْقَالَبُ عَلَى جَمِيعِهَا فَإِنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ هُوَ كَٱلْبَنَّاءِ أَوِ ٱلنَّسَّاجِ وَٱلصُّورَةَ ٱلذِّهْنِيَّةَ ٱلْمُنْطَبِقَةَ كَٱلْقَالَبِ ٱلَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوِ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ فَإِنْ خَرَجَ عَنِ ٱلْقَالَبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ ٱلْمِنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِداً وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ ٱلْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذٰلِكَ لِأَنَّا نَقُولُ قَوَانِينُ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٌ قِيَاسِيَّةٌ تُفِيدُ جَوَازَ ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّرَاكِيبِ عَلَى هَيْئَتِهَا ٱلْخَاصَّةِ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِيَّةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبُ ٱلَّتِي نَحْنُ نُقَرِّرُهَا لَيْسَتْ مِنَ ٱلْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرْسَخُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ لِجَرَيَانِهَا عَلَى ٱللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا ٱلْعَمَلَ عَلَى مِثَالِهَا وَٱلِاحْتِذَاءَ بِهَا فِي كُلِّ تَرْكِيبٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي ٱلْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ وَإِنَّ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْعِلْمِيَّةَ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْبَيَانِ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمُهُ بِوَجْهٍ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَقَوَانِينِهِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱسْتَعْمَلُوهُ وَإِنَّمَا ٱلْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنْحَاءٌ مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا ٱلْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ فَإِذَا نُظِرَ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ وَبِهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تَصِيرُ كَٱلْقَوَالِبِ كَانَ نَظَراً فِي ٱلْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَاكِيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْقِيَاسُ وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ ٱلْمُحَصِّلَ لِهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبِ فِي ٱلذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبُ كَمَا تَكُونُ فِي ٱلْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي ٱلْمَنْثُورِ فَإِنَّ ٱلْعَرَبَ ٱسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا ٱلْفَنَّيْنِ وَجَاءُوا بِهِ مُفَصَّلًا فِي ٱلنَّوْعَيْنِ فَفِي ٱلشِّعْرِ بِٱلْقِطَعِ ٱلْمَوْزُونَةِ وَٱلْقَوَافِي ٱلْمُقَيَّدَةِ وَٱسْتِقْلَالِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي ٱلْمَنْثُورِ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُوَازَنَةَ وَٱلتَّشَابُهَ بَيْنَ ٱلْقِطَعِ غَالِباً وَقَدْ يُقَيِّدُونَهُ بِٱلْأَسْجَاعِ وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلَّذِي يَبْنِي مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيفَهُ وَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ ٱلْقَوَالِبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ

قالَبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَحْذُو حَذْوَهُ فِي التَّأْلِيفِ كَمَا يَحْذُو البَنَّاءُ عَلَى القَالَبِ وَالنَّسَّاجُ عَلَى المِنْوالِ فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَآلِيفِ الكَلَامِ مُنْفَرِداً عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالبَيَانِيِّ وَالعَرُوضِيِّ نَعَمْ إِنَّ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هٰذِهِ العُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هٰذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الكَلَامِ اخْتُصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هٰذِهِ القَوَالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَالِيبَ وَلا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ العَرَبِ نَظْماً وَنَثْراً وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الأُسْلُوبِ مَا هُوَ فَلْنَذْكُرْ بَعْدَهُ حَدّاً أَوْ رَسْماً لِلشِّعْرِ بِهِ تَفْهَمُ حَقِيقَتَهُ عَلَى صُعُوبَةِ هٰذَا الغَرَضِ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ وَقَوْلُ العَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الكَلَامُ المَوْزُونُ المُقَفَّى لَيْسَ بِحَدٍّ لِهَذَا الشِّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَلا رَسْمٍ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشِّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ وَالوَزْنِ وَالقَوَالِبِ الخَاصَّةِ فَلا جَرَمَ إِنَّ حَدَّهُمْ ذٰلِكَ لا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هٰذِهِ الحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ أَلشِّعْرُ هُوَ الكَلَامُ البَلِيغُ المَبْنِيُّ عَلَى الاسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ المُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الوَزْنِ وَالرَّوِيِّ مُسْتَقِلٍّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصَدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ العَرَبِ المَخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الكَلَامُ البَلِيغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا المَبْنِيُّ عَلَى الاسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هٰذِهِ فَإِنَّهُ فِي الغَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَقَوْلُنَا المُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةِ الوَزْنِ وَالرَّوِيِّ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الكَلَامِ المَنْثُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ عِنْدَ الكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصَدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشِّعْرَ لا تَكُونُ أَبْيَاتُهُ إِلَّا كَذٰلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الجَارِي عَلَى الأَسَالِيبِ المَخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ العَرَبِ المَعْرُوفَةِ وَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لا يَكُونُ شِعْراً إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشِّعْرَ لَهُ أَسَالِيبُ تَخُصُّهُ لا تَكُونُ لِلمَنْثُورِ وَكَذَا أَسَالِيبُ المَنْثُورِ لا تَكُونُ لِلشِّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الكَلَامِ مَنْظُوماً وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الأَسَالِيبِ فَلا يَكُونُ شِعْراً وَبِهَذَا الاعْتِبَارِ كَانَ الكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ الأَدَبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ المُتَنَبِّي وَالمَعَرِّي لَيْسَ هُوَ مِنَ الشِّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى أَسَالِيبِ العَرَبِ مِنَ الأُمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشِّعْرَ يُوجَدُ لِلعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلا يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الجَارِي عَلَى الأَسَالِيبِ المَخْصُوصَةِ وَإِذْ قَدْ فَرَغْنَا مِنَ الكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشِّعْرِ فَلْنَرْجِعْ

إلى الكلام في كيفية عمله فنقول . إعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الأغاني لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام وربما قالوا إن من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضها ويبني الكلام عليها إلى آخره لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقة وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد

الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان المولد من ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر [1] بن خفاجة شاعر الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقصر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول وفي القليل على العثر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والإهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

(1) قوله ابى بكر وفي نسخة ابي اسحاق الخ

لَعَنَ اللَّهُ صَنْعَةَ الشِّعْرِ مَاذَا   مِنْ صُنُوفِ الْجُهَّالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا   كَانَ سَهْلًا لِلسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ الْمُحَالَ مَعْنًى صَحِيحًا   وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْ م رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمُ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُو م نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا الشِّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النَّظْمِ م وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا   وَأَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنًى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا   تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ   كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَأَنَّ الْأَلْفَاظَ مِنْهُ وُجُوهٌ   وَالْمَعَانِي رُكِّبْنَ فِيهَا عُيُونَا
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسْبَ الْأَمَانِي   يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمُنْشِدُونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشِّعْرِ حُرًّا   رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ الْمُشْتَهِينَا
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا   وَجَعَلْتَ الْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينَا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهَجَّنُ فِي السَّمْعِ م وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونَا
وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ بِهِجَاءٍ   عِبْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ الْمُرْقِبِينَا
فَجَعَلْتَ التَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً   وَجَعَلْتَ التَّعْرِيضَ دَاءً دَفِينَا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْغَا م دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَالظَّاعِنِينَا
حُلْتَ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّلْتَ مَا كَا م نَ مِنَ الدَّمْعِ فِي الْعُيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِبًا جِئْتَ بِالْوَعْدِ وَعِيدًا وَبِالصُّعُوبَةِ لِينَا
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ   حَذِرًا آمِنًا عَزِيزًا مَهِينَا
وَأَصَحُّ الْقَرِيضِ مَا قَارَبَ النَّظْمَ م وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ النَّاسَ طُرًّا   وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ الْمُعْجِزِينَا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم

أَلشِّعْرُ مَا قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ   وَشَدَدْتَ بِالتَّهْذِيبِ أُسَّ مُتُونِهِ
وَرَأَبْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ   وَفَتَحْتَ بِالْإِيجَازِ عُورَ عُيُونِهِ

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ   وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُجِمِّهِ وَمُعِينِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَاداً مَاجِداً   وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ بِتَنَفُّسٍ وَرَضِيتَهُ   وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزْلاً فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ   وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا   أَجْرَيْتَ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيبَةٍ   بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ   بِثُبُوتِهِ وَظُنُونَهُ بِيَقِينِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

إِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظْماً وَنَثْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَرْيُهُ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رَبِيَ عَلَيْهَا فِي جِيلِهِ وَيَفْرِضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ فِي جِيلِ الْعَرَبِ وَيُلَقَّنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلَقَّنُهَا الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ لِلِّسَانِ مَلَكَةً مِنَ الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا بِتَكْرَارِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ وَأَيْضاً فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى صِنَاعَةٍ وَتَأْلِيفُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُحْتَاجُ لِلصِّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِيَ الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ وَتَخْتَلِفُ الْجَوْدَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوَّةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ كَذَلِكَ جَوْدَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الِاسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ

وَلا يَسْتَطِيعُهُ لِفِقْدَانِ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَٱللهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون .

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَعَلى قَدَرِ جودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جودَةُ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنْهُ لِلْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ مَحْفُوظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوِ ٱلْعَتَابِيِّ أَوِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ أَوِ ٱبْنِ هَانِىءٍ أَو ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ٱبْنِ هَارُونَ أَوِ ٱبْنِ ٱلزَّيَّاتِ أَوِ ٱلْبَدِيعِ أَوِ ٱلصَّابِىءِ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلى مَقَاماً وَرُتْبَةً فِي ٱلْبَلاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ٱبْنِ سَهْلٍ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ أَوِ ٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ أَوْ تَرَسُّلَ ٱلْبَيْسَانِيِّ أَوِ ٱلْعِمَادِ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هؤُلاءِ عَنْ أُولئِكَ يَظْهَرُ ذلِكَ لِلْبَصِيرِ ٱلنَّاقِدِ صَاحِبِ ٱلذَّوْقِ وَعَلى مِقْدَارِ جُودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ أَوِ ٱلْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلِاسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ ٱلْمَلَكَةِ من بعْدِهِمَا فَبِٱرْتِقَاءِ ٱلْمَحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلامِ تَرْتَقِي ٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ لِأَنَّ ٱلطَّبْعَ إِنَّمَا يَنْسِجُ عَلى مِنْوَالِهَا وَتَنْمُو قُوى ٱلْمَلَكَةِ بِتَغْذِيَتِهَا وَذلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِبِلَّتِهَا وَاحِدَةً بِٱلنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلْبَشَرِ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ فِي ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱخْتِلافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱخْتِلافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْمَلَكَاتِ وَٱلْأَلْوَانِ ٱلَّتِي تُكَيِّفُهَا مِنْ خَارِجٍ فَبِهٰذِهِ يَتِمُّ وُجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلى ٱلْفِعْلِ صُورَتُهَا وَٱلْمَلَكَاتُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلى ٱلتَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَمَلَكَةُ ٱلْكِتَابَةِ بِحِفْظِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلتَّرْسِيلِ وَٱلْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْأَبْحَاثِ وَٱلْأَنْظَارِ وَٱلْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ ٱلْفُرُوعِ عَلى ٱلْأُصُولِ وَٱلتَّصَوُّفِيَّةُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ بِٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلظَّاهِرَةِ بِٱلْخَلْوَةِ وَٱلِانْفِرَادِ عَنِ ٱلْخَلْقِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ ٱلرُّجُوعِ إِلى حِسِّهِ ٱلْبَاطِنِ وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رَبَّانِيّاً وَكَذَا سَائِرُهَا وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ وَعَلى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ ٱلْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا فَمَلَكَةُ ٱلْبَلاغَةِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ ٱلْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلامِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ ٱلْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي ٱلْبَلاغَةِ وَمَا ذلِكَ إِلَّا لِمَا

يسبقُ إلى محفوظِهِم ويمتلئ به مِنَ القوانينِ العلميةِ والعباراتِ الفقهيةِ الخارجةِ عن أسلوبِ البلاغةِ والنازلةِ عنِ الطبقةِ لأنَّ العباراتِ عن القوانينِ والعلومِ لا حظَّ لها في البلاغةِ فإذا سبقَ ذلكَ المحفوظُ إلى الفكرِ وكثُرَ وتلوَّنت به النفسُ جاءتِ الملكةُ الناشئةُ عنهُ في غايةِ القصورِ وانحرفتْ عباراتُهُ عنْ أساليبِ العربِ في كلامِهِمْ وهكذا نجدُ شعرَ الفقهاءِ والنحاةِ والمتكلمينَ والنظّارِ وغيرِهِمْ ممّنْ لمْ يمتلئْ مِنْ حفظِ النقيِّ الحرِّ مِنْ كلامِ العربِ. أخبرَني صاحبُنا الفاضلُ أبو القاسمِ بنُ رضوانَ كاتبُ العلامةِ بالدولةِ المرينيةِ قالَ ذاكرتُ يوماً صاحبَنا أبا العباسِ بنَ شعيبٍ كاتبَ السلطانِ أبي الحسنِ وكانَ المقدَّمَ في البصرِ باللسانِ لعهدِهِ فأنشدتُهُ مطلعَ قصيدةِ ابنِ النحويِّ ولمْ أنسبْها لهُ وهوَ هذا

لمْ أدرِ حينَ وقفتُ بالأطلالِ ... ما الفرقُ بينَ جديدِها والبالي

فقالَ لي على البديهةِ هذا شعرُ فقيهٍ فقلتُ لهُ ومِنْ أينَ لكَ ذلكَ فقالَ مِنْ قولِهِ ما الفرقُ إذْ هيَ مِنْ عباراتِ الفقهاءِ وليستْ مِنْ أساليبِ كلامِ العربِ فقلتُ لهُ للهِ أبوكَ إنَّهُ ابنُ النحويِّ. وأمّا الكتّابُ والشعراءُ فليسوا كذلكَ لتخيُّرِهِمْ في محفوظِهِمْ ومخالطتِهِمْ كلامَ العربِ وأساليبَهُمْ في الترسُّلِ وانتقائِهِمْ لهُمُ الجيِّدَ مِنَ الكلامِ. ذاكرتُ يوماً صاحبَنا أبا عبدِ اللهِ بنَ الخطيبِ وزيرَ الملوكِ بالأندلسِ مِنْ بني الأحمرِ وكانَ الصدرَ المقدَّمَ في الشعرِ والكتابةِ فقلتُ لهُ أجدُ استصعاباً عليَّ في نظمِ الشعرِ متى رمتُهُ معَ بصري بهِ وحفظي للجيِّدِ مِنَ الكلامِ مِنَ القرآنِ والحديثِ وفنونٍ مِنْ كلامِ العربِ وإنْ كانَ محفوظي قليلاً وإنّما أتيتُ واللهُ أعلمُ مِنْ قِبَلِ ما حصلَ في حفظي مِنَ الأشعارِ العلميةِ والقوانينِ التأليفيةِ فإنّي حفظتُ قصيدتَيِ الشاطبيِّ الكبرى والصغرى في القراءاتِ وتدارستُ كتابَيِ ابنِ الحاجبِ في الفقهِ والأصولِ وجُمَلَ الخونجيِّ في المنطقِ وبعضَ كتابِ التسهيلِ وكثيراً مِنْ قوانينِ التعليمِ في المجالسِ فامتلأَ محفوظي مِنْ ذلكَ وخدشَ وجهَ الملكةِ التي استعددتُ لها بالمحفوظِ الجيِّدِ مِنَ القرآنِ والحديثِ وكلامِ العربِ فعاقَ القريحةَ عنْ بلوغِها فنظرَ إليَّ ساعةً معجباً ثمَّ قالَ للهِ أنتَ وهلْ يقولُ هذا إلّا مثلُكَ. ويظهرُ لكَ مِنْ هذا الفصلِ وما تقرَّرَ فيهِ سرٌّ آخرُ وهوَ إعطاءُ السببِ في أنَّ كلامَ الإسلاميينَ مِنَ العربِ أعلى طبقةً في البلاغةِ وأذواقِها

من كلامِ الجاهليَّةِ في منثورِهم ومنظومِهم فإنَّا نجدُ شعرَ حسَّانَ بنِ ثابتٍ وعمرَ بن أبي ربيعةَ والحطيئةِ وجريرٍ والفرزدقِ ونُصيبٍ وغيلانَ ذي الرّمّةِ والأحوصِ وبشّار ثمَّ كلامَ السَّلفِ منَ العربِ في الدَّولةِ الأمويَّةِ وصدراً منَ الدَّولةِ العبّاسيَّةِ في خطَبِهم وترسيلِهم ومحاوراتِهم للملوكِ أرفعَ طبقةً في البلاغةِ من شعرِ النّابغةِ وعنترةَ وابنِ كلثومٍ وزهيرٍ وعلقمةَ بنِ عبدةَ وطرفةَ بنِ العبدِ ومن كلامِ الجاهليَّةِ في منثورِهم ومحاوراتِهم والطَّبعُ السَّليمُ والذَّوقُ الصَّحيحُ شاهدانِ بذلكَ للنّاقدِ البصيرِ بالبلاغةِ والسَّبب في ذلكَ أنَّ هؤلاءِ الّذينَ أدركوا الإسلامَ سمعوا الطَّبقةَ العاليةَ منَ الكلامِ في القرآنِ والحديثِ اللّذينِ عجزَ البشرُ عنِ الإتيانِ بمثليهما لكونِها ولجتْ في قلوبِهم ونشأتْ على أساليبِها نفوسُهم فنهضتْ طباعُهم وارتقتْ ملكاتُهم في البلاغةِ على ملكاتِ من قبلَهم من أهلِ الجاهليّةِ ممّن لم يسمعْ هذهِ الطَّبقةَ ولا نشأَ عليها فكانَ كلامُهم في نظمِهم ونثرِهم أحسنَ ديباجةً وأصفى رونقاً من أولئكَ وأرصفَ مبنًى وأعدلَ تثقيفاً بما استفادوهُ منَ الكلامِ العالي الطَّبقةِ وتأمَّلْ ذلكَ يشهدْ لك به ذوقُكَ إنْ كنتَ من أهلِ الذَّوقِ والبصرِ بالبلاغةِ. ولقدْ سألتُ يوماً شيخَنا الشَّريفَ أبا القاسمِ قاضي غرناطةَ لعهدِنا وكانَ شيخَ هذهِ الصِّناعةِ أخذَ بسبتةَ عن جماعةٍ من مشيختِها منْ تلاميذِ الشّلوبينِ واستبحرَ في علمِ اللِّسانِ وجاءَ من وراءِ الغايةِ فيهِ فسألتُهُ يوماً ما بالُ العربِ الإسلاميّينَ أعلى طبقةً في البلاغةِ منَ الجاهليّينَ ولمْ يكنْ ليستنكرَ ذلكَ بذوقِهِ فسكتَ طويلاً ثمَّ قالَ لي واللهِ ما أدري فقلتُ أعرضُ عليكَ شيئاً ظهرَ لي في ذلكَ ولعلَّهُ السّببُ فيهِ وذكرتُ لهُ هذا الّذي كتبتُ فسكتَ معجباً ثمَّ قالَ لي يا فقيهُ هذا كلامٌ منْ حقِّهِ أنْ يكتبَ بالذَّهبِ وكانَ منْ بعدِها يؤثرُ محلّي ويصيخُ في مجالسِ التَّعليمِ إلى قولي ويشهدُ لي بالنَّباهةِ في العلومِ واللهُ خلقَ الإنسانَ وعلّمَهُ البيانَ .

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

إعلمْ أنَّ الشّعرَ كانَ ديواناً للعربِ فيهِ علومُهم وأخبارُهم وحكمُهم وكانَ رؤساءُ العربِ متنافسينَ فيهِ وكانوا يقفونَ بسوقِ عكاظَ لإنشادِهِ وعرضِ كلِّ واحدٍ منهم

دِيبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ ٱلشَّأْنِ وَأَهْلِ ٱلْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ حَتَّى ٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْمُنَاغَاةِ فِي تَعْلِيقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجِّهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ٱبْنُ حُجْرٍ وَٱلنَّابِغَةُ ٱلذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبَدَةَ وَٱلْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلسَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ الى تَعْلِيقِ ٱلشِّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَٰلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرَ عَلَى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمُعَلَّقَاتِ ثُمَّ ٱنْصَرَفَ ٱلْعَرَبُ عَنْ ذَٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلدِّينِ وَٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ فَأُخْرِسُوا عَنْ ذَٰلِكَ وَسَكَتُوا عَنِ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ زَمَانًا ثُمَّ ٱسْتَقَرَّ ذَٰلِكَ وَأُونِسَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْمِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ ٱلْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ ٱلشِّعْرِ وَحَظْرِهِ وَسَمِعَهُ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دَيْدَنِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرِ قُرَيْشٍ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ شِعْرَهُ عَلَى ٱبْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِٱسْتِمَاعِهِ مُعْجَبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَزِيزَةُ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمُ ٱلْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِحُونَهُمْ بِهَا وَيُجِيزُهُمُ ٱلْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ ٱلْجَوَائِزِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْجَوْدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصُونَ عَلَى ٱسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطَّلِعُونَ مِنْهَا عَلَى ٱلْآثَارِ وَٱلْأَخْبَارِ وَٱللُّغَةِ وَشَرَفِ ٱللِّسَانِ وَٱلْعَرَبُ يُطَالِبُونَ وُلْدَهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ يَزَلْ هَٰذَا ٱلشَّأْنُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ ٱلْعِقْدِ فِي مُسَامَرَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْأَصْمَعِيِّ فِي بَابِ ٱلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ تَجِدْ مَا كَانَ عَلَيْهِ ٱلرَّشِيدُ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِذَٰلِكَ وَٱلرُّسُوخِ فِيهِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱنْتِحَالِهِ وَٱلتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ ٱلْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ وَكَثْرَةِ مَحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ ٱللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ ٱلْعُجْمَةِ وَتَقْصِيرِهَا بِٱللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَرَاءَ ٱلْعَجَمِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ ٱللِّسَانُ لَهُمْ طَالِبِينَ مَعْرُوفَهُمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَٱبْنُ هَانِئٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْكَذِبُ وَٱلِٱسْتِجْدَاءُ لِذَهَابِ ٱلْمَنَافِعِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلْأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا وَأَنِفَ مِنْهُ لِذَٰلِكَ أَهْلُ ٱلْهِمَمِ وَٱلْمَرَاتِبِ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغَيَّرَ ٱلْحَالُ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَمَذَمَّةً لِأَهْلِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْكَبِيرَةِ وَٱللَّهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ .

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

إعلم أنَّ الشِّعرَ لا يختصُّ باللسانِ العربيِّ فقط بل هو موجودٌ في كلِّ لغةٍ سواءٌ كانت عربيَّةً أو عجميَّةً وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حِمْيَر أيضاً شعراء متقدِّمون ولمَّا فسد لسانُ مضر ولغتهم التي دوِّنت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغاتُ من بعدُ بحسب ماخالطها ومازجها من العجمة فكانت تجيل العربُ بأنفسهم لغةً خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملةً وفي كثيرٍ من الموضوعات اللغويَّة وبناء الكلمات وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغةٌ أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلأهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ثمَّ لمَّا كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كلِّ لسانٍ لأنَّ الموازين على نسبةٍ واحدةٍ في أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودةٌ في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغةٍ واحدةٍ وهي لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليقة بل كلُّ جيلٍ وأهل كلِّ لغةٍ من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم فأمَّا العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطوَّلات مشتملةً على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فنٍّ إلى فنٍّ في الكلام وربَّما هجموا على المقصود لأوَّل كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثمَّ بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمُّون هذه القصائد بالأصمعيَّات نسبةً إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمُّون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربَّما يلحنون فيه ألحاناً بسيطةً لا على طريقة الصناعة الموسيقيَّة ثمَّ

يغنّون به ويسمّون الغناء به باسم الحورانيّ نسبةً إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد. ولهم فنٌّ آخر كثير التّداول في نظمهم يجيئون به معصّباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويّه ويلتزمون القافية الرّابعة في كلّ بيتٍ إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربّع والمخمّس الّذي أحدثه المتأخّرون من المولّدين ولهؤلاء العرب في هذا الشّعر بلاغةٌ فائقةٌ وفيهم الفحول والمتأخّرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللّسان يستنكر صاحبها هذه الفنون الّتي لهم إذا سمعها ويمجّ نظمهم إذا أنشد ويعتقد أنّ ذوقه إنّما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها وهذا إنّما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكةٌ من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره وإلّا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنّما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواءٌ كان الرّفع دالّاً على الفاعل والنّصب دالّاً على المفعول أو بالعكس وإنّما يدلّ على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدّلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاحٌ في ملكةٍ واشتهر صحّت الدّلالة وإذا طابقت تلك الدّلالة المقصود ومقتضى الحال صحّت البلاغة ولا عبرة بقوانين النّحاة في ذلك وأساليب الشّعر وفنونه موجودةٌ في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإنّ غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميّز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب.

(الموشحات والازجال للاندلس)

وأمّا أهل الأندلس فلمّا كثر الشّعر في قطرهم وتهذّبت مناحيه وفنونه وبلغ التّنميق فيه الغاية استحدث المتأخّرون منهم فنّاً منه سمّوه بالموشّح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمّون المتعدّد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبياتٍ ويشتمل كلّ بيتٍ على أغصانٍ عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا

في ذلكَ إلى الغايةِ وَاستطرفهُ النَّاسُ جملةَ الخاصةُ وَالكافةُ لِسهولةِ تناولِهِ وَقربِ طريقِهِ وَكانَ المُختَرِعُ لَها بجزيرةِ الأندلسِ مُقدَّمَ بنُ معافرٍ الفريريِّ مِن شُعراءِ الأميرِ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ المروانيِّ وَأخذَ ذلكَ عنهُ أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ عبدِ ربِّهِ صاحبُ كتابِ العِقدِ وَلمْ يظهرْ لَهما مَعَ المتأخرينَ ذِكرٌ وَكسدتْ مُوشحاتُهما فكانَ أوَّلَ منْ برعَ في هذا الشأنِ عبادةُ القزَّازُ شاعرُ المُعتصمِ ابنِ صُمادحٍ صاحبِ المريَّةِ

بدرُ تمّ . شمسُ ضحا غصنُ نقا . مسكُ شمّ

ما اتمّ ما اوضحـا مـا اورقا . ما انمّ

لا جرم . من لمحـا قد عشقا . قد حُرِمْ

وَزعموا أنهُ لمْ يسبقْهُ وَشَّاحٌ مِنْ مُعاصريهِ الَّذينَ كانُوا في زمنِ الطَّوائفِ

وَذكرَ غيرُ وَاحدٍ مِنَ المشايخِ أنَّ أهلَ هذا الشَّأنِ بالأندلسِ يذكُرونَ أنَّ جماعةً مِنَ الوشَّاحينَ اجتمعُوا في مجلسٍ بأشبيليةَ وَكانَ كلُّ واحدٍ منهُمُ اصطنعَ مُوشَّحةً وَتأنَّقَ فيها فتقدَّمَ الأعمى الطُّليطليُّ للإنشادِ فلمَّا افتتحَ مُوشَّحتَهُ المشهُورةَ بقولِهِ

ضَاحِكٌ عنْ جُمانٍ . سافِرٌ عنْ دُرّ ضاقَ عنهُ الزَّمانُ . وَحواهُ صدري

صرفَ ابنُ بقيٍّ مُوشَّحتَهُ وَتبعهُ الباقونَ وَذكرَ الأعلمُ البطليوسيُّ أنَّهُ سمعَ ابنَ زُهيرٍ يقولُ ما حسدتُ قطُّ وَشَّاحاً على قولٍ إلَّا ابنُ بقيٍّ حينَ وقعَ لهُ

أما ترَى أحمدَ في مجدِهِ العالي لا يُلحَق أطلعَهُ الغربُ فأرنا مثلَهُ يا مشرقُ

وَكانَ في عصرِهما مِنَ المُوشِّحينَ المطبُوعينَ أبو بكرٍ الأبيضُ وَكانَ في عصرِهما أيضاً الحكيمُ أبو بكرٍ بنُ باجةَ صاحبُ التَّلاحينِ المعرُوفةِ وَمِنَ الحكاياتِ المشهُورةِ أنَّهُ حضرَ مجلسَ مخدُومهِ ابنِ تيفلويتَ صاحبِ سرقسطةَ فألقى على بعضِ قيناتِهِ مُوشَّحتَهُ

جرِّرِ الذَّيلَ أيَّما جرِّ وَصلِ الشُّكرَ منكَ بالشُّكرِ

فطربَ الممدُوحُ لذلكَ لمَّا ختمَها بقولِهِ

عقدَ اللهُ رايةَ النَّصرِ لأميرِ العُلا أبي بكرِ

فلمَّا طرقَ ذلكَ التَّلحينُ سمعَ ابنِ تيفلويتَ صاحَ وَاطرباهُ وَشقَّ ثيابهُ وَقالَ ما أحسنَ ما بدأتَ وَختمتَ وَحلفَ بالأيمانِ المُغلَّظةِ لا يمشي ابنُ باجةَ إلى دارِهِ إلَّا على الذهبِ فخافَ الحكيمُ سوءَ العاقبةِ فاحتالَ بأنْ جعلَ ذهباً في نعلِهِ وَمشى عليهِ

وَذَكَرَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ بْنُ زُهْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْيَضِ ٱلْوَشَّاحِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ٱلذِّكْرِ فَغَضَّ مِنْهُ بَعْضُ ٱلْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَغُضُّ مِمَّنْ يَقُولُ

ما لَذَّ لِي شُرَابُ رَاحٍ « عَلَى رِيَاضِ ٱلْأَقَاحِ لَوْلَا هَضِيمُ ٱلْوِشَاحِ » إِذَا أَسَا فِي ٱلصَّبَاحِ

أَوْ فِي ٱلْأَصِيلِ . أَضْحَى يَقُولُ مَا لِلشَّمُولِ . لَطَمَتْ خَدِّي

وَلِلشَّمَالِ « هَبَّتْ فَمَالَ غُصْنُ ٱعْتِدَالِ » ضَمَّهُ بُرْدِي

مِمَّا أَبَادَ ٱلْقُلُوبَا « يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا يَا لَحْظَهُ رُدَّ نُوبَا . وَيَا لَمَاهُ ٱلشَّنِيبَا

بَرِّدْ غَلِيلْ « صَبٍّ عَلِيلْ لَا يَسْتَحِيلْ » فِيهِ عَنْ عَهْدِي

وَلَا يَزَالْ « فِي كُلِّ حَالْ يَرْجُو ٱلْوِصَالْ » وَهْوَ فِي ٱلصَّدِّ

وَٱشْتَهَرَ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هٰذَا ٱلِٱفْتِتَاحِ

شَمْسٌ قارنت بدراً راحٌ ونديمْ

وابن بهرودس الذي لهُ يا ليلة الوصل والسعودِ بالله عودي

وَٱبْنُ مُوَهَّلٍ ٱلَّذِي لَهُ . مَا ٱلْعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٍّ وَطِيبْ . وَإِنَّمَا ٱلْعِيدُ فِي ٱلتَّلَاقِي . مَعَ ٱلْحَبِيبْ . وَأَبُو إِسْحَاقَ ٱلرُّوَيْنِيُّ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا ٱلْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ٱبْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ ٱلْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحِصْنِ سَبْتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ ٱنْتَهَى بِهِ ٱلْمَجْلِسُ وَجَرَتِ ٱلْمُحَاضَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوَشَّحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ ٱلدُّجَى يَجْرِي مِنْ مُقْلَةِ ٱلْفَجْرِ « عَلَى ٱلصَّبَاحِ

وَمِعْصَمُ ٱلنَّهْرِ » فِي حُلَلٍ خُضْرٍ . مِنَ ٱلْبِطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ٱبْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هٰذَا قَالَ ٱخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَّفَهُ فَقَالَ ٱرْتَفِعْ فَوَٱللّٰهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّذِي أَدْرَكَ هٰؤُلَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَّقَتْ مُوَشَّحَاتُهُ وَغَرَّبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا ٱلْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِٱبْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي ٱلتَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

ما لِلْمُوَلَّهِ من سكرهِ لا يُفيقْ . يا لهُ سكران . من غير خمر . ما للكئيب المشوق . يندب الاوطان

هل تستعادْ . ايامُنا بالخليجْ . ولياليناْ

او نستفادْ . من النسيم الاريجْ . مِسْكَ دارينا

وادٍ يكادُ. حُسنُ المكانِ البهيجِ. ان يُحَيِّيَا

نهرٌ اظلّه. دوحٌ عليهِ أنيق. مورقٌ فينان. وَالْماءُ يَجْرِي . وعائمٌ وغريق. مِنْ جَنَى الرَّيحان

وَمِنْ مَحَاسِنِ ٱلْمُوَشَّحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مُوَشَّحَةُ ٱبْنِ سَهْلٍ شَاعِرِ أَشْبِيلِيَةَ وَسَبْتَةَ مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرَى ظَبْيُ ٱلْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى   قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنَسِ
فَهْوَ فِي نَارٍ وَخَفْقٍ مِثْلَ مَا   لَعِبَتْ رِيحُ ٱلصَّبَا بِٱلْقَبَسِ

وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا ٱلْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ شَاعِرُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ ٱلْغَيْثُ إِذَا ٱلْغَيْثُ هَمَى   يَا زَمَانَ ٱلْوَصْلِ بِٱلْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمَا   فِي ٱلْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ ٱلْمُخْتَلِسِ
إِذْ يَقُودُ ٱلدَّهْرُ أَشْتَاتَ ٱلْمُنَى   يَنْقُلُ ٱلْخَطْوَ عَلَى مَا يَرْسُمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا   مِثْلَ مَا يَدْعُو ٱلْوُفُودَ ٱلْمَوْسِمُ
وَٱلْحَيَا قَدْ جَلَّلَ ٱلرَّوْضَ سَنَى   فَثُغُورُ ٱلزَّهْرِ فِيهِ تَبْسِمُ
وَرَوَى ٱلنُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ ٱلسَّمَا   كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ
فَكَسَاهُ ٱلْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمَا   يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ ٱلْهَوَى   بِٱلدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ ٱلْغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ ٱلْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى   مُسْتَقِيمَ ٱلسَّيْرِ سَعْدَ ٱلْأَثَرِ
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى   أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
حِينَ لَذَّ ٱلنَّوْمُ مِنَّا أَوْ كَمَا   هَجَمَ ٱلصُّبْحُ هُجُومَ ٱلْحَرَسِ
غَارَتِ ٱلشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا   أَثَّرَتْ فِينَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ
أَيُّ شَيْءٍ لِٱمْرِئٍ قَدْ خَلَصَا   فَيَكُونُ ٱلرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ
تَنْهَبُ ٱلْأَزْهَارُ فِيهِ ٱلْفُرَصَا   أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
فَإِذَا ٱلْمَاءُ يُنَاجِي وَٱلْحَصَى   وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
تُبْصِرُ ٱلْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا   يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وَتَرَى ٱلْآسَ لَبِيبًا فَهِمَا   يَسْرِقُ ٱلسَّمْعَ بِأُذْنَيْ فَرَسِ

يَا أُهَيْلَ ٱلْحَيِّ مِنْ وَادِي ٱلْغَضَا — وَبِقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ ٱلْفَضَا — لَا أُبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى — تُنْقِذُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا — يَتَلَاشَى نَفَسًا فِي نَفَسٍ
حَبَسَ ٱلْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا — أَفَتَرْضَوْنَ خَرَابَ ٱلْحَبَسِ
وَبِقَلْبِي مِنْكُمُ مُقْتَرِبُ — بِأَحَادِيثِ ٱلْمُنَى وَهْوَ بَعِيدْ
قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ ٱلْمَغْرِبُ — شَقْوَةَ ٱلْمُغْرَى بِهِ وَهْوَ سَعِيدْ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ — فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدْ
سَاحِرُ ٱلْمُقْلَةِ مَعْسُولُ ٱللَّمَى — جَالَ فِي ٱلنَّفْسِ مَجَالَ ٱلنَّفَسِ
سَدَّدَ ٱلسَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى — بِفُؤَادِي نَبْلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ ٱلْأَمَلُ — وَفُؤَادُ ٱلصَّبِّ بِٱلشَّوْقِ يَذُوبْ
فَهْوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ — لَيْسَ فِي ٱلْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ — فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبْ
حَكَمَ ٱللَّحْظُ بِهَا فَٱحْتَكَمَا — لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ ٱلْأَنْفُسِ
يُنْصِفُ ٱلْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا — وَيُجَازِي ٱلْبَرَّ مِنْهَا وَٱلْمُسِي
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا — عَادَهُ عِيدٌ مِنَ ٱلشَّوْقِ جَدِيدْ
كَانَ فِي ٱللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا — قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدْ
جَلَبَ ٱلْهَمَّ لَهُ وَٱلْوَصَبَا — فَهْوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدْ
لَاعِجٌ فِي أَضْلُعِي قَدْ أُضْرِمَا — فَهْيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ ٱلْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا ٱلدِّمَا — كَبَقَاءِ ٱلصُّبْحِ بَعْدَ ٱلْغَلَسِ
سَلِّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ ٱلْقَضَا — وَٱعْبُرِي ٱلْوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابْ
وَٱتْرُكِي ذِكْرَى زَمَانٍ قَدْ مَضَى — بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعِتَابْ
وَٱصْرِفِي ٱلْقَوْلَ إِلَى ٱلْمَوْلَى ٱلرِّضَى — مُلْهَمِ ٱلتَّوْفِيقِ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابْ
ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُنْتَهَى وَٱلْمُنْتَمَى — أَسَدِ ٱلسَّرْجِ وَبَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا — يَنْزِلُ ٱلْوَحْيُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ ٱللُّغَةَ وَكَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحَصِّلَ مَلَكَتَهَا كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَلَا ٱلْأَنْدَلُسِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَا ٱلْمَغْرِبِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلَا ٱلْمَشْرِقِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ ٱللِّسَانَ ٱلْحَضَرِيَّ وَتَرَاكِيبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ لِمَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلْقَوْلِ فِي هَذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدِ ٱسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ ٱللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مُبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ ٱلْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضِعِ ٱلْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يُتَكَلَّمُ فِيهِ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ ٱلْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تاريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم.

فهرست

مُقَدِّمَة

العلامة ابن خلدون

« فهرست مقدمة ابن خلدون »

صفحة

٩ (المقدمة)
في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها

٣٥ (الكتاب الاول)
في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب .
(وفيه ستة أبواب)

٤١ الباب الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات
المقدمة الاولى في ان الاجتماع الانساني ضروري

٤٤ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم

٤٩ تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

صفحة

٥٢ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

٥٣ الاقليم الاول

٥٧ الاقليم الثاني

٥٩ الاقليم الثالث

٦٥ الاقليم الرابع

٧١ الاقليم الخامس

٧٧ الاقليم السادس

٨٠ الاقليم السابع

٨٢ المقدمة الثالثة في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم

٨٦ المقدمة الرابعة في أثر الهواء في اخلاق البشر

٨٧ المقدمة الخامسة في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

٩١ المقدمة السادسة في أصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

٩٥ حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب

١٢٠ الباب الثاني من الكتاب الاول

صفحة

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

١٢٠ الفصل الاول في ان أجيال البدو والحضر طبيعية

١٢١ الثاني في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

١٢٢ الفصل الثاني في أن البدو من الحضر وسابق عليه وان البادية اقدم اصل العمران والامصار مدد لها

١٢٣ الفصل الرابع في ان اصل البدو أقرب الى الخير من اهل الحضر

١٢٥ الفصل الخامس في أن اصل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر
الفصل السادس في أن معاناة أهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

١٢٧ الفصل السابع في ان سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل اهل العصبية

١٢٨ الفصل الثامن في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

١٢٩ الفصل التاسع في أن الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

صفحة

١٣٠ الفصل العاشر في اختلاط الانساب كيف يقع

١٣١ الفصل الحادي عشر في أن الرياسة لاتزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

١٣٢ الفصل الثاني عشر في ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

١٣٤ الفصل الثالث عشر في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه .

١٣٥ الفصل الرابع عشر في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بأنسابهم

١٣٦ الفصل الخامس عشر في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

١٣٨ الفصل السادس عشر في أن الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

١٣٩ الفصل السابع عشر في أن الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

١٤٠ الفصل الثامن عشر في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل

صفحة

في النعيم

١٤١ الفصل التاسع عشر في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

١٤٢ الفصل العشرون في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

١٤٥ الفصل الحادى والعشرون في انه إذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع

الفصل الثاني والعشرون في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

١٤٧ الفصل الثالث والعشرون في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

١٤٨ الفصل الرابع والعشرون في أن الامة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء

١٤٩ الفصل الخامس والعشرون في أن العرب لا يتغلبون الا على البسائط

... الفصل السادس والعشرون في ان العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب

صفحة

١٥١ الفصل السابع والعشرون في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

الفصل الثامن والعشرون في أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك

١٥٣ الفصل التاسع والعشرون في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

١٥٤ الباب الثالث من الكتاب الاول في الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمات

الفصل الاول في أن الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

الفصل الثاني في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

١٥٦ الفصل الثالث في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

١٥٧ الفصل الرابع فى أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

١٥٨ الفصل الخامس في أن الدعوة

صفحة

الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها
١٥٩ الفصل السادس في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
١٦١ الفصل السابع في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها
١٦٣ الفصل الثامن في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة
١٦٤ الفصل التاسع في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة
١٦٦ الفصل العاشر في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد
١٦٧ الفصل الحادي عشر في ان من طبيعة الملك الترف
... الفصل الثاني عشر في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون
١٦٨ الفصل الثالث عشر في انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم
١٧٠ الفصل الرابع عشر في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

صفحة

١٧٢ الفصل الخامس عشر في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة
١٧٤ الفصل السادس عشر في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها
١٧٥ الفصل السابع عشر في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار
١٧٧ الفصل الثامن عشر في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها
١٨٣ الفصل التاسع عشر في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين
١٨٤ الفصل العشرون في احوال الموالي والمصطنعين في الدول
١٨٥ الفصل الحادي والعشرون فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه
١٨٦ الفصل الثاني والعشرون في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك
١٨٧ الفصل الثالث والعشرون في حقيقة الملك واصنافه
١٨٨ الفصل الرابع والعشرون في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر
١٩٠ الفصل الخامس والعشرون في معنى

صفحة

الخلافة والامامة

١٩١ الفصل السادس والعشرون في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

١٩٦ الفصل السابع والعشرون في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

٢٠٣ الفصل الثامن والعشرون في انقلاب الخلافة الى الملك

٢٠٩ الفصل التاسع والعشرون في معنى البيعة

٢١٠ الفصل الثلاثون في ولاية العهد

٢١٨ الفصل الحادي والثلاثون في الخطط الدينية الخلافية

٢٢٧ الفصل الثاني والثلاثون في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

٢٣٠ الفصل الثالث والثلاثون في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

٢٣٥ الفصل الرابع والثلاثون في مراتب الملك والسلطان والقابها

٢٤٣ ديوان الاعمال والجبايات

٢٤٦ ديوان الرسائل والكتابة

٢٥٢ قيادة الاساطيل (وهي سفائن الحرب)

٢٥٧ الفصل الخامس والثلاثون في

صفحة

التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

٢٥٧ الفصل السادس والثلاثون في شارات الملك والسلطان الخاصة به

٢٦٠ السرير والمنبر والتخت والكرسي

٢٦١ السكة

٢٦٤ الخاتم

٢٦٦ الطراز

٢٦٨ الفساطيط والسياج

٢٦٩ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

٢٧٠ الفصل السابع والثلاثون في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها

٢٧٩ الفصل الثامن والثلاثون في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

٢٨٠ الفصل التاسع والثلاثون في ضرب المكوس اواخر الدولة

٢٨١ الفصل الاربعون في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

٣٨٣ الفصل الواحد والاربعون في ان ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

٣٨٦ الفصل الثاني والاربعون في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

٠٠٠ الفصل الثالث والاربعون في ان

صفحة

الظلم مؤذن بخراب العمران

٢٩٠ الفصل الرابع والاربعون في ان الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

٢٩٢ الفصل الخامس والاربعون في ان انقسام الدولة الواحدة بدولتين

٢٩٣ الفصل السادس والاربعون في ان الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

٢٩٤ الفصل السابع والاربعون في كيفية طروق الخلل للدولة

٢٩٧ الفصل الثامن والاربعون في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

الفصل التاسع والاربعون في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

٣٠١ الفصل الخمسون في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

٣٠٢ الفصل الحادي والخمسون في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

٣١١ الفصل الثاني والخمسون في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

٣٢٠ الفصل الثالث والخمسون في ابتداء

صفحة

الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

٣٤٢ الباب الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول في ان الدول أقدم من المدن والامصار وانها إنما توجد ثانية عن الملك

٣٤٤ الفصل الثاني في أن الملك يدعو إلى نزول الامصار

الفصل الثالث في أن المدن العظيمة والهيا كل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

٣٤٦ الفصل الرابع في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

٣٤٧ الفصل الخامس فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المرعاة

٣٤٩ الفصل السادس في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

٣٥٧ الفصل السابع في أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة

٣٥٨ الفصل الثامن في أن المباني والمصانع

صفحة

في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

٣٥٩ الفصل التاسع في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب في الاقل

الفصل العاشر في مبادىء الخراب في الامصار

٣٦٠ الفصل الحادي عشر في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

٣٦٢ الفصل الثاني عشر في اسعار المدن

٣٦٤ الفصل الثالث عشر في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

٣٠٥ الفصل الرابع عشر في أن الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

٣٦٧ الفصل الخامس عشر في تأثل العقار والضياع في الامصار وفوائدها ومستغلاتها

٣٦٨ الفصل السادس عشر في حاجات المتمولين من أهل الامصار إلى الجاه والمدافعة

الفصل السابع عشر في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

صفحة

٣٧١ الفصل الثامن عشر في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

٣٧٤ الفصل التاسع عشر في أن الامصار التي تكون كرامي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

٣٧٦ الفصل العشرون في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون البعض

٣٧٧ الفصل الحادي والعشرون في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

٣٧٩ الفصل الثاني والعشرون في لغات أهل الامصار

٣٨٠ الباب الخامس من الكتاب الاول في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول في حقيقة الرزق والكسب وشرحها وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

٣٨٢ الفصل الثاني في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

صفحة

٣٨٣ الفصل الثالث في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي
٣٨٤ الفصل الرابع في ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي
٣٨٩ الفصل الخامس في الجاه مفيد للمال
٣٩٠ الفصل السادس في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة
٣٩٣ الفصل السابع في أن القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب
٣٩٤ الفصل الثامن في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو
الفصل التاسع في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها
٣٩٥ الفصل العاشر في أي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها
الفصل الحادي عشر في أن خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

صفحة

٣٩٦ الفصل الثاني عشر في نقل التاجر للسلع
٣٩٧ الفصل الثالث عشر في الاحتكار
٣٩٨ الفصل الرابع عشر في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخيص
٣٩٩ الفصل الخامس عشر أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة
الفصل السادس عشر في ان الصنائع لا بد لها من العلم
٤٠٠ الفصل السابع عشر في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته
٤٠١ الفصل الثامن عشر في أن رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها
٤٠٣ الفصل التاسع عشر في ان الصنائع انما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها
الفصل العشرون في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع
٤٠٤ الفصل الحادي والعشرون في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع
٤٠٥ الفصل الثاني والعشرون فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان

صفحة

يجيد بعدها ملكة أخرى
٤٠٥ الفصل الثالث والعشرون في الاشارة الى امهات الصنائع
٤٠٦ الفصل الثالث والعشرون في صناعة الفلاحة
الفصل الخامس والعشرون في صناعة البناء
٤١٠ الفصل السادس والعشرون في صناعة النجار
٤١١ الفصل السابع والعشرون في صناعة الحياكة والخياطة
٤١٢ الفصل الثامن والعشرون في صناعة التوكيد
٤١٥ الفصل التاسع والعشرون في صناعة الطب وانها يحتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية
٤١٧ الفصل الثلاثون في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية
٤٢١ الفصل الحادي والثلاثون في صناعة الوراقة
٤٢٣ الفصل الثاني والثلاثون في صناعة الغناء
٤٢٨ الفصل الثالث والثلاثون في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصاً الكتابة والحساب

صفحة

٤٢٩ الباب السادس من الكتاب الاول في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولو أحق
الفصل الاول في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري
٤٣٠ الفصل الثاني في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع
٤٣٤ الفصل الثالث في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة
٤٣٥ الفصل الرابع فى اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد
٤٣٧ الفصل الخامس في علوم القرآن من التفسير والقراآت
٤٤٠ الفصل السادس في علوم الحديث
٤٤٥ الفصل السابع في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض
٤٥١ الفصل الثامن في علم الفرائض
٤٥٢ الفصل التاسع في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات
٤٥٨ الفصل العاشر في علم الكلام
٤٦٧ الفصل الحادي عشر في علم التصوف
٤٧٥ الفصل الثاني عشر في علم تعبير الرؤيا
٤٨٧ الفصل الثالث عشر في العلوم

صحيفة

العقلية وأصنافها

٤٨٢ الفصل الرابع عشر في العلوم العددية

٤٧٥ الفصل الخامس عشر في العلوم الهندسية

٤٧٧ الفصل السادس عشر في علم الهيئة

٤٨٩ الفصل السابع عشر في علم المنطق

٤٩٢ الفصل الثامن عشر في علم الطبيعيات

٤٩٣ الفصل التاسع عشر في علم الطب

٤٩٤ الفصل العشرون في الفلاحة

٤٩٥ الفصل الحادي والعشرون في علم الآلهيات

٤٩٦ الفصل الثاني والعشرون في علوم السحر والطلسمات

٥٠٤ الفصل الثالث والعشرون في علم الكيمياء

٥١٤ الفصل الرابع والعشرون في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

٥١٩ الفصل الخامس والعشرون في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

٥٢٤ الفصل السادس والعشرون في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

٥٣١ الفصل السابع والعشرون في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

صحيفة

٥٣٢ الفصل الثامن والعشرون في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

٥٣٣ الفصل التاسع والعشرون في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

٥٣٦ الفصل الثلاثون في ان العلوم الالهية توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

٥٣٧ الفصل الواحد والثلاثون في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

٥٤٠ الفصل الثاني والثلاثون في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

٥٤١ الفصل الثالث والثلاثون في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم

٥٤٢ الفصل الرابع والثلاثون في ان العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

٥٤٣ الفصل الخامس والثلاثون في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

٥٤٥ الفصل السادس والثلاثون في علوم اللسان العربي

٥٤٦ علم النحو

٥٤٨ علم اللغة

صحيفة

٥٥٠ علم البيان

٥٥٣ علم الادب

٥٥٤ الفصل السابع والثلاثون في ان اللغة ملكة صناعية

٥٥٥ الفصل الثامن والثلاثون في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

٥٥٨ الفصل التاسع والثلاثون في ان لغة اهل الحضر والامصار قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

٥٥٩ الفصل الاربعون في تعليم اللسان المضري

٥٦٠ الفصل الحادي والاربعون في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

٥٦٢ الفصل الثاني والاربعون في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

٥٦٤ للفصل الثالث والاربعون في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب واعسر

صحيفة

٥٦٦ الفصل الرابع والاربعون في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

٥٦٨ الفصل الخامس والاربعون في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للاقل

٥٦٩ الفصل السادس والاربعون في صناعة الشعر ووجه تعلمه

٥٧٧ الفصل السابع والاربعون في أن صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني .

٥٧٨ الفصل الثامن والاربعون في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

٥٨٠ الفصل التاسع والاربعون في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

٥٨٢ الفصل الخمسون في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

٥٨٣ الموشحات والازجال للاندلس

تمت الفهرست

Bibliotheca Alexandrina
04429465

مطبعة الكشاف بيروت